الرحيق المختوم

بحث في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام

تأليف
فضيلة الشيخ
صفي الرحمن المباركفوري

الطبعة الشرعية
منقحة مع إضافات جديدة

دار ابن الجوزي

الرحيق المختوم

بحث في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام

دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:
الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان
ت: ٠١٣٨٤٢٨١٤٦ - ٠١٣٨٤٦٧٥٩٣
٠١٣٨٤١٢١٠٠
ص ب. واصل: ٨١١٤
الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦
الرقم الإضافي : ٤٩٧٣
الرياض - ت: ٠٥٩٢٦٦٢٤٩٥
جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الأحساء - ت: ٠١٣٥٨٨٣١٢٢
جدة - ت: ٠١٢٦٠١٠٠٦٣
جوّال: ٠٥٨٣٠١٧٩٥١

لبنان:
بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠
فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:
القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠
جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

aljawzi@hotmail.com
+966503897671
aljawzi
eljawzi
ibnaljawzi.com

ح **دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤١هـ**
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
المباركفوري، صفي الرحمن
الرحيق المختوم بحث في السيرة النبوية . / صفي الرحمن المباركفوري . - الدمام، ١٤٤١هـ
٥١٩ص؛ ١٧×٢٤سم
ردمك: ٤ - ٣٧ - ٨٢٩٨ - ٦٠٣ - ٩٧٨
١ - السيرة النبوية أ. العنوان
ديوي ٢٣٩ ١٤٤١/١١٧٨٤

جَمِيعُ الحُقُوقِ مَحفُوظَةٌ

الإصدار الثاني
الطبعة الرابعة لدار ابن الجوزي
١٤٤٤هـ

طبعة منقحة ومصححة
مع إضافات جديدة

الباركود الدولي: 9786038298374

حقوق الطبع محفوظة © ١٤٤٤هـ، لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - ج.م.ع - المنصورة
الوفاء للطباعة والنشر
الإدارة: ش الإمام محمد عبده الماجه لكلية الآداب ص.ب ٢٣٠
ت: ٣٤٢٧٢١ / ٣٥٦٢٢٠ / ٣٥٦٢٣٠ فاكس ٣٥٩٧٧٨
المكتبة: أمام كلية الطب ت ٣٤٧٤٢٣

الرحيق المختوم

بحث في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام

تأليف
فضيلة الشيخ
صفي الرحمن المباركفوري

الطبعة الشرعية
منقحة مع إضافات جديدة

دار الوفاء
دار ابن الجوزي

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر

ستظل سيرة الرسول ﷺ هى الرصيد التاريخى الأول الذى تستمد منه الأجيال المتلاحقة من ورثة النبوة وحملة مشاعل العقيدة زاد مسيرها، وعناصر بقائها، وأصول امتدادها.

ومن دَرَس تاريخه ﷺ وأعطاه حقه من النظر والفكر والتحقيق رأى، نَسَقا من التاريخ العجيب، استعلى به الرسول ﷺ والفئة المؤمنة معه على عناصر المادة وعوامل الجذب الأرضى، وارتقوا بالإنسانية إلى درجات لم تشهدها على امتداد عصورها وأزمانها.

ومن يُعَمِّق النظر فى سيرته ﷺ ، محاولا أن يتتبع السر الذى وقع فى التاريخ القَفْر المُجْدب فأخصب به، وأنبتت الدنيا أزهاره الإنسانية الجميلة، فأنشأ ﷺ رجالا، إن عنّتَهم بشيء لم تعبهم إلا أنهم دون الملائكة، يجدها تقول له: إن هاهنا دنيا الصحراء، التى تَربى فى أحضانها الرجال الذين دخلوا بالإسلام على ما دخل عليه الليل. ولو تأملت فى أفعاله ﷺ وجدتها تقول لك: إنى أصنع أمة لها تاريخ الأرض من بعد.

ولم يكن مثله ﷺ فى الصبر على البلاء والثبات على الحق واستقرار النفس واطمئنانها على زلازل الدنيا، ولا فى الرحمة ورقة القلب والسمو فوق معانى البقاء الأرضى، فهو قد خلق كذلك ليغلب الحوادث ويتسلط على المادة.

وبذلك كان ﷺ منبع تاريخ فى الإنسانية كلها دائمًا، وللدنيا رأْسَ نظام أفكارها الصحيحة.

ولقد طبع الله سبحانه وتعالى على قلب الرسول ﷺ ، فباعد بينه وبين زيغ الهوى وسَرَف الطبيعة؛ ولذلك يجب على من يقرأ سيرته ﷺ ويتعرف على شمائله وحديثه أن يبحث دائما عن طابع الله فى كل شيء فيها، وسيظهر له من تفسيرها أن الدنيا لم تستطع أن تحقق غايتها الأخلاقية العليا إلا فيها، وأنه ﷺ كان إنسانًا، وكان أيضًا حركة فى تقدم الإنسانية، وأن من معجزاته ﷺ أنه أضاف فى تاريخه ما عجزت عنه البشرية فى تاريخها، وأن كل أموره ﷺ موضوعة وضعًا إلهيًا كأنها صفات كَوَّنها الله وعَلَّقها فى التاريخ لمعانى الحياة تعليق الشمس فى السماء لمواد الحياة.

ولو تأملت بيانه ﷺ ، تجده ينقلك إلى مثل الحالة التى تتأمل فيها روضة تتنفس على القلب، أو منظرًا يهز خياله النفس، أو عاطفة تزيد بها الحياة فى الدم، على هدوء وروح وإحساس ولذة، ثم يزيد على ذلك أنه يصلح من الجهات الإنسانية فى نفسك، ثم يرزق الله منه من رُزِق النور، فإذا أنت فى ذوق البيان كأنما ترى المتكلم ﷺ وراء كلامه.

هكذا يكون النظر فى كلامه ﷺ ، فهو كلام كلما زدته فكرًا زادك معنى، وتفسيره قريب.. قريب كالروح فى جسمها البشرى، ولكنه بعيد كالروح فى سرها الإلهي، فهو معك على قَدْر ما أنت معه، إن وقفتَ على حَدّ وَقَفَ، وإن مددتَ مَدَّ، وما أديت به تأدى، وليس فيه شيء من كل ما تراه لكل بُلَغاء الدنيا، من صناعة عَبَث القول، والرغبة فى تكثير سواد المعاني، وترك اللسان يطيش طيبة اللغوى يتعلق بكل ما عرض له، إنما هو كلام قيل لتصير به المعانى إلى حقائقها، فهو من لسانٍ وراءه فكر، وراءه قلب، وراءه إيمان، وراءه الله جل جلاله، وهو كلام فى مجموعه كأنه دنيا أصدرها ﷺ عن نفسه العظيمة، لا تبرح ماضية فى طريقها السوى على دين الفطرة، فلا تتسع لخلاف ولا يقع بها التنافر.

من هنا تبرز الأهمية القصوى فى أن تكون سيرة الرسول ﷺ وأقواله عاملة فى النفس المؤمنة عمل القلب من الجسد، ورقيبة عليها رقابة الضمير على العقل، حتى يكون الارتقاء والسمو والعلو والارتفاع بالأجسام فوق جواذب المادة وقيود الأرض.

ولن تستطيع النفس أن تحقق هذه المقومات وبها بقايا من رواسب المادة أو جواذب الأرض، ولن تستطيع النفس أن ترفرف وتُحَلِّق إلا إذا أدركت غاية وجودها من خلال رصيدها التاريخى الطويل، الذى لم تظفر به أمة من الأمم كما ظفرت أمة الإسلام، «إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة». عبارات تفيض إيمانا وتَشِعُّ ضياءً، خرجت من نفس تربت على يد القائد والمعلم الأول ﷺ ، فأدركت غاية وجودها فعملت على تحقيقها.. وهكذا يجب أن يكون كل من أراد أن يشارك الكتائب فى سيرها فى الطريق الطويل. وللأهمية التى تحتلها سيرة الرسول ﷺ فى حياة المسلمين على امتداد التاريخ وفى حياتهم الحاضرة؛ فقد وُضِعَتْ كتبٌ كثيرة اختلفت نظراتها للسيرة ومناهجها فى تناولها، ولكن كانت هناك بعض الكتب فى هذا المجال امتازت بشمولها وكمالها ودقة منهجها، بما يعين القارئ على أن يتناول مسيرة الرسول ﷺ فى يسر يُعينه على فهمها فهماً شاملاً كاملا، واستيعابها دون ما نَقْصٍ أو خلل.

وكان هذا الكتاب «الرحيق المختوم» للأستاذ صفى الرحمن المباركفوري- من الجامعة السلفية بالهند- من الكتب المتفردة فى السّرْد التاريخي، والذى امتاز بمنهجه الواضح وشموليته الجامعة فى عرض السيرة العطرة عرضًا عميقًا يسيرًا، خاليًا من الشوائب أو الأباطيل التى ألحقت ببعض كتب السيرة.

ويمتاز هذا الكتاب أيضًا فى كونه مُعِينًا لكل قارئ أو باحث فى السيرة أن يجد بُغْيَته وقد فاز هذا الكتاب بالجائزة الأولى لمسابقة السيرة النبوية التى نظمتها رابطة العالم الإسلامي.

ونَوَدّ أنه نُنَوِّهَ إلى أن هذه الطبعة المنقحة التى نقوم بنشرها وتقديمها إلى القارئ الكريم، والتى تشتمل على التعديلات والإضافات الجديدة لفضيلة الشيخ صفى الرحمن المباركفوري- حفظه الله- هى الطبعة الشرعية الوحيدة، كما أشار إليه المؤلف، وكما يتضح عند مقارنتها بالطبعات السابقة.

ونحن إذ نقدم هذه الطبعة المنقحة والمزيدة، نحمد الله على ما منَّ علينا بتوفيقه، كما نتقدم بالشكر الجزيل إلى فضيلة الشيخ صفى الرحمن المباركفورى على تفضله بالسماح لنا بخدمة هذا الكتاب، سائلين الله أن نكون عند حسن ظنه بنا، وأن ينفع به، إنه وَلِيّ ذلك والقادر عليه.

والحمد لله رب العالمين.

الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدى الكتاب

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عبده ورسوله محمد أفضل الرسل وخاتم النبيين، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين.

وبعد:

فهذا الكتاب هو الذى أسهمت به فى مسابقة السيرة النبوية العالمية التى نظمتها رابطة العالم الإسلامى، وأعلنت عنها عقب أول مؤتمر للسيرة النبوية الذى عقدته دولة باكستان فى شهر ربيع الأول عام ١٣٩٦هـ.

وقد قدر الله لهذا الكتاب من القبول ما لم أكن أرجوه وقت الكتابة، فقد نال المركز الأول فى المسابقة، وأقبل عليه الخاصة والعامة إقبالا يغتبط عليه.

وكان من حديث هذا الكتاب أنى لم أطلع على إعلان الرابطة عن المسابقة فى وقته، ولما أخبرت به بعد حين لم أمِلْ إلى الإسهام فيها، بل رفضت هذا الاقتراح رفضًا كليًّا إلا أن القدر ساقنى إلى ذلك. وكان آخر موعد لتلقى بحوث المسابقة واستقبالها عند الرابطة أول شهر محرم من العام القادم ١٣٩٧هـ، أى نحو تسعة أشهر من وقت الإعلان، وقد ضاعت منى من ذلك عدة أشهر، والمدة الباقية لم تكن تكفى لإعداد مثل هذا الكتاب، ولكن لما عزمت على ذلك استعنت الله سبحانه وتعالى، وشمرت عن ساق الجد، حتى تم إنجازه وإرساله فى الموعد.

وكنت أعانى - مع ضيق الوقت والاشتغال بأعمال أخرى - قلة المصادر، وعدم القدرة على مراجعة كل ما هو موجود، وكانت الدقة مطلوبة عندى بصفة خاصة مع تجنب الحشو والزوائد، والإحاطة بالموضوع بقدر الإمكان، وقد مررت بأماكن شعرت فيها بشىء من الفجوة والفراغ، وبحاجة إلى إضافات لم تكن فى مستطاعى فى ذلك الحين. فكل ما كان بالإمكان هو التسويد السريع لما هو موجود، ثم نسخه أو استنساخه بغير مراجعة أو تنقيح.

وقد بقيت فى النفس رغبة إلى ملء تلك الفجوة والفراغ وإضافة بعض الزيادات فيما بعد، ولكن مضت الأيام والأعوام ولم يقدر لى ذلك، حتى تَقادم العَهْدُ وانفلت الزمامُ،

وكنت أحيانًا أثبت فى الكتاب أشياء، وربما أقدم أو أؤخر، أو أضيف أو أعدل أشياء، وهى وإن لم تكن عين ما كانت تتحدث به النفس عند التأليف، لكنها مهمة ومفيدة فى السيرة إن شاء الله، وكذلك اطلعت على مصادر قديمة أغنتنى إلى حد كبير عما كنت أَحَلْتُ إليه من المراجع الحديثة، فأدخلت كل ذلك فى هذه الطبعة بتوفيق الله.

وقد كنت أرجو ظهور بعض الملحوظات العلمية القيمة، أستفيد بها فى صلب بعض الموضوعات، لكن الذى وصلنى منها لا يمس الجوهر، وإنما يمس بعض الأمور الجانبية التى لا تقدم ولا تؤخر، يضاف إلى ذلك أن معظمها خطأ واضح، بل تَخَبُّطٌ غريب لم يكن يُرْجَى مثله من عامة الدارسين، فضلًا عن أصحاب التخصص.

وهذه الطبعة التى تتضمن هذه الإضافات والتغييرات تكون أفضل وأكثر فائدة من الطبعات السابقة إن شاء الله، وهى الطبعة الشرعية الوحيدة مع تلك الإضافات والتعديلات. وقد طبع الكتاب قبل ذلك من جهة الرابطة عدة طبعات، كما طبعه بعض الإخوان بإذن من المؤلف، ولكن هناك عشرات الطبعات كلها غير شرعية قام بها الناشرون بغير إذن من المؤلف ولا إشعار له، مستغلين سمعة الكتاب. وقد بلغت الجرأة ببعضهم إلى أنه احتفظ بجميع حقوق الكتاب لنفسه، فهداهم الله للحق، ولإيصال الحقوق إلى أهلها قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال.

وصلى الله على خير خلقه محمد وعلى آله وصحبه وبارك وسلم.

١٨ ربيع الأول ١٤١٥هـ
٢٦ أغسطس ١٩٩٤م

صفى الرحمن المباركفوري
الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة

معالى الدكتور عبد الله عمر نصيف

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وصفيه وخليله، أدى الرسالة، وبلغ الأمانة، ونصح الأمة، وتركها على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، ورضى الله عن كل من تبع سنته وعمل بها إلى يوم الدين، وعنا معهم بعفوك ورضاك يا أرحم الراحمين.

أما بعد:

فإن السنة النبوية المطهرة - وهى العطاء المتجدد والزاد الباقى إلى يوم الدين، والتى يتسابق المتسابقون، ويتنافس المتنافسون إلى الحديث عنها وكتابة الكتب والأسفار فى مواضيعها منذ بعث ﷺ حتى تقوم الساعة - تضع للمسلمين النموذج العملى والبرنامج الواقعى لما ينبغى أن يكون عليه سلوكهم وأفعالهم وأقوالهم وعلاقاتهم بربهم، ثم بأهلهم وعشيرتهم وإخوانهم وأمتهم والناس أجمعين.

وقد قال الله عز وجل: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾[الأحزاب].

وقالت السيدة عائشة - رضوان الله عليها - عندما سئلت عن خلق رسول الله ﷺ: «كان خلقه القرآن».

فلا ريب إذن أنه لابد - لمن أراد النجاة من هذه الدنيا- باتباع المنهج الربانى فى جميع شئون آخرته ودنياه، وأن يتأسى بالرسول الأعظم ﷺ، ويأخذ بالسيرة النبوية تفكرًا وتدبرًا على أنها هذا المنهج الربانى القويم، عاشه سيدنا رسول الله ﷺ واقعًا عمليًا فى جميع شئون الحياة، ففيها الهدى والرشاد للقادة والمقودين والحكام والمحكومين والمرشدين والموجهين والمجاهدين، وفيها الأسوة الحسنة فى جميع المجالات: فى السياسة والحكم والاقتصاد والمال والاجتماع والعلاقات الإنسانية والأخلاق الفاضلة والعلاقات الدولية، فما أحرى المسلمين

اليوم - وقد انحدروا فى مهاوى الجهالة والتخلف لابتعادهم عن هذه المنهج - أن يعودوا إلى صوابهم وأن يقدموا السيرة النبوية فى مناهجهم الدراسية ومنتدياتهم المختلفة على أنها ليست للمتعة الفكرية وحسب، بل فيها طريق العودة إلى الله، وفيها إصلاح الناس وفلاحهم، فهى الأسلوب العلمى لترجمة كتاب الله عزّ وجلّ سلوكًا وأخلاقًا، حتى يصبح المؤمن محتكمًا إلى شريعة الله سبحانه وتعالى ومحكمًا لها فى جميع شئون الناس.

وهذا الكتاب (الرحيق المختوم) جهد رائع وعمل مشكور لمؤلفه فضيلة الشيخ صفى الرحمن المباركفورى الذى استجاب لدعوة رابطة العالم الإسلامى فى مسابقة السيرة النبوية التى نظمتها عام ١٣٩٦هـ، ففاز بالجائزة الأولى كما هو مذكور فى مقدمة الطبعة الأولى لفضيلة الشيخ محمد على الحركان - رحمه الله - الأمين العام السابق لرابطة العالم الإسلامى- تغمده الله برحمته وجزاه عنا خير الجزاء.

وقد كان إقبال الناس عظيمًا وثناؤهم عطرًا على هذا الكتاب، وقد نفدت نسخ الطبعة الأولى بالكامل، وطلب منى التقديم للطبعة الثالثة، فاستجبت له بهذه المقدمة الوجيزة، سائلًا المولى عز وجل أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفع به المسلمين نفعًا يؤدى إلى تغيير واقعهم إلى الأفضل، وأن يعيد للأمة الإسلامية مجدها المفقود ومكانتها فى قيادة الأمم، عملًا بقوله عز وجل: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وصلى الله على المبعوث رحمة للعالمين، رسول الهدى ومرشد الإنسانية إلى طريق النجاة والفلاح، وعلى آله وصحبه وسلم.

والحمد لله رب العالمين.

د. عبد الله عمر نصيف

الأمين العالم لرابطة العالم الإسلامى (سابقًا)

نائب الرئيس لمجلس الشورى

المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة

معالى الشيخ محمد بن علي الحركان - رحمه الله -

الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي

الحمد لله رب العالمين، خالق السموات والأرض، وجاعل الظلمات والنور، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والرسل أجمعين، بشّر وأنذر، ووعد وأوعد، أنقذ الله به البشر من الضلالة، وهدى الناس إلى صراط مستقيم، صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور.

وبعد:

فلما أعطى الله – سبحانه وتعالى – لرسوله الشفاعة والدرجة الرفيعة، وهدى المسلمين إلى محبته، وجعل اتباعه من محبته تعالى فقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٣١]، فكان هذا من الأسباب التى صيرت القلوب تهفو إلى محبته ﷺ، وتتلمس الأسباب التى توثق الصلة فيما بينها وبينه ﷺ. فمنذ فجر الإسلام والمسلمون يتسابقون إلى إبراز محاسنه، ونشر سيرته العطرة ﷺ، وسيرته ﷺ هى أقواله وأفعاله وأخلاقه الكريمة، فقد قالت السيدة عائشة زوج النبى رضي الله عنها: «كان خلقه القرآن»، والقرآن كتاب الله وكلماته التامة، ومن كان كذلك كان أحسن الناس وأكملهم وأحقهم بمحبة خلق الله جميعًا.

ولم يَزَلِ المسلمون متمسكين بهذه المحبة الغالية التى انبثق عنها المؤتمر الإسلامى الأول للسيرة النبوية الشريفة الذى عقد بباكستان سنة ١٣٩٦هـ، حيث أعلنت الرابطة فى هذا المؤتمر عن جوائز مالية مقدارها مائة وخمسون ألف ريال سعودى، توزع على أحسن خمسة بحوث فى السيرة النبوية بالشروط الآتية:

١ – أن يكون البحث متكاملًا مع ترتيب الحوادث التاريخية حسب وقوعها.

٢ – أن يكون جيدًا ولم يسبق نشره من قبل.

٣ – أن يذكر الباحث جميع المخطوطات والمصادر العلمية التى اعتمد عليها فى كتابة البحث.

٤ - أن يكتب الباحث ترجمة كاملة ومفصلة عن حياته، مع ذكر مؤهلاته العلمية ومؤلفاته إن وجدت.

٥ - أن يكتب البحث بخط واضح، ويستحسن نسخه على الآلة الكاتبة.

٦ - تقبل البحوث باللغة العربية واللغات الحية الأخرى.

٧ - يبدأ قبول البحوث من غرة ربيع الثانى ١٣٩٦هـ، وينتهى موعد القبول بغرة محرم ١٣٩٧هـ.

٨ - تسلم البحوث إلى الأمانة العامة لرابطة العالم الإسلامى بمكة المكرمة فى ظرف مختوم، وتضع الأمانة عليه رقمًا تسلسليًا خاصًا.

٩ - تقوم بفحص البحوث لجنة عليا من كبار العلماء فى هذ الشأن.

فكان هذا الإعلان حافزًا لتسابق العلماء الذين وهبهم الله حب رسوله ﷺ، واستعدت رابطة العالم الإسلامى لاستقبال هذه البحوث باللغات العربية والإنجليزية والأردية وأية لغة أخرى.

وبدأ الإخوان الكرام فى إرسال بحوثهم بهذه اللغات، وقد بلغ عددها واحدًا وسبعين ومائة بحث منها:

٨٤ بحثًا باللغة العربية، ٦٤ بحثًا باللغة الأردية، ٢١ بحثًا باللغة الإنجليزية، وبحث واحد فقط باللغة الفرنسية، وبحث واحد فقط باللغة الهوساوية.

وقد كونت الرابطة لجنة من كبار العلماء لدراسة هذه البحوث وترتيبها حسب استحقاق الفائز للجائزة، وقد كان الفائزون بالجوائز حسب الترتيب الآتى:

١ - الفائز بالجائزة الأولى الشيخ صفى الرحمن المباركفورى من الجامعة السلفية بالهند، ومقدار جائزته خمسون ألف ريال سعودى.

٢ - الفائز بالجائزة الثانية الدكتور ماجد على خان من الجامعة الملية الإسلامية نيودلهى، الهند، ومقدار جائزته أربعون ألف ريال سعودى.

٣ - الفائز بالجائزة الثالثة الدكتور نصير أحمد ناصر رئيس الجامعة الإسلامية بباكستان، ومقدار جائزته ثلاثون ألف ريال سعودى.

٤ - الفائز بالجائزة الرابعة الأستاذ حامد محمود محمد منصور ليمود من جمهورية مصر العربية، ومقدار جائزته عشرون ألف ريال سعودى.

٥ - الفائز بالجائزة الخامسة الأستاذ عبد السلام هاشم حافظ من المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ومقدار جائزته عشرة آلاف ريال سعودى.

وقد أعلنت الرابطة أسماء الفائزين فى المؤتمر الإسلامى الآسيوى الأول الذى عقد فى كراتشى فى شهر شعبان سنة ١٣٩٨هـ. كما أعلن عن ذلك فى جميع الصحف.

وبهذه المناسبة أقامت الأمانة العامة للرابطة بمقرها بمكة المكرمة حفلًا كبيرًا تحت إشراف صاحب السمو الملكى الأمير سعود بن عبد المحسن بن عبد العزيز وكيل إمارة منطقة مكة المكرمة، نيابة عن صاحب السمو الملكى الأمير فواز بن عبد العزيز أمير منطقة مكة المكرمة، حيث تفضل سموه بتوزيع الجوائز على أصحابها، وذلك صباح يوم السبت الموافق ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٩٩هـ. وفى هذا الحفل أعلنت الأمانة العامة أنها ستقوم بطبع البحوث الفائزة ونشرها بعدة لغات، وتنفيذًا لذلك ها هى ذى تضع بين يدى القارئ الكريم باكورة طبعات تلك البحوث، وهو بحث الشيخ/ صفى الرحمن المباركفورى، من الجامعة السلفية بالهند؛ لأنه الفائز بالجائزة الأولى، وستوالى طبع بقية البحوث الفائزة حسب ترتيبها، سائلين الله سبحانه وتعالى أن يتقبل منا جميعًا أعمالنا خالصة لوجهه الكريم، إنه نعم المولى ونعم النصير.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

محمد بن على الحركان

الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المؤلف

الحمد لله الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، فجعله شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، وجعل فيه أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرًا. اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وفجّر لهم ينابيع الرحمة والرضوان تفجيرا.

وبعد:

فإن من دواعى الغبطة والسرور أن رابطة العالم الإسلامى أعلنت عقب مؤتمر السيرة النبوية الذى عقد فى باكستان فى شهر ربيع الأول من سنة ١٣٩٦هـ عن تنظيم مسابقة علمية عالمية؛ لتقديم أحسن بحث فى موضوع السيرة النبوية - على صاحبها ألف ألف صلاة وسلام وتحية - وذلك تنشيطًا للكاتبين، وتنسيقا لجهودهم الفكرية. وإنى أرى أن هذا العمل له قيمة كبيرة ربما لا يحيط بوصفه البيان. فإن السيرة النبوية والأسوة المحمدية - على صاحبها ما يستحق من الصلاة والسلام - إذا لاحظناها بعين الدقة والاعتبار هى المنبع الوحيد الذى تتفجر منه ينابيع حياة العالم الإسلامى وسعادة المجتمع البشرى.

وإن من سعادتى وحسن حظى أن أقدم بحثًا أسهم به فى تلك المسابقة المباركة، ولكن أين أنا حتى ألقى ضوءًا على حياة سيد الأولين والآخرين ﷺ. وإنما أنا رجل يرى لنفسه كل السعادة والفلاح أن يقتبس من نوره، حتى لا يتهالك فى دياجير الظلمات، بل يحيا وهو من أمته، ويموت وهو من أمته، ويغفر الله له ذنوبه بشفاعته.

ومن منهجى فى هذا الكتاب - عدا ما جاء فى إعلان الرابطة - أنى قررت سلوك سبيل الاعتدال، متجنبًا التطويل الممل والإيجاز المخل، وقد وجدت المصادر تختلف فيما بينها حول كثير مما يتعلق بالأحداث اختلافًا لا يحتمل الجمع والتوفيق، فاخترت سبيل الترجيح، وأثبت فى الكتاب ما ترجح لدى بعد التدقيق فى الدراسة والنقد، إلا أنى طويت ذكر الدلائل والوجوه؛ لأن ذلك يفضى إلى طول غير مطلوب.

أما بالنسبة لقبول الروايات وردها فقد استفدت فى ذلك مما كتبه الأئمة المتقنون، واعتمدت عليهم فيما حكموا به من الصحة والحسن والضعف؛ إذ لم أجد وقتًا يكفى

للخوض فى هذا المجال.

وقد أشرت فى بعض المواضع إلى بعض الدلائل ووجوه الترجيح، وذلك حينما خِفْتُ الاستغراب ممن يقرأ الكتاب، أو رأيت شبه الاتفاق فيما بين الأولين والآخرين على خلاف ما هو الصواب. والله ولى التوفيق.

اللهم قدر لى الخير فى الدنيا والآخرة، إنك أنت الغفور الودود، ذو العرش المجيد.

صفى الرحمن المباركفوري

بنارس – الهند

العـــرب

- الأرض والشعب
- الحكم والاقتصاد
- الديانة والاجتماع

موقع العرب وأقوامها

إن السيرة النبوية - على صاحبها الصلاة والسلام - هى فى الحقيقة عبارة عن الرسالة التى حملها رسول الله ﷺ إلى المجتمع البشرى قولًا وفعلًا، وتوجيها وسلوكًا، وقلب بها موازين الحياة، فبدل مكان السيئة الحسنة، وأخرج بها الناس من الظلمات إلى النور، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله، حتى عدل خط التاريخ وَغيَّر مجرى الحياة فى العالم الإنسانى، ولا يتم إحضار هذه الصورة الرائعة إلا بعد المقارنة بين البيئة التى سبقت هذه الرسالة وبين ما آلت إليه بعدها.

وهذا يقتضى تقديم فصول موجزة عن أقوام العرب وتطوراتها قبل الإسلام، وعن تاريخ الحكومات والإمارات والنظم القبلية التى كانت سائدة فى ذلك الزمان، مع صور من الديانات والمِلَل والنِّحَل والعادات والتقاليد، والأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

وقد خصصنا لكل من ذلك هذا الباب، وإليكم تلك الفصول:

موقع العرب:

كلمة العرب تنبئ عن الصحارى والقِفَار، والأرض الْمُجْدِبة التى لا ماء فيها ولا نبات. وقد أطلق هذا اللفظ منذ أقدم العصور على جزيرة العرب، كما أطلق على قوم قَطَنُوا تلك الأرض واتخذوها موطنا لهم.

وجزيرة العرب يحدها غربًا البحر الأحمر وشبه جزيرة سيناء، وشرقًا الخليج العربى وجزء من بلاد العراق الجنوبية، وجنوبًا بحر العرب الذى هو امتداد لبحر الهند، وشمالًا بلاد الشام وجزء من بلاد العراق، على اختلاف فى بعض هذه الحدود، وتقدر مساحتها ما بين مليون ميل مربع إلى مليون وثلاثمائة ألف ميل مربع.

ولجزيرة العرب أهمية بالغة من حيث موقعها الطبيعى والجغرافى؛ فإنها فى وضعها الداخلى محاطة بالصحارى والرمال من كل جانب؛ ولأجل هذا الوضع صارت الجزيرة حصنًا منيعًا لم يستطع الأجانب أن يحتلوها ويبسطوا عليها سيطرتهم ونفوذهم. ولذلك نرى سكان الجزيرة أحرارًا فى جميع الشئون منذ أقدم العصور، مع أنهم كانوا مجاورين لإمبراطوريتين عظيمتين لم يكونوا يستطيعون دفع هجماتها لولا هذا السد المنيع.

وأما بالنسبة إلى الخارج، فإنها تقع بين القارات المعروفة فى العالم القديم، وتلتقى به برًّا وبحرًا، فإن ناحيتها الشمالية الغربية باب للدخول فى قارة إفريقية، وناحيتها الشمالية الشرقية مفتاح لقارة أوربا، والناحية الشرقية تفتح أبواب العجم؛ ومن ثم آسيا الوسطى وجنوبها والشرق البعيد، وكذلك تلتقى كل قارة بالجزيرة بحرًا، وترسى سفنها وبواخرها على ميناء الجزيرة رأسًا.

ولأجل هذا الوضع الجغرافى كان شمال الجزيرة وجنوبها موئلًا للأمم، ومركزًا لتبادل التجارة، والثقافة، والديانة، والفنون.

أقوام العرب:

وأما أقوام العرب، فقد قسمها المؤرخون إلى ثلاثة أقسام؛ بحسب السلالات التى ينحدرون منها:

١ - **العرب البائدة**: وهم العرب القدامى الذين انقرضوا تمامًا ولم يمكن الحصول على تفاصيل كافية عن تاريخهم، مثل: عاد، وثمود، وطَسْم، وجَدِيس، وعِمْلاق، وأُمَيْم، وجُرْهُم، وحَضُور، ووَبَار، وعَبِيل، وجاسم، وحَضْرَمَوت، وغيرها.

٢ - **العرب العاربة**: وهم العرب المنحدرة من صلب يَشْجُب بن يَعْرُب بن قَحْطان، وتسمى بالعرب القحطانية.

٣ - **العرب المستعربة**: وهى العرب المنحدرة من صلب إسماعيل عليه السلام، وتسمى بالعرب العدنانية.

أما العرب العاربة - وهى شعب قحطان : فمَهْدُها بلاد اليمن، وقد تشعبت قبائلها وبطونها من ولد سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. فاشتهرت منها قبيلتان: حِمْيَر بن سبأ، وكَهْلان بن سبأ، وأما بقية بنى سبأ - وهم أحد عشر أو أربعة عشر بطنًا - فيقال لهم: السبئيون، وليست لهم قبائل دون سبأ.

أ - فأما حمير فأشهر بطونها:

١ - قُضَاعة: ومنها بَهْراء وَبَلِىٌّ والقَيْن وكَلْب وعُذْرَة ووَبَرَة.

٢ - السَّكاسِك: وهم بنو زيد بن وائلة بن حمير، ولقب زيد: السكاسك، وهى غير سكاسك كِنْدة الآتية فى بنى كَهْلان.

٣ - زيد الجمهور: ومنها حمير الأصغر، وسبأ الأصغر، وحضور، وذو أصبح.

ب - وأما كَهْلان فأشهر بطونها:

هَمْدان، وأَلْهَان، والأَشْعَر، وطيئ، ومَذْحِج (ومن مذحج: عَنْس والنَّخْع)، ولَخْم (ومن لخم: كندة، ومن كندة: بنو معاوية والسَّكُون والسكاسك)، وجُذَام، وعاملة، وخَوْلان، ومَعَافِر، وأنمار (ومن أنمار: خَثْعَم وبَجِيلَة، ومن بجيلة: أَحْمَس) والأَزْد، (ومن الأزد: الأوس، والخزرج، وخُزَاعة، وأولاد جَفْنَة ملوك الشام المعروفون بآل غسان).

وهاجرت بنو كهلان عن اليمن، وانتشرت فى أنحاء الجزيرة، يقال: كانت هجرة معظمهم قبيل سَيْل العَرِم حين فشلت تجارتهم لضغط الرومان وسيطرتهم على طريق التجارة البحرية، وإفسادهم طريق البر بعد احتلالهم بلاد مصر والشام.

ويقال: بل إنهم هاجروا بعد السيل حين هلك الحرث والنسل بعد أن كانت التجارة قد فشلت، وكانوا قد فقدوا كل وسائل العيش، ويؤيده سياق القرآن [سورة سبأ: ١٥ - ١٩].

ولا غرو إن كانت هناك - عدا ما تقدم - منافسة بين بطون كهلان وبطون حمير أدت إلى جلاء كهلان، فقد يشير إلى هذا بقاء حمير مع جلاء كهلان.

ويمكن تقسيم المهاجرين من بطون كهلان إلى أربعة أقسام:

١ - الأَزْد:

وكانت هجرتهم على رأى سيدهم وكبيرهم عمران بن عمرو مُزَيْقِياء، فساروا يتنقلون فى بلاد اليمن ويرسلون الرواد، ثم ساروا بعد ذلك إلى الشمال والشرق. وهاك تفصيل الأماكن التى سكنوا فيها بعد الرحلة نهائيًّا:

* نزل عمران بن عمرو فى عُمَان، واستوطنها هو وبنوه، وهم أَزْد عُمَان.

* واستوطنت بنو نصر بن الأزد تُهامة، وهم أزد شَنُوءة.

* وعَطَف[1] ثَعْلَبَة بن عمرو مزيقياء نحو الحجاز، فأقام بين الثعلبية وذى قار، ولما كبر ولده وقوى ركنه سار نحو المدينة، فأقام بها واستوطنها، ومن أبناء ثعلبة هذا: الأوس والخزرج، ابنا حارثة بن ثعلبة.

* وتنقل منهم حارثة بن عمرو - وهو خزاعة - وبنوه فى ربوع الحجاز، حتى نزلوا بمر الظهران، ثم افتتحوا الحرم فقطنوا مكة وأجلوا سكانها الجراهمة.

---

(١) أى: مال.

* وسار جَفْنَة بن عمرو إلى الشام فأقام بها هو وبنوه، وهو أبو الملوك الغساسنة؛ نسبة إلى ماء فى الحجاز يعرف بغسان، كانوا قد نزلوا بها أولًا قبل انتقالهم إلى الشام.

وانضمت البطون الصغيرة إلى هذه القبائل فى الهجرة إلى الحجاز والشام، مثل كعب بن عمرو، والحارث بن عمرو، وعوف بن عمرو.

٢ - لَخْم وجُذَام:

انتقلوا إلى الشرق والشمال، وكان فى اللخميين نصر بن ربيعة أبو الملوك المناذرة بالحيرة.

٣ - بنو طَيِّئ:

ساروا بعد مسير الأزد نحو الشمال حتى نزلوا بالجبلين أجأ وسلمى، وأقاموا هناك، حتى عرف الجبلان بجبلى طيئ.

٤ - كِنْدة:

نزلوا بالبحرين، ثم اضطروا إلى مغادرتها فنزلوا بـ (حضرموت)، ولاقوا هناك ما لاقوا بالبحرين، ثم نزلوا نجدًا، وكونوا هناك دولة كبيرة الشأن، ولكنها سرعان ما فنيت وذهبت آثارها.

وهناك قبيلة من حمير مع اختلاف فى نسبتها إليه - وهى قضاعة - هجرت اليمن واستوطنت بادية السماوة من مشارف العراق، واستوطن بعض بطونها مشارف الشام وشمالى الحجاز[1].

وأما العرب المستعربة، فأصل جدهم الأعلى - وهو سيدنا إبراهيم عليه السلام - من بلاد العراق، من مدينة يقال لها: (أر) على الشاطئ الغربى من نهر الفرات، بالقرب من الكوفة، وقد جاءت الحفريات والتنقيبات بتفاصيل واسعة عن هذه المدينة، وعن أسرة إبراهيم عليه السلام، وعن الأحوال الدينية والاجتماعية فى تلك البلاد.

ومعلوم أن إبراهيم عليه السلام هاجر منها إلى حاران أو حَرَّان، ومنها إلى فلسطين، فاتخذها

---

(١) انظر لتفصيل هذه القبائل وهجراتها: نسب معد واليمن الكبير، جمهرة النسب، العقد الفريد، قلائد الجمان، نهاية الأرب، تاريخ ابن خلدون، سبائك الذهب، وكتب الأنساب الأخرى، وما كتب عن تاريخ العرب قبل الإسلام، واختلفت المصادر اختلافًا كبيرًا فى تعيين زمن هذه الهجرات، ولا سبيل إلى البت فى هذا الموضوع، وقد أثبتنا ما ترجح عندنا بعد إدارة النظر فى القرائن والملابسات، والله أعلم بالصواب.

قاعدة لدعوته، وكانت له جولات فى أرجائها وأرجاء غيرها من البلاد، وفى إحدى هذه الجولات أتى إبراهيم عليه السلام على جبار من الجبابرة، ومعه زوجته سارة، وكانت من أحسن النساء، فأراد ذلك الجبار أن يكيد بها، ولكن سارة دعت الله تعالى عليه فرد الله كيده فى نحره، وعرف الظالم أن سارة امرأة صالحة ذات مرتبة عالية عند الله، فأخدمها هاجر[(١)] اعترافًا بفضلها، أو خوفًا من عذاب الله، ووهبتها سارة لإبراهيم عليه السلام[(٢)].

ورجع إبراهيم عليه السلام إلى قاعدته فى فلسطين، ثم رزقه الله تعالى من هاجر ابنه إسماعيل، وصار سببًا لغيرة سارة حتى ألجأت إبراهيم إلى نفى هاجر مع ولدها الرضيع - إسماعيل - فقدم بهما إبراهيم عليه السلام إلى الحجاز، وأسكنهما بواد غير ذى زرع عند بيت الله المحرم الذى لم يكن إذ ذاك إلا مرتفعًا من الأرض كالرابية، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله، فوضعهما عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضع عندهما جرابا فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ورجع إلى فلسطين، ولم تمض أيام حتى نفد الزاد والماء، وهناك تفجرت بئر زمزم بفضل الله، فصارت لهما قوتا وبلاغًا إلى حين. والقصة معروفة بطولها[(٣)].

وجاءت قبيلة يمانية - وهى جُرْهُم الثانية - فقطنت مكة بإذن من أم إسماعيل. يقال: إنهم كانوا قبل ذلك فى الأودية التى بأطراف مكة، وقد صرحت رواية البخارى أنهم نزلوا مكة بعد إسماعيل، وقبل أن يشب، وأنهم كانوا يمرون بهذا الوادى قبل ذلك[(٤)].

وكان إبراهيم عليه السلام يرتحل إلى مكة ليطالع تركته بها، ولا يعلم بالضبط عدد هذه

---

(١) المعروف أن ذلك الجبار كان فرعون من فراعنة مصر، وأن هاجر كانت أمة مملوكة له، ولكن رجح الكاتب الكبير العلامة القاضى محمد سليمان المنصورفوري- رحمه الله- أنها كانت حرة، وكانت ابنة فرعون، واستند لذلك إلى ما كتبه المحققون من أهل الكتاب فى شروح صحائفهم. « ينظر لذلك: رحمة للعالمين ٢ / ٣٤، ٣٦، ٣٧» وقال ابن خلدون ، وهو يحكى حوارًا دار بين عمرو بن العاص رضي الله عنه وبين أهل مصر أنهم قالوا له: إن هاجر كانت امرأة لملك من ملوكنا، ووقعت بيننا وبين أهل عين شمس حروب كانت لهم فى بعضها دولة، فقتلوا الملك، وسبوها، ومن هناك تسيرت إلى أبيكم إبراهيم. «تاريخ ابن خلدون ٢ / ١ / ٧٧».

(٢) انظر فى تفصيل أصل القصة: صحيح البخارى، ح (٢٢١٧، ٢٦٣٥، ٣٣٥٧، ٣٣٥٨، ٥٠٨٤، ٦٩٥٠).

(٣) انظر: صحيح البخارى: كتاب الأنبياء، ح (٣٣٦٤، ٣٣٦٥).

(٤) المصدر نفسه، ح «٣٣٦٤».

الرحلات، إلا أن المصادر المعتمدة حفظت لنا أربعة منها:

١ - فقد ذكر الله تعالى فى القرآن الكريم أنه أرى إبراهيم فى المنام أنه يذبح إسماعيل، فقام بامتثال هذا الأمر: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [الصافات].

وقد ذكر فى سِفْر التكوين أن إسماعيل كان أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة، وسياق القصة يدل على أنها وقعت قبل ميلاد إسحاق؛ لأن البشارة بإسحاق ذكرت بعد سرد القصة بتمامها.

وهذه القصة تتضمن رحلة واحدة - على الأقل - قبل أن يشب إسماعيل، أما الرحلات الثلاث الأخر فقد رواها البخارى بطولها عن ابن عباس مرفوعًا، وملخصها:

٢ـ أن إسماعيل عليه السلام لما شب وتعلم العربية من جُرْهُم، وأنفسهم وأعجبهم زوجوه امرأة منهم، وماتت أمه، وبدا لإبراهيم أن يطالع تركته، فجاء بعد هذا الزواج، فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه وعن أحوالهما، فشكت إليه ضيق العيش، فأوصاها أن تقول لإسماعيل أن يغير عتبة بابه، وفهم إسماعيل ما أراد أبوه، فطلق امرأته تلك وتزوج امرأة أخرى (وهى ابنة مُضَاض ابن عمرو، كبير جرهم وسيدهم على قول الأكثر).

٣ - وجاء إبراهيم عليه السلام مرة أخرى بعد أن تزوج إسماعيل هذه الزوجة الثانية، فلم يجده، فرجع إلى فلسطين بعد أن سأل زوجته عنه وعن أحوالهما، فأثنت على الله بخير، فأوصى إلى إسماعيل أن يُثَبِّتَ عَتَبَة بابه.

٤ - ثم جاء إبراهيم عليه السلام بعد ذلك فلقى إسماعيل، وهو يَبْرِى نَبْلا له تحت دوحة قريبًا من زمزم، فلما رآه قام إليه فصنع كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد، وكان لقاؤهما بعد فترة طويلة من الزمن، قلما يصبر فيها الأب الكبير الأواه العطوف عن ولده، والولد البار الصالح الرشيد عن أبيه، وفى هذه المرة بنيا الكعبة، ورفعا قواعدها، وأذَّن إبراهيم فى الناس بالحج كما أمره الله[(1)].

وقد رزق الله إسماعيل من ابنة مُضَاض اثنى عشر ولدًا ذكرًا،وهم: نابت أو نبايوط،وقَيْدار، وأدبائيل، ومِبْشام، ومِشْماع، ودوما، ومِيشا، وحدد، وتيما، ويَطُور، ونَفيس، وقَيْدُمان.

---

(١) انظر: صحيح البخارى: كتاب الأنبياء، ح (٣٣٦٤، ٣٣٦٥).

وتشعبت من هؤلاء اثنتا عشرة قبيلة، سكنت كلها فى مكة مدة من الزمان، وكانت جل معيشتهم إذ ذاك التجارة من بلاد اليمن إلى بلاد الشام ومصر، ثم انتشرت هذه القبائل فى أرجاء الجزيرة بل وإلى خارجها، ثم أدرجت أحوالهم فى غياهب الزمان، إلا أولاد نابت وقيدار.

وقد ازدهرت حضارة الأنباط - أبناء نابت - فى شمال الحجاز، وكونوا دولة قوية عاصمتها البتراء - المدينة الأثرية القديمة المعروفة فى جنوب الأردن، وقد دان لهذه الدولة النبطية من بأطرافها، ولم يستطع أحد أن يناوئها حتى جاء الرومان وقضوا عليها.

وقد جنحت طائفة من المحققين من أهل العلم بالأنساب إلى أن ملوك آل غسان وكذا الأنصار من الأوس والخزرج إنما كانوا من آل نابت بن إسماعيل، وبقاياهم فى تلك الديار.

وإليه مال الإمام البخارى - رحمه الله - فى صحيحه، فقد عقد بابًا عنوانه: (نسبة اليمن إلى إسماعيل عليه السلام)، واستدل عليه ببعض الأحاديث، ورجح الحافظ ابن حجر فى شرحه أن قحطان من آل نابت بن إسماعيل عليه السلام[1].

وأما قيدار بن إسماعيل فلم يزل أبناؤه بمكة، يتناسلون هناك حتى كان منه عدنان وولده مَعَدّ، ومنه حفظت العرب العدنانية أنسابها. وعدنان هو الجد الحادى والعشرون فى سلسلة النسب النبوى، وقد ورد أنه ﷺ كان إذا انتسب فبلغ عدنان يمسك ويقول: «**كذب النسابون**»، فلا يتجاوزه[2]، وذهب جمع من العلماء إلى جواز رفع النسب فوق عدنان؛ مضعفين للحديث المشار إليه، ولكنهم اختلفوا فى هذا الجزء من النسب اختلافا لا يمكن الجمع بين أقوالهم، وقد مال المحقق الكبير العلامة القاضى محمد سليمان المنصورفورى - رحمه الله - إلى ترجيح ما ذكره ابن سعد - والذى ذكره الطبرى والمسعودى وغيرهما فى جملة الأقوال - وهو أن بين عدنان وبين إبراهيم عليه السلام أربعين أبا بالتحقيق الدقيق[3]. وسيأتى.

---

(١) صحيح البخارى: كتاب المناقب، باب نسبة اليمن إلى إسماعيل، ح (٣٥٠٧)، فتح البارى ٦/ ٦٢١- ٦٢٣، وانظر: نسب معد واليمن الكبير للكلبى ١ / ١٣١ ، وتاريخ ابن خلدون ٢ / ١ / ٤٦ ، ٢/ ١/ ٢٤١، ٢٤٢.

(٢) انظر: تاريخ الطبرى ٢ / ٢٧٢- ٢٧٦.

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ٥٦، وتاريخ الطبرى ٢/ ٢٧٢، ٢٧٣، ومروج الذهب للمسعودى ٢ / ٢٧٣، ٢٧٤، وتاريخ ابن خلدون ٢/ ٢/ ٢٩٨، وفتح البارى ٦/ ٦٢٢، ورحمة للعالمين ٢/ ٧، ٨، ١٤- ١٧.

وقد تفرقت بطون مَعَدّ من ولده نَزَار - قيل: لم يكن لمعد ولد غيره - فكان لنزار أربعة أولاد، تشعبت منهم أربعة قبائل عظيمة: إياد وأنمار وربيعة ومُضَر، وهذان الأخيران هما اللذان كثرت بطونها واتسعت أفخاذهما، فكان من ربيعة: ضُبَيْعَة وأسد، ومن أسد: عَنْزَة وجَدِيلة، ومن جديلة: القبائل الكثيرة المشهورة مثل: عبد القيس، والنَّمِر، وبنو وائل الذين منهم بكر وتَغْلِب، ومن بنى بكر: بنو قيس وبنو شيبان وبنو حنيفة وغيرها. أما عنزة فمنها آل سعود ملوك المملكة العربية السعودية فى هذا الزمان.

وتشعبت قبائل مضر إلى شعبتين عظيمتين: قَيْس عَيْلان بن مضر، وبطون إلياس بن مضر، فمن قيس عيلان: بنو سليم، وبنو هوازن، وبنو ثقيف، وبنو صَعْصَعَة، وبنو غَطَفان. ومن غطفان: عَبْس، وذُبْيان، وأشْجَع،وأعْصُر.

ومن إلياس بن مُضَر: تميم بن مرة، وهُذَيْل بن مُدرِكة، وبنو أسد بن خزيمة، وبطون كنانة بن خزيمة، ومن كنانة: قريش، وهم أولاد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة.

وانقسمت قريش إلى قبائل شتى، من أشهرها: جُمَح وسَهْم وعَدِىّ ومخزوم وتَيْم وزُهْرَة، وبطون قُصَىّ بن كلاب، وهى: عبد الدار بن قصى،وأسد بن عبد العزى بن قصى، وعبد مناف بن قصى.

وكان من عبد مناف أربع فصائل: عبد شمس، ونَوْفَل، والمطلب، وهاشم، وبيت هاشم هو الذى اصطفى الله منه سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ﷺ(١).

قال ﷺ: «**إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل بنى كنانة، واصطفى من بنى كنانة قريشًا، واصطفى من قريش بنى هاشم، واصطفانى من بنى هاشم**».

وعن العباس بن عبد المطلب قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله خلق الخلق فجعلنى من خير فرقهم وخير الفريقين، ثم تخير القبائل، فجعلنى من خير القبيلة، ثم تخير البيوت، فجعلنى من خير بيوتهم، فأنا خيرهم نفسًا وخيرهم بيتًا**». وفى لفظ عنه: «**إن الله خلق الخلق فجعلنى فى خيرهم فرقة، ثم جعلهم فرقتين فجعلنى فى خيرهم فرقة، ثم جعلهم قبائل فجعلنى فى خيرهم قبيلة، ثم جعلهم بيوتًا فجعلنى فى خيرهم بيتًا وخيرهم نفسًا**»(٢).

---

(١) مسلم: كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبى ﷺ ٤/ ١٧٨٢ ح (١)، والترمذى: كتاب المناقب، باب فضل النبى ﷺ ٥/ ٥٤٤ ح (٣٦٠٥) وبمعناه (٣٦٠٦).

(٢) المصدر الأخير نفسه ٥/ ٥٤٥، ح (٣٦٠٧، ٣٦٠٨).

ولما تكاثر أولاد عدنان تفرقوا فى أنحاء شتى من بلاد العرب، متتبعين مواقع القطر ومنابت العشب.

فهاجرت عبد القيس، وبطون من بكر بن وائل، وبطون من تميم إلى البحرين فأقاموا بها.

وخرجت بنو حنيفة بن على بن بكر إلى اليمامة فنزلوا بحُجْر، قَصَبة اليمامة، وأقامت سائر بكر بن وائل فى طول الأرض من اليمامة إلى البحرين إلى سيف كاظمة إلى البحر، فأطراف سواد العراق فالأُبُلّةُ فَهِيت.

وأقامت تغلب بالجزيرة الفراتية، ومنها بطون كانت تساكن بَكْرًا. وسكنت بنو تميم ببادية البصرة.

وأقامت بنو سليم بالقرب من المدينة، من وادى القرى إلى خيبر إلى شرقى المدينة إلى حد الجبلين، إلى ما ينتهى إلى الحرة.

وسكنت بنو أسد شرقى تيماء وغربى الكوفة، بينهم وبين تيماء ديار بُحْتُرٍ من طيئ، وبينهم وبين الكوفة خمس ليال.

وسكنت ذبيان بالقرب من تيماء إلى حوران، وبقى بتهامة بطون كنانة، وأقام بمكة وضواحيها بطون قريش، وكانوا متفرقين لا تجمعهم جامعة حتى نبغ فيهم قصيٌّ بن كلاب، فجمعهم، وكون لهم وحدة شرفتهم ورفعت من أقدارهم(١).

(١) يراجع لمزيد التفصيل: جمهرة النسب، نسب معد واليمن الكبير، أنساب القرشيين، نهاية الأرب، قلائد الجمان، سبائك الذهب وغيرها.

الحكم والإمارة فى العرب

كان حكام جزيرة العرب عند ظهور دعوة النبى ﷺ على قسمين:

١ـ **ملوك مُتَوَّجُون** - إلا أنهم فى الحقيقة كانوا غير مستقلين.

٢ـ **رؤساء القبائل والعشائر** - وكان لهم من الحكم والامتياز ما كان للملوك المتوجين، ومعظم هؤلاء كانوا على تمام الاستقلال، وربما كانت لبعضهم تبعية لملك متوج.

والملوك المتوجون هم: ملوك اليمن، وملوك مشارف الشام (وهم آل غسان) وملوك الحيرة، وما عدا هؤلاء من حكام الجزيرة لم تكن لهم تيجان. وفيما يلى موجز عن هؤلاء الملوك والرؤساء.

الملك باليمن:

من أقدم الشعوب التى عرفت باليمن من العرب العاربة قوم سبأ، وقد عثر على ذكرهم فى حفريات (أور) بخمس وعشرين قرنا قبل الميلاد، ويبدأ ازدهار حضارتهم ونفوذ سلطانهم وبسط سيطرتهم بأحد عشر قرنا قبل الميلاد.

ويمكن تقسيم أدوارهم حسب التقدير الآتى:

١ - ما بين ١٣٠٠ إلى ٦٢٠ ق. م:

عرفت دولتهم فى هذه الفترة بالدولة المعينية، ظهرت فى الجَوْف؛ أى السهل الواقع بين نجران وحضرموت، ثم أخذت تنمو وتتسع وتسيطر وتزدهر حتى بلغ نفوذها السياسى إلى العُلا ومَعَان من شمالى الحجاز.

ويقال: إن مستعمراتها وصلت إلى خارج بلاد العرب، وكانت التجارة هى صلب معيشتهم، ثم إنهم بنوا سد مأرب الذى له شأن كبير فى تاريخ اليمن، والذى وفر لهم معظم خيرات الأرض، ﴿حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾﴾ [الفرقان].

وكان ملوكهم فى هذه الفترة يلقبون بـ (مكرب سبأ) وكانت عاصمتهم مدينة (صِرْوَاح) التى توجد أنقاضها على بعد ٥٠ كيلو مترًا إلى الشمال الغربى من مدينة (مأرب)، وعلى بعد ١٤٢ كيلو مترًا شرقى صنعاء، وتعرف باسم (خُرَيْبَة). ويقدر عدد هؤلاء الملوك ما بين ٢٢ و ٢٦ ملكًا[١].

(١) اليمن عبر التاريخ، ص ٧٧، ٨٣، ١٢٤، ١٣٠، وتاريخ العرب قبل الإسلام، ص ١٠١- ١١٣

٢ – ما بين ٦٢٠ ق. م إلى سنة ١١٥ ق. م:

وعرفت دولتهم فى هذه الفترة بدولة سبأ، وقد تركوا لقب (مكرب) وعرفوا بـ (ملوك سبأ)، واتخذوا (مأرب) عاصمة لهم بدل (صرواح)، وتوجد أنقاض مأرب على بعد ١٩٢ كيلو مترًا شرقى صنعاء[١].

٣ – منذ سنة ١١٥ ق. م إلى سنة ٣٠٠ م:

وعرفت الدولة فى هذه الفترة بالدولة الحميرية الأولى؛ لأن قبيلة حمير غلبت واستقلت بمملكة سبأ، وقد عرف ملوكها بـ (ملوك سبأ وذى ريدان)، وهؤلاء الملوك اتخذوا مدينة (ريدان) عاصمة لهم بدل مدينة (مأرب)، و تعرف (ريدان) باسم ظفار، وتوجد أنقاضها على جبل مدور بالقرب من (يريم). وفى هذا العهد بدأ فيهم السقوط والانحطاط، فقد فشلت تجارتهم إلى حد كبير لبسط الأنباط سيطرتهم على شمال الحجاز أولًا، ثم لغلبة الرومان على طريق التجارة البحرية بعد نفوذ سلطانهم على مصر وسوريا وشمالى الحجاز ثانيًا، ولتنافس القبائل فيما بينها ثالثًا. وهذه العناصر هى التى سببت فى تفرق آل قحطان وهجرتهم إلى البلاد الشاسعة.

٤ – منذ سنة ٣٠٠ م إلى أن دخل الإسلام فى اليمن:

عرفت الدولة فى هذه الفترة بالدولة الحميرية الثانية، وعرف ملوكها بـ (ملوك سبأ وذى ريدان وحضرموت ويمنت)، وقد توالت على هذه الدولة الاضطرابات والحوادث، وتتابعت الانقلابات والحروب الأهلية التى جعلتها عرضة للأجانب حتى قضى على استقلالها. ففى هذا العهد دخل الرومان فى عدن، وبمعونتهم احتلت الأحباش اليمن لأول مرة سنة ٣٤٠ م؛ مستغلين التنافس بين قبيلتى همدان وحمير، واستمر احتلالهم إلى سنة ٣٧٨ م. ثم نالت اليمن استقلالها، ولكن بدأت تقع الثلمات فى سد مأرب، حتى وقع السيل العظيم الذى ذكره القرآن بسيل العرم فى سنة ٤٥٠م، أو ٤٥١ م. وكانت حادثة كبرى أدت إلى خراب العمران وتشتت الشعوب.

وفى سنة ٥٢٣م قاد ذو نُوَاس اليهودى حملة منكرة على المسيحيين من أهل نجران، وحاول صرفهم عن المسيحية قسرًا، ولما أبوا خدّ لهم الأخدود وألقاهم فى النيران، وهذا الذى أشار إليه القرآن فى سورة البروج بقوله: ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ﴾ الآيات [البروج].

(١) اليمن عبر التاريخ، ص ٧٧، ٨٣، ١٢٤، ١٣٠، وتاريخ العرب قبل الإسلام، ص ١٠١ – ١١٣

وكان هذا الحادث هو السبب فى نقمة النصرانية الناشطة إلى الفتح والتوسع تحت قيادة أباطرة الرومان من بلاد العرب، فقد حرضوا الأحباش، وهيأوا لهم الأسطول البحرى، فنزل سبعون ألف جندى من الحبشة، واحتلوا اليمن مرة ثانية، بقيادة أرياط سنة ٥٢٥ م، وظل أرياط حاكمًا من قبل ملك الحبشة حتى اغتاله أبرهة بن الصباح الأشرم - أحد قواد جيشه - سنة ٥٤٩م، ونصب نفسه حاكمًا على اليمن بعد أن استرضى ملك الحبشة وأرضاه، وأبرهة هذا هو الذى جند الجنود لهدم الكعبة، وعرف هو وجنوده بأصحاب الفيل. وقد أهلكه الله بعد عودته إلى صنعاء عقب وقعة الفيل، فخلفه على اليمن ابنه يَكْسُوم، ثم الابن الثانى مسروق، وكانا - فيما يقال - شرا من أبيهما، وأخبث سيرة منه فى اضطهاد أهل اليمن وقهرهم وإذلالهم.

أما أهل اليمن فإنهم بعد وقعة الفيل استنجدوا بالفرس، وقاموا بمقاومة الحبشة حتى أجلوهم عن البلاد، ونالوا الاستقلال فى سنة ٥٧٥م بقيادة معديكرب سيف بن ذى يزن الحميرى، واتخذوه ملكًا لهم، وكان معديكرب أبقى معه جمعًا من الحبشة يخدمونه ويمشون فى ركابه، فاغتالوه ذات يوم، وبموته انقطع الملك عن بيت ذى يزن، وصارت اليمن مستعمرة فارسية تتعاقب عليها ولاة من الفرس، وكان أولهم وهرز، ثم المرزبان بن وهرز، ثم ابنه التينجان، ثم خسرو بن التينجان، ثم باذان، وكان آخر ولاة الفرس، فإنه اعتنق الإسلام سنة ٦٢٨م، وبإسلامه انتهى نفوذ فارس على بلاد اليمن (١).

الملك بالحيرة:

كانت الفرس تحكم بلاد العراق وما جاورها منذ أن جمع شملهم قوروش الكبير «٥٥٧ - ٥٢٩ ق. م» ولم يكن أحد يناوئهم، حتى قام الإسكندر المقدونى سنة ٣٢٦ ق. م فهزم ملكهم دارا وبددهم وخضد شوكتهم، حتى تجزأت بلادهم، وتولاها ملوك عرفوا بملوك الطوائف، وقد ظل هؤلاء الملوك يحكمون البلاد مجزأة إلى سنة ٢٣٠م. وفى عهد هؤلاء الملوك هاجر القحطانيون، واحتلوا جزءًا من ريف العراق، ثم لحقهم من هاجر من العدنانيين فزاحموهم حتى سكنوا جزءًا من الجزيرة الفراتية.

---

(١) انظر فى تفصيل ذلك: اليمن عبر التاريخ ص ٧٧- ٨٣، ١٢٤ - ١٣٠، ١٥٧ - ١٦١ وغيرها، وتاريخ أرض القرآن ١/ ١٣٣ إلى نهاية الكتاب، وتاريخ العرب قبل الإسلام ص ١٠١ - ١٥١، وفى تعيين السنين وتفصيل بعض الحوادث اختلاف كبير بين المصادر التاريخية، وقد قال بعض الكتاب عن هذه التفاصيل: «إن هذا إلا أساطير الأولين».

وأول من ملك من هؤلاء المهاجرين هو مالك بن فَهْم التَّنُوخى من آل قحطان، وكان منزله الأنبار، أو مما يلى الأنبار، وخلفه أخوه عمرو بن فهم فى رواية[(١)]. وجَذِيمة بن مالك بن فهم - الملقب بالأبْرش والوَضَّاح - فى رواية أخرى[(٢)].

وعادت القوة مرة ثانية إلى الفرس فى عهد أردشير بن بابك - مؤسس الدولة الساسانية سنة ٢٢٦م - فإنه جمع شمل الفرس، واستولى على العرب المقيمين على تخوم ملكه، وكان هذا سببا فى رحيل قضاعة إلى الشام، ولكن دان له أهل الحيرة والأنبار.

وفى عهد أردشير كانت ولاية جذيمة الوضاح على الحيرة وسائر مَنْ ببادية العراق والجزيرة من ربيعة ومضر، وكأن أردشير رأى أنه يستحيل عليه أن يحكم العرب مباشرة، ويمنعهم من الإغارة على تخوم ملكه، إلا أن يملك عليهم رجلًا منهم له عصبية تؤيده وتمنعه، ومن جهة أخرى يمكنه الاستعانة بهم على ملوك الرومان الذين كان يتخوفهم، وليكون عرب العراق أمام عرب الشام الذين اصطنعهم ملوك الرومان، وكان يبقى عند ملك الحيرة كتيبة من جنود الفرس؛ ليستعين بها على الخارجين على سلطانه من عرب البادية، وكان موت جذيمة حوالى سنة ٢٦٨ م.

وبعد موت جذيمة ولى الحيرة والأنبار عمرو بن عدى بن نصر اللخمى (٢٦٨ـ ٢٨٨م) وهو أول ملوك اللخميين، وأول من اتخذ الحيرة مقرًّا له، وكان فى عهد كسرى سابور بن أردشير، ثم لم يزل الملوك من اللخميين من بعده يتولون الحيرة حتى ولى الفرس قُبَاذ بن فيروز (٤٤٨ـ ٥٣١م) وفى عهده ظهر مَزْدَك، وقام بالدعوة إلى الإباحية، فتبعه قباذ كما تبعه كثير من رعيته، ثم أرسل قباذ إلى ملك الحيرة - وهو المنذر بن ماء السماء (٥١٢ـ ٥٥٤ م) - يدعوه إلى اختيار هذا المذهب الخبيث، فأبى عليه ذلك حمية وأنفة، فعزله قباذ، وولى بدله الحارث بن عمرو بن حجر الكندى بعد أن أجاب دعوته إلى المذهب المزدكى.

وخلف قباذ كسرى أنوشروان (٥٣١ـ ٥٧٨م) وكان يكره هذا المذهب جدًّا، فقتل المزدك وكثيرًا ممن دان بمذهبه، وأعاد المنذر إلى ولاية الحيرة، وطلب الحارث بن عمرو، لكنه أفلت إلى دار كلب، فلم يزل فيهم حتى مات.

واستمر الملك بعد المنذر بن ماء السماء فى عقبه حتى كان النعمان بن المنذر (٥٨٣

---

(١) تاريخ الطبرى ٢ / ٥٤٠، واختاره ابن خلدون فى تاريخه ٢/ ٢/ ٢٣٨ وأن جذيمة ولى بعد عمرو ابن فهم، وكان ابن أخيه مالك بن فهم.

(٢) اليعقوبى ١/ ١٦٩، والمسعودى ٢/ ٩٠.

ـ٦٠٥ م) فإنه غضب عليه كسرى بسبب وشاية دبرها زيد بن عدى العبادى، فأرسل كسرى إلى النعمان يطلبه، فخرج النعمان حتى نزل سرا على هانئ بن مسعود سيد آل شيبان، وأودعه أهله وماله، ثم توجه إلى كسرى، فحبسه كسرى حتى مات. وولى على الحيرة بدله إياس بن قَبِيصة الطائى، وأمره أن يرسل إلى هانئ بن مسعود يطلب منه تسليم ما عنده، فأبى ذلك هانئ حمية، وآذن الملك بالحرب، ولم يلبث أن جاءته مرازبة كسرى وكتائبه فى موكب إياس، ودارت بين الفريقين معركة هائلة عند ذى قار، انتصر فيها بنو شيبان وانهزمت الفرس هزيمة نكراء. وهذا أول يوم انتصرت فيه العرب على العجم[١]، وهو بعد ميلاد الرسول ﷺ.

واختلف المؤرخون فى تحديد زمن هذه المعركة، فقيل: هو بعد ميلاد الرسول ﷺ بقليل، وأنه ﷺ ولد لثمانية أشهر من ولاية إياس بن قبيصة على الحيرة. وقيل: قبل النبوة بقليل - وهو الأقرب. وقيل: بعد النبوة بقليل. وقيل: بعد الهجرة. وقيل: بعد بدر. وقيل غير ذلك.

وولى كسرى على الحيرة بعد إياس حاكمًا فارسيًّا اسمه آزادبه بن ماهبيان بن مهرابنداد، وظل يحكم ١٧ عاما (٦١٤ـ ٦٣١م) ثم عاد الملك إلى آل لخم سنة ٦٣٢م، فتولى منهم المنذر ابن النعمان الملقب بالمعرور، ولكن لم تزد ولايته على ثمانية أشهر حتى قدم عليه خالد بن الوليد بعساكر المسلمين[٢].

الملك بالشام:

فى العهد الذى ماجت فيه العرب بهجرات القبائل سارت بطون من قضاعة إلى مشارف الشام وسكنت بها، وكانوا من بنى سُلَيْح بن حُلْوان الذين منهم بنو ضَجْعَم بن سليح المعروفون باسم الضجاعمة، فاصطنعهم الرومان؛ ليمنعوا عرب البرية من العبث، وليكونوا عدة ضد الفرس، وولوا منهم ملكًا، ثم تعاقب الملك فيهم سنين، ومن أشهر ملوكهم زياد بن الهَبُولة، ويقدر زمنهم من أوائل القرن الثانى الميلادى إلى نهايته تقريبًا، وانتهت ولايتهم بعد قدوم آل غسان، الذين غلبوا الضجاعمة على ما بيدهم وانتصروا عليهم، فولتهم الروم ملوكًا على عرب الشام، وكانت قاعدتهم مدينة بصرى،

---

(١) روى ذلك مرفوعًا عن رسول الله ﷺ خليفة بن خياط فى مسنده ص ٢٤، وابن سعد ٧/ ٧٧.

(٢) التفصيل عند الطبرى والمسعودى وابن قتيبة وابن خلدون والبلاذرى وابن الأثير وغيرهم.

ولم تزل تتوالى الغساسنة على الشام بصفتهم عمالًا لملوك الروم حتى كانت وقعة اليرموك سنة ١٣هـ، وانقاد للإسلام آخر ملوكهم جَبَلَة بن الأيهم فى عهد أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضي الله عنه[١].

الإمارة بالحجاز:

ولى إسماعيل عليه السلام زعامة مكة وولاية البيت طول حياته، وتوفى وله ١٣٧ سنة[٢]، ثم ولى واحد، وقيل: اثنان من أبنائه: نابت ثم قَيْدار، ويقال العكس، ثم ولى أمر مكة بعدهما جدهما مُضَاض بن عمرو الجُرْهُمِىّ، فانتقلت زعامة مكة إلى جرهم، وظلت فى أيديهم، وكان لأولاد إسماعيل مركز محترم؛ لما لأبيهم من بناء البيت، ولم يكن لهم من الحكم شيء[٣].

ومضت الدهور والأيام ولم يزل أمر أولاد إسماعيل عليه السلام ضئيلًا لا يذكر، حتى ضعف أمر جرهم قبيل ظهور بُخْتُنَصَّر، وأخذ نجم عدنان السياسى يتألق فى أفق سماء مكة منذ ذلك العصر، بدليل ما جاء بمناسبة غزو بختنصر للعرب فى ذات عِرْق، فإن قائد العرب فى الموقعة لم يكن جرهميًّا، بل كان عدنان نفسه[٤].

وتفرقت بنو عدنان إلى اليمن عند غزوة بختنصر الثانية (سنة ٥٨٧ ق. م) وذهب برخيا - صاحب يرمياه النبى الإسرائيلى بِمَعَدّ - إلى حران من الشام، فلما انكشف ضغط بختنصر رجع معد إلى مكة فلم يجد من جرهم إلا جَوْشَم بن جُلْهُمة، فتزوج بابنته مُعَانة فولدت له نزارًا[٥].

وساء أمر جرهم بمكة بعد ذلك، وضاقت أحوالهم، فظلموا الوافدين إليها، واستحلوا مال الكعبة[٦]، الأمر الذى كان يغيظ العدنانيين ويثير حفيظتهم، ولما نزلت خزاعة بِمَرِّ الظَّهْران، ورأت نفور العدنانيين من الجراهمة استغلت ذلك، فقامت بمعونة

---

(١) التفصيل عند الطبرى والمسعودى وابن قتيبة وابن خلدون والبلاذرى وابن الأثير وغيرهم.

(٢) سفر التكوين ٢٥ : ١٧، وتاريخ الطبرى ١/ ٣١٤، وفى قول عنده وعند اليعقوبى ١/ ٢٢٢ وغيرهما: إنه توفى وله مائة وثلاثون سنة.

(٣) سيرة ابن هشام ١/ ١١١- ١١٣، وقد ذكر ابن هشام ولاية نابت فقط من أولاد إسماعيل عليه السلام.

(٤) تاريخ الطبرى ١/ ٥٥٩.

(٥) تاريخ الطبرى ١/ ٥٥٩، ٥٦٠، ٢/ ٢٧١، وفتح البارى ٦/ ٦٢٢.

(٦) تاريخ الطبرى ٢/ ٢٨٤.

من بطون عدنان – وهم بنو بكر بن عبد مناف بن كنانة – بمحاربة جرهم، حتى أجلتهم عن مكة، واستولت على حكمها فى أواسط القرن الثانى للميلاد.

ولما لجأت جرهم إلى الجلاء سدوا بئر زمزم، ودرسوا موضعها، ودفنوا فيها عدة أشياء، قال ابن إسحاق: فخرج عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمى[١] بغزالى الكعبة[٢]، وبحجر الركن الأسود فدفنهما فى بئر زمزم، وانطلق هو ومن معه من جرهم إلى اليمن، فحزنوا على ما فارقوا من أمر مكة وملكها حزنًا شديدًا، وفى ذلك قال عمرو:

كأن لم يكن بين الحَجُون إلى الصَّفَا أنيس ولم يَسْمُر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا صُرُوف الليالى والجُدُود العَوَاثِر[٣]

ويقدر زمن إسماعيل عليه السلام بعشرين قرنًا قبل الميلاد، فتكون إقامة جرهم فى مكة واحدًا وعشرين قرنًا تقريبًا، وحكمهم على مكة زهاء عشرين قرنًا.

واستبدت خزاعة بأمر مكة دون بنى بكر، إلا أنه كان إلى قبائل مضر ثلاث خلال:

الأولى: الدفع بالناس من عرفة إلى المزدلفة، والإجازة بهم يوم النفر من منى، وكان يلى ذلك بنو الغَوْث بن مرة من بطون إلياس بن مضر، وكانوا يسمون صُوفَة، ومعنى هذه الإجازة أن الناس كانوا لا يرمون يوم النفر حتى يرمى رجل من صوفة، ثم إذا فرغ الناس من الرمى وأرادوا النفر من منى أخذت صوفة بجانبى العقبة، فلم يجز أحد حتى يمروا، ثم يخلون سبيل الناس، فلما انقرضت صوفة ورثهم بنو سعد بن زيد مناة من تميم.

الثانية: الإفاضة من جمع غداة النحر إلى منى، وكان ذلك فى بنى عدوان.

الثالثة: إنساء الأشهر الحرم، وكان ذلك إلى بنى فُقَيْم بن عدى من بنى كنانة[٤].

---

(١) هذا غير مضاض الجرهمى الأكبر الذى مضى ذكره فى قصة عليه السلام.

(٢) قال المسعودى: وكانت الفرس تهدى إلى الكعبة أموالًا فى صدر الزمان وجواهر، وقد كان ساسان بن بابك أهدى غزالين من الذهب وجواهر وسيوفًا وذهبًا كثيرًا فقذفه «عمرو» فى بئر زمزم، وقد ذهب قوم من مصنفى الكتب فى التواريخ وغيرها من السير أن ذلك كان لجرهم حين كانت بمكة، وجرهم لم تكن ذات مال فيضاف ذلك إليها، ويحتمل أن يكون لغيرها، والله أعلم مروج الذهب ١/ ٢٤٢، ٢٤٣.

(٣) ابن هشام ١/ ١١٤، ١١٥، وتاريخ الطبرى ٢/ ٢٨٥، والجدود: جمع الجَدِّ، وهو الحظ.

(٤) ابن هشام ١/ ٤٤، ١١٩، ١٢٢.

واستمرت (ولاية) خزاعة على مكة ثلاثمائة سنة(١). وفى وقت حكمهم انتشر العدنانيون فى نجد وأطراف العراق والبحرين، وبقى بأطراق مكة بطون من قريش وهم حُلُول وصِرْم(٢) متقطعون، وبيوتات متفرقون فى قومهم من بنى كنانة، وليس لهم من أمر مكة ولا البيت الحرام شىء حتى جاء قصى بن كلاب.(٣)

ويذكر من أمر قصى: أن أباه مات وهو فى حضن أمه، ونكح أمه رجل من بنى عُذْرَة - وهو ربيعة بن حرام - فاحتملها إلى بلاده بأطراف الشام، فلما شب قصى رجع إلى مكة، وكان واليها إذ ذاك حُلَيْل بن حَبْشِيَّة من خزاعة، فخطب قصى إلى حليل ابنته حُبَّى، فرغب فيه حليل وزوجه إياها(٤)، فلما مات حليل قامت حرب بين خزاعة وقريش، أدت أخيرًا إلى تغلب قصى على أمر مكة والبيت.

وهناك ثلاث روايات فى بيان سبب هذه الحرب:

الأولى: أن قصيًّا لما انتشر ولده وكثر ماله وعظم شرفه وهلك حليل، رأى أنه أولى بالكعبة وبأمر مكة من خزاعة وبنى بكر، وإن قريشًا رءوس آل إسماعيل وصريحهم، فكلم رجالًا من قريش وبنى كنانة فى إخراج خزاعة وبنى بكر عن مكة فأجابوه(٥).

الثانية: أن حليلًا - فيما تزعم خزاعة - أوصى قصيًّا بالقيام على الكعبة وبأمر مكة، ولكن أبت خزاعة أن تمضى ذلك لقصى فهاجت الحرب بينهما(٦).

الثالثة: أن حليلًا أعطى ابنته حبى ولاية البيت، واتخذ أبا غُبْشان(٧) الخزاعى وكيلا

---

(١) ياقوت: مادة «مكة»، وفتح الباري ٦ / ٦٣٣، ومروج الذهب للمسعودي ٢ / ٥٨.

(٢) الحلول- بضم الحاء- جمع حال بتشديد اللام بمعنى النازل: أي المقيم، والصرم - بكسر الصاد وسكون الراء: هو الطائفة من القوم ينزلون بإبلهم ناحية من الماء، والجمع: أصرام.

(٣) سيرة ابن هشام ١ / ١١٧.

(٤) ابن هشام ١/ ١١٧، ١١٨ وحُلَيل بضم الحاء مصغرًا، وحَبْشية بفتح فسكون، وهو ابن سلول بفتح فضم، ابن عمرو بن لحى بن حارثة بن عمرو بن عامر بن ماء السماء. وحُبّى بضم المهملة وتشديد الموحدة مع الإمالة، قاله الحافظ ابن حجر فى فتح البارى ٦ / ٦٣٣. وقال آخرون: حُبْشية بضم الحاء وسكون الباء وكسر الشين وتشديد الياء.

(٥) سيرة ابن هشام ١/ ١١٧، ١١٨، والطبرى ٢ / ٢٥٥، ٢٥٦.

(٦) سيرة ابن هشام ١/ ١١٨، والروض الأنف ١/ ١٤٢.

(٧) بضم الغين المعجمة وسكون الموحدة، واسمه المحرش أو سليم بن عمرو. فتح البارى ٦/ ٦٣٣، والروض الأنف ١/ ١٤٢.

لها، فقام أبو غبشان بسدانة الكعبة نيابة عن حبى، وكان فى عقله شيء، فلما مات حليل خدعه قصى، واشترى منه ولاية البيت بأذواد من الإبل أو بزق من الخمر، ولم ترض خزاعة بهذا البيع، وحاولوا منع قصى عن البيت، فجمع قصى رجالاً من قريش وبنى كنانة لإخراج خزاعة من مكة، فأجابوه[(١)].

وأيا ما كان، فلما مات حليل وفعلت صوفة ما كانت تفعل أتاهم قصى بمن معه من قريش وكنانة عند العقبة، فقال: نحن أولى بهذا منكم، فقاتلوه فغلبهم قصى على ما كان بأيديهم، وانحازت عند ذلك خزاعة وبنو بكر عن قصى، فبادأهم قصى وأجمع لحربهم، فالتقوا واقتتلوا قتالًا شديدًا حتى كثرت القتلى فى الفريقين جميعا، ثم تداعوا إلى الصلح فحكَّموا يَعْمُر بن عوف أحد بنى بكر، فقضى بأن قصيًّا أولى بالكعبة وبأمر مكة من خزاعة، وكل دم أصابه قصى منهم موضوع يشدخه تحت قدميه، وما أصابت خزاعة وبنو بكر ففيه الدية، وأن يخلى بين قصى وبين الكعبة، فسمى يعمر يومئذ: الشداخ[(٢)].

وكانت فترة تولى خزاعة أمر البيت ثلاثمائة سنة، واستولى قصى على أمر مكة والبيت فى أواسط القرن الخامس للميلاد سنة ٤٤٠ م[(٣)]،وبذلك صارت لقصى ثم لقريش السيادة التامة والأمر النافذ فى مكة، وصار قصى هو الرئيس الدينى لهذا البيت الذى كانت تفد إليه العرب من جميع أنحاء الجزيرة.

ومما فعله قصى بمكة أنه جمع قومه من منازلهم إلى مكة، وقطعها رباعًا بين قومه، وأنزل كل قوم من قريش منازلهم التى أصبحوا عليها، وأقر النسأة وآل صفوان وعدوان ومرة بن عوف على ما كانوا عليه من المناصب؛ لأنه كان يراه دينًا فى نفسه لا ينبغى تغييره[(٤)].

ومن مآثر قصى: أنه أسس دار الندوة بالجانب الشمالى من مسجد الكعبة، وجعل بابها إلى المسجد، وكانت مجمع قريش، وفيها تفصيل مهام أمورها، ولهذه الدار فضل على قريش؛ لأنها ضمنت اجتماع الكلمة وفض المشاكل بالحسنى[(٥)].

وكان لقصى من مظاهر الرياسة والتشريف:

---

(١) تاريخ اليعقوبى ١ / ٢٣٩، وفتح البارى ٦/ ٦٣٤، والمسعودى ٢ / ٥٨.

(٢) انظر التفصيل فى: سيرة ابن هشام ١/ ١٢٣، ١٢٤، وتاريخ الطبرى ٢/ ٢٥٥– ٢٥٨.

(٣) فتح البارى ٦/ ٦٣٣، والمسعودى ٢/ ٥٨، وقلب جزيرة العرب، ص ٢٣٢.

(٤) ابن هشام ١/ ١٢٤، ١٢٥.

(٥) ابن هشام ١/ ١٢٥، وإخبار الكرام بأخبار المسجد الحرام، ص ١٥٢.

١ - **رياسة دار الندوة**: ففيها كانوا يتشاورون فيما نزل بهم من جسام الأمور، وفيها كانوا يزوجون بناتهم.

٢ - **اللواء**: فكانت لا تعقد راية ولا لواء لحرب قوم من غيرهم إلا بيده أو بيد أحد أولاده، وفى هذه الدار.

٣ - **القيادة**: وهى إمارة الركب، فكانت لا تخرج ركب لأهل مكة فى تجارة أو غيرها إلا تحت إمارته أو إمارة أولاده.

٤ - **الحجابة**: وهى حجابة الكعبة،لا يفتح بابها إلا هو، وهو الذى يلى أمر خدمتها وسدانتها.

٥ - **سقاية الحاج**: وهى أنهم كانوا يملأون للحجاج حياضًا من الماء، يحلونها بشىء من التمر والزبيب، فيشرب الناس منها إذا وردوا مكة.

٦ - **رفادة الحاج**: وهى طعام كان يصنع للحاج على طريقة الضيافة، وكان قصى فرض على قريش خرجًا تخرجه فى الموسم من أموالها إلى قصى، فيصنع به طعامًا للحاج، يأكله من لم يكن له سعة ولا زاد[(١)].

كان كل ذلك لقصى، وكان ابنه عبد مناف قد شرف وساد فى حياته، وكان عبد الدار بكره. فقال له قصى فيما يقال: لألحقنك بالقوم وإن شرفوا عليك، فأوصى له بما كان يليه من مصالح قريش، فأعطاه دار الندوة واللواء والقيادة والحجابة والسقاية والرفادة، وكان قصى لا يخالف ولا يرد عليه شىء صنعه، وكان أمره فى حياته وبعد موته كالدين المتبع، فلما هلك أقام بنوه أمره لا نزاع بينهم، ولكن لما هلك عبد مناف نافس أبناؤه بنى عمهم عبد الدار فى هذه المناصب، وافترقت قريش فرقتين، وكاد يكون بينهم قتال، إلا أنهم تداعوا إلى الصلح، واقتسموا هذه المناصب، فصارت السقاية والرفادة والقيادة إلى بنى عبد مناف، وبقيت دار الندوة واللواء والحجابة بيد بنى عبد الدار. وقيل: كانت دار الندوة بالاشتراك بين الفريقين، ثم حكم بنو عبد مناف القرعة فيما أصابهم، فصارت السقاية والرفادة لهاشم والقيادة لعبد شمس، فكان هاشم بن عبد مناف هو الذى يلى السقاية والرفادة طول حياته، فلما مات خلفه أخوه المطلب بن عبد مناف، وولى بعده عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف جد رسول الله ﷺ، وبعده أبناؤه حتى جاء الإسلام والولاية إلى العباس. ويقال: إن قصيًّا

(١) ابن هشام ١ / ١٣٠، وتاريخ اليعقوبى ١/ ٢٤٠، ٢٤١.

هو الذى قسم المناصب على أولاده، ثم توارثها أبناؤهم حسب التفصيل المذكور، والله أعلم[١].

وكانت لقريش مناصب أخرى -سوى ما ذكرنا- وزعوها فيما بينهم، وكونوا بها دويلة - بل بتعبير أصح: شبه دويلة ديمقراطية - وكانت لهم من الدوائر والتشكيلات الحكومية ما يشبه فى عصرنا هذا دوائر البرلمان ومجالسها، وهاك لوحة من تلك المناصب:

١ـ **الإيسار**: أى تولية قداح الأصنام للاستقسام، وكان ذلك فى بنى جُمَح.

٢ - **تحجير الأموال**: أى تنظيم القربات والنذور التى كانت تهدى إلى الأصنام، وكذلك فصل الخصومات والمرافعات. وكان ذلك فى بنى سهم.

٣ - **الشورى**: وكانت فى بنى أسد.

٤ - **الأشناق**: أى تنظيم الديات والغرامات، وكان ذلك فى بنى تَيْم.

٥ - **العقاب**: أى حمل اللواء القومى، وكان ذلك فى بنى أمية.

٦ - **القبة**: أى تنظيم المعسكر، وكذلك قيادة الخيل، وكان فى بنى مخزوم.

٧ - **السفارة**: وكانت فى بنى عدى[٢].

الحكم فى سائر العرب:

قد تقدم ذكر هجرات القبائل القحطانية والعدنانية، وأنها اقتسمت البلاد العربية فيما بينها، فما كان من هذه القبائل بالقرب من الحيرة كانت تبعًا لملك العرب بالحيرة، وما كان منها فى بادية الشام كانت تبعًا للغساسنة، إلا أن هذه التبعية كانت اسمية لا فعلية، وأما ما كان منها فى البوادى فى داخل الجزيرة فكانت حرة مطلقة.

والحقيقة أن هذه القبائل كانت تختار لأنفسها رؤساء يسودونها، وأن القبيلة كانت حكومة مصغرة، أساس كيانها السياسى الوحدة العصبية، والمنافع المتبادلة فى حماية الأرض ودفع العدوان عنها.

وكانت درجة رؤساء القبائل فى قومهم كدرجة الملوك، فكانت القبيلة تبعًا لرأى سيدها فى السلم والحرب، لا تتأخر عنه بحال، وكان له من الحكم والاستبداد بالرأى ما

---

(١) ابن هشام ١/ ١٢٩- ١٣٢، ١٣٧، ١٤٢، ١٧٨، ١٧٩، وانظر: اليعقوبى ١/ ٢٤١.

(٢) تاريخ أرض القرآن ٢/ ١٠٤ - ١٠٦، والمعروف أن حمل اللواء كان من حق بنى عبدالدار كما تقدم، وإنما كانت القيادة العامة من حق بنى أمية.

يكون لدكتاتور قوى؛ حتى كان بعضهم إذا غضب غضب له ألوف من السيوف لا تسأله: فيم غضب، إلا أن المنافسة فى السيادة بين أبناء العم كانت تدعوهم إلى المصانعة بالناس من بذل الندى وإكرام الضيف والكرم والحلم، وإظهار الشجاعة والدفاع عن الغيرة، حتى يكسبوا المحامد فى أعين الناس، ولاسيما الشعراء الذين كانوا لسان القبيلة فى ذلك الزمان، وحتى تسمو درجتهم عن مستوى المنافسين.

وكان للسادة والرؤساء حقوق خاصة، فكانوا يأخذون من الغنيمة المِرْباع والصَّفِىّ والنَّشيطة والفُضُول، يقول الشاعر:

لـك الـمِـرْبَـاع فينا والـصَّـفَـايا   وحُكْمُـك والنَّشِـيطة والفُضُـول

والمرباع: ربع الغنيمة، والصفى: ما كان يصطفيه الرئيس، أى يختاره لنفسه قبل القسمة، والنشيطة: ما أصاب الرئيس فى الطريق قبل أن يصل إلى بيضة القوم. والفضول: ما فضل من القسمة مما لا تصح قسمته على عدد الغزاة، كالبعير والفرس ونحوهما.

الحالة السياسية:

بعد أن ذكرنا حكام العرب يجمل بنا أن نذكر جملة من أحوالهم السياسية حتى يتضح الوضع، فالأقطار الثلاثة التى كانت مجاورة للأجانب كانت حالتها السياسية فى تضعضع وانحطاط لا مزيد عليه. فقد كان الناس بين سادة وعبيد، أو حكام ومحكومين، فالسادة - ولاسيما الأجانب - كان لهم كل الغُنْم، والعبيد عليهم كل الغُرْم، وبعبارة أوضح: إن الرعايا كانت بمثابة مزرعة تورد المحصولات إلى الحكومات، والحكومات كانت تستخدمها فى ملذاتها وشهواتها، ورغائبها، وجورها، وعدوانها. أما الناس فكانوا فى عمايتهم يتخبطون، والظلم ينحط عليهم من كل جانب، وما فى استطاعتهم التذمر والشكوى، بل كانوا يسامون الخسف والجور والعذاب ألوانًا ساكتين، فقد كان الحكم استبداديا، والحقوق ضائعة مهدورة.

وأما القبائل المجاورة لهذه الأقطار فكانوا مذبذبين تتقاذفهم الأهواء والأغراض، مرة يدخلون فى أهل العراق، ومرة يدخلون فى أهل الشام.

وكانت أحوال القبائل داخل الجزيرة مفككة الأوصال، تغلب عليها المنازعات القبلية والاختلافات العنصرية والدينية، حتى قال ناطقهم:

ومـا أنـا إلا من غَـزِّيـة إن غَـوَتْ   غويـت، وإن ترشـد غزيـة أرشـد

ولم يكن لهم ملك يدعم استقلالهم، أو مرجع يرجعون إليه، ويعتمدون عليه وقت الشدائد.

وأما حكومة الحجاز فقد كانت تنظر إليها العرب نظرة تقدير واحترام، ويرونها قادة وسَدَنة المركز الدينى، وكانت تلك الحكومة فى الحقيقة خليطًا من الصدارة الدنيوية والحكومية والزعامة الدينية، حكمت بين العرب باسم الزعامة الدينية، وحكمت فى الحرم وما والاه بصفتها حكومة تشرف على مصالح الوافدين إلى البيت، وتنفذ حكم شريعة إبراهيم، وكانت لها من الدوائر والتشكيلات ما يشابه دوائر البرلمان - كما أسلفنا - ولكن هذه الحكومة كانت ضعيفة لا تقدر على حمل العبء كما وضح يوم غزو الأحباش.

ديانات العرب

كان معظم العرب يدينون بدين إبرهيم عليه السلام منذ أن نشأت ذريته فى مكة وانتشرت فى جزيرة العرب، فكانوا يعبدون الله ويوحدونه ويلتزمون بشعائر دينه الحنيف، حتى طال عليهم الأمد ونسوا حظًّا مما ذكروا به، إلا أنهم بقى فيهم التوحيد وعدة شعائر من هذا الدين، حتى جاء عمرو ابن لُحَيٍّ رئيس خزاعة، وكان قد نشأ على أمر عظيم من المعروف والصدقة والحرص على أمور الدين، فأحبه الناس ودانوا له، ظنًّا منهم أنه من أكابر العلماء وأفاضل الأولياء.

ثم إنه سافر إلى الشام، فرآهم يعبدون الأوثان، فاستحسن ذلك وظنه حقًّا؛ لأن الشام محل الرسل والكتب، فقدم معه بهُبَل وجعله فى جوف الكعبة، ودعا أهل مكة إلى الشرك بالله فأجابوه، ثم لم يلبث أهل الحجاز أن تبعوا أهل مكة؛ لأنهم ولاة البيت وأهل الحرم.

وكان هبل من العقيق الأحمر على صورة إنسان، مكسور اليد اليمنى، أدركته قريش كذلك، فجعلوا له يدًا من ذهب، وكان أول صنم للمشركين وأعظمه وأقدسه عندهم[١].

ومن أقدم أصنامهم مَناة، كانت لهُذَيْل وخزاعة، وكانت بالمُشَلَّل على ساحل البحر الأحمر حذو قُدَيْد، والمشلل: ثنية جبل يهبط منها إلى قديد[٢]. ثم اتخذوا اللات فى الطائف، وكانت لثقيف، وكانت فى موضع منارة مسجد الطائف اليسرى[٣]، ثم اتخذوا العُزَّى بوادى نخلة الشامية فوق ذات عِرْق، وكانت لقريش وبنى كنانة مع كثير من القبائل الأخرى[٤].

وكانت هذه الأصنام الثلاثة أكبر أوثان العرب، ثم كثر فيهم الشرك، وكثرت الأوثان فى كل بُقعة.

ويذكر أن عمرو بن لحى كان له رئى من الجن، فأخبره أن أصنام قوم نوح - ودًّا وسواعًا ويغوث ويعوق ونسرًا - مدفونة بجدة، فأتاها فاستثارها، ثم أوردها إلى تهامة، فلما جاء الحج دفعها إلى القبائل، فذهبت بها إلى أوطانها.

---

(١) كتاب الأصنام لابن الكلبى، ص ٢٨.

(٢) صحيح البخارى، ح (١٦٤٣، ١٧٩٠، ٤٤٩٥، ٤٨٦١)، فتح البارى ٣/ ٤٩٩، ٨/ ٦١٣.

(٣) كتاب الأصنام لابن الكلبى، ص ١٦.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٨، ١٩، وفتح البارى ٨/ ٦١٢، وتفسير القرطبى ١٧/ ٩٩.

فأما ود: فكانت لكلب، بجَرَش بدَوْمَة الجندل من أرض الشام مما يلى العراق، وأما سواع: فكانت لهذيل بن مُدْرِكة بمكان يقال له: رُهَاط من أرض الحجاز، من جهة الساحل بقرب مكة، وأما يغوث: فكانت لبنى غُطَيف من بنى مراد، بالجُرْف عند سبأ، وأما يعوق: فكانت لهمدان فى قرية خَيْوان من أرض اليمن، وخيوان: بطن من همدان، وأما نسر: فكانت لحمير لآل ذى الكلاع فى أرض حمير(١).

وقد اتخذوا لهذه الطواغيت بيوتًا كانوا يعظمونها كتعظيم الكعبة، وكانت لها سدنة وحجاب، وكانت تهدى لها كما يهدى للكعبة، مع اعترافهم بفضل الكعبة عليها(٢).

وقد سارت قبائل أخرى على نفس الطريق، فاتخذت لها أصنامًا آلهة وبنت لها بيوتًا مثلها، فكان منها ذو الخَلَصَة لدَوْس وخَثْعَم وبُجَيْلَة، ببلادهم من أرض اليمن، بتَبَالة بين مكة واليمن، وكانت فِلْس لبنى طيئ ومن يليها بين جبلى طيئ: سلمى وأجأ. وكان منها ريام، بيت بصنعاء لأهل اليمن وحمير، وكانت منها رضاء، بيت لبنى ربيعة ابن كعب بن سعد بن زيد، مناة بن تميم، وكان منها الكَعَبَات لبكر وتغلب ابنى وائل، ولإياد بِسَنْدَاد(٣).

وكان لدَوْس أيضًا صنم يقال له: ذو الكفين، ولبنى بكر ومالك وملكان أبناء كنانة صنم يقال له: سعد، وكان لقوم من عذرة صنم يقال له: شمس(٤)، وكان لخولان صنم يقال له: عُمْيانِس(٥).

وهكذا انتشرت الأصنام ودور الأصنام فى جزيرة العرب، حتى صار لكل قبيلة ثم فى كل بيت منها صنم، أما المسجد الحرام فكانوا قد ملأوه بالأصنام، ولما فتح رسول الله ﷺ مكة وجد حول البيت ثلاثمائة وستين صنمًا، فجعل يطعنها بعود فى يده حتى تساقطت، ثم أمر بها فأخرجت من المسجد وحرقت، وكان فى جوف الكعبة أيضًا أصنام وصور، منها صنم على صورة إبراهيم، وصنم على صورة إسماعيل - عليهما الصلاة والسلام - وبيدهما

(١) صحيح البخارى، ح (٤٩٢٠)، فتح البارى ٦ / ٥٤٩، ٨ / ٦٦٨، والمنمق لمحمد بن حبيب، ص ٣٢٧، ٣٢٨، وكتاب الأصنام لابن الكلبى، ص ٩ - ١١، ٥٦ - ٥٨.

(٢) ابن هشام ١/ ٨٣.

(٣) ابن هشام ١/ ٧٨، ٨٩، وتفسير ابن كثير: سورة نوح.

(٤) تاريخ اليعقوبى ١/ ٢٥٥.

(٥) ابن هشام ١/ ٨٠.

الأزلام، وقد أزيلت هذه الأصنام ومحيت هذه الصور أيضًا يوم الفتح[(١)].

وقد تمادى الناس فى غيهم هذا حتى يقول أبو رجاء العُطاردى ﷺ: كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجرًا هو خير منه ألقيناه وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجرًا جمعنا جُثْوَةً من تراب، ثم جئنا بالشاة فحلبناه عليه، ثم طفنا به[(٢)].

وجملة القول: إن الشرك وعبادة الأصنام كانا أكبر مظهر من مظاهر دين أهل الجاهلية الذين كانوا يزعمون أنهم على دين إبراهيم عليه السلام.

أما فكرة الشرك وعبادة الأصنام فقد نشأت فيهم على أساس أنهم لما رأوا الملائكة والرسل والنبيين وعباد الله الصالحين من الأولياء والأتقياء والقائمين بأعمال الخير - لما رأوهم أنهم أقرب خلق الله إليه، وأكرمهم درجة وأعظمهم منزلة عنده، وأنهم قد ظهرت على أيديهم بعض الخوارق والكرامات، ظنوا أن الله أعطاهم شيئًا من القدرة والتصرف فى بعض الأمور التى تختص بالله سبحانه وتعالى، وأنهم لأجل تصرفهم هذا ولأجل جاههم ومنزلتهم عند الله يستحقون أن يكونوا وسطاء بين الله سبحانه وتعالى وبين عامة عباده، فلا ينبغى لأحد أن يعرض حاجته على الله إلا بواسطة هؤلاء؛ لأنهم يشفعون له عند الله، وأن الله لا يرد شفاعتهم لأجل جاههم، كذلك لا ينبغى القيام بعبادة الله إلا بواسطة هؤلاء؛ لأنهم بفضل مرتبتهم سوف يقربونه إلى الله زلفى.

ولما تمكن منهم هذا الظن ورسخ فيهم هذا الاعتقاد اتخذوهم أولياء، وجعلوهم وسيلة فيما بينهم وبين الله سبحانه وتعالى، وحاولوا التقرب إليهم بكل ما رأوه من أسباب التقرب؛ فنحتوا لمعظمهم صورًا وتماثيل، إما حقيقية تطابق صورهم التى كانوا عليها، وإما خيالية تطابق ما تخيلوا لهم من الصور فى أذهانهم - وهذه الصور والتماثيل هى التى تسمى بالأصنام.

وربما لم ينحتوا لهم صورًا ولا تماثيل، بل جعلوا قبورهم وأضرحتهم وبعض مقراتهم ومواضع نزولهم واستراحتهم أماكن مقدسة، وقدموا إليها النذور والقرابين، وأتوا لها بأعمال الخضوع والطاعات، وهذه الأضرحة والمقرات والمواضع هى التى تسمى بالأوثان.

---

(١) صحيح البخارى، ح (١٦١٠، ٢٤٧٨، ٣٣٥١، ٣٣٥٢، ٤٢٨٧، ٤٢٨٨، ٤٧٢٠).

(٢) المصدر نفسه، ح (٤٣٧٦).

أما عبادتهم لهذه الأصنام والأوثان فكانت لهم فيها تقاليد وأعمال ابتدع أكثرها عمرو ابن لحى، وكانوا يظنون أن ما أحدثه عمرو بن لحى فهو بدعة حسنة، وليس بتغيير لدين إبراهيم عليه السلام، فكان من جملة عبادتهم للأصنام والأوثان أنهم:

١ - كانوا يعكفون عليها ويلتجئون إليها.. ويهتفون بها، ويستغيثونها فى الشدائد، ويدعونها لحاجاتهم، معتقدين أنها تشفع عند الله، وتحقق لهم ما يريدون.

٢ - وكانوا يحجون إليها ويطوفون حولها، ويتذللون عندها، ويسجدون لها.

٣ - وكانوا يتقربون إليها بأنواع من القرابين، فكانوا يذبحون وينحرون لها على أنصابها، كما كانوا يذبحون بأسمائها فى أى مكان.

وهذان النوعان من الذبح ذكرهما الله تعالى فى قوله: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة:٣]، وفى قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٢١].

٤ - وكان من أنواع التقرب إلى هذه الأصنام والأوثان أنهم كانوا يخصون لها شيئا من مآكلهم ومشاربهم حسبما يبدو لهم، وكذلك كانوا يخصون لها نصيبا من حرثهم وأنعامهم، ومن الطرائف: أنهم كانوا يخصون من ذلك جزءًا لله أيضًا. وكانت عندهم عدة أسباب ينقلون لأجلها إلى الأصنام ما كان لله، ولكن لم يكونوا ينقلون إلى الله ما كان لأصنامهم بحال، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأنعام].

٥ - وكان من أنواع التقرب إليها النذر فى الحرث والأنعام، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ﴾ [الأنعام: ١٣٨].

٦ - وكانت منها البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى.

قال سعيد بن المسيب: البحيرة: التى يمنع درها للطواغيت، فلا يحلبها أحد من الناس. والسائبة: كانوا يسيبونها لآلهتهم، فلا يحمل عليها شىء. والوصيلة: الناقة البكر تبكر فى أول نتاج الإبل بأنثى، ثم تثنى بعد بأنثى، وكانوا يسيبونها لطواغيتهم إن وصلت إحداهما بالأخرى، ليس بينهما ذكر. والحامى: فحل الإبل يضرب الضراب المعدود (العشر من الإبل) فإذا قضى ضرابه ودعوه للطواغيت، وأعفوه من الحمل، فلم يحمل عليه شىء

وسموه الحامى[١].

وقال ابن إسحاق: البحيرة بنت السائبة، هى الناقة إذا تابعت بين عشر إناث ليس بينهم ذكر، سيبت فلم يركب ظهرها، ولم يجز وبرها، ولم يشرب لبنها إلا ضيف، فما نتجت بعد ذلك من أنثى شقت أذنها، ثم خلى سبيلها مع أمها فلم يركب ظهرها، ولم يجز وبرها، ولم يشرب لبنها إلا ضيف، كما فعل بأمها، فهى البحيرة بنت السائبة. والوصيلة: الشاة إذا أتأمت عشر إناث متتابعات فى خمسة أبطن ليس بينهم ذكر جعلت وصيلة. قالوا: قد وصلت، فكان ما ولد بعد ذلك للذكور منهم دون إناثهم إلا أن يموت شىء فيشترك فى أكله ذكورهم وإناثهم. والحامى: الفحل إذا نتج له عشر إناث متتابعات ليس بينهن ذكر حمى ظهره، فلم يركب، ولم يجز وبره، وخلى فى إبله يضرب فيها، لا ينتفع منه بغير ذلك، وفى ذلك أنزل الله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٠٣﴾ [المائدة]، وأنزل: ﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ﴾ [الأنعام: ١٣٩]، وقيل فى تفسير هذه الأنعام غير ذلك[٢].

وقد مر عن سعيد بن المسيب أن هذه الأنعام كانت لطواغيتهم. وفى الصحيحين أن النبى ﷺ قال: «رأيت عمرو بن عامر بن لحى الخزاعى يجر قَصَبَه (أى أمعاءه) فى النار»[٣]؛ لأنه أول من غير دين إبراهيم، فنصب الأوثان وسيب السائبة، وبحر البحيرة، ووصل الوصيلة، وحمى الحامى[٤].

كانت العرب تفعل كل ذلك بأصنامهم معتقدين أنها تقربهم إلى الله وتوصلهم إليه، وتشفع لديه، كما فى القرآن: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن

(١) صحيح البخارى، ح (٤٦٢٣)، فتح البارى ٨/ ١٢٣، والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ٨/ ٥٣، ومابين المعقوفين من صحيح ابن حبان.

(٢) ابن هشام ١/ ٨٩، ٩٠، وانظر: المنمق لابن حبيب، ص ٣٢٨، ٣٢٩.

(٣) صحيح البخارى، ح (١٢١٢) فتح البارى ٣/ ٩٨، وح (٣٥٢١) فتح البارى ٦/ ٦٣٣، وح (٤٦٢٣) فتح البارى ٨/ ١٣٢.

(٤) نقله الحافظ فى الفتح ٦/ ٦٣٤ عن ابن إسحاق، ومثله عند ابن الكلبى فى الأصنام، ص ٨، وعند ابن حبيب فى المنمق، ص ٣٢٨، وبعض منها موجود فى صحيح البخارى مرفوعا، وبعض آخر عزاه الحافظ إلى صحيح مسلم من رواية أبى صالح عن أبى هريرة، انظر: فتح البارى ٨/ ٢٨٥.

دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

وكانت العرب تستقسم بالأزلام، والزَّلَم: القدح الذى لا ريش له، وكانت الأزلام ثلاثة أنواع:

١ - نوع فيه ثلاثة أسهم، أحدها: (نعم)، وثانيها: (لا)، وثالثها: (غُفْل)، كانوا يستقسمون بها فيما يريدون من العمل؛ من نحو السفر والنكاح وأمثالهما. فإن خرج (نعم) عملوا به، وإن خرج (لا) أخروه عامه ذلك حتى يأتوه مرة أخرى، وإن طلع (غفل) أعادوا الضرب حتى يخرج واحد من الأولين.

٢ - ونوع فيه المياه والعقول والديات.

٣- ونوع فيه (منكم) أو (من غيركم) أو (ملصق)، فكانوا إذا شكوا فى نسب أحدهم ذهبوا به إلى هبل، وبمائة درهم وجزور، فأعطوها صاحب القداح، فإن خرج (منكم) كان منهم وسيطًا، وإن خرج عليه (من غيركم) كان حليفًا، وإن خرج عليه (ملصق) كان على منزلته فيهم، لا نَسَب ولا حِلْف(١).

ويقرب من هذا الميسر والقداح، وهو ضرب من القمار، كانوا يقتسمون به لحم الجزور التى كانوا يتقامرون عليها؛ وذلك أنهم كانوا يشترون الجزور نسيئة فينحرونها ويقسمونها ثمانية وعشرين قسمًا، أو عشرة أقسام، ثم يضربون عليها بالقداح، وفيها (الرابح) و (الغفل)، فمن خرج له قدح (الرابح) فاز، وأخذ نصيبه من الجزور، ومن خرج له (الغفل) خاب وغرم ثمنها(٢).

وكانوا يؤمنون بأخبار الكهنة والعرافين والمنجمين، والكاهن: هو من يتعاطى الأخبار عن الكوائن فى المستقبل، ويدعى معرفة الأسرار ومن الكهنة من يزعم أن له تابعًا من الجن، ومنهم من يدعى إدراك الغيب بفهم أعطيه، ومنهم من يدعى معرفة الأمور بمقدمات وأسباب يستدل بها على مواقعها من كلام من يسأله أو فعله أو حاله، وهذا القسم يسمى عرافًا، كمن يدعى معرفة المسروق ومكان السرقة والضالة ونحوهما. والمنجم: من ينظر فى النجوم أى الكواكب، ويحسب سيرها ومواقيتها، ليعلم بها أحوال العالم وحوادثه التى تقع فى المستقبل(٣).

---

(١) انظر: فتح البارى ٨/ ٢٧٧، وابن هشام ١/ ١٥٢، ١٥٣.

(٢) بسطه اليعقوبى فى تاريخه ١/ ٢٥٩، ٢٦١ مع اختلاف فى بعض الجزئيات.

(٣) اللسان وكتب اللغة.

والتصديق بأخبار المنجمين هو فى الحقيقة إيمان بالنجوم، وكان من إيمانهم بالنجوم الإيمان بالأنواء، فكانوا يقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا[١].

وكانت فيهم الطيرة (بكسر ففتح) وهى التشاؤم بالشىء، وأصله أنهم كانوا يأتون الطير أو الظبى فينفرونه، فإن أخذ ذات اليمين مضوا إلى ما قصدوا وعدوه حسنًا، وإن أخذ ذات الشمال انتهوا عن ذلك وتشاءموا، وكانوا يتشاءمون كذلك إن عرض الطير أو الحيوان فى طريقهم.

ويقرب من هذا تعليقهم كعب الأرنب، والتشاؤم ببعض الأيام والشهور والحيوانات والدور والنساء، والاعتقاد بالعدوى والهامة، فكانوا يعتقدون أن المقتول لا يسكن جأشه ما لم يؤخذ بثأره، وتصير روحه هامة أى بومة تطير فى الفلوات، وتقول: صدى صدى أو اسقونى اسقونى، فإذا أخذ بثأره سكن واستراح[٢].

كان أهل الجاهلية على ذلك وفيهم بقايا من دين إبراهيم، لم يكونوا قد تركوه كله - مثل تعظيم البيت، والطواف به، والحج، والعمرة، والوقوف بعرفة والمزدلفة، وإهداء البدن - وإنما كانوا قد ابتدعوا فى ذلك بدعًا:

منها: أن قريشًا كانوا يقولون: نحن بنو إبراهيم وأهل الحرم، وولاة البيت وقاطنو مكة، وليس لأحد من العرب مثل حقنا ومنزلتنا - وكانوا يسمون أنفسهم الحُمْس - فلا ينبغى لنا أن نخرج من الحرم إلى الحل، فكانوا لا يقفون بعرفة، ولا يفيضون منها، وإنما كانوا يفيضون من المزدلفة وفيهم أنزل الله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ ﴾ [البقرة: ١٩٩][٣].

ومنها: أنهم قالوا: لا ينبغى للحمس أن يأقِطوا الأقِط ولا يسلأوا السمن وهم حرم، ولا يدخلوا بيتًا من شعر، ولا يستظلوا إن استظلوا إلا فى بيوت الأدم ما داموا حرمًا[٤].

ومنها: أنهم قالوا: لا ينبغى لأهل الحِلِّ أن يأكلوا من طعام جاءوا به من الحل إلى

---

(١) انظر: صحيح البخارى، ح (٨٤٦، ١٠٣٨، ٤١٤٧، ٧٥٠٣)، وصحيح مسلم ١/ ٨٣، ح (٧١).

(٢) انظر: صحيح البخارى، ح (٥٧٥٧، ٥٧٧٠) مع حاشيته الهندية.

(٣) ابن هشام ١/ ١٩٩، وصحيح البخارى، ح «١٦٦٥ ، ٤٥٢٠». وسُموا حُمْسا؟ لتحمسهم لدينهم.

(٤) المصدر الأول نفسه ١/ ٢٠٢ وأَقَط الأقِط: أى صنعه، والأقط: شىء يتخذ من اللبن المخيض، يطبخ ثم يترك حتى يمصل؛ أى يتقاطر ماؤه ويذهب، وسلأ السمن: أخرجه من اللبن.

الحرم، إذا جاءوا حجاجا أو عمارًا[١].

ومنها: أنهم أمروا أهل الحل ألا يطوفوا بالبيت إذا قدموا أول طوافهم إلا فى ثياب الحمس، وكانت الحمس يحتسبون على الناس، يعطى الرجل الرجل الثياب يطوف فيها، وتعطى المرأة المرأة الثياب، تطوف فيها، فإن لم يجدوا شيئًا فكان الرجال يطوفون عراة، وكانت المرأة تضع ثيابها كلها إلا درعًا مفرجًا ثم تطوف فيه، وتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله

وأنزل الله فى ذلك: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف: ٣١]. فإن تكرم أحد من الرجل والمرأة فطاف فى ثيابه التى جاء بها من الحل ألقاها بعد الطواف، ولا ينتفع بها هو ولا أحد غيره[٢].

ومنها: أنهم كانوا لا يأتون بيوتهم من أبوابها فى حال الإحرام، بل كانوا ينقبون فى ظهور البيوت نقبًا يدخلون ويخرجون منه، وكانوا يحسبون ذلك الجفاء برّا، وقد نهى عنه القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ بِأَن تَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٨٩﴾[٣] [البقرة].

كانت هذه الديانة - ديانة الشرك وعبادة الأوثان، والاعتقاد بالأوهام والخرافات - هى الديانة السائدة فى جزيرة العرب، وقد وجدت اليهودية والنصرانية والمجوسية والصابئية سبلًا للدخول فى ربوعها.

ولليهود دوران - على الأقل - مثلوهما فى جزيرة العرب:

الأول: هجرتهم فى عهد الفتوح البابلية والآشورية فى فلسطين، فقد نشأ عن الضغط على اليهود، وعن تخريب بلادهم وتدمير هيكلهم على يد الملك بُخْتُنَصر سنة ٥٨٧ ق. م، وسبى أكثرهم إلى بابل أن قسمًا منهم هجر البلاد الفلسطينية إلى الحجاز، وَتَوطَّن فى ربوعها الشمالية[٤].

---

(١) ابن هشام ١/ ٢٠٢.

(٢) ابن هشام ١/ ٢٠٢، ٢٠٣، وصحيح البخارى، ح (١٦٦٥).

(٣) صحيح البخارى، ح (١٨٠٣، ٤٥١٢)، وتفسير ابن جرير: تفسير الآية، وفتح البارى ٣/ ٦٢١، ٦٢٢.

(٤) قلب جزيرة العرب، ص ٢٥١.

الدور الثانى: يبدأ من احتلال الرومان لفلسطين بقيادة تيطس الرومانى سنة ٧٠م، فقد نشأ عن ضغط الرومان على اليهود وعن تخريب الهيكل وتدميره أن قبائل عديدة من اليهود رحلت إلى الحجاز، واستقرت فى يثرب وخيبر وتيماء، وأنشأت فيها القرى والآطام والقلاع، وانتشرت الديانة اليهودية بين قسم من العرب عن طريق هؤلاء المهاجرين، وأصبح لها شأن يذكر فى الحوادث السياسية التى سبقت ظهور الإسلام، والتى حدثت فى صدره. وحينما جاء الإسلام كانت القبائل اليهودية المشهورة هى: خيبر والنضير والمُصْطَلَق وقريظة وقينقاع، وذكر السمهودى أن عدد القبائل اليهودية التى نزلت بيثرب بين حين وآخر: يزيد على عشرين(١).

ودخلت اليهودية فى اليمن من قبل تُبَّان أسعد أبى كَرَب، فإنه ذهب مقاتلًا إلى يثرب، واعتنق هناك اليهودية، وجاء بحبرين من بنى قريظة إلى اليمن، فأخذت اليهودية إلى التوسع والانتشار فيها، ولما ولى اليمن بعده ابنه يوسف ذو نُوَاس هجم على النصارى من أهل نجران ودعاهم إلى اعتناق اليهودية، فلما أبوا خدّ لهم الأخدود وأحرقهم بالنار، ولم يفرق بين الرجل والمرأة والأطفال الصغار والشيوخ الكبار، ويقال: إن عدد المقتولين ما بين عشرين ألفًا إلى أربعين ألفًا(٢). وقع ذلك فى شهر أكتوبر سنة ٥٢٣م(٣). وقد ذكرهم الله تعالى فى القرآن الكريم فى سورة البروج؛ إذ يقول: ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ ﴾ [البروج].

* أما الديانة النصرانية، فقد جاءت إلى بلاد العرب عن طريق احتلال الحبشة وبعض البعثات الرومانية، وكان أول احتلال الأحباش لليمن سنة ٣٤٠ م، ولكن لم يطل أمد هذا الاحتلال، فقد طردوا منها ما بين عامي ٣٧٠ـ ٣٧٨ م(٤)، إلا أنهم شجعوا على نشر النصرانية وتشجعوا لها، وقد وصل أثناء هذا الاحتلال رجل زاهد مستجاب الدعوات وصاحب كرامات - اسمه فيميون - إلى نجران، ودعاهم إلى دين النصرانية، فلبوا دعوته، واعتنقوا النصرانية؛ لما رأوا من آيات صدقه وصدق دينه(٥).

(١) وفاء الوفا ١/ ١٦٥ مع المصدر السابق.

(٢) انظر للتفصيل: ابن هشام ١/ ٢٠- ٢٢، ٢٧، ٣١، ٣٥، وتفسير سورة البروج من كتب التفاسير.

(٣) اليمن عبر التاريخ، ص ١٥٨، ١٥٩.

(٤) اليمن عبر التاريخ، ص ١٥٨، ١٥٩، وتاريخ العرب قبل الإسلام، ص ١٢٢، ٤٣٢.

(٥) انظر في ذلك مفصلًا: ابن هشام ١/ ٣١-٣٤.

ولما احتلت الأحباش اليمن مرة أخرى عام ٥٢٥م - كرد فعل على ما أتاه ذو نواس من تحريق نصارى نجران فى الأخدود، وتمكن أبرهة الأشرم من حكومة اليمن - أخذ ينشر الديانة النصرانية بأوفر نشاط وأوسع نطاق، حتى بلغ من نشاطه أنه بنى كعبة باليمن، وأراد أن يصرف حج العرب إليها ويهدم بيت الله الذى بمكة، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى.

وقد اعتنق النصرانية العرب الغساسنة وقبائل تغلب وطيىء وغيرهما لمجاورة الرومان، بل قد اعتنقها بعض ملوك الحيرة أيضًا.

* أما المجوسية، فكان ما كان منها فى العرب المجاورين للفرس، فكانت فى عراق العرب وفى البحرين - الأحسا - وهَجَر وما جاورها من منطقة سواحل الخليج العربى، ودان لها رجال من اليمن فى زمن الاحتلال الفارسى.

* أما الصابئية - وهى ديانة تمتاز بعبادة الكواكب وبالاعتقاد فى أنواء المنازل وتأثير النجوم وأنها هى المدبرة للكون - فقد دلت الحفريات والتنقيبات فى بلاد العراق وغيرها أنها كانت ديانة قوم إبراهيم الكلدانيين، وقد دان بها كثير من أهل الشام وأهل اليمن فى غابر الزمان، وبعد تتابع الديانات الجديدة من اليهودية والنصرانية، تضعضع بنيان الصابئية وخمد نشاطها، ولكن لم يزل فى الناس بقايا من أهل هذه الديانة مختلطين مع المجوس أو مجاورين لهم فى عراق العرب وعلى شواطئ الخليج العربى[1]. وقد وجد شىء من الزندقة فى بعض العرب، وكانت وصلت إليهم عن طريق الحيرة، كما وجدت فى بعض قريش لاحتكاكهم بالفرس عن طريق التجارة.

الحالة الدينية:

كانت هذه الديانات هى ديانات العرب حين جاء الإسلام، وقد أصاب هذه الديانات الانحلال والبوار، فالمشركون الذين كانوا يدعون أنهم على دين إبراهيم كانوا بعيدين عن أوامر ونواهى شريعة إبراهيم، مهملين ما أتت به من مكارم الأخلاق. وكثرت فيهم المعاصى، ونشأ فيهم على توالى الزمان ما ينشأ فى الوثنيين من عادات وتقاليد تجرى مجرى الخرافات الدينية، وأثرت فى الحياة الاجتماعية والسياسية والدينية تأثيرًا بالغًا جدًّا.

* أما اليهودية، فقد انقلبت رياء وتحكمًا، وصار رؤساؤها أربابًا من دون الله،

---

(١) تاريخ أرض القرآن ٢/ ١٩٣- ٢٠٨.

يتحكمون فى الناس ويحاسبونهم حتى على خطرات النفس وهمسات الشفاه، وجعلوا همهم الحظوة بالمال والرياسة وإن ضاع الدين وانتشر الإلحاد والكفر، والتهاون بالتعاليم التى حض الله عليها، وأمر كل فرد بتقديسها.

* وأما النصرانية، فقد عادت وثنية عسرة الفهم، وأوجدت خلطًا عجيبًا بين الله والإنسان، ولم يكن لها فى نفوس العرب المتدينين بهذا الدين تأثير حقيقى؛ لبعد تعاليمها عن طراز المعيشة التى ألفوها، ولم يكونوا يستطيعون الابتعاد عنها.

وأما سائر أديان العرب: فكانت أحوال أهلها كأحوال المشركين، فقد تشابهت قلوبهم، وتواردت عقائدهم، وتوافقت تقاليدهم وعوائدهم.

صور من المجتمع العربى الجاهلي

بعد البحث عن سياسة الجزيرة وأديانها يجمل بنا أن نلقى شيئًا من الضوء على أحوالها الاجتماعية والاقتصادية والخلقية، وفيما يلى بيانها بإيجاز:

الحالة الاجتماعية:

كانت فى العرب أوساط متنوعة تختلف أحوال بعضها عن بعض، فكانت علاقة الرجل مع أهله فى الأشراف على درجة كبيرة من الرقى والتقدم، وكان لها من حرية الإرادة ونفاذ القول القسط الأوفر، وكانت محترمة مصونة تُسَلُّ دونها السيوف، وتراق الدماء، وكان الرجل إذا أراد أن يمتدح بما له فى نظر العرب المقام السامى من الكرم والشجاعة لم يكن يخاطب فى معظم أوقاته إلا المرأة، وربما كانت المرأة إذا شاءت جمعت القبائل للسلام، وإن شاءت أشعلت بينهم نار الحرب والقتال، ومع هذا كله فقد كان الرجل يعتبر بلا نزاع رئيس الأسرة وصاحب الكلمة فيها، وكان ارتباط الرجل بالمرأة بعقد الزواج تحت إشراف أوليائها، ولم يكن من حقها أن تفتات عليهم.

بينما هذه حال الأشراف، كان هناك فى الأوساط الأخرى أنواع من الاختلاط بين الرجل والمرأة، لا نستطيع أن نعبر عنه إلا بالدعارة والمجون والسفاح والفاحشة. روى البخارى وغيره عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:

«إن النكاح فى الجاهلية كان على أربعة أنحاء: فنكاح منها نكاح الناس اليوم؛ يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته فيصدقها ثم ينكحها، ونكاح آخر: كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها: أرسلى إلى فلان فاستبضعى منه، ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبدًا حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذى تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب، وإنما يفعل ذلك رغبة فى نَجَابة الولد، فكان هذا النكاح [يسمى] نكاح الاستبضاع، ونكاح آخر: يجتمع الرهط دون العشرة، فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها، فإذا حملت، ووضعت ومر [ت] ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، [فـ] تقول لهم: قد عرفتم الذى كان من أمركم، وقد ولدت، فهو ابنك يا فلان، [فـ] تسمى من أحبت [منهم] باسمه، فيلحق به ولدها. لا يستطيع أن يمتنع منه الرجل،ونكاح رابع: يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها،وهن البغايا،كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علمًا، فمن أرادهن دخل عليهن،

فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها، ودعوا لهم القافة، ثم ألحقوا ولدها بالذى يرون، فالتاطته به، ودعى ابنه، لا يمتنع من ذلك، فلما بعث [الله] محمدًا ﷺ بالحق هدم نكاح [أهل] الجاهلية كله إلا نكاح الإسلام اليوم»[(١)].

وكانت عندهم اجتماعات بين الرجل والمرأة تعقدها شفار السيوف، وأسنة الرماح، فكان المتغلب فى حروب القبائل يسبى نساء المقهور فيستحلها، ولكن الأولاد الذين تكون هذه أمهم يلحقهم العار مدة حياتهم.

وكان من المعروف فى أهل الجاهلية أنهم كانوا يعددون بين الزوجات من غير حد معروف ينتهى إليه، حتى حددها القرآن فى أربع. وكانوا يجمعون بين الأختين، وكانوا يتزوجون بزوجة آبائهم إذا طلقوها أو ماتوا عنها حتى نهى عنهما القرآن [سورة النساء: ٢٢، ٢٣]، وكان الطلاق والرجعة بيد الرجال، ولم يكن لهما حد معين حتى حددهما الإسلام[(٢)].

وكانت فاحشة الزنا سائدة فى جميع الأوساط، لا نستطيع أن نخص منها وسطًا دون وسط، أو صنفًا دون صنف إلا أفرادًا من الرجال والنساء ممن كان تعاظم نفوسهم يأبى الوقوع فى هذه الرذيلة، وكانت الحرائر أحسن حالًا من الإماء، والطامة الكبرى هى الإماء، ويبدو أن الأغلبية الساحقة من أهل الجاهلية لم تكن تحس بعار فى الانتساب إلى هذه الفاحشة، روى أبو داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قام رجل فقال: يا رسول الله، إن فلانًا ابنى، عاهرت بأمه فى الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: **«لا دعوة فى الإسلام، ذهب أمر الجاهلية، الولد للفراش وللعاهر الحَجَر»**[(٣)]، وقصة اختصام سعد بن أبى وقاص وعبد بن زَمْعَة فى ابن أمة زمعة – وهو عبد الرحمن ابن زمعة – معروفة[(٤)].

وكانت علاقة الرجل مع أولاده على أنواع شتى، فمنهم من يقول:

---

(١) صحيح البخارى، ح (٥١٢٧)، وسنن أبى داود: كتاب النكاح، باب وجوه النكاح التى كان يتناكح بها أهل الجاهلية. وما بين المعقوفين من سن أبى داود.

(٢) سنن أبى داود: باب نسخ المراجعة بعد التطليقات الثلاث. وهذا الذى ذكره المفسرون فى سبب نزول قوله تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

(٣) أبو داود: باب الولد للفراش، ومسند أحمد ٢/ ٢٠٧.

(٤) وانظر لهذه القصة: صحيح البخارى، ح (٢٠٥٣، ٢٢١٨، ٢٤٢١، ٢٥٣٣، ٢٧٤٥، ٤٣٠٣، ٦٧٤٩، ٦٧٦٥، ٦٨١٧، ٧١٨٢) فتح البارى ٤ / ٣٤٢.

إنـــما أولادنــــــا بيـنـنـا أكـبـادنـا تمشى عـلـى الأرض

ومنهم من كان يئد البنات خشية العار والإنفاق، ويقتل الأولاد خشية الفقر والإملاق:[الأنعام: ١٥١، النحل:٥٨، ٥٩، الإسراء:٣١، التكوير:٨] ولكن لا يمكن لنا أن نعد هذا من الأخلاق المنتشرة السائدة، فقد كانوا أشد الناس احتياجًا إلى البنين ليتقوا بهم العدو.

أما معاملة الرجل مع أخيه وأبناء عمه وعشيرته فقد كانت موطدة قوية، فقد كانوا يحيون للعصبية القبلية ويموتون لها، وكانت روح الاجتماع سائدة بين القبيلة الواحدة تزيدها العصبية، وكان أساس النظام الاجتماعى هو العصبية الجنسية والرحم، وكانوا يسيرون على المثل السائر: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا» على المعنى الحقيقى من غير التعديل الذى جاء به الإسلام؛ من أن نصر الظالم كفه عن ظلمه، إلا أن التنافس فى الشرف والسؤدد كثيرًا ما كان يفضى إلى الحروب بين القبائل التى كان يجمعها أب واحد، كما نرى ذلك بين الأوس والخزرج، وعَبْس وذُبْيان، وبَكْر وتَغْلِب وغيرها.

أما العلاقة بين القبائل المختلفة فقد كانت مفككة الأوصال تمامًا، وكانت قواهم متفانية فى الحروب، إلا أن الرهبة والوجل من بعض التقاليد والعادات المشتركة بين الدين والخرافة ربما كان يخفف من حدتها وصرامتها. وأحيانًا كانت الموالاة والحلف والتبعية تفضى إلى اجتماع القبائل المتغايرة. وكانت الأشهر الحرم رحمة وعونًا لهم على حياتهم وحصول معايشهم. فقد كانوا يأمنون فيها تمام الأمن؛ لشدة التزامهم بحرمتها، يقول أبو رجاء العُطاردى: إذا دخل شهر رجب قلنا: مُنَصِّلُ الأسِنَّة؛ فلا ندع رمحًا فيه حديدة ولا سهمًا فيه حديدة إلا نزعناه، وألقيناه شهر رجب[١]. وكذلك فى بقية الأشهر الحرم[٢].

وقصارى الكلام أن الحالة الاجتماعية كانت فى الحضيض من الضعف والعماية، فالجهل ضارب أطنابه، والخرافات لها جولة وصولة، والناس يعيشون كالأنعام، والمرأة تباع وتشترى وتعامل كالجمادات أحيانا، والعلاقة بين الأمة واهية مبتوتة، وما كان من الحكومات فجُلُّ همتها ملء الخزائن من رعيتها أو جر الحروب على مناوئيها.

---

(١) صحيح البخارى، ح (٤٣٧٦)..

(٢) فتح البارى ٨/ ٩١.

الحالة الاقتصادية:

أما الحالة الاقتصادية، فتبعت الحالة الاجتماعية، ويتضح ذلك إذا نظرنا فى طرق معايش العرب. فالتجارة كانت أكبر وسيلة للحصول على حوائج الحياة، والجولة التجارية لا تتيسر إلا إذا ساد الأمن والسلام، وكان ذلك مفقودًا فى جزيرة العرب إلا فى الأشهر الحرم، وهذه هى الشهور التى كانت تعقد فيها أسواق العرب الشهيرة من عُكاظ وذى المجَاز ومَجَنَّة وغيرها.

وأما الصناعات، فكانوا أبعد الأمم عنها، ومعظم الصناعات التى كانت توجد فى العرب من الحياكة والدباغة وغيرها كانت فى أهل اليمن والحيرة ومشارف الشام، نعم، كان فى داخل الجزيرة شىء من الزراعة والحرث واقتناء الأنعام، وكانت نساء العرب كافة يشتغلن بالغزل، لكن كانت الأمتعة عرضة للحروب، وكان الفقر والجوع والعرى عامًّا فى المجتمع.

الأخلاق:

لا شك أن أهل الجاهلية كانت فيهم دنايا ورذائل وأمور ينكرها العقل السليم، ويأباها الوجدان، ولكن كانت فيهم من الأخلاق الفاضلة المحمودة ما يروع الإنسان ويفضى به إلى الدهشة والعجب، فمن تلك الأخلاق:

١ - **الكرم**: وكانوا يتبارون فى ذلك ويفتخرون به، وقد استنفدوا فيه نصف أشعارهم بين ممتدح به ومُثْنٍ على غيره، كان الرجل يأتيه الضيف فى شدة البرد والجوع وليس عنده من المال إلا ناقته التى هى حياته وحياة أسرته، فتأخذه هزة الكرم فيقوم إليها، فيذبحها لضيفه. ومن آثار كرمهم أنهم كانوا يتحملون الديات الهائلة والحمالات المدهشة، يكفون بذلك سفك الدماء، وضياع الإنسان، ويمتدحون بها مفتخرين على غيرهم من الرؤساء والسادات.

وكان من نتائج كرمهم: أنهم كانوا يتمدحون بشرب الخمور، لا لأنها مفخرة فى ذاتها؛ بل لأنها سبيل من سبل الكرم، ومما يسهل السَّرَف على النفس، ولأجل ذلك كانوا يسمون شَجَرَ العنب بالكَرْم، وخَمْرَه بِبِنْتِ الكرم. وإذا نظرت إلى دواوين أشعارالجاهلية تجد ذلك بابًا من أبواب المديح والفخر، يقول عنترة بن شداد العبسى فى معلقته:

ولقد شَرِبْتُ من المُدَامَة بَعْدَ ما ... رَكَد الهَواجِرُ بالمَشُوفِ المُعْلِمِ(١)

---

(١) المدامة: الخمر. الهواجر، جمع هاجرة: نصف النهار. المشوف: المجلو الصافى. المعلم: الذى وضعت عليه علامة.

بـزُجَـاجَـةٍ صَـفْـراء ذات أسِـرَّة   قُرِنَتْ بأزهرَ بالشِّمَال مُـفَـدَّمِ[(١)]
فـإذا شَـرِبـتُ فإننى مُسْتَهْلِك   مالى وعِرْضِى وافِـرٌ لم يُكْلَمِ[(٢)]
وإذا صَحَوْتُ فما أُقَصِّرُ عن نَدَى   وكما عَلمت شمائلى وَتكَرُّمِى

ومن نتائج كرمهم: اشتغالهم بالميسر، فإنهم كانوا يرون أنه سبيل من سبل الكرم؛ لأنهم كانوا يطعمون المساكين ما ربحوه أو ما كان يفضل عن سهام الرابحين؛ ولذلك ترى القرآن لا ينكر نفع الخمر والميسر وإنما يقول: ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ﴾ [البقرة: ٢١٩].

٢ - **الوفاء بالعهد**: فقد كان العهد عندهم دينًا يتمسكون به، ويستهينون فى سبيله قتل أولادهم، وتخريب ديارهم، وتكفى فى معرفة ذلك قصة هانئ بن مسعود الشيبانى، والسَّمَوْأل بن عاديا، وحاجب بن زرارة التميمى[(٣)].

٣ - **عزة النفس والإباء عن قبول الخسف والضيم**: وكان من نتائج هذا فرط الشجاعة وشدة الغيرة، وسرعة الانفعال، فكانوا لا يسمعون كلمة يشمون منها رائحة الذل والهوان إلا قاموا إلى السيف والسنان، وأثاروا الحروب العوان، وكانوا لا يبالون بتضحية أنفسهم فى هذا السبيل.

٤ - **المضى فى العزائم**: فإذا عزموا على شىء يرون فيه المجد والافتخار، لا يصرفهم عنه صارف، بل كانوا يخاطرون بأنفسهم فى سبيله.

٥ - **الحلم، والأناة، والتؤدة**: كانوا يتمدحون بها، إلا أنها كانت فيهم عزيزة الوجود؛ لفرط شجاعتهم وسرعة إقدامهم على القتال.

---

(١) أسرة، جمع سرار: خطوط الوجه وأمثاله، والمراد هنا خطوط فى الكأس. أزهر: صفة إناء الخمر. مفدم: الذى وضع عليه الفدام، وهو ما يوضع فى فم الإبريق ليصفى به ما فيه.

(٢) لم يكلم. لم يجرح.

(٣) مضت قصة هانئ تحت عنوان: الملك بالحيرة. وأما قصة سموأل فيقال: إن امرأ القيس أودع عنده دروعا، وأراد الحارث بن أبى شَمَّر الغسانى أن يأخذها منه فأبى، وتحصن بقصره فى تيماء، وكان أحد أبناء سموأل خارج القصر، فأخذه الحارث وهدده بقتله إن لم يسلم الدروع، فأبى حتى قتل الحارث ابنه أمام عينيه.
وأما قصة حاجب فهى أنه استأذن كسرى فى إنزال قومه على حدود كسرى لجدب أصابهم، فخاف كسرى منهم الغارة والفساد، فأبى إلا بالضمان، فضمن حاجب ورهنه قوسه، فوفى بوعده حتى توفى، وانتهى الجدب فرجع قومه إلى بلادهم، وذهب ابنه عطارد بن حاجب رضي الله عنه إلى كسرى يسترد قوس أبيه، فردها عليهم لوفاء أبيه.

٦ - **السذاجة البدوية، وعدم التلوث بلوثات الحضارة ومكائدها**: وكان من نتائجها: الصدق، والأمانة، والنفور عن الخداع، والغدر.

نرى أن هذه الأخلاق الثمينة - مع ما كان لجزيرة العرب من الموقع الجغرافى بالنسبة إلى العالم- كانت سببًا فى اختيار الله عز وجل إياهم لحمل عبء الرسالة العامة، وقيادة الأمة الإنسانية، وإصلاح المجتمع البشرى؛ لأن هذه الأخلاق وإن كان بعضها يفضى إلى الشر، ويجلب الحوادث المؤلمة، إلا أنها كانت فى نفسها أخلاقًا ثمينة، تدر بالمنافع العامة للمجتمع البشرى بعد شىء من الإصلاح، وهذا الذى فعله الإسلام.

ولعل أغلى ما عندهم من هذه الأخلاق وأعظمها نفعًا - بعد الوفاء بالعهد - هو عزة النفس والمضى فى العزائم؛ إذ لا يمكن قمع الشر والفساد وإقامة نظام العدل والخير إلا بهذه القوة القاهرة، وبهذا العزم الصميم. ولهم أخلاق فاضلة أخرى دون هذه التى ذكرناها، وليس قصدنا استقصاءها.

النسب
والمولد
والنشأة

نسب النبى ﷺ وأسرته

نسب النبى ﷺ:

نسب نبينا محمد ﷺ ينقسم إلى ثلاثة أجزاء:

جزء اتفق عليه كافة أهل السير والأنساب، وهو الجزء الذى يبدأ منه ﷺ وينتهى إلى عدنان.

وجزء آخر كثر فيه الاختلاف، حتى جاوز حد الجمع والائتلاف، وهو الجزء الذى يبدأ بعد عدنان وينتهى إلى إبراهيم عليه السلام ، فقد توقف فيه قوم، وقالوا: لا يجوز سرده، بينما جوزه آخرون وساقوه. ثم اختلف هؤلا المجوزون فى عدد الآباء وأسمائهم، فاشتد اختلافهم وكثرت أقوالهم حتى جاوزت ثلاثين قولًا، إلا أن الجميع متفقون على أن عدنان من صريح ولد إسماعيل عليه السلام.

أما الجزء الثالث فهو يبدأ من بعد إبراهيم عليه السلام وينتهى إلى آدم عليه السلام، وجل الاعتماد فيه على نقل أهل الكتاب، وعندهم فيه من بعض تفاصيل الأعمار وغيرها ما لا نشك فى بطلانه، بينما نتوقف فى البقية الباقية.

وفيما يلى الأجزاء الثلاثة من نسبه الزكى ﷺ بالترتيب:

الجزء الأول: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب - واسمه شَيْبَة - بن هاشم - واسمه عمرو - ابن عبد مناف - واسمه المغيرة - بن قُصَىّ - واسمه زيد - بن كِلاب بن مُرَّة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فِهْر - وهو الملقب بقريش وإليه تنتسب القبيلة - بن مالك ابن النَّضْر - واسمه قيس - بن كِنَانة بن خُزَيْمَة بن مُدْرِكة - واسمه عامر - بن إلياس ابن مُضَر بن نِزَار بن مَعَدّ بن عدنان[1] .

الجزء الثانى: ما فوق عدنان، وعدنان هو ابن أُدَد بن الهَمَيْسَع بن سلامان بن عَوْص ابن بوز ابن قموال بن أبى بن عوام بن ناشد بن حزا بن بلداس بن يدلاف بن طابخ بن جاحم بن ناحش ابن ماخى بن عيض بن عبقر بن عبيد بن الدعا بن حَمْدان ابن سنبر بن يثربى بن يحزن بن يلحن بن أرعوى بن عيض بن ديشان بن عيصر بن أفناد بن أيهام بن مقصر بن ناحث بن زارح بن سمى بن مزى بن عوضة بن عرام بن قيدار بن إسماعيل بن

(١) ابن هشام ١/ ١، ٢، وتاريخ الطبرى ٢/ ٢٣٩ - ٢٧١.

إبراهيم عليهما السلام[١].

الجزء الثالث: ما فوق إبراهيم عليه السلام، وهو ابن تارَح - واسمه آزر - بن ناحور بن ساروع - أو ساروغ - بن رَاعُو بن فَالَخ بن عابر بن شَالَخ بن أرْفَخْشَد بن سام بن نوح عليه السلام بن لامك بن مَتوشَلَخَ بن أَخْنُوخ - يقال: هو إدريس النبى عليه السلام - بن يَرْد بن مَهْلائيل ابن قينان بن أَنُوش بن شِيث بن آدم - عليهما السلام[٢].

الأسرة النبوية:

تعرف أسرته ﷺ بالأسرة الهاشمية - نسبة إلى جده هاشم بن عبد مناف - وإذن فلنذكر شيئًا من أحوال هاشم ومن بعده:

١ - هاشم:

قد أسلفنا أن هاشمًا هو الذى تولى السقاية والرفادة من بنى عبد مناف حين تصالح بنو عبد مناف وبنو عبد الدار على اقتسام المناصب فيما بينهما، وكان هاشم موسرًا ذا شرف كبير، وهو أول من أطعم الثريد للحجاج بمكة، وكان اسمه «عمرو»، فما سمى هاشمًا إلا لهشمه الخبز، وهو أول من سن الرحلتين لقريش، رحلة الشتاء والصيف، وفيه يقول الشاعر:

عمرو الذى هَشَمَ الثريدَ لقومه ... قَوم بمكة مُسْنِتِين عِجَافِ
سُنَّتْ إليه الرحلتان كلاهما ... سَفَرُ الشتاء ورحلة الأصياف[٣]

ومن حديثه: أنه خرج إلى الشام تاجرًا، فلما قدم المدينة تزوج سلمى بنت عمرو أحد بنى عدى بن النجار وأقام عندها، ثم خرج إلى الشام - وهى عند أهلها قد حملت بعبد المطلب - فمات هاشم بغزة من أرض فلسطين، وولدت امرأته سلمى عبد المطلب سنة ٤٩٧ م، وسمته شيبة؛ لشيبة كانت فى رأسه[٤]، وجعلت تربيه فى بيت أبيها فى يثرب، ولم

---

(١) وذكره ابن سعد فى الطبقات ١/ ٥٦، ٥٧ برواية ابن الكلبى، ومن طريقه الطبرى فى تاريخه ٢/ ٢٧٢، وللاطلاع على بعض الاختلاف فى هذا الجزء. انظر: تاريخ الطبرى ٢/ ٢٧١- ٢٧٦، وفتح البارى ٦/ ٦٢١- ٦٢٣.

(٢) ابن هشام ١/ ٢ - ٤، وتاريخ الطبرى ٢/ ٢٧٦، واختلفت المصادر فى تلفظ بعض هذه الأسماء وفى إثبات البعض وإسقاطه.

(٣) ابن هشام ١/ ١٥٧ مع الروض الأنف، وفيه: الإيلاف، بدل: الأصياف. ومسنتين: أصابهم قحط.

(٤) ابن هشام ١/ ١٣٧.

يشعر به أحد من أسرته بمكة، وكان لهاشم أربعة بنين وهم: أسد، وأبو صيفى، ونضلة، وعبد المطلب. وخمس بنات وهن: الشفاء، وخالدة، وضعيفة، ورقية، وجنة[(١)].

٢ - عبد المطلب:

قد علمنا مما سبق أن السقاية والرفادة بعد هاشم صارت إلى أخيه المطلب بن عبد مناف (وكان شريفًا مطاعًا ذا فضل فى قومه، كانت قريش تسميه الفياض لسخائه) ولما صار شيبة - عبد المطلب - وصيفًا أو فوق ذلك ابن سبع سنين أو ثمانى سنين سمع به المطلب. فرحل فى طلبه، فلما رآه فاضت عيناه، وضمه، وأردفه على راحلته فامتنع حتى تأذن له أمه، فسألها المطلب أن ترسله معه، فامتنعت، فقال: إنما يمضى إلى ملك أبيه وإلى حرم الله فأذنت له، فقدم به مكة مردفه على بعيره، فقال الناس: هذا عبد المطلب، فقال: ويحكم، إنما هو ابن أخى هاشم، فأقام عنده حتى ترعرع، ثم إن المطلب هلك بـ (دمان) من أرض اليمن، فولى بعده عبد المطلب، فأقام لقومه ما كان آباؤه يقيمون لقومهم، وشرف فى قومه شرفًا لم يبلغه أحد من آبائه، وأحبه قومه وعظم خطره فيهم[(٢)].

ولما مات المطلب وثب نوفل على أركاح[(٣)] عبد المطلب فغصبه إياها، فسأل رجالًا من قريش النصرة على عمه، فقالوا: لا ندخل بينك وبين عمك، فكتب إلى أخواله من بنى النجار أبياتًا يستنجدهم، فسار خاله أبو سعد بن عدى فى ثمانين راكبًا، حتى نزل بالأبطح من مكة، فتلقاه عبد المطلب، فقال: المنزل يا خال، فقال: لا والله حتى ألقى نوفلًا، ثم أقبل فوقف على نوفل، وهو جالس فى الحجر مع مشايخ قريش، فسل أبو سعد سيفه وقال: ورب البيت، لئن لم ترد على ابن أختى أركاحه لأمكنن منك هذا السيف، فقال: رددتها عليه، فأشهد عليه مشايخ قريش، ثم نزل على عبد المطلب، فأقام عنده ثلاثًا، ثم اعتمر ورجع إلى المدينة. فلما جرى ذلك حالف نوفل بنى عبد شمس بن عبد مناف على بنى هاشم. ولما رأت خزاعة نصر بنى النجار لعبد المطلب قالوا: نحن ولدناه كما ولدتموه، فنحن أحق بنصره - وذلك أن أم عبد مناف منهم - فدخلوا دار الندوة وحالفوا بنى هاشم على بنى عبد شمس ونوفل، وهذا الحلف هو الذى صار سببًا لفتح مكة كما سيأتى[(٤)].

---

(١) المصدر نفسه ١/ ١٠٧.

(٢) ابن هشام ١/ ١٣٧، ١٣٨، وتعيين السن فى تاريخ الطبرى ٢/ ٢٤٧.

(٣) ممتلكاته من بيت وأساس وخلافه.

(٤) فصله الطبرى فى تاريخه ٢/ ٢٤٨- ٢٥١ وآخرون فى كتبهم.

ومن أهم ما وقع لعبد المطلب من أمور البيت شيئان:

حفر بئر زمزم ووقعة الفيل:

وخلاصة الأول: أنه أمر فى المنام بحفر زمزم ووصف له موضعها، فقام يحفر، فوجد فيه الأشياء التى دفنها الجراهمة حين لجأوا إلى الجلاء، أى: السيوف والدروع والغزالين من الذهب، فضرب الأسياف بابًا للكعبة، وضرب فى الباب الغزالين صفائح من ذهب، وأقام سقاية زمزم للحجاج.

ولما بدت بئر زمزم نازعت قريش عبد المطلب، وقالوا له: أشركنا. قال: ما أنا بفاعل، هذا أمر خصصت به، فلم يتركوه حتى خرجوا به للمحاكمة إلى كاهنة بنى سعد هُذَيْم، وكانت بأشراف الشام، فلما كانوا فى الطريق، ونفد الماء سقى الله عبد المطلب مطرًا، ولم ينزل عليهم قطرة، فعرفوا تخصيص عبد المطلب بزمزم ورجعوا، وحينئذ نذر عبد المطلب لئن آتاه الله عشرة أبناء، وبلغوا أن يمنعوه لينحرن أحدهم عند الكعبة[١].

وخلاصة الثانى: أن أبرهة بن الصباح الحبشى، النائب العام عن النجاشى على اليمن، لما رأى العرب يحجون الكعبة بنى كنيسة كبيرة بصنعاء، وأراد أن يصرف حج العرب إليها، وسمع بذلك رجل من بنى كنانة، فدخلها ليلًا فلطخ قبلتها بالعذرة. ولما علم أبرهة بذلك ثار غيظه، وسار بجيش عرمرم - عدده ستون ألف جندى - إلى الكعبة ليهدمها، واختار لنفسه فيلا من أكبر الفيلة، وكان فى الجيش ٩ فيلة أو ١٣ فيلا، وواصل سيره حتى بلغ المُغَمَّس، وهناك عبأ جيشه وهيأ فيله، وتهيأ لدخول مكة، فلما كان فى وادى مُحَسِّر بين المزدلفة ومنى برك الفيل، ولم يقم ليقدم إلى الكعبة، وكانوا كلما وجهوه إلى الجنوب أو الشمال أو الشرق يقوم يهرول، وإذا صرفوه إلى الكعبة برك، فبينا هم كذلك إذ أرسل الله عليهم طيرًا أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول. وكانت الطير أمثال الخطاطيف والبلسان، مع كل طائر ثلاثة أحجار؛ حجر فى منقاره، وحجران فى رجليه أمثال الحمص، لا تصيب منهم أحدًا إلا صارت تتقطع أعضاؤه وهلك، وليس كلهم أصابت، وخرجوا هاربين يموج بعضهم فى بعض، فتساقطوا بكل طريق، وهلكوا على كل منهل، وأما أبرهة فبعث الله عليه داء تساقطت بسببه أنامله، ولم يصل إلى صنعاء إلا وهو مثل الفرخ، وانصدع صدره عن قلبه ثم هلك.

---

(١) ابن هشام ١/ ١٤٢-١٤٧.

وأما قريش، فكانوا قد تفرقوا فى الشعاب، وتحرزوا فى رءوس الجبال خوفًا على أنفسهم من معرة الجيش، فلما نزل بالجيش ما نزل رجعوا إلى بيوتهم آمنين(١).

وكانت هذه الوقعة فى شهر المحرم قبل مولد النبى ﷺ بخمسين يومًا أو بخمسة وخمسين يومًا - عند الأكثر - وهو يطابق أواخر فبراير أو أوائل مارس سنة ٥٧١ م، وكانت تقدمة قدمها الله لنبيه وبيته؛ لأنّا حين ننظر إلى بيت المقدس نرى أن المشركين من أعداء الله استولوا على هذه القبلة مرتين بينما كان أهلها مسلمين، كما وقع لبُخْتُنَصَّر سنة ٥٨٧ ق. م، والرومان سنة ٧٠ م، ولكن لم يتم استيلاء نصارى الحبشة على الكعبة وهم المسلمون إذ ذاك، وأهل الكعبة كانوا مشركين.

وقد وقعت هذه الوقعة فى الظروف التى يبلغ نبؤها إلى معظم المعمورة المتحضرة إذ ذاك. فالحبشة كانت لها صلة قوية بالرومان، والفرس لا يزالون لهم بالمرصاد، يترقبون ما نزل بالرومان وحلفائهم؛ ولذلك سرعان ما جاءت الفرس إلى اليمن بعد هذه الوقعة، وهاتان الدولتان كانتا تمثلان العالم المتحضر فى ذلك الوقت. فهذه الوقعة لفتت أنظار العالم ودلته على شرف بيت الله، وأنه هو الذى اصطفاه الله للتقديس، فإذن لو قام أحد من أهله بدعوى النبوة كان ذلك هو عين ما تقتضيه هذه الوقعة، وكان تفسيرًا للحكمة الخفية التى كانت فى نصرة الله للمشركين ضد أهل الإيمان بطريق يفوق عالم الأسباب.

وكان لعبد المطلب عشرة بنين، وهم: الحارث، والزبير، وأبو طالب، وعبد الله، وحمزة، وأبو لهب، والغَيْدَاق، والمُقَوِّم، وضِرَار، والعباس. وقيل: كانوا أحد عشر، فزادوا ولدًا اسمه: قُثَم، وقيل: كانوا ثلاثة عشر، فزادوا: عبد الكعبة وحَجْلًا، وقيل: إن عبد الكعبة هو المقوم، وحجلا هو الغيداق، ولم يكن من أولاده رجل اسمه قثم، وأما البنات فست وهن: أم الحكيم - وهى البيضاء - وبَرَّة، وعاتكة، وصفية، وأرْوَى، وأميمة(٢).

٣ـ عبد الله والد رسول الله ﷺ:

أمه فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم بن يَقَظَة بن مرة، وكان عبد الله أحسن أولاد عبد المطلب وأعفهم وأحبهم إليه، وهو الذبيح؛ وذلك أن عبد المطلب لما تم أبناؤه عشرة، وعرف أنهم يمنعونه أخبرهم بنذره فأطاعوه، فقيل: إنه أقرع بينهم أيهم

(١) ابن هشام ١/ ٤٣- ٥٦، وتفسير سورة الفيل من كتب التفاسير.

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ١٠٨، ١٠٩، وتلقيح فهوم أهل الأثر، ص ٨، ٩.

ينحر؟ فطارت القرعة على عبد الله، وكان أحب الناس إليه. فقال: اللهم هو أو مائة من الإبل. ثم أقرع بينه وبين الإبل فطارت القرعة على المائة من الإبل[١]، وقيل: إنه كتب أسماءهم فى القداح،وأعطاها قيم هبل، فضرب القداح فخرج القدح على عبد الله، فأخذه عبد المطلب، وأخذ الشفرة،ثم أقبل به إلى الكعبة ليذبحه،فمنعته قريش،ولاسيما أخواله من بنى مخزوم وأخوه أبو طالب. فقال عبد المطلب: فكيف أصنع بنذرى؟ فأشاروا عليه أن يأتى عرافة فيستأمرها، فأتاها، فأمرت أن يضرب القداح على عبد الله وعلى عشر من الإبل، فإن خرجت على عبد الله يزيد عشرًا من الإبل حتى يرضى ربه، فإن خرجت على الإبل نحرها، فرجع وأقرع بين عبد الله وبين عشر من الإبل، فوقعت القرعة على عبد الله، فلم يزل يزيد من الإبل عشرًا عشرًا ولا تقع القرعة إلا عليه إلى أن بلغت الإبل مائة فوقعت القرعة عليها، فنحرت ثم تركت، لا يرد عنها إنسان ولا سبع، وكانت الدية فى قريش وفى العرب عشرًا من الإبل، فجرت بعد هذه الوقعة مائة من الإبل، وأقرها الإسلام، وروى عن النبى ﷺ أنه قال: «**أنا ابن الذبيحين**» يعنى: إسماعيل، وأباه عبد الله[٢].

واختار عبد المطلب لولده عبد الله آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، وهى يومئذ تعد أفضل امرأة فى قريش نسبًا وموضعًا، وأبوها سيد بنى زهرة نسبًا وشرفًا، فزوجه بها، فبنى بها عبد الله فى مكة، وبعد قليل أرسله عبد المطلب إلى المدينة يمتار لهم تمرًا، فمات بها، وقيل: بل خرج تاجرًا إلى الشام، فأقبل فى عير قريش، فنزل بالمدينة وهو مريض فتوفى بها، ودفن فى دار النابغة الجعدى، وله إذ ذاك خمس وعشرون سنة، وكانت وفاته قبل أن يولد رسول الله ﷺ، وبه يقول أكثر المؤرخين، وقيل: بل توفى بعد مولده بشهرين أو أكثر[٣]. ولما بلغ نعيه إلى مكة رثته آمنة بأروع المراثى، قالت:

عَفَا جانبُ البطحاءِ من ابن هاشم وجاور لَحْدًا خارجًا فى الغَمَاغِمِ
دَعَتْه المنايا دعوة فأجابها وما تركتْ فى الناس مثل ابن هاشم
عشية راحوا يحملون سريره تَعَاوَرَهُ أصحابه فى التزاحم
فإن تك غالته المنايا ورَيْبُها فقد كان مِعْطاءً كثير التراحم[٤]

(١) تاريخ الطبرى ٢/ ٢٣٩.
(٢) ابن هشام ١/ ١٥١- ١٥٥، وتاريخ الطبرى ٢/ ٢٤٠- ٢٤٣.
(٣) ابن هشام ١/ ١٥٦، ١٥٨، وتاريخ الطبرى ٢/ ٢٤٦، والروض الأنف ١/ ١٨٤.
(٤) طبقات ابن سعد ١/ ١٠٠. والغماغم: الأغطية، وتعاوره: تداوله.

وجميع ما خلفه عبد الله خمسة أجمال، وقطعة غنم، وجارية حبشية اسمها بركة وكنيتها أم أيمن، وهى حاضنة رسول الله ﷺ[(١)] .

(١) صحيح مسلم ٣/ ١٣٩٢، ح (١٧٧١)، وتلقيح فهوم أهل الأثر، ص ٤.

المولد وأربعون عامًا قبل النبوة

المولد:

ولد سيد المرسلين ﷺ بشعب بنى هاشم بمكة فى صبيحة يوم الاثنين التاسع من شهر ربيع الأول، لأول عام من حادثة الفيل[١]، ولأربعين سنة خلت من ملك كسرى أنوشروان، ويوافق ذلك عشرين أو اثنين وعشرين من شهر أبريل سنة ٥٧١م، حسبما حققه العالم الكبير محمد سليمان - المنصورفورى - رحمه الله[٢].

وروى ابن سعد أن أم رسول الله ﷺ قالت: لما ولدته خرج من فرجى نور أضاءت له قصور الشام. وروى أحمد والدارمى وغيرهما قريبًا من ذلك[٣].

وقد روى أن إرهاصات بالبعثة وقعت عند الميلاد، فسقطت أربع عشرة شرفة من إيوان كسرى، وخمدت النار التى يعبدها المجوس، وانهدمت الكنائس حول بحيرة ساوة بعد أن غاضت، روى ذلك الطبرى والبيهقى وغيرهما[٤]. وليس له إسناد ثابت، ولم يشهد له تاريخ تلك الأمم مع قوة دواعى التسجيل.

ولما ولدته أمه أرسلت إلى جده عبد المطلب تبشره بحفيده،فجاء مستبشرًا ودخل به الكعبة، ودعا الله وشكر له[٥]. واختار له اسم محمد - وهذا الاسم لم يكن معروفًا فى العرب - وخَتَنَه يوم سابعه، كما كان العرب يفعلون[٦].

وأول من أرضعته من المراضع - وذلك بعد أمه ﷺ بأسبوع[٧] - ثُوَيْبَة مولاة أبى لهب

---

(١) انظر: نتائج الأفهام فى تقويم العرب قبل الإسلام، ص ٢٨ - ٣٥ لمحمود باشا الفلكى، ط. بيروت.

(٢) ٢٠ أبريل حسب التقويم الميلادى القديم و ٢٢ أبريل حسب التقويم الميلادى الجديد، وللتفصيل انظر: رحمة للعالمين ١/ ٣٨، ٣٩، ٢/ ٣٦٠، ٣٦١.

(٣) مسند أحمد ٤/ ١٢٧، ١٢٨، ١٨٥، ٥/ ٢٦٢، وسنن الدارمى ١/ ٩، وابن سعد ١/ ١٠٢.

(٤) انظر: دلائل النبوة للبيهقى ١/ ١٢٦، ١٢٧، وتاريخ الطبرى ٢/ ١٦٦، ١٦٧، والبداية والنهاية ٢/ ٢٦٨، ٢٦٩.

(٥) ابن هشام ١/ ١٥٩، ١٦٠، وتاريخ الطبرى ٢/ ١٥٦، ١٥٧، وابن سعد ١/ ١٠٣.

(٦) يقال: إنه ولد مختونًا «تلقيح فهوم أهل الأثر، ص ٤»، وقال ابن القيم: ليس فيه حديث ثابت. انظر. زاد المعاد ١/ ١٨.

(٧) إتحاف الورى ١/ ٥٧.

بلبن ابن لها يقال له: مَسْرُوح، وكانت قد أرضعت قبله حمزة بن عبد المطلب، وأرضعت بعده أبا سلمة ابن عبد الأسد المخزومى[(١)].

فى بنى سعد:

وكانت العادة عند الحاضرين من العرب أن يلتمسوا المراضع لأولادهم ابتعادًا لهم عن أمراض الحواضر؛ ولتقوى أجسامهم، وتشتد أعصابهم، ويتقنوا اللسان العربى فى مهدهم، فالتمس عبد المطلب لرسول الله ﷺ المراضع، واسترضع له امرأة من بنى سعد بن بكر، وهى حليمة بنت أبى ذؤيب عبد الله بن الحارث، وزوجها الحارث بن عبد العزى، المكنى بأبى كبشة من نفس القبيلة.

وإخوته ﷺ هناك من الرضاعة: عبد الله بن الحارث، وأنيسة بنت الحارث، وحذافة أو جذامة بنت الحارث (وهى الشيماء؛ لقب غلب على اسمها) وكانت تحضن رسول الله ﷺ، وأبو سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب ابن عم رسول الله ﷺ، وكان عمه حمزة بن عبد المطلب مسترضعًا فى بنى سعد بن بكر، فأرضعت أمه رسول الله ﷺ يومًا وهو عند أمه حليمة،فكان حمزة رضيع رسول الله ﷺ من جهتين، من جهة ثويبة ومن جهة السعدية[(٢)].

ورأت حليمة من بركته ﷺ ما قضت منه العجب، ولنتركها تروى ذلك مفصلًا:

قال ابن إسحاق: كانت حليمة تحدث: أنها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها صغير ترضعه فى نسوة من بنى سعد بن بكر، تلتمس الرضعاء. قالت: وذلك فى سنة شهبا[(٣)] لم تبق لنا شيئًا، قالت: فخرجت على أتان لى قمراء[(٤)]، ومعنا شارف[(٥)] لنا، والله ما تَبِضُّ[(٦)] بقطرة، وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذى معنا، من بكائه من الجوع، ما فى ثديى ما يغنيه، وما فى شارفنا ما يغذيه، ولكن كنا نرجو الغيث والفرج، فخرجت على أتانى تلك، فلقد أَذَمَّتْ[(٧)] بالركب حتى شق ذلك عليهم، ضعفًا وعجفًا، حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء، فما منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه، إذا قيل لها: إنه يتيم، وذلك أنا كنا نرجو المعروف من أبى الصبى، فكنا نقول: يتيم! وما عسى أن تصنع أمه

---

(١) صحيح البخارى، ح (٢٦٤٥، ٥١٠٠، ٥١٠١، ٥١٠٦، ٥١٠٧، ٥٣٧٢)، وتاريخ الطبرى ٢/ ١٥٨ وفى سنده مقال، ودلائل النبوة لأبى نعيم ١/ ١٥٧.

(٢) زاد المعاد ١/ ١٩.

(٣) مجدبة لا خضرة فيها ولا مطر.

(٤) بيضاء.

(٥) الشارف: الناقة المسنة.

(٦) بض الماء: قطر وسال قليلًا قليلًا.

(٧) أبطأت وحبست.

وجده، فكنا نكرهه لذلك، فما بقيت امرأة قدمت معى إلا أخذت رضيعًا غيرى، فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبى: والله، إنى لأكره أن أرجع من بين صواحبى ولم آخذ رضيعًا، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه. قال: لا عليك أن تفعلى، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة. قالت: فذهبت إليه وأخذته،وما حملنى على أخذه إلا أنى لم أجد غيره، قالت: فلما أخذته رجعت به إلى رحلى، فلما وضعته فى حجرى أقبل عليه ثدياى بما شاء من لبن، فشرب حتى روى، وشرب معه أخوه حتى روى، ثم ناما، وما كنا ننام معه قبل ذلك، وقام زوجى إلى شارفنا تلك، فإذا هى حافل[١]، فحلب منها ما شرب وشربت معه حتى انتهينا ريا وشبعا، فبتنا بخير ليلة، قالت: يقول صاحبى حين أصبحنا: تعلمى والله يا حليمة، لقد أخذت نسمة مباركة، قالت: فقلت: والله إنى لأرجو ذلك. قالت: ثم خرجنا وركبت أنا أتانى، وحملته عليها معى، فوالله لقطعت بالركب ما لا يقدر عليه شىء من حمرهم، حتى إن صواحبى ليقلن لى: يا ابنة أبى ذؤيب، ويحك ! أَرْبِعى علينا[٢]، أليست هذه أتانك التى كنت خرجت عليها؟ فأقول لهن: بلى والله، إنها لهى هى، فيقلن: والله إن لها شأنًا، قالت: ثم قدمنا منازلنا من بلاد بنى سعد، وما أعلم أرضًا من أرض الله أجدب منها، فكانت غنمى تروح علىَّ حين قدمنا به معنا شباعًا لُبَّنًا[٣]، فنحلب ونشرب، وما يحلب إنسان قطرة لبن، ولا يجدها فى ضرع، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم: ويلكم، اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبى ذؤيب، فتروح أغنامهم جياعًا ما تبض بقطرة لبن، وتروح غنمى شباعًا لبنًا. فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته، وكان يشب شبابًا لا يشبه الغلمان، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلامًا جفرًا[٤]. قالت: فقدمنا به على أمه ونحن أحرص على مكثه فينا، لما كنا نرى من بركته، فكلمنا أمه، وقلت لها: لو تركت ابنى عندى حتى يغلظ، فإنى أخشى عليه وباء مكة، قالت: فلم نزل بها حتى ردته معنا[٥].

---

(١) أى: ممتلئة لبنًا.

(٢) أربعى علينا: ارفقى بنا.

(٣) لبنًا، بضم فتشديد: ممتلئة الضرع باللبن.

(٤) قويًا شديدًا.

(٥) ابن هشام ١/ ١٦٢- ١٦٤، وتاريخ الطبرى ٢/ ١٥٨، ١٥٩، وابن حبان «الإحسان» ٨/ ٨٢- ٨٤، وابن سعد ١/ ١١١ كلهم من طريق ابن إسحاق مع اختلاف يسير فى الألفاظ.

شق الصدر:

وهكذا رجع رسول الله ﷺ إلى بنى سعد، حتى إذا كان بعده بأشهر على قول ابن إسحاق(١)، وفى السنة الرابعة من مولده على قول المحققين(٢)، وقع حادث شق صدره، روى مسلم عن أنس: أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل، وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله فى طَسْت من ذهب بماء زمزم، ثم لأَمَه - أى جمعه وضم بعضه إلى بعض - ثم أعاده فى مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه - يعنى ظئره (٣)- فقالوا: إن محمدًا قد قتل، فاستقبلوه وهو مُنْتَقِعُ اللون - أى متغير اللون - قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط فى صدره(٤).

إلى أمه الحنون:

وخشيت عليه حليمة بعد هذه الوقعة حتى ردته إلى أمه، فكان عند أمه إلى أن بلغ ست سنين.

ورأت آمنة - وفاء لذكرى زوجها الراحل - أن تزور قبره بيثرب، فخرجت من مكة قاطعة رحلة تبلغ نحو خمسمائة كيلو متر ومعها ولدها اليتيم - محمد ﷺ - وخادمتها أم أيمن، وقيمها عبد المطلب، فمكثت شهرًا ثم قفلت، وبينما هى راجعة إذ لحقها المرض فى أوائل الطريق، ثم اشتد حتى ماتت بالأَبْوَاء بين مكة والمدينة(٥).

إلى جده العطوف:

وعاد به عبد المطلب إلى مكة، وكانت مشاعر الحنو فى فؤاده تربو نحو حفيده اليتيم الذى أصيب بمصاب جديد نَكَأ الجروح القديمة، فَرَقَّ عليه رقة لم يرقها على أحد من أولاده، فكان لا يدعه لوحدته المفروضة، بل يؤثره على أولاده، قال ابن هشام: كان يوضع

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ١٦٤، ١٦٥، وتاريخ الطبرى ٢/ ١٦٠.

(٢) انظر: ابن سعد ١/ ١١٢، ومروج الذهب للمسعودى ٢/ ٢٨١، ودلائل النبوة لأبى نعيم ١ / ١٦١، ١٦٢، وعنده على قول ابن عباس: كان فى السنة الخامسة ١/ ١٦٢، وقول ابن إسحاق شبه متناقض؛ لأن رعى الغنم لا يتصور من صبى لم يكمل من عمره إلا سنتين. ولا يزال فى بداية الثالثة.

(٣) الظئر: هى المرضعة، وربما يطلق على زوجها أيضا.

(٤) صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب الإسراء ١/ ١٤٧، ح (٢٦١).

(٥) انظر: ابن هشام ١/ ١٦٨، وتلقيح الفهوم، ص ٧.

لعبد المطلب فراش فى ظل الكعبة، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالًا له، فكان رسول الله ﷺ يأتى وهو غلام جفر حتى يجلس عليه، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم: دعوا ابنى هذا، فوالله إن له لشأنًا، ثم يجلس معه على فراشه، ويمسح ظهره بيده، ويسره ما يراه يصنع[(١)].

ولثمانى سنوات وشهرين وعشرة أيام من عمره ﷺ توفى جده عبد المطلب بمكة، ورأى قبل وفاته أن يعهد بكفالة حفيده إلى عمه أبى طالب شقيق أبيه[(٢)].

إلى عمه الشفيق:

ونهض أبو طالب بحق ابن أخيه على أكمل وجه، وضمه إلى ولده وقدمه عليهم واختصه بفضل احترام وتقدير، وظل فوق أربعين سنة يعز جانبه، ويبسط عليه حمايته، ويصادق ويخاصم من أجله، وستأتى نبذ من ذلك فى مواضعها.

يستسقى الغمام بوجهه:

أخرج ابن عساكر عن جَلْهُمَة بن عُرْفُطَة قال: قدمت مكة وهم فى قحط، فقالت قريش: يا أبا طالب، أقحط الوادى، وأجدب العيال، فهَلُمَّ فاستسق، فخرج أبو طالب ومعه غلام، كأنه شمس دُجُنَّة[(٣)]، تجلت عنه سحابة قَتْماء[(٤)]، حوله أُغَيْلمة، فأخذه أبو طالب، فألصق ظهره بالكعبة، ولاذ بأضبعه الغلام، وما فى السماء قَزَعَة[(٥)]، فأقبل السحاب من هاهنا وهاهنا وأغدق واغْدَوْدَق، وانفجر الوادى، وأخصب النادى والبادى، وإلى هذا أشار أبو طالب حين قال:

وأبيضَ يُستسقى الغَمَام بوجهه ثِمالُ اليتامى عِصْمَةٌ للأرامل[(٦)]

بَحِيرَى الراهب:

ولما بلغ رسول الله ﷺ اثنتى عشرة سنة – قيل: وشهرين وعشرة أيام[(٧)] – ارتحل به أبو

---

(١) ابن هشام ١/ ١٦٨.

(٢) ابن هشام ١/ ١٦٩، وتلقيح الفهوم، ص ٧.

(٣) الدجنة: الظُّلّة. (٤) غَبراء.

(٥) سحابة.

(٦) مختصر السيرة للشيخ عبد الله، ص ١٥، ١٦، وأورد الهيثمى فى مجمع الزوائد عن الطبرانى مثل هذه القصة فى كتاب علامات النبوة ٨/ ٢٢٢. وثمال اليتامى: يقوم بأمرهم.

(٧) قاله ابن الجوزى فى تلقيح فهوم أهل الأثر، ص ٧.

طالب تاجرًا إلى الشام، حتى وصل إلى بُصْرَى - وهى معدودة من الشام، وقَصَبَة لحُورَان، وكانت فى ذلك الوقت قصبة للبلاد العربية التى كانت تحت حكم الرومان- وكان فى هذا البلد راهب عرف ببَحِيرَى، واسمه - فيما يقال- جرجيس، فلما نزل الركب خرج إليهم، وكان لا يخرج إليهم قبل ذلك، فجعل يتخلّلهم حتى جاء فأخذ بيد رسول الله ﷺ، وقال: هذا سيد العالمين، هذا رسول رب العالمين، هذا يبعثه الله رحمة للعالمين. فقال له [أبو طالب و] أشياخ قريش: [و] ما علمك [بذلك]؟ فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق حجر ولا شجر إلا خر ساجدًا، ولا يسجدان إلا لنبى، وإنى أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة، [وإنا نجده فى كتبنا]، ثم أكرمهم بالضيافة، وسأل أبا طالب أن يرده، ولا يقدم به إلى الشام؛ خوفًا عليه من الروم واليهود، فبعثه عمه مع بعض غلمانه إلى مكة[(١)].

حرب الفِجَار:

وفى السنة العشرين من عمره ﷺ وقعت فى سوق عُكاظ حرب بين قريش - ومعهم كنانة - وبين قَيْس عَيْلان، تعرف بحرب الفِجَار[(٢)] وسببها: أن أحد بنى كنانة، واسمه البَرَّاض، اغتال ثلاثة رجال من قيس عيلان، ووصل الخبر إلى عكاظ فثار الطرفان، وكان قائد قريش وكنانة كلها حرب بن أمية؛ لمكانته فيهم سنا وشرفًا، وكان الظفر فى أول النهار لقيس على كنانة، حتى إذا كان فى وسط النهار كادت الدائرة تدور على قيس. ثم تداعى بعض قريش إلى الصلح على أن يحصوا قتلى الفريقين، فمن وجد قتلاه أكثر أخذ دية الزائد. فاصطلحوا على ذلك، ووضعوا الحرب، وهدموا ما كان بينهم من العداوة والشر. وسميت

---

(١) انظر: جامع الترمذى ٥/ ٥٥٠، ٥٥١، ح (٣٦٢٠)، وتاريخ الطبرى ٢/ ٢٧٨، ٢٧٩، والمصنف لابن أبى شيبة ١١/ ٤٨٩، ح (١١٧٨٢)، ودلائل النبوة للبيهقى ٢/ ٢٤، ٢٥، ولأبى نعيم ١/ ١٧٠ وإسناده ثابت قوى، ووقع فى آخره: أن أبا بكر بعث معه ﷺ بلالًا، «وهو من الغلط الواضح، فإن بلالًا إذ ذاك لعله لم يكن موجودًا، وإن كان موجودًا فلم يكن مع عمه ولا مع أبى بكر». قاله ابن القيم فى زاد المعاد ١/ ١٧، وقد روى فى القصة تفاصيل أخرى، رواها ابن سعد فى الطبقات ١/ ١٢٠ بأسانيد واهية، وذكرها ابن إسحاق بدون إسناد، حكاها عن ابن هشام ١/ ١٨٠- ١٨٣، والكبرى ٢/ ٢٧٧، والبيهقى وأبو نعيم.

(٢) والفجارات «بكسر الفاء» بين هذين الفريقين أربعة؛ الثلاثة الأول منها كان فيها خصام واشتجار طفيف، ثم اصطلحوا بدون قتال، فالأول: سببه مماطلة دين كان لقيسى على كنانى، والثانى: سببه تفاخر كنانى فى سوق عكاظ، والثالث: سببه تعرض فتيان مكة لامرأة جميلة من قيس، أما الرابع: فهو فجار البراض الذى ذكرناه فى الكتاب، ولينظر للتفصيل: المنمق فى أخبار قريش، ص ١٦٠- ١٦٤، والكامل لابن الأثير ١/ ٤٦٧ وهو جعل الثلاثة الأول واحدًا.

بحرب الفجار؛ لانتهاك حرمة الشهر الحرام فيها، وقد حضر هذه الحرب رسول الله ﷺ، وكان ينبل على عمومته؛ أى: يجهز لهم النبل للرمى[(١)].

حلف الفضول:

وعلى أثر هذه الحرب وقع حلف الفضول فى ذى القعدة فى شهر حرام تداعت إليه قبائل من قريش: بنو هاشم، وبنو المطلب،وأسد بن عبد العزى، وزهرة بن كلاب، وتيم ابن مرة، فاجتمعوا فى دار عبد الله بن جُدْعان التيمى؛ لسنِّه وشرفه، فتعاقدوا وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلومًا من أهلها وغيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته، وشهد هذا الحلف رسول الله ﷺ. وقال بعد أن أكرمه الله بالرسالة: «**لقد شهدت فى دار عبد الله ابن جدعان حلفًا، ما أحب أن لى به حمر النعم، ولو أدعى به فى الإسلام لأجبت**»[(٢)].

وهذا الحلف روحه تنافى الحمية الجاهلية التى كانت العصبية تثيرها، ويقال فى سبب هذا الحلف: إن رجلًا من زُبَيْد قدم مكة ببضاعة، واشتراها منه العاص بن وائل السهمى، وحبس عنه حقه، فاستعدى عليه الأحلاف عبد الدار ومخزومًا، وجُمَحًا وسَهْمًا وعَدِيًا فلم يكترثوا له، فعلا جبل أبى قُبَيْس، ونادى بأشعار يصف فيها ظلامته رافعًا صوته، فمشى فى ذلك الزبير بن عبد المطلب، وقال: ما لهذا مترك؟ حتى اجتمع الذين مضى ذكرهم فى حلف الفضول، فعقدوا الحلف ثم قاموا إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه حق الزبيدى[(٣)].

حياة الكدح:

ولم يكن له ﷺ عمل معين فى أول شبابه، إلا أن الروايات توالت أنه كان يرعى غنمًا، رعاها فى بنى سعد[(٤)]، وفى مكة لأهلها على قراريط[(٥)]، ويبدو أنه انتقل إلى عمل التجارة حين شب،فقد ورد أنه كان يتجر مع السائب بن أبى السائب المخزومى فكان خير شريك

---

(١) ابن هشام ١/ ١٨٤– ١٨٧، والمنمق فى أخبار قريش، ص ١٦٤– ١٨٥، والكامل لابن الأثير ١/ ٤٦٨– ٤٧٢، قالوا: كانت فى شوال، ولا يصح؛ لأن شهر شوال ليس بالشهر الحرام، وعكاظ خارج عن الحرم، فما هى الحرمة التى انتهكت؟ على أن سوق عكاظ كان يقام من بداية ذى القعدة.

(٢) ابن هشام ١/ ١٥٤، ١٥٥.

(٣) طبقات ابن سعد ١/ ١٢٦– ١٢٨، ونسب قريش للزبيرى، ص ٢٩١.

(٤) ابن هشام ١/ ١٦٦.

(٥) صحيح البخارى: كتاب الإجارات، باب رعى الغنم على قراريط، ح (٢٢٦٢).

له، لا يدارى ولا يمارى، وجاءه يوم الفتح فرحب به، وقال: مرحبًا بأخى وشريكى[١].

وفى الخامسة والعشرين من سنه خرج تاجرًا إلى الشام فى مال خديجة رضي الله عنها، قال ابن إسحاق: كانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال فى مالها، وتضاربهم إياه بشىء تجعله لهم، وكانت قريش قومًا تجارًا، فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها من صدق حديثه، وعظم أمانته وكرم أخلاقه بعثت إليه، فعرضت عليه أن يخرج فى مال لها إلى الشام تاجرًا، وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره من التجار، مع غلام لها يقال له: ميسرة، فقبله رسول الله ﷺ منها، وخرج فى مالها ذلك، وخرج معه غلامها ميسرة حتى قدم الشام[٢].

زواجه بخديجة:

ولما رجع إلى مكة، ورأت خديجة فى مالها من الأمانة والبركة ما لم تر قبل هذا، وأخبرها غلامها ميسرة بما رأى فيه ﷺ من خلال عذبة، وشمائل كريمة، وفكر راجح، ومنطق صادق، ونهج أمين، وجدت ضالتها المنشودة - وكان السادات والرؤساء يحرصون على زواجها فتأبى عليهم ذلك - فتحدثت بما فى نفسها إلى صديقتها نفيسة بنت منبه، وهذه ذهبت إليه ﷺ تفاتحه أن يتزوج خديجة، فرضى بذلك، وكلم أعمامه، فذهبوا إلى عم خديجة وخطبوها إليه، وعلى إثر ذلك تم الزواج، وحضر العقد بنو هاشم ورؤساء مضر، وذلك بعد رجوعه من الشام بشهرين[٣]، وأصدقها عشرين بَكْرة. وكانت سنها إذ ذاك أربعين سنة، وكانت يومئذ أفضل نساء قومها نسبًا وثروة وعقلًا، وهى أول امرأة تزوجها رسول الله ﷺ، ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت.

وكل أولاده ﷺ منها سوى إبراهيم،ولدت له: أولًا القاسم - وبه كان يكنى - ثم زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، وعبد الله. وكان عبد الله يلقب بالطيب والطاهر، ومات بنوه كلهم فى صغرهم، أما البنات فكلهن أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن،إلا أنهن أدركتهن الوفاة فى حياته ﷺ سوى فاطمة رضي الله عنها، فقد تأخرت بعده ستة أشهر ثم لحقت به[٤].

---

(١) سنن أبى داود ٢/ ٦١١، وابن ماجه ٣/ ٧٦٨، ح (٢٢٨٧)، ومسند أحمد ٣/ ٤٢٥.

(٢) ابن هشام ١/ ١٨٧، ١٨٨.

(٣) وقد حدد المسعودى خروجه ﷺ إلى الشام بأربع سنين وتسعة أشهر وستة أيام بعد الفجار، وزواجه بخديجة بشهرين وأربعة وعشرين يوما بعد الخروج إلى الشام. انظر: مروج الذهب ٢/ ٢٧٨.

(٤) ابن هشام ١/ ١٨٩- ١٩١، وفتح البارى ٧/ ١٠٥، وتلقيح فهوم أهل الأثر، ص ٧.

بناء الكعبة وقضية التحكيم:

ولخمس وثلاثين سنة من مولده ﷺ قامت قريش ببناء الكعبة؛ وذلك لأن الكعبة كانت رَضْماً[(١)] فوق القامة، ارتفاعها تسعة أذرع من عهد إسماعيل عليه السلام، ولم يكن لها سقف، فسرق نفر من اللصوص كنزها الذى كان فى جوفها، وكانت مع ذلك قد تعرضت - باعتبارها أثرًا قديما - للعوادى التى أدهت بنيانها، وصدعت جدرانها، وقبل بعثته ﷺ بخمس سنين جرف مكة سيل عرم انحدر إلى البيت الحرام، فأوشكت الكعبة منه على الانهيار، فاضطرت قريش إلى تجديد بنائها حرصًا على مكانتها، واتفقوا على ألا يدخلوا فى بنائها إلا طيبًا، فلا يدخلون فيها مهر بغى ولا بيع ربًا ولا مظلمة أحد من الناس، وكانوا يهابون هدمها، فابتدأ بها الوليد بن المغيرة المخزومى، فأخذ المعول وقال: اللهم لا نريد إلا الخير، ثم هدم ناحية الركنين، ولما لم يصبه شىء تبعه الناس فى الهدم فى اليوم الثانى، ولم يزالوا فى الهدم حتى وصلوا إلى قواعد إبراهيم، ثم أرادوا الأخذ فى البناء فجزأوا الكعبة، وخصصوا لكل قبيلة جزءًا منها. فجمعت كل قبيلة حجارة على حدة، وأخذوا يبنونها، وتولى البناء بناء رومى اسمه: باقوم. ولما بلغ البنيان موضع الحجر الأسود اختلفوا فيمن يمتاز بشرف وضعه فى مكانه، واستمر النزاع أربع ليال أو خمسًا، واشتد حتى كاد يتحول إلى حرب ضروس فى أرض الحرم، إلا أن أبا أمية بن المغيرة المخزومى عرض عليهم أن يحكموا فيما شجر بينهم أول داخل عليهم من باب المسجد فارتضوه، وشاء الله أن يكون ذلك رسول الله ﷺ، فلما رأوه هتفوا: هذا الأمين، رضيناه، هذا محمد، فلما انتهى إليهم، وأخبروه الخبر طلب رداء فوضع الحجر وسطه وطلب من رؤساء القبائل المتنازعين أن يمسكوا جميعًا بأطراف الرداء، وأمرهم أن يرفعوه، حتى إذا أوصلوه إلى موضعه أخذه بيده فوضعه فى مكانه، وهذا حل حصيف رضى به القوم.

وقصرت بقريش النفقة الطيبة، فأخرجوا من الجهة الشمالية نحوا من ستة أذرع، وهى التى تسمى بالحجر والحطيم، ورفعوا بابها من الأرض؛ لئلا يدخلها إلا من أرادوا، ولما بلغ البناء خمسة عشر ذراعًا سقفوه على ستة أعمدة.

وصارت الكعبة بعد انتهائها ذات شكل مربع تقريبًا، يبلغ ارتفاعه ١٥ مترًا، وطول ضلعه الذى فيه الحجر الأسود والمقابل له ١٠ أمتار، والحجر موضوع على ارتفاع ١,٥٠ متر من أرضية المطاف. والضلع الذى فيه الباب والمقابل له ١٢ مترًا، وبابها على

(١) صخورا عظاما.

ارتفاع مترين من الأرض، ويحيط بها من الخارج قصبة من البناء أسفلها، متوسط ارتفاعها ٢٥ , ٠ مترًا ومتوسط عرضها ٣٠ , ٠ مترًا وتسمى بالشاذروان، وهى من أصل البيت لكن قريشًا تركتها[١].

السيرة الإجمالية قبل النبوة:

كان النبى ﷺ قد جمع فى نشأته خير ما فى طبقات الناس من ميزات، وكان طرازًا رفيعًا من الفكر الصائب، والنظر السديد، ونال حظًّا وافرًا من حسن الفطنة وأصالة الفكرة وسداد الوسيلة والهدف، وكان يستعين بصمته الطويل على طول التأمل وإدمان الفكرة واستكناه الحق، وطالع بعقله الخصب وفطرته الصافية صحائف الحياة وشئون الناس وأحوال الجماعات، فعاف ما سواها من خرافة، ونأى عنها، ثم عاشر الناس على بصيرة من أمره وأمرهم، فما وجد حسنًا شارك[٢] فيه وإلا عاد إلى عزلته العتيدة، فكان لا يشرب الخمر، ولا يأكل مما ذبح على النصب، ولا يحضر للأوثان عيدًا ولا احتفالًا، بل كان من أول نشأته نافرا من هذه المعبودات الباطلة، حتى لم يكن شىء أبغض إليه منها، وحتى كان لا يصبر على سماع الحلف باللات والعزى[٣].

ولا شك أن القدر حاطه بالحفظ، فعندما تتحرك نوازع النفس لاستطلاع بعض متع الدنيا، وعندما يرضى باتباع بعض التقاليد غير المحمودة - تتدخل العناية الربانية للحيلولة بينه وبينها، قال رسول الله ﷺ: «**ما هممت بشىء مما كان أهل الجاهلية يعملون غير مرتين، كل ذلك يحول الله بينى وبينه، ثم ما هممت به حتى أكرمنى برسالته، قلت ليلة للغلام الذى يرعى معى الغنم بأعلى مكة: لو أبصرت لى غنمى حتى أدخل مكة وأسمر بها كما يسمر الشباب، فقال: أفعل، فخرجت حتى إذا كنت عند أول دار بمكة سمعت عزفًا، فقلت: ما هذا؟ فقالوا: عرس فلان بفلانة، فجلست أسمع، فضرب الله على أذنى فنمت،**

---

(١) انظر فى تفصيل بناء الكعبة: ابن هشام ٢/ ١٩٢- ١٩٧، وتاريخ الطبرى ٢/ ٢٨٩ وما بعدها، وصحيح البخارى: باب فضل مكة وبنيانها ١/ ٢١٥، وخبر التحكيم أيضًا فى مسند أبى داود الطيالسى، وانظر أيضًا: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى ١/ ٦٤، ٦٥.

(٢) فمثلًا: كانت قريش تصوم عاشوراء فى الجاهلية، وكان رسول الله ﷺ أيضا يصومه فى الجاهلية. انظر: صحيح البخارى، ح (٢٠٠٢)، مع فتح البارى ٤/ ٢٨٧.

(٣) انظر لذلك: ابن هشام ١/ ١٢٨، وتاريخ الطبرى ٢/ ١٦١، وتهذيب تاريخ دمشق ١/ ٣٧٣، ٣٧٦.

فما أيقظني إلا حر الشمس. فعدت إلى صاحبي فسألني، فأخبرته، ثم قلت ليلة أخرى مثل ذلك، ودخلت بمكة فأصابني مثل أول ليلة... ثم ما هممت بسوء»[١].

وروى البخارى عن جابر بن عبد الله قال: لما بنيت الكعبة ذهب النبى ﷺ وعباس ينقلان الحجارة، فقال عباس للنبى ﷺ: اجعل إزارك على رقبتك يقيك من الحجارة، فخر إلى الأرض وطمحت عيناه إلى السماء ثم أفاق، فقال: «**إزارى، إزارى**» فشد عليه إزاره. وفى رواية: فما رؤيت له عورة بعد ذلك[٢].

وكان النبى ﷺ يمتاز فى قومه بخلال عذبة، وأخلاق فاضلة، وشمائل كريمة، فكان أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقًا، وأعزهم جوارًا، وأعظمهم حلمًا، وأصدقهم حديثًا، وألينهم عَرِيكة، وأعفهم نفسًا وأكرمهم خيرًا، وأبرهم عملًا، وأوفاهم عهدًا، وآمنهم أمانة حتى سماه قومه: (الأمين) لما جمع فيه من الأحوال الصالحة والخصال المرضية، وكان -كما قالت أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها : يحمل الكل، ويكسب المعدوم، ويقرى الضيف، ويعين على نوائب الحق[٣].

---

(١) الحديث رواه الطبرى ٢/ ٢٧٩ وغيره، وصححه الحاكم وتبعه الذهبى، وضعفه ابن كثير: البداية والنهاية ٢/ ٢٨٧.

(٢) صحيح البخارى، ح (١٥٨٢)، وفتح البارى ٣/ ٥١٣، وح (٣٨٢٩)، ٧/ ١٨٠، وانظر أيضا: فتح البارى ٣/ ٥١٧، ومسند أحمد ٣/ ٢٩٥، ٣١٠، ٣٣٣، ٣٨٠.

(٣) صحيح البخارى، ح (٣).

حياة النبوة و الرسالة
والدعوة
العهد المكي

النبوة والدعوة

العهد المكي

تنقسم حياة رسول الله ﷺ – بعد أن شرفه الله بالنبوة والرسالة – إلى عهدين، يمتاز أحدهما عن الآخر تمام الامتياز، وهما:

١ – **العهد المكى**، ثلاث عشرة سنة تقريبًا.

٢ – **العهد المدنى**، عشر سنوات كاملة.

ثم يشتمل كل من العهدين على عدة مراحل، لكل مرحلة منها خصائص تمتاز بها عن غيرها، يظهر ذلك جليًا بعد النظر الدقيق فى الظروف التى مرت بها الدعوة خلال العهدين.

ويمكن تقسيم العهد المكى إلى ثلاث مراحل:

١ – **مرحلة الدعوة السرية**، ثلاث سنوات.

٢ – **مرحلة إعلان الدعوة فى أهل مكة**، من بداية السنة الرابعة من النبوة إلى هجرته ﷺ إلى المدينة.

٣ – **مرحلة الدعوة خارج مكة وفشوها فيهم**، من أواخر السنة العاشرة من النبوة. وقد شملت العهد المدنى وامتدت إلى آخر حياته ﷺ.

أما مراحل العهد المدنى فسيجىء تفصيلها فى موضعه.

في ظلال النبوة والرسالة

في غار حراء:

لما تقاربت سنه ﷺ الأربعين، وكانت تأملاته الماضية قد وسعت الشقة العقلية بينه وبين قومه، حبب إليه الخلاء، فكان يأخذ السَّوِيق والماء، ويذهب إلى غار حراء في جبل النور على مبعدة نحو ميلين من مكة - وهو غار لطيف طوله أربعة أذرع، وعرضه ذراع وثلاثة أرباع ذراع من ذراع الحديد - فيقيم فيه شهر رمضان، ويقضي وقته في العبادة والتفكير فيما حوله من مشاهد الكون وفيما وراءها من قدرة مبدعة، وهو غير مطمئن لما عليه قومه من عقائد الشرك المهلهلة وتصوراتها الواهية، ولكن ليس بين يديه طريق واضح، ولا منهج محدد، ولا طريق قاصد يطمئن إليه ويرضاه.

وكان اختياره ﷺ لهذه العزلة طرفًا من تدبير الله له، وليكون انقطاعه عن شواغل الأرض وضَجَّة الحياة وهموم الناس الصغيرة التي تشغل الحياة نقطة تحول لاستعداده لما ينتظره من الأمر العظيم، فيستعد لحمل الأمانة الكبرى وتغيير وجه الأرض، وتعديل خط التاريخ... دبر الله له هذه العزلة قبل تكليفه بالرسالة بثلاث سنوات، ينطلق في هذه العزلة شهرًا من الزمان، مع روح الوجود الطليقة، ويتدبر ما وراء الوجود من غيب مكنون، حتى يحين موعد التعامل مع هذا الغيب عندما يأذن الله[١].

جبريل ينزل بالوحي:

ولما تكامل له أربعون سنة - وهي رأس الكمال، وقيل: ولها تبعث الرسل - بدأت طلائع النبوة تلوح وتلمع، فمن ذلك أن حجرًا بمكة كان يسلم عليه، ومنها أنه كان يرى الرؤيا الصادقة؛ فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، حتى مضت على ذلك ستة أشهر - ومدة النبوة ثلاث وعشرون سنة، فهذه الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة - فلما كان رمضان من السنة الثالثة من عزلته ﷺ بحراء شاء الله أن يفيض من رحمته على أهل الأرض، فأكرمه بالنبوة، وأنزل إليه جبريل بآيات من القرآن[٢].

---

(١) انظر لأصل القصة: صحيح البخاري ح (٣)، وابن هشام ١/ ٢٣٥، ٢٣٦ وغيرهما من كتب التفسير والسنة والسيرة. ويقال: إن عبد المطلب أول من تحنث بحراء، فكان إذا دخل شهر رمضان صعد وأطعم المساكين جميع الشهر. الكامل لابن الأثير ١/ ٥٥٣.

(٢) قال ابن حجر: وحكى البيهقي أن مدة الرؤيا كانت ستة أشهر، وعلى هذا فابتداء النبوة والرؤيا =

وبعد النظر والتأمل فى القرائن والدلائل يمكن لنا أن نحدد ذلك اليوم بأنه كان يوم الاثنين لإحدى وعشرين مضت من شهر رمضان ليلًا، وقد وافق ١٠ أغسطس سنة ٦١٠ م، وكان عمره ﷺ إذ ذاك بالضبط أربعين سنة قمرية، وستة أشهر، و١٢ يومًا، وذلك نحو ٣٩ سنة شمسية وثلاثة أشهر وعشرين يومًا(١).

ولنستمع إلى عائشة الصديقة رضي الله عنها تروى لنا قصة هذه الوقعة التى كانت نقطة بداية النبوة، وأخذت تفتح دياجير ظلمات الكفر والضلال حتى غيرت مجرى الحياة، وعدلت خط التاريخ، قالت عائشة رضي الله عنها:

أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح، ثم حُبِّبَ إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيَتَحَنَّث فيه -

---

= وقع فى شهر مولده وهو ربيع الأول، بعد إكماله أربعين سنة، وابتداء وحى اليقظة فى رمضان. فتح البارى ١/ ٢٧.

(١) اختلف أهل السير اختلافا كبيرًا فى أول شهر أكرمه الله فيه بالنبوة، وإنزال الوحى، فذهبت طائفة كبيرة إلى أنه شهر ربيع الأول، وذهبت طائفة أخرى إلى أنه رمضان، وقيل: هو شهر رجب، وإنما رجحنا أنه شهر رمضان لقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة ١٨٥]، ولقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾ [القدر]، ومعلوم أن ليلة القدر فى رمضان، وهى المرادة بقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣﴾ [الدخان]؛ ولأن جواره ﷺ بحراء كان فى رمضان، وكانت وقعة نزول جبريل فيها كما هو معروف.

ثم اختلفت الروايات واختلف القائلون ببدء نزول الوحى فى رمضان فى تحديد ذلك اليوم، فقيل: هو اليوم السابع، وقيل: السابع عشر، وقيل: الثامن عشر، وذهب ابن إسحاق وغيره إلى أنه اليوم السابع عشر. وإنما رجحنا أنه اليوم الحادى والعشرون لأن أهل السير كلهم أو أكثرهم متفقون على أن مبعثه ﷺ كان يوم الاثنين، ويؤيدهم ما رواه أئمة الحديث عن أبى قتادة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ سئل عن صوم يوم الاثنين، فقال: «**فيه ولدت وفيه أنزل علىّ**»، وفى لفظ: «**ذاك يوم ولدت فيه ويوم بعثت أو أنزل على فيه**» «صحيح مسلم ١/ ٣٦٨، وأحمد ٥/ ٢٩٧، ٢٩٩، والبيهقى ٤/ ٢٨٦، ٣٠٠، والحاكم ٢/ ٢-٦»، ويوم الاثنين فى رمضان من تلك السنة لا يوافق إلا اليوم السابع، والرابع عشر، والحادى والعشرين، والثامن والعشرين، وقد دلت الروايات الصحيحة أن ليلة القدر لا تقع إلا فى وتر من ليالى العشر الأواخر من رمضان، وأنها تتنقل فيما بين هذه الليالى، فإذا قارنّا بين قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾ [القدر]، وبين رواية أبى قتادة: أن مبعثه ﷺ كان يوم الاثنين وبين حساب التقويم العلمى فى وقوع أيام الاثنين فى رمضان من تلك السنة، تعين لنا أن مبعثه كان فى اليوم الحادى والعشرين من رمضان ليلًا.

وهو التعبد - الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ: قال: «**ما أنا بقارئ**»، قال: «**فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى، فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، قال: فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذنى فغطنى الثالثة، ثم أرسلنى فقال:** ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣﴾ [العلق]»[١]، فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال: «**زَمِّلُونى زملونى**»، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة: «**ما لى؟**» فأخبرها الخبر، «**لقد خشيت على نفسى**»، فقالت خديجة: كلا، والله ما يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق[٢]، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة - وكان امرأ تنصر فى الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبرانى، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عمى - فقالت له خديجة: يابن عم، اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يابن أخى، ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذى نزله الله على موسى، يا ليتنى فيها جَذَعا، ليتنى أكون حيًّا إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: «**أو مخرجيّ هم؟**» قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودِىَ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا، ثم لم يَنْشَبْ ورقة أن توفى، وفَتَر الوحى[٣].

فَتْرَة الوحى:

أما مدة فترة الوحى، فاختلفوا فيها على عدة أقوال. والصحيح أنها كانت أيامًا، وقد روى ابن سعد عن ابن عباس ما يفيد ذلك[٤]. وأما ما اشتهر من أنها دامت ثلاث سنوات أو سنتين ونصفًا فليس بصحيح.

---

(١) نزلت الآيات إلى قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق].

(٢) الكل: الثقل، ويدخل فى حمل الكل الإنفاق على الضعيف واليتيم والعيال وغير ذلك، وكسب المعدوم هو إعطاء الفقير تبرعًا، والنوائب: الحوادث.

(٣) صحيح البخارى، ح (٣) وقد أخرجه البخارى مع اختلاف يسير فى اللفظ فى كتابى التفسير وتعبير الرؤيا، ح (٣٣٩٢، ٤٩٥٣، ٤٩٥٥- ٤٩٥٧، ٦٩٨٢)، وأخرجه مسلم فى كتاب الإيمان، ح (٢٥٢).

(٤) طبقات ابن سعد ١/ ١٩٦.

وقد ظهر لى شىء غريب بعد إدارة النظر فى الروايات وفى أقوال أهل العلم. ولم أر من تعرض له منهم، وهو أن هذه الأقوال والروايات تفيد أن رسول الله ﷺ كان يجاور بحراء شهرًا واحدًا، وهو شهر رمضان من كل سنة، وذلك من ثلاث سنوات قبل النبوة،وأن سنة النبوة كانت هى آخر تلك السنوات الثلاث، وأنه كان يتم جواره بتمام شهر رمضان، فكان ينزل بعده من حراء صباحًا - أى لأول يوم من شهر شوال - ويعود إلى البيت.

وقد ورد التنصيص فى رواية الصحيحين على أن الوحى الذى نزل عليه ﷺ بعد الفترة، إنما نزل وهو ﷺ راجع إلى بيته بعد إتمام جواره بتمام الشهر.

أقول: فهذا يفيد أن الوحى الذى نزل عليه ﷺ بعد الفترة إنما نزل فى أول يوم من شهر شوال بعد نهاية شهر رمضان الذى تشرف فيه بالنبوة والوحى؛ لأنه كان آخر مجاورة له بحراء، وإذا ثبت أن أول نزول الوحى كان فى ليلة الاثنين الحادية عشرة من شهر رمضان، فإن هذا يعنى أن فترة الوحى كانت لعشرة أيام فقط. وأن الوحى نزل بعدها صبيحة يوم الخميس لأول شوال من السنة الأولى من النبوة. ولعل هذا هو السر فى تخصيص العشر الأواخر من رمضان بالمجاورة والاعتكاف، وفى تخصيص أول شهر شوال بالعيد السعيد، والله أعلم.

وقد بقى رسول الله ﷺ فى أيام الفترة كئيبًا محزونًا تعتريه الحيرة والدهشة، فقد روى البخارى فى كتاب التعبير ما نصه:

«وفتر الوحى فترة حزن النبى ﷺ فيما بلغنا حزنًا[1] عدا منه مرارًا كى يتردى من رءوس شواهق الجبال، فكلما أوْفى بذِرْوَة جبل لكى يلقى نفسه منه تَبَدَّى له جبريل فقال: يا محمد، إنك رسول الله حقًّا، فيسكن لذلك جأشه، وتَقَرّ نفسه، فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحى غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة الجبل تبدى له جبريل فقال له مثل ذلك»[2].

جبريل ينزل بالوحى مرة ثانية:

قال ابن حجر: وكان ذلك (أى انقطاع الوحى أيامًا) ؛ ليذهب ما كان ﷺ وجده من الروع، وليحصل له التشوف إلى العود[3]، فلما حصل له ذلك وأخذ يرتقب مجىء الوحى، أكرمه الله بالوحى مرة ثانية. قال: ﷺ:

---

(١) بالعين المهملة من العدو، وهو الذهاب بسرعة، وفى بعض النسخ: «غدا» بالغين المعجمة.

(٢) صحيح البخارى، ح (٦٩٨٢).

(٣) فتح البارى ١/ ٢٧.

«جاورت بحراء شهرًا فلما قضيت جوارى هبطت [فلما استبطنت الوادي] فنوديت، فنظرت عن يمينى فلم أر شيئًا، ونظرت عن شمالى فلم أر شيئًا، ونظرت أمامى فلم أر شيئا، ونظرت خلفى فلم أرشيئًا، فرفعت رأسى فرأيت شيئًا، [فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض، فَجُئِثْتُ منه رعبًا حتى هويت إلى الأرض] فأتيت خديجة فقلت: [زملونى، زملونى]، دثرونى، وصبوا على ماء باردًا»، قال: «فدثرونى وصبوا على ماء باردًا، فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ [المدثر]» وذلك قبل أن تفرض الصلاة، ثم حمى الوحى بعد وتتابع[(١)].

وهذه الآيات هى مبدأ رسالته ﷺ، وهى متأخرة عن النبوة بمقدار فترة الوحى. وتشتمل على نوعين من التكليف مع بيان ما يترتب عليه:

النوع الأول: تكليفه ﷺ بالبلاغ والتحذير، وذلك فى قوله تعالى: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ فإن معناه: حذر الناس من عذاب الله إن لم يرجعوا عما هم فيه من الغى والضلال وعبادة غير الله المتعال، والإشراك به فى الذات والصفات والحقوق و الأفعال.

النوع الثانى: تكليفه ﷺ بتطبيق أوامر الله سبحانه وتعالى على ذاته، والالتزام بها فى نفسه؛ ليحرز بذلك مرضاة الله، ويصير أسوة حسنة لمن آمن بالله وذلك فى بقية الآيات. فقوله: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ معناه: خصه بالتعظيم، ولا تشرك به فى ذلك أحدًا. وقوله: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ المقصود الظاهر منه: تطهير الثياب والجسد، إذ ليس لمن يكبر الله ويقف بين يديه أن يكون نجسًا مستقذرًا. وإذا كان هذا التطهر مطلوبًا فإن التطهر من أدران الشرك وأرجاس الأعمال والأخلاق أولى بالطلب، وقوله: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ معناه: ابتعد عن أسباب سخط الله وعذابه، وذلك بالتزام طاعته وترك معصيته. وقوله: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ أى: لا تحسن إحسانًا تريد أجره من الناس، أو تريد له جزاء أفضل فى هذه الدنيا.

أما الآية الأخيرة ففيها تنبيه على ما يلحقه من أذى قومه حين يفارقهم فى الدين ويقوم بدعوتهم إلى الله وحده وبتحذيرهم من عذابه وبطشه، فقال: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾، ثم إن مطلع الآيات تضمنت النداء العلوى – فى صوت الكبير المتعال – بانتداب النبى ﷺ لهذا الأمر الجلل، وانتزاعه من النوم والتدثر والدفء إلى الجهاد والكفاح والمشقة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

---

(١) صحيح البخارى: تفسير سورة المدثر، باب (١) وما بعده ٨/ ٤٤٥ – ٤٤٧، ونحوه فى صحيح مسلم: كتاب الإيمان ١/ ١٤٤ ح (٢٥٧). و «جئثت»: أى ذُعِرت وخِفْت.

ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ ، كأنه قيل: إن الذى يعيش لنفسه قد يعيش مستريحًا، أما أنت الذى تحمل هذا العبء الكبير فما لك والنوم؟ وما لك والراحة؟ وما لك والفراش الدافئ؟ والعيش الهادئ؟ والمتاع المريح ! قم للأمر العظيم الذى ينتظرك، والعبء الثقيل المهيأ لك، قم للجهد والنصب، والكد والتعب، قم فقد مضى وقت النوم والراحة، وما عاد منذ اليوم إلا السهر المتواصل، والجهاد الطويل الشاق، قم فتهيأ لهذا الأمر واستعد.

إنها كلمة عظيمة رهيبة تنزعه ﷺ من دفء الفراش فى البيت الهادئ والحضن الدافئ، لتدفع به فى الخضم، بين الزعازع والأنواء، وبين الشد والجذب فى ضمائر الناس وفى واقع الحياة سواء.

وقام رسول الله ﷺ، فظل قائمًا بعدها أكثر من عشرين عامًا؛ لم يسترح ولم يسكن، ولم يعش لنفسه ولا لأهله. قام وظل قائمًا على دعوة الله، يحمل على عاتقه العبء الثقيل الباهظ ولا ينوء به، عبء الأمانة الكبرى فى هذه الأرض، عبء البشرية كلها، عبء العقيدة كلها، وعبء الكفاح والجهاد فى ميادين شتى، عاش فى المعركة الدائبة المستمرة أكثر من عشرين عامًا؛ لا يلهيه شأن عن شأن فى خلال هذا الأمد منذ أن سمع النداء العلوى الجليل، وتلقى منه التكليف الرهيب... جزاه الله عنا وعن البشرية كلها خير الجزاء.

وليست الأوراق الآتية إلا صورة مصغرة بسيطة من هذا الجهاد الطويل الشاق الذى قام به رسول الله ﷺ خلال هذا الأمد.

أقسام الوحى:

وقبل الدخول فى موضوع هذا الجهاد، أرى من الأحسن أن أستطرد إلى بيان أقسام الوحى ومراتبه. قال ابن القيم، وهو يذكر تلك المراتب:

إحداها: الرؤيا الصادقة، وكانت مبدأ وحيه ﷺ.

الثانية: ما كان يلقيه الملك فى روعه وقلبه من غير أن يراه، كما قال النبى ﷺ: «**إن روح القدس نفث فى روعى أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله، فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته**».

الثالثة: إنه ﷺ كان يتمثل له الملك رجلًا فيخاطبه حتى يَعِيَ عنه ما يقول له، وفى هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحيانًا.

الرابعة: إنه كان يأتيه فى مثل صلصلة الجرس، وكان أشده عليه، فيلتبس به الملك،

حتى أن جبينه ليتَفَصَّد عرقًا فى اليوم الشديد البرد، وحتى أن راحلته لتبرك به إلى الأرض إذا كان راكبها، ولقد جاء الوحى مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت، فثقلت عليه حتى كادت ترضها.

الخامسة: إنه يرى الملك فى صورته التى خلق عليها، فيوحى إليه ما شاء الله أن يوحيه، وهذا وقع له مرتين، كما ذكر الله ذلك فى سورة النجم.

السادسة: ما أوحاه الله إليه، وهو فوق السموات ليلة المعراج من فرض الصلاة وغيرها.

السابعة: كلام الله له منه إليه بلا واسطة ملك، كما كلم الله موسى بن عمران، وهذه المرتبة هى ثابتة لموسى قطعًا بنص القرآن. وثبوتها لنبينا ﷺ هو فى حديث الإسراء.

وقد زاد بعضهم مرتبة ثامنة: وهى تكليم الله له كفاحًا من غير حجاب، وهى مسألة خلاف بين السلف والخلف. انتهى مع تلخيص يسير فى بيان المرتبة الأولى والثامنة[١].

---

(١) انظر: زاد المعاد ١/ ١٨.

المرحلة الأولى
من جهاد الدعوة إلى الله

ثلاث سنوات من الدعوة السرية:

قام رسول الله ﷺ - بعد نزول ما تقدم من آيات سورة المدثر - بالدعوة إلى الله سبحانه وتعالى؛ وحيث إن قومه كانوا جفاة لا دين لهم إلا عبادة الأصنام والأوثان، ولا حجة لهم إلا أنهم ألفوا آباءهم على ذلك، ولا أخلاق لهم إلا الأخذ بالعزة والأنفة، ولا سبيل لهم فى حل المشاكل إلا السيف، وكانوا مع ذلك متصدرين للزعامة الدينية فى جزيرة العرب، ومحتلين مركزها الرئيس، ضامنين حفظ كيانها، فقد كان من الحكمة تلقاء ذلك أن تكون الدعوة فى بدء أمرها سرية؛ لئلا يفاجئ أهل مكة بما يهيجهم.

الرعيل الأول:

وكان من الطبيعى أن يعرض الرسول ﷺ الإسلام أولًا على ألصق الناس به من أهل بيته، وأصدقائه، فدعاهم إلى الإسلام، ودعا إليه كل من توسم فيه الخير ممن يعرفهم ويعرفونه، يعرفهم بحب الحق والخير، ويعرفونه بتحرى الصدق والصلاح، فأجابه من هؤلاء - الذين لم تخالجهم ريبة قط فى عظمة الرسول ﷺ وجلالة نفسه وصدق خبره - جَمْعٌ عُرِفوا فى التاريخ الإسلامى بالسابقين الأولين، وفى مقدمتهم زوجة النبى ﷺ أم المؤمنين خديجة بنت خويلد، ومولاه زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبى[١] وابن عمه على بن أبى طالب - وكان صبيا يعيش فى كفالة الرسول ﷺ - وصديقه الحميم أبو بكر الصديق. أسلم هؤلاء فى أول يوم الدعوة.

ثم نشط أبو بكر فى الدعوة إلى الإسلام، وكان رجلًا مألفًا محببًا سهلًا ذا خلق ومعروف،وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه؛ لعلمه وتجارته وحسن مجالسته، فجعل يدعو من يثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه، فأسلم بدعوته عثمان بن عفان الأموى، والزبير

---

(١) كان قد أُسِر ورُقّ، فملكته خديجة، ووهبته لرسول الله ﷺ، وجاءه أبوه وعمه ليذهبا به إلى قومه وعشيرته، فاختار عليهما رسول الله ﷺ، فتبناه حسب قواعد العرب، وكان لذلك يقال: زيد بن محمد، حتى جاء الإسلام فأبطل التبنى. قتل شهيدًا يوم مؤتة فى جمادى الأولى سنة ٨ هـ وهو أمير جيش المسلمين.

ابن العوام الأسدى، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبى وقاص الزهريان، وطلحة بن عبيد الله التيمى. فكان هؤلاء النفر الثمانية الذين سبقوا الناس هم الرعيل الأول وطليعة الإسلام.

ثم تلا هؤلاء أمين هذه الأمة(١) أبو عبيدة عامر بن الجراح من بنى الحارث بن فهر، وأبو سلمة بن عبد الأسد المخزومى، وامرأته أم سلمة، والأرقم بن أبى الأرقم المخزومى، وعثمان بن مظعون الجُمَحِيّ وأخواه قدامة وعبد الله، وعبيدة بن الحارث ابن المطلب بن عبد مناف، وسعيد ابن زيد العدوى، وامرأته فاطمة بنت الخطاب العدوية أخت عمر بن الخطاب، وخباب بن الأرت التميمى، وجعفر بن أبى طالب، وامرأته أسماء بنت عُمَيْس، وخالد بن سعيد بن العاص الأموى، وامرأته أمينة بنت خلف، ثم أخوه عمرو بن سعيد ابن العاص، وحاطب بن الحارث الجمحى، وامرأته فاطمة بنت المُجَلِّل وأخوه الخطاب ابن الحارث، وامرأته فُكَيْهَة بنت يسار، وأخوه معمر ابن الحارث، والمطلب بن أزهر الزهرى، وامرأته رملة بنت أبى عوف، ونعيم ابن عبد الله بن النحام العدوى، وهؤلاء كلهم قرشيون من بطون وأفخاذ شتى من قريش.

ومن السابقين الأولين إلى الإسلام من غير قريش: عبد الله بن مسعود الهذلى، ومسعود بن ربيعة القارى، وعبد الله بن جحش الأسدى وأخوه أبو أحمد بن جحش، وبلال بن رباح الحبشى، وصُهَيْب بن سِنان الرومى، وعمار بن ياسر العنسى، وأبوه ياسر، وأمه سمية، وعامر بن فُهيرة.

وممن سبق إلى الإسلام من النساء غير من تقدم ذكرهن: أم أيمن بركة الحبشية، وأم الفضل لبابة الكبرى بنت الحارث الهلالية زوج العباس بن عبد المطلب، وأسماء بنت أبى بكر الصديق رضي الله عنها(٢).

هؤلاء معروفون بالسابقين الأولين، ويظهر بعد التتبع والاستقراء أن عدد الموصوفين بالسبق إلى الإسلام وصل إلى مائة وثلاثين رجلًا وامرأة، ولكن لا يعرف بالضبط أنهم كلهم أسلموا قبل الجهر بالدعوة أو تأخر إسلام بعضهم إلى الجهر بها.

الصلاة:

ومن أوائل ما نزل من الأحكام الأمر بالصلاة، قال ابن حجر: كان ﷺ قبل الإسراء

(١) انظر لتسميته بهذا اللقب: صحيح البخارى: مناقب أبى عبيدة بن الجراح ١/ ٥٣٠.

(٢) انظر للتفصيل: سيرة ابن هشام ١/ ٢٤٥- ٢٦٢، وفى تسمية بعض من سمى فيه نظر.

يصلى قطعًا وكذلك أصحابه، ولكن اختلف هل فرض شىء قبل الصلوات الخمس من الصلوات أم لا؟ فقيل: إن الفرض كانت صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها. انتهى. وروى الحارث بن أبى أسامة من طريق ابن لَهِيعَة موصولًا عن زيد بن حارثة: أن رسول الله ﷺ فى أول ما أوحى إليه أتاه جبريل، فعلمه الوضوء، فلما فرغ من الوضوء أخذ غرفة من ماء فنضح بها فرجه، وقد رواه ابن ماجه بمعناه، وروى نحوه عن البراء بن عازب وابن عباس، وفى حديث ابن عباس: وكان ذلك من أول الفريضة(١).

وقد ذكر ابن هشام أن النبى ﷺ وأصحابه كانوا إذا حضرت الصلاة ذهبوا فى الشعاب فاستخفوا بصلاتهم من قومهم، وقد رأى أبو طالب النبى ﷺ وعليّا يصليان مرة، فكلمهما فى ذلك، ولما عرف جلية الأمر أمرهما بالثبات(٢).

تلك هى العبادة التى أمر بها المؤمنون، ولا تعرف لهم عبادات وأوامر ونواه أخرى غير ما يتعلق بالصلاة، وإنما كان الوحى يبين لهم جوانب شتى من التوحيد، ويرغبهم فى تزكية النفوس، ويحثهم على مكارم الأخلاق، ويصف لهم الجنة والنار كأنهما رأى عين، ويعظهم بمواعظ بليغة تشرح الصدور وتغذى الأرواح، وتحدو بهم إلى جو آخر غير الذى كان فيه المجتمع البشرى آنذاك.

وهكذا مرت ثلاثة أعوام، والدعوة لم تزل مقصورة على الأفراد، ولم يجهر بها النبى ﷺ فى المجامع والنوادى،إلا أنها عرفت لدى قريش، وفشا ذكر الإسلام بمكة، وتحدث به الناس، وقد تنكر له بعضهم أحيانًا، واعتدوا على بعض المؤمنين، إلا أنهم لم يهتموا به كثيرًا حيث لم يتعرض رسول الله ﷺ لدينهم، ولم يتكلم فى آلهتهم.

(١) مختصر السيرة للشيخ عبد الله النجدى، ص ٨٨.

(٢) ابن هشام ١/ ٢٤٧، والخبر أيضًا فى مسند أبى داود الطيالسى، ص ٢٦.

المرحلة الثانية

الدعوة جهارًا

أول أمر بإظهار الدعوة:

لما تكونت جماعة من المؤمنين تقوم على الأخوة والتعاون، وتتحمل عبء تبليغ الرسالة وتمكينها من مقامها نزل الوحى يكلف رسول الله ﷺ بمعالنة الدعوة، ومجابهة الباطل بالحسنى.

وأول ما نزل بهذا الصدد قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [الشعراء]، وقد ورد فى سياق ذكرت فيه أولًا قصة موسى عليه السلام، من بداية نبوته إلى هجرته مع بنى إسرائيل، وقصة نجاتهم من فرعون وقومه، وإغراق آل فرعون معه، وقد اشتملت هذه القصة على جميع المراحل التى مر بها موسى عليه السلام، خلال دعوة فرعون وقومه إلى الله.

وكأن هذا التفصيل جىء به مع أمر الرسول ﷺ بجهر الدعوة إلى الله؛ ليكون أمامه وأمام أصحابه مثال لما سيلقونه من التكذيب والاضطهاد حينما يجهرون بالدعوة، وليكونوا على بصيرة من أمرهم منذ البداية.

ومن ناحية أخرى تشتمل هذه السورة على ذكر مآل المكذبين للرسل، من قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم إبراهيم، وقوم لوط، وأصحاب الأيكة - عدا ما ذكر من أمر فرعون وقومه - ليعلم الذين سيقومون بالتكذيب عاقبة أمرهم وما سيلقونه من مؤاخذة الله إن استمروا عليه، وليعرف المؤمنون أن حسن العاقبة لهم وليس للمكذبين.

الدعوة فى الأقربين:

ودعا رسول الله ﷺ عشيرته بنى هاشم بعد نزول هذه الآية، فجاءوا ومعهم نفر من بنى المطلب بن عبد مناف، فكانوا نحو خمسة وأربعين رجلًا. فلما أراد أن يتكلم رسول الله ﷺ بادره أبو لهب وقال: هؤلاء عمومتك وبنو عمك فتكلم، ودع الصباة، واعلم أنه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة، وأنا أحق من أخذك، فحسبك بنو أبيك، وإن أقمت على ما أنت عليه فهو أيسر عليهم من أن يثب بك بطون قريش، وتمدهم العرب، فما رأيت أحدًا جاء على بنى أبيه بشر مما جئت به، فسكت رسول الله ﷺ، ولم يتكلم فى ذلك المجلس.

ثم دعاهم ثانية وقال: «**الحمد لله، أحمده وأستعينه، وأومن به، وأتوكل عليه. وأشهد**

أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له». ثم قال: «**إن الرائد لا يكذب أهله، والله الذى لا إله إلا هو، إنى رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس عامة، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، وإنها الجنة أبدًا أو النار أبدًا**».

فقال أبو طالب: ما أحب إلينا معاونتك، وأقبلنا لنصيحتك، وأشد تصديقًا لحديثك.

وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون، وإنما أنا أحدهم، غير أنى أسرعهم إلى ما تحب، فامض لما أمرت به. فوالله، لا أزال أحوطك وأمنعك، غير أن نفسى لا تطاوعنى على فراق دين عبد المطلب.

فقال أبو لهب: هذه والله السوأة، خذوا على يديه قبل أن يأخذ غيركم، فقال أبو طالب: والله لنمنعه ما بقينا[١].

على جبل الصفا:

وبعد تأكد النبى ﷺ من تعهد أبى طالب بحمايته وهو يبلغ عن ربه، صعد النبى ﷺ ذات يوم على الصفا، فعلا أعلاها حجرًا، ثم هتف: «**يا صباحاه**».

وكانت كلمة إنذار تخبر عن هجوم جيش أو وقوع أمر عظيم.

ثم جعل ينادى بطون قريش، ويدعوهم قبائل قبائل: «**يا بنى فهر، يا بنى عدى، يا بنى فلان، يا بنى فلان، يا بنى عبد مناف، يا بنى عبد المطلب**».

فلما سمعوا قالوا: من هذا الذى يهتف؟ قالوا: محمد. فأسرع الناس إليه، حتى إن الرجل إذا لم يستطع أن يخرج إليه أرسل رسولًا لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش.

فلما اجتمعوا قال: «**أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلًا بالوادى بسَفْح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم مُصَدِّقِيَّ؟**».

قالوا: نعم، ما جربنا عليك كذبًا، ما جربنا عليك إلا صدقًا.

قال: «**إنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد، إنما مثلى ومثلكم كمثل رجل رأى العَدُوّ فانطلق يَرْبَأ أهله**» (أى: يتطلع وينظر لهم من مكان مرتفع لئلا يدهمهم العدو) «**فخشى أن يسبقوه فجعل ينادى: يا صباحاه**».

ثم دعاهم إلى الحق، وأنذرهم من عذاب الله، فخص وعم فقال:

---

(١) الكامل لابن الأثير ١/ ٥٨٤، ٥٨٥.

«**يا معشر قريش، اشتروا أنفسكم من الله، أنقذوا أنفسكم من النار، فإنى لا أملك لكم من الله ضرًّا ولا نفعًا، ولا أغنى عنكم من الله شيئًا.**

يا بنى كعب بن لؤى، أنقذوا أنفسكم من النار، فإنى لا أملك لكم ضرًّا ولا نفعًا.

يا بنى مرة بن كعب، أنقذوا أنفسكم من النار.

يا معشر بنى قصى، أنقذوا أنفسكم من النار، فإنى لا أملك لكم ضرًّا ولا نفعًا.

يا معشر بنى عبد مناف، أنقذوا أنفسكم من النار، فإنى لا أملك لكم من الله ضرًّا ولا نفعًا، ولا أغنى عنكم من الله شيئًا.

يا بنى عبد شمس، أنقذوا أنفسكم من النار.

يا بنى هاشم، أنقذوا أنفسكم من النار.

يا معشر بنى عبد المطلب، أنقذوا أنفسكم من النار، فإنى لا أملك لكم ضرًّا ولا نفعًا، ولا أغنى عنكم من الله شيئًا، سلونى من مالى ماشئتم، لا أملك لكم من الله شيئًا.

يا عباس بن عبد المطلب، لا أغنى عنك من الله شيئًا.

يا صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله، لا أغنى عنك من الله شيئًا.

يا فاطمة بنت محمد رسول الله، سلينى ما شئت من مالى، أنقذى نفسك من النار، فإنى لا أملك لك ضرًّا ولا نفعًا، ولا أغنى عنك من الله شيئًا.

غير أن لكم رحمًا سأبُلُّها ببِلاَلها» أى: أصلها حسب حقها.

ولما تم هذا الإنذار انفض الناس وتفرقوا، ولا يذكر عنهم أى ردة فعل، سوى أن أبا لهب واجه النبى ﷺ بالسوء، وقال: تبا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ۝١﴾ [سورة المسد][1].

كانت هذه الصيحة العالية هى غاية البلاغ، فقد أوضح الرسول ﷺ لأقرب الناس إليه أن التصديق بهذه الرسالة هو حياة الصلات بينه وبينهم، وأن عصبة القرابة التى يقوم عليها العرب ذابت فى حرارة هذا الإنذار الآتى من عند الله.

ولم يزل هذا الصوت يرتج دويه فى أرجاء مكة حتى نزل قوله تعالى: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ

---

(١) صحيح البخارى، ح (٢٧٣٣، ٣٥٢٥- ٣٥٢٧، ٤٧٧١) (الفتح ٥/ ٤٤٩، ٦/ ٦٣٧، ٨/ ٣٦٠) صحيح مسلم ١/ ١١٤، وجامع الترمذى: تفسير سورة الشعراء ٥/ ٣١٦، ٣١٧، ح (٣١٨٤- ٣١٨٦) وغيرهم، وقد جمعت حروفهم وألفتها تأليفًا مسلسلًا.

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٩٤﴾ [الحجر]، فقام رسول الله ﷺ يجهر بالدعوة إلى الإسلام فى مجامع المشركين ونواديهم، يتلو عليهم كتاب الله، ويقول لهم ما قالته الرسل لأقوامهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وبدأ يعبد الله تعالى أمام أعينهم، فكان يصلى بفناء الكعبة نهارًا جهارًا وعلى رءوس الأشهاد.

وقد نالت دعوته مزيدًا من القبول، ودخل الناس فى دين الله واحدًا بعد واحد. وحصل بينهم وبين من لم يسلم من أهل بيتهم تباغض وتباعد وعناد، واشمأزت قريش من كل ذلك، وساءهم ما كانوا يبصرون.

المجلس الاستشارى لكف الحجاج عن استماع الدعوة:

وخلال هذه الأيام أهم قريشًا أمر آخر،وذلك أن الجهر بالدعوة لم يمض عليه إلا أيام أو أشهر معدودة حتى قرب موسم الحج، وعرفت قريش أن وفود العرب ستقدم عليهم، فرأت أنه لابد من كلمة يقولونها للعرب فى شأن محمد ﷺ، حتى لا يكون لدعوته أثر فى نفوس العرب، فاجتمعوا إلى الوليد بن المغيرة يتداولون فى تلك الكلمة، فقال لهم الوليد: أجمعوا فيه رأيًا واحدًا،ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضًا، ويرد قولكم بعضه بعضًا، قالوا: فأنت فقل، وأقم لنا رأيًا نقول به. قال: بل أنتم فقولوا أسمع. قالوا: نقول: كاهن. قال: لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان فما هو بزَمْزَمَة الكاهن ولا سجعه. قالوا: فنقول: مجنون، قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، ما هو بخَنْقِه ولا تَخَالُجِه ولا وسوسته. قالوا: فنقول: شاعر. قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله رَجَزَه وهَزَجَه وقَرِيضَه ومَقْبُوضه ومَبْسُوطه، فما هو بالشعر، قالوا: فنقول: ساحر. قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السحار وسحرهم، فما هو بنَفْثِهِم ولا عقْدِهِم. قالوا: فما نقول؟ قال: والله إن لقوله لحلاوة، [وإن عليه لطلاوة] وإن أصله لعَذَق، وإن فَرْعَه لجَنَاة، وما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا: ساحر. جاء بقول هو سحر، يفرق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته، فتفرقوا عنه بذلك(١).

وتفيد بعض الروايات أن الوليد لما رد عليهم كل ما عرضوا له، قالوا: أرنا رأيك الذى لا غضاضة فيه، فقال لهم: أمهلونى حتى أفكر فى ذلك، فظل الوليد يفكر ويفكر حتى أبدى لهم رأيه الذى ذكر آنفًا.

---

(١) ابن هشام ١/ ٢٧١، و أخرجه أيضًا البيهقى وأبو نعيم فى الدلائل وغيرهما.

وفى الوليد أنزل الله تعالى ست عشرة آية من سورة المدثر [من ١١ إلى ٢٦] وفى خلالها صور كيفية تفكيره، فقال: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ [المدثر].

وبعد أن اتفق المجلس على هذا القرار أخذوا فى تنفيذه، فجلسوا بسبل الناس حين قدموا للموسم، لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه وذكروا لهم أمره(١).

أما رسول الله ﷺ فخرج يتبع الناس فى منازلهم وفى عُكَاظ ومَجَنَّة وذى المَجَاز، يدعوهم إلى الله، وأبو لهب وراءه يقول: لا تطيعوه فإنه صابئ كذاب(٢).

وأدى ذلك إلى أن صدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله ﷺ، وانتشر ذكره فى بلاد العرب كلها.

أساليب شتى لمجابهة الدعوة:

ولما فرغت قريش من الحج فكرت فى أساليب تقضى بها على هذه الدعوة فى مهدها. وتتلخص هذه الأساليب فيما يلى:

١ـ السخرية والتحقير، والاستهزاء والتكذيب والتضحيك:

قصدوا بها تخذيل المسلمين، وتوهين قواهم المعنوية، فرموا النبى ﷺ بتهم هازلة، وشتائم سفيهة، فكانوا ينادونه بالمجنون ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾﴾ [الحجر]، ويصمونه بالسحر والكذب ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾﴾ [ص]، وكانوا يشيعونه ويستقبلونه بنظرات ملتهمة ناقمة، وعواطف منفعلة هائجة ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾﴾ [القلم]،وكان إذا جلس وحوله المستضعفون من أصحابه استهزأوا بهم وقالوا: هؤلاء جلساؤه ﴿مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ﴾ [الأنعام: ٥٣]، قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام]،وكانوا كما قص الله علينا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ

(١) ابن هشام ١/ ٢٧١.

(٢) روى فعله هذا الإمام أحمد فى مسنده ٣/ ٤٩٢، ٤/ ٣٤١، وانظر أيضا: البداية والنهاية ٥/ ٧٥، وكنز العمال ١٢/ ٤٤٩، ٤٥٠.

قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [المطففين].

وقد أكثروا من السخرية والاستهزاء وزادوا من الطعن والتضحيك شيئًا فشيئًا حتى أثر ذلك فى نفس رسول الله ﷺ، كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [الحجر]، ثم ثبته الله وأمره بما يذهب بهذا الضيق فقال: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الحجر]، وقد أخبره من قبل أنه يكفيه هؤلاء المستهزئين حيث قال: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الحجر]، وأخبره أن فعلهم هذا سوف ينقلب وبالًا عليهم فقال: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الأنعام].

٢- إثارة الشبهات وتكثيف الدعايات الكاذبة:

وقد أكثروا من ذلك وتفننوا فيه بحيث لا يبقى لعامة الناس مجال للتدبر فى دعوته والتفكير فيها، فكانوا يقولون عن القرآن: ﴿ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ﴾ [الأنبياء: ٥] يراها محمد بالليل ويتلوها بالنهار، ويقولون: ﴿ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ من عند نفسه ويقولون: ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ﴾ [النحل: ١٠٣]، وقالوا: ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ﴾ [الفرقان: ٤] أى: اشترك هو وزملاؤه فى اختلاقه. ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ ﴾ [الفرقان] وأحيانا قالوا: إن له جنًا أو شيطانًا يتنزل عليه كما ينزل الجن والشياطين على الكهان. قال تعالى ردًا عليهم: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ ﴾ [الشعراء]، أى: إنها تنزل على الكذاب الفاجر المتلطخ بالذنوب، وما جرّبتم علىّ كذبًا، وما وجدتم فى فسقًا، فكيف تجعلون القرآن من تنزيل الشيطان؟

وأحيانًا قالوا عن النبى ﷺ: إنه مصاب بنوع من الجنون، فهو يتخيل المعانى، ثم يصوغها فى كلمات بديعة رائعة كما يصوغ الشعراء، فهو شاعر وكلامه شعر. قال تعالى ردًا عليهم: ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ ﴾ [الشعراء]، فهذه ثلاث خصائص يتصف بها الشعراء، ليست واحدة منها فى النبى ﷺ، فالذين اتبعوه هداة مهتدون، متقون صالحون فى دينهم وخلقهم وأعمالهم وتصرفاتهم، وليست عليهم مسحة من الغواية فى أى شأن من شئونهم، ثم النبى ﷺ لا يهيم فى كل واد كما يهيم الشعراء، بل هو يدعو إلى رب واحد، ودين واحد، وصراط واحد، وهو لا يقول إلا ما يفعل، ولا يفعل إلا ما يقول، فأين هو من الشعر والشعراء؟ وأين الشعر

والشعراء منه؟.

هكذا كان يرد عليهم بجواب مقنع حول كل شبهة كانوا يثيرونها ضد النبى ﷺ والقرآن والإسلام.

ومعظم شبهتهم كانت تدور حول التوحيد، ثم رسالة محمد ﷺ، ثم بعث الأموات ونشرهم وحشرهم يوم القيامة، وقد رد القرآن على كل شبهة من شبهاتهم حول التوحيد، بل زاد عليها زيادات أوضح بها هذه القضية من كل ناحية، وبين عجز آلهتهم عجزًا لا مزيد عليه، ولعل هذا كان مثار غضبهم واستنكارهم الذى أدى إلى ما أدى إليه.

أما شبهاتهم فى رسالة النبى ﷺ فإنهم معَ اعترافهم بصدق النبى ﷺ وأمانته وغاية صلاحه وتقواه، كانوا يعتقدون أن منصب النبوة والرسالة أجل وأعظم من أن يعطى لبشر، فالبشر لا يكون رسولًا، والرسول لا يكون بشرًا حسب عقيدتهم. فلما أعلن رسول الله ﷺ عن نبوته، ودعا إلى الإيمان به تحيروا وقالوا: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧]، وقالوا: إن محمدًا ﷺ بشر،و ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]، فقال تعالى ردا عليهم: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ ، وكانوا يعرفون ويعترفون بأن موسى بشر. ورد عليهم أيضًا بأن كل قوم قالوا لرسلهم إنكارًا على رسالتهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠]، فـــ ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم: ١١]. فالأنبياء والرسل لا يكونون إلا بشرًا، ولا منافاة بين البشرية والرسالة.

وحيث إنهم كانوا يعترفون بأن إبراهيم و إسماعيل وموسى - عليهم السلام - كانوا رسلًا وكانوا بشرًا، فإنهم لم يجدوا مجالًا للإصرار على شبهتهم هذه،فقالوا: ألم يجد الله لحمل رسالته إلا هذا اليتيم المسكين،ما كان الله ليترك كبار أهل مكة والطائف ويتخذ هذا المسكين رسولًا ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف]، قال تعالى ردًّا عليهم: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣٢]، يعنى: أن الوحى والرسالة رحمة من الله، و ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وانتقلوا بعد ذلك إلى شبهة أخرى، قالوا: إن رسل ملوك الدنيا يمشون فى موكب من الخدم والحشم، ويتمتعون بالأبهة والجلال، ويوفر لهم كل أسباب الحياة، فما بال محمد يدفع فى الأسواق للقمة عيش وهو يدعى أنه رسول الله؟ ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ

نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ﴾ [الفرقان]، ورد على شبهتهم هذه بأن محمدًا رسول، يعنى: أن مهمته هو إبلاغ رسالة الله إلى كل صغير وكبير، وضعيف وقوى، وشريف ووضيع، وحر وعبد، فلو لبث فى الأبهة والجلال والخدم والحشم والحرس والمواكبين مثل رسل الملوك، لم يكن يصل إليه ضعفاء الناس وصغارهم حتى يستفيدوا به، وهم جمهور البشر، وإذن فاتت مصلحة الرسالة، ولم تعد لها فائدة تذكر.

أما إنكارهم البعث بعد الموت، فلم يكن عندهم فى ذلك إلا التعجب والاستغراب والاستبعاد العقلى، فكانوا يقولون: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الصافات]، وكانوا يقولون: ﴿ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ ﴾ [ق] وكانوا يقولون على سبيل الاستغراب: ﴿ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ﴾ [سبأ: ٧، ٨].

وقال قائلهم:

أَمَــوْتٌ ثم بَـعْـثٌ ثـم حَـشْـرٌ   حـدِيـثُ خُـرَافَـة يـا أم عمرو

وقد رد عليهم بتبصيرهم ما يجرى فى الدنيا، فالظالم يموت دون أن يلقى جزاء ظلمه، والمظلوم يموت دون أن يأخذ حقه من ظالمه، والمحسن الصالح يموت قبل أن يلقى جزاء إحسانه وصلاحه، والفاجر المسىء يموت قبل أن يعاقب على سوء عمله، فإن لم يكن بعث ولا حياة ولا جزاء بعد الموت لاستوى الفريقان، بل لكان الظالم والفاجر أسعد من المظلوم والصالح، وهذا غير معقول إطلاقا. ولا يتصور من الله أن يبنى نظام خلقه على مثل هذا الفساد. قال تعالى: ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [القلم]، وقال: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ [ص]، وقال: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الجاثية].

وأما الاستبعاد العقلى فقال تعالى ردًا عليه: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ ﴾ [النازعات: ٢٧]، وقال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأحقاف]، وقال: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الواقعة]، وبين ما هو معروف عقلًا وعرفًا، وهو أن الإعادة ﴿ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾

[الروم: ٢٧]،وقال: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وقال: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ [ق: ١٥].

وهكذا رد على كل ما أثاروا من الشبهات ردًّا مفحمًا يقنع كل ذى عقل ولب، ولكنهم كانوا مشاغبين مستكبرين يريدون عُلوا فى الأرض وفرض رأيهم على الخلق، فبقوا فى طغيانهم يعمهون.

٣ - الحيلولة بين الناس وبين سماعهم القرآن، ومعارضته بأساطير الأولين:

كان المشركون - بجنب إثارة هذه الشبهات- يحولون بين الناس وبين سماعهم القرآن ودعوة الإسلام بكل طريق يمكن، فكانوا يطردون الناس ويثيرون الشغب والضوضاء ويتغنون ويلعبون، إذا رأوا أن النبى ﷺ يتهيأ للدعوة، أو إذا رأوه يصلى ويتلو القرآن. قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت] حتى إن النبى ﷺ لم يتمكن من تلاوة القرآن عليهم فى مجامعهم ونواديهم إلا فى أواخر السنة الخامسة من النبوة، وذلك أيضًا عن طريق المفاجأة، دون أن يشعروا بقصده قبل بداية التلاوة.

وكان النضر بن الحارث أحد شياطين قريش قد قدم الحيرة، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس، وأحاديث رستم واسفنديار، فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلسًا للتذكير بالله والتحذير من نقمته خلفه النضر ويقول: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثًا منه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسفنديار، ثم يقول: بماذا محمد أحسن حديثًا منى[(١)].

وفى رواية عن ابن عباس أن النضر كان قد اشترى قَيْنَةً، فكان لا يسمع بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قينته، فيقول: أطعميه واسقيه وغنيه، هذا خير مما يدعوك إليه محمد، وفيه نزل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [لقمان: ٦][(٢)].

الاضطهادات:

أعمل المشركون الأساليب التى ذكرناها شيئًا فشيئًا لإحباط الدعوة بعد ظهورها فى بداية السنة الرابعة من النبوة، ومضت على ذلك أسابيع وشهور وهم مقتصرون على هذه الأساليب لا يتجاوزونها إلى طريق الاضطهاد والتعذيب، ولكنهم لما رأوا أن هذه الأساليب لم تجد نفعًا فى إحباط الدعوة الإسلامية استشاروا فيما بينهم، فقرروا القيام

---

(١) ملخصًا من ابن هشام ١/ ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٥٨.

(٢) الدر المنثور: تفسير سورة لقمان (٥/ ٣٠٧).

بتعذيب المسلمين وفتنتهم عن دينهم، فأخذ كل رئيس يعذب من دان من قبيلته بالإسلام، وانقض كل سيد على من اختار من عبيده طريق الإيمان.

وكان من الطبيعى أن يهرول الأذناب والأوباش خلف ساداتهم وكبرائهم، ويتحركوا حسب مرضاتهم وأهوائهم، فجروا على المسلمين - ولاسيما الضعفاء منهم - ويلات تقشعر منها الجلود، وأخذوهم بنقمات تتفطر لسماعها القلوب.

كان أبو جهل إذا سمع برجل قد أسلم له شرف ومنعة أنبه وأخزاه، وأوعده بإبلاغ الخسارة الفادحة فى المال، والجاه، وإن كان ضعيفًا ضربه وأغرى به(١).

وكان عم عثمان بن عفان يلفه فى حصير من ورق النخيل ثم يدخنه من تحته(٢).

ولما علمت أم مصعب بن عمير بإسلامه منعته الطعام والشراب، وأخرجته من بيته، وكان من أنعم الناس عيشًا، فتَخَشَّفَ جلده تخشف الحية(٣).

وكان صهيب بن سنان الرومى يُعذَّب حتى يفقد وعيه ولا يدرى ما يقول(٤).

وكان بلال مولى أمية بن خلف الجمحى، فكان أمية يضع فى عنقه حبلًا، ثم يسلمه إلى الصبيان، يطوفون به فى جبال مكة، ويجرونه حتى كان الحبل يؤثر فى عنقه، وهو يقول: أَحَدٌ أَحَدٌ، وكان أمية يشده شدًّا ثم يضربه بالعصا، و يلجئه إلى الجلوس فى حر الشمس، كما كان يكرهه على الجوع. وأشد من ذلك كله أنه كان يخرجه إذا حميت الظهيرة، فيطرحه على ظهره فى الرمضاء فى بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول: لا والله لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى، فيقول وهو فى ذلك: أحد،أحد، ويقول: لو أعلم كلمة هى أغيظ لكم منها لقلتها. ومر به أبو بكر يوما وهم يصنعون ذلك به فاشتراه بغلام أسود، وقيل: بسبع أواق أو بخمس من الفضة، وأعتقه(٥).

وكان عمار بن ياسر رضي الله عنه مولى لبنى مخزوم، أسلم هو وأبوه وأمه، فكان المشركون - وعلى رأسهم أبو جهل - يخرجونهم إلى الأبطح إذا حميت الرمضاء فيعذبونهم بحرها.

---

(١) ابن هشام ١/ ٣٢٠. (٢) رحمة للعالمين ١/ ٥٧.

(٣) أسد الغابة ٤/ ٤٠٦، وتلقيح فهوم أهل الأثر، ص ٦٠.

(٤) الإصابة ٣، ٤/ ٢٥٥، وابن سعد ٣/ ٢٤٨.

(٥) ابن هشام ١/ ٣١٧، ٣١٨، وتلقيح فهوم أهل الأثر، ص ٦١، وتفسير ابن كثير: سوره النحل، الآية: ١٠٦(٢/ ٦٤٨).

ومر بهم النبى ﷺ وهم يعذبون فقال: «**صبرًا آل ياسر، فإن موعدكم الجنة**»، فمات ياسر فى العذاب، وطعن أبو جهل سمية - أم عمار - فى قبلها بحربة فماتت، وهى أول شهيدة فى الإسلام، وهى سمية بنت خياط مولاة أبى حذيفة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وكانت عجوزًا كبيرة ضعيفة. وشددوا العذاب على عمار بالحر تارة، وبوضع الصخر الأحمر على صدره أخرى، وبغطه فى الماء حتى كان يفقد وعيه. وقالوا له: لا نتركك حتى تسب محمدًا، أو تقول فى اللات والعزى خيرًا، فوافقهم على ذلك مكرهًا، وجاء باكيًا معتذرًا إلى النبى ﷺ. فأنزل الله: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ ﴾ الآية [النحل: ١٠٦][(١)].

وكان أبو فُكَيْهَةَ - واسمة أفلح - مولى لبنى عبد الدار، وكان من الأزد. فكانوا يخرجونه فى نصف النهار فى حر شديد، وفى رجليه قيد من حديد، فيجردونه من الثياب، ويبطحونه فى الرمضاء، ثم يضعون على ظهره صخرة حتى لا يتحرك، فكان يبقى كذلك حتى لا يعقل، فلم يزل يعذب كذلك حتى هاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية، وكانوا مرة قد ربطوا رجله بحبل، ثم جروه وألقوه فى الرمضاء وخنقوه حتى ظنوا أنه قد مات، فمر به أبو بكر فاشتراه وأعتقه لله[(٢)].

وكان خباب بن الأرت مولى لأم أنمار بنت سِباع الخزاعية، وكان حدادًا، فلما أسلم عذبته مولاته بالنار، كانت تأتى بالحديدة المحماة فتجعلها على ظهره أو رأسه، ليكفر بمحمد ﷺ، فلم يكن يزيده ذلك إلا إيمانًا وتسليمًا، وكان المشركون أيضًا يعذبونه فيلوون عنقه، ويجذبون شعره، وقد ألقوه على النار، ثم سحبوه عليها، فما أطفأها إلا وَدَكُ ظهره[(٣)].

وكانت زِنِّيرَةُ أَمَةً رومية قد أسلمت فعذبت فى الله، وأصيبت فى بصرها حتى عميت، فقيل لها: أصابتك اللات والعزى، فقالت: لا والله ما أصابتنى، وهذا من الله، وإن شاء كشفه، فأصبحت من الغد وقد رد الله بصرها، فقالت قريش: هذا بعض سحر محمد[(٤)].

وأسلمت أم عُبَيْس، جارية لبنى زهرة، فكان يعذبها المشركون، وبخاصة مولاها

(١) ابن هشام ١/ ١٣٩، ٣٢٠، وطبقات ابن سعد ٣/ ٢٤٨، ٢٤٩... ورى الجزء الأخير العوفى عن ابن عباس، تفسير ابن كثير (المذكور). ولينظر الدر المنثور، تفسير الآية: ١٠٦، سورة النحل.

(٢) أسد الغابة ٥/ ٢٤٨، والإصابة ٧، ٨/ ١٥٢ وغيرهما.

(٣) أسد الغابة ١/ ٥٩١، ٥٩٢، وتلقيح الفهوم، ص ٦٠ وغيرهما.

(٤) طبقات ابن سعد ٨/ ٢٥٦، وابن هشام ١/ ٣١٨.

الأسود بن عبد يغوث، وكان من أشد أعداء رسول الله ﷺ، ومن المستهزئين به[(١)].

وأسلمت جارية عمر بن مؤمل من بنى عدى، فكان عمر بن الخطاب يعذبها - وهو يومئذ على الشرك - فكان يضربها حتى يفتر، ثم يدعها ويقول: والله ما أدعك إلا سآمة، فتقول: كذلك يفعل بك ربك[(٢)].

وممن أسلمن وعذبن من الجوارى: النهدية وابنتها، وكانتا لامرأة من بنى عبد الدار[(٣)].

وممن عذب من العبيد: عامر بن فُهَيْرَة، كان يعذب حتى يفقد وعيه ولا يدرى ما يقول[(٤)].

واشترى أبوبكر رضي الله عنه هؤلاء الإماء والعبيد رضي الله عنهم وعنهن أجمعين، فأعتقهم جميعًا. وقد عاتبه فى ذلك أبوه أبو قحافة وقال: أراك تعتق رقابًا ضعافًا، فلو أعتقت رجالًا جلدًا لمنعوك. قال: إنى أريد وجه الله. فأنزل الله قرآنًا مدح فيه أبا بكر، وذم أعداءه. قال تعالى:﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ ﴾ [الليل] وهو أمية بن خلف، ومن كان على شاكلته﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾ [الليل] وهو أبو بكر الصديق رضي الله عنه[(٥)].

وأوذى أبو بكر الصديق رضي الله عنه أيضًا. فقد أخذه نوفل بن خويلد العدوى، وأخذ معه طلحة ابن عبيد الله فشدهما فى حبل واحد، ليمنعهما عن الصلاة وعن الدين فلم يجيباه، فلم يروعاه إلا وهما مطلقان يصليان؛ ولذلك سميا بالقرينين، وقيل: إنما فعل ذلك عثمان بن عبيد الله أخو طلحة ابن عبيد الله رضي الله عنه[(٦)].

والحاصل أنهم لم يعلموا بأحد دخل فى الإسلام إلا وتصدوا له بالأذى والنكال، وكان ذلك سهلًا ميسورًا بالنسبة لضعفاء المسلمين، ولا سيما العبيد والإماء منهم، فلم يكن من يغضب لهم ويحميهم، بل كانت السادة والرؤساء هم أنفسهم يقومون بالتعذيب

---

(١) الإصابة ٧، ٨/ ٢٥٨.

(٢) ابن هشام ١/ ٣١٩، وطبقات ابن سعد ٨/ ٢٥٦.

(٣) ابن هشام ١/ ٣١٨، ٣١٩.

(٤) ابن سعد ٣/ ٢٤٨.

(٥) ابن هشام ١/ ٣١٨، ٣١٩، وطبقات ابن سعد ٨/ ٢٥٦، وكتب التفسير: الآية المذكورة.

(٦) أسد الغابة ٢/ ٤٦٨.

ويغرون الأوباش، ولكن بالنسبة لمن أسلم من الكبار والأشراف كان ذلك صعبًا جدًّا؛ إذ كانوا فى عز ومنعة من قومهم، ولذلك قلما كان يجترئ عليهم إلا أشراف قومهم، مع شىء كبير من الحيطة والحذر.

موقف المشركين من رسول الله ﷺ:

وأما بالنسبة لرسول الله ﷺ، فإنه ﷺ كان رجلًا شهمًا وقورًا ذا شخصية فذة، تتعاظمه نفوس الأعداء والأصدقاء بحيث لا يقابل مثله إلا بالإجلال والتشريف، ولا يجترئ على اقتراف الدنايا والرذائل ضده إلا أراذل الناس وسفهاؤهم، ومع ذلك كان فى منعة أبى طالب، وأبو طالب من رجال مكة المعدودين، كان معظمًا فى أصله، معظمًا بين الناس، فكان من الصعب أن يجسر أحد على إخفار ذمته واستباحة بيضته، إن هذا الوضع أقلق قريشًا وأقامهم وأقعدهم، ودعاهم إلى تفكير سليم يخرجهم من المأزق دون أن يقعوا فى محذور لا يحمد عقباه، وقد هداهم ذلك إلى أن يختاروا سبيل المفاوضات مع المسئول الأكبر: أبى طالب، ولكن مع شىء كبير من الحكمة والجدية، ومع نوع من أسلوب التحدى والتهديد الخفى حتى يذعن لما يقولون.

وفد قريش إلى أبى طالب:

قال ابن إسحاق: مشى رجال من أشراف قريش إلى أبى طالب، فقالوا: يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسَفَّه أحلامنا، وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا، وإما أن تخلى بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفيكه، فقال لهم أبو طالب قولًا رقيقًا وردهم ردًّا جميلًا، فانصرفوا عنه، ومضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه، يظهر دين الله ويدعو إليه[1]. ولكن لم تصبر قريش طويلًا حين رأته ﷺ ماضيًا فى عمله ودعوته إلى الله، بل أكثرت ذكره وتذامرت فيه، حتى قررت مراجعة أبى طالب بأسلوب أغلظ وأقسى من السابق.

قريش يهددون أبا طالب:

وجاءت سادات قريش إلى أبى طالب فقالوا له: يا أبا طالب، إن لك سنًّا وشرفًا ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا، أو ننازله وإياك فى ذلك، حتى

---

(١) ابن هشام ١/ ٢٦٥.

يهلك أحد الفريقين.

عَظُم على أبى طالب هذا الوعيد والتهديد الشديد، فبعث إلى رسول الله ﷺ وقال له: يا بن أخى، إن قومك قد جاءونى فقالوا لى كذا وكذا، فأبق عليَّ وعلى نفسك، ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق، فظن رسول الله ﷺ أن عمه خاذله، وأنه ضعُف عن نصرته، فقال: «**يا عم، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر - حتى يظهره الله أو أهلك فيه - ما تركته**»، ثم استعبر وبكى، وقام، فلما ولى ناداه أبو طالب، فلما أقبل قال له: اذهب يا بن أخى، فقل ما أحببت، فو الله لا أُسْلِمُك لشىء أبدًا[١]، وأنشد:

والله لن يصلوا إليك بجَمْعِهم حتى أُوَسَّدَ فى التراب دفينًا
فاصدع بأمرك ما عليك غَضَاضَة وابْشِرْ وقَرَّ بذاك منك عيونًا[٢]

وذلك فى أبيات.

قريش بين يدى أبى طالب مرة أخرى:

ولما رأت قريش أن رسول الله ﷺ ماض فى عمله عرفت أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله ﷺ، وأنه مجمع لفراقهم وعداوتهم فى ذلك، فذهبوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة وقالوا له: يا أبا طالب، إن هذا الفتى أنْهَدَ فتى فى قريش وأجمله، فخذه فلك عقله ونصره، واتخذه ولدًا فهو لك، وأسْلِمْ إلينا ابن أخيك هذا الذى خالف دينك ودين آبائك، وفرق جماعة قومك، وسفه أحلامهم، فنقتله، فإنما هو رجل برجل، فقال: والله لبئس ما تسوموننى، أتعطوننى ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابنى تقتلونه؟ هذا والله ما لا يكون أبدًا. فقال المطعم ابن عدى بن نوفل بن عبد مناف: والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك، وجهدوا على التخلص مما تكره، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئًا، فقال: والله ما أنصفتمونى، ولكنك قد أجمعت خذلانى ومظاهرة القوم عليّ، فاصنع ما بدا لك[٣].

ولما فشلت قريش فى هذه المفاوضات، ولم توفق فى إقناع أبى طالب بمنع رسول الله ﷺ وكفه عن الدعوة إلى الله، قررت أن يختار سبيلا قد حاولت تجنبه والابتعاد منه مخافة مغبته وما يؤول إليه، وهو سبيل الاعتداء على ذات الرسول ﷺ.

---

(١) ابن هشام ١/ ١٦٥، ١٦٦.

(٢) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ١٨٨.

(٣) ابن هشام ١/ ٢٦٦، ٢٦٧.

اعتداءات على رسول الله ﷺ:

واخترقت قريش ما كانت تتعاظمه وتحترمه منذ ظهرت الدعوة على الساحة، فقد صعب على غطرستها وكبريائها أن تصبر طويلًا، فمدت يد الاعتداء إلى رسول الله ﷺ، مع ما كانت تأتيه من السخرية والاستهزاء والتشويه والتلبيس والتشويش وغير ذلك. وكان من الطبيعى أن يكون أبو لهب فى مقدمتهم وعلى رأسهم، فإنه كان أحد رؤوس بنى هاشم، فلم يكن يخشى ما يخشاه الآخرون، وكان عدوًّا لدودًا للإسلام وأهله، وقد وقف موقف العداء من رسول الله ﷺ منذ اليوم الأول، واعتدى عليه قبل أن تفكر فيه قريش، وقد أسلفنا ما فعل بالنبى ﷺ فى مجلس بنى هاشم، وما فعل على الصفا.

وكان أبو لهب قد زوج ولديه عتبة وعتيبة ببنتى رسول الله ﷺ رقية وأم كلثوم قبل البعثة، فلما كانت البعثة أمرهما بتطليقهما بعنف وشدة حتى طلقاهما(١).

ولما مات عبد الله - الابن الثانى لرسول الله ﷺ - استبشر أبو لهب وذهب إلى المشركين يبشرهم بأن محمدًا صار أبتر(٢).

وقد أسلفنا أن أبا لهب كان يجول خلف النبى ﷺ فى موسم الحج والأسواق لتكذيبه، وقد روى طارق بن عبد الله المحاربى ما يفيد أنه كان لا يقتصر على التكذيب بل كان يضربه بالحجر حتى يدمى عقباه(٣).

وكانت امرأة أبى لهب - أم جميل أروى بنت حرب بن أمية، أخت أبى سفيان - لا تقل عن زوجها فى عداوة النبى ﷺ، فقد كانت تحمل الشوك، وتضعه فى طريق النبى ﷺ وعلى بابه ليلًا، وكانت امرأة سليطة تبسط فيه لسانها، وتطيل عليه الافتراء والدس، وتؤجج نار الفتنة، وتثير حربًا شعواء على النبى ﷺ؛ ولذلك وصفها القرآن بحمالة الحطب.

ولما سمعت ما نزل فيها وفى زوجها من القرآن أتت رسول الله ﷺ وهو جالس فى المسجد عند الكعبة، ومعه أبو بكر الصديق وفى يدها فِهْرٌ (أى بمقدار ملء الكف) من حجارة، فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله ﷺ، فلا ترى إلا أبا بكر، فقالت: يا أبا بكر، أين صاحبك؟ قد بلغنى أنه يهجونى، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر

---

(١) روى ذلك الطبرانى عن قتادة، وتفيد رواية ابن إسحاق أن رجال قريش أيضًا سعوا فى ذلك، لينظر: ابن هشام ١/ ٦٥٢.

(٢) روى ذلك عن عطاء، تفسير ابن كثير: سورة الكوثر (٤/ ٥٩٥).

(٣) كنز العمال ١٢/ ٤٤٩.

فاه، أما والله إنى لشاعرة. ثم قالت:

مُذَمَّمًا عصينا * وأمره أبينا * ودينه قَلَيْنا

ثم انصرفت، فقال أبو بكر: يا رسول الله، أما تراها رأتك؟ فقال: «**ما رأتنى، لقد أخذ الله ببصرها عنى**»(١).

وروى أبو بكر البزار هذه القصة، وفيها: أنها لما وقفت على أبى بكر قالت: أبا بكر، هجانا صاحبك، فقال أبو بكر: لا ورب هذه البنية، ما ينطق بالشعر ولا يتفوه به، فقالت: إنك لمُصدَّق(٢).

كان أبو لهب يفعل كل ذلك وهو عم رسول الله ﷺ وجاره، كان بيته ملصقا ببيته، كما كان غيره من جيران رسول الله ﷺ يؤذونه وهو فى بيته.

قال ابن إسحاق: كان النفر الذين يؤذون رسول الله ﷺ فى بيته أبا لهب، والحكم بن أبى العاص بن أمية، وعقبة بن أبى معيط، وعدى بن حمراء الثقفى، وابن الأصداء الهذلى - وكانوا جيرانه - لم يسلم منهم أحد إلا الحكم بن أبى العاص(٣)، فكان أحدهم يطرح عليه ﷺ رحم الشاة وهو يصلى، وكان أحدهم يطرحها فى برمته إذا نصبت له، حتى اتخذ رسول الله ﷺ حجرًا ليستتر به منهم إذا صلى، فكان رسول الله ﷺ إذا طرحوا عليه ذلك الأذى يخرج به على العود، فيقف به على بابه، ثم يقول: «**يا بنى عبد مناف، أى جوار هذا؟**» ثم يلقيه فى الطريق(٤).

وازداد عقبة بن أبى مُعَيْط فى شقاوته وخبثه، فقد روى البخارى عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أن النبى ﷺ كان يصلى عند البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس؛ إذ قال بعضهم لبعض: أيكم يجىء بسَلاَ جَزُور بنى فلان فيضعه على ظهر محمد إذا سجد، فانبعث

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام ١/ ٣٣٥ ، ٣٣٦، وكانت قريش يسمونه ﷺ مذمما، حقدًا وغيظا، وصرف الله بهذا شتمهم عنه، التاريخ للبخارى ١/ ١١، وصحيح البخارى مع الفتح ٧/ ١٦٢، ومسند أحمد ٢/ ٢٤٤، ٣٤٠، ٣٦٩.

(٢) وروى هذه القصة الحاكم فى المستدرك ٢/ ٣٦١، وابن أبى شيبة فى المصنف ١١/ ٤٩٨ ح ١١٨١٧، وأبو يعلى فى المسند ٤/٢٤٦، ح ٢٣٥٨، وأبو نعيم الأصبهانى فى دلائل النبوة، ص ٧١ ح ٥٤، والطبرانى وابن أبى حاتم وغيرهم. وفى السياق شىء خفيف من الاختلاف.

(٣) والد مروان الخليفة الأموى.

(٤) ابن هشام ١/ ٤١٦.

أشقى القوم (وهو عقبة بن أبى معيط)[١]، فجاء به فنظر، حتى إذا سجد النبى وضع على ظهره بين كتفيه، وأنا أنظر، لا أغنى شيئًا، لو كانت لى منعة، قال: فجعلوا يضحكون، ويحيل بعضهم على بعضهم (أى يتمايل بعضهم على بعض مرحًا وبطرًا)، ورسول الله ﷺ ساجد، لا يرفع رأسه، حتى جاءته فاطمة، فطرحته عن ظهره، فرفع رأسه، ثم قال: «**اللهم عليك بقريش**» ثلاث مرات، فشق ذلك عليهم إذ دعا عليهم، قال: وكانوا يرون أن الدعوة فى ذلك البلد مستجابة، ثم سمى: «**اللهم عليك بأبى جهل، وعليك بعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبى معيط**» - وعد السابع فلم نحفظه - فوالذى نفسى بيده لقد رأيت الذين عدّ رسول الله ﷺ صرعى فى القَلِيب، قليب بدر[٢].

وكان أمية بن خلف إذا رأى رسول الله ﷺ همزه ولمزه. وفيه نزل: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾ [سورة الهمزة] قال ابن هشام: الهمزة: الذى يشتم الرجل علانية، ويكسر عينيه، ويغمز به. واللمزة: الذى يعيب الناس سرًّا، ويؤذيهم[٣].

أما أخوه أبى بن خلف فكان هو وعقبة بن أبى معيط متصافيين. وجلس عقبة مرة إلى النبى ﷺ وسمع منه، فلما بلغ ذلك أبيًّا أنبه وعاتبه، وطلب منه أن يتفل فى وجه رسول الله ﷺ ففعل، وأبى بن خلف نفسه فت عظمًا رميمًا ثم نفخه فى الريح نحو رسول الله ﷺ[٤].

وكان الأخنس بن شَرِيق الثقفى ممن ينال من رسول الله ﷺ، وقد وصفه القرآن بتسع صفات تدل على ما كان عليه، وهى فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣﴾ [القلم].

وكان أبو جهل يجيء أحيانًا إلى رسول الله ﷺ يسمع منه القرآن، ثم يذهب عنه فلا يؤمن ولا يطيع، ولا يتأدب ولا يخشى، ويؤذى رسول الله ﷺ بالقول، ويصد عن سبيل الله، ثم يذهب مختالًا بما فعل، فخورًا بما ارتكب من الشر، كأن ما فعل شيئًا يذكر، وفيه نزل: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١﴾ [القيامة]، وكان يمنع النبى ﷺ عن الصلاة منذ أول يوم رآه يصلى فى الحرم، ومرة مر به وهو يصلى عند المقام فقال: يا محمد، ألم أنهك عن هذا؟

---

(١) صرح بذلك فى صحيح البخارى نفسه ١/ ٥٤٣.

(٢) صحيح البخارى: كتاب الوضوء، باب إذا ألقى على المصلى قذر أو جيفة ١/ ٣٧، ح (٢٤٠، ٥٢٠، ٢٩٣٤، ٣١٨٥، ٣٨٥٤، ٣٩٦٠). والسابع هو: عمارة بن الوليد، صرح به فى ح (٥٢٠).

(٣) ابن هشام ١/ ٣٥٦، ٣٥٧.

(٤) ابن هشام ١/ ٣٦١، ٣٦٢.

وتوعده، فأغلظ له رسول الله ﷺ وانتهره، فقال: يا محمد، بأى شىء تهددنى؟ أما والله إنى لأكثر هذا الوادى ناديًا. فأنزل الله ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ ﴾ [العلق][1]. وفى رواية أن النبى ﷺ أخذ بخناقه وهزه، وهو يقول له: ﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ ﴾ [القيامة] فقال عدو الله: أتوعدنى يا محمد؟ والله لا تستطيع أنت ولا ربك شيئًا، وإنى لأعز من مشى بين جبليها[2].

ولم يكن أبو جهل ليفيق من غباوته بعد هذا الانتهار، بل ازداد شقاوة فيما بعد. أخرج مسلم عن أبى هريرة قال: قال أبو جهل: يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ فقيل: نعم، فقال: واللات والعزى، لئن رأيته لأطأن على رقبته، ولأعفرن وجهه، فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلى، زعم ليطأ رقبته، فما فجأهم إلا وهو ينكص على عقبيه، ويتقى بيديه، فقالوا: ما لك يا أبا الحكم؟ قال: إن بينى وبينه لخندقًا من نار وهولًا وأجنحةً، فقال رسول الله ﷺ: **«لو دنا منى لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا»**[3].

هذه صورة مصغرة جدًّا لما كان يتلقاه رسول الله ﷺ والمسلمون من الظلم والخسف والجور على أيدى طغاة المشركين، الذين كانوا يزعمون أنهم أهل الله وسكان حرمه.

وكان من مقتضيات هذه الظروف المتأزمة أن يختار رسول الله ﷺ موقفًا حازمًا ينقذ به المسلمين عما دهمهم من البلاء، ويخفف وطأته بقدر المستطاع، وقد اتخذ رسول الله ﷺ خطوتين حكيمتين كان لهما أثرهما فى تسيير الدعوة وتحقيق الهدف، وهما:

١ - اختيار دار الأرقم بن أبى الأرقم المخزومى مركزا للدعوة ومقرًّا للتربية.

٢- أمر المسلمين بالهجرة إلى الحبشة.

دار الأرقم:

كانت هذه الدار فى أصل الصفا، بعيدة عن أعين الطغاة ومجالسهم، فاختارها رسول الله ﷺ ليجتمع فيها بالمسلمين سرًّا، فيتلو عليهم آيات الله ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة؛ وليؤدى المسلمون عبادتهم وأعمالهم، ويتلقوا ما أنزل الله على رسوله

---

(١) رواه ابن جرير فى التفسير، وروى نحوه الترمذى: التفسير، من سورة اقرأ ٥/ ٤١٤ ح (٣٣٤٩) وغيره.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٤/ ٤٧٧، والدر المنثور ٦/ ٤٧٨ وغيرهما.

(٣) صحيح مسلم: كتاب صفات المنافقين وأحكامهم (٤/ ٢١٥٤) ح (٣٨).

وهم فى أمن وسلام، وليدخل من يدخل فى الإسلام ولا يعلم به الطغاة من أصحاب السطوة والنقمة.

ومما لم يكن يشك فيه أن رسول الله ﷺ لو اجتمع بالمسلمين علنا لحاول المشركون بكل ما عندهم من القسوة والغلظة أن يحولوا بينه وبين ما يريد من تزكية نفوسهم ومن تعليمهم الكتاب والحكمة، وربما أفضى ذلك إلى مصادمة الفريقين، بل قد وقع ذلك فعلًا. فقد ذكر ابن إسحاق أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يجتمعون فى الشعاب، فيصلون فيها سرًّا، فرآهم نفر من كفار قريش، فسبوهم وقاتلوهم، فضرب سعد بن أبى وقاص رجلًا فسال دمه، وكان أول دم هريق فى الإسلام[(١)].

ومعلوم أن المصادمة لو تعددت وطالت لأفضت إلى تدمير المسلمين وإبادتهم، فكان من الحكمة السريةُ والاختفاء، فكان عامة الصحابة يُخْفُون إسلامهم وعبادتهم واجتماعهم، أما رسول الله ﷺ فكان يجهر بالدعوة والعبادة بين ظهرانى المشركين، لا يصرفه عن ذلك شىء، ولكن كان يجتمع مع المسلمين سرًّا؛ نظرًا لصالحهم وصالح الإسلام.

الهجرة الأولى إلى الحبشة:

كانت بداية الاعتداءات فى أواسط أو أواخر السنة الرابعة من النبوة، بدأت ضعيفة، ثم لم تزل تشتد يومًا فيومًا وشهرًا فشهرا، حتى تفاقمت فى أواسط السنة الخامسة، ونبا بهم المقام فى مكة، وأخذوا يفكرون فى حيلة تنجيهم من هذا العذاب الأليم، وفى هذه الظروف نزلت سورة الزمر تشير إلى اتخاذ سبيل الهجرة، وتعلن بأن أرض الله ليست بضيقة ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر].

وكان رسول الله ﷺ قد علم أن أَصْحَمَة النجاشى ملك الحبشة ملك عادل، لا يظلم عنده أحد، فأمر المسلمين أن يهاجروا إلى الحبشة فرارًا بدينهم من الفتن[(٢)].

وفى رجب سنة خمس من النبوة هاجر أول فوج من الصحابة إلى الحبشة. كان مكونًا من اثنى عشر رجلًا وأربع نسوة، رئيسهم عثمان بن عفان، ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، وقد قال النبى ﷺ فيهما: «**إنهما أول بيت هاجر فى سبيل الله بعد إبراهيم**

---

(١) ابن هشام ١/ ٢٦٣.

(٢) انظر: السنن الكبرى للبيهقى ٩/ ٩.

ولوط عليهما السلام»[١].

كان رحيل هؤلاء تسللًا فى ظلمة الليل - حتى لا تفطن لهم قريش - خرجوا إلى البحر ويمموا ميناء شعيبة، وقيضت لهم الأقدار سفينتين تجاريتين أبحرتا بهم إلى الحبشة، وفطنت لهم قريش، فخرجت فى آثارهم، لكن لما بلغت إلى الشاطئ كانوا قد انطلقوا آمنين، وأقام المسلمون فى الحبشة فى أحسن جوار[٢].

سجود المشركين مع المسلمين وعودة المهاجرين:

وفى رمضان من نفس السنة خرج النبى ﷺ إلى الحرم، وفيه جمع كبير من قريش، فيهم ساداتهم وكبراؤهم، فقام فيهم، وفاجأهم بتلاوة سورة النجم، ولم يكن أولئك الكفار سمعوا كلام الله من قبل؛ لأنهم كانوا مستمرين على ما تواصى به بعضهم بعضًا،من قولهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت] فلما باغتهم بتلاوة هذه السورة، وقرع آذانهم كلام إلهى خلاب، وكان أروع كلام سمعوه قط، أخذ مشاعرهم، ونسوا ما كانوا فيه فما من أحد إلا وهو مصغ إليه، لا يخطر بباله شىء سواه، حتى إذا تلا فى خواتيم هذه السورة قوارع تطير لها القلوب، ثم قرأ: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴿٦٢﴾﴾ [النجم] ثم سجد، لم يتمالك أحد نفسه حتى خر ساجدًا. وفى الحقيقة كانت روعة الحق قد صدعت العناد فى نفوس المستكبرين والمستهزئين، فما تمالكوا أن يخروا لله ساجدين[٣].

وسَقَطَ فى أيديهم لما أحسوا أن جلال كلام الله لَوَّى زمامهم، فارتكبوا عين ما كانوا يبذلون قصارى جهدهم فى محوه وإفنائه، وقد توالى عليهم اللوم والعتاب من كل جانب، ممن لم يحضر هذا المشهد من المشركين، وعند ذلك كذبوا على رسول الله ﷺ وافتروا عليه أنه عطف على أصنامهم بكلمة تقدير، وأنه قال عنها ما كانوا يرددونه هم دائما من قولهم: «تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهم لترتجى»، جاءوا بهذا الإفك المبين ليعتذروا عن سجودهم مع النبى ﷺ، وليس يستغرب هذا من قوم كانوا يألفون الكذب، ويطيلون الدس والافتراء.

(١، ٢) زاد المعاد ١/ ٢٤.

(٣) روى البخارى قصة السجود مختصرًا عن ابن مسعود وابن عباس، انظر: باب سجدة النجم، وباب سجود المسلمين والمشركين ١/ ١٤٦، وباب ما لقى النبى ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة ١/ ٥٤٣.

وبلغ هذا الخبر إلى مهاجرى الحبشة، ولكن فى صورة تختلف تمامًا عن صورته الحقيقية، بلغهم أن قريشًا أسلمت، فرجعوا إلى مكة فى شوال من نفس السنة، فلما كانوا دون مكة ساعة من نهار وعرفوا جلية الأمر، رجع منهم من رجع إلى الحبشة، ولم يدخل فى مكة من سائرهم أحد إلا مستخفيًا، أو فى جوار رجل من قريش[(١)].

ثم اشتد عليهم وعلى المسلمين البلاء والعذاب من قريش، وسطت بهم عشائرهم، فقد كان صعب على قريش ما بلغها عن النجاشى من حسن الجوار، ولم ير رسول الله ﷺ بدا من أن يشير على أصحابه بالهجرة إلى الحبشة مرة أخرى.

الهجرة الثانية إلى الحبشة:

واستعد المسلمون للهجرة مرة أخرى، وعلى نطاق أوسع، ولكن كانت هذه الهجرة الثانية أشق من سابقتها، فقد تيقظت لها قريش وقررت إحباطها، بيد أن المسلمين كانوا أسرع، ويسر الله لهم السفر، فانحازوا إلى نجاشى الحبشة قبل أن يدركوا.

وفى هذه المرة هاجر من الرجال ثلاثة وثمانون رجلًا إن كان فيهم عمار، فإنه يشك فيه، وثمانى عشرة أوتسع عشرة امرأة[(٢)].

مكيدة قريش بمهاجرى الحبشة:

عز على المشركين أن يجد المهاجرون مأمنا لأنفسهم ودينهم، فاختاروا رجلين جلدين لبيبين، وهما: عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبى ربيعة - قبل أن يسلما - وأرسلوا معهما الهدايا المستطرفة للنجاشى ولبطارقته، وبعد أن ساق الرجلان تلك الهدايا إلى البطارقة، وزوداهم بالحجج التى يطرد بها أولئك المسلمون، وبعد أن اتفقت البطارقة أن يشيروا على النجاشى بإقصائهم، حضرا إلى النجاشى، وقدما له الهديا ثم كلماه فقالا له:

أيها الملك، إنه قد ضَوَى إلى بلدك غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا فى دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه، لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم؛ لتردهم إليهم، فهم أعلى بهم عينًا، وأعلم بما عابوا عليهم، وعاتبوهم فيه.

وقالت البطارقة: صدقا أيها الملك، فأسلمهم إليهما، فليرداهم إلى قومهم وبلادهم.

---

(١) ابن هشام ١/ ٣٦٤، وزاد المعاد ١/ ٢٤، ٢/ ٤٤.

(٢) انظر: زاد المعاد ١/ ٢٤.

ولكن رأى النجاشى أنه لا بد من تمحيص القضية، وسماع أطرافها جميعًا. فأرسل إلى المسلمين، ودعاهم، فحضروا، وكانوا قد أجمعوا على الصدق كائنًا ما كان. فقال لهم النجاشى: ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا به فى دينى ولا دين أحد من هذه الملل؟

قال جعفر بن أبى طالب - وكان هو المتكلم عن المسلمين: أيها الملك كنا قومًا أهل جاهلية؛ نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتى الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسىء الجوار، ويأكل منا القوى الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم،وقذف المحصنات،وأمرنا أن نعبد الله وحده،لا نشرك به شيئًا،وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام - فعدد عليه أمور الإسلام - فصدقناه، وآمنا به، واتبعناه على ما جاءنا به من دين الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئًا، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا وفتنونا عن ديننا؛ ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا فى جوارك، ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك.

فقال له النجاشى: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ فقال له جعفر: نعم. فقال له النجاشى: فاقرأه على، فقرأ عليه صدرًا من:﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾ [مريم] فبكى والله النجاشى حتى اخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى أَخْضَلُوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال لهم النجاشى: إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما، ولا يكادون - يخاطب عمرو بن العاص وصاحبه - فخرجا، فلما خرجا قال عمرو بن العاص لعبد الله ابن أبى ربيعة: والله لآتينه غدًا عنهم بما أستأصل به خضراءهم. فقال له عبد الله بن أبى ربيعة: لا تفعل، فإن لهم أرحامًا وإن كانوا قد خالفونا، ولكن أصر عمرو على رأيه.

فلما كان الغد قال للنجاشى: أيها الملك، إنهم يقولون فى عيسى ابن مريم قولًا عظيمًا، فأرسل إليهم النجاشى يسألهم عن قولهم فى المسيح ففزعوا، ولكن أجمعوا على الصدق، كائنًا ما كان، فلما دخلوا عليه وسألهم، قال له جعفر: نقول فيه الذى جاءنا به نبينا ﷺ: هو

عبد الله ورسوله وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البَتُول.

فأخذ النجاشى عودًا من الأرض ثم قال: والله ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود، فتناخرت بطارقته، **فقال:** وإن نَخَرْتُم والله.

ثم قال للمسلمين: اذهبوا فأنتم شُيُومٌ بأرضى – والشيوم: الآمنون بلسان الحبشة – من سَبَّكم غَرِم، من سبكم غرم، من سبكم غرم، ما أحب أن لى دَبْرًا من ذهب وإنى آذيت رجلًا منكم– والدبر: الجبل بلسان الحبشة.

ثم قال لحاشيته: ردّوا عليهما هداياهما فلا حاجة لى بها، فوالله ما أخذ الله منى الرشوة حين رد على ملكى، فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس فى فأطيعهم فيه.

قالت أم سلمة التى تروى هذه القصة: فخرجا من عنده مقبوحين مردودًا عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار[١].

هذه رواية ابن إسحاق، وذكر غيره أن وفادة عمرو بن العاص إلى النجاشى كانت بعد بدر، وجمع بعضهم بأن الوفادة كانت مرتين. ولكن الأسئلة والأجوبة التى ذكروا أنها دارت بين النجاشى وبين جعفر بن أبى طالب فى الوفادة الثانية هى نفس الأسئلة والأجوبة التى ذكرها ابن إسحاق هنا، ثم إن تلك الأسئلة تدل بفحواها أنها كانت فى أول مرافعة قدمت إلى النجاشى.

الشدة فى التعذيب ومحاولة القضاء على رسول الله ﷺ:

ولما أخفق المشركون فى مكيدتهم، وفشلوا فى استرداد المهاجرين استشاطوا غضبًا، وكادوا يتميزون غيظًا، فاشتدت ضراوتهم وانقضوا على بقية المسلمين، ومدوا أيديهم إلى رسول الله ﷺ بالسوء، وظهرت منهم تصرفات تدل على أنهم أرادوا القضاء على رسول الله ﷺ؛ ليستأصلوا جذور الفتنة التى أقضت مضاجعهم، حسب زعمهم.

أما بالنسبة للمسلمين فإن الباقين منهم فى مكة كانوا قليلين جدًّا، وكانوا إما ذوى شرف ومنعة، أو محتمين بجوار أحد، ومع ذلك كانوا يخفون إسلامهم ويبتعدون عن أعين الطغاة بقدر الإمكان، ولكنهم مع هذه الحيطة والحذر لم يسلموا كل السلامة من الأذى والخسف والجور.

وأما رسول الله ﷺ، فقد كان يصلى ويعبد الله أمام أعين الطغاة، ويدعو إلى الله سرًّا

---

(١) ابن هشام ملخصًا ١/ ٣٣٤-٣٣٨.

وجهرًا لا يمنعه عن ذلك مانع، ولا يصرفه عنه شيء؛ إذ كان ذلك من جملة تبليغ رسالة الله منذ أمره الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [الحجر]، وبذلك كان يمكن للمشركين أن يتعرضوا له إذا أرادوا، ولم يكن فى الظاهر ما يحول بينهم وبين ما يريدون إلا ما كان له ﷺ من الحشمة والوقار، وما كان لأبى طالب من الذمة والاحترام، وما كانوا يخافونه من مغبة سوء تصرفاتهم، ومن اجتماع بنى هاشم عليهم، إلا أن كل ذلك لم يعد له أثره المطلوب فى نفوسهم؛ إذ بدءوا يستخفون به منذ شعروا بانهيار كيانهم الوثنى وزعامتهم الدينية أمام دعوته ﷺ.

ومما روت لنا كتب السنة والسيرة من الأحداث التى تشهد القرائن بأنها وقعت فى هذه الفترة: أن عتيبة بن أبى لهب أتى يومًا رسول الله ﷺ فقال: أنا أكفر بـ ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾﴾ [النجم] وبالذى ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾﴾ [النجم] ثم تسلط عليه بالأذى، وشق قميصه، وتفل فى وجهه ﷺ، إلا أن البزاق لم يقع عليه، وحينئذ دعا عليه النبى ﷺ وقال: «**اللهم سلط عليه كلبًا من كلابك**»، وقد استجيب دعاؤه ﷺ، فقد خرج عتيبة إثر ذلك فى نفر من قريش، فلما نزلوا بالزرقاء من الشام طاف بهم الأسد تلك الليلة، فجعل عتيبة يقول: يا ويل أخى هو والله آكلى كما دعا محمد علىّ، قتلنى وهو بمكة، وأنا بالشام، ثم جعلوه بينهم، وناموا من حوله، ولكن جاء الأسد وتخطاهم إليه، فضغم رأسه(١).

ومنها: ما ذكر أن عقبة بن أبى مُعَيْط وطئ على رقبته الشريفة وهو ساجد حتى كادت عيناه تبرزان(٢).

ومما يدل على أن طغاتهم كانوا يريدون قتله ﷺ ما رواه ابن إسحاق عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: حضرتهم وقد اجتمعوا فى الحجر، فذكروا رسول الله ﷺ، فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل، لقد صبرنا منه على أمر عظيم، فبينا هم كذلك إذ طلع رسول الله ﷺ، فأقبل يمشى حتى استلم الركن، ثم مر بهم طائفًا بالبيت فغمزوه ببعض القول، فعرفت ذلك فى وجه رسول الله ﷺ، فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها، فعرفت ذلك فى وجهه، ثم مر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها. فوقف ثم قال: «**أتسمعون يا معشر قريش، أما والذى نفسى بيده، لقد جئتكم بالذبح**»، فأخذت القوم كلمته، حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع، حتى إن أشدهم فيه ليرفؤه بأحسن ما يجد،

---

(١) دلائل النبوة ٢/ ٥٨٥، ومختصر السيرة للشيخ عبد الله النجدى، ص ١٣٥.

(٢) مختصر السيرة، ص ١١٣.

ويقول: انصرف يا أبا القاسم، فو الله ما كنت جهولًا.

فلما كان الغد، اجتمعوا كذلك يذكرون أمره إذ طلع عليهم، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد وأحاطوا به، فلقد رأيت رجلًا منهم أخذ بمجمع ردائه، وقام أبو بكر دونه، وهو يبكى ويقول: أتقتلون رجلًا أن يقول ربى الله؟ ثم انصرفوا عنه، قال ابن عمرو: فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشًا نالوا منه قط[١]. انتهى ملخصًا.

وفى رواية البخارى عن عروة بن الزبير قال: سألت ابن عمرو بن العاص: أخبرنى بأشد شيء صنعه المشركون بالنبى ﷺ، قال: بينا النبى ﷺ يصلى فى حجر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبى معيط، فوضع ثوبه فى عنقه، فخنقه خنقًا شديدًا؛ فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبيه، ودفعه عن النبى ﷺ، وقال: أتقتلون رجلًا أن يقول ربى الله؟[٢].

وفى حديث أسماء: فأتى الصريخ إلى أبى بكر فقال: أدرك صاحبك، فخرج من عندنا وعليه غدائر أربع، فخرج وهو يقول: أتقتلون رجلًا أن يقول ربى الله؟ فلهوا عنه وأقبلوا على أبى بكر، فرجع إلينا لا نمس شيئًا من غدائره إلا رجع معنا[٣].

إسلام حمزة رضي الله عنه:

خلال هذا الجو الملبد بغيوم الظلم والعدوان ظهر برق أضاء الطريق، وهو إسلام حمزة ابن عبد المطلب رضي الله عنه، أسلم فى أواخر السنة السادسة من النبوة، والأغلب أنه أسلم فى شهر ذى الحجة.

وسبب إسلامه: أن أبا جهل مر برسول الله ﷺ يومًا عند الصفا فآذاه ونال منه، ورسول الله ﷺ ساكت لا يكلمه، ثم ضربه أبو جهل بحجر فى رأسه فَشَجَّهُ حتى نزف منه الدم، ثم انصرف عنه إلى نادى قريش عند الكعبة، فجلس معهم، وكانت مولاة لعبد الله بن جُدْعَان فى مسكن لها على الصفا ترى ذلك، وأقبل حمزة من القَنَص مُتَوَشِّحًا قوسه، فأخبرته المولاة بما رأت من أبى جهل، فغضب حمزة - وكان أعز فتى فى قريش وأشده شكيمة - فخرج يسعى، لم يقف لأحد؛ معدًّا لأبى جهل إذا لقيه أن يوقع به، فلما دخل المسجد قام على رأسه، وقال له: يا مُصَفِّرَ اسْتَه، تشتم ابن أخى وأنا على دينه؟ ثم ضربه

(١) ابن هشام ١ / ٢٨٩، ٢٩٠.

(٢) صحيح البخارى: باب ذكر ما لقى النبى ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة ١/ ٥٤٤.

(٣) مختصر السيرة للشيخ عبد الله النجدى، ص ١١٣.

بالقوس فشجه شجة منكرة، فثار رجال من بنى مخزوم - حى أبى جهل - وثار بنو هاشم - حى حمزة - فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة، فإنى سببت ابن أخيه سبًّا قبيحًا(١).

وكان إسلام حمزة أول الأمر أنفة رجل، أبى أن يهان مولاه، ثم شرح الله صدره فاستمسك بالعروة الوثقى، واعتز به المسلمون أيما اعتزاز.

إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

وخلال هذا الجو الملبد بغيوم الظلم والعدوان أضاء برق آخر أشد بريقًا وإضاءة من الأول، ألا وهو إسلام عمر بن الخطاب، أسلم فى ذى الحجة سنة ست من النبوة(٢). بعد ثلاثة أيام من إسلام حمزة رضي الله عنه، وكان النبى ﷺ قد دعا الله تعالى لإسلامه. فقد أخرج الترمذى عن ابن عمر، وصححه، وأخرج الطبرانى عن ابن مسعود وأنس أن النبى ﷺ قال: «**اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك: بعمر بن الخطاب أو بأبى جهل بن هشام**» فكان أحبهما إلى الله عمر رضي الله عنه(٣).

وبعد إدارة النظر فى جميع الروايات التى رويت فى إسلامه، يبدو أن نزول الإسلام فى قلبه كان تدريجيًّا، ولكن قبل أن نسوق خلاصتها نرى أن نشير إلى ما كان يتمتع به رضي الله عنه من العواطف والمشاعر.

كان رضي الله عنه معروفًا بحدة الطبع وقوة الشكيمة، وطالما لقى المسلمون منه ألوان الأذى، والظاهر أنه كانت تصطرع فى نفسه مشاعر متناقضة؛ احترامه للتقاليد التى سنها الآباء والأجداد وتحمسه لها، ثم إعجابه بصلابة المسلمين، وباحتمالهم البلاء فى سبيل العقيدة، ثم الشكوك التى كانت تساوره - كأى عاقل - فى أن ما يدعو إليه الإسلام قد يكون أجل وأزكى من غيره، ولهذا ما إن يَثُور حتى يَخُور.

وخلاصة الروايات - مع الجمع بينها - فى إسلامه رضي الله عنه: أنه التجأ ليلة إلى المبيت خارج بيته، فجاء إلى الحرم، ودخل فى ستر الكعبة، والنبى ﷺ قائم يصلى، وقد استفتح سورة ﴿الْحَاقَّةُ﴾، فجعل عمر يستمع إلى القرآن، ويعجب من تأليفه، قال: فقلت - أى فى نفسى: هذا والله شاعر، كما قالت قريش، قال: فقرأ ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ

(١) ابن هشام ملخصًا ١ / ٢٩١، ٢٩٢. ومصفر استه: أى ضَرَّاط.

(٢) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزى، ص ١١.

(٣) الترمذى: أبواب المناقب، مناقب عمر بن الخطاب ٥/ ٧٦، ح (٣٦٨١).

قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الحاقة] قال: قلت: كاهن. قال: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ إلى آخر السورة [الحاقة]. قال: فوقع الإسلام فى قلبى [١].

كان هذا أول وقوع نواة الإسلام فى قلبه، لكن كانت قشرة النزعات الجاهلية، وعصبية التقليد، والتعاظم بدين الآباء هى غالبة على مخ الحقيقة التى كان يتهمس بها قلبه، فبقى مجدًّا فى عمله ضد الإسلام، غير مكترث بالشعور الذى يكمن وراء هذه القشرة.

وكان من حدة طبعه وفرط عداوته لرسول الله ﷺ أنه خرج يومًا متوشحًا سيفه يريد القضاء على النبى ﷺ، فلقيه نعيم بن عبد الله النحام العدوى [٢]، ورجل من بنى زهرة [٣]، أو رجل من بنى مخزوم [٤]، فقال: أين تعمد يا عمر؟ قال: أريد أن أقتل محمدًا. قال: كيف تأمن من بنى هاشم ومن بنى زهرة وقد قتلت محمدًا؟ فقال له عمر: ما أراك إلا قد صبوت، وتركت دينك الذى كنت عليه، قال: أفلا أدلك على العجب يا عمر ! إن أختك وخَتَنَكَ قد صبوا، وتركا دينك الذى أنت عليه، فمشى عمر دامرًا [٥] حتى أتاهما، وعندهما خباب ابن الأرت، معه صحيفة فيها: (طه) يقرئهما إياها - وكان يختلف إليهما ويقرئهما القرآن - فلما سمع خباب حس عمر توارى فى البيت، وسترت فاطمة - أخت عمر - الصحيفة. وكان قد سمع عمر حين دنا من البيت قراءة خباب إليهما، فلما دخل عليهما قال: ما هذه الهينمة التى سمعتها عندكم؟ فقالا: ما عدا حديثًا تحدثناه بيننا. قال: فلعلكما قد صبوتما. فقال له ختنه: يا عمر، أرأيت إن كان الحق فى غير دينك؟ فوثب عمر على ختنه فوطئه وطأ شديدًا. فجاءت أخته فرفعته عن زوجها، فنفحها نفحة بيده، فدمى وجهها - وفى رواية ابن إسحاق أنه ضربها فشجها - فقالت، وهى غضبى: يا عمر، إن كان الحق فى غير دينك، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله.

فلما يئس عمر، ورأى ما بأخته من الدم ندم واستحيا، وقال: أعطونى هذا الكتاب

---

(١) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزى، ص ٦، ويقرب من هذا ما رواه ابن إسحاق عن عطاء ومجاهد، لكن فى آخره ما يخالف ذلك. انظر: ابن هشام ١ / ٣٤٦- ٣٤٨، ويقرب من هذا أيضا ما أورده ابن الجوزى عن جابر، وفى آخره أيضا ما يخالف هذه الرواية. انظر: تاريخ عمر بن الخطاب، ص ٩، ١٠.

(٢) وهذا على رواية ابن إسحاق. انظر: ابن هشام ١ / ٣٤٤.

(٣) روى ذلك أنس بن مالك رضي الله عنه. انظر: تاريخ عمر بن الخطاب، ص ١٠.

(٤) روى ذلك ابن عباس. انظر: مختصر السيرة للشيخ عبد الله، ص ١٠٢.

(٥) أى: فى وجهه الشر.

الذى عندكم فأقرؤه، فقالت أخته: إنك رجس، ولا يمسه إلا المطهرون، فقم فاغتسل، فقام فاغتسل، ثم أخذ الكتاب، فقرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فقال: أسماء طيبة طاهرة. ثم قرأ ﴿طه﴾ حتى انتهى إلى قوله: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾﴾ [طه] فقال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه؟ دلونى على محمد.

فلما سمع خباب قول عمر خرج من البيت، فقال: أبشر يا عمر، فإنى أرجو أن تكون دعوة الرسول ﷺ لك ليلة الخميس: «**اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب أو بأبى جهل ابن هشام**»، ورسول الله ﷺ فى الدار التى فى أصل الصفا.

فأخذ عمر سيفه، فتوشحه، ثم انطلق حتى أتى الدار، فضرب الباب، فقام رجل ينظر من خلل الباب، فرآه متوشحًا السيف، فأخبر رسول الله ﷺ، واستجمع القوم، فقال لهم حمزة: ما لكم؟ قالوا: عمر؟ فقال: وعمر؟ افتحوا له الباب، فإن كان جاء يريد خيرًا بذلناه له، وإن كان جاء يريد شرًّا قتلناه بسيفه، ورسول الله ﷺ داخل يوحى إليه، فخرج إلى عمر حتى لقيه فى الحجرة، فأخذ بمجامع ثوبه وحمائل السيف، ثم جبذه جبذة شديدة فقال: «**أما أنت منتهيًا يا عمر حتى ينزل الله بك من الخزى والنكال ما نزل بالوليد بن المغيرة؟ اللهم، هذا عمر بن الخطاب، اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب**»، فقال عمر: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله. وأسلم، فكبر أهل الدار تكبيرة سمعها أهل المسجد(١).

كان عمر رضي الله عنه ذا شكيمة لا يرام، وقد أثار إسلامه ضجة بين المشركين، وشعورا لهم بالذلة والهوان، وكسا المسلمين عزة وشرفًا وسرورًا.

روى ابن إسحاق بسنده عن عمر قال: لما أسلمت تذكرت أى أهل مكة أشد لرسول الله ﷺ عداوة، قال: قلت: أبو جهل، فأتيت حتى ضربت عليه بابه، فخرج إلىّ، وقال: أهلًا وسهلًا، ما جاء بك؟ قال: جئت لأخبرك أنى قد آمنت بالله وبرسوله محمد، وصدقت بما جاء به. قال: فضرب الباب فى وجهى، وقال: قبحك الله، وقبح ما جئت به(٢).

وذكر ابن الجوزى أن عمر رضي الله عنه قال: كان الرجل إذا أسلم تعلق به الرجال، فيضربونه ويضربهم، فجئت - أى حين أسلمت - إلى خالى - وهو العاصى بن هاشم - فأعلمته فدخل البيت، قال: وذهبت إلى رجل من كبراء قريش - لعله أبو جهل - فأعلمته فدخل البيت(٣).

---

(١) تاريخ عمر بن الخطاب ص ٧، ١٠، ١١، وابن هشام ١ / ٣٤٣ - ٣٤٦.

(٢) ابن هشام ١ / ٣٤٩، ٣٥٠.

(٣) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزى، ص ٨.

وفى رواية لابن إسحاق، عن نافع، عن ابن عمر قال: لما أسلم عمر بن الخطاب لم تعلم قريش بإسلامه، فقال: أىّ أهل مكة أنشأ للحديث؟ فقالوا: جميل بن معمر الجمحى. فخرج إليه وأنا معه، أعقل ما أرى وأسمع، فأتاه، فقال: ياجميل، إنى قد أسلمت، قال: فو الله ما رد عليه كلمة حتى قام عامدًا إلى المسجد فنادى [بأعلى صوته] أن: يا قريش، إن ابن الخطاب قد صبأ. فقال عمر - وهو خلفه: كذب، ولكنى قد أسلمت [وآمنت بالله وصدقت رسوله]، فثاروا إليه فما زال يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رءوسهم، وطَلَح - أى أعيا - عمر، فقعد، وقاموا على رأسه، وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم، فأحلف بالله أن لو كنا ثلاثمائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا[١].

وبعد ذلك زحف المشركون إلى بيته يريدون قتله. روى البخارى عن عبد الله بن عمر قال: بينما هو - أى عمر - فى الدار خائفًا إذ جاءه العاص بن وائل السهمى أبو عمرو،وعليه حلة حبرة وقميص مكفوف بحرير - وهو من بنى سهم، وهم حلفاؤنا فى الجاهلية - فقال له: ما لك؟ قال: زعم قومك أنهم سيقتلونى إن أسلمت، قال: لا سبيل إليك - بعد أن قالها أمنت - فخرج العاص، فلقى الناس قد سال بهم الوادى، فقال: أين تريدون؟ فقالوا: هذا ابن الخطاب الذى قد صبأ، قال: لا سبيل إليه، فَكَرَّ الناس[٢]. وفى لفظ فى رواية ابن إسحاق: والله، لكأنما كانوا ثوبًا كُشِطَ عنه[٣].

هذا بالنسبة إلى المشركين، أما بالنسبة إلى المسلمين فروى مجاهد عن ابن عباس قال: سألت عمر بن الخطاب: لأى شىء سميت الفاروق؟ قال: أسلم حمزة قبلى بثلاثة أيام - ثم قص عليه قصة إسلامه. وقال فى آخره: قلت - أى حين أسلمت: يا رسول الله، ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا؟ قال: «**بلى، والذى نفسى بيده، إنكم على الحق وإن متم وإن حييتم**»، قال: قلت: ففيم الاختفاء؟ والذى بعثك بالحق لنخرجن، فأخرجناه فى صفين، حمزة فى أحدهما، وأنا فى الآخر، له كديد ككديد الطحين، حتى دخلنا المسجد، قال: فنظرت إلىّ قريش وإلى حمزة، فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها، فسمانى رسول الله ﷺ «الفاروق» يومئذ[٤].

---

(١) ابن حبان (الإحسان) ٩ / ١٦، وابن هشام ١ / ٣٤٨، ٣٤٩، وتاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزى، ص ٨، ونحوه فى المعجم الأوسط للطبرانى ٢ / ١٧٢، ح (١٣١٥).

(٢) صحيح البخارى، باب إسلام عمر بن الخطاب ١/ ٥٤٥.

(٣) ابن هشام ١/ ٣٤٩.

(٤) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزى، ص ٦، ٧.

وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: ما كنا نقدر أن نصلى عند الكعبة حتى أسلم عمر[١].

وعن صهيب بن سنان الرومى رضي الله عنه قال: لما أسلم عمر ظهر الإسلام، ودعى إليه علانية، وجلسنا حول البيت حلقًا، وطفنا بالبيت، وانتصفنا ممن غلظ علينا، ورددنا عليه بعض ما يأتى به[٢].

وعن عبد الله بن مسعود قال: ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر[٣].

ممثل قريش بين يدى الرسول ﷺ:

وبعد إسلام هذين البطلين الجليلين - حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما -أخذت السحائب تتقشع، وأفاق المشركون عن سكرهم فى تنكيلهم بالمسلمين، وغيروا تفكيرهم فى معاملتهم مع النبى ﷺ والمؤمنين، واختاروا أسلوب المساومات وتقديم الرغائب والمغريات، ولم يدر هؤلاء المساكين أن كل ما تطلع عليه الشمس لا يساوى جناح بعوضة أمام دين الله والدعوة إليه، فخابوا وفشلوا فيما أرادوا.

قال ابن إسحاق: حدثنى يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظى قال: حدثت أن عتبة ابن ربيعة، وكان سيدًا، قال يومًا - وهو فى نادى قريش، ورسول الله ﷺ جالس فى المسجد وحده: يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورًا لعله يقبل بعضها، فنعطيه أيها شاء ويكف عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة رضي الله عنه ، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يكثرون ويزيدون، فقالوا: بلى، يا أبا الوليد، قم إليه، فكلمه، فقام إليه عتبة،حتى جلس إلى رسول الله ﷺ، فقال: يابن أخى، إنك منا حيث قد علمت من السِّطَةِ فى العشيرة، والمكان فى النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع منى أعرض عليك أمورًا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها. قال: فقال رسول ﷺ: **«قل يا أبا الوليد أسمع»**.

قال: يابن أخى، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالًا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت تريد به شرفًا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد به ملكًا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيًا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على

---

(١) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى، ص ١٠٣.

(٢) تاريخ عمر بن الخطاب لا بن الجوزى، ص ١٣.

(٣) صحيح البخارى: باب إسلام عمر بن الخطاب ١/ ٥٤٥.

الرجل حتى يداوى منه - أو كما قال له - حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه قال: «**أقد فرغت يا أبا الوليد؟**» قال: نعم، قال: «**فاسمع منى**»، قال: أفعل، فقال: **بسم الله الرحمن الرحيم** ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾ [فصلت: ١: ٥]. ثم مضى رسول الله فيها، يقرؤها عليه. فلما سمعها منه عتبة أنصت له، وألقى يديه خلف ظهره معتمدًا عليهما، يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها، فسجد ثم قال: «**قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك**».

فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به. فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائى أنى سمعت قولًا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعونى واجعلوها بى، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيى فيه، فاصنعوا ما بدا لكم.

وفى روايات أخرى: أن عتبة استمع حتى إذا بلغ الرسول ﷺ قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةً مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ۝١٣﴾ [فصلت] قال: حسبك، حسبك، ووضع يده على فم رسول الله ﷺ، وناشده بالرحم أن يكف، وذلك مخافة أن يقع النذير، ثم قام إلى القوم فقال ما قال.

رؤساء قريش يفاوضون رسول الله ﷺ:

وكأن رجاء قريش لم ينقطع بما أجاب به النبى ﷺ عتبة على اقتراحاته؛ لأنه لم يكن صريحًا فى الرفض أو القبول، بل تلا عليه النبى ﷺ آيات لم يفهمها عتبة، ورجع من حيث جاء، فتشاور رؤساء قريش فيما بينهم وفكروا فى كل جوانب القضية، ودرسوا كل المواقف بروية وتريث، ثم اجتمعوا يومًا عند ظهر الكعبة بعد غروب الشمس، وأرسلوا إلى النبى ﷺ يدعونه، فجاء مسرعًا يرجو خيرًا، فلما جلس إليهم قالوا له مثل ما قال عتبة، وعرضوا عليه نفس المطالب التى عرضها عتبة. وكأنهم ظنوا أنه لم يثق بجدية هذا العرض حين عرض عتبة وحده، فإذا عرضوا هم أجمعون يثق ويقبل، ولكن قال لهم رسول الله ﷺ: «**ما بى ما تَقُولُون، ما جِئْتُكم بما جِئْتُكم بِهِ أَطْلُب أَمْوَالَكُم ولا الشَّرف فيكم، ولا الْمُلْكَ**

عليكم، ولكنّ الله بَعَثَنِى إِلَيْكُم رَسُولًا، وَ أَنْزَلَ علىَّ كِتابًا، وأَمَرَنِى أَنْ أَكُونَ لَكُم بَشِيرًا وَنَذِيرًا، فَبَلَّغْتُكُم رِسَالاتِ ربى، وَنَصَحْتُ لَكُمْ، فإِنْ تَقْبَلُوا مِنّى ما جِئْتُكُم بِه فَهُوَ حَظُّكُم فى الدُنيا والآخرة، وإِنْ تَرُدُّوا علىّ أَصْبِر لأَمْرِ اللهِ حتّى يَحْكُم اللهُ بَيْنِى وَ بَيْنَكُم». أو كما قال.

فانتقلوا إلى نقطة أخرى، وطلبوا منه أن يسأل ربه أن يسير عنهم الجبال، ويبسط لهم البلاد، ويفجر فيها الأنهار، ويحيى لهم الموتى - ولا سيما قصى بن كلاب - فإن صدقوه يؤمنون به. فأجاب بنفس ما سبق من الجواب.

فانتقلوا إلى نقطة ثالثة، وطلبوا منه أن يسأل ربه أن يبعث له ملكًا يصدقه، ويراجعونه فيه، وأن يجعل له جنات وكنوزًا وقصورًا من ذهب وفضة، فأجابهم بنفس الجواب.

فانتقلوا إلى نقطة رابعة، وطلبوا منه العذاب: أن يسقط عليهم السماء كسفًا، كما يقول ويتوعد، فقال: «**ذلك إلى الله، إن شاء فعل**». فقالوا: أما علم ربك أنا سنجلس معك، ونسألك ونطلب منك، حتى يعلمك ما تراجعنا به، وما هو صانع بنا إذا لم نقبل.

وأخيرًا هددوه أشد التهديد، وقالوا: أما والله لا نتركك وما فعلت بنا حتى نهلكك أو تهلكنا، فقام رسول الله ﷺ عنهم، وانصرف إلى أهله حزينًا أسفا لما فاته ما طمع من قومه[(١)].

عزم أبى جهل على قتل رسول الله ﷺ:

ولما انصرف رسول الله ﷺ عنهم خاطبهم أبو جهل فى كبريائه وقال: يا معشر قريش، إن محمدًا قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا، وشتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وشتم آلهتنا، وإنى أعاهد الله لأجلسن له بحجر ما أطيق حمله، فإذا سجد فى صلاته فضخت به رأسه، فأسلمونى عند ذلك أو امنعونى، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم، قالوا: والله لا نسلمك لشىء أبدًا، فامض لما تريد.

فلما أصبح أبو جهل، أخذ حجرًا كما وصف، ثم جلس لرسول الله ﷺ ينتظره، وغدا رسول الله ﷺ كما كان يغدو، فقام يصلى، وقد غدت قريش فجلسوا فى أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل، فلما سجد رسول الله ﷺ احتمل أبو جهل الحجر، ثم أقبل نحوه، حتى إذا دنا منه رجع منهزمًا ممتقعًا لونه، مرعوبًا قد يبست يداه على حجره، حتى قذف الحجر من يده، وقامت إليه رجال قريش فقالوا له: ما لك يا أبا الحكم؟ قال: قمت إليه لأفعل به

---

(١) ملخص مما رواه ابن إسحاق (ابن هشام ١/ ٢٩٥- ٢٩٨)، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والدر المنثور ٤/ ٣٦٥، ٣٦٦).

ما قلت لكم البارحة، فلما دنوت منه عرض لى دونه فَحْلٌ من الإبل، لا والله ما رأيت مثل هَامَتِه، ولا مثل قَصَرَتِه ولا أنيابه لفحل قط، فَهَمَّ بى أن يأكلنى.

قال ابن إسحاق: فذكر لى أن رسول الله ﷺ قال: **«ذلك جبريل عليه السلام لو دنا لأخذه»**[(١)].

مساومات وتنازلات:

ولما فشلت قريش فى مفاوضتهم المبنية على الإغراء والترغيب، والتهديد والترهيب، وخاب أبو جهل فيما أبداه من الرعونة وقصد الفتك، تيقظت فيهم رغبة الوصول إلى حل حصيف ينقذهم عما هم فيه، ولم يكونوا يجزمون أن النبى ﷺ على باطل، بل كانوا - كما قال الله تعالى: ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾ [الشورى]. فرأوا أن يساوموه ﷺ فى أمور الدين، ويلتقوا به فى منتصف الطريق، فيتركوا بعض ما هم عليه، ويطالبوا النبى ﷺ بترك بعض ما هو عليه، وظنوا أنهم بهذا الطريق سيصيبون الحق، إن كان ما يدعو إليه النبى ﷺ حقًّا.

روى ابن إسحاق بسنده، قال: اعترض رسول الله ﷺ - وهو يطوف بالكعبة - الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى والوليد بن المغيرة وأمية بن خلف والعاص بن وائل السهمى - وكانوا ذوى أسنان فى قومهم - فقالوا: يا محمد، هلم فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، فنشترك نحن وأنت فى الأمر، فإن كان الذى تعبد خيرًا مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه، وإن كان ما نعبد خيرًا مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾﴾ السورة كلها[(٢)].

وأخرج عَبْدُ بن حُمَيْد وغيره عن ابن عباس، أن قريشًا قالت: لو استلمت آلهتنا لعبدنا إلهك. فأنزل الله: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ السورة كلها[(٣)].

وأخرج ابن جرير وغيره عنه أن قريشًا قالوا لرسول الله ﷺ: تعبد آلهتنا سنة، ونعبد إلهك سنة، فأنزل الله: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الزمر][(٤)]

ولما حسم الله تعالى هذه المفاوضة المضحكة بهذه المفاصلة الجازمة لم تيأس قريش كل اليأس، بل أبدوا مزيدًا من التنازل بشرط أن يجرى النبى ﷺ بعض التعديل فيما جاء به

---

(١) ابن هشام ١/ ٢٩٨، ٢٩٩. (٢) ابن هشام ١/ ٣٦٢.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٦٩٢.

(٤) تفسير ابن جرير الطبرى: سورة الكافرون.

من التعليمات، فقالوا: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُ﴾ [يونس:١٥]، فقطع الله هذا السبيل أيضًا بإنزال ما يرد به النبى ﷺ عليهم فقال: ﴿قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥﴾ [يونس] ونبه على عظم خطورة هذا العمل بقوله: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ٧٣ وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ٧٤ إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرٗا ٧٥﴾ [الإسراء].

حيرة قريش وتفكيرهم الجاد واتصالهم باليهود:

أظلمت أمام المشركين السبل بعد فشلهم فى هذه المفاوضات والمساومات والتنازلات، واحتاروا فيما يفعلون، حتى قام أحد شياطينهم: النضر بن الحارث، فنصحهم قائلًا: يا معشر قريش، والله لقد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد، قد كان محمد فيكم غلامًا حدثًا أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثًا، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب، و جاءكم بما جاءكم به، قلتم: ساحر، لا والله ما هو بساحر، لقد رأينا السحرة ونَفْثهم وعَقْدَهم، وقلتم: كاهن، لا والله ما هو بكاهن، قد رأينا الكهنة وتَخَالُجَهم وسمعنا سَجَعَهُم، وقلتم: شاعر، لا والله ما هو بشاعر، قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها هَزَجَه ورَجَزَه، وقلتم: مجنون، لا والله ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون، فما هو بخنقه، ولا وسوسته، ولا تخليطه، يا معشر قريش، فانظروا فى شأنكم، فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم.

وكأنهم لما رأوا صموده ﷺ فى وجه كل التحديات، ورفضه كل المغريات، وصلابته فى كل مرحلة – مع ما كان يتمتع به من الصدق والعفاف ومكارم الأخلاق – قويت شبهتهم فى كونه رسولًا حقًّا، فقرروا أن يتصلوا باليهود حتى يتأكدوا من أمره ﷺ، فلما نصحهم النضر ابن الحارث بما سبق كلفوه مع آخر أو آخرين ليذهب إلى يهود المدينة، فأتاهم فقال أحبارهم: سلوه عن ثلاث، فإن أخبر فهو نبى مرسل، وإلا فهو متقول؛ سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول،ما كان أمرهم؟ فإن لهم حديثًا عجبًا، وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح، ما هى؟

فلما قدم مكة قال: جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، وأخبرهم بما قاله اليهود، فسألت قريش رسول ﷺ عن الأمور الثلاثة، فنزلت بعد أيام سورة الكهف، فيها قصة أولئك الفتية، وهم أصحاب الكهف، وقصة الرجل الطواف، وهو ذو القرنين، ونزل الجواب عن الروح فى سورة الإسراء. وتبين لقريش أنه ﷺ على حق وصدق، ولكن أبى

الظالمون إلا كفورًا[١].

هذه نبذة خفيفة مما واجه به المشركون دعوة رسول الله ﷺ، وقد مارسوا كل ذلك جنبا إلى جنب، متنقلين من طور إلى طور، ومن دور إلى دور. فمن شدة إلى لين، ومن لين إلى شدة، ومن جدال إلى مساومة، ومن مساومة إلى جدال، ومن تهديد إلى ترغيب، ومن ترغيب إلى تهديد، كانوا يثورون ثم يخورون، ويجادلون ثم يجاملون، وينازلون ثم يتنازلون، ويوعدون ثم يرغبون، كأنهم كانوا يتقدمون ويتأخرون، لا يقر لهم قرار، ولا يعجبهم الفرار، وكان الغرض من كل ذلك هو إحباط الدعوة الإسلامية، ولَمَّ شَعْثِ الكفر، ولكنهم بعد بذل كل الجهود واختبار كل الحيل عادوا خائبين، ولم يبق أمامهم إلا السيف، والسيف لا يزيد الفرقة إلا شدة، ولا ينتج إلا عن تناحر يستأصل الشأفة، فاحتاروا ماذا يفعلون.

موقف أبى طالب وعشيرته:

أما أبو طالب فإنه لما واجه مطالبة قريش بتسليم النبى ﷺ لهم ليقتلوه، ثم رأى فى تحركاتهم وتصرفاتهم ما يؤكد أنهم يريدون قتله وإخفار ذمته - مثل ما فعله عقبة بن أبى معيط، وأبو جهل ابن هشام وعمر بن الخطاب - جمع بنى هاشم وبنى المطلب، ودعاهم إلى القيام بحفظ النبى ﷺ، فأجابوه إلى ذلك كلهم - مسلمهم وكافرهم - حَمِيَّةً للجوار العربى، وتعاقدوا وتعاهدوا عليه عند الكعبة. إلا ما كان من أخيه أبى لهب، فإنه فارقهم، وكان مع قريش[٢].

---

(١) ابن هشام ١/ ٢٩٩-٣٠١.

(٢) ابن هشام ١/ ٢٦٩.

المقاطعة العامة

ميثاق الظلم والعدوان:

زادت حيرة المشركين إذ نفدت بهم الحيل، ووجدوا بنى هاشم وبنى المطلب مصممين على حفظ نبى الله ﷺ والقيام دونه، كائنًا ما كان، فاجتمعوا فى خيف بنى كنانة من وادى المُحَصَّبِ فتحالفوا على بنى هاشم وبنى المطلب ألا يناكحوهم، ولا يبايعوهم، ولا يجالسوهم، ولا يخالطوهم، ولا يدخلوا بيوتهم، ولا يكلموهم، حتى يسلموا إليهم رسول الله ﷺ للقتل، وكتبوا بذلك صحيفة فيها عهود ومواثيق «ألا يقبلوا من بنى هاشم صلحًا أبدًا، ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموه للقتل». قال ابن القيم: يقال: كتبها منصور ابن عكرمة بن عامر بن هاشم، ويقال: نضر بن الحارث، والصحيح أنه بَغِيض بن عامر بن هاشم، فدعا عليه رسول الله ﷺ فَشُلَّتْ يده(١).

تم هذا الميثاق وعلقت الصحيفة فى جوف الكعبة، فانحاز بنو هاشم وبنو المطلب، مؤمنهم وكافرهم - إلا أبا لهب - وحبسوا فى شعب أبى طالب، وذلك فيما يقال: ليلة هلال المحرم سنة سبع من البعثة. وقد قيل غير ذلك.

ثلاثة أعوام فى شعب أبى طالب:

واشتد الحصار، وقطعت عنهم الميرة والمادة، فلم يكن المشركون يتركون طعامًا يدخل مكة ولا بيعًا إلا بادروه فاشتروه، حتى بلغهم الجهد، والتجأوا إلى أكل الأوراق والجلود، وحتى كان يسمع من وراء الشعب أصوات نسائهم وصبيانهم يتضاغون من الجوع، وكان لا يصل إليهم شىء إلا سرًّا، وكانوا لا يخرجون من الشعب لاشتراء الحوائج إلا فى الأشهر الحرم، وكانوا يشترون من العير التى ترد مكة من خارجها، ولكن أهل مكة كانوا يزيدون عليهم فى السلعة قيمتها حتى لا يستطيعون شراءها.

وكان حكيم بن حزام ربما يحمل قمحًا إلى عمته خديجة رضي الله عنها وقد تعرض له مرة أبو جهل فتعلق به ليمنعه، فتدخل بينهما أبو البخترى، ومكنه من حمل القمح إلى عمته.

---

(١) انظر: صحيح البخارى، الفتح ٣/ ٥٢٩، (١٥٨٩، ١٥٩٠، ٣٨٨٢، ٤٢٨٤، ٤٢٨٥، ٧٤٧٩)، وزاد المعاد ٢/ ٤٦.

وكان أبو طالب يخاف على رسول الله ﷺ، فكان إذا أخذ الناس مضاجعهم يأمر رسول الله ﷺ أن يضطجع على فراشه، حتى يرى ذلك من أراد اغتياله، فإذا نام الناس أمر أحد بنيه أو إخوانه أو بنى عمه فاضطجع على فراش رسول الله ﷺ، وأمره أن يأتى بعض فرشهم.

وكان رسول الله ﷺ والمسلمون يخرجون فى أيام الموسم، فيلقون الناس، ويدعونهم إلى الإسلام، وقد أسلفنا ما كان يأتى به أبو لهب.

نقض صحيفة الميثاق:

مر عامان أو ثلاثة أعوام والأمر على ذلك، وفى المحرم(١) سنة عشر من النبوة نقضت الصحيفة وفك الحصار؛ وذلك أن قريشًا كانوا بين راض بهذا الميثاق وكاره له، فسعى فى نقض الصحيفة من كان كارهًا لها.

وكان القائم بذلك هشام بن عمرو من بنى عامر بن لؤى – وكان يصل بنى هاشم فى الشعب مستخفيًا بالليل بالطعام – فإنه ذهب إلى زهير بن أبى أمية المخزومى – وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب – وقال: يا زهير، أرضيت أن تأكل الطعام، وتشرب الشراب، وأخوالك بحيث تعلم؟ فقال: ويحك، فما أصنع وأنا رجل واحد؟ أما والله لو كان معى رجل آخر لقمت فى نقضها، قال: قد وجدت رجلًا. قال: فمن هو؟ قال: أنا. قال له زهير: ابغنا رجلًا ثالثًا.

فذهب إلى المطعم بن عدى، فذكره أرحام بنى هاشم وبنى المطلب ابنى عبد مناف، ولامه على موافقته لقريش على هذا الظلم، فقال المطعم: ويحك، ماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، قال: قد وجدت ثانيًا، قال: من هو؟ قال: أنا. قال: ابغنا ثالثًا. قال: قد فعلت. قال: من هو؟ قال: زهير بن أبى أمية، قال: ابغنا رابعًا.

فذهب إلى أبى البخترى بن هشام، فقال له نحوًا مما قال للمطعم، فقال: وهل من أحد يعين على هذا؟ قال: نعم. قال: من هو؟ قال زهير بن أبى أمية، والمطعم بن عدى، وأنا معك، قال: ابغنا خامسًا.

فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد، فكلمه وذكر له قرابتهم وحقهم،

---

(١) الدليل على هذا: أن أبا طالب مات بعد نقض الصحيفة بستة أشهر، والصحيح فى موت أبى طالب: أنه فى شهر رجب. ومن يقول: إنه مات فى رمضان، فهو يقول: إنه مات بعد نقض الصحيفة بثمانية أشهر وأيام.

فقال له: وهل على هذا الأمر الذى تدعونى إليه من أحد؟ قال: نعم، ثم سمى له القوم، فاجتمعوا عند الّحَجُون، وتعاقدوا على القيام بنقض الصحيفة، وقال زهير: أنا أبدأكم فأكون أول من يتكلم.

فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم، وغدا زهير عليه حلة، فطاف بالبيت سبعًا، ثم أقبل على الناس، فقال: يا أهل مكة، أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى، لا يباع ولا يبتاع منهم؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة.

قال أبو جهل - وكان فى ناحية المسجد: كذبت، والله لا تشق.

فقال زمعة بن الأسود: أنت والله أكذب، ما رضينا كتابتها حيث كتبت.

قال أبو البخترى: صدق زمعة، لا نرضى ما كتب فيها، ولا نقر به.

قال المطعم بن عدى: صدقتما، وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها.

وقال هشام بن عمرو نحوًا من ذلك.

فقال أبو جهل: هذا أمر قضى بليل، وتُشُووِر فيه بغير هذا المكان.

وأبو طالب جالس فى ناحية المسجد، إنما جاءهم لأن الله كان قد أطلع رسوله ﷺ على أمر الصحيفة، وأنه أرسل عليها الأرضة، فأكلت جميع ما فيها من جور وقطيعة وظلم إلا ذكر الله عز وجل، فأخبر بذلك عمه، فخرج إلى قريش فأخبرهم أن ابن أخيه قد قال كذا وكذا، فإن كان كاذبًا خلينا بينكم وبينه، وإن كان صادقًا رجعتم عن قطيعتنا وظلمنا، قالوا: قد أنصفت.

وبعد أن دار الكلام بين القوم وبين أبى جهل، قام المطعم إلى الصحيفة ليشقها، فوجد الأرضة قد أكلتها إلا «باسمك اللهم»، وما كان فيها من اسم الله فإنها لم تأكله.

ثم نقض الصحيفة، وخرج رسول الله ﷺ ومن معه من الشعب، وقد رأى المشركون آية عظيمة من آيات نبوته، ولكنهم - كما أخبر الله عنهم ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ ﴾ [القمر] - أعرضوا عن هذه الآية، وازدادوا كفرًا إلى كفرهم[١].

---

(١) جمعنا تفاصيل المقاطعة من صحيح البخارى: باب نزول النبى ﷺ بمكة ١/ ٢١٦، وباب تقاسم المشركين على النبى ﷺ ١/٥٤٨، وزاد المعاد ٢/ ٤٦، وابن هشام ١/ ٣٥٠، ٣٥١، ٣٧٤- ٣٧٧، وغيرها.

آخر وفد قريش إلى أبى طالب

خرج رسول الله ﷺ من الشعب، وجعل يعمل على شاكلته، وقريش وإن كانوا قد تركوا القطيعة، لكنهم لم يزالوا عاملين على شاكلتهم من الضغط على المسلمين والصد عن سبيل الله، وأما أبو طالب فهو لم يزل يحوط ابن أخيه، لكنه كان قد جاوز الثمانين من سنه، وكانت الآلام والحوادث الضخمة المتوالية منذ سنوات - لاسيما حصار الشعب - قد وهنت وضعفت مفاصله وكسرت صلبه، فلم يمض على خروجه من الشعب إلا أشهر معدودات، وإذا هو يلاحقه المرض ويلح به، وحينئذ خاف المشركون سوء سمعتهم فى العرب إن أتوا بعد وفاته بمنكر على ابن أخيه، فحاولوا مرة أخرى أن يفاوضوا النبى ﷺ بين يديه، ويعطوا بعض ما لم يرضوا إعطاءه قبل ذلك. فقاموا بوفادة هى آخر وفادتهم إلى أبى طالب.

قال ابن إسحاق وغيره: لما اشتكى أبو طالب، وبلغ قريشًا ثقله، قالت قريش بعضها لبعض: إن حمزة وعمر قد أسلما، وقد فشا أمر محمد فى قبائل قريش كلها، فانطلقوا بنا إلى أبى طالب، فليأخذ على ابن أخيه، وليعطه منا، والله ما نأمن أن يبتزونا[1] أمرنا، وفى لفظ: فإنا نخاف أن يموت هذا الشيخ فيكون إليه شىء فتعيرنا به العرب، يقولون: تركوه حتى إذا مات عمه تناولوه.

مشوا إلى أبى طالب فكلموه، وهم أشراف قومه؛ عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو جهل ابن هشام، وأمية بن خلف، وأبو سفيان بن حرب، فى رجال من أشرافهم - وهم خمسة وعشرون تقريبًا - فقالوا: يا أبا طالب، إنك منا حيث قد علمت، وقد حضرك ما ترى، وتخوفنا عليك، وقد علمت الذى بيننا وبين ابن أخيك، فادعه فخذ له منا، وخذ لنا منه؛ ليكف عنا ونكف عنه، وليدعنا وديننا وندعه ودينه، فبعث أبو طالب، فجاءه فقال: يابن أخى، هؤلاء أشراف قومك، قد اجتمعوا لك ليعطوك، وليأخذوا منك، ثم أخبره بالذى قالوا له وعرضوا عليه من عدم تعرض كل فريق للآخر. فقال لهم رسول الله ﷺ: «**أرأيتم إن أعطيتكم كلمة تكلمتم بها، ملكتم بها العرب، ودانت لكم بها العجم**»، وفى لفظ أنه قال مخاطبًا لأبى طالب: «**إنى أريدهم على كلمة واحدة يقولونها تدين لهم بها العرب، وتؤدى إليهم بها العجم الجزية**»، وفى لفظ آخر قال: «**أى عم، أفلا أدعوهم إلى ما هو خير لهم؟**»

(١) ابتزه أمره: سلبه إياه وغلبه عليه.

قال: وإلام تدعوهم؟ قال: «**أدعوهم إلى أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب، ويملكون بها العجم**»، ولفظ رواية ابن إسحاق: «**كلمة واحدة تعطونها تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم**»، فلما قال هذه المقالة توقفوا وتحيروا ولم يعرفوا كيف يرفضون هذه الكلمة الواحدة النافعة إلى هذه الغاية والحد. ثم قال أبو جهل: ما هى؟ وأبيك لنعطيكها وعشر أمثالها، قال: تقولون: «**لا إله إلا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه**». فصفقوا بأيديهم، ثم قالوا: أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلهًا واحدًا؟ إن أمرك لعجب.

ثم قال بعضهم لبعض: إنه والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئًا مما تريدون، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم، حتى يحكم الله بينكم وبينه، ثم تفرقوا.

وفى هؤلاء نزل قوله تعالى: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾﴾ [ص][1].

(١) ابن هشام ١/ ٤١٧- ٤١٩، وينظر أيضًا: الترمذى ٥/ ٣٤١، ح (٣٢٣٢)، ومسند أبى يعلى ٤/ ٤٥٦، ح (٢٥٨٣)، وابن جرير فى تفسيره.

عام الحزن

وفاة أبى طالب:

ألح المرض بأبى طالب، فلم يلبث أن وافته المنية، وكانت وفاته فى رجب سنة عشر من النبوة، بعد الخروج من الشعب بستة أشهر(١). وقيل: توفى فى رمضان قبل وفاة خديجة رضي الله عنها بثلاثة أيام.

وفى الصحيح عن المسيب: أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبى ﷺ وعنده أبو جهل، فقال: «**أى عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله**»، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية: يا أبا طالب، ترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزالا يكلماه حتى قال آخر شىء كلمهم به: على ملة عبد المطلب، فقال النبى ﷺ: «**لأستغفرن لك ما لم أنه عنه**»، فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة] ونزلت: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦](٢).

ولا حاجة إلى بيان ما كان عليه أبو طالب من الحياطة والمنع، فقد كان الحصن الذى احتمت به الدعوة الإسلامية من هجمات الكبراء والسفهاء، ولكنه بقى على ملة الأشياخ من أجداده، فلم يفلح كل الفلاح.

ففى الصحيح عن العباس بن عبد المطلب، قال للنبى ﷺ: ما أغنيت عن عمك، فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال: «**هو فى ضَحْضَاح من نار، ولولا أنا لكان فى الدرك الأسفل من النار**»(٣).

وعن أبى سعيد الخدرى أنه سمع النبى ﷺ - وذكر عنده عمه - فقال: «**لعله تنفعه شفاعتى يوم القيامة، فيجعل فى ضحضاح من النار تبلغ كعبيه**»(٤).

خديجة إلى رحمة الله:

وبعد وفاة أبى طالب بنحو شهرين أو بثلاثة أيام - على اختلاف القولين - توفيت أم المؤمنين خديجة الكبرى رضي الله عنها، وكانت وفاتها فى شهر رمضان فى السنة العاشرة من

(١) مختصر السيرة للشيخ عبد الله، ص ١١١.

(٢-٤) صحيح البخارى: باب قصة أبى طالب ١/ ٥٤٨.

النبوة، ولها خمس وستون سنة على أشهر الأقوال، ورسول الله ﷺ إذ ذاك فى الخمسين من عمره[١].

إن خديجة كانت من نعم الله الجليلة على رسول الله ﷺ، بقيت معه ربع قرن تحن عليه ساعة قلقه، وتؤازره فى أحرج أوقاته، وتعينه على إبلاغ رسالته، وتشاركه فى مغارم الجهاد المر،وتواسيه بنفسها ومالها، يقول رسول الله ﷺ: «**آمنت بى حين كفر بى الناس، وصدقتنى حين كذبنى الناس، وأشركتنى فى مالها حين حرمنى الناس، ورزقنى الله ولدها وحرم ولد غيرها**»[٢].

وفى الصحيح عن أبى هريرة قال: أتى جبريل النبى ﷺ، فقال: يا رسول الله، هذه خديجة قد أتت، معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هى أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها، وبشرها ببيت فى الجنة من قَصَبٍ لا صَخَبَ فيه ولا نَصَبَ[٣].

تراكم الأحزان:

وقعت هاتان الحادثتان المؤلمتان خلال أيام معدودة، فاهتزت مشاعر الحزن والألم فى قلب رسول الله ﷺ، ثم لم تزل تتوالى عليه المصائب من قومه. فإنهم تجرأوا عليه وكاشفوه بالنكال والأذى بعد موت أبى طالب، فازداد غمًّا على غم، حتى يئس منهم، وخرج إلى الطائف رجاء أن يستجيبوا لدعوته، أو يؤووه وينصروه على قومه، فلم ير من يؤوى ولم ير ناصرًا، بل آذوه أشد الأذى، ونالوا منه ما لم ينله قومه.

وكما اشتدت وطأة أهل مكة على النبى ﷺ اشتدت على أصحابه، حتى التجأ رفيقه أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى الهجرة عن مكة، فخرج حتى بلغ بَرْكَ الغِمَاد، يريد الحبشة، فأرجعه ابن الدُّغُنَّة فى جواره[٤].

قال ابن إسحاق: لما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تطمع به فى حياة أبى طالب، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش فنثر على رأسه ترابًا، ودخل بيته والتراب على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته فجعلت تغسل عنه التراب وهى تبكى، ورسول الله ﷺ يقول لها: «**لا تبكى يابنية، فإن الله مانع أباك**». قال: ويقول بين

---

(١) نص على موتها فى رمضان من تلك السنة ابن الجوزى فى التلقيح، ص ٧.

(٢) رواه الإمام أحمد فى مسنده ٦/ ١١٨.

(٣) صحيح البخارى: باب تزويج النبى ﷺ خديجة وفضلها ١/ ٥٣٩.

(٤) القصة بطولها مروية فى صحيح البخارى ١/ ٥٥٢، ٥٥٣، وابن هشام ١/ ٣٧٢- ٣٧٤.

ذلك: «**ما نالت منى قريش شيئًا أكرهه حتى مات أبو طالب**»[(١)].

ولأجل توالى مثل هذه الآلام فى هذا العام سمى بعام الحزن، وعرف به فى السيرة والتاريخ.

الزواج بسودة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:

وفى شوال من هذه السنة - سنة ١٠ من النبوة - تزوج رسول الله ﷺ سودة بنت زمعة، كانت ممن أسلم قديمًا وهاجرت الهجرة الثانية إلى الحبشة، وكان زوجها السكران ابن عمرو، وكان قد أسلم وهاجر معها، فمات بأرض الحبشة، أو بعد الرجوع إلى مكة، فلما حلت خطبها رسول الله ﷺ وتزوجها، وكانت أول امرأة تزوجها بعد وفاة خديجة، وكانت قد وهبت نوبتها لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أخيرًا[(٢)].

---

(١) ابن هشام ١/ ٤١٦.

(٢) تلقيح فهوم أهل الأثر، ص ١٠.

عوامل الصبر والثبات

وهنا يقف الحليم حيران، ويتساءل عقلاء الرجال فيما بينهم: ما هى الأسباب والعوامل التى بلغت بالمسلمين إلى هذه الغاية القصوى، والحد المعجز من الثبات؟ كيف صبروا على هذه الاضطهادات التى تقشعر لسماعها الجلود، وترجف لها الأفئدة؟ ونظرًا إلى هذا الذى يتخالج القلوب، نرى أن نشير إلى بعض هذه العوامل والأسباب إشارة عابرة بسيطة:

١ - الإيمان بالله:

إن السبب الرئيسى فى ذلك أولًا وبالذات هو الإيمان بالله وحده ومعرفته حق المعرفة، فالإيمان الجازم إذا خالطت بشاشته القلوب يزن الجبال ولا يطيش، وإن صاحب هذا الإيمان المحكم وهذا اليقين الجازم يرى متاعب الدنيا مهما كثرت وكبرت وتفاقمت واشتدت - يراها فى جنب إيمانه - طحالب عائمة فوق سَيْل جارف جاء ليكسر السدود المنيعة والقلاع الحصينة، فلا يبالى بشىء من تلك المتاعب أمام ما يجده من حلاوة إيمانه، وطراوة إذعانه، وبشاشة يقينه ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

ويتفرع من هذا السبب الوحيد أسباب أخرى تقوى هذا الثبات والمصابرة وهى:

٢ - قيادة تهوى إليها الأفئدة:

فقد كان النبى ﷺ - وهو القائد الأعلى للأمة الإسلامية، بل وللبشرية جمعاء - يتمتع من جمال الخلق، وكمال النفس، ومكارم الأخلاق، والشيم النبيلة، والشمائل الكريمة، بما تتجاذب إليه القلوب وتتفانى دونه النفوس، وكانت أنصبته من الكمال الذى يُحَبَّبُ لم يرزق بمثلها بشر. وكان على أعلى قمة من الشرف والنبل والخير والفضل. وكان من العفة والأمانة والصدق، ومن جميع سبل الخير على ما لم يتمار ولم يشك فيه أعداؤه فضلًا عن محبيه ورفقائه، لا تصدر منه كلمة إلا ويستيقنون صدقها.

اجتمع ثلاثة نفر من قريش، وكان قد استمع كل واحد منهم إلى القرآن سرًّا عن صاحبيه، ثم انكشف سرهم، فسأل أحدهم أبا جهل - وكان من أولئك الثلاثة: ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف؛ أطعموا

فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب، وكنا كَفَرَسَىْ رِهَان قالوا: لنا نبى يأتيه الوحى من السماء، فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبدًا، ولا نصدقه[١].

وكان أبو جهل يقول: يا محمد، إنا لا نكذبك ولكن نكذب بما جئت به، فأنزل الله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام][٢].

وغمزه ﷺ الكفار يومًا ثلاث مرات، فقال فى الثالثة: «**يا معشر قريش، جئتكم بالذبح**»، فأخذتهم تلك الكلمة حتى إن أشدهم عداوة يرفؤه بأحسن ما يجد عنده.

ولما ألقوا عليه سَلاَ جَزُورٍ وهو ساجد، دعا عليهم، فذهب عنهم الضحك، وساورهم الهم والقلق، وأيقنوا أنهم هالكون.

ودعا على عتبة بن أبى لهب، فلم يزل على يقين من لقاء ما دعا به عليه، حتى إنه حين رأى الأسد قال: قتلنى والله - محمد - وهو بمكة.

وكان أبى بن خلف يتوعده بالقتل. فقال: «**بل أنا أقتلك إن شاء الله**»، فلما طعن أبيًّا فى عنقه يوم أحد - وكان خدشًا غير كبير - كان أبى يقول: إنه قد كان قال لى بمكة: أنا أقتلك، فو الله لو بصق علىَّ لقتلنى[٣] - وسيأتى.

وقال سعد بن معاذ - وهو بمكة - لأمية بن خلف: لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنهم** - أى المسلمين - **قاتلوك**»، ففزع فزعًا شديدًا، وعهد ألا يخرج عن مكة، ولما ألجأه أبو جهل للخروج يوم بدر اشترى أجود بعير بمكة ليمكنه من الفرار، وقالت له امرأته: يا أبا صفوان، وقد نسيت ما قال لك أخوك اليثربى؟ قال: لا والله ما أريد أن أجوز معهم إلا قريبًا[٤].

هكذا كان حال أعدائه ﷺ، أما أصحابه ورفقاؤه فقد حل منهم محل الروح والنفس، وشغل منهم مكان القلب والعين، فكان الحب الصادق يندفع إليه اندفاع الماء إلى الْحُدور، وكانت النفوس تنجذب إليه انجذاب الحديد إلى المغناطيس.

فصورته هيولى كل جسم ومغناطيس أفئدة الرجال

---

(١) ابن هشام ١/ ٣١٦.

(٢) رواه الترمذى فى تفسير سورة الأنعام ٥/ ٢٤٣، ح (٣٠٦٤).

(٣) ابن هشام ٢/ ٨٤.

(٤) انظر: صحيح البخارى ٢/ ٥٦٣.

وكان من أثر هذا الحب والتفانى أنهم كانوا ليرضون أن تندق أعناقهم، ولا يخدش له ظفر أو يشاك شوكة.

وطئ أبو بكر بن أبى قحافة يومًا بمكة، وضرب ضربًا شديدًا، دنا منه عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفين ويحرفهما لوجهه، ونزا على بطن أبى بكر، حتى ما يعرف وجهه من أنفه، وحملت بنو تيم أبا بكر فى ثوب حتى أدخلوه منزله، ولا يشكون فى موته، فتكلم آخر النهار فقال: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فمسوا منه بألسنتهم وعذلوه، ثم قاموا وقالوا لأمه أم الخير: انظرى أن تطعميه شيئًا أو تسقيه إياه، فلما خلت به ألحت عليه، وجعل يقول: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فقالت: والله لا علم لى بصاحبك، فقال: اذهبى إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه، فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت: إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله، قالت: ما أعرف أبا بكر ولا محمد ابن عبد الله، وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك ذهبت، قالت: نعم، فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعًا دنفًا، فدنت أم جميل وأعلنت بالصياح، وقالت: والله إن قومًا نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر، وإنى لأرجو أن ينتقم الله لك منهم، قال: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالت: هذه أمك تسمع، قال: فلا شىء عليك منها، قالت: سالم صالح، فقال: أين هو؟ قالت: فى دار ابن الأرقم، قال: فإن لله على ألا أذوق طعامًا ولا أشرب شرابًا أو آتى رسول الله ﷺ، فأمهلتا حتى إذا هدأت الرِّجْل، وسكن الناس خرجتا به، يتكئ عليهما، حتى أدخلتاه على رسول الله ﷺ[1].

وسننقل نوادر الحب والتفانى فى مواضع شتى من هذا الكتاب، ولا سيما ما وقع فى يوم أحد، وما وقع من خبيب وأمثاله.

٣ – الشعور بالمسئولية:

فكان الصحابة يشعرون شعورًا تامًّا ما على كواهل البشر من المسئولية الفخمة الضخمة، وأن هذه المسئولية لا يمكن عنها الحياد والانحراف بحال، فالعواقب التى تترتب على الفرار عن تحملها أشد وخامة وأكبر ضررًا عما هم فيه من الاضطهاد، وأن الخسارة التى تلحقهم – وتلحق البشرية جمعاء – بعد هذا الفرار لا يقاس بحال على المتاعب التى كانوا يواجهونها نتيجة هذا التحمل.

---

(١) البداية والنهاية ٣/ ٣٠.

٤ - الإيمان بالآخرة:

وهو مما كان يقوى هذا الشعور - الشعور بالمسئولية - فقد كانوا على يقين جازم بأنهم يقومون لرب العالمين، ويحاسبون على أعمالهم دقها وجلها، صغيرها وكبيرها، فإما إلى النعيم المقيم، وإما إلى عذاب خالد فى سواء الجحيم، فكانوا يقضون حياتهم بين الخوف والرجاء، يرجون رحمة ربهم ويخافون عذابه، وكانوا ﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنون]، وكانوا يعرفون أن الدنيا بعذابها ونعيمها لا تساوى جناح بعوضة فى جنب الآخرة، وكانت هذه المعرفة القوية تهون لهم متاعب الدنيا ومشاقها ومرارتها؛ حتى لم يكونوا يكترثون لها ويلقون إليها بالًا.

٥ - القرآن:

وفى هذه الفترات العصيبة الرهيبة الحالكة كانت تنزل السور والآيات تقيم الحجج والبراهين على صدق مبادئ الإسلام - التى كانت الدعوة تدور حولها - بأساليب منيعة خلابة، وترشد المسلمين إلى أسس قدر الله أن يتكون عليها أعظم وأروع مجتمع بشرى فى العالم - وهو المجتمع الإسلامى - وتثير مشاعر المسلمين ونوازعهم على الصبر والتجلد، تضرب لذلك الأمثال، وتبين لهم ما فيه من الحكم ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة] ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت].

كما كانت تلك الآيات ترد على إيرادات الكفار والمعاندين ردًّا مفحمًا، ولا تبقى لهم حيلة، ثم تحذرهم مرة عن عواقب وَخِيمَة - إن أصروا على غيهم وعنادهم - فى جلاء ووضوح، مستدلة بأيام الله، والشواهد التاريخية التى تدل على سنة الله فى أوليائه وأعدائه، وتلطفهم مرة، وتؤدى حق التفهيم والإرشاد والتوجيه حتى ينصرفوا عما هم فيه من الضلال المبين.

وكان القرآن يسير بالمسلمين فى عالم آخر، ويبصرهم من مشاهد الكون وجمال الربوبية، وكمال الألوهية، وآثار الرحمة والرأفة، وتجليات الرضوان ما يحنون إليه حنينًا لا يقوم له أى عقبة.

وكانت فى طى هذه الآيات خطابات للمسلمين، فيها ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ

وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [التوبة]، وتصور لهم صورة أعدائهم من الكفرة الطغاة الظالمين يحاكمون ويصادرون، ثم ﴿ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [القمر].

٦ - البشارات بالنجاح:

ومع هذا كله كان المسلمون يعرفون منذ أول يوم لاقوا فيه الشدة والاضطهاد - بل ومن قبله - أن الدخول فى الإسلام ليس معناه جر المصائب والحتوف، بل إن الدعوة الإسلامية تهدف - منذ أول يومها - إلى القضاء على الجاهلية الجهلاء ونظامها الغاشم، وأن من نتائجها فى الدنيا بسط النفوذ على الأرض، والسيطرة على الموقف السياسى فى العالم لتقود الأمة الإنسانية والجمعية البشرية إلى مرضاة الله، وتخرجهم من عبادة العباد إلى عبادة الله.

وكان القرآن ينزل بهذه البشارات - مرة بالصراحة وأخرى بالكناية - ففى تلك الفترات القاصمة التى ضيقت الأرض على المسلمين، وكادت تخنقهم وتقضى على حياتهم كانت تنزل الآيات بما جرى بين الأنبياء السابقين وبين أقوامهم الذين قاموا بتكذيبهم والكفر بهم، وكانت تشتمل هذه الآيات على ذكر الأحوال التى تطابق تمامًا أحوال مسلمى مكة وكفارها، ثم تذكر هذه الآيات بما تمخضت عنه تلك الأحوال من إهلاك الكفرة والظالمين، وإيراث عباد الله الصالحين الأرض والديار. فكانت فى هذه القصص إشارات واضحة إلى فشل أهل مكة فى المستقبل، ونجاح المسلمين مع نجاح الدعوة الإسلامية.

وفى هذه الفترات نزلت آيات تصرح ببشارة غلبة المؤمنين، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [الصافات]، وقال: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر]، وقال: ﴿ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ ﴾ [ص]. ونزلت فى الذين هاجروا إلى الحبشة: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [النحل]. وسألوه عن قصة يوسف، فأنزل الله فى طيها: ﴿ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [يوسف]. أى فأهل مكة السائلون يلاقون ما لاقى إخوانه من الفشل، ويستسلمون كاستسلامهم، وقال وهو يذكر الرسل: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ

إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾ [إبراهيم]. وحينما كانت الحرب مشتعلة بين الفرس والرومان، وكان الكفار يحبون غلبة الفرس لكونهم مشركين، والمسلمون يحبون غلبة الرومان لكونهم مؤمنين بالله والرسل والوحى والكتب واليوم الآخر، وكانت الفرس يغلبون ويتقدمون، أنزل الله بشارة بغلبة الروم فى بضع سنين، ولكنه لم يقتصر على هذه البشارة الواحدة، بل صرح ببشارة أخرى، وهى نصر الله للمؤمنين حيث قال: ﴿ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ ﴾ [الروم: ٤، ٥].

وكان رسول الله ﷺ نفسه يقوم بمثل هذه البشارات بين آونة وأخرى، فكان إذا وافى الموسم، وقام بين الناس فى عُكاظ، ومَجَنَّة، وذى المَجَاز لتبليغ الرسالة، لم يكن يبشرهم بالجنة فحسب، بل يقول لهم بكل صراحة: «**يأيها الناس، قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا، وتملكوا بها العرب، وتدين لكم بها العجم، فإذا متم كنتم ملوكًا فى الجنة**»(١).

وقد أسلفنا ما أجاب به النبى ﷺ عتبة بن ربيعة حين أراد مساومته على رغائب الدنيا، وما فهمه ورجاه عتبة من ظهور أمره- عليه الصلاة والسلام.

وكذلك ما أجاب به النبى ﷺ آخر وفد جاء إلى أبى طالب، فقد صرح لهم أنه يطلب منهم كلمة واحدة يعطونها تدين لهم بها العرب، ويملكون العجم.

وقال خباب بن الأرت: أتيت النبى ﷺ وهو متوسد برده وهو فى ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت: ألا تدعو الله، فقعد، وهو محمر وجهه، فقال: «**لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم وعصب ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله** - زاد بيان الراوى - **والذئب على غنمه**»(٢)، وفى رواية: «**ولكنكم تستعجلون**»(٣).

ولم تكن هذه البشارات مخفية مستورة، بل كانت فاشية مكشوفة، يعلمها الكفرة، كما كان يعلمها المسلمون، حتى كان الأسود بن المطلب وجلساؤه إذا رأوا أصحاب النبى ﷺ تغامزوا بهم، وقالوا: قد جاءكم ملوك الأرض الذين يرثون كسرى وقيصر، ثم يصفرون ويصفقون(٤).

---

(١) ابن سعد ١/ ٢١٦.

(٢) صحيح البخارى ١/ ٥٤٣.

(٣) المصدر نفسه ١/ ٥١٠.

(٤) السيرة الحلبية ١/ ٥١١، ٥١٢.

وأمام هذه البشارات بالمستقبل المجيد المستنير فى الدنيا، مع ما فيه من الرجاء الصالح الكبير البالغ إلى النهاية فى الفوز بالجنة، كان الصحابة يرون أن الاضطهادات التى تتوالى عليهم من كل جانب، والمصائب التى تحيط بهم من كل الأرجاء ليست إلا: «سحابة صيف عن قليل تقشع».

هذا ولم يزل الرسول ﷺ يغذى أرواحهم برغائب الإيمان، ويزكى نفوسهم بتعليم الحكمة والقرآن، ويربيهم تربية دقيقة عميقة، يحدو بنفوسهم إلى منازل سمو الروح، ونقاء القلب، ونظافة الخلق، والتحرر من سلطان الماديات، والمقاومة للشهوات، والنزوع إلى رب الأرض والسموات، ويذكى جمرة قلوبهم، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويأخذهم بالصبر على الأذى، والصفح الجميل، وقهر النفس. فازدادوا رسوخًا فى الدين،وعزوفا عن الشهوات، وتفانيًا فى سبيل المرضاة، وحنينًا إلى الجنة، وحرصًا على العلم، وفقهًا فى الدين، ومحاسبة للنفس، وقهرًا للنزعات، وغلبة على العواطف، وتسيطرًا على الثائرات والهائجات، وتقيدًا بالصبر والهدوء والوقار.

المرحلة الثالثة

دعوة الإسلام خارج مكة

الرسول ﷺ فى الطائف:

فى شوال سنة عشر من النبوة (فى أواخر مايو أو أوائل يونيو سنة ٦١٩ م) خرج النبى ﷺ إلى الطائف، وهى تبعد عن مكة نحو ستين ميلًا، سارها ماشيًا على قدميه جيئة وذهوبًا، ومعه مولاه زيد بن حارثة، وكان كلما مر على قبيلة فى الطريق دعاهم إلى الإسلام، فلم تجب إليه واحدة منها.

فلما انتهى إلى الطائف عمد ثلاثة إخوة من رؤساء ثقيف، وهم عبد ياليل ومسعود وحبيب أبناء عمرو بن عمير الثقفى، فجلس إليهم ودعاهم إلى الله، وإلى نصرة الإسلام، فقال أحدهم: هو يَمْرُط ثياب الكعبة (أى يمزقها) إن كان الله أرسلك. وقال الآخر: أما وَجَدَ الله أحدًا غيرك، وقال الثالث: والله لا أكلمك أبدًا، إن كنت رسولًا لأنت أعظم خطرًا من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغى أن أكلمك. فقام عنهم رسول الله ﷺ وقال لهم: «**إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني**».

وأقام رسول الله ﷺ بين أهل الطائف عشرة أيام، لا يدع أحدًا من أشرافهم إلا جاءه وكلمه، فقالوا: اخرج من بلادنا. وأغروا به سفهاءهم، فلما أراد الخروج تبعه سفهاؤهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس، فوقفوا له سِمَاطَيْن (أى صفين) وجعلوا يرمونه بالحجارة، وبكلمات من السفه، ورجموا عراقيبه، حتى اختضب نعلاه بالدماء. وكان زيد بن حارثة يقيه بنفسه حتى أصابه شِجَاج فى رأسه، ولم يزل به السفهاء كذلك حتى ألجأوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابنى ربيعة على ثلاثة أميال من الطائف، فلما التجأ إليه رجعوا عنه، وأتى رسول الله ﷺ إلى حُبْلَة من عنب فجلس تحت ظلها إلى جدار. فلما جلس إليه واطمأن، دعا بالدعاء المشهور الذى يدل على امتلاء قلبه كآبة وحزنًا مما لقى من الشدة، وأسفًا على أنه لم يؤمن به أحد، قال:

«اللهم إليك أشكو ضَعْف قُوَّتِى، وقلة حيلتى، وهوانى على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربى، إلى من تَكِلُنى؟ إلى بعيد يَتَجَهَّمُنِى؟ أم إلى عدو ملكته أمرى؟ إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالى، ولكن عافيتك هى أوسع لى، أعوذ بنور وجهك

الذى أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك، أو يحل على سَخَطُك، لك العُتْبَى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك».

فلما رآه ابنا ربيعة تحركت له رحمهما، فدعوا غلامًا لهما نصرانيًا يقال له: عَدَّاس، وقالا له: خذ قطفًا من هذا العنب، واذهب به إلى هذا الرجل. فلما وضعه بين يدى رسول الله ﷺ مد يده إليه قائلًا: «**باسم الله**» ثم أكل.

فقال عداس: إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له رسول الله ﷺ: «**من أى البلاد أنت؟ وما دينك؟**» قال: أنا نصرانى من أهل نِينَوَى. فقال رسول الله ﷺ: «**من قرية الرجل الصالح يونس بن مَتَّى**». قال له: وما يدريك ما يونس ابن متى؟ قال رسول الله ﷺ: «**ذاك أخى، كان نبيًا وأنا نبى**»، فأكب عداس على رأس رسول الله ﷺ ويديه ورجليه يقبلها.

فقال ابنا ربيعة أحدهما للآخر: أما غلامك فقد أفسده عليك. فلما جاء عداس قالا له: ويحك ما هذا؟ قال: يا سيدى، ما فى الأرض شىء خير من هذا الرجل، لقد أخبرنى بأمر لا يعلمه إلا نبى، قالا له: ويحك يا عداس، لا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خير من دينه[(١)].

ورجع رسول الله ﷺ فى طريق مكة بعد خروجه من الحائط كئيبًا محزونًا كسير القلب، فلما بلغ قرن المنازل بعث الله إليه جبريل ومعه ملك الجبال، يستأمره أن يطبق الأخشبين على أهل مكة.

وقد روى البخارى تفصيل القصة - بسنده - عن عروة بن الزبير، أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حدثته أنها قالت للنبى ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد؟ قال: «**لقيت من قومكِ ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كُلَال، فلم يجبنى إلى ما أردت، فانطلقت - وأنا مهموم - على وجهى، فلم أستفق إلا وأنا بقَرْنِ الثعالب** - وهو المسمى بقَرْنِ المنازل - **فرفعت رأسى فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى، فنظرت فإذا فيها جبريل، فنادانى، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. فنادانى ملك الجبال، فسلم عليّ ثم قال: يا محمد، ذلك، فما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين** - أى: لفعلت، والأخشبان: هما جبلا مكة: أبو قُبَيْس والذى يقابله، وهو قُعَيْقِعَان - قال

---

(١) ملخصا من ابن هشام ١/ ٤١٩- ٤٢١..

النبى ﷺ: **«بل أرجو أن يخرج الله عز وجل من أصلابهم من يعبد الله عز وجل وحده لا يشرك به شيئا»**[(١)].

وفى هذا الجواب الذى أدلى به الرسول ﷺ تتجلى شخصيته الفذة، وما كان عليه من الخلق العظيم لا يدرك غوره.

وأفاق رسول الله ﷺ واطمأن قلبه لأجل هذا النصر الغيبى الذى أمده الله عليه من فوق سبع سموات، ثم تقدم فى طريق مكة حتى بلغ وادى نخلة، وأقام فيه أيامًا. وفى وادى نخلة موضعان يصلحان للإقامة - السَّيْل الكبير والزَّيْمَة - لما بهما من الماء والخصب، ولم نقف على مصدر يعين موضع إقامته ﷺ فيه.

وخلال إقامته ﷺ هناك بعث الله إليه نفرًا من الجن[(٢)] ذكرهم الله فى موضعين من القرآن: فى سورة الأحقاف: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الأحقاف].

وفى سورة الجن: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾﴾ إلى تمام الآية الخامسة عشر [الجن].

ومن سياق هذه الآيات - وكذا من سياق الروايات التى وردت فى تفسير هذا الحادث - يتبين أن النبى ﷺ لم يعلم حضور ذلك النفر من الجن حين حضروا وسمعوا، وإنما علم بعد ذلك حين أطلعه الله عليه بهذه الآيات، وأن حضورهم هذا كان لأول مرة، ويقتضى سياق الروايات أنهم وفدوا بعد ذلك مرارًا.

وحقًّا كان هذا الحادث نصرًا آخر أمده الله من كنوز غيبه المكنون بجنوده التى لا يعلمها إلا هو، ثم إن الآيات التى نزلت بصدد هذا الحادث كانت فى طيها بشارات بنجاح دعوة النبى ﷺ، وأن أى قوة من قوات الكون لا تستطيع أن تحول بينها وبين نجاحها: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأحقاف]، ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾﴾ [الجن].

---

(١) صحيح البخارى: كتاب بدء الخلق، ح (٣٢٣١، ٧٣٨٩)، فتح البارى ٦/ ٣٦٠، ومسلم: باب ما لقى النبى ﷺ من أذى المشركين والمنافقين ٢/ ١٠٩.

(٢) انظر: صحيح البخارى: كتاب الصلاة، باب الجهر بقراءة صلاة الفجر ١/ ١٩٥.

أمام هذه النصرة، وأمام هذه البشارات، أقشعت سحابة الكآبة والحزن واليأس التى كانت مطبقة عليه منذ أن خرج من الطائف مطرودًا مدحورًا، حتى صمم على العود إلى مكة، وعلى القيام باستئناف خطته الأولى فى عرض الإسلام وإبلاغ رسالة الله الخالدة بنشاط جديد وبجد وحماس.

وحينئذ قال له زيد بن حارثة: كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك؟ يعنى قريشًا، فقال: «**يا زيد، إن الله جاعل لما ترى فرجًا ومخرجًا، وإن الله ناصر دينه، ومظهر نبيه**». وسار رسول الله ﷺ حتى إذا دنا من مكة مكث بحِرَاء، وبعث رجلًا من خزاعة إلى الأخنس بن شَرِيق ليجيره، فقال: أنا حليف، والحليف لا يجير، فبعث إلى سهيل بن عمرو، فقال سهيل: إن بنى عامر لا تجير على بنى كعب، فبعث إلى المطعم بن عدى، فقال المطعم: نعم، ثم تسلح ودعا بنيه وقومه، فقال: البسوا السلاح، وكونوا عند أركان البيت، فإنى قد أجرت محمدًا، ثم بعث إلى رسول الله ﷺ: أن ادخل، فدخل رسول الله ﷺ ومعه زيد بن حارثة حتى انتهى إلى المسجد الحرام، فقام المطعم بن عدى على راحلته فنادى: يا معشر قريش، إنى قد أجرت محمدًا فلا يهجه أحد منكم، وانتهى رسول الله ﷺ إلى الركن فاستلمه، وطاف بالبيت، وصلى ركعتين، وانصرف إلى بيته، ومطعم بن عدى وولده محدقون به بالسلاح حتى دخل بيته.

وقيل: إن أبا جهل سأل مطعمًا: أمجير أنت أم متابع - مسلم-؟. قال: بل مجير. قال: قد أجرنا من أجرت.(١)

وقد حفظ رسول الله ﷺ للمطعم هذا الصنيع، فقال فى أسارى بدر: «**لو كان المطعم بن عدى حيًّا ثم كلمنى فى هؤلاء النتنى لتركتهم له**»(٢).

---

(١) ابن هشام ١/ ٣٨١ مختصرا، وزاد المعاد ٢/ ٤٦، ٤٧.

(٢) صحيح البخارى ٢/ ٥٧٣.

عرض الإسلام على القبائل والأفراد

فى ذى القعدة سنة عشر من النبوة – فى أواخر يونيو أو أوائل يوليو سنة ٦١٩ م – عاد رسول الله ﷺ إلى مكة؛ ليستأنف عرض الإسلام على القبائل والأفراد، ولاقتراب الموسم كان الناس يأتون إلى مكة رجالا، وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق لأداء فريضة الحج، وليشهدوا منافع لهم، ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات، فانتهز رسول الله ﷺ هذه الفرصة، فأتاهم قبيلة قبيلة يعرض عليهم الإسلام ويدعوهم إليه، كما كان يدعوهم منذ السنة الرابعة من النبوة، وقد بدأ يطلب منهم من هذه السنة – العاشرة – أن يؤووه وينصروه ويمنعوه حتى يبلغ ما بعثه الله به.

القبائل التى عرض عليها الإسلام:

قال الزهرى: وكان ممن يسمى لنا من القبائل الذين أتاهم رسول الله ﷺ، ودعاهم وعرض نفسه عليهم: بنو عامر بن صَعْصَعَة، ومُحَارِب بن خَصَفَة، وفزارة، وغسان، ومرة، وحنيفة، وسليم، وعَبْس، وبنو نصر، وبنو البَكَّاء، وكندة، وكلب، والحارث بن كعب، وعُذْرَة، والحضارمة، فلم يستجب منهم أحد[١].

وهذه القبائل -التى سماها الزهرى- لم يكن عرض الإسلام عليها فى سنة واحدة ولا فى موسم واحد، بل إنما كان ما بين السنة الرابعة من النبوة إلى آخر موسم قبل الهجرة. ولا يمكن تسمية سنة معينة لعرض الإسلام على قبيلة معينة، ولكن الأكثر كان فى السنة العاشرة.

أما كيفية عرض الإسلام على هذه القبائل، وكيف كانت ردودهم على هذا العرض، فقد ذكرها ابن إسحاق، ونلخصها فيما يلى:

١ – بنو كلب: أتى النبى ﷺ إلى بطن منهم يقال لهم: بنو عبد الله، فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه، حتى إنه ليقول لهم: «**يا بنى عبد الله، إن الله قد أحسن اسم أبيكم**»، فلم يقبلوا منه ما عرض عليهم.

٢ – بنو حنيفة: أتاهم فى منازلهم فدعاهم إلى الله، وعرض عليهم نفسه، فلم يكن أحد من العرب أقبح عليه ردًّا منهم.

---

(١) ابن سعد ١/ ٢١٦.

٣ - **وأتى إلى بنى عامر بن صعصعة:** فدعاهم إلى الله، وعرض عليهم نفسه، فقال بَيْحَرَة بن فِرَاس (رجل منهم): والله، لو أنى أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب، ثم قال: أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال: «**الأمر إلى الله، يضعه حيث يشاء**»، فقال له: أَفَتُهْدَفُ نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا، لا حاجة لنا بأمرك، فأبوا عليه.

ولما رجعت بنو عامر تحدثوا إلى شيخ لهم لم يواف الموسم لكبر سنه، وقالوا له: جاءنا فتى من قريش من بنى عبد المطلب يزعم أنه نبى، يدعونا إلى أن نمنعه ونقوم معه، ونخرج به إلى بلادنا، فوضع الشيخ يديه على رأسه ثم قال: يا بنى عامر وهل لها من تَلَافٍ؟ هل لِذُنَابَاها[١] من مَطْلَب؟ والذى نفس فلان بيده ما تَقَوَّلَها إسماعيلى قط، وإنها لحق، فأين رأيكم كان عنكم؟[٢].

المؤمنون من غير أهل مكة:

وكما عرض رسول الله ﷺ الإسلام على القبائل والوفود، عرض على الأفراد والأشخاص، وحصل من بعضهم على ردود صالحة، وآمن به عدة رجال بعد هذا الموسم بقليل، وهاك نبذة منهم:

١ - سويد بن الصامت:

كان شاعرًا لبيبًا، من سكان يثرب، يسميه قومه (الكامل) لجلده وشعره وشرفه ونسبه، جاء مكة حاجًّا أو معتمرًا، فدعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام، فقال: لعل الذى معك مثل الذى معى. فقال له رسول الله ﷺ: «**وما الذى معك؟**» قال: حكمة لقمان. قال: «**اعرضها عليَّ**». فعرضها، فقال له رسول الله ﷺ: «**إن هذا لكلام حسن، والذى معى أفضل من هذا؛ قرآن أنزله الله تعالى عليّ، هو هدى ونور**»، فتلا عليه رسول الله ﷺ القرآن، ودعاه إلى الإسلام، فأسلم، وقال: إن هذا لقول حسن. فلما قدم المدينة لم يلبث أن قتل فى وقعة بين الأوس والخزرج قبل يوم بعاث[٣]. والأغلب أنه أسلم فى أوائل السنة الحادية عشرة من النبوة.

---

(١) مثل يضرب لما فات، وأصله من ذنابى الطائر إذا أفلت من حباله، فطلبت الأخذ بذناباه.

(٢) ابن هشام ١/ ٤٢٤، ٤٢٥.

(٣) ابن هشام ١/ ٤٢٥- ٤٢٧، والاستيعاب ٢/ ٦٧٧، وأسد الغابة ٢/ ٣٣٧.

٢ - إياس بن معاذ:

كان غلامًا حدثا من سكان يثرب، قدم فى وفد من الأوس، جاءوا يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج، وذلك قبيل حرب بعاث فى أوائل سنة ١١ من النبوة؛ إذ كانت نيران العداوة متقدة فى يثرب بين القبيلتين - وكان الأوس أقل عددًا من الخزرج - فلما علم رسول الله ﷺ بمقدمهم جاءهم، فجلس إليهم، وقال لهم: «**هل لكم فى خير مما جئتم له؟**»، فقالوا: وما ذاك؟ قال: «**أنا رسول الله، بعثنى إلى العباد، أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئًا، وأنزل عليّ الكتاب**»، ثم ذكر لهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن. فقال إياس بن معاذ: أى قوم، هذا والله خير مما جئتم له، فأخذ أبو الحيسر أنس بن رافع - رجل من الوفد - حفنة من تراب البطحاء فرمى بها وجه إياس، وقال: دعنا فلعمرى لقد جئنا لغير هذا، فصمت إياس، وقام رسول الله ﷺ، وانصرفوا إلى المدينة من غير أن ينجحوا فى عقد حلف مع قريش.

وبعد رجوعهم إلى يثرب لم يلبث إياس أن هلك، وكان يهلل ويكبر ويحمد ويسبح عند موته، فلا يشكون أنه مات مسلمًا[١].

٣ - أبو ذر الغفارى:

وكان من سكان نواحى يثرب، ولعله لما بلغ إلى يثرب خبر مبعث النبى ﷺ بسويد بن الصامت وإياس بن معاذ، وقع فى أذن أبى ذر أيضًا، وصار سببًا لإسلامه.

روى البخارى عن ابن عباس قال: قال أبو ذر: كنت رجلًا من غفار، فبلغنا أن رجلًا قد خرج بمكة يزعم أنه نبى، فقلت لأخى: انطلق إلى هذا الرجل وكلمه، وائتنى بخبره، فانطلق فلقيه، ثم رجع، فقلت: ما عندك؟ فقال: والله، لقد رأيت رجلًا يأمر بالخير، وينهى عن الشر، فقلت له: لم تشفنى من الخبر، فأخذت جرابًا وعصا، ثم أقبلت إلى مكة، فجعلت لا أعرفه، وأكره أن أسأل عنه، وأشرب من ماء زمزم وأكون فى المسجد. قال: فمر بى عليّ. فقال: كأن الرجل غريب؟ قال: قلت: نعم. فقال: فانطلق إلى المنزل، فانطلقت معه لا يسألنى عن شىء ولا أسأله ولا أخبره. فلما أصبحت غدوت إلى المسجد لأسأل عنه، وليس أحد يخبرنى عنه بشيء. قال: فمر بى عليّ فقال: أما نال[٢] للرجل يعرف منزله بعد؟ قال: قلت: لا. قال: فانطلق معى، قال: فقال: ما أمرك؟ وما أقدمك هذه البلدة؟ قال: قلت له: إن كتمت عليّ

(١) ابن هشام ١/ ٤٢٧، ٤٢٨، ومسند أحمد ٥/ ٤٢٧.

(٢) حان.

أخبرتك، قال: فإنى أفعل، قال: قلت له: بلغنا أنه قد خرج هاهنا رجل يزعم أنه نبى الله، فأرسلت أخى يكلمه فرجع ولم يشفنى من الخبر، فأردت أن ألقاه.

فقال له: أما إنك قد رشدت. هذا وجهى إليه، ادخل حيث أدخل فإنى إن رأيت أحدًا أخافه عليك قمت إلى الحائط كأنى أصلح نعلى، وامض أنت. فمضى ومضيت معه حتى دخل، ودخلت معه على النبى ﷺ. فقلت له: اعرض عليّ الإسلام. فعرضه، فأسلمت مكانى، فقال لى: «**يا أبا ذر، اكتم هذا الأمر، وارجع إلى بلدك، فإذا بلغك ظهورنا فأقبل**». فقلت: والذى بعثك بالحق لأصرخن بها بين أظهرهم، فجئت إلى المسجد، وقريش فيه، فقلت: يا معشر قريش، إنى أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، فقالوا: قوموا إلى هذا الصابئ. فقاموا، فضربت لأموت، فأدركنى العباس فأكب عليّ، ثم أقبل عليهم فقال: ويلكم تقتلون رجلًا من غفار؟ ومتجركم وممركم على غفار، فأقلعوا عنى. فلما أن أصبحت الغد، رجعت، فقلت مثل ما قلت بالأمس. فقالوا: قوموا إلى هذا الصابئ، فصنع بى ما صنع بالأمس، فأدركنى العباس، فأكب عليّ وقال مثل مقالته بالأمس[(١)].

٤ - طُفَيْل بن عمرو الدَّوْسى:

كان رجلًا شريفًا، شاعرًا لبيبًا، رئيس قبيلة دوس، وكانت لقبيلته إمارة أو شبه إمارة فى بعض نواحى اليمن، قدم مكة فى عام ١١ من النبوة، فاستقبله أهلها قبل وصوله إليها، وبذلوا له أجل تحية وأكرم تقدير، وقالوا له: يا طفيل، إنك قدمت بلادنا، وهذا الرجل الذى بين أظهرنا قد أعضل بنا، وقد فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وإنما قوله كالسحر، يفرق بين الرجل وأبيه، وبين الرجل وأخيه، وبين الرجل وزوجه، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا، فلا تكلمه ولا تسمعن منه شيئًا.

يقول طفيل: فوالله ما زالوا بى حتى أجمعت ألا أسمع منه شيئًا، ولا أكلمه، حتى حشوت أذنى حين غدوت إلى المسجد كُرْسُفًا؛ فرقًا من أن يبلغنى شىء من قوله، قال: فغدوت إلى المسجد فإذا هو قائم يصلى عند الكعبة، فقمت قريبًا منه، فأبى الله إلا أن يسمعنى بعض قوله، فسمعت كلامًا حسنًا، فقلت فى نفسى: واثكل أمى، والله إنى رجل لبيب شاعر؛ ما يخفى عليّ الحسن من القبيح، فما يمنعنى أن أسمع من هذا الرجل ما يقول؟ فإن كان حسنًا قبلته، وإن كان قبيحًا تركته، فمكثت حتى انصرف إلى بيته فاتبعته، حتى

---

(١) صحيح البخارى: باب قصة زمزم ١/ ٤٩٩، ٥٠٠، وباب إسلام أبى ذر ١/ ٥٤٤، ٥٤٥.

إذا دخل بيته دخلت عليه، فعرضت عليه قصة مقدمى، وتخويف الناس إياى، وسد الأذن بالكرسف، ثم سماع بعض كلامه، وقلت له: اعرض عليّ أمرك، فعرض عليّ الإسلام، وتلا عليّ القرآن. فوالله ما سمعت قولًا قط أحسن منه، ولا أمرًا أعدل منه، فأسلمت وشهدت شهادة الحق، وقلت له: إنى مطاع فى قومى، وراجع إليهم، وداعيهم إلى الإسلام، فادع الله أن يجعل لى آية، فدعا.

وكانت آيته أنه لما دنا من قومه جعل الله نورًا فى وجهه مثل المصباح، فقال: اللهم فى غير وجهى. أخشى أن يقولوا: هذه مثلة، فتحول النور إلى سوطه، فدعا أباه وزوجته إلى الإسلام فأسلما، وأبطأ عليه قومه فى الإسلام، لكن لم يزل بهم حتى هاجر بعد الخندق[١]، ومعه سبعون أو ثمانون بيتًا من قومه، وقد أبلى فى الإسلام بلاء حسنًا، وقتل شهيدًا يوم اليمامة[٢].

٥ - ضِمَاد الأزدى:

كان من أَزْدِ شَنُوءَة من اليمن، وكان يرقى من هذا الريح، قدم مكة فسمع سفهاءها يقولون: إن محمدًا مجنون، فقال: لو أنى أتيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدى، فلقيه، فقال: يا محمد، إنى أرقى من هذا الريح، فهل لك؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إن الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلله فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله. أما بعد**».

فقال: أعد عليّ كلماتك هؤلاء، فأعادهن عليه رسول الله ﷺ ثلاث مرات، فقال: لقد سمعت قول الكهنة، وقول السحرة، وقول الشعراء، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء، ولقد بلغن قاموس[٣] البحر، هات يدك أبايعك على الإسلام، فبايعه[٤].

ست نسمات طيبة من أهل يثرب:

وفى موسم الحج من سنة ١١ من النبوة - يوليو سنة ٦٢٠م - وجدت الدعوة الإسلامية بذورًا صالحة، سرعان ما تحولت إلى شجرات باسقات، اتقى المسلمون فى ظلالها الوارفة لفحات الظلم والعدوان حتى تغير مجرى الأحداث، وتحول خط التاريخ.

وكان من حكمته ﷺ إزاء ما كان يلقى من أهل مكة من التكذيب والصد عن سبيل

---

(١) بل وبعد الحديبية، فقد قدم المدينة ورسول الله ﷺ بخيبر. انظر: ابن هشام ١/ ٣٨٥.

(٢) ابن هشام ١/ ٣٨٢- ٣٨٥.

(٣) أبعد موضع فيه غورا.

(٤) رواه مسلم: كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، ح ٤٦ (٨٦٨).

الله، أنه كان يخرج إلى القبائل فى ظلام الليل، حتى لا يحول بينه وبينهم أحد من أهل مكة المشركين.

فخرج ليلة ومعه أبو بكر وعلى، فمر على منازل ذُهْل وشيبان بن ثعلبة، وكلمهم فى الإسلام. وقد دارت بين أبى بكر وبين رجل من ذهل أسئلة وردود طريفة، وأجاب بنو شيبان بأرجى الأجوبة، غير أنهم توقفوا فى قبول الإسلام(١).

ثم مر رسول الله ﷺ بعقبة منى، فسمع أصوات رجال يتكلمون فعمدهم حتى لحقهم، وكانوا ستة نفر من شباب يثرب كلهم من الخزرج، وهم:

١ - أسعد بن زُرَارة (من بنى النجار).

٢ - عوف بن الحارث بن رفاعة ابن عَفْراء (من بنى النجار).

٣ - رافع بن مالك بن العَجْلان (من بنى زُرَيْق).

٤ - قُطْبَة بن عامر بن حديدة (من بنى سلمة).

٥ - عُقْبَة بن عامر بن نابى (من بنى حَرَام بن كعب).

٦ - جابر بن عبد الله بن رِئاب (من بنى عبيد بن غَنْم).

وكان من سعادة أهل يثرب أنهم كانوا يسمعون من حلفائهم من يهود المدينة، إذا كان بينهم شيء، أن نبيًّا من الأنبياء مبعوث فى هذا الزمان سيخرج، فنتبعه، ونقتلكم معه قتل عاد وإرم(٢).

فلما لحقهم رسول الله ﷺ قال لهم: «**من أنتم؟**» قالوا: نفر من الخزرج، قال: «**من موالى اليهود؟**» أى: حلفائهم، قالوا: نعم. قال: «**أفلا تجلسون أكلمكم؟**» قالوا: بلى، فجلسوا معه، فشرح لهم حقيقة الإسلام ودعوته، ودعاهم إلى الله عز وجل، وتلا عليهم القرآن. فقال بعضهم لبعض: تعلمون والله يا قوم، إنه للنبى الذى توعدكم به يهود، فلا تسبقنكم إليه، فأسرعوا إلى إجابة دعوته، وأسلموا.

وكانوا من عقلاء يثرب، أنهكتهم الحرب الأهلية التى مضت قريبًا، والتى لا يزال لهيبها مستعرًا، فأملوا أن تكون دعوته سببًا لوضع الحرب، فقالوا: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم،

---

(١) انظر: مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى، ص ١٥٠ - ١٥٢.

(٢) زاد المعاد ٢/ ٥٠، وابن هشام ١/ ٤٢٩، ٥٤١.

فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك.

ولما رجع هؤلاء إلى المدينة حملوا إليها رسالة الإسلام، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيه ذكر رسول الله ﷺ[١].

استطراد - زواج رسول الله ﷺ بعائشة:

وفى شوال من هذه السنة - سنة ١١ من النبوة - تزوج رسول الله ﷺ عائشة الصديقة رضي الله عنها وهى بنت ست سنين، وبنى بها بالمدينة فى شوال فى السنة الأولى من الهجرة وهى بنت تسع سنين[٢].

---

(١) ابن هشام ١/ ٤٢٨- ٤٣٠.

(٢) تلقيح فهوم أهل الأثر، ص ١٠، وصحيح البخارى ١/ ٥٥١.

الإسراء والمعراج

وبينما النبى ﷺ يمر بهذه المرحلة، وأخذت الدعوة تشق طريقًا بين النجاح والاضطهاد، وبدأت نجوم الأمل تتلمح فى آفاق بعيدة- وقع حادث الإسراء والمعراج.

واختلف فى تعيين زمنه على أقوال شتى:

١ - فقيل: كان الإسراء فى السنة التى أكرمه الله فيها بالنبوة، واختاره الطبرى.

٢ - وقيل: كان بعد المبعث بخمس سنين، رجح ذلك النووى والقرطبى.

٣ - وقيل: كان ليلة السابع والعشرين من شهر رجب سنة ١٠ من النبوة.

٤ - وقيل: قبل الهجرة بستة عشر شهرًا، أى فى رمضان سنة ١٢ من النبوة.

٥ - وقيل: قبل الهجرة بسنة وشهرين، أى فى المحرم سنة ١٣ من النبوة.

٦ - وقيل: قبل الهجرة بسنة، أى فى ربيع الأول سنة ١٣ من النبوة.

وَرُدَّتِ الأقوالُ الثلاثة الأول بأن خديجة رضي الله عنها توفيت فى رمضان سنة عشر من النبوة، وكانت وفاتها قبل أن تفرض الصلوات الخمس. ولا خلاف أن فرض الصلوات الخمس كان ليلة الإسراء. أما الأقوال الثلاثة الباقية فلم أجد ما أرجح به واحدًا منها، غير أن سياق سورة الإسراء يدل على أن الإسراء متأخر جدًّا.

وروى أئمة الحديث تفاصيل هذه الوقعة، وفيما يلى نسردها بإيجاز:

قال ابن القيم: أسرى برسول الله ﷺ بجسده على الصحيح من المسجد الحرام إلى بيت المقدس، راكبًا على البُرَاق، صحبة جبريل -عليهما الصلاة والسلام- فنزل هناك، وصلى بالأنبياء إمامًا، وربط البراق بحلقة باب المسجد.

ثم عرج به تلك الليلة من بيت المقدس إلى السماء الدنيا، فاستفتح له جبريل ففتح له، فرأى هنالك آدم أبا البشر، فسلم عليه، فرحب به ورد عليه السلام، وأقر بنبوته، وأراه الله أرواح السعداء عن يمينه، وأرواح الأشقياء عن يساره.

ثم عرج به إلى السماء الثانية، فاستفتح له، فرأى فيها يحيى بن زكريا وعيسى ابن مريم، فلقيهما وسلم عليهما، فردا عليه ورحبا به، وأقرّا بنبوته.

ثم عرج به إلى السماء الثالثة، فرأى فيها يوسف، فسلم عليه فرد عليه ورحب به، وأقر بنبوته.

ثم عرج به إلى السماء الرابعة، فرأى فيها إدريس، فسلم عليه، فرد عليه، ورحب به، وأقر بنبوته.

ثم عرج به إلى السماء الخامسة، فرأى فيها هارون بن عمران، فسلم عليه، فرد عليه ورحب به، وأقر بنبوته.

ثم عرج به إلى السماء السادسة، فلقى فيها موسى بن عمران، فسلم عليه، فرد عليه ورحب به، وأقر بنبوته.

فلما جاوزه بكى موسى، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: أبكى؛ لأن غلامًا بعث من بعدى يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتى.

ثم عرج به إلى السماء السابعة، فلقى فيها إبراهيم عليه السلام، فسلم عليه، فرد عليه، ورحب به، وأقر بنبوته.

ثم رفع إلى سدرة المنتهى، فإذا نَبْقُها مثل قِلاَل هَجَر، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة، ثم غشيها فراش من ذهب، ونور وألوان، فتغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن يصفها من حسنها. ثم رفع له البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون. ثم أدخل الجنة، فإذا فيها حبائل اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك. وعرج به حتى ظهر لمستوى يسمع فيه صَرِيف الأقلام.

ثم عرج به إلى الجبّار جل جلاله، فدنا منه حتى كان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إلى عبده ما أوحى، وفرض عليه خمسين صلاة، فرجع حتى مرّ على موسى فقال له: بم أمرك ربك؟ قال: «**بخمسين صلاة**». قال: إن أمتك لا تطيق ذلك، ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فالتفت إلى جبريل، كأنه يستشيره فى ذلك، فأشار: أن نعم إن شئت، فعلا به جبريل حتى أتى به الجبار تبارك وتعالى، وهو فى مكانه - هذا لفظ البخارى فى بعض الطرق - فوضع عنه عشرًا، ثم أنزل حتى مر بموسى، فأخبره، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فلم يزل يتردد بين موسى وبين الله عز وجل، حتى جعلها خمسًا، فأمره موسى بالرجوع وسؤال التخفيف، فقال: «**قد استحييت من ربى، ولكنى أرضى وأسلم**»، فلما بعد نادى مناد: قد أمضيت فريضتى، وخففت عن عبادى. انتهى[(١)].

ثم ذكر ابن القيم خلافًا فى رؤيته ﷺ ربه تبارك وتعالى، ثم ذكر كلامًا لابن تيمية بهذا الصدد، وحاصل البحث أن الرؤية بالعين لم تثبت أصلًا، وهو قول لم يقله أحد من الصحابة.

---

(١) زاد المعاد ٢/ ٤٧، ٤٨، مع زيادات ثبتت فى الروايات الصحيحة.

وما نقل عن ابن عباس من رؤيته مطلقًا ورؤيته بالفؤاد، فالأول لا ينافى الثانى.

ثم قال: وأما قوله تعالى فى سورة النجم: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ ﴾ [النجم] فهو غير الدنو الذى فى قصة الإسراء، فإن الذى فى سورة النجم هو دنو جبريل وتدليه، كما قالت عائشة وابن مسعود، والسياق يدل عليه، وأما الدنو والتدلى فى حديث الإسراء فذلك صريح فى أنه دنو الرب تبارك وتعالى وتدليه، ولا تعرض فى سورة النجم لذلك، بل فيه أنه رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى. وهذا هو جبريل، رآه محمد ﷺ على صورته مرتين: مرة فى الأرض، ومرة عند سدرة المنتهى، والله أعلم. انتهى[(١)].

وقد جاء فى بعض الطرق أن صدره ﷺ شق فى هذه المرة أيضًا، وقد رأى النبى ﷺ فى هذه الرحلة أمورًا عديدة:

- عرض عليه اللبن والخمر، فاختار اللبن، فقيل: هديت الفطرة أو أصبت الفطرة، أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك.

- ورأى أربعة أنهار يخرجن من أصل سدرة المنتهى: نهران ظاهران ونهران باطنان، فالظاهران هما: النيل والفرات، عنصرهما. والباطنان: نهران فى الجنة. ولعل رؤية النيل والفرات كانت إشارة إلى تمكن الإسلام من هذين القطرين، والله أعلم.

- ورأى مالكًا خازن النار، وهو لا يضحك، وليس على وجهه بشر ولا بشاشة، وكذلك رأى الجنة والنار.

- ورأى أكلة أموال اليتامى ظلمًا لهم مشافر كمشافر الإبل، يقذفون فى أفواههم قطعًا من نار كالأفهار، فتخرج من أدبارهم.

- ورأى أكلة الربا لهم بطون كبيرة لا يقدرون لأجلها أن يتحولوا عن أماكنهم، ويمر بهم آل فرعون حين يعرضون على النار فيطأونهم.

- ورأى الزناة بين أيديهم لحم سمين طيب، إلى جنبه لحم غث منتن، يأكلون من الغث المنتن، ويتركون الطيب السمين.

- ورأى النساء اللاتى يدخلن على الرجال من ليس من أولادهم، رآهن معلقات بثديهن.

---

(١) زاد المعاد ٢/ ٤٧، ٤٨، وانظر: صحيح البخارى ١/ ٥٠، ٤٥٥، ٤٥٦، ٤٧٠،، ٤٧١، ٤٨١، ٥٤٨- ٥٥٠، ٢/ ٦٨٤، وصحيح مسلم ١/ ٩١- ٩٦.

- ورأى عيرًا من أهل مكة فى الإياب والذهاب، وقد دلهم على بعير نَدَّ لهم، وشرب ماءهم من إناء مغطى وهم نائمون، ثم ترك الإناء مغطى، وقد صار ذلك دليلًا على صدق دعواه فى صباح ليلة الإسراء[١].

قال ابن القيم: فلما أصبح رسول الله ﷺ فى قومه أخبرهم بما أراه الله عز وجل من آياته الكبرى، فاشتد تكذيبهم له وأذاهم واستضرارهم عليه، وسألوه أن يصف لهم بيت المقدس، فجلاه الله له، حتى عاينه، فطفق يخبرهم عن آياته، ولا يستطيعون أن يردوا عليه شيئًا، وأخبرهم عن عيرهم فى مسراه ورجوعه، وأخبرهم عن وقت قدومها، وأخبرهم عن البعير الذى يقدمها، وكان الأمر كما قال، فلم يزدهم ذلك إلا نفورًا، وأبى الظالمون إلا كفورًا[٢].

يقال: سُمى أبو بكر رضي الله عنه صديقًا؛ لتصديقه هذه الوقعة حين كذبها الناس[٣].

وأوجز وأعظم ما ورد فى تعليل هذه الرحلة هو قوله تعالى: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ [الإسراء:١] وهذه سنة الله فى الأنبياء، قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنعام]،وقال لموسى عليه السلام: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾﴾ [طه]، وقد بين مقصود هذه الإراءة بقوله: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾، فبعد استناد علوم الأنبياء إلى رؤية الآيات يحصل لهم من عين اليقين ما لا يقادر قدره، وليس الخبر كالمعاينة، فيتحملون فى سبيل الله ما لا يتحمل غيرهم، وتصير جميع قوات الدنيا عندهم كجناح بعوضة لا يعبأون بها إذا ما تدول عليهم بالمحن والعذاب.

والحكم والأسرار التى تكمن وراء جزئيات هذه الرحلة إنما محل بحثها كتب أسرار الشريعة، ولكن هنا حقائق بسيطة تتفجر من ينابيع هذه الرحلة المباركة، وتتدفق إلى حدائق أزهار السيرة النبوية - على صاحبها الصلاة والسلام والتحية - أرى أن أسجل بعضًا منها بالإيجاز:

يرى القارئ فى سورة الإسراء أن الله ذكر قصة الإسراء فى آية واحدة فقط، ثم أخذ فى ذكر فضائح اليهود وجرائمهم، ثم نبههم بأن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم، فربما

---

(١) المصادر السابقة، وابن هشام ١/ ٣٩٧، ٤٠٢- ٤٠٦.

(٢) زاد المعاد ١/٤٨، وأنظر أيضًا: صحيح البخارى ٢/ ٦٨٤، وصحيح ١/ ٩٦، وابن هشام ١/ ٤٠٢،٤٠٣.

(٣) ابن هشام ١/ ٣٩٩.

يظن القارئ أن الآيتين ليس بينهما ارتباط، والأمر ليس كذلك، فإن الله تعالى يشير بهذا الأسلوب إلى أن الإسراء إنما وقع إلى بيت المقدس؛ لأن اليهود سيعزلون عن منصب قيادة الأمة الإنسانية؛ لما ارتكبوا من الجرائم التى لا مجال بعدها لبقائهم على هذا المنصب، وإن الله سينقل هذا المنصب فعلا إلى رسوله ﷺ، ويجمع له مركزى الدعوة الإبراهيمية كليهما، فقد آن أوان انتقال القيادة الروحية من أمة إلى أمة؛ من أمة ملأت تاريخها بالغدر والخيانة والإثم والعدوان، إلى أمة تتدفق بالبر والخيرات، ولا يزال رسولها يتمتع بوحى القرآن الذى يهدى للتى هى أقوم.

ولكن كيف تنتقل هذه القيادة، والرسول يطوف فى جبال مكة مطرودًا بين الناس؟ هذا السؤال يكشف الغطاء عن حقيقة أخرى، وهى أن عهدًا من هذه الدعوة الإسلامية قد أوشك إلى النهاية والتمام، وسيبدأ عهد آخر جديد يختلف عن الأول فى مجراه، ولذلك نرى بعض الآيات تشتمل على إنذار سافر ووعيد شديد بالنسبة إلى المشركين ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾ [الإسراء] وبجنب هذه الآيات آيات أخرى تبين للمسلمين قواعد الحضارة وبنودها ومبادئها التى يبتنى عليها مجتمعهم الإسلامى، كأنهم قد أووا إلى أرض وامتلكوا فيها أمورهم من جميع النواحى، وكونوا وحدة متماسكة تدور عليها رحى المجتمع، ففيه إشارة إلى أن الرسول ﷺ سيجد ملجأ ومأمنًا يستقر فيه أمره، ويصير مركزًا لبث دعوته فى أرجاء الدنيا. هذا سر من أسرار هذه الرحلة المباركة، يتصل ببحثنا فآثرنا ذكره.

ولأجل هذه الحكمة وأمثالها نرى أن الإسراء إنما وقع إما قبيل بيعة العقبة الأولى أو بين العقبتين، والله أعلم.

بيعة العقبة الأولى

قد ذكرنا أن ستة نفر من أهل يثرب أسلموا فى موسم الحج سنة ١١ من النبوة، ووعدوا رسول الله ﷺ بإبلاغ رسالته فى قومهم.

وكان من جراء ذلك أن جاء فى الموسم التالى – موسم الحج سنة ١٢ من النبوة، يوليو سنة ٦٢١م – اثنا عشر رجلًا، فيهم خمسة من الستة الذين كانوا قد التقوا برسول الله ﷺ فى العام السابق – والسادس الذى لم يحضر هو جابر بن عبد الله بن رِئاب – وسبعة سواهم، وهم:

١ – معاذ بن الحارث، ابن عفراء، من بنى النجار (من الخزرج).

٢ – ذَكْوَان بن عبد القيس، من بنى زُرَيْق. (من الخزرج).

٣ – عبادة بن الصامت، من بنى غَنْم (من الخزرج).

٤ – يزيد بن ثعلبة، من حلفاء بنى غنم (من الخزرج).

٥ – العباس بن عُبَادة بن نَضْلَة، من بنى سالم (من الخزرج).

٦ – أبو الهَيْثَم بن التَّيِّهان، من بنى عبد الأشهل (من الأوس).

٧ – عُوَيْم بن ساعدة، من بنى عمرو بن عَوْف (من الأوس).

الأخيران من الأوس، والبقية كلهم من الخزرج[١].

التقى هؤلاء برسول الله ﷺ عند العقبة بمنى فبايعوه بيعة النساء، أى وفق بيعتهن التى نزلت بعد الحديبية.

روى البخارى عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: «**تعالوا بايعونى على ألا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصونى فى معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب به فى الدنيا، فهو له كفارة، ومن أصاب من ذلك شيئًا فستره الله، فأمره إلى الله؛ إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه**». قال: فبايعته – وفى نسخة: فبايعناه – على

---

(١) ابن هشام ١/ ٤٣١- ٤٣٣.

ذلك[(١)].

سفير الإسلام فى المدينة:

وبعد أن تمت البيعة وانتهى الموسم، بعث النبى ﷺ مع هؤلاء المبايعين أول سفير فى يثرب؛ ليعلم المسلمين فيها شرائع الإسلام، ويفقههم فى الدين، وليقوم بنشر الإسلام بين الذين لم يزالوا على الشرك، واختار لهذه السفارة شابًّا من شباب الإسلام من السابقين الأولين، وهو مُصْعَب بن عُمَيْر العبدرى رضي الله عنه.

النجاح المغتبط:

نزل مصعب بن عمير على أسعد بن زُرَارة، وأخذا يبثان الإسلام فى أهل يثرب بجد وحماس، وكان مصعب يُعْرَف بالمقرئ.

ومن أروع ما يروى من نجاحه فى الدعوة أن أسعد بن زرارة خرج به يومًا يريد دار بنى عبد الأشهل ودار بنى ظَفَر، فدخلا فى حائط من حوائط بنى ظفر، وجلسا على بئر يقال لها: بئر مَرَق، واجتمع إليهما رجال من المسلمين - وسعد بن معاذ وأُسَيْد بن حُضَيْر سيدا قومهما من بنى عبد الأشهل يومئذ على الشرك - فلما سمعا بذلك قال سعد لأسيد: اذهب إلى هذين اللذين قد أتيا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما، وانههما عن أن يأتيا دارينا، فإن أسعد ابن زرارة ابن خالتى، ولولا ذلك لكفيتك هذا.

فأخذ أسيد حربته وأقبل إليهما، فلما رآه أسعد قال لمصعب: هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه، قال مصعب: إن يجلس أكلمه. وجاء أسيد فوقف عليهما متشتمًا، وقال: ما جاء بكما إلينا؟ تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة، فقال له مصعب: أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمرا قبلته، وإن كرهته كف عنك ما تكره، فقال: أنصفت، ثم ركز حربته وجلس، فكلمه مصعب بالإسلام، وتلا عليه القرآن. قال: فو الله لعرفنا فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلم، فى إشراقه وتهلله، ثم قال: ما أحسن هذا وأجمله؟ كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا فى هذا الدين؟

قالا له: تغتسل، وتطهر ثوبك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلى ركعتين. فقام واغتسل، وطهر ثوبه وتشهد وصلى ركعتين، ثم قال: إن ورائى رجلًا إن تبعكما لم يتخلف

---

(١) صحيح البخارى: باب علامة الإيمان حب الأنصار ١/ ٧، باب وفود الأنصار ١/ ٥٥٠، ٥٥١، واللفظ من هذا الباب، وباب قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ﴾ ٢/ ٧٢٧، باب الحدود كفارة ٢/ ١٠٠٣.

عنه أحد من قومه، وسأرشده إليكما الآن - سعد بن معاذ - ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد فى قومه، وهم جلوس فى ناديهم. فقال سعد: أحلف بالله لقد جاءكم بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم.

فلما وقف أسيد على النادى قال له سعد: ما فعلت؟ فقال: كلمت الرجلين، فوالله ما رأيت بهما بأسًا، وقد نهيتهما فقالا: نفعل ما أحببت.

وقد حدثت أن بنى حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه - وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك - لِيُخْفِرُوك. فقام سعد مغضبًا للذى ذكر له، فأخذ حربته، وخرج إليهما، فلما رآهما مطمئنين عرف أن أسيدًا إنما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشتمًا، ثم قال لأسعد بن زرارة: والله يا أبا أمامة، لولا ما بينى وبينك من القرابة ما رُمْتَ هذا منى، تغشانا فى دارنا بما نكره؟

وقد كان أسعد قال لمصعب: جاءك والله سيد من ورائه قومه، إن يتبعك لم يتخلف عنك منهم أحد، فقال مصعب لسعد بن معاذ: أو تقعد فتسمع؟ فإن رضيت أمرًا قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره، قال: قد أنصفت، ثم ركز حربته فجلس. فعرض عليه الإسلام، وقرأ عليه القرآن، قال: فعرفنا والله فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلم، فى إشراقه وتهلّله، ثم قال: كيف تصنعون إذا أسلمتم؟ قالا: تغتسل، وتطهر ثوبك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلى ركعتين. ففعل ذلك.

ثم أخذ حربته فأقبل إلى نادى قومه، فلما رأوه قالوا: نحلف بالله لقد رجع بغير الوجه الذى ذهب به.

فلما وقف عليهم قال: يا بنى عبد الأشهل، كيف تعلمون أمرى فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأيًا، وأيمننا نقيبة، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم علىّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله. فما أمسى فيهم رجل ولا امرأة إلا مسلمًا ومسلمة، إلا رجل واحد - وهو الأُصَيْرِم - تأخر إسلامه إلى يوم أحد، فأسلم ذلك اليوم وقاتل وقتل، ولم يسجد لله سجدة، فقال النبى ﷺ: «**عمل قليلًا وأجر كثيرًا**».

وأقام مصعب فى بيت أسعد بن زرارة يدعو الناس إلى الإسلام، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون، إلا ما كان من دار بنى أمية بن زيد وخَطْمَة ووائل. كان فيهم قيس بن الأسلت الشاعر - وكانوا يطيعونه - فوقف بهم عن الإسلام حتى كان عام الخندق سنة خمس من الهجرة.

وقبل حلول موسم الحج التالى - أى حج السنة الثالثة عشرة - عاد مصعب بن عمير إلى مكة يحمل إلى رسول الله ﷺ بشائر الفوز، ويقص عليه خبر قبائل يثرب، وما فيها من مواهب الخير، وما لها من قوة ومنعة[١].

(١) ابن هشام ١/ ٤٣٥- ٤٣٨ و ٢/ ٩٠، وزاد المعاد ٢/ ٥١.

بيعة العقبة الثانية

فى موسم الحج فى السنة الثالثة عشرة من النبوة - يونيو سنة ٦٢٢م - حضر لأداء مناسك الحج بضع وسبعون نفسًا من المسلمين من أهل يثرب،جاءوا ضمن حجاج قومهم من المشركين، وقد تساءل هؤلاء المسلمون فيما بينهم - وهم لم يزالوا فى يثرب أو كانوا فى الطريق: حتى متى نترك رسول الله ﷺ يطوف ويطرد فى جبال مكة ويخاف؟

فلما قدموا مكة جرت بينهم وبين النبى ﷺ اتصالات سرية أدت إلى اتفاق الفريقين على أن يجتمعوا فى أوسط أيام التشريق فى الشعب الذى عند العقبة حيث الجمرة الأولى من منى، وأن يتم الاجتماع فى سرية تامة فى ظلام الليل.

ولنترك أحد قادة الأنصار يصف لنا هذا الاجتماع التاريخى الذى حول مجرى الأيام فى صراع الوثنية والإسلام. يقول كعب بن مالك الأنصارى رضي الله عنه:

خرجنا إلى الحج، وواعدنا رسول الله ﷺ بالعقبة من أوسط أيام التشريق، فلما فرغنا من الحج، وكانت الليلة التى واعدنا رسول الله ﷺ لها، ومعنا عبد الله بن عمرو بن حَرَام أبو جابر، سيد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا، أخذناه معنا - وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا - فكلمناه وقلنا له: يا أبا جابر، إنك سيد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطبا للنار غدًا. ثم دعوناه إلى الإسلام، وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ إيانا العقبة، قال: فأسلم وشهد معنا العقبة وكان نقيبًا.

قال كعب: فنمنا تلك الليلة مع قومنا فى رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ، نتسلل تسلل القَطَا، مستخفين، حتى اجتمعنا فى الشِّعْب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلًا، وامرأتان من نسائنا؛ نُسَيْبَة بنت كعب - أم عُمَارة - من بنى مازن بن النجار،وأسماء بنت عمرو - أم منيع - من بنى سلمة.

فاجتمعنا فى الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا، ومعه عمه: العباس بن عبد المطلب - وهو يومئذ على دين قومه - إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه، ويتوثق له، وكان أول متكلم(١).

---

(١) ابن هشام ١/ ٤٤٠،٤٤١.

بداية المحادثة وتشريح العباس لخطورة المسئولية:

وبعد أن تكامل المجلس بدأت المحادثات لإبرام التحالف الدينى والعسكرى، وكان أول المتكلمين هو العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ، تكلم ليشرح لهم - بكل صراحة - خطورة المسئولية التى ستلقى على كواهلهم نتيجة هذا التحالف. قال:

يا معشر الخزرج - وكان العرب يسمون الأنصار خزرجًا، خزرجها وأوسها كليهما - إن محمدًا منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو فى عز من قومه ومنعة فى بلده. وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك. وإن كنتم ترون أنكم مُسْلِمُوه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه. فإنه فى عز ومنعة من قومه وبلده.

قال كعب: فقلنا له: قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت(١).

وهذا الجواب يدل على ما كانوا عليه من عزم صميم، وشجاعة مؤمنة، وإخلاص كامل فى تحمل هذه المسئولية العظيمة، وتحمل عواقبها الخطيرة.

وألقى رسول الله ﷺ بعد ذلك بيانه، ثم تمت البيعة.

بنود البيعة:

وقد روى ذلك الإمام أحمد عن جابر مفصلًا. قال جابر: قلنا: يا رسول الله، علام نبايعك؟ قال:

«على السمع والطاعة فى النشاط والكسل.

وعلى النفقة فى العسر واليسر.

وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وعلى أن تقوموا فى الله، لا تأخذكم فى الله لومة لائم.

وعلى أن تنصرونى إذا قدمت إليكم، وتمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة»(٢).

---

(١) ابن هشام ١/ ٤٤١، ٤٤٢.

(٢) رواه الإمام أحمد بإسناد حسن ٣/ ٣٢٢، والبيهقى فى السنن الكبرى ٩/ ٩، وصححه الحاكم وابن حبان، وروى ابن إسحاق ما يشبه هذا عن عبادة بن الصامت، وفيه بند زائد، وهو: « ألا ننازع الأمر أهله». انظر: ابن هشام ١/ ٤٥٤.

وفى رواية كعب - التى رواها ابن إسحاق - البند الأخير فقط من هذه البنود، ففيه: قال كعب: فتكلم رسول الله ﷺ، فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغب فى الإسلام، ثم قال: «**أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نسائكم وأبناءكم**». فأخذ البراء بن مَعْرُور بيده ثم قال: نعم، والذى بعثك بالحق نبيًا، لنمنعنك مما نمنع أُزُرَنا منه، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحرب وأهل الْحَلْقَة، ورثناها كابرًا عن كابر.

قال: فاعترض القول - والبراء يكلم رسول الله ﷺ - أبو الهيثم بن التَّيِّهَان، فقال: يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبالًا، وإنا قاطعوها - يعنى اليهود - فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله إن ترجع إلى قومك وتدعنا؟

قال: فتبسم رسول الله ﷺ، ثم قال: «**بل الدَّمُ الدَّمُ، والهَدْمُ الْهَدْمُ، أنا منكم وأنتم منى، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم**»[(١)].

التأكيد من خطورة البيعة:

وبعد أن تمت المحادثة حول شروط البيعة، وأجمعوا على الشروع فى عقدها، قام رجلان من الرعيل الأول ممن أسلموا فى مواسم سنتى ١١ و ١٢ من النبوة، قام أحدهما تلو الآخر؛ ليؤكدا للقوم خطورة المسئولية، حتى لا يبايعوه إلا على جلية من الأمر، وليعرفا مدى استعداد القوم للتضحية، ويتأكدا من ذلك.

قال ابن إسحاق: لما اجتمعوا للبيعة قال العباس بن عبادة بن نَضْلَة: هل تدورن علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم، قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس. فإن كنتم ترون أنكم إذا نَهِكَتْ أموالكم مصيبة، وأشرافكم قتلا أسلمتموه، فمن الآن، فهو والله إن فعلتم خزى الدنيا والآخرة. وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نَهْكَة الأموال وقتل الأشراف فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة.

قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا بذلك؟ قال: «**الجنة**». قالوا: ابسط يدك، فبسط يده، فبايعوه[(٢)].

وفى رواية جابر (قال): فقمنا نبايعه،فأخذ بيده أسعد بن زرارة - وهو أصغر السبعين - فقال: رويدا يا أهل يثرب، إنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، وأن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة، وقتل خياركم، وأن تعضكم السيوف، فإما أنتم

---

(١) ابن هشام ١/ ٤٤٢. وأزرنا: جمع إزار، كناية عن المرأة وعن النفس.

(٢) ابن هشام ١/ ٤٤٦.

تصبرون على ذلك فخذوه، وأجركم على الله، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه فهو أعذر لكم عند الله[١].

عقد البيعة:

وبعد إقرار بنود البيعة، وبعد هذا التأكيد والتأكد، بدأ عقد البيعة بالمصافحة، قال جابر - بعد أن حكى قول أسعد بن زرارة - قال: فقالوا: يا أسعد، أَمِطْ عنا يدك. فوالله لا نذر هذه البيعة، ولا نستقيلها[٢].

وحينئذ عرف أسعد مدى استعداد القوم للتضحية فى هذا السبيل وتأكد منه - وكان هو الداعية الكبير مع مصعب بن عمير - فكان هو السابق إلى هذه البيعة. قال ابن إسحاق: فبنو النجار يزعمون أن أبا أمامة أسعد بن زرارة كان أول من ضرب على يده[٣]. وبعد ذلك بدأت البيعة العامة، قال جابر: فقمنا إليه رجلًا رجلًا فأخذ علينا البيعة، يعطينا بذلك الجنة[٤].

وأما بيعة المرأتين اللتين شهدتا الوقعة فكانت قولًا. ما صافح رسول الله ﷺ امرأة أجنبية قط[٥].

اثنا عشر نقيبًا:

وبعد أن تمت البيعة، طلب رسول الله ﷺ أن يختاروا اثنى عشر زعيمًا يكونون نقباء على قومهم، يكفلون المسئولية عنهم فى تنفيذ بنود هذه البيعة، فقال للقوم: «**أخرجوا إلىّ منكم اثنى عشر نقيبًا ليكونوا على قومهم بما فيهم**».

فتم اختيارهم فى الحال، وكانوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس. وهاك أسماءهم:

نقباء الخزرج:

١ - أسعد بن زُرَارَة بن عدس.

(٣، ٤) رواه الإمام أحمد من حديث جابر ٣/ ٣٢٢، والبيهقى فى السنن الكبرى ٩/ ٩.

(٣) قال ابن إسحاق: وبنو عبد الأشهل يقولون: بل أبو الهيثم بن التيهان، وقال كعب بن مالك: بل البراء بن معرور (ابن هشام ١/ ٤٤٧). قلت: لعلهم حسبوا ما دار بينهم، وبين الرسول ﷺ من الحوار بيعة وإلا فأحرى الناس بالتقديم إذ ذاك هو أسعد بن زرارة، والله أعلم.

(٤) مسند الإمام أحمد ٣/ ٣٢٢.

(٥) انظر: صحيح مسلم: باب كيفية بيعة النساء ٢/ ١٣١.

٢- سعد بن الرَّبِيع بن عمرو.

٣- عبد الله بن رواحة بن ثعلبة.

٤- رافع بن مالك بن العَجْلان.

٥- البراء بن مَعْرُور بن صَخْر.

٦- عبد الله بن عمرو بن حَرَام.

٧- عبادة بن الصامت بن قيس.

٨ - سعد بن عبادة بن دُلَيْم.

٩- المنذر بن عمرو بن خُنَيْس.

نقباء الأوس:

١- أُسَيْد بن حُضَيْر بن سِمَاك.

٢- سعد بن خَيْثَمَة بن الحارث.

٣- رفاعة بن عبد المنذر بن زبير[١].

ولما تم اختيار هؤلاء النقباء أخذ عليهم النبى ﷺ ميثاقًا آخر بصفتهم رؤساء مسئولين.

قال لهم: «**أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء، ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم، وأنا كفيل على قومى**» - يعنى المسلمين - قالوا: نعم[٢].

شيطان يكتشف المعاهدة:

ولما تم إبرام المعاهدة، وكان القوم على وشك الارفضاض، اكتشفها أحد الشياطين؛ وحيث إن هذا الاكتشاف جاء فى اللحظة الأخيرة، ولم يكن يمكن إبلاغ زعماء قريش هذا الخبر سرًّا، ليباغتوا المجتمعين وهم فى الشعب، قام ذلك الشيطان على مرتفع من الأرض،وصاح بأنفذ صوت سمع قط: يا أهل الجَبَاجب - المنازل - هل لكم فى مُذَمَّم والصباة معه؟ قد اجتمعوا على حربكم.

فقال رسول الله ﷺ: «**هذا أَزَبُّ العقبة، أما والله يا عدو الله لأتفرغن لك**». ثم أمرهم

---

(١) زبير بالباء الموحدة، وقيل: بالنون. وقد قيل بدل رفاعة: أبو الهيثم بن التيهان.

(٢) ابن هشام ١/ ٤٤٣، ٤٤٤، ٤٤٦.

أن ينفضوا إلى رحالهم[(١)].

استعداد الأنصار لضرب قريش:

وعند سماع صوت هذا الشيطان قال العباس بن عبادة بن نضلة: والذى بعثك بالحق، إن شئت لنميلن على أهل منى غدًا بأسيافنا.

فقال رسول الله ﷺ: «**لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم**»، فرجعوا وناموا حتى أصبحوا[(٢)].

قريش تقدم الاحتجاج إلى رؤساء يثرب:

لما قرع هذا الخبر آذان قريش وقعت فيهم ضجة، وساورتهم القلاقل والأحزان؛ لأنهم كانوا على معرفة تامة بعواقب مثل هذه البيعة ونتائجها بالنسبة إلى أنفسهم وأموالهم، فما أن أصبحوا حتى توجه وفد كبير من زعماء مكة وأكابر مجرميها إلى أهل يثرب؛ ليقدم احتجاجه الشديد على هذه المعاهدة، قال الوفد:

«يا معشر الخزرج، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، وإنه والله ما من حى من العرب أبغض إلينا من أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم»[(٣)].

ولما كان مشركو الخزرج لا يعرفون شيئًا عن هذه البيعة؛ لأنها تمت فى سرية تامة فى ظلام الليل، انبعث هؤلاء المشركون يحلفون بالله: ما كان من شىء وما علمناه، حتى أتوا عبد الله بن أبى ابن سلول، فجعل يقول: هذا باطل، وما كان هذا،وما كان قومى ليفتاتوا على بمثل هذا، ولو كنت بيثرب ما صنع قومى هذا حتى يؤامرونى.

أما المسلمون فنظر بعضهم إلى بعض، ثم لاذوا بالصمت، فلم يتحدث أحد منهم بنفى أو إثبات.

ومال زعماء قريش إلى تصديق المشركين، فرجعوا خائبين.

تأكد الخبر لدى قريش ومطاردة المبايعين:

عاد زعماء مكة وهم على شبه اليقين من كذب هذا الخبر، لكنهم لم يزالوا يَتَنَطَّسُونه - يكثرون البحث عنه ويدققون النظر فيه - حتى تأكد لديهم أن الخبر صحيح، والبيعة

---

(١) ابن هشام ١/ ٤٤٧، وزاد المعاد ٢/ ٥١.
(٢،٣) ابن هشام ١/ ٤٤٨.

قد تمت فعلًا. وذلك بعد ما نفر الحجيج إلى أوطانهم، فسارع فرسانهم بمطاردة اليثربيين، ولكن بعد فوات الأوان، إلا أنهم تمكنوا من رؤية سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو فطاردوهما، فأما المنذر فأعجز القوم، وأما سعد فألقوا القبض عليه، فربطوا يديه إلى عنقه بِنِسْع رَحْلِه، وجعلوا يضربونه ويجرونه ويجرون شعره حتى أدخلوه مكة، فجاء المطعم بن عدى والحارث بن حرب بن أمية فخلصاه من أيديهم؛ إذ كان سعد يجير لهما قوافلهما المارة بالمدينة، وتشاورت الأنصار حين فقدوه أن يكروا إليه، فإذا هو قد طلع عليهم، فوصل القوم جميعًا إلى المدينة[1].

هذه هى بيعة العقبة الثانية – التى تعرف ببيعة العقبة الكبرى – وقد تمت فى جو تعلوه عواطف الحب والولاء، والتناصر بين أشتات المؤمنين، والثقة والشجاعة والاستبسال فى هذا السبيل. فمؤمن من أهل يثرب يحنو على أخيه المستضعف فى مكة، ويتعصب له،ويغضب من ظالمه، وتجيش فى حناياه مشاعر الود لهذا الأخ الذى أحبه بالغيب فى ذات الله.

ولم تكن هذه المشاعر والعواطف نتيجة نزعة عابرة تزول على مر الأيام، بل كان مصدرها هو الإيمان بالله وبرسوله وبكتابه، إيمان لا يزول أمام أى قوة من قوات الظلم والعدوان، إيمان إذا هبت ريحه جاءت بالعجائب فى العقيدة والعمل، وبهذا الإيمان استطاع المسلمون أن يسجلوا على أوراق الدهر أعمالًا، ويتركوا عليها آثارًا خلا عن نظائرها الغابر والحاضر، وسوف يخلو المستقبل.

---

(١) زاد المعاد ٢/ ٥١، ٥٢، وابن هشام ١/ ٤٤٨- ٤٥٠.

طلائع الهجرة

وبعد أن تمت بيعة العقبة الثانية ونجح الإسلام فى تأسيس وطن له وسط صحراء تموج بالكفر والجهالة - وهو أخطر كسب حصل عليه الإسلام منذ بداية دعوته - أذن رسول الله ﷺ للمسلمين بالهجرة إلى هذا الوطن.

ولم يكن معنى الهجرة إلا إهدار المصالح، والتضحية بالأموال، والنجاة بالشخص فحسب، مع الإشعار بأنه مستباح منهوب قد يهلك فى أوائل الطريق أو نهايتها، وبأنه يسير نحو مستقبل مبهم، لا يدرى ما يتمخض عنه من قلاقل وأحزان.

وبدأ المسلمون يهاجرون وهم يعرفون كل ذلك، وأخذ المشركون يحولون بينهم وبين خروجهم؛ لما كانوا يحسون به من الخطر، وهاك نماذج من ذلك:

١ - كان من أول المهاجرين أبو سلمة - هاجر قبل العقبة الكبرى بسنة على ما قاله ابن إسحاق - وزوجته وابنه، فلما أجمع على الخروج قال له أصهاره: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتنا هذه؟ علام نتركك تسير بها فى البلاد؟ فأخذوا منه زوجته، وغضب آل أبى سلمة لرجلهم،فقالوا: لا نترك ابننا معها إذ نزعتموها من صاحبنا، وتجاذبوا الغلام بينهم فخلعوا يده، وذهبوا به. وانطلق أبو سلمة وحده إلى المدينة.

وكانت أم سلمة رضي الله عنها -و بعد ذهاب زوجها وضياع ابنها- تخرج كل غداة بالأبطح تبكى حتى تمسى، ومضى على ذلك نحو سنة، فرق لها أحد ذويها وقال: ألا تخرجون هذه المسكينة؟ فرقتم بينها وبين زوجها وولدها، فقالوا لها: الحقى بزوجك إن شئت، فاسترجعت ابنها من عصبته، وخرجت تريد المدينة - رحلة تبلغ حوالى خمسمائة كيلو متر تمر بين شواهق الجبال ومهالك الأودية - وليس معها أحد من خلق الله. حتى إذا كانت بالتَّنْعِيم لقيها عثمان بن طلحة بن أبى طلحة، وبعد أن عرف حالها شيعها حتى أقدمها إلى المدينة، فلما نظر إلى قباء، قال: زوجك فى هذه القرية فادخليها على بركة الله، ثم انصرف راجعًا إلى مكة[1].

٢ - وهاجر صُهَيْب بن سِنان الرومى بعد رسول الله ﷺ، فلما أراد الهجرة قال له كفار قريش: أتيتنا صعلوكًا حقيرًا، فكثر مالك عندنا، وبلغت الذى بلغت، ثم تريد أن تخرج

(١) ابن هشام ١/ ٤٦٨- ٤٧٠.

بمالك ونفسك؟ والله لا يكون ذلك. فقال لهم صهيب: أرأيتم إن جعلت لكم مالى أتخلون سبيلى؟ قالوا: نعم، قال: فأنى قد جعلت لكم مالى، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: **«ربح صهيب، ربح صهيب»**[١].

٣ - وتواعد عمر بن الخطاب، وعَيَّاش بن أبى ربيعة، وهشام بن العاص بن وائل موضعًا اسمه التَّنَاضُب فوق سَرِف يصبحون عنده، ثم يهاجرون إلى المدينة، فاجتمع عمر وعياش، وحبس عنهما هشام.

ولما قدما المدينة ونزلا بقباء قدم أبو جهل وأخوه الحارث إلى عياش - وأم الثلاثة واحدة، وهى أسماء بنت مُخَرِّبَة - فقالا له: إن أمك قد نذرت ألا يمس رأسها مشط، ولا تستظل بشمس حتى تراك، فَرَقَّ لها. فقال له عمر: يا عياش، إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم، فوالله لو آذى أمك القمل لامتشطت، ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظلت، فأبى عياش إلا الخروج معهما ليبر قسم أمه، فقال له عمر: أما إذ قد فعلت ما فعلت فخذ ناقتى هذه، فإنها ناقة نجيبة ذلول، فالزم ظهرها، فإن رابك من القوم ريب فانج عليها.

فخرج عليها معهما، حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال له أبو جهل: يابن أمى، والله لقد استغلظت بعيرى هذا، أفلا تعقبنى على ناقتك هذه؟ قال: بلى، فأناخ وأناخا ليتحول عليها، فلما استووا بالأرض عدوا عليه فأوثقاه وربطاه، ثم دخلا به مكة نهارًا موثقًا، وقالا: يا أهل مكة، هكذا فافعلوا بسفهائكم، كما فعلنا بسفيهنا هذا[٢].

هذه ثلاثة نماذج لما كان المشركون يفعلونه بمن يريد الهجرة إذا علموا ذلك. ولكن على رغم ذلك خرج الناس أرسالًا يتبع بعضهم بعضًا. وبعد شهرين وبضعة أيام من بيعة العقبة الكبرى لم يبق بمكة من المسلمين إلا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعلى - أقاما بأمره لهما - وإلا من احتبسه المشركون كرهًا، وقد أعد رسول الله ﷺ جهازه ينتظر متى يؤمر

---

(١) المصدر السابق ١/ ٤٧٧.

(٢) بقى هشام وعياش فى قيد الكفار حتى إذا هاجر رسول الله ﷺ قال يوما: «من لى بعياش وهشام؟» فقال الوليد ابن الوليد: أنا لك يا رسول الله بهما، فقدم الوليد مكة مستخفيًا، ولقى امرأة تحمل إليهما طعامًا فتبعها حتى عرف موضعهما، وكانا محبوسين فى بيت لا سقف له، فلما أمسى تسور الجدار، وقطع قيديهما وحملهما على بعيره حتى قدم المدينة (انظر: ابن هشام ١/ ٤٧٤- ٤٧٦). وكان قدوم عمر المدينة فى عشرين من الصحابة (صحيح البخارى ١/ ٥٥٨).

بالخروج، وأعد أبو بكر جهازه(١).

روى البخارى عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ للمسلمين: «**إنى أريت دار هجرتكم، ذات نخل بين لابَتَيْن**» - وهما الحرتان - فهاجر من هاجر قبل المدينة، ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة، وتجهز أبو بكر قبل المدينة، فقال له رسول الله ﷺ: «**على رِسْلِك، فإنى أرجو أن يؤذن لى**». فقال له أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبى أنت؟ قال: «**نعم**»، فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السَّمَر - وهو الخَبَطُ - أربعة أشهر(٢).

---

(١) زاد المعاد ٢/ ٥٢.

(٢) صحيح البخارى: باب هجرة النبى ﷺ وأصحابه ١/ ٥٥٣.

فى دار الندوة «برلمان قريش»

ولما رأى المشركون أن أصحاب رسول الله ﷺ قد تجهزوا وخرجوا، وحملوا وساقوا الذرارى والأطفال والأموال إلى الأوس والخزرج، أصابتهم الكآبة والحزن، وساورهم القلق والهم بشكل لم يسبق له مثيل، فقد تجسد أمامهم خطر حقيقى عظيم، أخذ يهدد كيانهم الوثنى والاقتصادى.

فقد كانوا يعلمون ما فى شخصية محمد ﷺ من غاية قوة التأثير مع كمال القيادة والإرشاد، وما فى أصحابه من العزيمة والاستقامة والفداء فى سبيله، ثم ما فى قبائل الأوس والخزرج من القوة والمنعة، وما فى عقلاء هاتين القبيلتين من عواطف السلم والصلاح، والتداعى إلى نبذ الأحقاد، ولاسيما بعد أن ذاقوا مرارة الحروب الأهلية طيلة أعوام من الدهر.

كما كانوا يعرفون ما للمدينة من الموقع الاستراتيجى بالنسبة إلى المحجة التجارية التى تمر بساحل البحر الأحمر من اليمن إلى الشام. وقد كان أهل مكة يتاجرون إلى الشام بقدر ربع مليون دينار ذهب سنويًا، سوى ما كان لأهل الطائف وغيرها. ومعلوم أن مدار هذه التجارة كان على استقرار الأمن فى تلك الطريق.

فلا يخفى ما كان لقريش من الخطر البالغ فى تمركز الدعوة الإسلامية فى يثرب، ومجابهة أهلها ضدهم.

شعر المشركون بتفاقم الخطر الذى كان يهدد كيانهم، فصاروا يبحثون عن أنجح الوسائل لدفع هذا الخطر الذى مبعثه الوحيد هو حامل لواء دعوة الإسلام محمد ﷺ.

وفى يوم الخميس ٢٦ من شهر صفر سنة ١٤ من النبوة، الموافق ١٢ من شهر سبتمبر سنة ٦٢٢م [١] - أى: بعد شهرين ونصف تقريبًا من بيعة العقبة الكبرى - عقد برلمان مكة (دار الندوة) فى أوائل النهار [٢] أخطر اجتماع له فى تاريخه، وتوافد إلى هذا الاجتماع جميع نواب القبائل القرشية؛ ليتدارسوا خطة حاسمة تكفل القضاء سريعًا على حامل لواء

---

(١) أخذنا هذا التاريخ بعد مراجعة التحقيقات العلمية التى سجلها العلامة محمد سليمان المنصورفورى فى (رحمة للعالمين) ١/ ٩٥، ٩٧، ١٠٢، ٢/ ٤٧١.

(٢) يدل على انعقاد هذا الاجتماع فى أوائل النهار ما رواه ابن إسحاق: أن جبريل أخبر النبى ﷺ بمؤامرة هذا الاجتماع وأذن فى الهجرة. ثم ما رواه البخارى من حديث عائشة: أن النبى ﷺ جاء أبا بكر فى نحر الظهيرة وقال له: «**قد أذن لى فى الخروج**» وسيأتى.

الدعوة الإسلامية؛ وتقطع تيار نورها عن الوجود نهائيًّا. وكانت الوجوه البارزة فِى هذا الاجتماع الخطير من نواب قبائل قريش:

١ - أبو جهل بن هشام، عن قبيلة بنى مخزوم.

٢، ٣، ٤- جبير بن مُطْعِم، وطُعَيْمَة بن عدى، والحارث بن عامر، عن بنى نَوْفَل بن عبد مناف.

٥، ٦، ٧- شيبة وعتبة ابنا ربيعة وأبو سفيان بن حرب، عن بنى عبد شمس بن عبد مناف.

٨ - النَّضْر بن الحارث، عن بنى عبد الدار.

٩، ١٠، ١١- أبو البَخْتَرِى بن هشام، وزَمْعَة بن الأسود، وحَكِيم بن حِزَام، عن بنى أسد ابن عبد العزى.

١٢، ١٣- نُبَيْه ومُنَبِّه ابنا الحجاج، عن بنى سهم.

١٤- أمية بن خَلَف، عن بنى جُمَح.

ولما جاءوا إلى دار الندوة حسب الميعاد، اعترضهم إبليس فى هيئة شيخ جليل، عليه بَتٌّ له(١)، ووقف على الباب، فقالوا: من الشيخ؟ قال: شيخ من أهل نجد سمع بالذى اتعدتم له فحضر معكم ليسمع ما تقولون، وعسى ألا يعدمكم منه رأيًا ونصحًا. قالوا: أجل، فادخل، فدخل معهم.

النقاش البرلمانى والإجماع على قرار غاشم بقتل النبى ﷺ:

وبعد أن تكامل الاجتماع بدأ عرض الاقتراحات والحلول، ودار النقاش طويلًا. قال أبو الأسود: نخرجه من بين أظهرنا وننفيه من بلادنا، ولا نبالى أين ذهب، ولا حيث وقع، فقد أصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت.

قال الشيخ النجدى: لا والله ما هذا لكم برأى، ألم تروا حسن حديثه، وحلاوة منطقه، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتى به؟ والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حى من العرب، ثم يسير بهم إليكم - بعد أن يتابعوه - حتى يطأكم بهم فى بلادكم، ثم يفعل بكم ما أراد، دبروا فيه رأيًا غير هذا.

قال أبو البخترى: احبسوه فى الحديد وأغلقوا عليه بابًا، ثم تربصوا به ما أصاب أمثاله

---

(١) البَتُّ: الكساء الغليظ.

من الشعراء الذين كانوا قبله - زهيرًا والنابغة - ومن مضى منهم، من هذا الموت، حتى يصيبه ما أصابهم.

قال الشيخ النجدى: لا والله ما هذا لكم برأى، والله لئن حبستموه - كما تقولون - ليخرجن أمره من وراء الباب الذى أغلقتم دونه إلى أصحابه، فلأوشكوا أن يثبوا عليكم، فينزعوه من أيديكم، ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم، ما هذا لكم برأى، فانظروا فى غيره.

وبعد أن رفض البرلمان هذين الاقتراحين، قدم إليه اقتراح آثم وافق عليه جميع أعضائه، تقدم به كبير مجرمى مكة أبو جهل بن هشام. قال أبو جهل: والله إن لى فيه رأيًا ما أراكم وقعتم عليه بعد. قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟ قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابًّا جليدًا نَسِيبا وَسِيطًا فينا، ثم نعطى كل فتى منهم سيفًا صارمًا، ثم يعمدوا إليه، فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه، فنستريح منه، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعًا، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعًا، فرضوا منا بالعَقْل[(١)]، فعقلناه لهم.

قال الشيخ النجدى: القول ما قال الرجل، هذا الرأى الذى لا رأى غيره[(٢)].

ووافق برلمان مكة على هذا الاقتراح الآثم بالإجماع، ورجع النواب إلى بيوتهم وقد صمموا على تنفيذ هذا القرار فورًا.

---

(١) بالدِّية.

(٢) انظر: ابن هشام ١/ ٤٨٠-٤٨٢.

هجرة النبى ﷺ

بين تدبير قريش وتدبير الله سبحانه وتعالى:

من طبيعة مثل هذا الاجتماع السرية للغاية، وألا يبدو على السطح الظاهر أى حركة تخالف اليوميات، وتغاير العادات المستمرة، حتى لا يشم أحد رائحة التآمر والخطر، ولا يدور فى خلد أحد أن هناك غموضًا ينبئ عن الشر، وكان هذا مكرًا من قريش، ولكنهم ماكروا بذلك الله سبحانه وتعالى، فخيبهم من حيث لا يشعرون. فقد نزل جبريل عليه السلام إلى النبى ﷺ بوحى من ربه تبارك وتعالى فأخبره بمؤامرة قريش، وأن الله قد أذن له فى الخروج، وحدد له وقت الهجرة، وبين له خطة الرد على قريش فقال: لا تبت هذه الليلة على فراشك الذى كنت تبيت عليه[(١)].

وذهب النبى ﷺ فى الهاجرة - حين يستريح الناس فى بيوتهم - إلى أبى بكر رضي الله عنه ليبرم معه مراحل الهجرة، قالت عائشة رضي الله عنها: بينما نحن جلوس فى بيت أبى بكر فى نحر الظهيرة، قال قائل لأبى بكر: هذا رسول الله ﷺ متقنعًا، فى ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: فداء له أبى وأمى، والله ما جاء به فى هذه الساعة إلا أمر.

قالت: فجاء رسول الله ﷺ، فاستأذن،فأذن له فدخل، فقال النبى ﷺ لأبى بكر: «**أخرج مَنْ عندك**». فقال أبو بكر: إنما هم أهلك، بأبى أنت يا رسول الله. قال: «**فأنى قد أذن لى فى الخروج**»، فقال أبو بكر: الصحبة بأبى أنت يا رسول الله؟ قال رسول الله ﷺ: «**نعم**»[(٢)].

ثم أبرم معه خطة الهجرة، ورجع إلى بيته ينتظر مجىء الليل. وقد استمر فى أعماله اليومية حسب المعتاد حتى لم يشعر أحد بأنه يستعد للهجرة، أو لأى أمر آخر اتقاء مما قررته قريش.

تطويق منزل الرسول ﷺ:

أما أكابر مجرمى قريش فقضوا نهارهم فى الإعداد سرا لتنفيذ الخطة المرسومة التى

---

(١) ابن هشام ١/ ٤٨٢، وزاد المعاد ٢/ ٢.

(٢) صحيح البخارى: باب هجرة النبى وأصحابه ١/ ٥٥٣. وانظر للهجرة: ح (٤٧٦، ٢١٣٨، ٢٢٦٣، ٢٢٦٤، ٢٢٩٧، ٣٩٠٥، ٤٠٩٣، ٥٨٠٧، ٦٠٧٩) من صحيح البخارى.

أبرمها برلمان مكة (دار الندوة) صباحًا، واختير لذلك أحد عشر رئيسًا من هؤلاء الأكابر، وهم:

١- أبو جهل بن هشام.

٢- الحَكَم بن أبى العاص.

٣- عُقْبَة بن أبى مُعَيْط.

٤- النَّضْر بن الحارث.

٥- أُمية بن خَلَف.

٦- زَمْعَة بن الأسود.

٧- طُعَيْمة بن عَدِىّ.

٨ - أبو لهب.

٩- أُبَىّ بن خلف.

١٠- نُبَيْه بن الحجاج.

١١- أخوه مُنَبِّه بن الحجاج[(١)].

وكان من عادة رسول الله ﷺ أن ينام فى أوائل الليل بعد صلاة العشاء، ويخرج بعد نصف الليل إلى المسجد الحرام، يصلى فيه قيام الليل، فأمر عليًا رضي الله عنه تلك الليلة أن يضطجع على فراشه، ويتسجى ببرده الحضرمى الأخضر، وأخبره أنه لا يصيبه مكروه.

فلما كانت عتمة من الليل وساد الهدوء، ونام عامة الناس، جاء المذكورون إلى بيته ﷺ سرًّا، واجتمعوا على بابه يرصدونه، وهم يظنونه نائمًا حتى إذا قام وخرج وثبوا عليه، ونفذوا ما قرروا فيه.

وكانوا على ثقة ويقين جازم من نجاح هذه المؤامرة الدنية، حتى وقف أبو جهل وقفة الزهو والخيلاء، وقال مخاطبًا لأصحابه المطوقين فى سخرية واستهزاء: إن محمدًا يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بعثتم من بعد موتكم، فجعلت لكم جنان كجنان الأردن، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح، ثم بعثتم من بعد موتكم، ثم جعلت لكم نار تحرقون فيها[(٢)].

وقد كان ميعاد تنفيذ تلك المؤامرة بعد منتصف الليل فى وقت خروجه ﷺ من البيت،

---

(١) زاد المعاد ٢/ ٥٢.

(٢) ابن هشام ١/ ٤٨٢، ٤٨٣.

فباتوا متيقظين ينتظرون ساعة الصفر، ولكن الله غالب على أمره، بيده ملكوت السموات والأرض، يفعل ما يشاء، وهو يجير ولا يجار عليه، فقد فعل ما خاطب به الرسول ﷺ فيما بعد: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال].

الرسول ﷺ يغادر بيته:

وقد فشلت قريش فى خطتهم فشلًا ذريعًا مع غاية التيقظ والتنبه؛ إذ خرج رسول الله ﷺ من البيت، واخترق صفوفهم، وأخذ حفنة من البطحاء فجعل يذره على رءوسهم، وقد أخذ الله أبصارهم عنه فلا يرونه، وهو يتلو: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [يس]. فلم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه ترابًا، ومضى إلى بيت أبى بكر، فخرجا من خوخة فى دار أبى بكر ليلًا حتى لحقا بغار ثَوْر فى اتجاه اليمن(١).

وبقى المحاصرون ينتظرون حلول ساعة الصفر، وقبيل حلولها تجلت لهم الخيبة والفشل، فقد جاءهم رجل ممن لم يكن معهم، ورآهم ببابه فقال: ما تنتظرون؟ قالوا: محمدًا. قال: خبتم وخسرتم، قد والله مر بكم، وذر على رءوسكم التراب، وانطلق لحاجته، قالوا: والله ما أبصرناه، وقاموا ينفضون التراب عن رءوسهم.

ولكنهم تطلعوا من صير الباب فرأوا عليًا، فقالوا: والله إن هذا لمحمد نائمًا، عليه برده، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا. وقام علىٌّ عن الفراش، فسقط فى أيديهم، وسألوه عن رسول الله ﷺ، فقال: لا علم لى به(٢).

من الدار إلى الغار:

غادر رسول الله ﷺ بيته فى ليلة ٢٧ من شهر صفر سنة ١٤ من النبوة، الموافق ١٢/ ١٣ سبتمبر سنة ٦٢٢م(٣). وأتى إلى دار رفيقه - وأمنّ الناس عليه فى صحبته وماله

(١، ٢) ابن هشام ١/ ٤٨٣، وزاد المعاد ٢/ ٥٢.

(٣) رحمة للعالمين ١/ ٩٥. ويكون شهر صفر هذا من السنة الرابعة عشرة من النبوة إذا فرضنا بداية السنين من شهر محرم، وأما إذا بدأنا السنين من الشهر الذى أكرم الله فيه نبيه ﷺ بالنبوة، فيكون شهر صفر هذا من السنة الثالثة عشرة قطعًا. وعامة من يكتب فى السيرة ربما يختار هذا، وربما يختار ذاك، فكثيرًا ما يتخبط فى ترتيب الوقائع، ويقع فى أغلاط، ونظرًا إلى ذلك اخترنا بداية السنين من شهر محرم.

- أبى بكر رضي الله عنه. ثم غادر منزل الأخير من باب خلفى؛ ليخرجا من مكة على عجل وقبل أن يطلع الفجر.

ولما كان النبى ﷺ يعلم أن قريشًا سَتَجِدُّ فى الطلب، وأن الطريق الذى ستتجه إليه الأنظار لأول وهلة هو طريق المدينة الرئيسى المتجه شمالًا، فسلك الطريق الذى يضاده تمامًا، وهو الطريق الواقع جنوب مكة، والمتجه نحو اليمن، سلك هذا الطريق نحو خمسة أميال حتى بلغ إلى جبل يعرف بجبل ثَوْر وهو جبل شامخ، وَعِر الطريق، صعب المرتقى، ذو أحجار كثيرة، فحفيت قدما رسول الله ﷺ، وقيل: بل كان يمشى فى الطريق على أطراف قدميه كى يخفى أثره فحفيت قدماه، وأيا ما كان فقد حمله أبو بكر حين بلغ إلى الجبل، وطفق يشتد به حتى انتهى به إلى غار فى قمة الجبل عرف فى التاريخ بغار ثور[(١)].

إذ هما فى الغار:

ولما انتهيا إلى الغار قال أبو بكر: والله لا تدخله حتى أدخل قبلك، فإن كان فيه شىء أصابنى دونك، فدخل فكسحه، ووجد فى جانبه ثقبًا فشق إزاره وسدها به، وبقى منها اثنان فألقمهما رجليه، ثم قال لرسول الله ﷺ: ادخل، فدخل رسول الله ﷺ، ووضع رأسه فى حجره ونام، فلدغ أبو بكر فى رجله من الجحر، ولم يتحرك مخافة أن ينتبه رسول الله ﷺ، فسقطت دموعه على وجه رسول الله ﷺ، فقال: «**ما لك يا أبا بكر؟**» قال: لدغت، فداك أبى وأمى، فتفل رسول الله ﷺ، فذهب ما يجده[(٢)].

وكَمُنَا فى الغار ثلاث ليال، ليلة الجمعة وليلة السبت وليلة الأحد[(٣)]. وكان عبد الله ابن أبى بكر يبيت عندهما. قالت عائشة: وهو غلام شاب ثَقِف لَقِن، فيُدْلِج من عندهما بسَحَرٍ، فيصبح مع قريش بمكة كبائت، فلا يسمع أمرًا يكتادان به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، و [كان] يرعى عليهما عامر بن فُهَيْرَة مولى أبى بكر مِنْحَة من غنم، فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء، فيبيتان فى رِسْل - وهو لبن مِنْحَتِهما ورَضيفِهما - حتى يَنْعِق بها عامر بن فُهَيْرَة بغَلَس، يفعل ذلك فى كل ليلة من تلك الليالى الثلاث[(٤)]، وكان عامر بن فهيرة يتبع بغنمه أثر عبد الله بن أبى بكر بعد ذهابه إلى مكة

---

(١) مختصر السيرة للشيخ عبد الله، ص ١٦٧.

(٢) رواه رزين عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وفيه: ثم انتقض عليه (أى رجع أثر السم حين موته) وكان سبب موته. انظر: مشكاة المصابيح، باب مناقب أبى بكر ٢/ ٥٥٦.

(٣) انظر: فتح البارى ٧/ ٣٣٦.

(٤) صحيح البخارى ١/ ٥٥٣، ٥٥٤.

ليُعَفِّى عليه[١].

أما قريش فقد جن جنونها حينما تأكد لديها إفلات رسول الله ﷺ صباح ليلة تنفيذ المؤامرة. فأول ما فعلوا بهذا الصدد أنهم ضربوا عليًّا، وسحبوه إلى الكعبة، وحبسوه ساعة، علهم يظفرون بخبرهما[٢].

ولما لم يحصلوا من عليٍّ على جدوى جاءوا إلى بيت أبى بكر وقرعوا بابه، فخرجت إليهم أسماء بنت أبى بكر، فقالوا لها: أين أبوك؟ قالت: لا أدرى والله أين أبى؟ فرفع أبو جهل يده - وكان فاحشًا خبيثًا - فلطم خدها لطمة طرح منها قرطها[٣].

وقررت قريش فى جلسة طارئة مستعجلة استخدام جميع الوسائل التى يمكن بها القبض على الرجلين، فوضعت جميع الطرق النافذة من مكة (فى جميع الجهات) تحت المراقبة المسلحة الشديدة، كما قررت إعطاء مكافأة ضخمة قدرها مائة ناقة بدل كل واحد منهما لمن يعيدهما إلى قريش حيين أو ميتين، كائنًا من كان[٤].

وحينئذ جدت الفرسان والمشاة وقصاص الأثر فى الطلب، وانتشروا فى الجبال والوديان، والوهاد والهضاب، لكن من دون جدوى وبغير عائدة.

وقد وصل المطاردون إلى باب الغار، ولكن الله غالب على أمره، روى البخارى عن أنس عن أبى بكر قال: كنت مع النبى ﷺ فى الغار، فرفعت رأسى فإذا أنا بأقدام القوم، فقلت: يا نبى الله، لو أن بعضهم طأطأ بصره رآنا. قال: «**اسكت يا أبا بكر، اثنان، الله ثالثهما**»، وفى لفظ: «**ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما**»[٥].

وقد كانت معجزة أكرم الله بها نبيه ﷺ، فقد رجع المطاردون حين لم يبق بينه وبينهم إلا خطوات معدودة.

---

(١) ابن هشام ١/ ٤٨٦.

(٢) تاريخ الطبرى ٢/ ٣٧٤.

(٣) ابن هشام ١/ ٤٨٧.

(٤) انظر: صحيح البخارى ١/ ٥٥٤.

(٥) صحيح البخارى ١/ ٥١٦، ٥٥٨، ونحوه عند أحمد ١/ ٤ ولفظه: قلت للنبى ﷺ وهو فى الغار- وقال مرة: ونحن فى الغار: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا، فقال: «**يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما**» ولم يكن = فزع أبى بكر مخافة على نفسه، بل سببه الوحيد ما روى أن أبا بكر لما رأى القافة اشتد حزنه على رسول الله ﷺ وقال: إن قتلتُ فإنما أنا رجل واحد، وإن قتلتَ أنت هلكت الأمة، فعندها قال له رسول الله ﷺ: ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾. انظر: مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى، ص ١٦٨.

فى الطريق إلى المدينة:

وحين خمدت نار الطلب، وتوقفت أعمال دوريات التفتيش، وهدأت ثائرات قريش بعد استمرار المطاردة الحثيثة ثلاثة أيام بدون جدوى، تهيأ رسول الله ﷺ وصاحبه للخروج إلى المدينة.

وكانا قد استأجرا عبد الله بن أُرَيْقِط الليثى، وكان هاديًا خِرِّيتًا - ماهرًا بالطريق - وكان على دين كفار قريش، وأمناه على ذلك، وسلما إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثَوْر بعد ثلاث ليال براحلتيهما، فلما كانت ليلة الاثنين - غرة ربيع الأول سنة ١هـ / ١٦ سبتمبر سنة ٦٢٢م - جاءهما عبد الله ابن أريقط بالراحلتين، وكان قد قال أبو بكر للنبى ﷺ عند مشاورته فى البيت: بأبى أنت يا رسول الله، خذ إحدى راحلتى هاتين، وقرب إليه أفضلهما، فقال رسول الله ﷺ بالثمن. وأتتهما أسماء بنت أبى بكر رضي الله عنهما بسُفْرَتِهما، ونسيت أن تجعل لها عِصَامًا، فلما ارتحلا ذهبت لتعلق السفرة، فإذا ليس لها عصام، فشقت نطاقها باثنين، فعلقت السفرة بواحد، وانتطقت بالآخر فسميت: ذات النطاقين[(١)].

ثم ارتحل رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه، وارتحل معهما عامر بن فُهَيْرة، وأخذ بهم الدليل - عبد الله بن أريقط - على طريق السواحل.

وأول ما سلك بهم بعد الخروج من الغار أنه أمعن فى اتجاه الجنوب نحو اليمن، ثم اتجه غربًا نحو الساحل، حتى إذا وصل إلى طريق لم يألفه الناس، اتجه شمالًا على مقربة من شاطئ البحر الأحمر، وسلك طريقًا لم يكن يسلكه أحد إلا نادرًا.

وقد ذكر ابن إسحاق المواضع التى مر بها رسول الله ﷺ فى هذا الطريق، قال: لما خرج بهما الدليل سلك بهما أسفل مكة، ثم مضى بهما على الساحل حتى عارض الطريق أسفل من عُسْفَان، ثم سلك بهما على أسفل أَمَج، ثم استجاز بهما حتى عارض بهما الطريق بعد أن أجاز قُدَيْدًا، ثم أجاز بهما من مكانه ذلك فسلك بهما الْخَرَّار، ثم سلك بهما ثَنِيَّة الْمَرَّة، ثم سلك بهما لِقْفًا، ثم أجاز بهما مَدْلَجَة لِقْف، ثم استبطن بهما مَدْلَجة مِجَاج، ثم سلك بهما مَرْجِح مِجَاح، ثم تبطن بهما مَرْجِح من ذى الْغُضْوَيْن، ثم بطن ذى كَشْر، ثم أخذ بهما على الْجَدَاجِد، ثم على الأجرد، ثم سلك بهما ذا سلم من بطن أعدا مَدْلَجَة تِعْهِنَ، ثم على العَبَابِيد، ثم أجاز بهما الفَاجَة، ثم هبط بهما الْعَرْج، ثم سلك بهما ثنية العَائِر - عن يمين رَكُوبة - حتى هبط بهما

(١) صحيح البخارى ١/ ٥٥٣، ٥٥٥، وابن هشام ١/ ٤٨٦.

بطن رِئْم، ثم قدم بهما على قُباء[١].

وهاك بعض ما وقع فى الطريق:

١ـ روى البخارى عن أبى بكر الصديق رضي الله عنه قال: أسرينا ليلتنا ومن الغد حتى قام قائم الظهيرة وخلا الطريق، لا يمر فيه أحد، فرفعت لنا صخرة طويلة، لها ظل لم تأت عليها الشمس، فنزلنا عنده، وسويت للنبى ﷺ مكانًا بيدى، ينام عليه، وبسطت عليه فروة، وقلت: نم يا رسول الله، وأنا أنفض لك ما حولك، فنام، وخرجت أنفض ما حوله، فإذا أنا براع مقبل بغنمه إلى الصخرة، يريد منها مثل الذى أردنا، فقلت له: لمن أنت يا غلام؟ فقال: لرجل من أهل المدينة أو مكة[٢]. قلت: أفى غنمك لبن؟ قال: نعم. قلت: أفتحلب؟ قال: نعم. فأخذ شاة، فقلت: انفض الضرع من التراب والشعر والقَذَى، فحلب فى قعب كُثْبة من لبن، ومعى إداوة حملتها للنبى ﷺ، يرتوى منها، يشرب ويتوضأ، فأتيت النبى ﷺ فكرهت أن أوقظه، فوافقته حين استيقظ، فصببت من الماء على اللبن حتى برد أسفله، فقلت: اشرب يا رسول الله، فشرب حتى رضيت، ثم قال: «**ألم يأن للرحيل؟**» قلت: بلى، قال: فارتحلنا[٣].

٢ـ وكان من دأب أبى بكر رضي الله عنه أنه كان ردفًا للنبى ﷺ، وكان شيخًا يعرف، ونبى الله ﷺ شاب لا يعرف، فيلقى الرجل أبا بكر فيقول: من هذا الرجل الذى بين يديك؟ فيقول: هذا الرجل يهدينى الطريق، فيحسب الحاسب أنه يعنى به الطريق، وإنما يعنى سبيل الخير[٤].

٣ـ وفى اليوم الثانى أو الثالث مر بخيمتى أم مَعْبَد الخزاعية، وكان موقعهما بالمُشَلَّل من ناحية قُدَيْد على بعد نحو ١٣٠ كيلو مترًا من مكة، وكانت أم معبد امرأة برزة جلدة تحتبى بفناء الخيمة، ثم تطعم وتسقى من مر بها، فسألاها: هل عندها شيء؟ فقالت: والله لو كان عندنا شيء ما أعوزكم، القِرَى والشاء عازب، وكانت سَنَةٌ شَهْباء.

فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة فى كسر الخيمة، فقال: «**ما هذه الشاة يا أم معبد؟**» قالت: شاة خلفها الجهد عن الغنم، فقال: «**هل بها من لبن؟**» قالت: هى أجهد من ذلك. فقال: «**أتأذنين لى أن أحلبها؟**» قالت: نعم بأبى وأمى إن رأيت بها حلبًا فاحلبها. فمسح

---

(١) ابن هشام ١/ ٤٩١، ٤٩٢.
(٢) وفى رواية: لرجل من قريش.
(٣) صحيح البخارى ١/ ٥١٠.
(٤) روى ذلك البخارى عن أنس ١/ ٥٥٦.

رسول الله ﷺ بيده ضرعها، وسمى الله ودعا، فتَفَاجّتْ عليه ودَرَّتْ، فدعا بإناء لها يَرْبِض[١] الرهط، فحلب فيه حتى علته الرغوة، فسقاها، فشربت حتى رويت، وسقى أصحابه حتى رووا، ثم شرب، وحلب فيه ثانيًا، حتى ملأ الإناء، ثم غادره عندها فارتحلوا.

فما لبثت أن جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزا عجافا يتساوكن هزلًا، فلما رأى اللبن عجب، فقال: من أين لك هذا؟ والشاة عازب، ولا حلوبة فى البيت؟ فقالت: لا والله إلا أنه مر بنا رجل مبارك كان من حديثه كيت وكيت، ومن حاله كذا وكذا، قال: إنى والله أراه صاحب قريش الذى تطلبه، صِفِيه لى يا أم معبد، فوصفته بصفاته الكريمة وصفًا بديعًا كأن السامع ينظر إليه وهو أمامه - وسننقله فى بيان صفاته ﷺ فى أواخر الكتاب - فقال أبو معبد: والله هذا صاحب قريش الذى ذكروا من أمره ما ذكروا، لقد هممت أن أصحبه، ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلًا. وأصبح صوت بمكة عاليًا يسمعونه ولا يرون القائل:

جزى الله رب العرش خير جزائه ... رفيقين حَلَّا خيمتى أم مَعْبَدِ
هما نزلا بالبِرِّ وارتحلا به ... وأفلح من أمسى رفيق محمد
فيا لقُصَىّ ما زَوَى الله عنكم ... به من فعال لا يُحَاذى وسُؤْدُد
لِيَهْنِ بنى كعب مكان فَتاتِهم ... ومقعدُها للمؤمنين بَمْرصَد
سَلُوا أختكم عن شاتها وإنائها ... فإنكم إن تسألوا الشاة تَشْهَد

قالت أسماء: ما درينا أين توجه رسول الله ﷺ، إذ أقبل رجل من الجن من أسفل مكة فأنشد هذه الأبيات، والناس يتبعونه ويسمعون صوته ولا يرونه حتى خرج من أعلاها. قالت: فلما سمعنا قوله عرفنا حيث توجه رسول الله ﷺ، وأن وجهه إلى المدينة[٢].

٤ـ وتبعهما فى الطريق سُرَاقة بن مالك. قال سراقة:

بينما أنا جالس فى مجلس من مجالس قومى بنى مُدْلج، أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس، فقال: يا سراقة، إنى رأيت آنفًا أَسْوِدَة بالساحل، أراها محمدًا وأصحابه. قال سراقة: فعرفت أنهم هم، فقلت له: إنهم ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلانًا وفلانًا انطلقوا بأعيننا، ثم لبثت فى المجلس ساعة، ثم قمت فدخلت، فأمرت جاريتى أن تخرج

---

(١) يسقى.

(٢) زاد المعاد ٢/ ٥٣، ٥٤، وأخرجه الحاكم فى المستدرك ٣/ ٩، ١٠، وصححه، ووافقه الذهبى، ورواه البغوى فى شرح السنة ١٣/ ٢٦٤.

فرسى، وهى من وراء أَكَمَة، فتحبسها عَلَىَّ، وأخذت رمحى، فخرجت به من ظهر البيت، فَخَطَطْتُ بزُجِّهِ[١] الأرض، وخَفَضْتُ عاليه، حتى أتيت فرسى فركبتها، فرَفَعْتُها تُقَرِّب بى حتى دنوت منهم، فعَثَرَتْ بى فرسى فخررت عنها، فقمت، فأهويت يدى إلى كنانتى، فاستخرجت منها الأزلام، فاستقسمت بها، أَضُرُّهُمْ أم لا؟ فخرج الذى أكره، فركبت فرسى - وعصيت الأزلام - تُقَرِّبُ بى، حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ - وهو لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الالتفات - سَاخَتْ يدا فرسى فى الأرض حتى بلغتا الركبتين، فخررت عنها، ثم زجرتها فنهضت، فلم تَكَدْ تخرج يديها، فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها غبار ساطع فى السماء مثل الدخان، فاستقسمت بالأزلام، فخرج الذى أكره، فناديتهم بالأمان، فوقفوا، فركبت فرسى حتى جئتهم، ووقع فى نفسى حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أَمْرُ رسول الله ﷺ، فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الدية، وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم، وعرضت عليهم الزاد والمتاع فلم يَرْزَآنى، ولم يسألانى إلا أن قال: «أَخْفِ عنا»، فسألته أن يكتب لى كتاب أَمْنٍ، فأمر عامر بن فُهَيْرة، فكتب لى فى رقعة من أدم، ثم مضى رسول الله ﷺ[٢].

وفى رواية عن أبى بكر قال: ارتحلنا والقوم يطلبوننا، فلم يدركنا منهم أحد غير سراقة ابن مالك بن جُعْشُم، على فرس له، فقلت: هذا الطلب قد لحقنا يا رسول الله، فقال: ﴿لَا تَحْـزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠][٣].

ورجع سراقة فوجد الناس فى الطلب فجعل يقول: قد استبرأت لكم الخبر، قد كفيتم ما ها هنا. وكان أول النهار جاهدًا عليهما، وآخره حارسًا لهما[٤].

٥ - وفى الطريق لقى النبى ﷺ بُرَيْدَة بن الحُصَيْب الأسلمى ومعه نحو ثمانين بيتًا، فأسلم وأسلموا، وصلى رسول الله ﷺ العشاء الآخرة فصلوا خلفه، وأقام بريدة بأرض قومه حتى قدم على رسول الله ﷺ بعد أُحُد.

وعن عبد الله بن بريدة أن النبى ﷺ كان يتفاءل ولا يتطير، فركب بريدة فى سبعين راكبًا من أهل بيته من بنى سهم، فلقى النبى ﷺ، فقال له: «ممن أنت؟» قال: من أسلم، فقال:

---

(١) خططت: أمسكت بأعلاه وجعلت أسفله فى الأرض، والزُّج: حديدة بأسفل الرمح.

(٢) صحيح البخارى ١/ ٥٥٤- وكان مقر بنى مدلج بالقرب من رابغ، وتبعهما سراقة حينما كانا مصعدين من قديد- زاد المعاد ٢/ ٥٣- فالأغلب أنه تبعهما فى اليوم الثالث من رحيلهما.

(٣) صحيح البخارى ١/ ٥١٦.

(٤) زاد المعاد ٢/ ٥٣.

لأبى بكر: سلمنا، ثم قال: «مِنْ بنى مَنْ؟» قال: من بنى سهم. قال: «**خرج سهمك**»(١).

٦ـ ومر رسول الله ﷺ بأبى أَوْس تميم بن حَجَر أو بأبى تميم أوس بن حجر الأسلمى، بقحداوات بين الجُحْفَة وهَرْشَى - **بالعَرْج** - وكان قد أبطأ عليه بعض ظهره، فكان هو وأبو بكر على جمل واحد، فحمله أوس على فحل من إبله، وبعث معهما غلامًا له اسمه مسعود، وقال: اسلك بهما حيث تعلم من محارم الطريق ولا تفارقهما، فسلك بهما الطريق حتى أدخلهما المدينة، ثم رد رسول الله ﷺ مسعودًا إلى سيده، وأمره أن يأمر أوسًا أن يسم إبله فى أعناقها قيد الفرس، وهو حلقتان، ومد بينهما مدًّا، فهى سمتهم. ولما أتى المشركون يوم أحد أرسل أوس غلامه مسعود بن هُنَيْدَة من العَرْج على قدميه إلى رسول الله ﷺ يخبره بهم. ذكره ابن مَاكُولا عن الطبرى، وقد أسلم بعد قدوم رسول الله ﷺ المدينة، وكان يسكن العرج(٢).

٧ـ وفى الطريق - فى بطن رِئْم - لقى رسول الله ﷺ الزبير، وهو فى ركب من المسلمين، كانوا تجارًا قافلين من الشام، فكسا الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر ثيابًا بياضًا(٣).

النزول بقباء:

وفى يوم الاثنين ٨ ربيع الأول سنة ١٤ من النبوة - وهى السنة الأولى من الهجرة - الموافق ٢٣ سبتمبر سنة ٦٢٢م نزل رسول الله ﷺ بقباء(٤).

قال عروة بن الزبير: سمع المسلمون بالمدينة بمخرج رسول الله ﷺ من مكة، فكانوا يغدون كل غداة إلى الحَرَّة، فينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة، فانقلبوا يومًا بعد ما أطالوا انتظارهم، فلما أووا إلى بيوتهم أَوْفى رجل من يهود على أُطُم من آطامهم لأمر ينظر إليه، فبصر برسول الله ﷺ وأصحابه مُبَيَّضِين يزول بهم السراب، فلم يملك اليهودى أن قال بأعلى صوته: يا معاشر العرب، هذا جدكم الذى تنتظرون، فثار المسلمون إلى السلاح(٥). وتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة.

---

(١) أسد الغابة ١/ ٢٠٩.

(٢) أسد الغابة ١/ ١٧٣، وابن هشام ١/ ٤٩١.

(٣) روى ذلك البخارى عن عروة بن الزبير ١/ ٥٥٤.

(٤) رحمة للعالمين ١/ ١٠٢. وفى هذا اليوم تم عمره ﷺ ثلاثة وخمسين عاما كاملًا لا وكس ولا شطط، وتم على نبوته ثلاثة عشر عاما كاملًا عند من يقول: إنه أكرم بالنبوة فى ٩ ربيع الأول سنة ٤١ من عام الفيل، وأما من يقول: إنه أكرم بالنبوة فى رمضان سنة ٤١ من عام الفيل فعنده يتم على نبوته- فى ذلك اليوم- اثنا عشر عاما وخمسة أشهر و ١٨ يومًا أو ٢٢ يومًا.

(٥) صحيح البخارى ١/ ٥٥٥. والأطم: الحصن. و«مبيضين»: عليهم ثياب بيض.

قال ابن القيم: وسُمِعت الوَجْبَةُ [(١)] والتكبير فى بنى عمرو بن عوف، وكبر المسلمون فرحًا بقدومه، وخرجوا للقائه، فتلقوه وحيوه بتحية النبوة، فأحدقوا به مطيفين حوله، والسكينة تغشاه، والوحى ينزل عليه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [التحريم] [(٢)].

قال عروة بن الزبير: فتلقوا رسول الله ﷺ، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم فى بنى عمرو ابن عوف، وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول. فقام أبو بكر للناس، وجلس رسول الله ﷺ صامتًا، فطفق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله ﷺ يحيى - وفى نسخة: يجىء - أبا بكر، حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ، فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك [(٣)].

وكانت المدينة كلها قد زحفت للاستقبال، وكان يومًا مشهودًا لم تشهد المدينة مثله فى تاريخها، وقد رأى اليهود صدق بشارة حَبْقُوق النبى: إن الله جاء من التيمان، والقدوس من جبال فاران [(٤)].

ونزل رسول الله ﷺ بقباء على كلثوم بن الهدم، وقيل: بل على سعد بن خَيْثَمَة، والأول أثبت.

ومكث على بن أبى طالب رضي الله عنه بمكة ثلاثًا حتى أدى عن رسول الله ﷺ الودائع التى كانت عنده للناس، ثم هاجر ماشيًا على قدميه حتى لحقهما بقباء، ونزل على كلثوم ابن الهَدْم [(٥)].

وأقام رسول الله ﷺ بقباء أربعة أيام: الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس [(٦)]. وأسس مسجد قباء وصلى فيه، وهو أول مسجد أسس على التقوى بعد النبوة، فلما كان

---

(١) صوت الشىء الساقط.

(٢) زاد المعاد ٢/ ٥٤.

(٣) صحيح البخارى، ١/ ٥٥٥.

(٤) صحيفة حبقوق (٣:٣).

(٥) ابن هشام ١/ ٤٩٣، وزاد المعاد ٢/ ٥٤.

(٦) هذا ما رواه ابن إسحاق (ابن هشام ١/ ٤٩٤)، وفى صحيح البخارى أنه أقام بقباء أربعا وعشرين ليلة (١/ ٦١)، وبضع عشرة ليلة (١/ ٥٥٥)، وأربع عشرة ليلة (١/ ٥٦٠)، وهذا الأخير هو الذى اختاره ابن القيم، وقد صرح هو نفسه أن نزوله بقباء كان يوم الاثنين وخروجه يوم الجمعة (زاد المعاد ٢/ ٥٤، ٥٥) ومعلوم أن فصل ما بينهما لا يزيد على عشرة أيام سوى يومى الدخول والخروج، ومعهما لا يزيد على اثنى عشر يوما إذا كانا من أسبوعين.

اليوم الخامس - يوم الجمعة - ركب بأمر الله له، وأبو بكر ردفه، وأرسل إلى بنى النجار - أخواله - فجاءوا متقلدين سيوفهم، فسار نحو المدينة وهم حوله[١]، وأدركته الجمعة فى بنى سالم بن عوف، فجمع بهم فى المسجد الذى فى بطن الوادى، وكانوا مائة رجل[٢].

الدخول فى المدينة:

ثم سار النبى ﷺ بعد الجمعة حتى دخل المدينة - ومن ذلك اليوم سميت بلدة يثرب بمدينة الرسول ﷺ، ويعبر عنها بالمدينة مختصرًا - وكان يومًا مشهودًا أغر، فقد ارتجت البيوت والسكك بأصوات الحمد والتسبيح، وتغنت بنات الأنصار بغاية الفرح والسرور[٣]:

طلع البدر علينا   من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا   ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا   جئت بالأمر المطاع

والأنصار وإن لم يكونوا أصحاب ثروات طائلة، إلا أن كل واحد منهم كان يتمنى أن ينزل الرسول ﷺ عليه، فكان لا يمر بدار من دور الأنصار إلا أخذوا خطام راحلته: هلم إلى العدد والعدة والسلاح والمنعة، فكان يقول لهم: «**خلوا سبيلها فإنها مأمورة**»، فلم تزل سائرة به حتى وصلت إلى موضع المسجد النبوى اليوم فبركت، ولم ينزل عنها حتى نهضت وسارت قليلًا، ثم التفتت ورجعت فبركت فى موضعها الأول، فنزل عنها، وذلك فى بنى النجار - أخواله ﷺ - وكان من توفيق الله لها، فإنه أحب أن ينزل على أخواله، يكرمهم بذلك، فجعل الناس يكلمون رسول الله ﷺ فى النزول عليهم، وبادر أبو أيوب الأنصارى إلى رحله، فأدخله بيته،فجعل رسول الله ﷺ يقول: «**المرء مع رحله**»، وجاء أسعد بن زرارة فأخذ بزمام راحلته، فكانت عنده[٤].

(١) صحيح البخارى ١/ ٥٥٥، ٥٦٠.

(٢) ابن هشام ١/ ٤٩٤، وزاد المعاد ٢/ ٥٥.

(٣) رجح ابن القيم أن هذه الأبيات أنشدت عند مرجعه ﷺ من تبوك، ووهم من يقول: إنما كان ذلك عند مقدمه المدينة (زاد المعاد ٣/ ١٠)، لكن ابن القيم لم يأت على هذا التوهيم بدليل يشفى، وقد استنبط العلامة المنصورفورى من إشارات وتصريحات صحف أنبياء بنى إسرائيل أن هذا حصل عند مقدمه ﷺ المدينة، وهو استنباط قوى، ولا يستبعد أن تكون هذه الأبيات أنشدت فى الموقعين.

(٤) ابن هشام ١/ ٤٩٤- ٤٩٦، وزاد المعاد ٢/ ٥٥.

وفى رواية أنس عند البخارى، قال نبى الله ﷺ: «**أى بيوت أهلنا أقرب؟**» فقال أبو أيوب: أنا يا رسول الله، هذه دارى، وهذا بابى. قال: «**فانطلق فهيئ لنا مقيلًا**»، قال: قوما على بركة الله[١].

وبعد أيام وصلت إليه زوجته سَوْدَة، وبنتاه فاطمة وأم كلثوم، وأسامة بن زيد، وأم أيمن، وخرج معهم عبد الله بن أبى بكر بعيال أبى بكر، ومنهم عائشة، وبقيت زينب عند أبى العاص، لم يمكنها من الخروج حتى هاجرت بعد بدر[٢].

قالت عائشة: وقدمنا المدينة وهى أوبأ أرض الله، فكان بُطْحَان يجرى نَجْلًا، أى: ماءً آجِنًا.

وقالت: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وعك أبو بكر وبلال، فدخلت عليهما فقلت: يا أبه كيف تجدك؟ ويا بلال كيف تجدك؟ قالت: فكان أبو بكر إذا أخذته الحُمَّى يقول:

كل امرئ مُصَبَّحٌ فى أهله ... والموت أدنى من شِرَاك نَعْلِه

وكان بلال إذا أقلع عنه يرفع عقيرته ويقول:

ألا ليت شِعْرِى هل أبيتَنَّ ليلة ... بوَادٍ وحولى إذْخِرٌ وجَلِيلُ
وهل أرِدْن يومًا مياه مِجَنَّة ... وهل يَبْدُوَنْ لى شامة وطَفِيلُ[٣]

قالت عائشة: فجئت رسول الله ﷺ، فأخبرته، فقال: «**اللهم العن شيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، وأمية بن خلف، كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء**». ثم قال رسول الله ﷺ: «**اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، وصححها، وبارك فى صاعها ومدها، وانقل حماها فاجعلها بالجُحْفَة**»[٤].

وقد استجاب الله دعاءه ﷺ، فأرى فى المنام أن امرأة سوداء ثائرة الرأس خرجت من المدينة حتى نزلت بالمَهْيَعَة، وهى الجحفة. وكان ذلك عبارة عن نقل وباء المدينة إلى الجحفة، وبذلك استراح المهاجرون عما كانوا يعانونه من شدة مناخ المدينة.

إلى هنا انتهى بيان قسم من حياته ﷺ بعد النبوة، وهو العهد المكى. وفيما يلى نقدم بالإيجاز عهده المدنى ﷺ. وبالله التوفيق.

---

(١) صحيح البخارى ١/ ٥٥٦.
(٢) زاد المعاد ٢/ ٥٥.
(٣) شامة وطفيل: جبلان.
(٤) صحيح البخارى مع الفتح ٤/ ١١٩، ح (١٨٨٩)، وأيضًا (٣٩٢٦، ٥٦٥٤، ٥٦٧٧، ٦٣٧٢).

العهد المدني
عهد الدعوة
والجهـــاد
والنجـــاح

مراحل الدعوة والجهاد

فى العهد المدني

يمكن تقسيم العهد المدنى إلى ثلاث مراحل:

١ - **مرحلة تأسيس المجتمع الإسلامى**، وتمكين الدعوة الإسلامية، وقد أثيرت فى هذه المرحلة القلاقل والفتن من الداخل، وزحف فيها الأعداء من الخارج؛ ليستأصلوا شأفة المسلمين، ويقلعوا الدعوة من جذورها. وقد انتهت هذه المرحلة بتغلب المسلمين وسيطرتهم على الموقف مع عقد صلح الحديبية فى ذى القعدة سنة ست من الهجرة.

٢ - **مرحلة الصلح مع العدو الأكبر**، والفراغ لدعوة ملوك الأرض إلى الإسلام، وللقضاء على أطراف المؤامرات. وقد انتهت هذه المرحلة بفتح مكة المكرمة فى رمضان سنة ثمان من الهجرة.

٣ - **مرحلة استقبال الوفود، ودخول الناس فى دين الله أفواجًا**. وقد امتدت هذه المرحلة إلى وفاة الرسول ﷺ فى ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة.

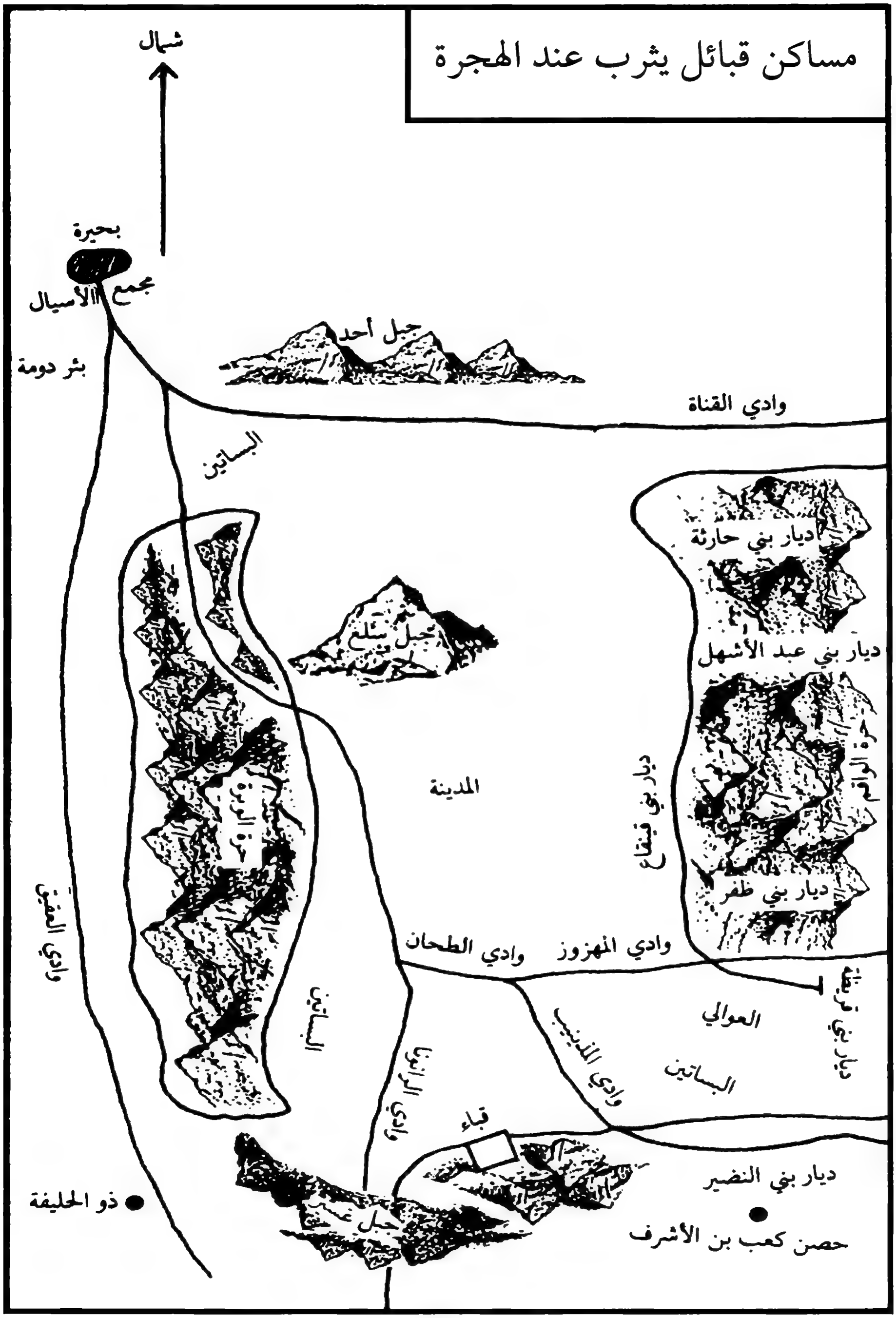

مساكن قبائل يثرب عند الهجرة
شمال
بحيرة
مجمع الأسيال
جبل أحد
بئر دومة
وادي القناة
البساتين
ديار بني حارثة
ديار بني عبد الأشهل
المدينة
ديار بني ظفر
وادي الطحان
وادي المهزوز
العوالي
البساتين
البساتين
قباء
ديار بني النضير
ذو الحليفة
حصن كعب بن الأشرف

سكان المدينة وأحوالهم عند الهجرة

لم يكن معنى الهجرة التخلص والفرار من الفتنة فحسب، بل كانت الهجرة تعنى مع هذا تعاونًا على إقامة مجتمع جديد فى بلد آمن، ولذلك أصبح فرضًا على كل مسلم يقدر على الهجرة أن يهاجر ويسهم فى بناء هذا الوطن الجديد، ويبذل جهده فى تحصينه ورفعة شأنه.

ولاشك أن رسول الله ﷺ كان هو الإمام والقائد والهادى فى بناء هذا المجتمع، وكانت إليه أزمة الأمور بلا نزاع.

والذين قابلهم رسول الله ﷺ فى المدينة كانوا على ثلاثة أصناف، يختلف أحوال كل واحد منها بالنسبة إلى الآخر اختلافًا واضحًا، وكان يواجه بالنسبة إلى كل صنف منها مسائل عديدة غير المسائل التى كان يواجهها بالنسبة إلى الآخر.

وهذه الأصناف الثلاثة هى:

١ - أصحابه الصفوة الكرام البررة رضي الله عنهم.

٢ - المشركون الذين لم يؤمنوا بعد، وهم من صميم قبائل المدينة.

٣ - اليهود.

أ - والمسائل التى كان يواجهها بالنسبة إلى أصحابه هو أن ظروف المدينة بالنسبة إليهم كانت تختلف تمامًا عن الظروف التى مروا بها فى مكة، فهم فى مكة وإن كانت تجمعهم كلمة جامعة وكانوا يستهدفون هدفًا واحدًا، إلا أنهم كانوا متفرقين فى بيوتات شتى، مقهورين أذلاء مطرودين، لم يكن لهم من الأمر شيء، وإنما كان الأمر بيد أعدائهم فى الدين، فلم يكن هؤلاء المسلمون يستطيعون أن ينشئوا مجتمعًا إسلاميًّا جديدًا بمواده التى لا يستغنى عنها أى مجتمع إنسانى فى العالم؛ ولذلك نرى السور المكية تقتصر على تفصيل المبادئ الإسلامية، وعلى التشريعات التى يمكن العمل بها لكل فرد وحده، وعلى الترغيب فى البر والخير ومكارم الأخلاق والترهيب عن الرذائل والدنايا.

أما فى المدينة فكان أمر المسلمين بأيديهم منذ أول يوم، ولم يكن يسيطر عليهم أحد من الناس، وهذا يعنى أنهم قد آن لهم أن يواجهوا مسائل الحضارة والعمران، والمعيشة والاقتصاد، والسياسة والحكومة، والسلم والحرب، وأن تفصل لهم مسائل الحلال والحرام، والعبادة والأخلاق، وما إلى ذلك من شئون الحياة.

أى آن للمسلمين أن يكونوا مجتمعًا إسلاميًّا يختلف فى جميع مراحل الحياة عن المجتمع الجاهلى، ويمتاز عن أى مجتمع يوجد فى العالم الإنسانى، ويكون ممثلًا للدعوة الإسلامية التى عانى لها المسلمون ألوانًا من النكال والعذاب طيلة عشر سنوات.

ولا يخفى أن تكوين أى مجتمع على هذا النمط لا يمكن أن يستتب فى يوم واحد، أو شهر واحد، أو سنة واحدة، بل لابد له من زمن طويل يتكامل فيه التشريع والتقنين والتربية والتثقيف والتدريب والتنفيذ شيئًا فشيئًا، وكان الله كفيلًا بهذا التشريع، وكان رسول الله ﷺ قائمًا بتنفيذه والإرشاد إليه، وبتربية المسلمين وتزكيتهم وفق ذلك ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢].

وكان الصحابة ﷺ مقبلين عليه بقلوبهم،يتحلون بأحكامه،ويستبشرون بها ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ [الأنفال: ٢]. وليس تفصيل هذه المسائل كلها من مباحث موضوعنا، فنقتصر منها على قدر الحاجة.

وكان هذا أعظم ما واجهه رسول الله ﷺ بالنسبة للمسلمين، وهو الهدف الأسمى والمطلب النبيل المقصود من الدعوة الإسلامية والرسالة المحمدية، ومعلوم أنه ليس بقضية طارئة تطلب الاستعجال، بل هى قضية أصيلة تحتاج إلى آجال. نعم، كانت هناك قضايا طارئة تطلب الحل العاجل والحكيم، أهمها أن المسلمين كانوا على قسمين:

قسم كانوا فى أرضهم وديارهم وأموالهم، لا يهمهم من ذلك إلا ما يهم الرجل وهو آمن فى سِرْبِه، وهم الأنصار، وكان بينهم تنافر مستحكم وعداء مزمن منذ أمد بعيد.

وقسم آخر فاتهم كل ذلك، ونجوا بأنفسهم إلى المدينة، وهم المهاجرون، فلم يكن لهم ملجأ يأوون إليه، ولا عمل يكسبون به ما يسد حاجتهم، ولا مال يبلغون به قَوَامًا من العيش، وكان عدد هؤلاء اللاجئين غير قليل، ثم كانوا يزيدون يومًا فيوما؛ إذ كان قد أوذن بالهجرة لكل من آمن بالله ورسوله. ومعلوم أن المدينة لم تكن على ثروة طائلة فتزعزع ميزانها الاقتصادى، وفى هذه الساعة الحرجة قامت القوات المعادية للإسلام بشبه مقاطعة اقتصادية، قَلَّت لأجلها المستوردات وتفاقمت الظروف.

ب - **أما القوم الثانى** - وهم المشركون من صميم قبائل المدينة - فلم تكن لهم سيطرة على المسلمين، وكان منهم من يتخالجه الشكوك ويتردد فى ترك دين الآباء، ولكن لم يكن يبطن العداوة والكيد ضد الإسلام والمسلمين، ولم تمض عليهم مدة طويلة حتى أسلموا وأخلصوا دينهم لله.

وكان فيهم من يبطن شديد الإحن والعداوة ضد رسول الله ﷺ والمسلمين، ولكن لم يكن يستطيع أن يناوئهم، بل كان مضطرًّا إلى إظهار الودّ والصفاء نظرًا إلى الظروف، وعلى رأس هؤلاء عبد الله بن أبيّ، فقد كانت الأوس والخزرج اجتمعوا على سيادته بعد حرب بُعَاث - ولم يكونوا اجتمعوا على سيادة أحد قبله - وكانوا قد نظموا له الخَرْز، ليُتَوِّجُوه ويُمَلِّكُوه، وكان على وشك أن يصير ملكًا على أهل المدينة إذ بوغت بمجيء رسول الله ﷺ، وانصراف قومه عنه إليه، فكان يرى أنه استلبه الملك، فكان يبطن شديد العداوة ضده، ولما رأى أن الظروف لا تساعده على شركه، وأنه سوف يحرم بقايا العز والشرف وما يترتب عليهما من منافع الحياة الدنيا أظهر الإسلام بعد بدر، ولكن بقى مستبطنًا الكفر، فكان لا يجد مجالًا يكيد فيه برسول الله ﷺ وبالمسلمين إلا ويأتيه، وكان أصحابه - من الرؤساء الذين حرموا المناصب المرجوة فى ملكه - يساهمونه ويدعمونه فى تنفيذ خططه، وربما كانوا يتخذون بعض الشباب وسذجة المسلمين عميلًا لتنفيذ خطتهم من حيث لا يشعر.

جـ - **أما القوم الثالث** - وهم اليهود - فإنهم كانوا قد انحازوا إلى الحجاز زمن الاضطهاد الأشورى والرومانى كما أسلفنا، وكانوا فى الحقيقة عبرانيين، ولكن بعد الانسحاب إلى الحجاز اصطبغوا بالصبغة العربية فى الزى واللغة والحضارة، حتى صارت أسماؤهم وأسماء قبائلهم عربية، وحتى قامت بينهم وبين العرب علاقة الزواج والصهر، إلا أنهم احتفظوا بعصبيتهم الجنسية، ولم يندمجوا فى العرب قطعًا، بل كانوا يفتخرون بجنسيتهم الإسرائيلية - اليهودية - وكانوا يحتقرون العرب احتقارًا بالغًا وكانوا يرون أن أموال العرب مباحة لهم، يأكلونها كيف شاءوا، قال تعالى: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ ﴾ [آل عمران: ٧٥]. ولم يكونوا متحمسين فى نشر دينهم، وإنما جل بضاعتهم الدينية هى: الفأل والسحر والنفث والرقية وأمثالها، وبذلك كانوا يرون أنفسهم أصحاب علم وفضل وقيادة روحانية.

وكانوا مَهَرَةً فى فنون الكسب والمعيشة، فكانت فى أيديهم تجارة الحبوب والتمر والخمر والثياب، كانوا يستوردون الثياب والحبوب والخمر، ويصدرون التمر، وكانت لهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون، فكانوا يأخذون المنافع من عامة العرب أضعافًا مضاعفة، ثم لم يكونوا يقتصرون على ذلك، بل كانوا أكالين للربا، يعطون القروض الطائلة لشيوخ العرب وساداتهم؛ ليكسبوا بها مدائح الشعراء والسمعة الحسنة بين الناس بعد إنفاقها من

غير جدوى ولا طائلة، وكانوا يرتهنون لها أرض هؤلاء الرؤساء وزروعهم وحوائطهم، ثم لا يلبثون إلا أعوامًا حتى يتملكونها.

وكانوا أصحاب دسائس ومؤامرات وعتو وفساد؛ يلقون العداوة والشحناء بين القبائل العربية المجاورة، ويغرون بعضها على بعض بكيد خفى لم تكن تشعره تلك القبائل، فكانت تتطاحن فى حروب، ولم تكد تنطفئ نيرانها حتى تتحرك أنامل اليهود مرة أخرى لتؤججها من جديد. فإذا تم لهم ذلك جلسوا على حياد يرون نتائج هذا التحريض والإغراء، ويستلذون بما يحل بهؤلاء المساكين - العرب - من التعاسة والبوار، ويزودونهم بقروض ثقيلة ربوية حتى لا يحجموا عن الحرب لعسر النفقة. وبهذا التدبير كانوا يحصلون على فائدتين كبيرتين: هما الاحتفاظ على كيانهم اليهودى، وإنفاق سوق الربا؛ ليأكلوه أضعافًا مضاعفة، ويكسبوا ثروات طائلة.

وكانت فى يثرب منهم ثلاث قبائل مشهورة:

١- **بنو قَيْنُقَاع**: وكانوا حلفاء الخزرج، وكانت ديارهم داخل المدينة.

٢- **بنو النَّضِير**: وكانوا حلفاء الخزرج، وكانت ديارهم بضواحى المدينة.

٣- **بنو قُرَيْظة**: وكانوا حلفاء الأوس، وكانت ديارهم بضواحى المدينة.

وهذه القبائل هى التى كانت تثير الحروب بين الأوس والخزرج منذ أمد بعيد، وقد ساهمت بأنفسها فى حرب بُعَاث، كل مع حلفائها.

وطبعًا فإن اليهود لم يكن يرجى منهم أن ينظروا إلى الإسلام إلا بعين البغض والحقد؛ فالرسول لم يكن من أبناء جنسهم حتى يُسَكِّن جَأْشَ عصبيتهم الجنسية التى كانت مسيطرة على نفسياتهم وعقليتهم، ودعوة الإسلام لم تكن إلا دعوة صالحة تؤلف بين أشتات القلوب، وتطفئ نار العداوة والبغضاء، وتدعو إلى التزام الأمانة فى كل الشئون، وإلى التقيد بأكل الحلال من طيب الأموال، ومعنى كل ذلك أن قبائل يثرب العربية ستتآلف فيما بينها، وحينئذ لابد من أن تفلت من براثن اليهود، فيفشل نشاطهم التجارى، ويحرمون أموال الربا الذى كانت تدور عليه رحى ثروتهم، بل يحتمل أن تتيقظ تلك القبائل، فتدخل فى حسابها الأموال الربوية التى أخذتها اليهود، وتقوم بإرجاع أرضها وحوائطها التى أضاعتها إلى اليهود فى تأدية الربا.

كان اليهود يدخلون كل ذلك فى حسابهم منذ عرفوا أن دعوة الإسلام تحاول الاستقرار فى يثرب؛ ولذلك كانوا يبطنون أشد العداوة ضد الإسلام، وضد رسول الله ﷺ

منذ أن دخل يثرب، وإن كانوا لم يتجاسروا على إظهارها إلا بعد حين.

ويظهر ذلك جليًّا بما رواه ابن إسحاق عن أم المؤمنين صفية رضي الله عنها. قال ابن إسحاق: حدثت عن صفية بنت حيى بن أخطب أنها قالت: كنت أَحَبَّ ولد أبى إليه، وإلى عمى أبى ياسر، لم ألقهما قط مع ولد لهما إلا أخذانى دونه. قالت: فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة ونزل قباء فى بنى عمرو بن عوف غدا عليه أبى حيى بن أخطب، وعمى أبو ياسر بن أخطب مُغَلِّسِين، قالت: فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس، قالت: فأتيا كَالَّيْن كسلانين ساقطين يمشيان الهُوَيْنَى. قالت: فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفت إلىَّ واحد منهما، مع ما بهما من الغم. قالت: وسمعت عمى أبا ياسر، وهو يقول لأبى حيى بن أخطب: أهو هو؟ قال: نعم والله، قال: أتعرفه وتثبته؟ قال: نعم، قال: فما فى نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت(١).

ويشهد بذلك أيضًا ما رواه البخارى فى إسلام عبد الله بن سَلاَم رضي الله عنه. فقد كان حبرًا من فطاحل علماء اليهود، ولما سمع بمقدم رسول الله ﷺ المدينة فى بنى النجار جاءه مستعجلًا، وألقى إليه أسئلة لا يعلمها إلا نبى، ولما سمع ردوده ﷺ عليها آمن به ساعته ومكانه، ثم قال له: إن اليهود قوم بُهتٌ، إن علموا بإسلامى قبل أن تسألهم بَهَتُونِى عندك، فأرسل رسول الله ﷺ فجاءت اليهود، ودخل عبد الله بن سلام البيت. فقال رسول الله ﷺ: «**أى رجل فيكم عبد الله بن سلام؟**» قالوا: أعلمنا وابن أعلمنا، وأخيرنا وابن أخيرنا – وفى لفظ: سيدنا وابن سيدنا. وفى لفظ آخر: خيرنا وابن خيرنا، وأفضلنا وابن أفضلنا – فقال رسول الله ﷺ: «**أفرأيتم إن أسلم عبد الله؟**» فقالوا: أعاذه الله من ذلك -مرتين أو ثلاثا- فخرج إليهم عبد الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، قالوا: شرّنا وابن شرّنا، ووقعوا فيه. وفى لفظ: فقال: يا معشر اليهود، اتقوا الله، فوالله الذى لا إله إلا هو، إنكم لتعلمون أنه رسول الله، وأنه جاء بحق. فقالوا: كذبت(٢).

وهذه أول تجربة تلقاها رسول الله ﷺ من اليهود فى أول يوم دخل فيه المدينة.

وهذه هى الظروف والقضايا الداخلية التى واجهها الرسول ﷺ حين نزل بالمدينة.

أما من ناحية الخارج فكان يحيط بها من يدين بدين قريش، وكانت قريش ألد عدو للإسلام والمسلمين، جربت عليهم طوال عشرة أعوام – حينما كان المسلمون تحت أيديها

---

(١) ابن هشام ١/٥١٨، ٥١٩.

(٢) انظر: صحيح البخارى ١/٤٥٩، ٥٥٦، ٥٦١.

- كل أساليب الإرهاب والتهديد والمضايقة والتعذيب، والمقاطعة والتجويع، وأذاقتهم التنكيلات والويلات، وشنت عليهم حربًا نفسية مضنية مع دعاية واسعة منظمة، ولما هاجر المسلمون إلى المدينة صادرت أرضهم وديارهم وأموالهم، وحالت بينهم وبين أزواجهم وذرياتهم، بل حبست وعذبت من قدرت عليه، ولم تقتصر على هذا، بل تآمرت على الفتك بصاحب الدعوة ﷺ، والقضاء عليه وعلى دعوته، ولم تَأْلُ جهدًا فى تنفيذ هذه المؤامرة. فكان من الطبيعى جدًّا، حينما نجا المسلمون منها إلى أرض تبعد نحو خمسمائة كيلو متر، أن تقوم بدورها السياسى والعسكرى، لما لها من الصدارة الدنيوية والزعامة الدينية بين أوساط العرب بصفتها ساكنة الحرم ومجاورة بيت الله وسدنته، وتغرى غيرها من مشركى الجزيرة ضد أهل المدينة، وفعلًا قامت بذلك كله حتى صارت المدينة محفوفة بالأخطار، وفى شبه مقاطعة شديدة قَلَّتْ لأجلها المستوردات، فى حين كان عدد اللاجئين إليها يزيد يومًا بعد يوم، وبذلك كانت (حالة الحرب) قائمة بين هؤلاء الطغاة من أهل مكة ومن دان دينهم، وبين المسلمين فى وطنهم الجديد.

وكان من حق المسلمين أن يصادروا أموال هؤلاء الطغاة كما صودرت أموالهم، وأن يديلوا عليهم من التنكيلات بمثل ما أدالوا بها، وأن يقيموا فى سبيل حياتهم العراقيل كما أقاموها فى سبيل حياة المسلمين، وأن يكيلوا لهؤلاء الطغاة صاعًا بصاع حتى لا يجدوا سبيلًا لإبادة المسلمين واستئصال خضرائهم.

وهذه هى القضايا والمشاكل الخارجية التى واجهها رسول الله ﷺ بعدما ورد المدينة، وكان عليه أن يعالجها بحكمة بالغة حتى يخرج منها مكللًا بالنجاح.

وقد قام رسول الله ﷺ بمعالجة كل القضايا أحسن قيام، بتوفيق من الله وتأييده، فعامل كل قوم بما كانوا يستحقونه من الرأفة والرحمة أو الشدة والنكال،وذلك بجانب قيامه بتزكية النفوس وتعليم الكتاب والحكمة، ولا شك أن جانب التزكية والتعليم والرأفة والرحمة كان غالبًا على جانب الشدة والعنت، حتى عاد الأمر إلى الإسلام وأهله فى بضع سنوات، وسيجد القارئ كل ذلك جليًّا فى الصفحات الآتية.

المرحلة الأولى

بناء مجتمع جديد

قد أسلفنا أن نزول رسول الله ﷺ بالمدينة فى بنى النجار كان يوم الجمعة (١٢ ربيع الأول سنة ١ هـ/ الموافق ٢٧ سبتمبر سنة ٦٢٢م)، وأنه نزل فى أرض أمام دار أبى أيوب، وقال: «**هاهنا المنزل إن شاء الله**»، ثم انتقل إلى بيت أبى أيوب رضي الله عنه.

بناء المسجد النبوي:

وأول خطوة خطاها رسول الله ﷺ بعد ذلك هو بناء المسجد النبوى، واختار له المكان الذى بركت فيه ناقته ﷺ، فاشتراه من غلامين يتيمين كانا يملكانه، وأسهم فى بنائه بنفسه، فكان ينقل اللبِن والحجارة ويقول:

«اللهم لا عَيْشَ إلا عَيْشُ الآخرة فاغْفِرْ للأنصار والمُهَاجِرَة»

وكان يقول:

«هذا الحِمَالُ لا حِمَال خَيْبَرَ هذا أبَرُّ رَبَّنَا وأطْهَر»

وكان ذلك مما يزيد نشاط الصحابة فى العمل، حتى إن أحدهم ليقول:

لئن قَعَدْنا والنبى يَعْمَل لذاك مِنَّا العَمَلُ المُضَلَّل

وكانت فى ذلك المكان قبور للمشركين، وكان فيه خرب ونخل وشجرة من غَرْقَد، فأمر رسول الله ﷺ بقبور المشركين فنبشت، وبالخَرِب فسويت، وبالنخل والشجرة فقطعت، وصفت فى قبلة المسجد، وكانت القبلة إلى بيت المقدس، وجعلت عضادتاه من حجارة، وأقيمت حيطانه من اللبن والطين، وجعل سقفه من جريد النخل، وعُمُده الجذوع، وفرشت أرضه بالرمال والحصباء، وجعلت له ثلاثة أبواب، وطوله مما يلى القبلة إلى مؤخره مائة ذراع، والجانبان مثل ذلك أو دونه، وكان أساسه قريبًا من ثلاثة أذرع.

وبنى بجانبه بيوتًا بالحجر واللبن، وسقفها بالجريد والجذوع، وهى حجرات أزواجه ﷺ، وبعد تكامل الحجرات انتقل إليها من بيت أبى أيوب[1].

ولم يكن المسجد موضعًا لأداء الصلوات فحسب، بل كان جامعة يتلقى فيها المسلمون تعاليم الإسلام وتوجيهاته، ومنتدى تلتقى وتتآلف فيه العناصر القبلية المختلفة التى طالما

(١) صحيح البخارى ١/ ٧١، ٥٥٥، ٥٦٠، وزاد المعاد ٢/ ٥٦.

نافرت بينها النزعات الجاهلية وحروبها، وقاعدة لإدارة جميع الشئون وبث الانطلاقات، وبرلمان لعقد المجالس الاستشارية والتنفيذية.

وكان مع هذا كله دارًا يسكن فيها عدد كبير من فقراء المهاجرين اللاجئين الذين لم يكن لهم هناك دار ولا مال ولا أهل ولا بنون.

وفى أوائل الهجرة شرع الأذان، تلك النغمة العلوية التى تدوى فى الآفاق، وتهز أرجاء الوجود، تعلن كل يوم خمس مرات بأن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وتنفى كل كبرياء فى الكون وكل دين فى الوجود، إلا كبرياء الله، والدين الذى جاء به عبده محمد رسول الله. وقد تشرف برؤيته فى المنام أحد الصحابة الأخيار عبد الله بن زيد بن عبد ربه رضي الله عنه فأقره النبى ﷺ، وقد وافقت رؤياه رؤيا عمر ابن الخطاب رضي الله عنه فأقره النبى ﷺ، والقصة بكاملها مروية فى كتب السنة والسيرة[١].

المؤاخاة بين المسلمين:

ثم إن النبى ﷺ بجانب قيامه ببناء المسجد - مركز التجمع والتآلف- قام بعمل آخر من أروع ما يأثره التاريخ، وهو عمل المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، قال ابن القيم: ثم آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار فى دار أنس بن مالك، وكانوا تسعين رجلًا، نصفهم من المهاجرين، ونصفهم من الأنصار، آخى بينهم على المواساة، ويتوارثون بعد الموت دون ذوى الأرحام إلى حين وقعة بدر، فلما أنزل الله عز وجل: ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ﴾ [الأنفال: ٧٥] رد التوارث إلى الرحم دون عقد الأخوة.

وقد قيل: إنه آخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض مؤاخاة ثانية... والثبت الأول، والمهاجرون كانوا مستغنين بأخوة الإسلام وأخوة الدار وقرابة النسب عن عقد مؤاخاة فيما بينهم، بخلاف المهاجرين مع الأنصار. اهـ[٢].

ومعنى هذا الإخاء: أن تذوب عصبيات الجاهلية، وتسقط فوارق النسب واللون والوطن، فلا يكون أساس الولاء والبراء إلا الإسلام.

وقد امتزجت عواطف الإيثار والمواساة والمؤانسة وإسداء الخير فى هذه الأخوة، وملأت المجتمع الجديد بأروع الأمثال.

روى البخارى: أنهم لما قدموا المدينة آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن وسعد

---

(١) رواها الترمذى: كتاب الصلاة، باب بدء الأذان ١/ ٣٥٨، ٣٥٩، ح (١٨٩)، وأبو داود وأحمد وغيرهم.

(٢) زاد المعاد ٢/ ٥٦.

ابن الربيع، فقال لعبد الرحمن: إنى أكثر الأنصار مالًا، فاقسم مالى نصفين، ولى امرأتان، فانظر أعجبهما إليك فسمها لى، أطلقها، فإذا انقضت عدتها فتزوجها، قال: بارك الله لك فى أهلك ومالك، وأين سوقكم؟ فدلوه على سوق بنى قينقاع، فما انقلب إلا ومعه فضل من أَقِطٍ وسَمْنٍ، ثم تابع الغدو، ثم جاء يومًا وبه أثر صُفْرَة، فقال النبى ﷺ: «مَهْيَمْ؟» قال: تزوجت. قال: «كم سقت إليها؟» قال: نواة من ذهب(١).

وروى عن أبى هريرة قال: قالت الأنصار للنبى ﷺ: اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل. قال: «لا»، فقالوا: فتكفونا المؤنة ونشرككم فى الثمرة. قالوا: سمعنا وأطعنا(٢).

وهذا يدلنا على ما كان عليه الأنصار من الحفاوة البالغة بإخوانهم المهاجرين، ومن التضحية والإيثار والود والصفاء، وما كان عليه المهاجرون من تقدير هذا الكرم حق قدره، فلم يستغلوه ولم ينالوا منه إلا بقدر ما يقيم أودهم.

وحقًا فقد كانت هذه المؤاخاة حكمةً فذةً، وسياسةً حكيمةً، وحلًّا رشيدًا لكثير من المشاكل التى كان يواجهها المسلمون، والتى أشرنا إليها.

ميثاق التحالف الإسلامى(٣):

وكما قام رسول الله ﷺ بعقد هذه المؤاخاة بين المؤمنين، قام بعقد معاهدة أزاح بها

---

(١) نواة الذهب كانت قيمتها يومئذ خمسة دراهم، وقيل: كان قدرها ربع دينار. و «مهيم»: ما شأنك. انظر: صحيح البخارى: باب إخاء النبى ﷺ بين المهاجرين والأنصار ١/ ٥٥٣.

(٢) صحيح البخارى: باب إذا قال: اكفنى مؤنة النخل... إلخ مع فتح البارى ٤/ ٣٣٧، ح ٢٠٤٩، وأيضا (٢٢٩٣، ٣٧٨١، ٣٩٣٧، ٥٠٧٢، ٥١٤٨، ٥١٥٣، ٥١٥٥، ٥١٦٧، ٦٠٨٢، ٦٣٨٦)، وقصة المؤاخاة مروية فى صحيح مسلم، ح (٢٥٢٩)، وسنن أبى داود، ح (٢٩٢٦)، والأدب المفرد، ح (٥٦١)، ومسند أبى يعلى ٤/ ٣٦٦ وغيرها من الكتب.

(٣) هذا التحالف مرحلة انتقالية تمر بها الأمم أثناء التكوين والبناء، قبل التكامل والنضج، وذلك ليتم نقلهم تدريجيا من وحداتهم القبلية المتفككة- المتناحرة فيما بينها فى غالب الأحوال- إلى وحدة إسلامية متماسكة، ولإذابة عصبيتهم الجاهلية فى حرارة الأخوة الدينية. أما إذا اكتمل هذا التكوين والبناء- أى تكوين الأمة وبناءها- وأرسيت قواعد الأخوة الدينية فيما بين أفرادها، فإنها تورث فيما بينهم وحدة وتوجب حقوقًا لا يبقى بعدها أى مجال لأى تشتت يحتاج إلى تحالف المسلمين فيما بينهم، ولذلك قال رسول الله ﷺ: **«لا حلف فى الإسلام، وأيما حلف كان فى الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة»** (مسلم: فضائل الصحابة، باب المؤاخاة). أما قبل التكوين وفى مرحلة الانتقال فإن الحلف أمر مطلوب. قيل لأنس بن مالك: أبلغك أن النبى ﷺ قال: «**لا حلف فى الإسلام**»؟ فقال: قد =

ما كان بينهم من حزازات فى الجاهلية، وما كانوا عليه من نزعات قبلية جائرة، واستطاع بفضلها إيجاد وحدة إسلامية شاملة. وفيما يلى بنودها ملخصًا:

«هذا كتاب من محمد النبى ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم:

١ـ إنهم أمة واحدة من دون الناس.

٢ـ المهاجرون من قريش على رِبْعَتِهم[١] يتعاقلون بينهم، وهم يَفْدُون عَانِيهم[٢] بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وكل قبيلة من الأنصار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٣ـ وإن المؤمنين لا يتركون مُفْرَحًا[٣] بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل.

٤ـ وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم، أو ابتغى دَسِيعة[٤] ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين.

٥ـ وإن أيديهم عليه جميعًا، ولو كان ولد أحدهم.

٦ـ ولا يقتل مؤمن مؤمنا فى كافر.

٧ـ ولا ينصر كافرًا على مؤمن.

٨ – وإن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم.

٩- وإن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم.

١٠ – وإن سلم المؤمنين واحدة؛ لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم.

١١ – وإن المؤمنين يبيء[٥] بعضهم على بعض بما نال دماءهم فى سبيل الله.

١٢ – وإنه لا يجير مشرك مالًا لقريش ولا نفسًا، ولا يحول دونه على مؤمن.

= حالف النبى ﷺ بين قريش والأنصار فى دارى. (صحيح البخارى: الكفالة ح (٢٢٩٤، ٦٠٨٣، ٧٣٤٠)، ولينظر: صحيح مسلم ٤/ ١٩٦٠، ح (٢٥٢٩)، وسنن أبى داود، ح (٢٩٢٦)، والأدب المفرد، ح (٥٦١)، ومسند أبى يعلى ٤/ ٣٦٦.

(١) على حالهم قبل الإسلام. (٢) أسيرهم.

(٣) المثقل من الدين والعيال. (٤) عطية.

(٥) يمنع ويكف.

١٣- وإنه من اعتبط[(١)] مؤمنًا قتلًا عن بينة فإنه قود به إلا أن يرضى ولى المقتول.

١٤- وإن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه.

١٥- وإنه لا يحل لمؤمن أن ينصر محدثًا ولا يؤويه، وأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صَرْف ولا عَدْل.

١٦- وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإن مرده إلى الله - عز وجل - وإلى محمد ﷺ»[(٢)].

أثر المعنويات فى المجتمع:

بهذه الحكمة وبهذا التدبير أرسى رسول الله ﷺ قواعد مجتمع جديد، كانت صورته الظاهرة بيانا وآثارًا للمعانى التى كان يتمتع بها أولئك الأمجاد بفضل صحبة النبى ﷺ، وكان النبى ﷺ يتعهدهم بالتعليم والتربية، وتزكية النفوس، والحث على مكارم الأخلاق، ويؤدبهم بآداب الود والإخاء والمجد والشرف والعبادة والطاعة.

سأله رجل: أى الإسلام خير؟ قال: «**تطعم الطعام، وتقرئ السلام على من عرفت ومن لم تعرف**»[(٣)].

قال عبد الله بن سلام: لما قدم النبى ﷺ المدينة جئت، فلما تبينت وجهه، عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول ما قال: «**يا أيها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام**»[(٤)].

وكان يقول: «**لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه**»[(٥)].

ويقول: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده**»[(٦)].

ويقول: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»[(٧)].

ويقول: «**المؤمنون كرجل واحد، إن اشتكى عينه اشتكى كله، وإن اشتكى رأسه اشتكى كله**»[(٨)].

---

(١) قتله بلا جناية.
(٢) ابن هشام ١/ ٥٠٢، ٥٠٣.
(٣) صحيح البخارى ١/ ٦، ٩.
(٤) رواه الترمذى وابن ماجه والدارمى، مشكاة المصابيح ١/ ١٦٨.
(٥) رواه مسلم، مشكاة المصابيح ٢/ ٤٢٢.
(٦،٧) صحيح البخارى ١/ ٦.
(٨) رواه مسلم، مشكاة المصابيح ٢/ ٤٢٢.

ويقول: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا**»(١).

ويقول: «**لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام**»(٢).

ويقول: «**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة**»(٣).

ويقول: «**ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء**»(٤).

ويقول: «**ليس المؤمن بالذى يشبع وجاره جائع إلى جانبه**»(٥).

ويقول: «**سِباب المؤمن فسوق، وقتاله كفر**»(٦).

وكان يجعل إماطة الأذى عن الطريق صدقة، ويعدها شعبة من شعب الإيمان(٧).

وكان يحثهم على الإنفاق، ويذكر من فضائله مايقع موقعه من القلوب، فكان يقول: «**الصدقة تطفئ الخطايا كما يطفئ الماء النار**»(٨).

ويقول: «**أيما مسلم كسا مسلمًا ثوبًا على عُرى كساه الله من خُضر الجنة، وأيما مسلم أطعم مسلمًا على جوع أطعمه الله من ثمار الجنة، وأيما مسلم سقى مسلمًا على ظمأ سقاه الله من الرحيق المختوم**»(٩).

ويقول: «**اتقوا النار ولو بشق تمرة، فإن لم تجد فبكلمة طيبة**»(١٠).

وبجانب هذا كان يحث حثًّا شديدًا على الاستعفاف عن المسألة، ويذكر فضائل الصبر

---

(١) متفق عليه، مشكاة المصابيح ٢/ ٤٢٢.

(٢) صحيح البخارى ٢/ ٨٩٦.

(٣) متفق عليه، مشكاة المصابيح ٢/ ٤٢٢.

(٤) سنن أبى داود ٢/ ٣٣٥، وجامع الترمذى ٢/ ١٤.

(٥) رواه البيهقى فى شعب الإيمان، مشكاة المصابيح ٢/ ٤٢٤.

(٦) صحيح البخارى ٢/ ٨٩٣، والترمذى: كتاب البر والصلة، باب (٥٢) ٤/ ٣١١، ح (١٩٨٣).

(٧) والحديث فى ذلك مروى فى الصحيحين، انظر: مشكاة المصابيح ١/ ١٢، ١٦٧.

(٨) رواه أحمد والترمذى وابن ماجه، مشكاة المصابيح ١/ ١٤.

(٩) سنن أبى داود، مشكاة المصابيح ١/ ١٦٩، وجامع الترمذى ٤/ ٥٤٦، ح (٢٤٤٩).

(١٠) صحيح البخارى ١/ ١٩٠، ٢/ ٨٩٠.

والقناعة، فكان يعد المسألة كدوحًا أو خدوشًا أو خموشًا فى وجه السائل[١] اللهم إلا إذا كان مضطرًّا.

كما كان يبين لهم ما فى العبادات من الفضائل والأجر والثواب عند الله، وكان يربطهم بالوحى النازل عليه من السماء ربطًا موثقًا، فكان يقرؤه عليهم ويقرؤونه: لتكون هذه الدراسة إشعارًا بما عليهم من حقوق الدعوة وتبعات الرسالة، فضلًا عن ضرورة الفهم والتدبر.

وهكذا هذب تفكيرهم، ورفع معنوياتهم، وأيقظ مواهبهم، وزودهم بأعلى القيم والأقدار، حتى وصلوا إلى أعلى قمة من الكمال عرفت فى تاريخ البشر بعد الأنبياء.

يقول عبد الله بن مسعود ﵁: من كان مستنا فليستن بمن قد مات، فإن الحى لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد ﷺ، كانوا أفضل هذه الأمة؛ وأبرها قلوبًا، وأعمقها علما، وأقلها تكلفًا، اختارهم الله لصحبة نبيه، ولإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم على أثرهم، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم[٢].

ثم إن هذا الرسول القائد الأعظم ﷺ كان يتمتع من الصفات المعنوية والظاهرة، ومن الكمالات والمواهب، والأمجاد والفضائل، ومكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال بما جعلته تهوى إليه الأفئدة، وتتفانى عليه النفوس، فما يتكلم بكلمة إلا ويبادر صحابته ﵃ إلى امتثالها، وما يصدر من إرشاد أو توجيه إلا ويتسابقون إلى العمل به.

بمثل هذا استطاع النبى ﷺ أن يبنى فى المدينة مجتمعًا جديدًا أروع وأشرف مجتمع عرفه التاريخ، وأن يضع لمشاكل هذا المجتمع حلًّا تنفست له الإنسانية الصعداء، بعد أن كانت قد تعبت فى غياهب الزمان ودياجير الظلمات.

وبمثل هذه المعنويات الشامخة تكاملت عناصر المجتمع الجديد الذى واجه كل تيارات الزمان حتى صرف وجهتها، وحول مجرى التاريخ والأيام.

---

(١) رواه أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه والدارمى، مشكاة المصابيح ١/ ١٦٣.

(٢) رواه رزين، مشكاة المصابيح ١/ ٣٢.

معاهدة مع اليهود

بعد أن أرسى رسول الله ﷺ قواعد مجتمع جديد وأمة إسلامية جديدة، بإقامة الوحدة العقدية والسياسية والنظامية بين المسلمين، بدأ بتنظيم علاقاته بغير المسلمين، وكان قصده بذلك توفير الأمن والسلام والسعادة والخير للبشرية جمعاء، مع تنظيم المنطقة فى وفاق واحد، فسن فى ذلك قوانين السماح والتجاوز التى لم تعهد فى ذلك العالم الملىء بالتعصب والأغراض الفردية والعرقية.

وأقرب من كان يجاور المدينة من غير المسلمين هم اليهود - كما أسلفنا - وهم وإن كانوا يبطنون العداوة للمسلمين، لكن لم يكونوا أظهروا أية مقاومة أو خصومة بعد، فعقد معهم رسول الله ﷺ معاهدة قرر لهم فيها النصح والخير، وترك لهم فيها مطلق الحرية فى الدين والمال، ولم يتجه إلى سياسة الإبعاد أو المصادرة والخصام.

وفيما يلى أهم بنود هذه المعاهدة:

بنود المعاهدة:

١- إن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم، وكذلك لغير بنى عوف من اليهود.

٢- وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم.

٣- وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة.

٤- وإن بينهم النصح والنصحية، والبر دون الإثم.

٥- وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه.

٦- وإن النصر للمظلوم.

٧- وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

٨- وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.

٩- وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد رسول الله ﷺ.

١٠- وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها.

١١- وإن بينهم النصر على من دَهَم يثرب.. على كل أناس حصتهم من جابنهم الذى قبلهم.

١٢- وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم[1].

وبإبرام هذه المعاهدة صارت المدينة وضواحيها دولة وفاقية، عاصمتها المدينة، ورئيسها - إن صح هذا التعبير - رسول الله ﷺ، والكلمة النافذة والسلطان الغالب فيها للمسلمين.

ولتوسيع منطقة الأمن والسلام عاهد النبى ﷺ قبائل أخرى فى المستقبل بمثل هذه المعاهدة، حسب ما اقتضته الظروف، وسيأتى ذكر شىء عنها.

---

(١) انظر: ابن هشام ١/ ٥٠٣، ٥٠٤.

الكفاح الدامي

استفزازات قريش واتصالهم بعبد الله بن أبيّ:

تقدم ما أدلى به كفار مكة من التنكيلات والويلات على المسلمين فى مكة، ثم ما أتوا به من الجرائم التى استحقوا لأجلها المصادرة والقتال عند الهجرة، ثم إنهم لم يفيقوا من غيهم ولا امتنعوا عن عدوانهم بعدها، بل زادهم غيظًا أن فاتهم المسلمون ووجدوا مأمنًا ومقرًّا بالمدنية، فكتبوا إلى عبد الله بن أبى ابن سلول- وكان إذ ذاك مشركًا - بصفته رئيس الأنصار قبل الهجرة - فمعلوم أنهم كانوا قد اتفقوا عليه، وكادوا يجعلونه ملكًا على أنفسهم، لولا أن هاجر رسول الله ﷺ إليهم، وآمنوا به - كتبوا إليه وإلى أصحابه المشركين، يقولون لهم فى كلمات باتة:

إنكم آويتم صاحبنا، وإنا نقسم بالله لتقاتلنه أو لتخرجنه، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم، ونستبيح نساءكم[1].

وبمجرد بلوغ هذا الكتاب قام عبد الله بن أبى ليمتثل أوامر إخوانه المشركين من أهل مكة - وقد كان يحقد على النبى ﷺ: لما يراه أنه استبله ملكه- يقول عبد الرحمن بن كعب: فلما بلغ ذلك عبد الله بن أبى ومن كان معه من عبدة الأوثان اجتمعوا لقتال رسول الله ﷺ، فلما بلغ ذلك النبى ﷺ لقيهم، فقال: «**لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت تكيدكم بأكثر ما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم**»، فلما سمعوا ذلك من النبى ﷺ تفرقوا[2].

امتنع عبد الله بن أبى ابن سلول عن القتال إذ ذاك، لما رأى خورًا أو رشدًا فى أصحابه، ولكن يبدو من تصرفاته أنه كان متواطئًا مع قريش، فكان لا يجد فرصة إلا وينتهزها لإيقاع الشر بين المسلمين والمشركين، وكان يضم معه اليهود، ليعينوه على ذلك، ولكن تلك هى حكمة النبى ﷺ التى كانت تطفئ نار شرهم حينا بعد حين[3].

إعلان عزيمة الصد عن المسجد الحرام:

ثم إن سعد بن معاذ انطلق إلى مكة معتمرًا، فنزل على أمية بن خلف بمكة، فقال

(١،٢) أبو داود: باب خبر النضير ٢/ ١٥٤.

(٣) انظر فى هذا الصدد: صحيح البخارى ٢/ ٦٥٥، ٦٥٦، ٩١٦، ٩٢٤.

لأمية: انظر لى ساعة خلوة لعلى أن أطوف البيت، فخرج به قريبًا من نصف النهار، فلقيهما أبو جهل، فقال: يا أبا صفوان، من هذا معك؟ فقال: هذا سعد، فقال له أبو جهل: ألا أراك تطوف بمكة آمنًا وقد آويتم الصباة، وزعمتم أنكم تنصرونهم، وتعينونهم، أما والله لولا أنك مع أبى صفوان ما رجعت إلى أهلك سالمًا، فقال له سعد - ورفع صوته عليه: أما والله لئن منعتنى هذا لأمنعك ما هو أشد عليكم منه: طريقك على أهل المدينة[(١)].

قريش تهدد المهاجرين:

وكأن قريشًا كانت تعتزم على شر أشد من هذا، وتفكر فى القيام بنفسها للقضاء على المسلمين، وخاصة على النبى ﷺ.

ولم يكن هذا مجرد وهم أو خيال، فقد تأكد لدى رسول الله ﷺ من مكائد قريش وإرادتها على الشر ما كان لأجله لا يبيت إلا ساهرًا، أو فى حرس من الصحابة. روى الشيخان فى صحيحيهما عن عائشة رضي الله عنها قالت: سهر رسول الله ﷺ مَقْدَمَه المدينة ليلة فقال: «**ليت رجلًا صالحًا من أصحابى يحرسنى الليلة**»، قالت: فبينما نحن كذلك سمعنا خشخشة سلاح، فقال: «**من هذا؟**» قال: سعد بن أبى وقاص، فقال له رسول الله ﷺ: «**ما جاء بك؟**» فقال: وقع فى نفسى خوف على رسول الله ﷺ، فجئت أحرسه، فدعا له رسول الله ﷺ، ثم نام[(٢)].

ولم تكن هذه الحراسة مختصة ببعض الليالى، بل كان ذلك أمرًا مستمرًّا، فقد روى عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يحرس ليلًا حتى نزل: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة، فقال: «**يا أيها الناس، انصرفوا عنى فقد عصمنى الله عز وجل**»[(٣)].

ولم يكن الخطر مقتصرًا على رسول الله ﷺ، بل كان يحدق بالمسلمين كافة، فقد روى أبى بن كعب، قال: لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة، وآوتهم الأنصار، رمتهم العرب عن قوس واحدة، وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح، ولا يصبحون إلا فيه.

---

(١) صحيح البخارى: كتاب المغازى ٢/ ٥٦٣.

(٢) صحيح البخارى: كتاب الجهاد، باب الحراسة فى الغزو فى سبيل الله، ح (٢٨٨٥) فتح البارى ٦/ ٩٥ وح (٧٢٣١) فتح البارى ١٣/ ٢٣٢، وصحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب فضل سعد بن أبى وقاص ٤/ ١٨٧٥، ح (٤٠). والخشخشة: حركة لها صرت كصوت السلاح.

(٣) جامع الترمذى: تفسير سورة المائدة ٥/ ٢٣٤، ح (٣٠٤٦).

الإذن بالقتال:

فى هذه الظروف الخطيرة التى كانت تهدد كيان المسلمين بالمدينة، وتنبئ عن قريش أنهم لا يفيقون عن غيهم ولا يمتنعون عن تمردهم بحال، أنزل الله تعالى الإذن بالقتال للمسلمين ولم يفرضه عليهم، قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الحج].

وأنزل معه آيات بين لهم فيها أن هذا الإذن إنما هو لإزاحة الباطل وإقامة شعائر الله، قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ ﴾ [الحج: ٤١].

وكان الإذن مقتصرًا على قتال قريش، ثم تطور فيما بعد مع تغير الظروف حتى وصل إلى مرحلة الوجوب، وجاوز قريشًا إلى غيرهم، ولا بأس أن نذكر تلك المراحل بإيجاز قبل أن ندخل فى ذكر الأحداث:

١- **اعتبار مشركى قريش محاربين؛** لأنهم بدأوا بالعدوان، فحق للمسلمين أن يقاتلوهم ويصادروا أموالهم دون غيرهم من بقية مشركى العرب.

٢- **قتال كل من تمالأ من مشركى العرب مع قريش واتحد معهم،** وكذلك كل من تفرد بالاعتداء على المسلمين من غير قريش.

٣- **قتال من خان أو تحيز للمشركين من اليهود الذين كان لهم عقد وميثاق مع** رسول الله ﷺ، ونبذ ميثاقهم إليهم على سواء.

٤- **قتال من بادأ بعداوة المسلمين من أهل الكتاب،** كالنصارى، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

٥- **الكف عمن دخل فى الإسلام، مشركًا كان أو يهوديًّا أو نصرانيًّا** أو غير ذلك، فلا يتعرض لنفسه وماله إلا بحق الإسلام، وحسابه على الله.

ولما نزل الإذن بالقتال رأى رسول الله ﷺ أن يبسط سيطرته على الطريق الرئيس الذى تسلكه قريش من مكة إلى الشام فى تجاراتهم، واختار لذلك خطتين:

الأولى: عقد معاهدات الحلف أو عدم الاعتداء مع القبائل التى كانت مجاورة لهذا الطريق، أو كانت تقطن ما بين هذا الطريق وما بين المدينة، وقد عقد ﷺ معاهدة مع جهينة قبل الأخذ فى النشاط العسكرى، وكانت مساكنهم على ثلاث مراحل من المدينة، كما عقد

معاهدات أخرى أثناء دورياته العسكرية، وسيأتى ذكرها.

الثانية: إرسال البعوث واحدة تلو الأخرى إلى هذا الطريق.

الغزوات والسرايا قبل بدر[(١)]:

ولتنفيذ هاتين الخطتين بدأ بالتحركات العسكرية فعلًا بعد نزول الإذن بالقتال، وكانت أشبه بالدوريات الاستطلاعية، وكان المطلوب منها كما أشرنا:

* الاستكشاف والتعرف على الطرق المحيطة بالمدينة، والمسالك المؤدية إلى مكة.

* عقد المعاهدات مع القبائل التى مساكنها على هذه الطرق.

* إشعار مشركى يثرب ويهودها وأعراب البادية الضاربين حولها بأن المسلمين أقوياء وأنهم تخلصوا من ضعفهم القديم.

* إنذار قريش عُقبَى طيشها، حتى تفيق عن غَيِّهَا الذى لا يزال يتوغل فى أعماقها، وعلها تشعر بتفاقم الخطر على اقتصادها وأسباب معايشها فتجنح إلى السلم، وتمتنع عن إرادة قتال المسلمين فى عقر دارهم، وعن الصد عن سبيل الله، وعن تعذيب المستضعفين من المؤمنين فى مكة، حتى يصير المسلمون أحرارًا فى إبلاغ رسالة الله فى ربوع الجزيرة.

وفيما يلى أحوال هذه السرايا بالإيجاز:

١ - سرية سيف البحر:

فى رمضان سنة ١هـ، الموافق مارس سنة ٦٢٣م، أمر رسول الله ﷺ على هذه السرية حمزة بن عبد المطلب، وبعثه فى ثلاثين رجلًا من المهاجرين يعترضون عيرًا لقريش جاءت من الشام، وفيها أبو جهل بن هشام فى ثلاثمائة رجل، فبلغوا سيف البحر من ناحية العيص[(٢)]، فالتقوا واصطفوا للقتال، فمشى مجدى بن عمرو الجهنى - وكان حليفًا للفريقين جميعًا - بين هؤلاء وهؤلاء حتى جحز بينهم فلم يقتتلوا.

وكان لواء حمزة أول لواء عقده رسول الله ﷺ، وكان أبيض، وحمله أبو مرثد كَنَّاز بن حصين الغَنَوِىّ.

---

(١) سمى المؤرخون ما خرج فيه النبى ﷺ بنفسه: غزوة، حارب فيها أم لم يحارب، وما خرج فيه أحد قادته: سرية.

(٢) العيص- بالكسر: مكان بين ينبع والمروة ناحية البحر الأحمر.

٢-سرية رَابغ:

فى شوال سنة ١ من الهجرة، الموافق أبريل سنة ٦٢٣م، بعث لها رسول الله ﷺ عبيدة ابن الحارث بن المطلب فى ستين رجلًا من المهاجرين، فلقى أبا سفيان - وهو فى مائتين - على بطن رابغ، وقد ترامى الفريقان بالنبل، ولم يقع قتال.

وفى هذه السرية انضم رجلان من جيش مكة إلى المسلمين، وهما المقداد بن عمرو البهرانى، وعتبة بن غَزْوَان المازنى، وكانا مسلمين خرجا مع الكفار ليكون ذلك وسيلة للوصول إلى المسلمين، وكان لواء عبيدة أبيض، وحامله مِسْطَح بن أُثاثة بن المطلب بن عبد مناف.

٣- سرية الخَرَّار[١]:

فى ذى العقدة سنة ١هـ، الموافق مايو سنة ٦٢٣م، بعث لها رسول الله ﷺ سعد بن أبى وقاص فى عشرين رجلا يعترضون عيرًا لقريش، وعهد إليه إلا يجاوز الخرار، فخرجوا مشاة يكمنون بالنهار، ويسيرون بالليل، حتى بلغوا الخرار صبيحة خمس، فوجدوا العير قد مرت بالأمس.

كان لواء سعد رضي الله عنه أبيض، وحمله المقداد بن عمرو.

٤-غزوة الأبواء أو وَدَّان[٢]:

فى صفر سنة ٢هـ، الموافق أغسطس سنة ٦٢٣م، خرج رسول الله ﷺ فيها بنفسه فى سبعين رجلًا من المهاجرين خاصة يعترض عيرًا لقريش، حتى بلغ ودان، فلم يلق كيدًا، واستخلف فيها على المدينة سعد بن عبادة رضي الله عنه.

وفى هذه الغزوة عقد معاهدة حلف مع عمرو بن مَخْشِىّ الضَّمْرِىّ، وكان سيد بنى ضمرة فى زمانه، وهذا نص المعاهدة: «**هذا كتاب من محمد رسول الله لبنى ضمره، فإنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم، وإن لهم النصر على من رامهم إلا أن يحاربوا دين الله، ما بَلَّ بَحْرُ صُوفَةَ، وأن النبى إذا دعاهم لنصره أجابوه**»[٣].

---

(١) الخرار- بالفتح فالتشديد: موضع بالقرب من الجحفة.

(٢) وَدّان- بالفتح فالتشديد: موضع بين مكة والمدينة، بينه وبين رابغ مما يلى المدينة ٢٩ ميلًا، والأبواء: موضع بالقرب من ودان.

(٣) انظر: المواهب اللدنية ١/ ٧٥ وشرحه للزرقانى. وما بل بحر صوفة: أى ما دام فى البحر ما يبلّ الصوفة.

وهذه أول غزوة غزاها رسول الله ﷺ، وكانت غيبته خمس عشرة ليلة، وكان اللواء أبيض وحامله حمزة بن عبد المطلب.

٥- غزوة بُوَاط:

فى شهر ربيع الأول سنة ٢ هـ الموافق سبتمبر سنة ٦٢٣م، خرج فيها رسول الله ﷺ فى مائتين من أصحابه، يعترض عيرًا لقريش فيها أمية بن خلف الْجُمَحِىّ ومائة رجل من قريش، وألفان وخمسمائة بعير، فبلغ بواطا من ناحية رَضْوَى[1] ولم يلق كيدا.

واستخلف فى هذه الغزوة على المدينة سعد بن معاذ، واللواء كان أبيض، وحامله سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه.

٦-غزوة سَفَوان:

فى شهر ربيع الول سنة ٢هـ، الموافق سبتمبر سنة ٦٢٣م، أغار كُرْز بن جابر الفهرى فى قوات خفيفة من المشركين على مراعى المدينة، ونهب بعض المواشى، فخرج رسول الله ﷺ فى سبعين رجلًا من أصحابه لمطاردته، حتى بلغ واديًا يقال له: سفوان من ناحية بدر، ولكنه لم يدرك كرزًا وأصحابه، فرجع من دون حرب، وهذه الغزوة تسمى بغزوة بدر الأولى.

واستخلف فى هذه الغزوة على المدينة زيد بن حارثة، وكان اللواء أبيض، وحامله على ابن أبى طالب.

٧- غزوة ذى الْعُشَيْرَة:

فى جمادى الأولى، وجمادى الآخرة سنة ٢هـ، الموافق نوفمبر وديسمبر سنة ٦٢٣هـ، خرج فيها رسول الله ﷺ فى خمسين ومائة ويقال: فى مائتين، من المهاجرين، ولم يكره أحدًا على الخروج، وخرجوا على ثلاثين بعيرًا يعتقبونها، يعترضون عيرًا لقريش، ذاهبة إلى الشام، وقد جاء الخبر بفصولها من مكة، فيها أموال لقريش فبلغ ذا العشيرة[2]، فوجد العير قد فاتته بأيام، وهذه هى العير التى خرج فى طلبها حين رجعت من الشام، فصارت سببًا لغزوة بدر الكبرى.

---

(١) بُوَاط ورضوى: جبلان فرعان أصلهما واحد من جبال جهينة مما يلى طريق الشام، بينه وبين المدينة نحو ٤٨ ميلًا.

(٢) العشَيرة- مصغرًا، ويقال: العشيراء بالمد، وقيل: العسيرة، بالمهملة: موضع بناحية ينبع.

وكان خروجه ﷺ فى أواخر جمادى الأولى، ورجوعه فى أوائل جمادى الآخرة، على ما قاله ابن إسحاق، ولعل هذه هو سبب اختلاف أهل السير فى تعيين شهر هذه الغزوة.

وفى هذه الغزوة عقد رسول الله ﷺ معاهدة عدم اعتداء مع بنى مُدْلِج وحلفائهم من بنى ضَمْرَة.

واستخلف على المدينة فى هذه الغزوة أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومى، وكان اللواء أبيض، وحامله حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه.

٨- سرية نخلة:

فى رجب سنة ٢هـ، الموافق يناير سنة ٦٢٤م، بعث رسول الله ﷺ فيها عبدالله ابن جحش الأسدي إلى نخلة في اثنى عشر رجلا من المهاجرين، كل اثنين يعتقبان على بعير.

وكان رسول الله ﷺ كتب له كتابًا، وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين، ثم ينظر فيه. فسار عبد الله ثم قرأ الكتاب بعد يومين، فإذا فيه: «**إذا نظرت فى كتابى هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف، فترصد بها عير قريش وتعلم لنا من أخبارهم**». فقال: سمعًا وطاعة، وأخبر أصحابه بذلك، وأنه لا يستكرههم، فمن أحب الشهادة فلينهض، ومن كره الموت فليرجع، وأما أنا فناهض، فنهضوا كلهم، غير أنه لما كان فى أثناء الطريق أضل سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان بعيرًا لهما كانا يعتقبانه، فتخلفا فى طلبه.

وسار عبد الله بن جحش حتى نزل بنخلة، فمرت عير لقريش تحمل زبيبًا وأدمًا وتجارة، وفيها عمرو بن الخضرمى، وعثمان ونوفل ابنا عبد الله بن المغيرة، والحكم بن كيسان مولى بنى المغيرة. فتشاور المسلمون وقالوا: نحن فى آخر يوم من رجب الشهر الحرام، فإن قاتلناهم انتهكنا الشهر الحرام، وإن تركناهم الليلة دخلوا الحرم، ثم اجتمعوا على اللقاء، فرمى أحدهم عمرو بن الحضرمى فقتله، وأسروا عثمان والحكم وأفلت نوفل، ثم قدموا بالعير والأسيرين إلى المدينة، وقد عزلوا من ذلك الخمس، وهو أول خمس كان فى الإسلام، وأول قتيل فى الإسلام، وأول أسيرين فى الإسلام.

وأنكر رسول الله ﷺ ما فعلوه، وقال: «**ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام**»، وتوقف عن التصرف فى العير والأسيرين.

ووجد المشركون فيما حدث فرصة لاتهام المسلمين بأنهم قد أحلوا ما حرم الله، وكثر فى ذلك القيل والقال، حتى نزل الوحى حاسماً هذه الأقاويل وأن ما عليه المشركون أكبر

وأعظم مما ارتكبه المسلمون: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ [البقرة: ٢١٧].

فقد صرح هذا الوحى بأن الضجة التى افتعلها المشركون لإثارة الريبة فى سيرة المقاتلين المسلمين لا مساغ لها، فإن الحرمات المقدسة قد انتهكت كلها فى محاربة الإسلام، واضطهاد أهله، ألم يكن المسلمون مقيمين بالبلد الحرام حين تقرر سلب أموالهم وقتل نبيهم؟ فما الذى أعاد لهذه الحرمات قداستها فجأة، فأصبح انتهاكها معرة وشناعة؟ لا جرم أن الدعاية التى أخذ ينشرها المشركون دعاية تبتنى على وقاحة ودعارة.

وبعد ذلك أطلق رسول الله ﷺ سراح الأسيرين، وأدى دية المقتول إلى أوليائه(١).

* * *

تلكم السرايا والغزوات قبل بدر، لم يجر فى أحد منها سلب الأموال وقتل الرجال إلا بعد ما ارتكبه المشركون فى قيادة كرز بن جابر الفهرى، فالبداية إنما هى من المشركين مع ما كانوا قد أتوه قبل ذلك من الأفاعيل.

وبعد وقوع ما وقع فى سرية عبد الله بن جحش تحقق خوف المشركين وتجسد أمامهم الخطر الحقيقى، ووقعوا فيما كانوا يخشون الوقوع فيه، وعلموا أن المدينة فى غاية من التيقظ والتربص، تترقب كل حركة من حركاتهم التجارية، وأن المسلمين يستطيعون أن يزحفوا إلى ثلاثمائة ميل تقريبًا، ثم يقتلوا ويأسروا رجالهم، ويأخذوا أموالهم، ويرجعوا سالمين غانمين، وشعر هؤلاء المشركون بأن تجارتهم إلى الشام أمام خطر دائم، لكنهم بدل أن يفيقوا عن غيهم، ويأخذوا طريق الصلاح والموادعة - كما فعلت جهينة وبنو ضمرة - ازدادوا حقدًا وغيظًا، وصمم صناديدهم وكبراؤهم على ما كانوا يوعدون ويهددون به من قبل: من إبادة المسلمين فى عقر دارهم، وهذا هو الطيش الذى جاء بهم إلى بدر.

أما المسلمون فقد فرض الله عليهم القتال بعد وقعة سرية عبد الله بن جحش فى شهر شعبان سنة ٢هـ، وأنزل فى ذلك آيات بينات: ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ

(١) أخذنا تفاصيل هذه السرايا والغزوات من زاد المعاد ٢/ ٨٣- ٨٥، وابن هشام ١/ ٥٩١- ٦٠٥، وفى المصادر اختلاف فى ترتيب هذه الغزوات والسرايا، وفى تعيين عدد الخارجين فيها. واعتمدنا فى ذلك على تحقيق العلامة ابن القيم.

أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ [البقرة].

ثم لم يلبث أن أنزل الله تعالى عليهم آيات من نوع آخر، يعلمهم فيها طريقة القتال، ويحثهم عليه، ويبين لهم بعض أحكامه: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ [محمد].

ثم ذم الله الذين طفقت أفئدتهم ترجف وتخفق حين سمعوا الأمر بالقتال: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ [محمد: ٢٠].

وإيجاب القتال والحض عليه، والأمر بالاستعداد له هو عين ما كانت تقتضيه الأحوال، ولو كان هناك قائد يسبر أغوار الظروف لأمر جنده بالاستعداد لجميع الطوارئ، فكيف بالرب العليم المتعال، فالظروف كانت تقتضى عراكًا داميًا بين الحق والباطل، وكانت وقعة سرية عبد الله بن جحش ضربة قاسية على غيرة المشركين وحميتهم، آلمتهم وتركتهم يتقلبون على مثل الجمر.

وآيات الأمر بالقتال تدل بفحواها على قرب العراك الدامى، وأن النصر والغلبة فيه للمسلمين نهائيا، انظر كيف يأمر الله المسلمين بإخراج المشركين من حيث أخرجوهم، وكيف يعلمهم أحكام الجند المتغلب فى الأسارى والإثخان فى الأرض حتى تضع الحرب أوزارها، هذه كلها إشارة إلى غلبة المسلمين نهائيًا. ولكن ترك كل ذلك مستورًا حتى يأتى كل رجل بما فيه من التحمس فى سبيل الله.

وفى هذه الأيام - فى شعبان سنة ٢هـ / فبراير ٦٢٤م - أمر الله تعالى بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام، وأفاد ذلك أن الضعفاء والمنافقين من اليهود الذين كانوا قد دخلوا في صفوف المسلمين لإثارة البلبلة، انكشفوا عن المسلمين ورجعوا إلى ما كانوا عليه، وهكذا تطهرت صفوف المسلمين عن كثير من أهل الغدر والخيانة.

ولعل فى تحويل القبلة إشارة لطيفة إلى بداية دور جديد لا ينتهى إلا بعد احتلال

المسلمين هذه القبلة، أو ليس من العجب أن تكون قبلة قوم بيد أعدائهم، وإن كانت بأيديهم فعلا فلابد من تخليصها يوما ما إن كانوا على الحق.

وبهذه الأوامر والإشارات زاد نشاط المسلمين، واشتد شوقهم إلى الجهاد فى سبيل الله، ولقاء العدو فى معركة فاصلة لإعلاء كلمة الله.

* * *

غزوة بدر الكبرى

أول معركة من معارك الإسلام الفاصلة

سبب الغزوة:

سبق فى ذكر غزوة العُشَيْرَة أن عيرًا لقريش أفلتت من النبى ﷺ فى ذهابها من مكة إلى الشام، فلما قرب رجوعها من الشام إلى مكة بعث رسول الله ﷺ طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد إلى الشمال ليقوما باكتشاف خبرها، فوصلا إلى الحَوْرَاء ومكثا حتى مر بهما أبو سفيان بالعير، فأسرعا إلى المدينة وأخبرا رسول الله ﷺ الخبر.

وكانت العير تحمل ثروات طائلة لكبار أهل مكة ورؤسائها: ألف بعير موقرة بأموال لا تقل عن خمسين ألف دينار ذهبى. ولم يكن معها من الحرس إلا نحو أربعين رجلا.

إنها فرصة ذهبية للمسلمين ليصيبوا أهل مكة بضربة اقتصادية قاصمة، تتألم لها قلوبهم على مر العصور، لذلك أعلن رسول الله ﷺ قائلًا: «**هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها**».

ولم يعزم على أحد بالخروج، بل ترك الأمر للرغبة المطلقة، لما أنه لم يكن يتوقع عند هذا الانتداب أنه سيصطدم بجيش مكة - بدل العير- هذا الاصطدام العنيف فى بدر؛ ولذلك تخلف كثير من الصحابة فى المدينة، وهم يحسبون أن مضى رسول الله ﷺ فى هذا الوجه لن يعدو ما ألفوه فى السرايا والغزوات الماضية؛ ولذلك لم ينكر على أحد تخلفه فى هذه الغزوة.

مبلغ قوة الجيش الإسلامى وتوزيع القيادات:

واستعد رسول الله ﷺ للخروج ومعه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا (٣١٣، أو ٣١٤، أو ٣١٧ رجلًا - ٨٢ أو ٨٣ أو ٨٦ من المهاجرين و ٦١ من الأوس و ١٧٠ من الخزرج) ولم يحتفلوا لهذا الخروج احتفالا بليغا، ولا اتخذوا أهبتهم كاملة، فلم يكن معهم إلا فرس[(١)] أو فرسان: فرس للزبير ابن العوام، وفرس للمقداد بن الأسود الكندى، وكان معهم سبعون بعيرا يعتقب الرجلان والثلاثة على بعير واحد، وكان رسول الله ﷺ وعلىّ ومَرْثَدَ بن أبى مرثد

---

(١) وهذا رواه أبو يعلى فى مسنده ١/ ٢٤٢، ح (٢٨٠) و ١/ ٢٦٠، ح (٣٠٥)، وروى ذلك أيضًا الإمام أحمد فى مسنده ١/ ١٢٥، ١٣٨.

الغَنِوىّ يعتقبون بعيرًا واحدًا.

واستخلف على المدينة وعلى الصلاة ابن أم مكتوم، فلما كان بالرَّوْحَاء رد أبا لُبابة بن عبد المنذر، واستعمله على المدينة.

ودفع لواء القيادة العامة إلى مصعب بن عمير القرشى العبدرى، وكان هذا اللواء أبيض.

وقسم جيشه إلى كتيبتين:

١- **كتيبة المهاجرين**: وأعطى رايتها على بن أبى طالب، ويقال لها: العُقَاب.

٢- **وكتيبة الأنصار**: وأعطى رايتها سعد بن معاذ. (وكانت الرايتان سوداوين).

وجعل على قيادة الميمنة الزبير بن العوام، وعلى الميسرة المقداد بن عمرو- وكانا هما الفارسين الوحيدين فى الجيش - كما سبق - وجعل على الساقة قيس بن أبى صَعْصَعَة، وظلت القيادة العامة فى يده ﷺ كقائد أعلى للجيش.

الجيش الإسلامى يتحرك نحو بدر:

وسار رسول الله ﷺ فى هذا الجيش غير المتأهب، فخرج من نقب المدينة، ومضى على الطريق الرئيسى المؤدى إلى مكة، حتى بلغ بئر الروحاء، فلما ارتحل منها ترك طريق مكة إلى اليسار، وانحرف ذات اليمين على النازية يريد بدرًا، فسلك فى ناحية منه حتى جزع واديًا [١] يقال له: رُحْقَان بين النازية وبين مَضِيق الصفراء، ثم مر على المضيق ثم انصب منه حتى قرب من الصفراء، ومن هنالك بعث بَسْبَس بن عمرو الجهنى وعدى بن أبى الزَّغْبَاء الجهنى إلى بدر يتجسسان له أخبار العير.

النذير فى مكة:

وأما خبر العير فإن أبا سفيان - وهو المسئول عنها - كان على غاية من الحيطة والحذر، فقد كان يعلم أن طريق مكة محفوف بالأخطار، وكان يتحسس الأخبار ويسأل من لقى من الركبان، ولم يلبث أن نقلت إليه استخباراته بأن محمدًا ﷺ قد استنفر أصحابه ليوقع بالعير، وحينئذ استأجر أبو سفيان ضَمْضَم بن عمرو الغفارى إلى مكة مستصرخًا لقريش بالنفير إلى عيرهم؛ ليمنعوه من محمد ﷺ وأصحابه، وخرج ضمضم سريعًا حتى أتى مكة، فخرخ ببطن الوادى واقفًا على بعيره، وقد جَدَع أنفه وحَوَّلَ رَحْلَه، وشَقَّ قميصه، وهو يقول: يا معشر

---

(١) جزع الوادى: قطعه عرضًا.

قريش، اللَّطِيمَة[1]، اللطيمة، أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه، لا أرى أن تدركوها، الغوث، الغوث... الغوث.

أهل مكة يتجهزون للغزو:

فتحفز الناس سراعًا وقالوا: أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمى؟ كلا والله ليعلمن غير ذلك، فكانوا بين رجلين: إما خارج، وإما باعث مكانه رجلًا، وأوعبوا[2] فى الخروج فلم يتخلف من أشرافهم أحد سوى أبى لهب، فإنه عوض عنه رجلًا كان له عليه دين، وحشدوا من حولهم من قبائل العرب، ولم يتخلف عنهم أحد من بطون قريش إلا بنى عدى فلم يخرج منهم أحد.

قوام الجيش المكي:

وكان قوام هذا الجيش نحو ألف وثلاثمائة مقاتل فى بداية سيره، وكان معه مائة فرس وستمائة دِرْع، وجمال كثيرة لا يعرف عددها بالضبط، وكان قائده العام أبا جهل بن هشام، وكان القائمون بتموينه تسعة رجال من أشراف قريش، فكانوا ينحرون يومًا تسعًا ويومًا عشرًا من الإبل.

مشكلة قبائل بنى بكر:

ولما أجمع هذا الجيش على المسير ذكرت قريش ما كان بينها وبين بنى بكر من العداوة والحرب، فخافوا أن تضربهم هذه القبائل من الخلف، فيكونوا بين نارين، فكاد ذلك يثنيهم، ولكن حينئذ تبدى لهم إبليس فى صورة سُرَاقة بن مالك بن جُعْشُم المدلجى - سيد بنى كنانة - فقال لهم: أنا لكم جار من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشىء تكرهونه.

جيش مكة يتحرك:

وحينئذ خرجوا من ديارهم، كما قال الله: ﴿بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٤٧]، وأقبلوا - كما قال رسول الله ﷺ - بحدهم وحديدهم يحادون الله ويحادون رسوله ﴿وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [القلم]، وعلى حمية وغضب وحنق على رسول الله ﷺ وأصحابه؛ لجرأة هؤلاء على قوافلهم.

تحركوا بسرعة فائقة نحو الشمال فى اتجاه بدر، وسلكوا فى طريقهم وادى عُسْفَان، ثم قُدَيْدًا، ثم الجُحْفَة، وهناك تلقوا رسالة جديدة من أبى سفيان يقول لهم فيها: إنكم إنما

---

(١) اللَّطِيمة: الإبل تحمل الطِّيب. (٢) جمعوا.

خرجتم لتحرزوا عيركم ورجالكم وأموالكم، وقد نجاها الله فارجعوا.

العير تفلت:

وكان من قصة أبى سفيان أنه كان يسير على الطريق الرئيسى، ولكنه لم يزل حذرًا متيقظًا، وضاعف حركاته الاستكشافية، ولما اقترب من بدر تقدم عيره حتى لقى مَجْدِيَّ بن عمرو، وسأله عن جيش المدينة، فقال: ما رأيت أحدًا أنكره إلا أنى قد رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا التل، ثم استقيا فى شن لهما، ثم انطلقا، فبادر أبو سفيان إلى مناخهما، فأخذ من أبعار بعيرهما، ففته فإذا فيه النوى، فقال: هذه والله علائف يثرب، فرجع إلى عيره سريعًا، وضرب وجهها محولًا اتجاهها نحو الساحل غربًا، تاركًا الطريق الرئيسى الذى يمر ببدر على اليسار، وبهذا نجا بالقافلة من الوقوع فى قبضة جيش المدينة، وأرسل رسالته إلى جيش مكة التى تلقاها فى الجحفة.

هَمّ الجيش المكى بالرجوع، ووقوع الانشقاق فيه:

ولما تلقى هذه الرسالة جيش مكة هم بالرجوع، ولكن قام طاغية قريش أبو جهل فى كبرياء وغطرسة قائلًا: والله لا نرجع حتى نرد بدرًا، فنقيم بها ثلاثًا، فننحر الجَزُور، ونطعم الطعام، ونسقى الخمر، وتعزف لنا القِيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبدًا.

ولكن - على رغم أبى جهل - أشار الأَخْنَس بن شَرِيق بالرجوع فعصوه،فرجع هو وبنو زُهْرَة - وكان حليفًا لهم، ورئيسًا عليهم فى هذا النفير - فلم يشهد بدرًا زهرى واحد، وكانوا حوالى ثلاثمائة رجل،واغتبطت بنو زهرة بَعْدُ برأى الأخنس بن شريق، فلم يزل فيهم مطاعًا معظمًا.

وأرادت بنو هاشم الرجوع فاشتد عليهم أبو جهل، وقال: لا تفارقنا هذه العصابة حتى نرجع.

فسار جيش مكة وقوامه ألف مقاتل بعد رجوع بنى زهرة - وهو يقصد بدرًا - فواصل سيره حتى نزل قريبًا من بدر، وراء كثيب يقع بالعدوة القصوى على حدود وادى بدر.

موقف الجيش الإسلامى فى ضيق وحرج:

أما استخبارات جيش المدينة فقد نقلت إلى رسول الله ﷺ - وهو لا يزال فى الطريق

بوادى ذَفِرَان - خبر العير والنفير، وتأكد لديه بعد التدبر فى تلك الأخبار أنه لم يبق مجال لاجتناب اللقاء الدامى، وأنه لا بد من إقدام يبنى على الشجاعة والبسالة، والجراءة، والجسارة، فمما لا شك فيه أنه لو ترك جيش مكة يجوس خلال تلك المنطقة يكون ذلك تدعيماً لمكانة قريش العسكرية، وامتدادًا لسلطانها السياسى، وإضعافًا لكلمة المسلمين وتوهينًا لها،بل ربما تبقى الحركة الإسلامية بعد ذلك جسدًا لا روح فيه، ويجرؤ على الشر كل من فيه حقد أو غيظ على الإسلام فى هذه المنطقة.

ثم هل هناك ضمان للمسلمين بامتناع جيش مكة عن مواصلة سيره نحو المدينة، حتى ينقل المعركة إلى أسوارها، ويغزو المسلمين فى عقر دارهم؟ كلا ! فلو حدث من جيش المدينة نكول ما، لكان له أسوأ الأثر على هيبة المسلمين وسمعتهم.

المجلس الاستشاري:

ونظرًا إلى هذا التطور الخطير المفاجئ عقد رسول الله ﷺ مجلسًا عسكريًّا استشاريًّا أعلى، أشار فيه إلى الوضع الراهن، وتبادل فيه الرأى مع عامة جيشه وقادته. وحينئذ تزعزع قلوب فريق من الناس،وخافوا اللقاء الدامى،وهم الذين قال الله فيهم: ﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [الأنفال]، وأما قادة الجيش فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسن،ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن،ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله، امض لما أراك الله،فنحن معك،والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [المائدة]، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى بَرْك الغِمَاد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه.

فقال رسول الله ﷺ خيرًا، ودعا له به.

وهؤلاء القادة الثلاثة كانوا من المهاجرين، وهم أقلية فى الجيش، فأحب رسول الله ﷺ أن يعرف رأى قادة الأنصار؛ لأنهم كانوا يمثلون أغلبية الجيش، ولأن ثقل المعركة سيدور على كواهلهم، مع أن نصوص العقبة لم تكن تلزمهم بالقتال خارج ديارهم، فقال بعد سماع كلام هؤلاء القادة الثلاثة: «**أشيروا علىّ أيها الناس**» وإنما يريد الأنصار، وفطن إلى ذلك قائد الأنصار وحامل لوائهم سعد بن معاذ.

فقال: والله، ولكأنك تريدنا يا رسول الله؟

قال: «**أجل**».

قال: فقد آمنا بك، فصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا، إنا لصُبُر فى الحرب، صُدَّق فى اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تَقَرَّ به عينك، فسِرْ بنا على بركة الله.

وفى رواية: أن سعد بن معاذ قال لرسول الله ﷺ: لعلك تخشى أن تكون الأنصار ترى حقًّا عليها ألا تنصرك إلا فى ديارهم، وإنى أقول عن الأنصار وأجيب عنهم: فاظعن حيث شئت، وصِلْ حَبْل من شئت، واقطع حبل من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وأعطنا ما شئت، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبع لأمرك، فو الله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غِمْدان لنسيرن معك، ووالله لئن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك.

فَسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد، ونشطه ذلك، ثم قال: «**سيروا وأبشروا، فإن الله تعالى قد وعدنى إحدى الطائفتين، والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم**».

الجيش الإسلامى يواصل سيره:

ثم ارتحل رسول الله ﷺ من ذَفِرَان، فسلك على ثنايا يقال لها: الأصافر، ثم انحط منها إلى بلد يقال له: الدَّبَّة، وترك الحَنَّان بيمين - وهو كَثِيب عظيم كالجبل - ثم نزل قريبًا من بدر.

الرسول ﷺ يقوم بعملية الاستكشاف:

وهناك قام ﷺ بنفسه بعملية الاستكشاف مع رفيقه فى الغار أبى بكر الصديق رضي الله عنه، وبينما هما يتجولان حول معسكر مكة إذا هما بشيخ من العرب، فسأله رسول الله ﷺ عن قريش وعن محمد وأصحابه - سأل عن الجيشين زيادة فى التكتم - ولكن الشيخ قال: لا أخبركما حتى تخبرانى ممن أنتما؟ فقال له رسول الله ﷺ: «**إذا أخبرتنا أخبرناك**»، قال: أو ذاك بذاك؟ قال: «**نعم**».

قال الشيخ: فإنه بلغنى أن محمدًا وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذى أخبرنى فهم اليوم بمكان كذا وكذا - للمكان الذى به جيش المدينة- وبلغنى أن قريشًا خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذى أخبرنى فهم اليوم بمكان كذا وكذا - للمكان

الذى به جيش مكة.

ولما فرغ من خبره قال: ممن أنتما؟ فقال له رسول الله ﷺ: «**نحن من ماء**»، ثم انصرف عنه، وبقى الشيخ يتفوه: ما من ماء؟ أمن ماء العراق؟

الحصول على أهم المعلومات عن الجيش المكي:

وفى مساء ذلك اليوم بعث ﷺ استخباراته من جديد ليبحث عن أخبار العدو، وقام لهذه العملية ثلاثة من قادة المهاجرين؛ على بن أبى طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص فى نفر من أصحابه، ذهبوا إلى ماء بدر فوجدوا غلامين يستقيان لجيش مكة، فألقوا عليهما القبض، وجاءوا بهما إلى الرسول ﷺ وهو فى الصلاة، فاستخبرهما القوم، فقالا: نحن سقاة قريش، بعثونا نسقيهم من الماء، فكره القوم، ورجوا أن يكونا لأبى سفيان - لاتزال فى نفوسهم بقايا أمل فى الاستيلاء على القافلة - فضربوهما ضربًا موجعًا حتى اضطر الغلامان أن يقولا: نحن لأبى سفيان فتركوهما.

ولما فرغ رسول الله ﷺ من الصلاة قال لهم كالعاتب: «**إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما، صدقا والله، إنهما لقريش**».

ثم خاطب الغلامين قائلًا: «**أخبرانى عن قريش**»، قالا: هم وراء هذا الكثيب الذى ترى بالعدوة القصوى، فقال لهما: «**كم القوم؟**» قالا: كثير. قال: «**ما عدتهم؟**» قالا: لا ندرى، قال: «**كم ينحرون كل يوم؟**» قالا: يومًا تسعًا ويومًا عشرًا، فقال رسول الله ﷺ: «**القوم فيما بين التسعمائة إلى الألف**»، ثم قال لهما: «**فمن فيهم من أشراف قريش؟**» قالا: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو البَخْتَرِىّ ابن هشام، وحكيم بن حِزام، ونَوْفَل بن خويلد، والحارث بن عامر، وطُعَيْمَة بن عدى، والنضر بن الحارث، وَزَمْعَة بن الأسود، وأبو جهل ابن هشام، وأمية بن خلف فى رجال سماهم.

فأقبل رسول الله ﷺ على الناس فقال: «**هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها**».

نزول المطر:

وأنزل الله عز وجل فى تلك الليلة مطرًا واحدًا، فكان على المشركين وابلًا شديدًا منعهم من التقدم، وكان على المسلمين طلا طهرهم به، وأذهب عنهم رجس الشيطان، ووطأ به الأرض، وصلب به الرمل، وثبت الأقدام، ومهد به المنزل، وربط به على قلوبهم.

الجيش الإسلامى يسبق إلى أهم المراكز العسكرية:

وتحرك رسول الله ﷺ بجيشه ليسبق المشركين إلى ماء بدر، ويحول بينهم وبين الاستيلاء عليه، فنزل عشاء أدنى ماء من مياه بدر، وهنا قام الحُبَاب بن المنذر كخبير عسكرى وقال: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزلًا أنزلكه الله، ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟ قال: «**بل هو الرأى والحرب والمكيدة**».

قال: يا رسول الله، إن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم - قريش - فننزله ونغوّر - أى نُخَرِّب - ما وراءه من القُلُب[1]، ثم نبنى عليه حوضًا، فنملأه ماء، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله ﷺ: «**لقد أشرت بالرأى**».

فنهض رسول الله ﷺ بالجيش حتى أتى أقرب ماء من العدو، فنزل عليه شطر الليل، ثم صنعوا الحياض وغوروا ما عداها من القلب.

مقر القيادة:

وبعد أن تم نزول المسلمين على الماء اقترح سعد بن معاذ على رسول الله ﷺ أن يبنى المسلمون مقرًّا لقيادته؛ استعدادًا للطوارئ، وتقديرًا للهزيمة قبل النصر، حيث قال:

يا نبى الله، ألا نبنى لك عريشًا تكون فيه، ونعد عندك ركائبك، ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بِمَنْ وراءنا من قومنا، فقد تخلف عنك أقوام يا نبى الله ما نحن بأشد لك حبًّا منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حربًا ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم، يناصحونك ويجاهدون معك.

فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيرًا ودعا له بخير، وبنى المسلمون عَرِيشًا على تل مرتفع يقع فى الشمال الشرقى لميدان القتال، ويشرف على ساحة المعركة.

كما تم اختيار فرقة من شباب الأنصار بقيادة سعد بن معاذ يحرسون رسول الله ﷺ حول مقر قيادته.

تعبئة الجيش وقضاء الليل:

ثم عبأ رسول الله ﷺ جيشه[2]. ومشى فى موضع المعركة، وجعل يشير بيده: «**هذا**

---

(١) القُلُب: الآبار.

(٢) انظر: جامع الترمذى: أبواب الجهاد، باب ما جاء فى الصف والتعبئة ١/ ٢٠١.

مصرع فلان غدًا إن شاء الله، وهذا مصرع فلان غدا إن شاء الله»[(١)]. ثم بات رسول الله ﷺ يصلى إلى جذع شجرة هنالك، وبات المسلمون ليلهم هادئى الأنفاس منيرى الآفاق، غمرت الثقة قلوبهم، وأخذوا من الراحة قسطهم؛ يأملون أن يروا بشائر ربهم بعيونهم صباحًا: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ ﴾ [الأنفال].

كانت هذه الليلة ليلة الجمعة، السابعة عشرة من رمضان فى السنة الثانية من الهجرة، وكان خروجه ﷺ فى ٨ أو١٢ من نفس الشهر.

الجيش المكى فى عرصة القتال، ووقوع الانشقاق فيه:

أما قريش فقضت ليلتها هذه فى معسكرها بالعدوة القصوى، ولما أصبحت أقبلت فى كتائبها، ونزلت من الكثيب إلى وادى بدر. وأقبل نفر منهم إلى حوض رسول الله ﷺ فقال: **«دعوهم»**، فما شرب أحد منهم يومئذ إلا قتل، سوى حكيم بن حزام، فإنه لم يقتل، وأسلم بعد ذلك، وحسن إسلامه، وكان إذا اجتهد فى اليمين قال: لا والذى نجانى من يوم بدر.

فلما اطمأنت قريش بعثت عُمَيْر بن وهب الجُمَحِى للتعرف على مدى قوة جيش المدينة، فدار عمير بفرسه حول العسكر، ثم رجع إليهم فقال: ثلاثمائة رجل، يزيدون قليلًا أو ينقصون، ولكن أمهلونى حتى أنظر أللقوم كمين أو مدد؟

فضرب فى الوادى حتى أبعد، فلم ير شيئًا، فرجع إليهم فقال: ما وجدت شيئًا، ولكنى قد رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلًا منكم،فإذا أصابوا منكم أعدادكم فما خير العيش بعد ذلك؟ فروا رأيكم.

وحينئذ قامت معارضة أخرى ضد أبى جهل - المصمم على المعركة - تدعو إلى العودة بالجيش إلى مكة دونما قتال، فقد مشى حكيم بن حزام فى الناس، وأتى عتبة بن ربيعة فقال: يا أبا الوليد، إنك كبير قريش وسيدها، والمطاع فيها، فهل لك إلى خير تذكر به إلى آخر الدهر؟ قال: وما ذاك يا حكيم؟ قال: ترجع بالناس، وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمى - المقتول فى سرية نخلة - فقال عتبة: قد فعلت. أنت ضامن علىّ بذلك. إنما هو حليفى، فعلىّ عقله (ديته) وما أصيب من ماله.

---

(١) رواه مسلم عن أنس، انظر: مشكاة المصابيح ٢/ ٥٤٣.

ثم قال عتبة لحكيم بن حزام: فائت ابن الحَنْظَلِيَّةِ - أبا جهل، والحنظلية أمه - فإنى لا أخشى أن يشجر أمر الناس غيره.

ثم قام عتبة بن ربيعة خطيبًا فقال: يا معشر قريش، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدًا وأصحابه شيئًا، والله لئن أصبتموه لايزال الرجل ينظر فى وجه رجل يكره النظر إليه، قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلًا من عشيرته، فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب، فإن أصابوه فذاك الذى أردتم، وإن كان غير ذلك ألْفَاكُمْ ولم تَعَرَّضُوا منه ما تريدون.

وانطلق حكيم بن حزام إلى أبى جهل - وهو يهيئ درعًا له - قال: يا أبا الحكم، إن عتبة أرسلنى بكذا وكذا، فقال أبو جهل: انتفخ والله سَحْرُهُ[١] حين رأى محمدًا وأصحابه، كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، وما بعتبة ما قال، ولكنه قد رأى أن محمدًا وأصحابه أكلة جَزُور، وفيهم ابنه - وهو أبو حذيفة بن عتبة كان قد أسلم قديمًا وهاجر - فَتَخَوَّفَكُمْ عليه.

ولما بلغ عتبة قول أبى جهل: انتفخ والله سحره[١]، قال عتبة: سيعلم مُصَفِّر اسْتَه[٢] من انتفخ سحره، أنا أم هو؟ وتعجل أبو جهل، مخافة أن تقوى هذه المعارضة، فبعث على إثر هذه المحاورة إلى عامر بن الحضرمى - أخى عمرو بن الحضرمى المقتول فى سرية عبد الله بن جحش - فقال: هذا حليفك (أى عتبة) يريد أن يرجع بالناس، وقد رأيت ثأرك بعينك، فقم فانْشُد خُفْرَتَك[٣]، ومَقْتَلَ أخيك، فقام عامر فكشف عن استه، وصرخ: واعمراه، واعمراه، فحمى القوم، وحَقِبَ[٤] أمرهم، واستوثقوا على ما هم عليه من الشر، وأفسد على الناس الرأى الذى دعاهم إليه عتبة. وهكذا تغلب الطيش على الحكمة، وذهبت هذه المعارضة دون جدوى.

الجيشان يتراآن:

ولما طلع المشركون وتراءى الجمعان قال رسول الله ﷺ: «**اللهم هذه قريش قد أقبلت بخُيَلائها وفَخْرها تُحادُّك وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذى وعدتنى، اللهم أحْنِهُم[٥] الغداة**» وقد قال رسول الله ﷺ - ورأى عتبة بن ربيعة فى القوم على جمل له أحمر: «**إن يكن فى أحد من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحمر، إن يطيعوه يَرْشُدُوا**».

---

(١) السَّحْر: الرئة.
(٢) مصَفّر استه: أى ضَرَّاط.
(٣) الخُفْرَة: العهد.
(٤) اشتد.
(٥) أهلكهم.

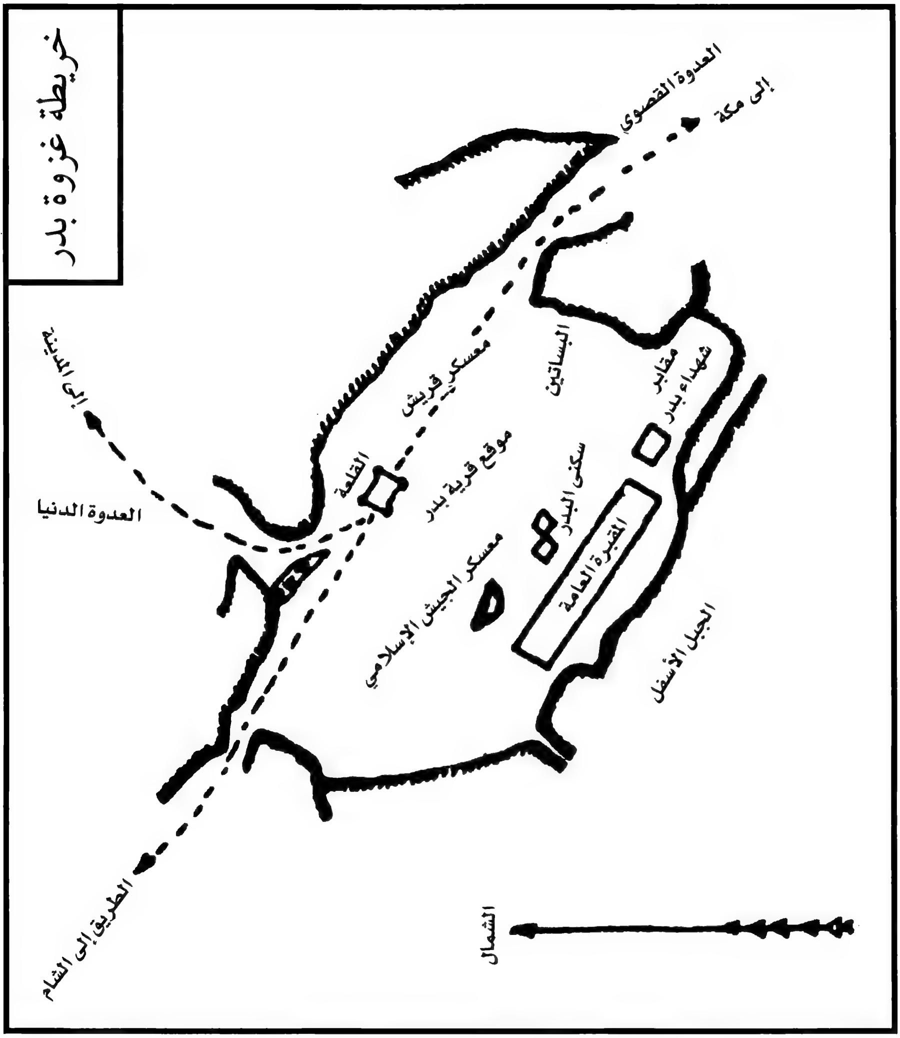
خريطة غزوة بدر
العدوة القصوى
إلى مكة
معسكر قريش
البساتين
مقابر شهداء بدر
القلعة
موقع قرية بدر
سكنى البدر
العدوة الدنيا
إلى المدينة
معسكر الجيش الإسلامي
المقبرة العامة
الجبل الأسفل
الطريق إلى الشام
الشمال

وعدل رسول الله ﷺ صفوف المسلمين، وبينما هو يعدلها وقع أمر عجيب، فقد كان فى يديه قِدْح يعدل به، وكان سَوَاد بن غَزِيَّة مُسْتَنْصِلًا[١] من الصف، فطعن فى بطنه بالقدح، وقال: «**استو يا سواد**»، فقال سواد: يا رسول الله، أوجعتنى فأقدنى، فكشف عن بطنه وقال: «**استقد**»، فاعتنقه سواد وقبل بطنه، فقال: «**ما حملك على هذا يا سواد؟**» قال: يا رسول الله، قد حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدى جلدك. فدعا له رسول الله ﷺ بخير.

ولما تم تعديل الصفوف أصدر أوامره إلى جيشه بألا يبدأوا القتال حتى يتلقوا منه الأوامر الأخيرة، ثم أدلى إليهم بتوجيه خاص فى أمر الحرب، فقال: «**إذا أكثبوكم** - يعنى اقتربوا منكم - **فارموهم، واستبقوا نبلكم**[٢]، **ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم**[٣]»، ثم رجع إلى العريش هو وأبو بكر خاصة،وقام سعد بن معاذ بكتيبة الحراسة على باب العريش.

أما المشركون فقد استفتح أبو جهل فى ذلك اليوم فقال: اللهم أقطعنا للرحم، وآتانا بما لانعرفه،فأحِنْه الغداة،اللهم أينا كان أحب إليك وأرضى عندك فانصره اليوم، وفى ذلك أنزل الله: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الأنفال]

ساعة الصفر وأول وقود المعركة:

وكان أول وقود المعركة الأسود بن عبد الأسد المخزومى - وكان رجلًا شرسًا سيئ الخلق - خرج قائلًا: أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه أو لأموتن دونه. فلما خرج خرج إليه حمزة ابن عبد المطلب رضي الله عنه، فلما التقيا ضربه حمزة فأطَنَّ[٤] قدمه بنصف ساقه وهو دون الحوض، فوقع على ظهره تشخب رجله دمًا نحو أصحابه، ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه، يريد أن تبر يمينه، ولكن حمزة ثنى عليه بضربة أخرى أتت عليه وهو داخل الحوض.

---

(١) متقدما.

(٢) صحيح البخارى ٢/ ٥٦٨.

(٣) سنن أبى داود: باب فى سل السيوف عند اللقاء ٢ / ١٣.

(٤) أطار.

المبارزة:

وكان هذا أول قتل أشعل نار المعركة، فقد خرج بعده ثلاثة من خيرة فرسان قريش كانوا من عائلة واحدة، وهم عتبة وأخوه شيبة ابنا ربيعة، والوليد بن عتبة، فلما انفصلوا من الصف طلبوا المبارزة، فخرج إليهم ثلاثة من شباب الأنصار عَوْف ومُعَوِّذ ابنا الحارث - وأمهما عفراء - وعبد الله بن رواحة، فقالوا: من أنتم؟ قالوا: رهط من الأنصار. قالوا: أكِفَّاء كرام، ما لنا بكم حاجة، وإنما نريد بنى عمنا، ثم نادى مناديهم: يا محمد، أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا، فقال رسول الله ﷺ: «**قم يا عبيدة بن الحارث، وقم يا حمزة، وقم يا على**»، فلما قاموا ودنوا منهم، قالوا: من أنتم؟ فأخبروهم، فقالوا: أنتم أكفاء كرام، فبارز عبيدة - وكان أسن القوم - عتبة بن ربيعة، وبارز حمزة شيبة، وبارز على الوليد(١). فأما حمزة وعلى فلم يمهلا قرنيهما أن قتلاهما، وأما عبيدة فاختلف بينه وبين قرنه ضربتان، فأثخن كل واحد منهما صاحبه، ثم كَرَّ على وحمزة على عتبة فقتلاه، واحتملا عبيدة وقد قطعت رجله، فلم يزل ضَمِنًا(٢) حتى مات بالصفراء،بعد أربعة أو خمسة أيام من وقعة بدر، حينما كان المسلمون فى طريقهم إلى المدينة. وكان على يقسم بالله أن هذه الآية نزلت فيهم: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ الآية [الحج: ١٩].

الهجوم العام:

وكانت نهاية هذه المبارزة بداية سيئة بالنسبة للمشركين؛ إذ فقدوا ثلاثة من خيرة فرسانهم وقادتهم دفعة واحدة،فاستشاطوا غضبًا،وكروا على المسلمين كرة رجل واحد.

وأما المسلمون فبعد أن استنصروا ربهم واستغاثوه وأخلصوا له وتضرعوا إليه، تلقوا هجمات المشركين المتتالية، وهم مرابطون فى مواقعهم، واقفون موقف الدفاع، وقد ألحقوا بالمشركين خسائر فادحة، وهم يقولون: أَحَد أَحَد.

الرسول ﷺ يناشد ربه:

أما رسول الله ﷺ فكان منذ رجوعه بعد تعديل الصفوف يناشد ربه ما وعده من النصر، ويقول: «**اللهم أنجز لى ما وعدتنى، اللهم إنى أنشدك عهدك ووعدك**»، حتى إذا

---

(١) هذا على ما قاله ابن إسحاق، وفى رواية أحمد وأبى داود: أن عبيدة بارز الوليد، وعليًّا بارز شيبة، وحمزة بارز عتبة. مشكاة المصابيح ٢/ ٣٤٣.

(٢) مريضا.

حَمِيَ الوَطِيسُ، واستدارت رحى الحرب بشدة واحتدم القتال، وبلغت المعركة قمتها، قال: «**اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم أبدًا**». وبالغ فى الابتهال حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فرده عليه الصديق، وقال: حسبك يا رسول الله، ألححت على ربك.

وأوحى الله إلى ملائكته: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ [الأنفال: ١٢]،وأوحى إلى رسوله: ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩﴾ [الأنفال] - أى إنهم ردف لكم، أو يردف بعضهم بعضًا أرسالًا، لا يأتون دفعة واحدة.

نزول الملائكة:

وأغفى رسول الله ﷺ إغفاءة واحدة، ثم رفع رأسه فقال: «**أبشر يا أبا بكر، هذا جبريل على ثناياه النَّقْعُ**» (أى الغبار) وفى رواية ابن إسحاق: قال رسول الله ﷺ: «**أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده، وعلى ثناياه النقع**».

ثم خرج رسول الله ﷺ من باب العريش وهو يثب فى الدرع ويقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۝٤٥﴾ [القمر]،ثم أخذ حَفْنَةً من الحَصْبَاء، فاستقبل بها قريشًا وقال: «**شاهت الوجوه**» ورمى بها فى وجوههم، فما من المشركين من أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه من تلك القبضة، وفى ذلك أنزل الله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧].

الهجوم المضاد:

وحينئذ أصدر إلى جيشه أوامره الأخيرة بالهجمة المضادة فقال: «**شدوا**»، وحرضهم على القتال، قائلًا: «**والذى نفس محمد بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرًا محتسبًا مقبلًا غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة**»، وقال وهو يحضهم على القتال: «**قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض**»، (وحينئذ) قال عُمَيْر بن الحُمَام: بَخْ بَخْ. فقال رسول الله ﷺ: «**ما يحملك على قولك: بخ بخ؟**» قال: لا، والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها، قال: «**فإنك من أهلها**». فأخرج تمرات من قَرَنِه فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتى هذه إنها لحياة طويلة، فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قتل(١).

---

(١) رواه مسلم ٢/ ١٣٩، مشكاة المصابيح ٢/ ٣٣١. والقَرَن: الجَعْبة، وهى تشبه الكيس.

وكذلك سأله عوف بن الحارث - ابن عفراء - فقال: يا رسول الله، ما يضحك الرب من عبده؟ قال: «**غَمْسُه يده فى العَدُوّ حاسرًا**»، فنزع درعا كانت عليه فقذفها، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل.

وحين أصدر رسول الله ﷺ الأمر بالهجوم المضاد كانت حدة هجمات العدو قد ذهبت وفتر حماسه، فكان لهذه الخطة الحكيمة أثر كبير فى تعزيز موقف المسلمين، فإنهم حينما تلقوا أمر الشد والهجوم - وقد كان نشاطهم الحربى على شبابه - قاموا بهجوم كاسح مرير، فجعلوا يقلبون الصفوف، ويقطعون الأعناق. وزادهم نشاطًا وحدة أن رأوا رسول الله ﷺ يثب فى الدرع، وقد تقدمهم فلم يكن أحد أقرب من المشركين منه[1]، وهو يقول فى جزم وصراحة: ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ فقاتل المسلمون أشد القتال، ونصرتهم الملائكة. ففى رواية ابن سعد عن عكرمة قال: كان يومئذ يَنْدُر رأس الرجل لا يدرى من ضربه، وتندر يد الرجل لا يدرى من ضربها. وقال ابن عباس: بينما رجل من المسلمين يشتد فى إثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم حَيْزُوم، فنظر إلى المشرك أمامه، فخر مستلقيًا، فنظر إليه فإذا هو قد خطم أنفه وشق وجهه كضربة السوط، فاخْضَرَّ ذلك أجمع، فجاء الأنصارى فحدث بذلك رسول الله ﷺ، فقال: «**صدقت، ذلك من مدد السماء الثالثة**»[2].

وقال أبو داود المازنى: إنى لأتبع رجلًا من المشركين لأضربه إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفى، فعرفت أنه قد قتله غيرى، وجاء رجل من الأنصار بالعباس بن عبد المطلب أسيرًا،فقال العباس: إن هذا والله ما أسرنى، لقد أسرنى رجل أجلح، من أحسن الناس وجهًا على فرس أبْلَق، وما أراه فى القوم، فقال الأنصارى: أنا أسرته يا رسول الله، فقال: «**اسكت، فقد أيدك الله بملك كريم**».

وقال على: قال لى رسول الله ﷺ يوم بدر، ولأبى بكر: «**مع أحدكما جبريل ومع الآخر ميكائيل، وإسرافيل ملك عظيم يشهد القتال، أو يكون فى القتال**»[3].

---

(١) رواه البخارى: كتاب التفسير، باب قوله: ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾، ح(٤٨٧٥)، وأحمد فى المسند ١/ ٣٢٩.

(٢) روى مثل ذلك مسلم ٢/ ٩٣ وغيره. ويندر: ينقطع. واخضَرَّ: انقطع.

(٣) أحمد فى مسنده ١/ ١٤٧، والبزار، ح (١٤٦٧)، والحاكم فى المستدرك ٣/ ١٣٤، وقد صححه ووافقه الذهبى، وأبو يعلى فى مسنده ١/ ٢٨٤، ح (٣٤٠).

إبليس ينسحب عن ميدان القتال:

ولما رأى إبليس - وكان قد جاء فى صورة سراقة بن مالك بن جُعْشُم المدلجى كما ذكرنا، ولم يكن فارقهم منذ ذلك الوقت - فلما رأى ما يفعل الملائكة بالمشركين فر ونكص على عقبيه، وتشبث به الحارث بن هشام - وهو يظنه سراقة - فوكز فى صدر الحارث فألقاه، ثم خرج هاربًا، وقال له المشركون: إلى أين يا سراقة؟ ألم تكن قلت: إنك جار لنا، لا تفارقنا؟ فقال: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنفال]، ثم فر حتى ألقى نفسه فى البحر.

الهزيمة الساحقة:

وبدأت أمارات الفشل والاضطراب فى صفوف المشركين، وجعلت تتهدم أمام حملات المسلمين العنيفة، واقتربت المعركة من نهايتها، وأخذت جموع المشركين فى الفرار والانسحاب المبدد، وركب المسلمون ظهورهم يأسرون ويقتلون، حتى تمت عليهم الهزيمة.

صمود أبى جهل:

أما الطاغية الأكبر أبو جهل، فإنه لما رأى أول أمارات الاضطراب فى صفوفه حاول أن يصمد فى وجه هذا السيل، فجعل يشجع جيشه ويقول لهم فى شراسة ومكابرة: لا يهزمنكم خذلان سراقة إياكم، فإنه كان على ميعاد من محمد، ولا يهولنكم قتل عتبة وشيبة والوليد، فإنهم قد عجلوا، فواللات والعزى لا نرجع حتى نقرنهم بالحبال، ولا ألفين رجلًا منكم قتل منهم رجلًا، ولكن خذوهم أخذًا حتى نعرفهم بسوء صنيعهم.

ولكن سرعان ما تبدت له حقيقة هذه الغطرسة، فما لبث إلا قليلًا حتى أخذت الصفوف تتصدع أمام تيارات هجوم المسلمين. نعم، بقى حوله عصابة من المشركين ضربت حوله سياجًا من السيوف، وغابات من الرماح، ولكن عاصفة هجوم المسلمين بددت هذا السياج، وأقلعت هذه الغابات، وحينئذ ظهر هذا الطاغية، ورآه المسلمون يجول على فرسه، وكان الموت ينتظر أن يشرب من دمه بأيدى غلامين أنصاريين.

مصرع أبى جهل:

قال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: إنى لفى الصف يوم بدر إذ التفت، فإذا عن يمينى وعن يسارى فتيان حديثا السن، فكأنى لم آمن بمكانهما، إذ قال لى أحدهما سرًّا من صاحبه: يا عم،

أرنى أبا جهل، فقلت: يابن أخى، فما تصنع به؟ قال: أخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ، قال: والذى نفسى بيده لئن رأيته لا يفارق سوادى سواده حتى يموت الأعجل منا، فتعجبت لذلك. قال: وغمزنى الآخر، فقال لى مثلها، فلم أنشب أن نظرت إلى أبى جهل يجول فى الناس. فقلت: ألا تريان؟ هذا صاحبكما الذى تسألانى عنه، قال: فابتدراه فضرباه حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى رسول الله ﷺ، فقال: «**أيكما قتله؟**» فقال كل واحد منهما: أنا قتلته، قال: «**هل مسحتما سيفيكما؟**» فقالا: لا. فنظر رسول الله ﷺ إلى السيفين فقال: «**كلاكما قتله**»، وقضى رسول الله ﷺ بسَلَبِه لمعاذ بن عمرو بن الجموح، والرجلان معاذ بن عمرو ابن الجموح ومُعَوِّذ ابن عفراء[1].

وقال ابن إسحاق: قال معاذ بن عمرو بن الجموح: سمعت القوم، وأبو جهل فى مثل الحَرَجَة - والحرجة: الشجر الملتف، أو شجرة من الأشجار لا يوصل إليها، شبه رماح المشركين وسيوفهم التى كانت حول أبى جهل لحفظه بهذه الشجرة - وهم يقولون: أبو الحكم لا يخلص إليه، قال: فلما سمعتها جعلته من شأنى فصمدت نحوه، فلما أمكننى حملت عليه، فضربته ضربة أطَنَّتْ قدمه - أطارتها - بنصف ساقه، فوالله ما شبهتها حين طاحت إلا بالنواة تَطِيحُ من تحت مِرْضِخَة[2] النوى حين يضرب بها. قال: وضربنى ابنه عكرمة على عاتقى فطرح يدى، فتعلقت بجلدة من جنبى، وأجهضنى القتال عنه، فلقد قاتلت عَامَّةَ يومى وإنى لأسحبها خلفى، فلما آذتنى وضعت عليها قدمى، ثم تَمَطَّيْتُ بها عليها حتى طرحتها[3]، ثم مر بأبى جهل - وهو عَقِيرٌ - مُعَوِّذ ابن عفراء فضربه حتى أثبته، فتركه وبه رَمَق، وقاتل معوذ حتى قتل.

ولما انتهت المعركة قال رسول الله ﷺ: «**من ينظر ما صنع أبو جهل؟**» فتفرق الناس فى طلبه، فوجده عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وبه آخر رمق، فوضع رجله على عنقه وأخذ لحيته ليحتز رأسه، وقال: هل أخزاك الله يا عدو الله؟ قال: وبماذا أخزانى؟ أأعمد من رجل قتلتموه؟ أو هل فوق رجل قتلتموه؟[4] وقال: فلو غير أَكَّار[5] قتلنى، ثم قال: أخبرنى لمن

---

(١) صحيح البخارى ١/ ٤٤٤، ٢/ ٥٦٨، ومشكاة المصابيح ٢/ ٣٥٢، وإنما خص بالسلب واحدًا منهما؛ لأن الثانى قتل شهيدًا فى نفس المعركة.

(٢) المِرضِخة: الحجر الذى يكسر به النوى.

(٣) بقى معاذ هذا إلى زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه.

(٤) أى: ليس علىّ عار فلن أبعد أن أكون رجلا قتله قومه. (٥) الأكَّار: الحَرَّاث.

الدائرة اليوم؟ قال: لله ورسوله، ثم قال لابن مسعود - وكان قد وضع رجله على عنقه: لقد ارتقيت مرتقى صعبًا يا رُوَيْعِىَ الغنم، وكان ابن مسعود من رعاة الغنم فى مكة.

وبعد أن دار بينهما هذا الكلام احتز ابن مسعود رأسه، وجاء به إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، هذا رأس عدو الله أبى جهل، فقال: «**اللهِ الذى لا إله إلا هو؟**» فرددها ثلاثًا، ثم قال: «**الله أكبر، الحمد لله الذى صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، انطلق أرنيه**»، فانطلقنا فأريته إياه، فقال: «**هذا فرعون هذه الأمة**».

من روائع الإيمان فى هذه المعركة:

لقد أسلفنا نموذجين رائعين من عمير بن الحمام وعوف بن الحارث - ابن عفراء - وقد تجلت فى هذه المعركة مناظر رائعة تبرز فيها قوة العقيدة وثبات المبدأ، ففى هذه المعركة التقى الآباء بالأبناء، والإخوة بالإخوة، خالفت بينهما المبادئ ففصلت بينهما السيوف، والتقى المقهور بقاهره فشفى منه غيظه.

١ - روى ابن إسحاق عن ابن عباس، أن النبى ﷺ قال لأصحابه: «**إنى قد عرفت أن رجالًا من بنى هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهًا، لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقى أحدًا من بنى هاشم فلا يقتله، ومن لقى أبا البَخْتَرِيّ بن هشام فلا يقتله، ومن لقى العباس بن عبد المطلب فلا يقتله، فإنه إنما أخرج مستكرهًا**»، فقال أبو حذيفة بن عتبة: أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشيرتنا ونترك العباس، والله لئن لقيته لألحمنه - أو لألجمنه - بالسيف، فبلغت رسول الله ﷺ، فقال لعمر بن الخطاب: «**يا أبا حفص، أيضرب وجه عم رسول الله ﷺ بالسيف؟**»، فقال عمر: يا رسول الله، دعنى فلأضرب عنقه بالسيف، فوالله لقد نافق.

فكان أبو حذيفة يقول: ما أنا بآمن من تلك الكلمة التى قلت يومئذ، ولا أزال منها خائفًا إلا أن تكفرها عنى الشهادة. فقتل يوم اليمامة شهيدًا.

٢ - وكان النهى عن قتل أبى البخترى؛ لأنه كان أكف القوم عن رسول الله ﷺ وهو بمكة، وكان لا يؤذيه، ولا يبلغ عنه شىء يكرهه، وكان ممن قام فى نقض صحيفة مقاطعة بنى هاشم وبنى المطلب.

ولكن أبا البخترى قتل على رغم هذا كله، وذلك أن المُجَذَّر بن زياد الْبَلَوِىّ لقيه فى المعركة ومعه زميل له، يقاتلان سويًّا، فقال المجذر: يا أبا البخترى، إن رسول الله ﷺ قد نهانا عن قتلك، فقال: وزميلى؟ فقال المجذر: لا والله ما نحن بتاركى زميلك، فقال: والله إذن لأموتن أنا وهو جميعًا، ثم اقتتلا، فاضطر المجذر إلى قتله.

٣ - كان عبد الرحمن بن عوف وأمية بن خلف صديقين فى الجاهلية بمكة، فلما كان يوم بدر مر به عبد الرحمن، وهو واقف مع ابنه على بن أمية، آخذًا بيده، ومع عبد الرحمن أدراع قد استلبها، وهو يحملها، فلما رآه قال: هل لك فى؟ فأنا خير من هذه الأدراع التى معك، ما رأيت كاليوم قط، أما لكم حاجة فى اللبن؟ - يريد أن من أسرنى افتديت منه بإبل كثيرة اللبن - فطرح عبد الرحمن الأدراع، وأخذهما يمشى بهما، قال عبد الرحمن: قال لى أمية بن خلف، وأنا بينه وبين ابنه: من الرجل منكم المعلم بريشة النعامة فى صدره؟ قلت: ذاك حمزة بن عبد المطلب، قال: ذاك الذى فعل بنا الأفاعيل.

قال عبد الرحمن: فوالله إنى لأقودهما إذ رآه بلال معى - وكان أمية هو الذى يعذب بلالًا بمكة - فقال بلال: رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا. قلت: أى بلال، أسيرى. قال: لا نجوت إن نجا. قلت: أتسمع يابن السوداء. قال: لا نجوت إن نجا. ثم صرخ بأعلى صوته: يا أنصار الله، رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا. قال: فأحاطوا بنا حتى جعلونا فى مثل الْمَسَكَة[1]، وأنا أذب عنه، قال: فأخلف رجل السيف، فضرب رجل ابنه فوقع، وصاح أمية صيحة ما سمعت مثلها قط، فقلت: انج بنفسك، ولا نجاء بك، فوالله ما أغنى عنك شيئًا. قال: فَهَبَرُوهُمَا بأسيافهم حتى فرغوا منهما، فكان عبد الرحمن يقول: يرحم الله بلالًا، ذهبت أدراعى، وفجعنى بأسيرى.

وروى البخارى عن عبد الرحمن بن عوف قال: كاتبت أمية بن خلف كتابًا بأن يحفظنى فى صاغيتى - أى خاصتى ومالى - بمكة، وأحفظه فى صاغيته بالمدينة... فلما كان يوم بدر خرجت إلى جبل لأحرزه حين نام الناس، فأبصره بلال، فخرج حتى وقف على مجلس الأنصار فقال: أمية ابن خلف، لا نجوت إن نجا أمية، فخرج معه فريق من الأنصار فى آثارنا، فلما خشيت أن يلحقونا خلفت لهم ابنه ليشغلهم، فقتلوه، ثم أبوا حتى يتبعونا، وكان رجلًا ثقيلًا، فلما أدركونا قلت له: ابرك، فبرك، فألقيت عليه نفسى لأمنعه، فتخللوه بالسيوف من تحتى حتى قتلوه، وأصاب أحدهم رجلى بسيفه. وكان عبد الرحمن يرينا ذلك الأثر فى ظهر قدمه[2].

٤ - وقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه يومئذ خاله العاص بن هشام بن المغيرة، ولم يلتفت إلى قرابته منه، ولكن حين رجع إلى المدينة قال للعباس عم رسول الله ﷺ، وهو فى الأسر: يا عباس

(١) الأسْورَة.

(٢) صحيح البخارى: كتاب الوكالة ١/ ٣٠٨.

أسلم، فوالله أن تسلم أحب إلى من أن يسلم الخطاب، وما ذاك إلا لما رأيت رسول الله ﷺ يعجبه إسلامك[١].

٥ - ونادى أبو بكر الصديق رضي الله عنه ابنه عبد الرحمن - وهو يومئذ مع المشركين - فقال: أين مالى يا خبيث؟ فقال عبد الرحمن:

لَـمْ يَبْـقَ غَـيْـرُ شَـكَّـةٍ ويَعْبُوب وصَـارِمٍ يَقْتُلُ ضُـلاَّل الشِّيَبْ[٢]

٦ - ولما وضع القوم أيديهم يأسرون، ورسول الله ﷺ فى العريش، وسعد بن معاذ قائم على بابه يحرسه متوشحًا سيفه، رأى رسول الله ﷺ فى وجه سعد بن معاذ الكراهية لما يصنع الناس، فقال له: «**والله لكأنك يا سعد تكره ما يصنع القوم؟**» قال: أجل والله يا رسول الله، كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك، فكان الإثخان فى القتل بأهل الشرك أحب إلىّ من استبقاء الرجال.

٧ - وانقطع يومئذ سيف عُكَّاشَة بن مِحْصَن الأسدى، فأتى رسول الله ﷺ فأعطاه جِذْلًا من حطب، فقال: «**قاتل بهذا يا عكاشة**»، فلما أخذه من رسول الله ﷺ هزه، فعاد سيفًا فى يده طويل القامة، شديد المتن، أبيض الحديدة، فقاتل به حتى فتح الله تعالى للمسلمين، وكان ذلك السيف يسمى العَوْن، ثم لم يزل عنده يشهد به المشاهد، حتى قتل فى حروب الردة وهو عنده.

٨ - وبعد انتهاء المعركة مر مصعب بن عمير العبدرى بأخيه أبى عزيز بن عمير الذى خاض المعركة ضد المسلمين،مر به وأحد الأنصار يشد يده، فقال مصعب للأنصارى: شد يديك به، فإن أمه ذات متاع، لعلها تفديه منك، فقال أبو عزيز لأخيه مصعب: أهذه وصاتك بى؟ فقال مصعب: إنه - أى الأنصارى - أخى دونك.

٩ - ولما أمر بإلقاء جيف المشركين فى القَلِيب، وأخذ عتبة بن ربيعة فسحب إلى القليب، نظر رسول الله ﷺ فى وجه ابنه أبى حذيفة، فإذا هو كئيب قد تغير، فقال: «**يا أبا حذيفة، لعلك قد دخلك من شأن أبيك شيء؟**» فقال: لا والله، يا رسول الله، ما شككت فى أبى ولا مصرعه، ولكننى كنت أعرف من أبى رأيًا وحلمًا وفضلًا، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام، فلما رأيت ما أصابه، وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذى كنت

(١) رواه الحاكم فى المستدرك (فتح القدير للشوكانى ٢/ ٣٢٧).
(٢) الشَّكَّة: السلاح. واليعبوب: الفرس الكثير الجرى.

أرجو له أحزننى ذلك. فدعا له رسول الله ﷺ بخير، وقال له خيرًا.

قتلى الفريقين:

انتهت المعركة بهزيمة ساحقة بالنسبة للمشركين، وبفتح مبين بالنسبة للمسلمين، وقد استشهد من المسلمين فى هذه المعركة أربعة عشر رجلًا، ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار.

أما المشركون فقد لحقتهم خسائر فادحة، قتل منهم سبعون، وأسر سبعون. وعامتهم القادة والزعماء والصناديد.

ولما انقضت الحرب أقبل رسول الله ﷺ حتى وقف على القتلى فقال: «**بئس العشيرة كنتم لنبيكم؛ كذبتمونى وصدقنى الناس، وخذلتمونى ونصرنى الناس، وأخرجتمونى وآوانى الناس**»، ثم أمر بهم فسحبوا إلى قليب من قُلُب بدر.

وعن أبى طلحة: أن نبى الله ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلًا من صناديد قريش، فقذفوا فى طَوىّ[1] من أطواء بدر خَبِيث مُخْبث. وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعَرْصَة ثلاث ليال، فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشد عليها رحلها، ثم مشى، واتبعه أصحابه. حتى قام على شفة الرَّكِىّ[2]، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم، «**يا فلان بن فلان، يا فلان بن فلان، أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًّا، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا؟**» فقال عمر: يا رسول الله، ما تكلم من أجساد لا أرواح لها؟ قال النبى ﷺ: «**والذى نفس محمد بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم**» وفى رواية: «**ما أنتم بأسمع منهم، ولكن لا يجيبون**»[3].

مكة تتلقى نبأ الهزيمة:

فر المشركون من ساحة بدر فى صورة غير منظمة؛ تبعثروا فى الوديان والشعاب، واتجهوا صوب مكة مذعورين، لا يدرون كيف يدخلونها خجلًا.

قال ابن إسحاق: وكان أول من قدم بمصاب قريش الحَيْسُمَان بن عبد الله الخزاعى، فقالوا: ما وراءك؟ قال: قتل عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو الحكم بن هشام وأمية بن خلف، فى رجال من الزعماء سماهم. فلما أخذ يعد أشراف قريش قال صفوان بن أمية وهو

---

(١) البئر الذى بناؤه بالحجارة. (٢) الركى: البئر.

(٣) متفق عليه، مشكاة المصابيح ٢/ ٣٤٥.

قاعد فى الحِجْر: والله إن يعقل هذا، فاسألوه عنى. قالوا: ما فعل صفوان بن أمية؟ قال: ها هو ذا جالس فى الحجر، وقد والله رأيت أباه وأخاه حين قتلا.

وقال أبو رافع - مولى رسول الله ﷺ: كنت غلامًا للعباس وكان الإسلام قد دخلنا أهلَ البيت، فأسلم العباس، وأسلمت أم الفضل، وأسلمت، وكان العباس يكتم إسلامه، وكان أبو لهب قد تخلف عن بدر، فلما جاءه الخبر كبته الله وأخزاه، ووجدنا فى أنفسنا قوة وعزًّا، وكنت رجلًا ضعيفًا أعمل الأقداح، أنحتها فى حجرة زمزم، فوالله إنى لجالس فيها أنحت أقداحى وعندى أم الفضل جالسة، وقد سرنا ما جاءنا من الخبر، إذ أقبل أبو لهب يجر رجليه بشر حتى جلس على طُنُب الحجرة(١)، فكان ظهره إلى ظهرى، فبينما هو جالس إذ قال الناس: هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم، فقال له أبو لهب: هلم إلىَّ، فعندك لعمرى الخبر، قال: فجلس إليه،والناس قيام عليه. فقال: يابن أخى، أخبرنى كيف كان أمر الناس؟ قال: ما هو إلا أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا، يقتلوننا كيف شاءوا، ويأسروننا كيف شاءوا، وايم الله مع ذلك ما لمت الناس، لَقِينَا رجال بيض على خيل بُلْق بين السماء والأرض، والله ما تُلِيق شيئًا(٢)، ولا يقوم لها شيء.

قال أبو رافع: فرفعت طنب الحجرة بيدى، ثم قلت: تلك والله الملائكة. قال: فرفع أبو لهب يده، فضرب بها وجهى ضربة شديدة، فثاورته، فاحتملنى فضرب بى الأرض، ثم برك علىّ يضربنى، وكنت رجلًا ضعيفًا فقامت أم الفضل إلى عمود من عُمُد الحجرة فأخذته، فضربته به ضربة فَلَعَتْ(٣) فى رأسه شجة منكرة، وقالت: استضعفته أن غاب عنه سيده، فقام موليًا ذليلًا، فوالله ما عاش إلا سبع ليال حتى رماه الله بالعدسة (وهى قرحة تتشاءم بها العرب) فقتلته، فتركه بنوه، وبقى ثلاثة أيام لا تقرب جنازته، ولا يحاول دفنه، فلما خافوا السبة فى تركه حفروا له، ثم دفعوه بعود فى حفرته، وقذفوه بالحجارة من بعيد حتى واروه.

هكذا تلقت مكة أنباء الهزيمة الساحقة فى ميدان بدر، وقد أثر ذلك فيهم أثرًا سيئًا جدًّا، حتى منعوا النياحة على القتلى؛ لئلا يشمت بهم المسلمون.

ومن الطرائف أن الأسود بن المطلب أصيب ثلاثة من أبنائه يوم بدر، وكان يحب أن يبكى عليهم، وكان ضرير البصر، فسمع ليلًا صوت نائحة، فبعث غلامه، وقال: انظر هل

(١) طنب الحجرة: طرفها. (٢) أى: لا تبقى شيئا.
(٣) شَقَّتْ.

أحل النَّحْبُ؟[١] هل بكت قريش على قتلاها؟ لعلى أبكى على أبى حكيمة - ابنه - فإن جوفى قد احترق، فرجع الغلام وقال: إنما هى امرأة تبكى على بعير لها أضلته، فلم يتمالك الأسود نفسه وقال:

أتبكى أن يضل لها بعير ... ويمنعها من النوم السُّهُود[٢]
فلا تبكى على بَكْرٍ ولكن ... على بَدْر تقاصرت الجُدُود[٣]
على بدر سَرَاة[٤] بنى هُصَيْص ... ومخزوم ورَهْط أبى الوليد
وبَكِّى إن بكيتِ على عَقِيلٍ ... وبَكِّى حارثا أسَدَ الأسود
وبَكِّيهم ولا تَسَمى جميعا ... وما لأبى حَكِيمة من نَدِيد
ألا قد ساد بعدهم رجال ... ولولا يوم بدر لم يسودوا

المدينة تتلقى أنباء النصر:

ولما تم الفتح للمسلمين أرسل رسول الله ﷺ بشيرين إلى أهل المدينة؛ ليعجل لهم البشرى، أرسل عبد الله بن رواحة بشيرًا إلى أهل العالية، وأرسل زيد بن حارثة بشيرًا إلى أهل السافلة.

وكان اليهود والمنافقون قد أرجفوا فى المدينة بإشاعة الدعايات الكاذبة، حتى إنهم أشاعوا خبر مقتل النبى ﷺ، ولما رأى أحد المنافقين زيد بن حارثة راكبًا القَصْوَاء - ناقة رسول الله ﷺ - قال: لقد قتل محمد، وهذه ناقته نعرفها، وهذا زيد لا يدرى ما يقول من الرعب، وجاء فَلاًّ[٥].

فلما بلغ الرسولان أحاط بهما المسلمون، وأخذوا يسمعون منهما الخبر، حتى تأكد لديهم فتح المسلمين، فَعَمَّت البهجة والسرور، واهتزت أرجاء المدينة تهليلًا وتكبيرًا، وتقدم رءوس المسلمين - الذين كانوا بالمدينة - إلى طريق بدر، ليهنئوا رسول الله ﷺ بهذا الفتح المبين.

قال أسامة بن زيد: أتانا الخبر حين سوينا التراب على رقية بنت رسول الله ﷺ التى كانت عند عثمان بن عفان، كان رسول الله ﷺ خلفنى عليها مع عثمان.

---

(١) البكاء بصوت.
(٢) الأرَق.
(٣) الحظوظ.
(٤) سَرَاة: خيار.
(٥) أى: منهزمًا.

الجيش النبوى يتحرك نحو المدينة:

أقام رسول الله ﷺ ببدر بعد انتهاء المعركة ثلاثة أيام، وقبل رحيله من مكان المعركة وقع خلاف بين الجيش حول الغنائم، ولما اشتد هذا الخلاف أمر رسول الله ﷺ بأن يرد الجميع ما بأيديهم، ففعلوا، ثم نزل الوحى بحل هذه المشكلة.

عن عبادة بن الصامت قال: خرجنا مع النبى ﷺ، فشهدت معه بدرًا، فالتقى الناس فهزم الله العدو، فانطلقت طائفة فى آثارهم يطاردون ويقتلون، وأكبت طائفة على المغنم يحرزونه ويجمعونه، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ؛ لا يصيب العدو منه غِرَّة، حتى إذا كان الليل، وفاء الناس بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها، وليس لأحد فيها نصيب،وقال الذين خرجوا فى طلب العدو: لستم أحق بها منا، نحن نحينا منها العدو وهزمناه، وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ: خفنا أن يصيب العدو منه غرة، فاشتغلنا به، فأنزل الله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾ [الأنفال]. فقسمها رسول الله ﷺ بين المسلمين[(١)].

وبعد أن أقام رسول الله ﷺ ببدر ثلاثة أيام تحرك بجيشه نحو المدينة ومعه الأسارى من المشركين، واحتمل معه النفل الذى أصيب من المشركين، وجعل عليه عبد الله بن كعب، فلما خرج من مَضِيق الصفراء نزل على كَثِيب بين المضيق وبين النَّازِيَة، وقسم هنالك الغنائم على المسلمين على السواء بعد أن أخذ منها الخمس.

وعندما وصل إلى الصفراء أمر بقتل النضر بن الحارث - وكان هو حامل لواء المشركين يوم بدر، وكان من أكابر مجرمى قريش، ومن أشد الناس كيدًا للإسلام وإيذاء لرسول الله ﷺ - فضرب عنقه على بن أبى طالب.

ولما وصل إلى عِرْق الظُّبْيَةِ أمر بقتل عُقْبَة بن أبى مُعَيْط - وقد أسلفنا بعض ما كان عليه من إيذاء رسول الله ﷺ، فهو الذى كان ألقى سَلا جَزُور على ظهر رسول الله ﷺ وهو فى الصلاة، وهو الذى خنقه بردائه وكاد يقتله، لولا اعتراض أبى بكر رضي الله عنه - فلما أمر بقتله قال: من للصِّبْيَةِ يا محمد؟ قال: «**النار**»[(٢)]. فقتله عاصم بن ثابت الأنصارى، ويقال: على ابن أبى طالب.

وكان قتل هذين الطاغيتين واجبًا؛ نظرًا إلى سوابقهما، فلم يكونا من الأسارى

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٣٢٣، ٣٢٤، والحاكم ٢/ ٣٢٦.

(٢) روى ذلك أصحاب الصحاح، انظر: سنن أبى داود مع حاشيته عون المعبود ٣/ ١٢.

فحسب، بل كانا من مجرمى الحرب بالاصطلاح الحديث.

وفود التهنئة:

ولما وصل ﷺ إلى الرَّوْحَاء لقيه رءوس المسلمين - الذين كانوا قد خرجوا للتهنئة والاستقبال حين سمعوا بشارة الفتح من الرسولين - يهنئونه بالفتح. وحينئذ قال لهم سَلَمَة بن سلامة: ما الذى تهنئوننا به؟ فوالله إن لَقِينا إلا عجائز صُلْعًا كالْبُدْن المعُقَّلَةِ، فنحرناها، فتبسم رسول الله ﷺ، ثم قال: «**يا بن أخى، أولئك الملأ**».

وقال أسيد بن حضير: يا رسول الله، الحمد لله الذى أظفرك، وأقر عينك، والله يا رسول الله ما كان تخلفى عن بدر وأنا أظن أنك تلقى عدوًّا، ولكن ظننت أنها عير، ولو ظننت أنه عدو ما تخلفت، فقال رسول الله ﷺ: «**صدقت**».

ثم دخل رسول الله ﷺ المدينة مظفرًا منصورًا قد خافه كل عدو له بالمدينة وحولها، فأسلم بشر كثير من أهل المدينة، وحينئذ دخل عبد الله بن أبى وأصحابه فى الإسلام ظاهرًا.

وقدم الأسارى بعد بلوغه المدينة بيوم، فقسمهم على أصحابه، وأوصى بهم خيرًا. فكان الصحابة يأكلون التمر، ويقدمون لأسرائهم الخبز، عملًا بوصية رسول الله ﷺ.

قضية الأسارى:

ولما بلغ رسول الله ﷺ المدينة استشار أصحابه فى الأسارى، فقال أبو بكر: يا رسول الله، هؤلاء بنو العم والعَشِيرة والإخوان، وإنى أرى أن تأخذ منهم الفدية، فيكون ما أخذناه قوة لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم الله، فيكونوا لنا عضدًا.

فقال رسول الله ﷺ: «**ما ترى يابن الخطاب؟**» قال: قلت: والله ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكن أرى أن تمكننى من فلان - قريب لعمر - فأضرب عنقه، وتمكن عليًّا من عَقِيل ابن أبى طالب فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أنه ليست فى قلوبنا هوادة للمشركين. وهؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم.

فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلت، وأخذ منهم الفداء: فلما كان من الغد قال عمر: فغدوت إلى النبى ﷺ وأبى بكر وهما يبكيان، فقلت: يا رسول الله، أخبرنى ماذا يبكيك أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما، فقال رسول الله ﷺ: «**أبكى للذى عرض على أصحابك من أخذهم الفداء، فقد عرض علىّ**

عذابهم أدنى من هذه الشجرة» - شجرة قريبة[(١)].

وأنزل الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾[الأنفال].

والكتاب الذى سبق من الله قيل: هو قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد: ٤]. ففيه الإذن بأخذ الفدية من الأسارى؛ ولذلك لم يعذبوا، وإنما نزل العتاب لأنهم أسروا الكفار قبل أن يثخنوا فى الأرض، وقيل: بل الآية المذكورة نزلت فيما بعد، وإنما الكتاب الذى سبق من الله هو ما كان فى علم الله من إحلال الغنائم لهذه الأمة، أو من المغفرة والرحمة لأهل بدر.

وحيث إن الأمر كان قد استقر على رأى الصديق فقد أخذ منهم الفداء، وكان الفداء من أربعة آلاف درهم إلى ثلاثة آلاف درهم إلى ألف درهم، وكان أهل مكة يكتبون، وأهل المدينة لا يكتبون، فمن لم يكن عنده فداء دفع إليه عشرة غلمان من غلمان المدينة يعلمهم، فإذا حذقوا فهو فداء.

ومنّ رسول الله ﷺ على عدة من الأسارى فأطلقهم بغير فداء، منهم: المطلب بن حَنْطَب، وصَيْفى بن أبى رفاعة، وأبو عزة الجُمَحِى، وهو الذى قتله أسيرا فى أحد، وسيأتى.

ومنّ على خَتَنِه أبى العاص بشرط أن يخلى سبيل زينب، وكانت قد بعثت فى فدائه بمال بعثت فيه بقلادة لها كانت عند خديجة، أدخلتها بها على أبى العاص، فلما رآها رسول الله ﷺ رق لها رقة شديدة، واستأذن أصحابه فى إطلاق أبى العاص ففعلوه، واشترط رسول الله ﷺ على أبى العاص أن يخلى سبيل زينب، فخلاها فهاجرت، وبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ورجلًا من الأنصار، فقال: «**كونا ببطن يَأجَج حتى تمر بكما زينب فتصحباها**»، فخرجا حتى رجعا بها. وقصة هجرتها طويلة ومؤلمة جدًّا.

وكان فى الأسرى سهيل بن عمرو، وكان خطيبًا مِصْقَعًا[(٢)]، فقال عمر: يا رسول الله، انزع ثنيتى سهيل بن عمرو يَدْلَعْ[(٣)] لسانُه، فلا يقوم خطيبًا عليك فى موطن أبدًا، بيد أن

---

(١) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزى، ص ٣٦.

(٢) بليغًا.

(٣) يخرج.

رسول الله ﷺ رفض هذا الطلب؛ احترازًا عن المُثْلَةِ، وعن بطش الله يوم القيامة.

وخرج سعد بن النعمان معتمرًا فحبسه أبو سفيان، وكان ابنه عمرو بن أبى سفيان فى الأسرى، فبعثوا به إلى أبى سفيان فخلى سبيل سعد.

القرآن يتحدث حول موضوع المعركة:

وحول موضوع هذه المعركة نزلت سورة الأنفال، وهذه السورة تعليق إلهى – إن صح هذا التعبير – على هذه المعركة، يختلف كثيرًا عن التعاليق التى ينطق بها الملوك والقواد بعد الفتح.

إن الله تعالى لفت أنظار المسلمين – أولًا – إلى بعض التقصيرات الأخلاقية التى كانت قد بقيت فيهم، وصدر بعضها منهم؛ ليسعوا فى تحلية نفوسهم بأرفع مراتب الكمال، وفى تزكيتها عن هذه التقصيرات.

ثم ثَنَّى بما كان فى هذا الفتح من تأييد الله وعونه ونصره بالغيب للمسلمين. ذكر لهم ذلك لئلا يغتروا بشجاعتهم وبسالتهم، فتتسور نفوسهم الغطرسة والكبرياء، بل ليتوكلوا على الله، ويطيعوه ويطيعوا رسوله – عليه الصلاة والسلام.

ثم بين لهم الأهداف والأغراض النبيلة التى خاض الرسول ﷺ لأجلها هذه المعركة الدامية الرهيبة، ودلهم على الصفات والأخلاق التى تتسبب فى الفتوح فى المعارك.

ثم خاطب المشركين والمنافقين واليهود وأسارى المعركة، ووعظهم موعظة بليغة، تهديهم إلى الاستسلام للحق والالتزام به.

ثم خاطب المسلمين حول موضوع الغنائم، وقنن لهم مبادئ وأسس هذه المسألة.

ثم بين وشرع لهم من قوانين الحرب والسلم ما كانت الحاجة تمس إليها بعد دخول الدعوة الإسلامية فى هذه المرحلة، حتى تمتاز حروب المسلمين عن حروب أهل الجاهلية، ويتفوق المسلمون فى الأخلاق والقيم والمثل، ويتأكد للدنيا أن الإسلام ليس مجرد وجهة نظر، بل هو دين يثقف أهله عمليًا على الأسس والمبادئ التى يدعو إليها.

ثم قرر بنودًا من قوانين الدولة الإسلامية التى تقيم الفرق بين المسلمين الذين يسكنون داخل حدودها، والذين يسكنون خارجها.

وفى السنة الثانية من الهجرة فرض صيام رمضان، وفرضت زكاة الفطر، وبينت أنصبة الزكاة الأخرى، وكانت فريضة زكاة الفطر وتفصيل أنصبة الزكاة الأخرى تخفيفًا لكثير من

الأوزار التى كان يعانيها عدد كبير من المهاجرين اللاجئين الذين كانوا فقراء لا يستطيعون ضربًا فى الأرض.

ومن أحسن المواقع وأروع الصدقات أن أول عيد تعيد به المسلمون فى حياتهم هو العيد الذى وقع فى شوال سنة ٢هـ، إثر الفتح المبين الذى حصل لهم فى غزوة بدر. فما أروع هذا العيد السعيد الذى جاء به الله بعد أن تَوَّجَ هامتهم بتاج الفتح والعز، وما أروق منظر تلك الصلاة التى صلوها بعد أن خرجوا من بيوتهم يرفعون أصواتهم بالتكبير والتوحيد والتحميد، وقد فاضت قلوبهم رغبة إلى الله، وحنينًا إلى رحمته ورضوانه بعد ما أولاهم به من النعم،وأيدهم به من النصر، وقد ذكرهم بذلك قائلًا: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنفال].

النشاط العسكرى بين بدر وأحد

إن معركة بدر كانت أول لقاء مسلح بين المسلمين والمشركين، وكانت معركة فاصلة أكسبت المسلمين نصرًا حاسمًا شهد له العرب قاطبة. والذين كانوا أشد استياء لنتائج هذه المعركة هم أولئك الذين منوا بخسائر فادحة مباشرة؛ وهم المشركون، أو الذين كانوا يرون عزة المسلمين وغلبتهم ضربًا قاصمًا على كيانهم الدينى والاقتصادى، وهم اليهود. فمنذ أن انتصر المسلمون فى معركة بدر كان هذان الفريقان يحترقان غيظًا وحنقًا على المسلمين؛ ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ [المائدة: ٨٢]، وكانت فى المدينة بطانة للفريقين دخلوا فى الإسلام حين لم يبق مجال لعزهم إلا فى الإسلام، وهم عبد الله بن أبى وأصحابه، ولم تكن هذه الفرقة الثالثة أقل غيظًا من الأولين.

وكانت هناك فرقة رابعة، وهم البدو الضاربون حول المدينة، لم يكن يهمهم مسألة الكفر والإيمان، ولكنهم كانوا أصحاب سلب ونهب، فأخذهم القلق، واضطربوا لهذا الانتصار، وخافوا أن تقوم فى المدينة دولة قوية تحول بينهم وبين اكتساب قوتهم عن طريق السلب والنهب، فجعلوا يحقدون على المسلمين وصاروا لهم أعداء.

وتبين بهذا أن الانتصار فى بدر كما كان سببًا لشوكة المسلمين وعزهم وكرامتهم، كذلك كان سببًا لحقد جهات متعددة، وكان من الطبيعى أن يتبع كل فريق ما يراه كفيلًا لإيصاله إلى غايته.

فبينما كانت المدينة وما حولها تظاهر بالإسلام، وتأخذ فى طريق المؤامرات والدسائس الخفية كانت فرقة من اليهود تعلن بالعداوة، وتكاشف عن الحقد والغيظ، وكانت مكة تهدد بالضرب القاصم، وتعلن بأخذ الثأر والنقمة، وتهتم بالتعبئة العامة جهارًا، وترسل إلى المسلمين بلسان حالها، تقول:

ولا بد من يوم أغرّ مُحَجَّل   يطول استماعى بعده للنوادب

وفعلًا فقد قادت غزوة قاصمة إلى أسوار المدينة عرفت فى التاريخ بغزوة أحد، والتى كان لها أثر سيئ على سمعة المسلمين وهيبتهم.

وقد لعب المسلمون دورًا هامًّا للقضاء على هذه الأخطار، تظهر فيه عبقرية قيادة النبى ﷺ، وما كان عليه من غاية التيقظ حول هذه الأخطار، وما كان عليه من حسن التخطيط للقضاء عليها، ونذكر فى السطور الآتية صورة مصغرة منها:

غزوة بنى سُلَيم بالكُدْر

أول ما نقلت استخبارات المدينة إلى النبى ﷺ بعد بدر أن بنى سليم وبنى غَطَفَان تحشد قواتها لغزو المدينة، فباغتهم النبى ﷺ فى مائتى راكب فى عقر دراهم، وبلغ إلى منازلهم فى موضع يقال له: الكُدْر[1]. ففر بنو سليم، وتركوا فى الوادى خمسمائة بعير استولى عليها جيش المدينة، وقسمها رسول الله ﷺ بعد إخراج الخمس، فأصاب كل رجل بعيرين، وأصاب غلاما يقال له: «يسار» فأعتقه.

وأقام النبى ﷺ فى ديارهم ثلاثة أيام، ثم رجع إلى المدينة.

وكانت هذه الغزوة فى شوال سنة ٢ هـ بعد الرجوع من بدر بسبعة أيام، أو فى المحرم للنصف منه، واستخلف فى هذه الغزوة على المدينة سِبَاع بن عُرْفُطَة. وقيل: ابن أم مكتوم[2].

مؤامرة لاغتيال النبى ﷺ

كان من أثر هزيمة المشركين فى وقعة بدر أن استشاطوا غضبًا، وجعلت مكة تغلى كالمِرْجَل ضد النبى ﷺ، حتى تآمر بطلان من أبطالها أن يقضوا على مبدأ هذا الخلاف والشقاق ومثار هذا الذل والهوان فى زعمهم، وهو النبى ﷺ.

جلس عمير بن وهب الجمحى مع صفوان بن أمية فى الحِجْر بعد وقعة بدر بيسير – وكان عمير من شياطين قريش ممن كان يؤذى النبى ﷺ وأصحابه وهم بمكة – وكان ابنه وهب بن عمير فى أسارى بدر، فذكر أصحاب القَلِيب ومصابهم، فقال صفوان: والله إن فى العيش بعدهم خير.

قال له عمير: صدقت والله، أما والله لولا دَيْن على ليس له عندى قضاء، وعيال أخشى عليهم الضَّيْعَةَ بعدى لركبتُ إلى محمد حتى أقتله، فإن لى قِبَلَهُمْ عِلَّةً، ابنى أسير فى أيديهم.

---

(١) الكدر، بالضم فالسكون: طير فى لونها كدرة، وهو ماء من مياه بنى سليم يقع فى نجد على الطريق التجارية الشرقية الحيوية بين مكة والشام.

(٢) زاد المعاد ٢/ ٩٠، وابن هشام ٢/ ٤٣، ٤٤.

فاغتنمها صفوان وقال: على دينك، أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالى، أواسيهم ما بقوا، لا يسعنى شىء ويعجز عنهم.

فقال له عمير: فاكتم عنى شأنى وشأنك. قال: أفعل.

ثم أمر عمير بسيفه فشُحِذَ له وسُمَّ، ثم انطلق حتى قدم به المدينة، فبينما هو على باب المسجد ينيخ راحلته رآه عمر بن الخطاب - وهو فى نفر من المسلمين يتحدثون ما أكرمهم الله به يوم بدر- فقال عمر: هذا الكلب عدو الله عمير ما جاء إلا لشر. ثم دخل على النبى ﷺ، فقال: يا نبى الله، هذا عدو الله عمير قد جاء متوشحًا سيفه، قال: «**فأدخله على**»، فأقبل إلى عمير فلَبَّبَهُ بحَمَالة سيفه، وقال لرجال من الأنصار: ادخلوا على رسول الله ﷺ، فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هذا الخبيث، فإنه غير مأمون، ثم دخل به، فلما رآه رسول الله ﷺ - وعمر آخذ بحمالة سيفه فى عنقه - قال: «**أرسله يا عمر، ادن يا عمير**»، فدنا وقال: أنْعِمُوا صباحًا، فقال النبى ﷺ: «**قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير، بالسلام تحية أهل الجنة**».

ثم قال: «**ما جاء بك يا عمير؟**» قال: جئت لهذا الأسير الذى فى أيديكم، فأحسنوا فيه.

قال: «**فما بال السيف فى عنقك؟**» قال: قبحها الله من سيوف، وهل أغنت عنا شيئًا؟

قال: «**اصدقنى، ما الذى جئت له؟**» قال: ما جئت إلا لذلك.

قال: «**بل قعدتَ أنت وصفوان بن أمية فى الحِجْر، فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم قلت: لولا دين على وعيال عندى لخرجت حتى أقتل محمدًا، فتحمل صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلنى، والله حائل بينك وبين ذلك**».

قال عمير: أشهد أنك رسول الله، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحى، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إنى لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذى هدانى للإسلام، وساقنى هذا المساق، ثم تشهد شهادة الحق. فقال رسول الله ﷺ: «**فقهوا أخاكم فى دينه، وأقرئوه القرآن، وأطلقوا له أسيره**».

وأما صفوان فكان يقول: أبشروا بوقعة تأتيكم الآن فى أيام تنسيكم وقعة بدر. وكان يسأل الركبان عن عمير، حتى أخبره راكب عن إسلامه فحلف صفوان ألا يكلمه أبدًا، ولا ينفعه بنفع أبدا.

ورجع عمير إلى مكة وأقام بها يدعو إلى الإسلام، فأسلم على يديه ناس كثير[١].

غزوة بنى قينقاع

قدمنا بنود المعاهدة التى عقدها رسول الله ﷺ مع اليهود، وقد كان حريصًا كل الحرص على تنفيذ ما جاء فى هذه المعاهدة، وفعلًا لم يأت من المسلمين ما يخالف حرفًا واحدًا من نصوصها. ولكن اليهود الذين ملأوا تاريخهم بالغدر والخيانة ونكث العهود، لم يلبثوا أن تمشوا مع طبائعهم القديمة، وأخذوا فى طريق الدس والمؤامرة والتحريش وإثارة القلق والاضطراب فى صفوف المسلمين. وهاك مثلًا من ذلك:

نموذج من مكيدة اليهود:

قال ابن إسحاق: مر شاس بن قيس - وكان شيخًا (يهوديًّا) قد عسا[٢]، عظيم الكفر، شديد الضغن على المسلمين، شديد الحسد لهم - على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج فى مجلس قد جمعهم، يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذى كان بينهم من العداوة فى الجاهلية، فقال: قد اجتمع ملأ بنى قَيْلَةَ بهذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار، فأمر فتى شابًّا من يهود كان معه، فقال: اعمد إليهم، فاجلس معهم، ثم اذكر يوم بُعَاث وما كان من قبله، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار، ففعل، فتكلم القوم عند ذلك، وتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب فتقاولا، ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم رددناها الآن جَذَعَة - يعنى الاستعداد لإحياء الحرب الأهلية التى كانت بينهم - وغضب الفريقان جميعًا، وقالوا: قد فعلنا، موعدكم الظاهرة - والظاهرة: الحَرَّة - السلاح السلاح، فخرجوا إليها (وكادت تنشب الحرب).

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم فقال: «**يا معشر المسلمين، الله الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر وألف بين قلوبكم**».

فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، وكيد من عدوهم، فبكوا، وعانق الرجال من

---

(١) ابن هشام ١/ ٦٦١-٦٦٣.

(٢) كبر.

الأوس والخزرج بعضهم بعضًا، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس بن قيس[(١)].

هذا نموذج مما كان اليهود يفعلونه ويحاولونه من إثارة القلاقل والفتن فى المسلمين، وإقامة العراقيل فى سبيل الدعوة الإسلامية، وقد كانت لهم خطط شتى فى هذا السبيل. فكانوا يبثون الدعايات الكاذبة، ويؤمنون وجه النهار، ثم يكفرون آخره؛ ليزرعوا بذور الشك فى قلوب الضعفاء، وكانوا يضيقون سبل المعيشة على من آمن إن كان لهم به ارتباط مالى، فإن كان لهم عليه يتقاضونه صباح مساء، وإن كان له عليهم يأكلونه بالباطل، ويمتنعون عن أدائه وكانوا يقولون: إنما كان علينا قرضك حينما كنت على دين آبائك، فأما إذ صبوت فليس لك علينا من سبيل[(٢)].

كانوا يفعلون كل ذلك قبل بدر على رغم المعاهدة التى عقدوها مع رسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ وأصحابه يصبرون على كل ذلك؛ حرصًا على رشدهم، وعلى بسط الأمن والسلام فى المنطقة.

بنو قَيْنُقَاع ينقضون العهد:

لكنهم لما رأوا أن الله قد نصر المؤمنين نصرًا مؤزرًا فى ميدان بدر، وأنهم قد صارت لهم عزة وشوكة وهيبة فى قلوب القاصى والدانى- تميزت قدر غيظهم، وكاشفوا بالشر والعداوة، وجاهروا بالبغى والأذى.

وكان أعظمهم حقدًا وأكبرهم شرًّا كعب بن الأشرف - وسيأتى ذكره - كما أن شر طائفة من طوائفهم الثلاث هم يهود بنى قينقاع، كانوا يسكنون داخل المدينة - فى حى باسمهم - وكانوا صاغة وحدادين وصناع الظروف والأوانى، ولأجل هذه الحرف كانت قد توفرت لكل رجل منهم آلات الحرب، وكان عدد المقاتلين فيهم سبعمائة، وكانوا أشجع يهود المدينة، وكانوا أول من نكث العهد والميثاق من اليهود.

فلما فتح الله للمسلمين فى بدر اشتد طغيانهم، وتوسعوا فى تحرشاتهم واستفزازاتهم، فكانوا يثيرون الشغب، ويتعرضون بالسخرية، ويواجهون بالأذى كل من ورد سوقهم من المسلمين حتى أخذوا يتعرضون بنسائهم.

---

(١) ابن هشام ١/ ٥٥٥، ٥٥٦.

(٢) ذكر المفسرون نماذج لفعلاتهم هذه فى تفسير سورة آل عمران وغيرها.

وعندما تفاقم أمرهم واشتد بغيهم، جمعهم رسول الله ﷺ، فوعظهم ودعاهم إلى الرشد والهدى، وحذرهم مغبة البغى والعدوان، ولكنهم ازدادوا فى شرهم وغطرستهم.

روى أبو داود وغيره، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أصاب رسول الله ﷺ قريشًا يوم بدر، وقدم المدينة، جمع اليهود فى سوق بنى قينقاع. فقال: «**يا معشر يهود، أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشًا**». قالوا: يا محمد، لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفرًا من قريش كانوا أغمارًا لا يعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لم تلق مثلنا، فأنزل الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران][١].

كان فى معنى ما أجاب به بنو قينقاع هو الإعلان السافر عن الحرب، ولكن كظم النبى ﷺ غيظه، وصبر المسلمون، وأخذوا ينتظرون ما تتمخض عنه الليالى والأيام.

وازداد اليهود - من بنى قينقاع - جراءة، فقلما لبثوا أن أثاروا فى المدينة قلقًا واضطرابًا، وسعوا إلى حتفهم بظلفهم، وسدوا على أنفسهم أبواب الحياة.

روى ابن هشام عن أبى عون: أن امرأة من العرب قدمت بجَلَبٍ لها، فباعته فى سوق بنى قينقاع، وجلست إلى صائغ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها، فأبت، فَعَمَد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها - وهى غافلة - فلما قامت انكشفت سوأتها فضحكوا بها فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله - وكان يهوديًا - فشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع[٢].

الحصار ثم التسليم ثم الجلاء:

وحينئذ عِيلَ صبر رسول الله ﷺ، فاستخلف على المدينة أبا لُبَابة بن عبد المنذر، وأعطى لواء المسلمين حمزة بن عبد المطلب، وسار بجنود الله إلى بنى قينقاع، ولما رأوه تحصنوا فى حصونهم، فحاصرهم أشد الحصار، وكان ذلك يوم السبت للنصف من شوال سنة ٢هـ،

---

(١) سنن أبى داود مع عون المعبود ٣/ ١١٥، وابن هشام ١/ ٥٥٢.

(٢) ابن هشام ٢/ ٤٧، ٤٨.

ودام الحصار خمس عشرة ليلة إلى هلال ذى القعدة، وقذف الله فى قلوبهم الرعب - فهو إذا أرادوا خذلان قوم وهزيمتهم أنزله عليهم وقذفه فى قلوبهم - فنزلوا على حكم رسول الله ﷺ فى رقابهم وأموالهم ونسائهم وذريتهم، فأمر بهم فكتفوا.

وحينئذ قام عبد الله بن أبى ابن سلول بدور نفاقه، فألح على رسول الله ﷺ أن يصدر عنهم العفو، فقال: يا محمد، أحسن فى موالى - وكان بنو قينقاع حلفاء الخزرج - فأبطأ عليه رسول الله ﷺ فكرر ابن أبى مقالته فأعرض عنه، فأدخل يده فى جيب درعه، فقال له رسول الله ﷺ: «**أرسلنى**»، وغضب حتى رأوا لوجهه ظُللًا[١]، ثم قال: «**ويحك، أرسلنى**». ولكن المنافق مضى على إصراره وقال: لا والله لا أرسلك حتى تحسن فى موالى أربعمائة حاسر[٢] وثلاثمائة دارع قد منعونى من الأحمر والأسود، تحصدهم فى غداة واحدة؟ إنى والله امرؤ أخشى الدوائر.

وعامل رسول الله ﷺ هذا المنافق - الذى لم يكن مضى على إظهار إسلامه إلا نحو شهر واحد فحسب - عامله بالحسنى. فوهبهم له، وأمرهم أن يخرجوا من المدينة ولا يجاوروه بها، فخرجوا إلى أذْرُعَات الشام، فقل أن لبثوا فيها حتى هلك أكثرهم.

وقبض رسول الله ﷺ منهم أموالهم، فأخذ منها ثلاث قِسِى ودرعين وثلاثة أسياف وثلاثة رماح، وخمس غنائمهم، وكان الذى تولى جمع الغنائم محمد بن مسلمة[٣].

غزوة السَّوِيق

بينما كان صفوان بن أمية واليهود والمنافقون يقومون بمؤامراتهم وعملياتهم، كان أبو سفيان يفكر فى عمل قليل المغارم ظاهر الأثر، يتعجل به؛ ليحفظ مكانة قومه، ويبرز ما لديهم من قوة، وكان قد نذر ألا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمدًا، فخرج فى مائتى راكب ليبِرَّ يمينه، حتى نزل بصدْر قَنَاة إلى جبل يقال له: ثَيْبٌ، من المدينة على بَرِيد[٤] أو نحوه، ولكنه لم يجرؤ على مهاجمة المدينة جهارًا، فقام بعمل هو أشبه بأعمال القرصنة، فإنه دخل فى ضواحى المدينة فى الليل مستخفيًا تحت جنح الظلام، فأتى حيى بن أخطب، فاستفتح بابه، فأبى وخاف، فانصرف إلى سَلاَّم ابن مِشْكَم سيد بنِى النضير، وصاحب كنزهم إذ ذاك، فاستأذن عليه فأذن، فَقَرَاه وسقاه الخمر، وبَطَن له من خبر الناس، ثم خرج

(١) كناية عن تغير وجه النبى ﷺ. (٢) لا درع له.
(٣) زاد المعاد ٢/ ٧١، ٩١، وابن هشام ٢/ ٤٧-٤٩. (٤) البريد: مسافة اثنى عشر ميلا.

أبو سفيان فى عقب ليلته حتى أتى أصحابه، فبعث مفرزة منهم، فأغارت على ناحية من المدينة يقال لها: «العُرَيض»، فقطعوا وأحرقوا هناك أصْوَارًا[١] من النخل، ووجدوا رجلًا من الأنصار وحليفًا له فى حرث لهما فقتلوهما، وفروا راجعين إلى مكة.

وبلغ رسول الله ﷺ الخبر، فسارع لمطاردة أبى سفيان وأصحابه، ولكنهم فروا ببالغ السرعة، وطرحوا سويقًا كثيرًا من أزوادهم وتمويناتهم، يتخففون به، فتمكنوا من الإفلات، وبلغ رسول الله ﷺ إلى قَرْقَرَةِ الكُدْر، ثم انصرف راجعًا. وحمل المسلمون ما طرحه الكفار من سويقهم، وسموا هذه المناوشة بغزوة السويق. وقد وقعت فى ذى الحجة سنة ٢ هـ بعد بدر بشهربن، واستعمل على المدينة فى هذه الغزوة أبا لبابة بن عبد المنذر[٢].

غزوة ذى أمر

وهى أكبر حملة عسكرية قادها رسول الله ﷺ قبل معركة أحد، قادها فى المحرم سنة ٣ هـ.

وسببها: أن استخبارات المدينة نقلت إلى رسول الله ﷺ: أن جمعًا كبيرًا من بنى ثعلبة ومحارب تجمعوا، يريدون الإغارة على أطراف المدينة، فندب رسول الله ﷺ المسلمين، وخرج فى أربعمائة وخمسين مقاتلًا ما بين راكب وراجل، واستخلف على المدينة عثمان بن عفان.

وفى أثناء الطريق قبضوا على رجل يقال له: جُبَار من بنى ثعلبة، فأدخل على رسول الله ﷺ، فدعاه إلى الإسلام فأسلم، فضمه إلى بلال، وصار دليلًا لجيش المسلمين إلى أرض العدو.

وتفرق الأعداء فى رءوس الجبال حين سمعوا بقدوم جيش المدينة. أما النبى ﷺ فقد وصل بجيشه إلى مكان تجمعهم، وهو الماء المسمى (بذى أمر) فأقام هناك صفرًا كله – من سنة ٣ هـ – أو قريبًا من ذلك، ليشعر الأعراب بقوة المسلمين، ويستولى عليهم الرعب والرهبة، ثم رجع إلى المدينة[٣].

---

(١) جماعة. (٢) زاد المعاد ٢/ ٩٠، ٩١، وابن هشام ٢/ ٤٤، ٤٥.

(٣) ابن هشام ٢/٤٦، وزاد المعاد ٢/ ٩١، ويذكر أن محاولة اغتيال النبى ﷺ من قبل دعثور أو غورث المحاربى كانت فى هذه الغزوة. والصحيح أنها فى غير هذه الغزوة، انظر: صحيح البخارى ٢/ ٥٩٣.

قتل كعب بن الأشرف

كان كعب بن الأشرف من أشد اليهود حنقًا على الإسلام والمسلمين، وإيذاء لرسول الله ﷺ، وتظاهرا بالدعوة إلى حربه.

كان من قبيلة طيئ - من بنى نَبْهان - وأمه من بنى النضير، وكان غنيًّا مترفًا معروفًا بجماله فى العرب، شاعرًا من شعرائها. وكان حصنه فى شرق جنوب المدينة خلف ديار بنى النضير.

ولما بلغه أول خبر عن انتصار المسلمين، وقتل صناديد قريش فى بدر قال: أحق هذا؟ هؤلاء أشراف العرب، وملوك الناس، والله إن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها.

ولما تأكد لديه الخبر، انبعث عدو الله يهجو رسول الله ﷺ والمسلمين، ويمدح عدوهم ويحرضهم عليهم، ولم يرض بهذا القدر حتى ركب إلى قريش، فنزل على المطلب بن أبى وَدَاعة السهمى، وجعل ينشد الأشعار يبكى فيها على أصحاب القَلِيب من قتلى المشركين، يثير بذلك حفائظهم، ويذكى حقدهم على النبى ﷺ، ويدعوهم إلى حربه، وعندما كان بمكة سأله أبو سفيان والمشركون: أديننا أحب إليك أم دين محمد وأصحابه؟ وأى الفريقين أهدى سبيلًا؟ فقال: أنتم أهدى منهم سبيلا، وأفضل، وفى ذلك أنزل الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ ﴾ [النساء].

ثم رجع كعب إلى المدينة على تلك الحال، وأخذ يشبب فى أشعاره بنساء الصحابة، ويؤذيهم بسلاطة لسانه أشد الإيذاء.

وحينئذ قال رسول الله ﷺ: «**من لكعب بن الأشرف؟ فإنه آذى الله ورسوله**»، فانتدب له محمد بن مسلمة، وعَبَّاد بن بشر، وأبو نائلة - واسمه سِلْكَان بن سلامة، وهو أخو كعب من الرضاعة - والحارث بن أوس، وأبو عَبْس بن جبر، وكان قائد هذه المفرزة محمد بن مسلمة.

وتفيد الروايات فى قتل كعب بن الأشرف أن رسول الله ﷺ لما قال: «**من لكعب بن الأشرف؟ فإنه قد آذى الله ورسوله**»، قام محمد بن مسلمة فقال: أنا يا رسول الله، أتحب أن أقتله؟ قال: «**نعم**». قال: فائذن لى أن أقول شيئًا. قال: «**قل**».

فأتاه محمد بن مسلمة، فقال: إن هذا الرجل قد سألنا صدقة، وإنه قد عَنَّانا[١].

قال كعب: والله لَتَمَلُّنَّهُ.

قال محمد بن مسلمة: فإنا قد اتبعناه، فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أى شىء يصير شأنه؟ وقد أردنا أن تسلفنا وَسْقًا أو وَسْقَين.

قال كعب: نعم، أرهنونى.

قال ابن مسلمة: أى شىء تريد؟

قال: أرهنونى نساءكم.

قال: كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب؟

قال: فترهنونى أبناءكم.

قال: كيف نرهنك أبناءنا فيُسَبُّ أَحَدُهم فيقال: رُهِن بوسق أو وسقين، هذا عار علينا. ولكنا نرهنك اللَّأْمَة، يعنى السلاح.

فواعده أن يأتيه.

وصنع أبو نائلة مثل ما صنع محمد بن مسلمة، فقد جاء كعبًا فتناشد معه أطراف الأشعار سويعة، ثم قال له: ويحك يا بن الأشرف، إنى قد جئت لحاجة أريد ذكرها لك فاكتم عنى.

قال كعب: أفعل.

قال أبو نائلة: كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء، عادتنا العرب، ورمتنا عن قَوْسٍ واحدة، وقطعتْ عنا السبل، حتى ضاع العيال، وجُهِدَت الأنفس، وأصبحنا قد جُهِدْنا وجُهِد عيالنا، ودار الحوار على نحو ما دار مع ابن مسلمة.

وقال أبو نائلة أثناء حديثه: إن معى أصحابًا لى على مثل رأيى، وقد أردت أن آتيك بهم، فتبيعهم وتحسن فى ذلك.

وقد نجح ابن مسلمة وأبو نائلة فى هذا الحوار إلى ما قصد، فإن كعبًا لن ينكر معهما السلاح والأصحاب بعد هذا الحوار.

وفى ليلة مُقْمِرَة - ليلة الرابع عشر من شهر ربيع الأول سنة ٣ هـ - اجتمعت هذه المفرزة إلى رسول الله ﷺ، فشيعهم إلى بَقِيع الغَرْقَد، ثم وجههم قائلًا: «**انطلقوا على اسم**

---

(١) أتعبنا.

الله، **اللهم أعنهم**»، ثم رجع إلى بيته، وطفق يصلى ويناجى ربه.

وانتهت المفرزة إلى حصن كعب بن الأشرف، فهتف به أبو نائلة، فقام لينزل إليهم، فقالت له امرأته - وكان حديث العهد بها: أين تخرج هذه الساعة؟ أسمع صوتًا كأنه يقطر منه الدم.

قال كعب: إنما هو أخى محمد بن مسلمة، ورضيعى أبو نائلة، إن الكريم لو دعى إلى طعنة أجاب، ثم خرج إليهم وهو متطيب ينفح رأسه.

وقد كان أبو نائلة قال لأصحابه: إذا ما جاء فإنى آخذ بشعره فأشمه، فإذا رأيتمونى استمكنت من رأسه فدونكم فاضربوه، فلما نزل كعب إليهم تحدث معهم ساعة، ثم قال أبو نائلة: هل لك يا بن الأشرف أن نتماشى إلى شِعْب العجوز فنتحدث بقية ليلتنا؟ قال: إن شئتم، فخرجوا يتماشون، فقال أبو نائلة وهو فى الطريق: ما رأيت كالليلة طيبًا أعطر، وزهى كعب بما سمع، فقال: عندى أعطر نساء العرب، قال أبو نائلة: أتأذن لى أن أشم رأسك؟ قال: نعم، فأدخل يده فى رأسه فشمه وأشم أصحابه.

ثم مشى ساعة ثم قال: أعود؟ قال كعب: نعم، فعاد لمثلها. حتى اطمأن.

ثم مشى ساعة ثم قال: أعود؟ قال: نعم، فأدخل يده فى رأسه، فلما استمكن منه قال: دونكم عدو الله، فاختلفت عليه أسيافهم، لكنها لم تغن شيئًا، فأخذ محمد بن مسلمة مِغْوَلًا[(١)] فوضعه فى ثُنَّتِهِ[(٢)]، ثم تحامل عليه حتى بلغ عانته، فوقع عدو الله قتيلًا، وكان قد صاح صيحة شديدة أفزعت من حوله، فلم يبق حصن إلا أوقدت عليه النيران.

ورجعت المفرزة وقد أصيب الحارث بن أوس بذُبَاب[(٣)] بعض سيوف أصحابه فجرح ونزف الدم، فلما بلغت المفرزة حَرَّة العُرَيْض رأت أن الحارث ليس معهم، فوقفت ساعة حتى أتاهم يتبع آثارهم، فاحتملوه، حتى إذا بلغوا بَقِيع الغَرْقَد كبروا، وسمع رسول الله ﷺ تكبيرهم، فعرف أنهم قد قتلوه، فكبر، فلما انتهوا إليه قال: «**أفلحت الوجوه**»، قالوا: ووجهك يا رسول الله، ورموا برأس الطاغية بين يديه، فحمد الله على قتله، وتفل على جرح الحارث فبرأ، ولم يؤذ بعده[(٤)].

---

(١) المِغْوَل: السكين. (٢) الثُّنَّة: ما بين السرة والعانة.

(٣) ذُباب السيف: طرفه.

(٤) أخذنا تفاصيل هذه الوقعة من ابن هشام ٢/ ٥١- ٥٧، وصحيح البخارى ١/ ٣٤١، ٤٢٥، ٢/ ٥٧٧، وسنن أبى داود مع عون المعبود ٢/ ٤٢، ٤٣، وزاد المعاد، ٢/ ٩١.

ولما علمت اليهود بمصرع طاغيتها كعب بن الأشرف دب الرعب فى قلوبهم العنيدة، وعلموا أن الرسول ﷺ لن يتوانى فى استخدام القوة حين يرى أن النصح لا يجدى نفعًا لمن يريد العبث بالأمن وإثارة الاضطرابات وعدم احترام المواثيق، فلم يحركوا ساكنًا لقتل طاغيتهم، بل لزموا الهدوء، وتظاهروا بإيفاء العهود، واستكانوا، وأسرعت الأفاعى إلى جحورها تختبئ فيها.

وهكذا تفرغ الرسول ﷺ - إلى حين - لمواجهة الأخطار التى كان يتوقع حدوثها من خارج المدينة، وأصبح المسلمون وقد تخفف عنهم كثير من المتاعب الداخلية التى كانوا يتوجسونها، ويشمون رائحتها بين آونة وأخرى.

غزوة بُحْران

وهى دورية قتال كبيرة، قوامها ثلاثمائة مقاتل، قادها الرسول ﷺ فى شهر ربيع الآخر سنة ٣ هـ إلى أرض يقال لها: بحران - وهى مَعْدِن بالحجاز من ناحية الفُرْع - فأقام بها شهر ربيع الآخر ثم جمادى الأولى (من السنة الثالثة من الهجرة) ثم رجع إلى المدينة، ولم يلق حربًا[(١)].

سرية زيد بن حارثة

وهى آخر وأنجح دورية للقتال قام بها المسلمون قبل أحد، وقعت فى جمادى الآخرة سنة ٣ هـ.

وتفصيلها: أن قريشًا بقيت بعد بدر يساورها القلق والاضطراب، وجاء الصيف، واقترب موسم رحلتها إلى الشام، فأخذها هَمٌّ آخر.

قال صفوان بن أمية لقريش - وهو الذى نخبته قريش فى هذا العام لقيادة تجارتها إلى الشام: إن محمدًا وصحبه عَوَّرُوا علينا متجرنا، فما ندرى كيف نصنع بأصحابه، وهم لا يبرحون الساحل؟ وأهل الساحل قد وادعهم ودخل عامتهم معه، فما ندرى أين نسلك؟

---

(١) ابن هشام ٢/ ٥٠، ٥١، وزاد المعاد ٢/ ٩١. واختلفت المصادر في تعيين سبب هذه الغزوة، فقيل: إن استخبارات المدينة نقلت إلى ﷺ أن بني سليم يحشدون قوات كبيرة لغزو المدينة أو أطرافها، وقيل: بل خرج يريد قريشًا، وهذا الثاني هو الذي ذكره ابن هشام واختاره ابن القيم -حتى لم يذكر الأول رأسا- وهو الموجه، وذلك لأن ديار بني سليم لم تكن بناحية الفرع، وإنما هي في نجد بعيدة عن ناحية الفرع.

وإن أقمنا فى دارنا هذه أكلنا رءوس أموالنا فلم يكن لها من بقاء. وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام فى الصيف، وإلى الحبشة فى الشتاء.

ودارت المناقشة حول هذا الموضوع، فقال الأسود بن عبد المطلب لصفوان: تنكب الطريق على الساحل وخذ طريق العراق - وهى طريق طويلة جدًّا تخترق نجدًا إلى الشام، وتمر فى شرقى المدينة على بعد كبير منها، وكانت قريش تجهل هذه الطريق كل الجهل - فأشار الأسود بن عبد المطلب على صفوان أن يتخذ فُرَات بن حَيَّان - من بنى بكر بن وائل - دليلًا له، ويكون رائده فى هذه الرحلة.

وخرجت عير قريش يقودها صفوان بن أمية، آخذة الطريق الجديدة، إلا أن أنباء هذه القافلة وخطة سيرها طارت إلى المدينة. وذلك أن سَلِيط بن النعمان - كان قد أسلم - اجتمع فى مجلس شرب - وذلك قبل تحريم الخمر - مع نعيم بن مسعود الأشجعى - ولم يكن أسلم إذ ذاك - فلما أخذت الخمر من نعيم تحدث بالتفصيل عن قضية العير وخطة سيرها،فأسرع سليط إلى النبى ﷺ يروى له القصة.

وجهز رسول الله ﷺ لوقته حملة قوامها مائة راكب فى قيادة زيد بن حارثة الكلبى، وأسرع زيد حتى دهم القافلة بغتة - على حين غرة - وهى تنزل على ماء فى أرض نجد يقال له: قَرْدَة - بالفتح فالسكون - فاستولى عليها كلها، ولم يكن من صفوان ومن معه من حرس القافلة إلا الفرار بدون أى مقاومة.

وأسر المسلمون دليل القافلة - فرات بن حيان، وقيل: ورجلين غيره - وحملوا غنيمة كبيرة من الأوانى والفضة كانت تحملها القافلة، قدرت قيمتها بمائة ألف، وقسم رسول الله ﷺ هذه الغنيمة على أفراد السرية بعد أخذ الخمس، وأسلم فرات بن حيان على يديه ﷺ [1].

وكانت مأساة شديدة ونكبة كبيرة أصابت قريشًا بعد بدر، اشتد لها قلق قريش وزادتها هما وحزنًا. ولم يبق أمامها إلا طريقان،إما أن تمتنع عن غطرستها وكبريائها، وتأخذ طريق الموادعة والمصالحة مع المسلمين، أو تقوم بحرب شاملة تعيد لها مجدها التليد، وعزها القديم، وتقضى على قوات المسلمين بحيث لا يبقى لهم سيطرة على هذا ولا ذاك، وقد اختارت مكة الطريق الثانية، فازداد إصرارها على المطالبة بالثأر، والتهيؤ للقاء المسلمين فى

---

(١) ابن هشام ٢/ ٥٠، ٥١، وفقه السيرة ص ١٩٠، ورحمة للعالمين ٢/ ٢١٩.

تعبئة كاملة، وتصميمها على الغزو فى ديارهم، فكان ذلك وما سبق من أحداث التمهيد القوى لمعركة أحد.

غزوة أحد

استعداد قريش لمعركة ناقمة:

كانت مكة تحترق غيظًا على المسلمين مما أصابها فى معركة بدر من مأساة الهزيمة وقتل الصناديد والأشراف، وكانت تجيش فيها نزعات الانتقام وأخذ الثأر، حتى إن قريشًا كانوا قد منعوا البكاء على قتلاهم فى بدر، ومنعوا من الاستعجال فى فداء الأسارى حتى لا يتفطن المسلمون مدى مأساتهم وحزنهم.

وعلى أثر غزوة بدر اتفقت قريش على أن تقوم بحرب شاملة ضد المسلمين تشفى غيظها وتروى غلة حقدها، وأخذت فى الاستعداد للخوض فى مثل هذه المعركة.

وكان عكرمة بن أبى جهل، وصفوان بن أمية، وأبو سفيان بن حرب، وعبد الله بن أبى ربيعة أكثر زعماء قريش نشاطًا وتحمسًا لخوض المعركة.

وأول ما فعلوه بهذا الصدد أنهم احتجزوا العير التى كان قد نجا بها أبو سفيان، والتى كانت سببًا لمعركة بدر، وقالوا للذين كانت فيها أموالهم: يا معشر قريش، إن محمدًا قد وَتَرَكُم[1] وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه ؛ لعلنا أن ندرك منه ثأرًا، فأجابوا لذلك، فباعوها، وكانت ألف بعير، والمال خمسين ألف دينار، وفى ذلك أنزل الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٦].

ثم فتحوا باب التطوع لكل من أحب المساهمة فى غزو المسلمين من الأحابيش وكنانة وأهل تهامة، وأخذوا لذلك أنواعا من طرق التحريض، حتى إن صفوان بن أمية أغرى أبا عزة الشاعر - الذى كان قد أسر فى بدر، فَمَنَّ عليه رسول الله ﷺ وأطلق سراحه بغير فدية، وأخذ منه العهد بألا يقوم ضده - أغراه على أن يقوم بتحريض القبائل ضد المسلمين، وعاهده أنه إن رجع عن الغزوة حيًّا يغنيه، وإلا يكفل بناته، فقام أبو عزة بتحريض القبائل بأشعاره التى كانت تذكى حفائظهم، كما اختاروا شاعرًا آخر - مُسَافع بن عبد مناف الجمحى - لنفس المهمة.

وكان أبو سفيان أشد تأليبًا على المسلمين بعدما رجع من غزوة السَّوِيق خائبًا لم ينل ما

---

(١) ظلمكم.

فى نفسه، بل أضاع مقدارًا كبيرًا من تمويناته فى هذه الغزوة.

وزاد الطينة بلة - أو زاد النار إذكاء، إن صح هذا التعبير - ما أصاب قريشًا أخيرًا فى سرية زيد بن حارثة من الخسارة الفادحة التى قصمت فقار اقتصادها، وزودها من الحزن والهم ما لا يقادر قدره، وحينئذ زادت سرعة قريش فى استعدادها للخوض فى معركة تفصل بينهم وبين المسلمين.

قوام جيش قريش وقيادته:

ولما استدارت السنة كانت مكة قد استكملت عدتها، واجتمع إليها من المشركين ثلاثة آلاف مقاتل من قريش والحلفاء والأحابيش، ورأى قادة قريش أن يستصحبوا معهم النساء حتى يكون ذلك أبلغ فى استماتة الرجال دون أن تصاب حرماتهم وأعراضهم، وكان عدد هذه النسوة خمس عشرة امرأة.

وكان سلاح النقليات فى هذا الجيش ثلاثة آلاف بعير، ومن سلاح الفرسان مائتا فرس[١]، جنبوها طول الطريق، وكان من سلاح الوقاية سبعمائة درع. وكانت القيادة العامة إلى أبى سفيان ابن حرب، وقيادة الفرسان إلى خالد بن الوليد يعاونه عكرمة بن أبى جهل. أما اللواء فكان إلى بنى عبد الدار.

جيش مكة يتحرك:

تحرك الجيش المكى بعد هذا الإعداد التام نحو المدينة، وكانت التارات القديمة والغيظ الكامن يشعل البغضاء فى القلوب، ويشف عما سوف يقع من قتال مرير.

الاستخبارات النبوية تكشف حركة العدو:

وكان العباس بن عبد المطلب يرقب حركات قريش واستعداداتها العسكرية، فلما تحرك هذا الجيش بعث العباس رسالة مستعجلة إلى النبى ﷺ ضمنها جميع تفاصيل الجيش.

وأسرع رسول العباس بإبلاغ الرسالة، وجد فى السير، حتى إنه قطع الطريق بين مكة والمدينة - التى تبلغ مسافتها إلى نحو خمسمائة كيلو متر - فى ثلاثة أيام، وسلم الرسالة إلى النبى ﷺ وهو فى مسجد قباء.

قرأ الرسالة على النبى ﷺ أبى بن كعب، فأمره بالكتمان، وعاد مسرعًا إلى المدينة،

---

(١) زاد المعاد ٢/ ٩٢ وهو المعروف، وفى فتح البارى: مائة فرس ٧/ ٣٤٦.

وتبادل الرأى مع قادة المهاجرين والأنصار.

استعداد المسلمين للطوارئ:

وظلت المدينة فى حالة استنفار عام لا يفارق رجالها السلاح حتى وهم فى الصلاة، استعدادًا للطوارئ.

وقامت مفرزة من الأنصار - فيهم سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير، وسعد بن عبادة - بحراسة رسول الله ﷺ، فكانوا يبيتون على بابه وعليهم السلاح. وقامت على مداخل المدينة وأنقابها مفرزات تحرسها ؛ خوفا من أن يؤخذوا على غرة.

وقامت دوريات من المسلمين - لاكتشاف تحركات العدو - تتجول حول الطرق التى يحتمل أن يسلكها المشركون للإغارة على المسلمين.

الجيش المكى إلى أسوار المدينة:

وتابع جيش مكة سيره على الطريق الغربية الرئيسية المعتادة، ولما وصل إلى الأبْوَاء اقترحت هند بنت عتبة - زوج أبى سفيان - بنبش قبر أم رسول الله ﷺ، بَيدَ أن قادة الجيش رفضوا هذا الطلب،وحذروا من العواقب الوخيمة التى تلحقهم لو فتحو هذا الباب.

ثم واصل جيش مكة سيره حتى اقترب من المدينة، فسلك وادى العَقيق، ثم انحرف منه إلى ذات اليمين حتى نزل قريبًا بجبل أحد، فى مكان يقال له: عَينَيْن، فى بطن السَّبْخَة من قناة على شفير الوادى - الذى يقع شمالى المدينة بجنب أحد، فعسكر هناك يوم الجمعة السادس من شهر شوال سنة ثلاث من الهجرة.

المجلس الاستشارى لأخذ خطة الدفاع:

ونقلت استخبارات المدينة أخبار جيش مكة خبرًا بعد خبر حتى الخبر الأخير عن معسكره، وحينئذ عقد رسول الله ﷺ مجلسًا استشاريًا عسكريًّا أعلى، تبادل فيه الرأى لاختيار الموقف، وأخبرهم عن رؤيا رآها، قال: «**إنى قد رأيت والله خيرًا، رأيت بقرًا يذبح، ورأيت فى ذُبَاب سيفى ثُلْمًا، ورأيت أنى أدخلت يدى فى درع حصينة**»، وتأوّل البقر بنفر من أصحابه يقتلون، وتأول الثلمة فى سيفه برجل يصاب من أهل بيته، وتأول الدرع بالمدينة.

ثم قدم رأيه إلى صحابته ألا يخرجوا من المدينة وأن يتحصنوا بها،فإن أقام المشركون بمعسكرهم أقاموا بِشَرِّ مُقَام وبغير جدوى، وإن دخلوا المدينة قاتلهم المسلمون على أفواه

الأزقة، والنساء من فوق البيوت، وكان هذا هو الرأى. ووافقه على هذا الرأى عبد الله بن أبى بن سلول - رأس المنافقين - وكان قد حضر المجلس بصفته أحد زعماء الخزرج. ويبدو أن موافقته لهذا الرأى لم تكن لأجل أن هذا هو الموقف الصحيح من حيث الوجهة العسكرية، بل ليتمكن من التباعد عن القتال دون أن يعلم بذلك أحد، وشاء الله أن يفتضح هو وأصحابه - لأول مرة - أمام المسلمين وينكشف عنهم الغطاء الذى كان كفرهم ونفاقهم يكمن وراءه، ويتعرف المسلمون فى أحرج ساعاتهم على تلك الأفاعى التى كانت تتحرك تحت ملابسهم وأكمامهم.

فقد بادر جماعة من فضلاء الصحابة ممن فاته الخروج يوم بدر ومن غيرهم، فأشاروا على النبى ﷺ بالخروج، وألحوا عليه فى ذلك حتى قال قائلهم: يا رسول الله،كنا نتمنى هذا اليوم وندعو الله، فقد ساقه إلينا وقرب المسير، اخرج إلى أعدائنا، لا يرون أنا جَبُنَّا عنهم.

وكان فى مقدمة هؤلاء المتحمسين حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ - الذى كان قد أبلى أحسن بلاء فى معركة بدر - فقد قال للنبى ﷺ: والذى أنزل عليك الكتاب لا أطعم طعامًا حتى أجالدهم بسيفى خارج المدينة[١].

وتنازل رسول الله ﷺ عن رأيه مراعاة لهؤلاء المتحمسين، واستقر الرأى على الخروج من المدينة، واللقاء فى الميدان السافر.

تكتيب الجيش الإسلامى وخروجه إلى ساحة القتال:

ثم صلى النبى ﷺ بالناس يوم الجمعة، فوعظهم وأمرهم بالجد والاجتهاد، وأخبر أن لهم النصر بما صبروا، وأمرهم بالتهيؤ لعدوهم، ففرح الناس بذلك. ثم صلى بالناس العصر، وقد حشدوا وحضر أهل العَوَالى، ثم دخل بيته، ومعه صاحباه أبو بكر وعمر، فعمماه وألبساه، فتدجج بسلاحه وظاهر بين درعين (أى لبس درعا فوق درع) وتقلد السيف، ثم خرج على الناس.

وكان الناس ينتظرون خروجه، وقد قال لهم سعد بن معاذ وأسيد بن حضير: استكرهتم رسول الله ﷺ على الخروج فردوا الأمر إليه،فندموا جميعًا على ما صنعوا، فلما خرج قالوا له: يا رسول الله،ما كان لنا أن نخالفك فاصنع ما شئت، إن أحببت أن تمكث بالمدينة فافعل. فقال رسول الله ﷺ: «**ما ينبغى لنبى إذا لبس لأْمَتَه** - وهى الدرع - **أن يضعها حتى يحكم**

---

(١) السيرة الحلبية ٢/ ١٤.

الله بينه وبين عدوه»[١].

وقسم النبى ﷺ جيشه إلى ثلاث كتائب:

١- كتيبة المهاجرين، وأعطى لواءها مصعب بن عمير العبدرى.

٢- كتيبة الأوس من الأنصار، وأعطى لواءها أسيد بن حضير.

٣- كتيبة الخزرج من الأنصار، وأعطى لواءها الحُبَاب بن المنذر.

وكان الجيش متألفًا من ألف مقاتل فيهم مائة دارع، ولم يكن فيهم من الفرسان أحد[٢]،واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم على الصلاة بمن بقى فى المدينة،وآذن بالرحيل، فتحرك الجيش نحو الشمال، وخرج السعدان أمام النبى ﷺ يعدوان دارعين.

ولما جاوز ثنية الوداع رأى كتيبة حسنة التسليح منفردة عن سواد الجيش، فسأل عنها، فأخبر أنهم اليهود من حلفاء الخزرج[٣] يرغبون المساهمة فى القتال ضد المشركين، فسأل: «**هل أسلموا؟**» فقالوا: لا، فأبى أن يستعين بأهل الكفر على أهل الشرك.

استعراض الجيش:

وعندما وصل إلى مقام يقال له: «الشيخان» استعرض جيشه، فرد من استصغره ولم يره مطيقًا للقتال، وكان منهم عبد الله بن عمر بن الخطاب وأسامة بن زيد، وأسيد بن ظُهَير، وزيد بن ثابت، وزيد بن أرقم، وعَرَابَة بن أَوْس، وعمرو بن حزم، وأبو سعيد الخدرى، وزيد بن حارثة الأنصارى، وسعد بن حَبَّة، ويذكر فى هؤلاء البراء بن عازب، لكن حديثه فى البخارى يدل على شهوده القتال ذلك اليوم.

وأجاز رافع بن خَدِيج، وسَمُرَة بن جُنْدَب على صغر سنهما، وذلك أن رافع بن خديج كان ماهرًا فى رماية النبل فأجازه، فقال سمرة: أنا أقوى من رافع،أنا أصرعه، فلما أخبر رسول الله ﷺ بذلك أمرهما أن يتصارعا أمامه فتصارعا، فصرع سمرة رافعًا، فأجازه أيضًا.

---

(١) رواه أحمد ٣/ ٣٥١، والنسائى والحاكم وابن إسحاق، وذكره البخارى فى الاعتصام فى ترجمة باب ٢٨.

(٢) قال ابن القيم فى الهدى ٢/ ٩٢: وخمسون فارسًا - قال ابن حجر: هو غلط بين. وقد جزم موسى ابن عقبة بأنه لم يعش معهم فى أحد شىء من الخيل، ووقع عند الواقدى: كان معهم فرس لرسول الله ﷺ وفرس لأبى بردة (فتح البارى ٧/ ٣٥٠).

(٣) روى ذلك ابن سعد، وفيه: أنهم من بنى قينقاع (٢/ ٣٤)، ومعلوم أن بنى قينقاع كان قد تم إجلاؤهم عقب بدر.

المبيت بين أحد والمدينة:

وفى هذا المكان أدركهم المساء، فصلى المغرب، ثم صلى العشاء، وبات هنالك، واختار خمسين رجلًا لحراسة المعسكر يتجولون حوله، وكان قائدهم محمد بن مسلمة الأنصارى، بطل سرية كعب ابن الأشرف، وتولى ذَكْوَان بن عبد قيس حراسة النبى ﷺ خاصة.

تمرد عبد الله بن أبى وأصحابه:

وقبل طلوع الفجر بقليل أدلج، حتى إذا كان بالشَّوْط صلى الفجر، وكان بمقربة جدًّا من العدو، فقد كان يراهم ويرونه، وهناك تمرد عبد الله بن أبى المنافق، فانسحب بنحو ثلث العسكر - ثلاثمائة مقاتل - قائلًا: ما ندرى علام نقتل أنفسنا؟ ومتظاهرًا بالاحتجاج بأن الرسول ﷺ ترك رأيه وأطاع غيره.

ولا شك أن سبب هذا الانعزال لم يكن هو ما أبداه هذا المنافق من رفض رسول الله ﷺ رأيه، وإلا لم يكن لسيره مع الجيش النبوى إلى هذا المكان معنى. ولو كان هذا هو السبب لانعزل عن الجيش منذ بداية سيره، بل كان هدفه الرئيسى من هذا التمرد - فى ذلك الظرف الدقيق - أن يحدث البلبلة والاضطراب فى جيش المسلمين على مرأى ومسمع من عدوهم،حتى ينحاز عامة الجيش عن النبى ﷺ، وتنهار معنويات من يبقى معه، بينما يتشجع العدو، وتعلو همته لرؤية هذا المنظر، فيكون ذلك أسرع إلى القضاء على النبى ﷺ وأصحابه المخلصين، ويصحو بعد ذلك الجو لعودة الرياسة إلى هذا المنافق وأصحابه.

وكاد المنافق ينجح فى تحقيق بعض ما كان يهدف إليه، فقد همت طائفتان - بنو حارثة من الأوس، وبنو سلمة من الخزرج - أن تفشلا، ولكن الله تولاهما، فثبتتا بعدما سرى فيهما الاضطراب، وهمتا بالرجوع والانسحاب، وعنهما يقول الله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [آل عمران].

وحاول عبد الله بن حَرَام - والد جابر بن عبد الله - تذكير هؤلاء المنافقين بواجبهم فى هذا الظرف الدقيق، فتبعهم وهو يوبخهم ويحضهم على الرجوع، ويقول: تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا، قالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لم نرجع، فرجع عنهم عبد الله بن حرام قائلًا: أبعدكم الله أعداء الله، فسيغنى الله عنكم نبيه.

وفى هؤلاء المنافقين يقول الله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ [آل عمران].

بقية الجيش الإسلامى إلى أحد:

وبعد هذا التمرد والانسحاب قام النبى ﷺ ببقية الجيش - وهم سبعمائة مقاتل - ليواصل سيره نحو العدو، وكان معسكر المشركين يحول بينه وبين أحد فى مناطق كثيرة، فقال: «**من رجل يخرج بنا على القوم من كَثَبٍ** - أى من قريب - **من طريق لا يمر بنا عليهم؟**».

فقال أبو خَيثَمَةَ: أنا يارسول الله، ثم اختار طريقًا قصيرًا إلى أحد يمر بحَرَّةِ بنى حارثة وبمزارعهم، تاركًا جيش المشركين إلى الغرب.

ومر الجيش فى هذا الطريق بحائط مِرْبَع بن قَيظِى - وكان منافقًا ضرير البصر - فلما أحس بالجيش قام يحثو التراب فى وجوه المسلمين، ويقول: لا أحل لك أن تدخل حائطى إن كنت رسول الله. فابتدره القوم ليقتلوه، فقال ﷺ: «**لا تقتلوه، فهذا الأعْمَى أعمى القلب أعمى البصر**».

ونفذ رسول الله ﷺ حتى نزل الشعب من جبل أحد فى عدوة الوادى، فعسكر بجيشه مستقبلًا المدينة، وجاعلا ظهره إلى هضاب جبل أحد، وعلى هذا صار جيش العدو فاصلًا بين المسلمين وبين المدينة.

خطة الدفاع:

وهناك عبأ رسول الله ﷺ جيشه، وهيأهم صفوفًا للقتال، فاختار منهم فصيلة من الرماة الماهرين، قوامها خمسون مقاتلًا، وأعطى قيادتها لعبد الله بن جبير بن النعمان الأنصارى الأوسى البدرى، وأمرهم بالتمركز على جبل يقع على الضفة الشمالية من وادى قناة - وعرف فيما بعد بجبل الرماة - جنوب شرق معسكر المسلمين، على بعد حوالى مائة وخمسين مترًا من مقر الجيش الإسلامى.

والهدف من ذلك هو ما أبداه رسول الله ﷺ فى كلماته التى ألقاها إلى هؤلاء الرماة، فقد قال لقائدهم: «**انضح الخيل عنا بالنبل، لا يأتونا من خلفنا، إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك، لا نؤتين من قبلك**»(١) وقال للرماة: «**احموا ظهورنا، فإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا، وإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا**»(٢)، وفى رواية البخارى أنه قال: «**إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا**

(١) ابن هشام ٢/ ٦٥، ٦٦.

(٢) روى ذلك أحمد والطبرانى والحاكم عن ابن عباس. انظر: فتح البارى ٧/ ٣٥٠.

القوم ووطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم»[١].

بتعين هذه الفصيلة فى الجبل مع هذه الأوامر العسكرية الشديدة سد رسول الله ﷺ الثلمة الوحيدة التى كان يمكن لفرسان المشركين أن يتسللوا من ورائها إلى صفوف المسلمين، ويقوموا بحركات الالتفاف وعملية التطويق.

أما بقية الجيش فجعل على الميمنة المنذر بن عمرو، وجعل على الميسرة الزبير بن العوام، يسانده المقداد بن الأسود، وكان إلى الزبير مهمة الصمود فى وجه فرسان خالد بن الوليد، وجعل فى مقدمة الصفوف نخبة ممتازة من شجعان المسلمين ورجالاتهم المشهورين بالنجدة والبسالة، والذين يوزنون بالآلاف.

ولقد كانت خطة حكيمة ودقيقة جدًّا، تتجلى فيها عبقرية قيادة النبى ﷺ العسكرية، وأنه لا يمكن لأى قائد مهما تقدمت كفاءته أن يضع خطة أدق وأحكم من هذا؛ فقد احتل أفضل موضع من ميدان المعركة، مع أنه نزل فيه بعد العدو، فإنه حمى ظهره ويمينه بارتفاعات الجبل، وحمى ميسرته وظهره - حين يحتدم القتال - بسد الثلمة الوحيدة التى كانت توجد فى جانب الجيش الإسلامى، واختار لمعسكره موضعًا مرتفعًا يحتمى به - إذا نزلت الهزيمة بالمسلمين - ولا يلتجئ إلى الفرار، حتى يتعرض للوقوع فى قبضة الأعداء المطاردين وأسرهم، ويلحق مع ذلك خسائر فادحة بأعدائه إن أرادوا احتلال معسكره وتقدموا إليه،وألجأ أعداءه إلى قبول موضع منخفض يصعب عليهم جدًّا أن يحصلوا على شىء من فوائد الفتح إن كانت الغلبة لهم، ويصعب عليهم الإفلات من المسلمين المطاردين إن كانت الغلبة للمسلمين، كما أنه عوض النقص العددى فى رجاله باختيار نخبة ممتازة من أصحابه الشجعان البارزين.

وهكذا تمت تعبئة الجيش النبوى صباح يوم السبت السابع من شهر شوال سنة ٣هـ.

الرسول ﷺ ينفث روح البسالة فى الجيش:

ونهى الرسول ﷺ الناس عن الأخذ فى القتال حتى يأمرهم، وظاهر بين درعين[٢]، وحرض أصحابه على القتال، وحضهم على المصابرة والجلاد عند اللقاء، وأخذ ينفث روح الحماسة والبسالة فى أصحابه حتى جرد سيفًا باترًا ونادى أصحابه: «**من يأخذ هذا السيف بحقه؟**»، فقام إليه رجال ليأخذوه - منهم على بن أبى طالب، والزبير بن العوام، وعمر

---

(١) صحيح البخارى: كتاب الجهاد ١/ ٤٢٦.

(٢) أى: لبس درعا فوق درع.

ابن الخطاب - حتى قام إليه أبو دُجَانة سِمَاك بن خَرَشَة، فقال: وما حقه يا رسول الله؟ قال: «**أن تضرب به وجوه العدو حتى ينحنى**». قال: أنا آخذه بحقه يا رسول الله، فأعطاه إياه.

وكان أبو دجانة رجلًا شجاعًا يختال عند الحرب، وكانت له عصابة حمراء إذا اعتصب بها علم الناس أنه سيقاتل حتى الموت. فلما أخذ السيف عصب رأسه بتلك العصابة، وجعل يتبختر بين الصفين، وحينئذ قال رسول الله ﷺ: «**إنها لمشية يبغضها الله إلا فى مثل هذا الموطن**».

تعبئة الجيش المكي:

أما المشركون فعبأوا جيشهم حسب نظام الصفوف، فكانت القيادة العامة إلى أبى سفيان صخر ابن حرب الذى تمركز فى قلب الجيش، وجعلوا على الميمنة خالد بن الوليد - وكان إذ ذاك مشركًا - وعلى الميسرة عكرمة بن أبى جهل، وعلى المشاة صفوان بن أمية، وعلى رماة النبل عبد الله بن أبى ربيعة.

أما اللواء فكان إلى مفرزة من بنى عبد الدار، وقد كان ذلك منصبهم منذ أن اقتسمت بنو عبد مناف المناصب التى ورثوها من قصى بن كلاب - كما أسلفنا فى أوائل الكتاب - وكان لا يمكن لأحد أن ينازعهم فى ذلك؛ تقيدًا بالتقاليد التى ورثوها كابرًا عن كابر، بيد أن القائد العام - أبا سفيان - ذكرهم بما أصاب قريشًا يوم بدر حين أسر حامل لوائهم النضر ابن الحارث، وقال لهم- ليستفز غضبهم ويثير حميتهم: يا بنى عبد الدار، قد وليتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ما قد رأيتم، وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم، وإذا زالت زالوا، فإما أن تكفونا لواءنا، وإما أن تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه.

ونجح أبو سفيان فى هدفه، فقد غضب بنو عبد الدار لقول أبى سفيان أشد الغضب، وهموا به وتواعدوه وقالوا له: نحن نسلم إليك لواءنا؟ ستعلم غدًا إذا التقينا كيف نصنع. وقد ثبتوا عند احتدام المعركة حتى أبيدوا عن بكرة أبيهم.

مناورات سياسية من قبل قريش:

وقبيل نشوب المعركة حاولت قريش إيقاع الفرقة والنزاع داخل صفوف المسلمين. فقد أرسل أبو سفيان إلى الأنصار يقول لهم: خلوا بيننا وبين ابن عمنا فننصرف عنكم،، فلا حاجة لنا إلى قتالكم. ولكن أين هذه المحاولة أمام الإيمان الذى لا تقوم له الجبال، فقد رد عليه الأنصار ردًّا عنيفًا، وأسمعوه ما يكره.

واقتربت ساعة الصفر، وتدانت الفئتان، فقامت قريش بمحاولة أخرى لنفس الغرض، فقد خرج إلى الأنصار عميل خائن يسمى أبا عامر الفاسق - واسمه عبد عمرو ابن صَيفِى، وكان يسمى الراهب، فسماه رسول الله ﷺ الفاسق، وكان رأس الأوس فى الجاهلية، فلما جاء الإسلام شَرِق[1] به، وجاهر رسول الله ﷺ بالعداوة، فخرج من المدينة وذهب إلى قريش يؤلبهم على رسول الله ﷺ ويحضهم على قتاله، ووعدهم بأن قومه إذا رأوه أطاعوه، ومالوا معه - فكان أول من خرج إلى المسلمين فى الأحابيش وعُبْدَان أهل مكة. فنادى قومه وتعرف عليهم، وقال: يا معشر الأوس، أنا أبو عامر. فقالوا: لا أنعم الله بك عينًا يا فاسق. فقال: لقد أصاب قومى بعدى شر. - ولما بدأ القتال قاتلهم قتالًا شديدًا وراضخهم بالحجارة.

وهكذا فشلت قريش فى محاولتها الثانية للتفريق بين صفوف أهل الإيمان. ويدل عملهم هذا على ما كان يسيطر عليهم من خوف المسلمين وهيبتهم، مع كثرتهم وتفوقهم فى العدد والعدة.

جهود نسوة قريش فى التحميس:

وقامت نسوة قريش بنصيبهن من المشاركة فى المعركة، تقودهن هند بنت عتبة زوجة أبى سفيان، فكن يتجولن فى الصفوف، ويضربن بالدفوف؛ يستنهضن الرجال، ويحرضن على القتال، ويثرن حفائظ الأبطال، ويحركن مشاعر أهل الطعان والضراب والنضال، فتارة يخاطبن أهل اللواء فيقلن:

وَيْهـا بنى عبد الدار
ويها حُمَاة الأدبار
ضربًا بكل بتار

وتارة يأززن قومهن على القتال وينشدن:

إن تُقْبِلُوا نُعَانِق
ونَفْرِشُ النمارق
أو تُدْبِرُوا نُفَارِق
فراق غير وَامِق[2]

---

(١) يقال: شَرِق بِرِيقِهِ: أى غُصَّ.

(٢) الوامق: المحب.

أول وقود المعركة:

وتقارب الجمعان وتدانت الفئتان، وآنت مرحلة القتال، وكان أول وقود المعركة حامل لواء المشركين طلحة بن أبى طلحة العبدرى، وكان من أشجع فرسان قريش، يسميه المسلمون كبش الكتيبة. خرج وهو راكب على جمل يدعو إلى المبارزة، فأحجم عنه الناس لفرط شجاعته، ولكن تقدم إليه الزبير ولم يمهله، بل وثب إليه وثبة الليث حتى صار معه على جمله، ثم اقتحم به الأرض فألقاه عنه وذبحه بسيفه.

ورأى النبى ﷺ هذا الصراع الرائع فكبر، وكبر المسلمون وأثنى على الزبير، وقال فى حقه: «**إن لكل نبى حواريًا، وحوارى الزبير**»[١].

ثقل المعركة حول اللواء وإبادة حملته:

ثم اندلعت نيران المعركة، واشتد القتال بين الفريقين فى كل نقطة من نقاط الميدان، وكان ثقل المعركة يدور حول لواء المشركين، فقد تعاقب بنو عبد الدار لحمل اللواء بعد قتل قائدهم طلحة بن أبى طلحة، فحمله أخوه أبو شيبة عثمان بن أبى طلحة، وتقدم للقتال وهو يقول:

إنَّ علـى أهْــل الـلـوَاء حقًا أن تُخْضَبَ الصَّعْدَةَ[٢] أو تَنْدَقَّا

فحمل عليه حمزة بن عبد المطلب فضربه على عاتقه ضربة بترت يده مع كتفه، حتى وصلت إلى سرته، فبانت رئته.

ثم رفع اللواء أبو سعد بن أبى طلحة، فرماه سعد بن أبى وقاص بسهم أصاب حنجرته، فأُدْلِعَ[٣] لسانُهُ ومات لحينه. وقيل: بل خرج أبو سعد يدعو إلى البراز، فتقدم إليه على بن أبى طالب، فاختلفا ضربتين، فضربه على فقتله.

ثم رفع اللواء مُسَافع بن طلحة بن أبى طلحة، فرماه عاصم بن ثابت بن أبى الأفْلَح بسهم فقتله، فحمل اللواء بعده أخوه كِلاَب بن طلحة بن أبى طلحة، فانقض عليه الزبير ابن العوام وقاتله حتى قتله، ثم حمل اللواء أخوهما الجُلاَس بن طلحة بن أبى طلحة، فطعنه طلحة بن عبيد الله طعنة قضت على حياته. وقيل: بل رماه عاصم بن ثابت بن أبى الأفلح بسهم فقضى عليه.

---

(١) ذكره صاحب السيرة الحلبية ٢ / ١٨.

(٢) الصعدة: القناة. (٣) خرج.

هؤلاء ستة نفر من بيت واحد، بيت أبى طلحة عبد الله بن عثمان بن عبد الدار، قتلوا جميعًا حول لواء المشركين، ثم حمله من بنى عبد الدار أرطاة بن شُرَحْبيل، فقتله على بن أبى طالب، وقيل: حمزة بن عبد المطلب، ثم حمله شُرَيح بن قارظ فقتله قُزْمَان - وكان منافقًا قاتل مع المسلمين حمية، لا عن الإسلام - ثم حمله أبو زيد عمرو بن عبد مناف العبدرى، فقتله قزمان أيضًا، ثم حمله ولد لشرحبيل بن هاشم العبدرى فقتله قزمان أيضًا.

فهؤلاء عشرة من بنى عبد الدار - من حملة اللواء - أبيدوا عن آخرهم، ولم يبق منهم أحد يحمل اللواء. فتقدم غلام لهم حبشى - اسمه صُؤَاب - فحمل اللواء، وأبدى من صنوف الشجاعة والثبات ما فاق به مواليه من حملة اللواء الذين قتلوا قبله، فقد قاتل حتى قطعت يداه، فبرك على اللواء بصدره وعنقه؛ لئلا يسقط، حتى قتل وهو يقول: اللهم هل أعزرت؟ يعنى هل أعذرت؟.

وبعد أن قتل هذا الغلام - صُؤاب - سقط اللواء على الأرض، ولم يبق أحد يحمله، فبقى ساقطًا.

القتال فى بقية النقاط:

وبينما كان ثقل المعركة يدور حول لواء المشركين كان القتال المرير يجرى فى سائر نقاط المعركة، وكانت روح الإيمان قد سادت صفوف المسلمين، فانطلقوا خلال جنود الشرك انطلاق الفيضان تتقطع أمامه السدود، وهم يقولون: (أمت، أمت) كان ذلك شعارًا لهم يوم أحد.

أقبل أبو دُجَانة معلمًا بعصابته الحمراء، آخذًا بسيف رسول الله ﷺ، مصممًا على أداء حقه، فقاتل حتى أمعن فى الناس، وجعل لا يلقى مشركًا إلا قتله، وأخذ يهد صفوف المشركين هدّا. قال الزبير بن العوام: وجدت فى نفسى حين سألت رسول الله ﷺ السيف فمنعنيه، وأعطاه أبا دجانة، وقلت - أى فى نفسى: أنا ابن صفية عمته، ومن قريش، وقد قمت إليه، فسألته إياه قبله فآتاه إياه وتركنى، والله لأنظرن ما يصنع؟ فاتبعته، فأخرج عصابة له حمراء فعصب بها رأسه، فقالت الأنصار: أخرج أبو دجانة عصابة الموت، فخرج وهو يقول:

أنا الذى عاهدنى خليلى ... ونحن بالسَّفْح لدى النَّخِيل
ألا أقوم الدَّهْرَ فى الكَيُّول[1] ... أَضْرِبْ بسَيْف الله والرسول

(١) الكَيُّول: آخر الصفوف، يعنى: أنه لا يقاتل فى مؤخرة الصفوف، بل يظل أبدًا فى المقدمة.

فجعل لا يلقى أحدًا إلا قتله، وكان فى المشركين رجل لا يدع لنا جريحًا إلا ذَفَّفَ عليه[١]، فجعل كل واحد منهما يدنو من صاحبه، فدعوت الله أن يجمع بينهما فالتقيا، فاختلفا ضربتين، فضرب المشرك أبا دجانة فاتقاه بدرقته، فَعَضَّتْ بسيفه، فضربه أبو دجانة فقتله[٢].

ثم أمعن أبو دجانة فى هدِّ الصفوف، حتى خلص إلى قائدة نسوة قريش، وهو لا يدرى بها. قال أبو دجانة: رأيت إنسانًا يَخْمِش[٣] الناس خمشًا شديدًا، فصمدت له[٤]، فلما حملت عليه السيف ولَوْلَ، فإذا امرأة، فأكرمت سيف رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأة.

وكانت تلك المرأة هى هند بنت عتبة. قال الزبير بن العوام: رأيت أبا دجانة قد حمل السيف على مفرق رأس هند بنت عتبة، ثم عدل السيف عنها، فقلت: الله ورسوله أعلم[٥].

وقاتل حمزة بن عبد المطلب قتال الليوث المهتاجة، فقد اندفع إلى قلب جيش المشركين يغامر مغامرة منقطعة النظير، ينكشف عنه الأبطال كما تتطاير الأوراق أمام الرياح الهوجاء، فبالإضافة إلى مشاركته الفعالة فى إبادة حاملى لواء المشركين فعل الأفاعيل بأبطالهم الآخرين، حتى صرع وهو فى مقدمة المبرزين، ولكن لا كما تصرع الأبطال وجهًا لوجه فى ميدان القتال، وإنما كما يغتال الكرام فى حلك الظلام.

مصرع أسد الله حمزة بن عبد المطلب:

يقول قاتل حمزة وحْشِى بن حرب: كنت غلامًا لجبير بن مُطْعِم، وكان عمه طُعَيْمَة ابن عدى قد أصيب يوم بدر، فلما سارت قريش إلى أحد قال لى جبير: إنك إن قتلت حمزة عم محمد بعمى فأنت عتيق. قال: فخرجت مع الناس - وكنت رجلًا حبشيًّا أقذف بالحربة قذف الحبشة، قلما أخطئ بها شيئًا - فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة وأتبصره، حتى رأيته فى عرض الناس مثل الجمل الأَوْرَق، يهُدُّ الناس هدّا ما يقوم له شيء. فوالله إنى لأتهيأ له أريده، فأستتر منه بشجرة أو حجر ليدنو منى إذ تقدمنى إليه سِبَاع بن عبد العزى، فلما رآه حمزة قال له: هلم إلىّ يابن مُقَطِّعَة البُظُور - وكانت أمه ختانة - قال: فضربه ضربة كأنما أخطأ رأسه[٦].

---

(١) أجهز عليه وأسرع قتله.
(٢) ابن هشام ٢/ ٦٨، ٦٩.
(٣) يشجع على القتال.
(٤) قصدت نحوه.
(٥) ابن هشام ٢/ ٦٩.
(٦) أخطأ رأسه: يقال عند المبالغة فى الإصابة.

قال: وهززت حربتى حتى إذا رضيت منها دفعتها إليه، فوقعت فى ثُنَّتِه - أحشائه - حتى خرجت من بين رجليه، وذهب لينوء نحوى فَغُلِبَ، وتركته وإياها حتى مات، ثم أتيته فأخذت حربتى، ثم رجعت إلى العسكر فقعدت فيه، ولم يكن لى بغيره حاجة، وإنما قتلته لأعتق، فلما قدمت مكة عتقت(١).

السيطرة على الموقف:

وبرغم هذه الخسارة الفادحة التى لحقت المسلمين بقتل أسد الله وأسد رسوله حمزة ابن عبد المطلب، ظل المسلمون مسيطرين على الموقف كله. فقد قاتل يومئذ أبو بكر، وعمر ابن الخطاب، وعلى بن أبى طالب، والزبير بن العوام، ومصعب بن عمير، وطلحة بن عبيد الله، وعبد الله بن جحش، وسعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، وسعد بن الربيع، وأنس بن النضر وأمثالهم قتالًا فَلَّ عزائم المشركين، وفتَّ فى أعضادهم.

من أحضان المرأة إلى مقارعة السيوف والدرقة:

وكان من الأبطال المغامرين يومئذ حَنْظَلة الغَسِيل - وهو حنظلة بن أبى عامر، وأبو عامر هذا هو الراهب الذى سمى بالفاسق، والذى مضى ذكره قريبًا - كان حنظلة حديث عهد بالعُرْس، فلما سمع هواتف الحرب وهو على امرأته انخلع من أحضانها، وقام من فوره إلى الجهاد، فلما التقى بجيش المشركين فى ساحة القتال أخذ يشق الصفوف حتى خلص إلى قائد المشركين أبى سفيان صخر بن حرب، وكاد يقضى عليه لولا أن أتاح الله له الشهادة، فقد شد على أبى سفيان، فلما استعلاه وتمكن منه رآه شداد بن الأسود فضربه حتى قتله.

نصيب فصيلة الرماة فى المعركة:

وكانت للفصيلة التى عينها الرسول ﷺ على جبل الرماة يد بيضاء فى إدارة دفة القتال لصالح الجيش الإسلامى، فقد هجم فرسان مكة بقيادة خالد بن الوليد يسانده أبو عامر الفاسق ثلاث مرات؛ ليحطموا جناح الجيش الإسلامى الأيسر، حتى يتسربوا إلى ظهور المسلمين، فيحدثوا البلبلة والارتباك فى صفوفهم وينزلوا عليهم هزيمة ساحقة، ولكن هؤلاء الرماة رشقوهم بالنبل حتى فشلت هجماتهم الثلاث(٢).

---

(١) ابن هشام ٢/ ٦٩- ٧٢، صحيح البخارى ٢/ ٥٨٣- أسلم وحشى هذا بعد معركة الطائف، وقتل مسيلمة الكذاب بحربته تلك، وشهد اليرموك ضد الرومان.

(٢) انظر: فتح البارى ٧/ ٣٤٦.

الهزيمة تنزل بالمشركين:

هكذا دارت رحى الحرب الزَّبُون، وظل الجيش الإسلامى الصغير مسيطرًا على الموقف كله حتى خارت عزائم أبطال المشركين، وأخذت صفوفهم تتبدد عن اليمين والشمال والأمام والخلف، كأن ثلاثة آلاف مشرك يواجهون ثلاثين ألف مسلم لا بضع مئات قلائل، وظهر المسلمون فى أعلى صور الشجاعة واليقين.

وبعد أن بذلت قريش أقصى جهدها لسد هجوم المسلمين أحست بالعجز والخور، وانكسرت همتها - حتى لم يجترئ أحد منها أن يدنو من لوائها الذى سقط بعد مقتل صُؤاب فيحمله ليدور حوله القتال - فأخذت فى الانسحاب، ولجأت إلى الفرار، ونسيت ما كانت تتحدث به فى نفوسها من أخذ الثأر والوتر والانتقام، وإعادة العز والمجد والوقار.

قال ابن إسحاق: ثم أنزل الله نصره على المسلمين، وصدقهم وعده، فحسوهم بالسيوف حتى كشفوهم عن المعسكر، وكانت الهزيمة لاشك فيها.

روى عبد الله بن الزبير عن أبيه أنه قال: والله لقد رأيتنى أنظر إلى خَدَم - سوق - هند بنت عتبة وصواحبها مشمرات هوارب، ما دون أخذهن قليل ولا كثير... إلخ[١].

وفى حديث البراء بن عازب عند البخارى فى الصحيح: فلما لقيناهم هربوا حتى رأيت النساء يشتددن فى الجبل، يرفعن سوقهن قد بدت خلاخيلهن[٢]. وتبع المسلمون المشركين يضعون فيهم السلاح وينتهبون الغنائم.

غلطة الرماة الفظيعة:

وبينما كان الجيش الإسلامى الصغير يسجل مرة أخرى نصرًا ساحقًا على أهل مكة لم يكن أقل روعة من النصر الذى اكتسبه يوم بدر، وقعت من أغلبية فصيلة الرماة غلطة فظيعة قلبت الوضع تمامًا، وأدت إلى إلحاق الخسائر الفادحة بالمسلمين، وكادت تكون سببًا فى مقتل النبى ﷺ، وقد تركت أسوأ أثر على سمعتهم، وعلى الهيبة التى كانوا يتمتعون بها بعد بدر.

لقد أسلفنا نصوص الأوامر الشديدة التى أصدرها رسول الله ﷺ إلى هؤلاء الرماة، بلزومهم موقفهم من الجبل فى كل حال من النصر أو الهزيمة، ولكن على رغم هذه الأوامر المشددة لما رأى هؤلاء الرماة أن المسلمين ينتهبون غنائم العدو غلبت عليهم أثارة من حب الدنيا، فقال بعضهم لبعض: الغنيمة، الغنيمة، ظهر أصحابكم، فما تنتظرون؟

---

(١) ابن هشام ٢/ ٧٧. (٢) صحيح البخارى ٢/ ٥٧٩.

أما قائدهم عبد الله بن جبير، فقد ذكرهم أوامر الرسول ﷺ، وقال: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟

ولكن الأغلبية الساحقة لم تلق لهذا التذكير بالًا، وقالت: والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة[١]. ثم غادر أربعون رجلًا أو أكثر هؤلاء الرماة مواقعهم من الجبل، والتحقوا بسَوَاد الجيش ليشاركوه فى جمع الغنائم. وهكذا خلت ظهور المسلمين، ولم يبق فيها إلا ابن جبير وتسعة أو أقل من أصحابه والتزموا مواقفهم مصممين على البقاء حتى يؤذن لهم أو يبادوا.

خالد بن الوليد يقوم بخطة تطويق الجيش الإسلامى:

وانتهز خالد بن الوليد هذه الفرصة الذهبية، فكرَّ بسرعة خاطفة إلى جبل الرماة ليدور من خلفه إلى مؤخرة الجيش الإسلامى، فلم يلبث أن أباد عبد الله بن جبير وأصحابه إلا البعض الذين لحقوا بالمسلمين، ثم انقض على المسلمين من خلفهم، وصاح فرسانه صيحة عرف بها المشركون المنهزمون بالتطور الجديد فانقلبوا على المسلمين، وأسرعت امرأة منهم - وهى عمرة بنت علقمة الحارثية - فرفعت لواء المشركين المطروح على التراب، فالتف حوله المشركون ولاثوا به، وتنادى بعضهم بعضًا، حتى اجتمعوا على المسلمين، وثبتوا للقتال، وأحيط المسلمون من الأمام والخلف، ووقعوا بين شِقَّى الرحى.

موقف الرسول الباسل إزاء عمل التطويق:

وكان رسول الله ﷺ حينئذ فى مفرزة صغيرة - تسعة نفر من أصحابه[٢] - فى مؤخرة المسلمين، كان يرقب مجالدة المسلمين[٣] ومطاردتهم المشركين؛ إذ بوغت بفرسان خالد مباغتة كاملة، فكان أمامه طريقان: إما أن ينجو - بالسرعة - بنفسه وبأصحابه التسعة إلى ملجأ مأمون، ويترك جيشه المطوق إلى مصيره المقدور، وإما أن يخاطر بنفسه فيدعو أصحابه ليجمعهم حوله، ويتخذ بهم جبهة قوية يشق بها الطريق لجيشه المطوق إلى هضاب أحد.

وهناك تجلت عبقرية الرسول ﷺ وشجاعته المنقطعة النظير، فقد رفع صوته ينادى أصحابه: «**إلى عباد الله**»، وهو يعرف أن المشركين سوف يسمعون صوته قبل أن يسمعه

---

(١) روى ذلك البخارى من حديث البراء بن عازب ١/ ٤٢٦.

(٢) فى صحيح مسلم (٢/ ١٠٧) أنه ﷺ أفرد يوم أحد فى سبعة من الأنصار ورجلين من قريش.

(٣) يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾.

المسلمون، ولكنه ناداهم ودعاهم مخاطرًا بنفسه فى هذا الظرف الدقيق.

وفعلًا فقد علم به المشركون فخلصوا إليه، قبل أن يصل إليه المسلمون.

تبدد المسلمين فى الموقف:

أما المسلمون فلما وقعوا فى التطويق طار صواب طائفة منهم، فلم تكن تهمها إلا أنفسها، فقد أخذت طريق الفرار، وتركت ساحة القتال، وهى لا تدرى ماذا وراءها؟ وفر من هذه الطائفة بعضهم إلى المدينة حتى دخلها، وانطلق بعضهم إلى ما فوق الجبل.

ورجعت طائفة أخرى فاختلطت بالمشركين، والتبس العسكران فلم يتميزا، فوقع القتل فى المسلمين بعضهم من بعض. روى البخارى عن عائشة قالت: لما كان يوم أحد هزم المشركون هزيمة بينة، فصاح إبليس: أى عباد الله أخراكم - أى احترزوا من ورائكم - فرجعت أولاهم فاجتلدت هى وأخراهم، فبصر حذيفة، فإذا هو بأبيه اليمان، فقال: أى عباد الله أبى أبى. قالت: فوالله ما احتجزوا عنه حتى قتلوه، فقال حذيفة: يغفر الله لكم. قال عروة: فوالله ما زالت فى حذيفة بقية خير حتى لحق بالله(١).

وهذه الطائفة حدث داخل صفوفها ارتباك شديد، وعمتها الفوضى، وتاه منها الكثيرون؛لا يدرون أين يتوجهون، وبينما هم كذلك إذ سمعوا صائحًا يصيح: إن محمدًا قد قتل، فطارت بقية صوابهم، وانهارت الروح المعنوية أو كادت تنهار فى نفوس كثير من أفرادها، فتوقف من توقف منهم عن القتال، وألقى بأسلحته مستكينًا، وفكر آخرون فى الاتصال بعبد الله بن أبى - رأس المنافقين - ليأخذ لهم الأمان من أبى سفيان. ومر بهؤلاء أنس بن النضر، وقد ألقوا ما بأيديهم فقال: ما تنتظرون؟ فقالوا: قتل رسول الله ﷺ، قال: ما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ، ثم قال: اللهم إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء، يعنى المسلمين، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء، يعنى المشركين، ثم تقدم فلقيه سعد بن معاذ، فقال: أين يا أبا عمر؟ فقال أنس: واها لريح الجنة يا سعد، إنى أجده دون أحد، ثم مضى فقاتل القوم حتى قتل، فما عرف حتى عرفته أخته - بعد نهاية المعركة - ببنانه، وبه بضع وثمانون ما بين طعنة برمح، وضربة بسيف، ورمية بسهم(٢).

---

(١) صحيح البخارى ١/ ٥٣٩، ٢/ ٥٨١، وفتح البارى ٧/ ٣٥١، ٣٦٢، ٣٦٣ وذكر غير البخارى أن رسول الله ﷺ أراد أن يديه. فقال حذيفة: تصدقت بديته على المسلمين، فزاد ذلك حذيفة خيرا عند النبي ﷺ.

(٢) زاد المعاد ٢/ ٩٣، ٩٦، صحيح البخارى ٢/ ٥٧٩.

ونادى ثابت بن الدَحْدَاح قومه فقال: يا معشر الأنصار، إن كان محمد قد قتل، فإن الله حى لا يموت، قاتلوا على دينكم، فإن الله مظفركم وناصركم. فنهض إليه نفر من الأنصار، فحمل بهم على كتيبة فرسان خالد، فما زال يقاتلهم حتى قتله خالد بالرمح، وقتل أصحابه(١).

ومر رجل من المهاجرين برجل من الأنصار، وهو يَتَشَحَّطُ فى دمه، فقال: يا فلان، أشعرت أن محمدًا قد قتل؟ فقال الأنصارى: إن كان محمد قد قتل فقد بَلَّغ، فقاتلوا عن دينكم(٢).

وبمثل هذا الاستبسال والتشجيع عادت إلى جنود المسلمين روحهم المعنوية، ورجع إليهم رشدهم وصوابهم، فعدلوا عن فكرة الاستسلام أو الاتصال بابن أبى، وأخذوا سلاحهم، يهاجمون تيارات المشركين، وهم يحاولون شق الطريق إلى مقر القيادة، وقد بلغهم أن خبر مقتل النبى ﷺ كذب مُخْتَلَق، فزادهم ذلك قوة على قوتهم، فنجحوا فى الإفلات عن التطويق، وفى التجمع حول مركز منيع، بعد أن باشروا القتال المرير، وجالدوا بضراوة بالغة.

وكانت هناك طائفة ثالثة لم يكن يهمهم إلا رسول الله ﷺ. فقد كرت هذه الطائفة إلى رسول الله ﷺ، وعمل التطويق فى بدايته، وفى مقدمة هؤلاء أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعلى بن أبى طالب وغيرهم - رضي الله عنهم - كانوا فى مقدمة المقاتلين، فلما أحسوا بالخطر على ذاته الشريفة - عليه الصلاة والسلام والتحية - صاروا فى مقدمة المدافعين.

احتدام القتال حول رسول الله:

وبينما كانت تلك الطوائف تتلقى أواصر التطويق، وتطحن بين شِقَّى رَحَى المشركين، كان العراك محتدمًا حول رسول الله ﷺ، وقد ذكرنا أن المشركين لما بدءوا عمل التطويق لم يكن مع رسول الله ﷺ إلا تسعة نفر، فلما نادى المسلمين: «**هلموا إلى، أنا رسول الله**»، سمع صوته المشركون وعرفوه، فكروا إليه وهاجموه، ومالوا إليه بثقلهم قبل أن يرجع إليه أحد من جيش المسلمين، فجرى بين المشركين وبين هؤلاء النفر التسعة من الصحابة عراك عنيف ظهرت فيه نوادر الحب والتفانى والبسالة والبطولة.

روى مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ أفرد يوم أحد فى سبعة من الأنصار

---

(١) السيرة الحلبية ٢/ ٢٢.

(٢) زاد المعاد ٢/ ٩٦.

ورجلين من قريش، فلما رهقوه قال: «**من يردهم عنا وله الجنة؟ أو هو رفيقى فى الجنة؟**» فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل ثم رهقوه أيضًا فقال: «**من يردهم عنا وله الجنة، أو هو رفيقى فى الجنة؟**» فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل، فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة، فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه - أى القرشيين: «**ما أنصفنا أصحابنا**»(١).

وكان آخر هؤلاء السبعة هو عمارة بن يزيد بن السَّكَن، قاتل حتى أثبتته الجراحة فسقط(٢).

أحرج ساعة فى حياة الرسول ﷺ:

وبعد سقوط ابن السكن بقى الرسول فى القرشيين فقط، ففى الصحيحين عن أبى عثمان قال: لم يبق مع النبى ﷺ فى بعض تلك الأيام التى يقاتل فيهن غير طلحة بن عبيد الله وسعد (بن أبى وقاص)(٣)، وكانت أحرج ساعة بالنسبة إلى حياة رسول الله ﷺ، وفرصة ذهبية بالنسبة إلى المشركين، ولم يتوان المشركون فى انتهاز تلك الفرصة، فقد ركزوا حملتهم على النبى ﷺ، وطمعوا فى القضاء عليه، رماه عتبة بن أبى وقاص بالحجارة فوقع لشقه، وأصيبت رباعيته اليمنى السفلى، وكُلِمَتْ شفته السفلى، وتقدم إليه عبد الله بن شهاب الزهرى فَشَجَّه فى جبهته، وجاء فارس عنيد هو عبد الله بن قَمِئَة، فضرب على عاتقه بالسيف ضربة عنيفة شكا لأجلها أكثر من شهر إلا أنه لم يتمكن من هتك الدرعين، ثم ضرب على وجنته ﷺ ضربة أخرى عنيفة كالأولى حتى دخلت حلقتان من حلق المِغْفَر فى وجْنَتِه، وقال: خذها وأنا ابن قمئة. فقال رسول الله ﷺ وهو يمسح الدم عن وجهه: «**أقمأك الله**»(٤).

وفى الصحيح: أنه ﷺ كسرت رَبَاعِيَته، وشُجَّ فى رأسه، فجعل يَسْلُتُ الدم عنه ويقول: «**كيف يفلح قوم شجوا وجه نبيهم، وكسروا رباعيته، وهو يدعوهم إلى الله**»، فأنزل الله عز

---

(١) صحيح مسلم: باب غزوة أحد ٢/ ١٠٧.

(٢) وبعد لحظة فاءت إلى رسول الله ﷺ فئة من المسلمين فأجهضوا الكفار عن عمارة، وأدنوه من رسول الله ﷺ فوسده قدمه، فمات وخده على قدم رسول الله ﷺ. (ابن هشام ٢/ ٨١).

(٣) صحيح البخارى ١/ ٥٢٧، ٢/ ٥٨١.

(٤) وقد سمع الله دعاء رسوله ﷺ، فعن ابن عائذ أن ابن قمئة «انصرف إلى أهله فخرج إلى غنمه فوافاها على ذروة جبل فدخل فيها، فشد عليه تيسها فنطحه نطحة أرداه من شاهق الجبل فتقطع (فتح البارى ٧/ ٣٧٣) وعند الطبرانى: فسلط الله عليه تيس جبل، فلم يزل ينطحه حتى قطعه قطعة قطعة (فتح البارى ٧/ ٣٦٦). و«أقمأك الله»: أذلك الله.

وجل: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [آل عمران][١].

وفى رواية الطبرانى أنه قال يومئذ: «**اشتد غضب الله على قوم دموا وجه رسوله**»، ثم مكث ساعة ثم قال: «**اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون**»[٢]، وفى صحيح مسلم أنه قال: «**رب اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون**»[٣]، وفى الشفاء للقاضى عياض أنه قال: «**اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون**»[٤].

ولا شك أن المشركين كانوا يهدفون القضاء على حياة رسول الله ﷺ إلا أن القرشيين سعد ابن أبى وقاص وطلحة بن عبيد الله قاما ببطولة نادرة، وقاتلا ببسالة منقطعة النظير، حتى لم يتركا - وهما اثنان فحسب - سبيلاً إلى نجاح المشركين فى هدفهم، وكانا من أمهر رماة العرب، فتناضلا حتى أجهضا مفرزة المشركين عن رسول الله ﷺ.

فأما سعد بن أبى وقاص، فقد نثل له رسول الله ﷺ كنانته وقال: «**ارم فداك أبى وأمى**»[٥]. ويدل على مدى كفاءته: أن النبى ﷺ لم يجمع أبويه لأحد غير سعد[٦].

وأما طلحة بن عبيد الله، فقد روى النسائى عن جابر قصة تَجَمُّع المشركين حول رسول الله ﷺ ومعه نفر من الأنصار، قال جابر: فأدرك المشركون رسول الله ﷺ فقال: «**من للقوم؟**» فقال طلحة: أنا، ثم ذكر جابر تقدم الأنصار، وقتلهم واحدًا بعد واحد، بنحو ما ذكرنا من رواية مسلم، فلما قتل الأنصار كلهم تقدم طلحة. قال جابر: ثم قاتل طلحة قتال الأحد عشر حتى ضربت يده فقطعت أصابعه، فقال: حَسِّ، فقال النبى ﷺ: «**لو قلت: بسم الله، لرفعتك الملائكة والناس ينظرون**»، قال: ثم رد الله المشركين[٧]. ووقع عند الحاكم فى الإكليل أنه جرح يوم أحد تسعًا وثلاثين أو خمسًا وثلاثين، وشلت إصبعه، أى: السبابة والتى تليها[٨].

وروى البخارى عن قيس بن أبى حازم قال: رأيت يد طلحة شلاء، وقى بها النبى ﷺ يوم أحد[٩].

---

(١) صحيح البخارى ٢/ ٥٨٢، وصحيح مسلم ٢/ ١٠٨.

(٢) فتح البارى ٧/ ٣٧٣.

(٣) صحيح مسلم: باب غزوة أحد ٢/ ١٠٨. (٤) كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ١/ ٨١.

(٥،٦) صحيح البخارى ١ / ٤٠٧، ٢/ ٥٨٠، ٥٨١.

(٧) فتح البارى ٧/ ٣٦١، وسنن النسائى ٢/ ٥٢. و «حَسِّ» تقال عند التوجع.

(٨) المصدر الأول نفسه ٧/ ٣٦١. (٩) صحيح البخارى ١/ ٥٢٧، ٥٨١.

وروى الترمذى وابن ماجه أن النبى ﷺ قال فيه يومئذ: «**من أحب أن ينظر إلى شهيد يمشى على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله**»(١).

وروى أبو داود الطيالسى عن عائشة قالت: كان أبوبكر إذا ذكر يوم أحد قال: ذلك اليوم كله لطلحة(٢).

وقال فيه أبو بكر الصديق رضي الله عنه أيضًا:

يا طلحة بن عبيد الله قد وَجَبَتْ   لك الجنان وبُوِّئتَ المَهَا العِينَا(٣)

وفى ذلك الظرف الدقيق والساعة الحرجة أنزل الله نصره بالغيب، ففى الصحيحين عن سعد، قال: رأيت رسول الله ﷺ يوم أحد، ومعه رجلان يقاتلان عنه، عليهما ثياب بيض كأشد القتال، ما رأيتهما قبل ولا بعد. وفى رواية: يعنى جبريل وميكائيل(٤).

بداية تجمع الصحابة حول الرسول ﷺ:

وقعت هذه كلها بسرعة هائلة فى لحظات خاطفة، وإلا فالمصطفون الأخيار من صحابته ﷺ- الذين كانوا فى مقدمة صفوف المسلمين عند القتال - لم يكادوا يرون تغير الموقف، أو يسمعوا صوته ﷺ حتى أسرعوا إليه ؛ لئلا يصل إليه شيء يكرهونه، إلا أنهم وصلوا وقد لقى رسول الله ﷺ ما لقى من الجراحات - وستة من الأنصار قد قتلوا والسابع قد أثبتته الجراحات، وسعد وطلحة يكافحان أشد الكفاح - فلما وصلوا أقاموا حوله سياجًا من أجسادهم وسلاحهم، وبالغوا فى وقايته من ضربات العدو، ورد هجماته. وكان أول من رجع إليه هو ثانيه فى الغار أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

روى ابن حبان فى صحيحه عن عائشة قالت: قال أبو بكر الصديق: لما كان يوم أحد انصرف الناس كلهم عن النبى ﷺ، فكنت أول من فاء إلى النبى ﷺ، فرأيت بين يديه رجلًا يقاتل عنه ويحميه، قلت: كن طلحة، فداك أبى وأمى، كن طلحة، فداك أبى وأمى، (حيث فاتنى ما فاتنى، فقلت: يكون رجل من قومى أحب إلي)(٥)، فلم أنشب أن أدركنى أبو عبيدة بن الجراح، وإذا هو يشتد كأنه طير حتى لحقنى، فدفعنا إلى النبى ﷺ، فإذا طلحة بين يديه صريعًا، فقال النبى ﷺ: «**دونكم أخاكم فقد أوجب**»، وقد رمى النبى ﷺ فى وَجْنَتِهِ

---

(١) الترمذى: مناقب، ح (٣٧٤٠)، وابن ماجه: المقدمة ح (١٢٥).

(٢) فتح البارى ٧/ ٣٦١.

(٣) مختصر تاريخ دمشق ٧/ ٨٢. والعِينُ: بقر الوحش.

(٤) صحيح البخارى ٢/ ٥٨٠، ونحوه عند مسلم: الفضائل ٤/ ١٠٨٢، ح (٤٦، ٤٧).

(٥) من تهذيب تاريخ دمشق ٧/ ٧٧.

حتى غابت حلقتان من حلق المِغْفَر فى وجنته، فذهبت لأنزعهما عن النبى ﷺ فقال أبو عبيدة: نشدتك بالله يا أبا بكر، إلا تركتنى، قال: فأخذ بفيه فجعل ينَضِّضه كراهية أن يؤذى رسول الله ﷺ، ثم استل السهم بفيه، فنَدَرَت ثنية أبى عبيدة، قال أبو بكر: ثم ذهبت لآخذ الآخر، فقال أبو عبيدة: نشدتك بالله يا أبا بكر، إلا تركتنى، قال: فأخذه فجعل ينضضه حتى اسْتَلَّه، فندرت ثنية أبى عبيدة الأخرى، ثم قال رسول الله ﷺ: «**دونكم أخاكم، فقد أوجب**»، قال: فأقبلنا على طلحة نعالجه، وقد أصابته بضع عشرة ضربة[١].

وفى تهذيب تاريخ دمشق[٢]: فأتيناه فى بعض تلك الحفار فإذا به بضع وستون أو أقل أو أكثر، بين طعنة ورمية وضربة، وإذا قد قطعت إصبعه، فأصلحنا من شأنه.

وخلال هذه اللحظات الحرجة اجتمع حول النبى ﷺ عصابة من أبطال المسلمين منهم أبو دُجَانة، ومصعب بن عمير، وعلى بن أبى طالب[٣]، وسهل بن حنيف، ومالك بن سنان والد أبى سعيد الخدرى، وأم عمارة نُسَيْبة بنت كعب المازنية، وقتادة بن النعمان، وعمر بن الخطاب، وحاطب بن أبى بلتعة، وأبو طلحة.

تضاعف ضغط المشركين:

كما كان عدد المشركين يتضاعف كل آن، وبالطبع فقد اشتدت حملاتهم وزاد ضغطهم على المسلمين، حتى سقط رسول الله ﷺ فى حفرة من الحفر التى كان أبو عامر الفاسق يكيد بها، فجُحِشَتْ ركبته، وأخذه على بيده، واحتضنه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائمًا، وقال نافع ابن جبير: سمعت رجلًا من المهاجرين يقول: شهدت أحدًا فنظرت إلى النبل يأتى من كل ناحية، ورسول الله ﷺ وسطها، كل ذلك يصرف عنه، ولقد رأيت عبد الله ابن شهاب الزهرى يقول يومئذ: دلونى على محمد، فلا نجوت إن نجا، ورسول الله ﷺ إلى جنبه، ما معه أحد، ثم جاوزه، فعاتبه فى ذلك صفوان، فقال: والله ما رأيته، أحلف بالله إنه منا ممنوع، خرجنا أربعة، فتعاهدنا وتعاقدنا على قتله، فلم نخلص إلى ذلك[٤].

---

(١) زاد المعاد ٢/ ٩٥.

(٢) ٧/ ٧٨.

(٣) قال على بن أبى طالب: لما انجلى الناس عن رسول الله ﷺ يوم أحد نظرت القتلى فلم أر رسول الله ﷺ، فقلت: والله ما كان ليفر، وما أراه فى القتلى، ولكننى أرى الله غضب علينا بما صنعنا، فرفع نبيه ﷺ، فما فى خير من أن أقاتل حتى أقتل، فكسرت جَفْن سيفى، ثم حملت على القوم فأفرجوا لى، فإذا أنا برسول الله ﷺ بينهم. مسند أبى يعلى ١/ ٤١٦، ح (٥٤٦).

(٤) زاد المعاد: ٢/ ٩٧.

البطولات النادرة:

وقام المسلمون ببطولات نادرة وتضحيات رائعة، لم يعرف لها التاريخ نظيرًا. كان أبو طلحة يسور نفسه بين يدى رسول الله ﷺ، ويرفع صدره ليقيه سهام العدو. قال أنس: لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبى ﷺ، وأبو طلحة بين يديه مجوب عليه بحجفة له، وكان رجلًا راميًا شديد النزع، كسر يومئذ قوسين أو ثلاثا، وكان الرجل يمر معه بجَعْبَة من النبل فيقول: «**انثرها لأبى طلحة**»، قال: ويشرف النبى ﷺ ينظر إلى القوم، فيقول أبو طلحة: بأبى أنت وأمى لا تشرف يصيبك سهم من سهام القوم، نَحْرِى دون نحرك[(١)].

وعنه أيضًا قال: كان أبو طلحة يتترس مع النبى ﷺ بترس واحد، وكان أبو طلحة حسن الرَّمْى، فكان إذا رمى تشرف النبى ﷺ، فينظر إلى موقع نبله[(٢)].

وقام أبو دجانة أمام رسول الله ﷺ، فَتَرَّسَ عليه بظهره. والنبل يقع عليه وهو لا يتحرك.

وتبع حاطب بن أبى بلتعة عتبة بن أبى وقاص - الذى كسر الرَّباعية الشريفة - فضربه بالسيف حتى طرح رأسه، ثم أخذ فرسه وسيفه، وكان سعد بن أبى وقاص شديد الحرص على قتل أخيه - عتبة هذا - إلا أنه لم يظفر به، بل ظفر به حاطب.

وكان سهل بن حُنَيف أحد الرماة الأبطال، بايع رسول الله ﷺ على الموت، ثم قام بدور فعال فى ذود المشركين.

وكان رسول الله ﷺ يباشر الرماية بنفسه، فعن قتادة بن النعمان: أن رسول الله رمى عن قوسه حتى اندقت سِيتُها[(٣)]، فأخذها قتادة بن النعمان، فكانت عنده، وأصيبت يومئذ عينه حتى وقعت على وَجْنَتِه، فردها رسول الله ﷺ بيده، فكانت أحسن عينيه وأحَدَّهُما.

وقاتل عبد الرحمن بن عوف حتى أصيب فوه يومئذ فهُتِمَ، وجرح عشرين جراحة أو أكثر، أصابه بعضها فى رجله فعرج.

وامتص مالك بن سنان والد أبى سعيد الخدرى الدم من وجنته ﷺ حتى أنقاه، فقال: «**مُجَّه**»، فقال: والله لا أمجه، ثم أدبر يقاتل، فقال النبى ﷺ: «**من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا**»، فقتل شهيدًا.

---

(١) صحيح البخارى ٢/ ٥٨١.

(٢) المصدر نفسه ١/ ٤٠٦.

(٣) سيتها: ماعطف من طرفيها.

وقاتلت أم عمارة فاعترضت لابن قَمِئَة فى أناس من المسلمين، فضربها ابن قمئة على عاتقها ضربة تركت جرحًا أجوف، وضربت هى ابن قمئة عدة ضربات بسيفها، لكن كانت عليه درعان فنجا، وبقيت أم عمارة تقاتل حتى أصابها اثنا عشر جرحًا.

وقاتل مصعب بن عمير بضراوة بالغة، يدافع عن النبى ﷺ هجوم ابن قمئة وأصحابه، وكان اللواء بيده، فضربوه على يده اليمنى حتى قطعت، فأخذ اللواء بيده اليسرى، وصمد فى وجوه الكفار حتى قطعت يده اليسرى، ثم برك عليه بصدره وعنقه حتى قتل، وكان الذى قتله هو ابن قمئة، وهو يظنه رسول الله – لشبهه به – فانصرف ابن قمئة إلى المشركين، وصاح: إن محمدًا قد قتل(١).

إشاعة مقتل النبى ﷺ وأثره على المعركة:

ولم يمض على هذا الصياح دقائق، حتى شاع خبر مقتل النبى ﷺ فى المشركين والمسلمين. وهذا هو الظرف الدقيق الذى خارت فيه عزائم كثير من الصحابة المطوقين، الذين لم يكونوا مع رسول الله ﷺ، وانهارت معنوياتهم، حتى وقع داخل صفوفهم ارتباك شديد، وعمتها الفوضى والاضطراب، إلا أن هذه الصيحة خففت بعض التخفيف من مضاعفة هجمات المشركين ؛ لظنهم أنهم نجحوا فى غاية مرامهم، فاشتغل الكثير منهم بتمثيل قتلى المسلمين.

الرسول ﷺ يواصل المعركة وينقذ الموقف:

ولما قتل مصعب أعطى رسول الله اللواء على بن أبى طالب، فقاتل قتالًا شديدًا، وقامت بقية الصحابة الموجودين هناك ببطولاتهم النادرة، يقاتلون ويدافعون.

وحينئذ استطاع رسول الله ﷺ أن يشق الطريق إلى جيشه المطوق، فأقبل إليهم، فعرفه كعب بن مالك – وكان أول من عرفه – فنادى بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أبشروا، هذا رسول الله ﷺ، فأشار إليه أن اصمت – وذلك لئلا يعرف موضعه المشركون – إلا أن هذا الصوت بلغ إلى آذان المسلمين، فلاذ إليه المسلمون حتى تجمع حوله حوالى ثلاثين رجلًا من الصحابة.

وبعد هذا التجمع أخذ رسول الله ﷺ فى الانسحاب المنظم إلى شعب الجبل، وهو يشق الطريق بين المشركين المهاجمين، واشتد المشركون فى هجومهم ؛ لعرقلة الانسحاب إلا

---

(١) انظر: ابن هشام ٢/ ٧٣، ٨٠-٨٣، وزاد المعاد ٢/ ٩٧.

أنهم فشلوا أمام بسالة ليوث الإسلام.

تقدم عثمان بن عبد الله بن المغيرة - أحد فرسان المشركين - إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: لا نجوت إن نجا. وقام رسول الله ﷺ لمواجهته، إلا أن الفرس عثرت فى بعض الحفر، فنازله الحارث ابن الصِّمَّة، فضرب على رجله فأقعده، ثم ذَفَّفَ عليه وأخذ سلاحه، والتحق برسول الله ﷺ.

وعطف عبد الله بن جابر - فارس آخر من فرسان مكة - على الحارث بن الصِّمَّة، فضرب بالسيف على عاتقه فجرحه حتى حمله المسلمون ولكن انقض أبو دجانة - البطل المغامر ذو العصابة الحمراء - على عبد الله بن جابر فضربه بالسيف ضربة أطارت رأسه.

وأثناء هذا القتال المرير كان المسلمون يأخذهم النعاس أمنة من الله، كما تحدث عنه القرآن. قال أبو طلحة: كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد حتى سقط سيفى من يدى مرارًا، يسقط وآخذه ويسقط وآخذه[(١)].

وبمثل هذه البسالة بلغت هذه الكتيبة - فى انسحاب منظم - إلى شعب الجبل، وشق لبقية الجيش طريقًا إلى هذا المقام المأمون، فتلاحق به فى الجبل، وفشلت عبقرية خالد أمام عبقرية رسول الله ﷺ.

مقتل أبى بن خلف:

قال ابن إسحاق: فلما أسند رسول الله ﷺ فى الشعب أدركه أبى بن خلف وهو يقول: أين محمد؟ لا نجوتُ إن نجا. فقال القوم: يا رسول الله، أيعطف عليه رجل منا؟ فقال رسول الله ﷺ: «دعوه»، فلما دنا منه تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصمة، فلما أخذها منه انتفض انتفاضة تطايروا عنه تطاير الشعر عن ظهر البعير إذا انتفض، ثم استقبله وأبصر تَرْقُوَتَه من فرجة بين سابغة الدرع والبيضة، فطعنه فيها طعنة تدأدأ - تدحرج - منها عن فرسه مرارًا. فلما رجع إلى قريش وقد خدشه فى عنقه خدشًا غير كبير، فاحتقن الدم، قال: قتلنى والله محمد، قالوا له: ذهب والله فؤادك، والله إن بك من بأس، قال: إنه قد كان قال لى بمكة: **«أنا أقتلك»**[(٢)]، فوالله لو بصق على لقتلنى. فمات عدو الله بسَرِف وهم قافلون به إلى مكة. وفى رواية أبى الأسود عن عروة، وكذا فى رواية سعيد بن المسيب

---

(١) صحيح البخارى ٢/ ٥٨٢.

(٢) وذلك أن رسول الله ﷺ لما كان بمكة كان يلقاه أبى هذا، فيقول: يا محمد، إن عندى العَوْدَ فرسًا أعلفه كل يوم فرَقًا من ذُرَة أقتلك عليه، فيقول رسول الله ﷺ: **«بل أنا أقتلك إن شاء الله»**.

عن أبيه: أنه كان يخور خوار الثور، ويقول: والذى نفسى بيده، لو كان الذى بى بأهل ذى المجاز لماتوا جميعًا[1].

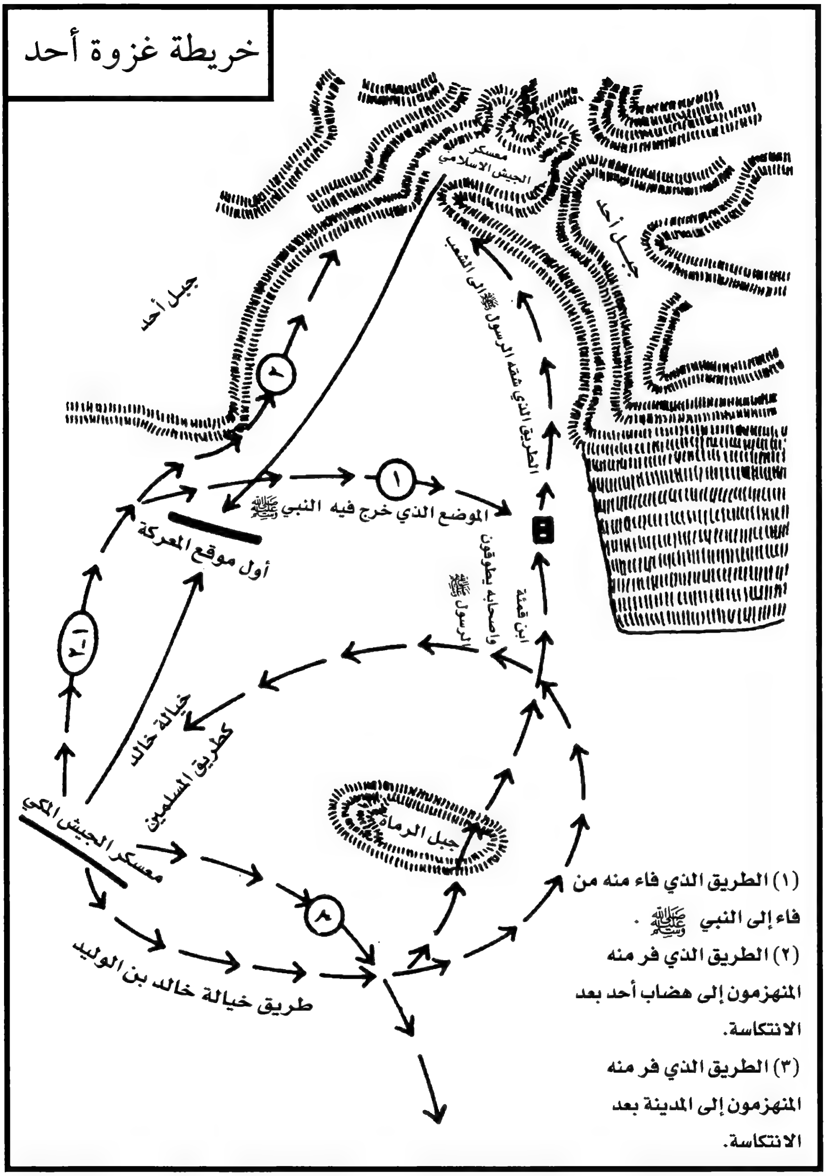

---

(١) ابن هشام ٢/ ٨٤، والمستدرك للحاكم ٢/ ٣٢٧.

طلحة ينهض بالنبى ﷺ:

وفى أثناء انسحاب رسول الله ﷺ إلى الجبل عرضت له صخرة من الجبل، فنهض إليها ليعلوها فلم يستطع ؛ لأنه كان قد بَدَّنَ وظاهر بين الدرعين، وقد أصابه جرح شديد. فجلس تحته طلحة بن عبيد الله، فنهض به حتى استوى عليها، وقال: «**أَوْجَبَ طلحةُ**»(١)، أى: الجنة.

آخر هجوم قام به المشركون:

ولما تمكن رسول الله ﷺ من مقر قيادته فى الشعب، قام المشركون بآخر هجوم حاولوا به النيل من المسلمين. قال ابن إسحاق: بينا رسول الله ﷺ فى الشعب إذ علت عالية من قريش الجبل - يقودهم أبو سفيان وخالد بن الوليد - فقال رسول الله ﷺ: «**اللهم إنه لا ينبغى لهم أن يعلونا**»، فقاتل عمر بن الخطاب ورهط معه من المهاجرين حتى أهبطوهم من الجبل(٢).

وفى مغازى الأموى: أن المشركين صعدوا على الجبل، فقال رسول الله ﷺ لسعد: «**اجْنُبْهُمْ**» - يقول: اردهم - فقال: كيف أَجْنُبُهُمْ وحدى؟ فقال ذلك ثلاثًا، فأخذ سعد سهمًا من كنانته، فرمى به رجلًا فقتله، قال: ثم أخذت سهمى أعرفه، فرميت به آخر، فقتلته، ثم أخذته أعرفه فرميت به آخر فقتلته، فهبطوا من مكانهم، فقلت: هذا سهم مبارك، فجعلته فى كنانتى. فكان عند سعد حتى مات، ثم كان عند بنيه(٣).

تشويه الشهداء:

وكان هذا آخر هجوم قام به المشركون ضد النبى ﷺ، ولما لم يكونوا يعرفون من مصيره شيئًا - بل كانوا على شبه اليقين من قتله - رجعوا إلى مقرهم، وأخذوا يتهيأون للرجوع إلى مكة، واشتغل من اشتغل منهم - وكذا اشتغلت نساؤهم - بقتلى المسلمين، يمثلون بهم، ويقطعون الآذان والأنوف والفروج، ويبقرون البطون. وبقرت هند بنت عتبة كبد حمزة فلاكتها، فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها، واتخذت من الآذان والأنوف خَدَمًا - خلاخيل - وقلائد(٤).

---

(١) ابن هشام ٢/ ٨٦، ورواه الترمذى فى الجهاد، ح (١٦٩٢)، وفى المناقب، ح (٣٧٣٩)، وأحمد ١/ ١٦٥، وصححه الحاكم ٣/ ٣٧٤ ووافقه الذهبى. وظاهر بين الدرعين: لبس درعا فوق درع.

(٢) ابن هشام ٢/ ٨٦.

(٣) زاد المعاد ٢/ ٩٥.

(٤) ابن هشام ٢/ ٩٠.

مدى استعداد أبطال المسلمين للقتال حتى نهاية المعركة:

وفى هذه الساعة الأخيرة وقعت وقعتان تدلان على مدى استعداد أبطال المسلمين للقتال، ومدى استماتتهم فى سبيل الله:

١- قال كعب بن مالك: كنت فيمن خرج من المسلمين، فلما رأيت تمثيل المشركين بقتلى المسلمين قمت فتجاوزت، فإذا رجل من المشركين جمع اللأمة يجوز المسلمين وهو يقول: استوسقوا كما استوسقت جزر الغنم(١). وإذا رجل من المسلمين ينتظره وعليه لأمته، فمضيت حتى كنت من ورائه، ثم قمت أقدر المسلم والكافر ببصرى، فإذا الكافر أفضلهما عدة وهيئة، فلم أزل أنتظرهما حتى التقيا، فضرب المسلم الكافر ضربة فبلغت وركه وتفرق فرقتين، ثم كشف المسلم عن وجهه، وقال: كيف ترى يا كعب؟ أنا أبو دجانة(٢).

٢- جاءت نسوة من المؤمنين إلى ساحة القتال بعد نهاية المعركة، قال أنس: لقد رأيت عائشة بنت أبى بكر وأم سليم، وإنهما لمشمرتان - أرى خَدَم سوقهما - تَنْقُزَانِ(٣) القِرَبَ على متونهما، تفرغانه فى أفواه القوم(٤)، ثم ترجعان فتملآنها، ثم تجيئان فتفرغانه فى أفواه القوم. وقال عمر: كانت (أم سَلِيط من نساء الأنصار) تزفر لنا القرب يوم أحد(٥).

وكانت فى هؤلاء النسوة أم أيمن، لما رأت فلول المسلمين يريدون دخول المدينة، أخذت تحثو التراب فى وجوههم وتقول لبعضهم: هاك المغزل، وهلم سيفك. ثم سارعت إلى ساحة القتال، فأخذت تسقى الجرحى، فرماها حِبَّان - بالكسر - بن العَرَقَة بسهم، فوقعت وتكشفت، فأغرق عدو الله فى الضحك، فشق ذلك على رسول الله ﷺ، فدفع إلى سعد بن بى وقاص سهماً لا نصل له، وقال: «ارم به»، فرمى به سعد، فوقع السهم فى نحر حبان، فوقع مستلقيًا حتى تكشف، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، ثم قال: **«استقاد لها سعد، أجاب الله دعوته»**(٦).

بعد انتهاء الرسول ﷺ إلى الشعب:

ولما استقر رسول الله ﷺ فى مقره من الشِّعب خرج على أبى طالب حتى ملأ دَرَقَته

---

(١) أى: استجمعوا وانضموا.

(٢) البداية والنهاية ٤/ ١٧.

(٣) تحملان.

(٤) صحيح البخارى مع الفتح ٦/ ٩١ ح (٢٨٨، ٢٩٠٢، ٣٨١١، ٤٠٦٤).

(٥) المصدر نفسه مع الفتح ٦/ ٩٣ ح (٢٨٨١، ٤٠٧١).

(٦) السيرة الحلبية ٢/ ٢٢.

ماء من المِهْرَاس – قيل: هو صخرة منقورة تسع كثيرًا. وقيل: اسم ماء بأحد – فجاء به إلى رسول الله ﷺ ليشرب منه، فوجد له ريحًا فعافه، فلم يشرب منه، وغسل عن وجهه الدم، وصب على رأسه وهو يقول: «**اشتد غضب الله على من دَمَّى وجه نبيه**»(١).

وقال سهل: والله إنى لأعرف من كان يغسل جرح رسول الله ﷺ، ومن كان يسكب الماء، وبما دُووِى؟ كانت فاطمة ابنته تغسله، وعلى بن أبى طالب يسكب الماء بالمِجَنِّ، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة أخذت قطعة من حصير، فأحرقتها، فألصقتها فاستمسك الدم(٢).

وجاء محمد بن مسلمة بماء عذب سائغ، فشرب منه النبى ﷺ ودعا له بخير(٣). وصلى الظهر قاعدًا من أثر الجراح، وصلى المسلمون خلفه قعودا(٤).

شماتة أبى سفيان بعد نهاية المعركة وحديثه مع عمر:

ولما تكامل تهيؤ المشركين للانصراف أشرف أبو سفيان على الجبل، فنادى: أفيكم محمد؟ فلم يجيبوه. فقال: أفيكم ابن أبى قحافة؟ فلم يجيبوه. فقال: أفيكم عمر بن الخطاب؟ فلم يجيبوه – وكان النبى ﷺ منعهم من الإجابة – ولم يسأل إلا عن هؤلاء الثلاثة لعلمه وعلم قومه أن قيام الإسلام بهم. فقال: أما هؤلاء فقد كفيتموهم، فلم يملك عمر نفسه أن قال: يا عدو الله، إن الذين ذكرتهم أحياء، وقد أبقى الله ما يسوءك. فقال: قد كان فيكم مثلة لم آمر بها ولم تسؤنى.

ثم قال: أعْلِ هُبَل.

فقال النبى ﷺ: «**ألا تجيبونه؟**» فقالوا: فما نقول؟ قال: «**قولوا: الله أعلى وأجل**».

ثم قال: لنا العُزَّى ولا عزى لكم.

فقال النبى ﷺ: «**ألا تجيبونه؟**» قالوا: ما نقول؟ قال: «**قولوا: الله مولانا، ولا مولى لكم**».

ثم قال أبو سفيان: أنْعَمْتَ فَعَال(٥)، يوم بيوم بدر، والحرب سِجَال.

فأجابه عمر، وقال: لاسواء، قتلانا فى الجنة، وقتلاكم فى النار.

---

(١) ابن هشام ٢/ ٨٥.

(٢) صحيح البخارى ٢/ ٥٨٤.

(٣) السيرة الحلبية ٢/ ٣٠.

(٤) ابن هشام ٢/ ٨٧.

(٥) أى: ارتفع.

ثم قال أبو سفيان: هلم إلى يا عمر، فقال رسول الله ﷺ: «**ائته فانظر ما شأنه؟**» فجاءه، فقال له أبو سفيان: أنشدك الله يا عمر، أقتلنا محمدًا؟ قال عمر: اللهم لا. وإنه ليستمع كلامك الآن. قال: أنت أصدق عندى من ابن قَمِئَة وأبر[١].

مواعدة التلاقى فى بدر:

قال ابن إسحاق: ولما انصرف أبو سفيان ومن معه نادى: إن موعدكم بدر العام القابل. فقال رسول الله ﷺ لرجل من أصحابه: «**قل: نعم، هو بيننا وبينك موعد**»[٢].

التثبت من موقف المشركين:

ثم بعث رسول الله ﷺ على بن أبى طالب، فقال: «**اخرج فى آثار القوم فانظر ماذا يصنعون؟ وما يريدون؟ فإن كانوا قد جَنَبُوا الخيل، وامْتَطُوا الإبل، فإنهم يريدون مكة، وإن كانوا قد ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة. والذى نفسى بيده، لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها، ثم لأناجزنهم**». قال على: فخرجت فى آثارهم أنظر ماذا يصنعون، فجنبوا الخيل وامتطوا الإبل، ووَجَّهُوا إلى مكة[٣].

تفقد القتلى والجرحى:

وفرغ الناس لتفقد القتلى والجرحى بعد منصرف قريش. قال زيد بن ثابت: بعثنى رسول الله ﷺ يوم أحد أطلب سعد بن الربيع. فقال لى: «**إن رأيته فأقرئه منى السلام، وقل له: يقول لك رسول الله ﷺ: كيف تجدك؟**» قال: فجعلت أطوف بين القتلى، فأتيته وهو بآخر رمق، فيه سبعون ضربة ؛ ما بين طعنة برمح، وضربة بسيف، ورمية بسهم، فقلت: يا سعد، إن رسول الله يقرأ عليك السلام، ويقول لك: أخبرنى كيف تجدك؟ فقال: وعلى رسول الله ﷺ السلام، قل له، يا رسول الله، أجد ريح الجنة، وقل لقومى الأنصار: لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى رسول الله ﷺ وفيكم عين تطرف، وفاضت نفسه من وقته[٤].

ووجدوا فى الجرحى الأُصَيرِم - عمرو بن ثابت - وبه رمق يسير، وكانوا من قبل

(١) ابن هشام ٢/ ٩٣، ٩٤، وزاد المعاد ٢/ ٩٤، وصحيح البخارى ٢/ ٥٧٩.

(٢) ابن هشام ٢/ ٩٤.

(٣) ابن هشام ٢/ ٩٤، وفى فتح البارى: أن الذى خرج فى آثار المشركين هو سعد بن أبى وقاص (٧/ ٣٤٧).

(٤) زاد المعاد ٢/ ٩٦.

يعرضون عليه الإسلام فيأباه، فقالوا: إن هذا الأصيرم ما جاء به؟ لقد تركناه وإنه لمنكر لهذا الأمر، ثم سألوه: ما الذى جاء بك، أَحَدَبٌ على قومك، أم رغبة فى الإسلام؟ فقال: بل رغبة فى الإسلام، آمنت بالله ورسوله، ثم قاتلت مع رسول الله ﷺ حتى أصابنى ما ترون، ومات من وقته، فذكروه لرسول الله ﷺ، فقال: «**هو من أهل الجنة**». قال أبو هريرة: ولم يُصَلِّ لله صلاة قط[١].

ووجدوا فى الجرحى قُزْمَان - وكان قد قاتل قتال الأبطال ؛ قتل وحده سبعة أو ثمانية من المشركين - وجدوه قد أثبتته الجراحة، فاحتملوه إلى دار بنى ظَفَر، وبشره المسلمون فقال: والله إن قاتلت إلا عن أحساب قومى، ولولا ذلك ما قاتلت، فلما اشتد به الجراح نحر نفسه. وكان رسول الله ﷺ يقول - إذا ذكر له: «**إنه من أهل النار**»[٢] - وهذا هو مصير المقاتلين فى سبيل الوطنية أو فى أى سبيل سوى إعلاء كلمة الله، وإن قاتلوا تحت لواء الإسلام، بل وفى جيش الرسول والصحابة.

وعلى عكس من هذا، كان فى القتلى رجل من يهود بنى ثعلبة، قال لقومه: يا معشر يهود، والله لقد علمتم أن نصر محمد عليكم حق. قالوا: إن اليوم يوم السبت. قال: لا سبت لكم. فأخذ سيفه وعدته، وقال: إن أصبت فمالى لمحمد. يصنع فيه ما شاء، ثم غدا فقاتل حتى قتل. فقال رسول الله ﷺ: «**مُخَيرِيق خير يهود**»[٣].

جمع الشهداء ودفنهم:

وأشرف رسول الله ﷺ على الشهداء فقال: «**أنا شهيد على هؤلاء، إنه ما من جريح يُجْرَح فى الله إلا والله يبعثه يوم القيامة، يَدْمَى جُرْحُه، اللون لون الدم، والريح ريح المِسْك**»[٤].

وكان أناس من الصحابة قد نقلوا قتلاهم إلى المدينة فأمر أن يردوهم، فيدفنوهم فى مضاجعهم وألا يغسلوا، وأن يدفنوا كما هم بثيابهم بعد نزع الحديد والجلود. وكان يدفن الاثنين والثلاثة فى القبر الواحد، ويجمع بين الرجلين فى ثوب واحد، ويقول: «**أيهم أكثر أَخْذًا للقرآن؟**»، فإذا أشاروا إلى الرجل قدمه فى اللحد، وقال: «**أنا شهيد على هؤلاء يوم**

---

(١) زاد المعاد ٢/ ٩٤، وابن هشام ٢/ ٩٠.

(٢) المصدر الأول نفسه ٢/ ٩٧، ٩٨، وابن هشام ٢/ ٨٨.

(٣) ابن هشام ٢/ ٨٨، ٨٩.

(٤) المصدر نفسه ٢/ ٩٨.

القيامة»[١]. ودفن عبد الله بن عمرو ابن حرام وعمرو بن الجموح فى قبر واحد لما كان بينهما من المحبة[٢].

وفقدوا نعش حنظلة، فتفقدوه فوجدوه فى ناحية فوق الأرض يقطر منه الماء، فأخبر رسول الله ﷺ أصحابه أن الملائكة تغسله، ثم قال: «**سلوا أهله ما شأنه؟**» فسألوا امرأته، فأخبرتهم الخبر. ومن هنا سمى حنظلة: غسيل الملائكة[٣].

ولما رأى ما بحمزة - عمه وأخيه من الرضاعة - اشتد حزنه، وجاءت عمته صفية تريد أن تنظر أخاها حمزة، فأمر رسول الله ﷺ ابنها الزبير أن يصرفها، لا ترى ما بأخيها، فقالت: ولم؟ وقد بلغنى أن قد مُثِّلَ بأخى، وذلك فى الله، فما أرضانا بما كان من ذلك، لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله، فأتته فنظرت إليه، فصلت عليه - دعت له - واسترجعت واستغفرت له. ثم أمر رسول الله ﷺ بدفنه مع عبد الله بن جحش - وكان ابن أخته، وأخاه من الرضاعة.

قال ابن مسعود: ما رأينا رسول الله ﷺ باكيًا قط أشد من بكائه على حمزة بن عبد المطلب. وضعه فى القبلة، ثم وقف على جنازته وانتحب حتى نَشَع من البكاء[٤] - والنشع: الشهيق.

وكان منظر الشهداء مريعًا جدًّا يفتت الأكباد. قال خباب: إن حمزة لم يوجد له كفن إلا بردة مَلْحَاء، إذا جعلت على رأسه قَلَصَت عن قدميه، وإذا جعلت على قدميه قلصت عن رأسه، حتى مدت على رأسه، وجعل على قدميه الإِذْخَر[٥].

وقال عبد الرحمن بن عوف: قتل مصعب بن عمير وهو خير منى، كفن فى بردة إن غطى رأسه بدت رجلاه، وإن غطى رجلاه بدا رأسه[٦]، وروى مثل ذلك عن خباب، وفيه: فقال لنا النبى ﷺ: «**غطوا بها رأسه، واجعلوا على رجليه الإذخر**»[٧].

---

(١) صحيح البخارى مع الفتح ٣/ ٢٤٨ ح (١٣٤٣، ١٣٤٦ - ١٣٤٨، ١٣٥٣، ٤٠٧٩).
(٢) صحيح البخارى ٢/ ٥٨٤، وزاد المعاد ٢/ ٩٨.
(٣) زاد المعاد ٢/ ٩٤.
(٤) رواه ابن شاذان، انظر: مختصر سيرة الرسول ﷺ للشيخ عبد الله النجدى، ص ٢٥٥.
(٥) رواه أحمد، مشكاة المصابيح ١ / ١٤٠. ملحاء: أى فيها خطوط سود وبيض.
(٦) صحيح البخارى مع الفتح ٣/ ١٦٨، ١٦٩، ح (١٢٧٤، ١٢٧٥، ٤٠٤٥).
(٧) صحيح البخارى ٢/ ٥٧٩، ٥٨٤، ط: الهند، ومع فتح البارى ٣/ ١٧٠، ح (١٢٧٦، ٣٨٩٧، ٣٩١٣، ٣٩١٤، ٤٠٤٧، ٤٠٨٢، ٦٤٣٢، ٦٤٤٨).

الرسول ﷺ يثنى على ربه عز وجل ويدعوه:

روى الإمام أحمد: لما كان يوم أحد وانكفأ المشركون، قال رسول الله ﷺ: «**استووا حتى أثنى على ربى عز وجل**»، فصاروا خلفه صفوفًا، فقال:

«**اللهم لك الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادى لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطى لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما باعدت، ولا مبعد لما قربت. اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك**».

«**اللهم إنى أسألك النعيم المقيم، الذى لا يحُول ولا يزول. اللهم إنى أسألك العون يوم العيلة، والأمن يوم الخوف. اللهم إنى عائذ بك من شر ما أعطيتنا وشر ما منعتنا. اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه فى قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين. اللهم توفنا مسلمين، وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين. اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك، ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك. اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب، إله الحق**»[(١)].

الرجوع إلى المدينة، ونوادر الحب والتفاني:

ولما فرغ رسول الله من دفن الشهداء والثناء على الله والتضرع إليه، انصرف راجعًا إلى المدينة، وقد ظهرت له نوادر الحب والتفانى من المؤمنات الصادقات، كما ظهرت من المؤمنين فى أثناء المعركة.

لقيته فى الطريق حَمْنَة بنت جحش، فَنُعِى إليها أخوها عبد الله بن جحش فاسترجعت واستغفرت له، ثم نعى لها خالها حمزة بن عبد المطلب، فاسترجعت واستغفرت، ثم نعى لها زوجها مصعب بن عمير، فصاحت وولوت، فقال رسول الله ﷺ: «**إن زوج المرأة منها لبِمَكان**»[(٢)].

ومر بامرأة من بنى دينار، وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها بأحد، فلما نعوا لها قالت: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: خيرًا يا أم فلان، هو بحمد الله كما تحبين، قالت: أرونيه حتى أنظر إليه، فأشير إليها حتى إذا رأته قالت: كل مصيبة بعدك جَلَلٌ - تريد صغيرة[(٣)].

---

(١) رواه البخارى فى الأدب المفرد، ح ٦٩٩، والإمام أحمد فى مسنده ٣/ ٤٢٤.

(٢) ابن هشام ٢/ ٩٨. (٣) المصدر نفسه ٢/ ٩٩.

وجاءت إليه أم سعد بن معاذ تعدو، وسعد آخذ بلجام فرسه، فقال: يا رسول الله، أمى، فقال: «**مرحبًا بها**»، ووقف لها، فلما دنت عزاها بابنها عمرو بن معاذ. فقالت: أما إذ رأيتك سالمًا فقد اشتويت المصيبة - أى استقللتها - ثم دعا لأهل من قتل بأحد، وقال: «**يا أم سعد، أبشرى وبشرى أهلهم أن قتلاهم ترافقوا فى الجنة جميعًا، وقد شفعوا فى أهلهم جميعًا**». قالت: رضينا يا رسول الله، ومن يبكى عليهم بعد هذا؟ ثم قالت: يا رسول الله، ادع لمن خلفوا منهم، فقال: «**اللهم أذهب حزن قلوبهم، واجبر مصيبتهم، وأحسن الخَلَفَ على من خُلِّفُوا**»[١].

الرسول ﷺ فى المدينة:

وانتهى رسول الله ﷺ مساء ذلك اليوم - يوم السبت السابع من شهر شوال سنة ٣هـ - إلى المدينة. فلما انتهى إلى أهله ناول سيفه ابنته فاطمة، فقال: «**اغسلى عن هذا دمه يا بنية، فوالله لقد صدقنى اليوم**»، وناولها على بن أبى طالب سيفه، فقال: وهذا أيضًا فاغسلى عنه دمه، فوالله لقد صدقنى اليوم، فقال رسول الله ﷺ: «**لئن كنت صدقت القتال، لقد صدق معك سهل بن حُنَيف وأبو دُجَانة**»[٢].

قتلى الفريقين:

اتفقت جل الروايات على أن قتلى المسلمين كانوا سبعين، وكانت الأغلبية الساحقة من الأنصار؛ فقد قتل منهم خمسة وستون رجلًا، واحد وأربعون من الخزرج، وأربعة وعشرون من الأوس، وقتل رجل من اليهود. وأما شهداء المهاجرين فكانوا أربعة فقط.

وأما قتلى المشركين فقد ذكر ابن إسحاق أنهم اثنان وعشرون قتيلًا، ولكن الإحصاء الدقيق - بعد تعميق النظر فى جميع تفاصيل المعركة التى ذكرها أهل المغازى والسير، والتى تتضمن ذكر قتلى المشركين فى مختلف مراحل القتال - يفيد أن عدد قتلى المشركين سبعة وثلاثون، لا اثنان وعشرون، والله أعلم[٣].

حالة الطوارئ فى المدينة:

بات المسلمون فى المدينة - ليلة الأحد الثامن من شهر شوال سنة ٣ هـ بعد الرجوع من معركة أحد - وهم فى حالة الطوارئ، باتوا - وقد أنهكهم التعب، ونال منهم أى منال

---

(١) السيرة الحلبية ٢/ ٤٧. (٢) ابن هشام ٢/ ١٠٠.

(٣) انظر: ابن هشام ٢/ ١٢٢- ١٢٩، فتح البارى ٧/ ٣٥١، وغزوة أحد لمحمد أحمد باشميل ص ٢٧٨- ٢٨٠.

- يحرسون أنقاب المدينة ومداخلها، ويحرسون قائدهم الأعلى رسول الله ﷺ خاصة ؛ إذ كانت تتلاحقهم الشبهات من كل جانب.

غزوة حمراء الأسد:

وبات الرسول ﷺ وهو يفكر فى الموقف، فقد كان يخاف أن المشركين إن فكروا فى أنهم لم يستفيدوا شيئًا من النصر والغلبة التى كسبوها فى ساحة القتال، فلا بد من أن يندموا على ذلك، ويرجعوا من الطريق لغزو المدينة مرة ثانية، فصمم على أن يقوم بعملية مطاردة الجيش المكى.

قال أهل المغازى ما حاصله: إن النبى ﷺ نادى فى الناس، وندبهم إلى المسير إلى لقاء العدو - وذلك صباح الغد من معركة أحد، أى يوم الأحد الثامن من شهر شوال سنة ٣ هـ - وقال: «**لا يخرج معنا إلا من شهد القتال**»، فقال له عبد الله بن أبى: أركب معك؟ قال: «**لا**»، واستجاب له المسلمون على ما بهم من الجرح الشديد، والخوف المزيد، وقالوا: سمعًا وطاعة. واستأذنه جابر بن عبد الله، وقال: يا رسول الله، إنى أحب ألا تشهد مشهدًا إلا كنت معك، وإنما خلفنى أبى على بناته فائذن لى أسير معك، فأذن له.

وسار رسول الله ﷺ والمسلمون معه حتى بلغوا حمراء الأسد، على بعد ثمانية أميال من المدينة، فعسكروا هناك.

وهناك أقبل مَعْبَد بن أبى معبد الخزاعى إلى رسول الله ﷺ فأسلم - ويقال: بل كان على شركه، ولكنه كان ناصحًا لرسول الله ﷺ لما كان بين خزاعة وبنى هاشم من الحلف - فقال: يا محمد، أما والله لقد عز علينا ما أصابك فى أصحابك، ولوددنا أن الله عافاك. فأمره رسول الله ﷺ أن يلحق أبا سفيان فَيُخَذِّلَه.

ولم يكن ما خافه رسول الله ﷺ من تفكير المشركين فى العودة إلى المدينة إلا حقًّا، فإنهم لما نزلوا بالروحاء على بعد ستة وثلاثين ميلًا من المدينة تلاوموا فيما بينهم، قال بعضهم لبعض: لم تصنعوا شيئًا، أصبتم شوكتهم وحدهم، ثم تركتموهم، وقد بقى منهم رءوس يجمعون لكم، فارجعوا حتى نستأصل شأفتهم.

ويبدو أن هذا الرأى جاء سطحيًا ممن لم يكن يقدر قوة الفريقين ومعنوياتهم تقديرًا صحيحًا؛ ولذلك خالفهم زعيم مسئول (صفوان بن أمية) قائلًا: يا قوم، لاتفعلوا فإنى أخاف أن يجمع عليكم من تخلف من الخروج - أى من المسلمين فى غزوة أحد - فارجعوا والدولة لكم، فإنى لا آمن إن رجعتم أن تكون الدولة عليكم. إلا أن هذا الرأى رفض أمام

رأى الأغلبية الساحقة، وأجمع جيش مكة على المسير نحو المدينة. ولكن قبل أن يتحرك أبو سفيان بجيشه من مقره لحقه معبد بن أبى معبد الخزاعى ولم يكن يعرف أبو سفيان بإسلامه، فقال: ما وراءك يا معبد؟ فقال معبد - وقد شن عليه حرب أعصاب دعائية عنيفة: محمد قد خرج فى أصحابه، يطلبكم فى جمع لم أر مثله قط، يتحرقون عليكم تحرقًا، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه فى يومكم، وندموا على ما ضيعوا، فيهم من الحنق عليكم شىء لم أر مثله قط.

قال أبو سفيان: ويحك، ما تقول؟

قال: والله ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصى الخيل - أو - حتى يطلع أول الجيش من وراء هذه الأكمة.

فقال أبو سفيان: والله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصلهم.

قال: فلا تفعل، فإنى ناصح.

وحينئذ انهارت عزائم الجيش المكى وأخذه الفزع والرعب، فلم ير العافية إلا فى مواصلة الانسحاب والرجوع إلى مكة، بيد أن أبا سفيان قام بحرب أعصاب دعائية ضد الجيش الإسلامى، لعله ينجح فى كف هذا الجيش عن مواصلة المطاردة، وطبعًا فهو ينجح فى تجنب لقائه. فقد مر به ركب من عبد القيس يريد المدينة، فقال: هل أنتم مبلغون عنى محمدًا رسالة، وأوقر لكم راحلتكم هذه زبيبًا بعكاظ إذا أتيتم إلى مكة؟

قالوا: نعم.

قال: فأبلغوا محمدًا أنا قد أجمعنا الكرة ؛ لنستأصله ونستأصل أصحابه.

فمر الركب برسول الله ﷺ وأصحابه، وهم بحمراء الأسد، فأخبرهم بالذى قال له أبو سفيان، وقالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ﴾ - أى زاد المسلمين قولهم ذلك - ﴿إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عمران].

أقام رسول الله ﷺ بحمراء الأسد - بعد مقدمه يوم الأحد - الاثنين والثلاثاء والأربعاء - ٩، ١٠، ١١ شوال سنة ٣ هـ - ثم رجع إلى المدينة، وأخذ رسول الله ﷺ قبل الرجوع إلى المدينة أبا عَزَّة الجمحى - وهو الذى كان قد منّ عليه من أسارى بدر ؛ لفقره وكثرة بناته، على ألا يظاهر عليه أحدًا، ولكنه نكث وغدر، فحرض الناس بشعره على النبى ﷺ والمسلمين، كما أسلفنا، وخرج لمقاتلتهم فى أحد - فلما أخذه رسول الله ﷺ قال: يا محمد، أقلنى، وامنن

على، ودعنى لبناتى، وأعطيك عهدًا ألا أعود لمثل ما فعلت، فقال ﷺ: «**لا تمسح عارضيك بمكة بعدها وتقول: خدعت محمدًا مرتين، لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين**»، ثم أمر الزبير أو عاصم بن ثابت فضرب عنقه.

كما حكم بالإعدام فى جاسوس من جواسيس مكة، وهو معاوية بن المغيرة بن أبى العاص جد عبد الملك بن مروان لأمه ؛ وذلك أنه لما رجع المشركون يوم أحد جاء معاوية هذا إلى ابن عمه عثمان ابن عفان رضي الله عنه فاستأمن له عثمان رسول الله ﷺ، فأمنه على أنه إن وجد بعد ثلاث قتله. فلما خلت المدينة من الجيش الإسلامى أقام فيها أكثر من ثلاث يتجسس لحساب قريش، فلما رجع الجيش خرج معاوية هاربًا، فأمر رسول الله ﷺ زيد بن حارثة وعمار بن ياسر، فتعقباه حتى قتلاه[(١)].

ومما لا شك فيه أن غزوة حمراء الأسد ليست بغزوة مستقلة، وإنما هى جزء من غزوة أحد، وتتمة لها وصفحة من صفحاتها.

تلك هى غزوة أحد بجميع مراحلها وتفاصيلها، وطالما بحث الباحثون حول مصير هذه الغزوة، هل كانت هزيمة أم لا؟ والذى لا يشك فيه أن التفوق العسكرى فى الصفحة الثانية من القتال كان للمشركين، وأنهم كانوا مسيطرين على ساحة القتال، وأن خسارة الأرواح والنفوس كانت فى جانب المسلمين أكثر وأفدح، وأن طائفة من المؤمنين انهزمت قطعًا، وأن دفة القتال جرت لصالح الجيش المكى، لكن هناك أمور تمنعنا أن نعبر عن كل ذلك بالنصر والفتح.

فمما لا شك فيه أن الجيش المكى لم يستطع احتلال معسكر المسلمين، وأن المقدار الكبير من الجيش المدنى لم يلتجئ إلى الفرار – مع الارتباك الشديد والفوضى العامة – بل قاوم بالبسالة حتى تجمع حول مقر قيادته، وأن كفته لم تسقط إلى حد أن يطارده الجيش المكى، وأن أحدًا من جيش المدينة لم يقع فى أسر الكفار، وأن الكفار لم يحصلوا على شىء من غنائم المسلمين، وأن الكفار لم يقوموا إلى الصفحة الثالثة من القتال مع أن جيش المسلمين لم يزل فى معسكره، وأنهم لم يقيموا بساحة القتال يومًا أو يومين أو ثلاثة أيام – كما هو دأب الفاتحين فى ذلك الزمان – بل سارعوا إلى الانسحاب وترك ساحة القتال قبل أن يتركها

(١) أخذنا تفصيل غزوة أحد، وحمراء الأسد من ابن هشام ٢/ ٦٠– ١٢٩، وزاد المعاد ٢/ ٩١– ١٠٨، وفتح البارى ٧/ ٣٤٥– ٣٧٧ مع صحيح البخارى، ومختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى، ص ٢٤٢– ٢٥٧، وقد أحلنا على المصادر الأخرى فى مواضعها.

المسلمون، ولم يجترئوا على الدخول فى المدينة لنهب الذرارى والأموال، مع أنها على بعد عدة خطوات فحسب، وكانت مفتوحة وخالية تمامًا.

كل ذلك يؤكد لنا أن ما حصل لقريش لم يكن أكثر من أنهم وجدوا فرصة نجحوا فيها بإلحاق الخسائر الفادحة بالمسلمين، مع الفشل فيما كانوا يهدفون إليه من إبادة الجيش الإسلامى بعد عمل التطويق - وكثيرًا ما يلقى الفاتحون بمثل هذه الخسائر التى نالها المسلمون - أما أن ذلك كان نصرًا وفتحًا فكلا وحاشا.

بل يؤكد لنا تعجيل أبى سفيان فى الانسحاب والانصراف أنه كان يخاف على جيشه المعرة والهزيمة لو جرت صفحة ثالثة من القتال، ويزداد ذلك تأكدًا حين ننظر إلى موقف أبى سفيان من غزوة حمراء الأسد.

وإذن، فهذه الغزوة إنما كانت حربًا غير منفصلة، أخذ كل فريق بقسطه ونصيبه من النجاح والخسارة، ثم حاد كل منهما عن القتال من غير أن يفر عن ساحة القتال ويترك مقره لاحتلال العدو، وهذا هو معنى الحرب غير المنفصلة.

وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ [النساء: ١٠٤]، فقد شبه أحد العسكرين بالآخر فى التألم وإيقاع الألم، مما يفيد أن الموقفين كانا متماثلين، وأن الفريقين رجعا وكل غير غالب.

القرآن يتحدث حول موضوع المعركة

ونزل القرآن يلقى ضوءًا على جميع المراحل المهمة من هذه المعركة مرحلة مرحلة، وصرح بالأسباب التى أدت إلى هذه الخسارة الفادحة، وأبدى النواحى الضعيفة التى لم تزل موجودة فى طوائف أهل الإيمان بالنسبة إلى واجبهم فى مثل هذه المواقف الحاسمة، وبالنسبة إلى الأهداف النبيلة السامية التى أنشئت للحصول عليها هذه الأمة، والتى تمتاز عن غيرها بكونها خير أمة أخرجت للناس.

كما تحدث القرآن عن موقف المنافقين، ففضحهم وأبدى ما كان فى باطنهم من العداوة لله ولرسوله، مع إزالة الشبهات والوساوس التى كانت تختلج فى قلوب ضعفاء المسلمين، والتى كان يثيرها هؤلاء المنافقون وإخوانهم اليهود - أصحاب الدس والمؤامرة - وقد أشار إلى الحكم والغايات المحمودة التى تمخضت عنها هذه المعركة.

نزلت حول موضوع المعركة ستون آية من سورة آل عمران، تبتدئ بذكر أول مرحلة

من مراحل المعركة: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران: ١٢١]، وتترك فى نهايتها تعليقًا جامعًا على نتائج هذه المعركة وحكمتها، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾ [آل عمران].

الحكم والغايات المحمودة فى هذه الغزوة:

قد بسط ابن القيم الكلام على هذا الموضوع بسطًا تامًّا[(١)]. وقال ابن حجر: قال العلماء: وكان فى قصة أحد وما أصيب به المسلمون فيها من الفوائد والحكم الربانية أشياء عظيمة، منها: تعريف المسلمين سوء عاقبة المعصية، وشؤم ارتكاب النهى؛ لما وقع من ترك الرماة موقفهم الذى أمرهم الرسول ﷺ ألا يبرحوا منه.

ومنها: أن عادة الرسل أن تبتلى وتكون لها العاقبة، والحكمة فى ذلك أنهم لو انتصروا دائمًا دخل فى المؤمنين من ليس منهم، ولم يتميز الصادق من غيره، ولو انكسروا دائمًا لم يحصل المقصود من البعثة، فاقتضت الحكمة الجمع بين الأمرين لتمييز الصادق من الكاذب، وذلك أن نفاق المنافقين كان مخفيًا عن المسلمين، فلما جرت هذه القصة، وأظهر أهل النفاق ما أظهروه من الفعل والقول عاد التلويح تصريحًا، وعرف المسلمون أن لهم عدوًّا فى دورهم، فاستعدوا لهم وتحرزوا منهم.

ومنها: أن فى تأخير النصر فى بعض المواطن هضمًا للنفس، وكسرًا لشماختها، فلما ابتلى المؤمنون صبروا، وجزع المنافقون.

ومنها: أن الله هيأ لعباده المؤمنين منازل فى دار كرامته لا تبلغها أعمالهم، فقيض لهم أسباب الابتلاء والمحن ليصلوا إليها.

ومنها: أن الشهادة من أعلى مراتب الأولياء فساقها إليهم.

ومنها: أنه أراد إهلاك أعدائه، فقيض لهم الأسباب التى يستوجبون بها ذلك من كفرهم وبغيهم وطغيانهم فى أذى أوليائه، فمحص بذلك ذنوب المؤمنين، ومحق بذلك الكافرين[(٢)].

---

(١) انظر: زاد المعاد ٢/ ٩٩-١٠٨.

(٢) فتح البارى ٧/ ٣٤٧.

السرايا والبعوث بين أحد والأحزاب

كان لمأساة أحد أثر سيئ على سمعة المؤمنين، فقد ذهبت ريحهم، وزالت هيبتهم عن النفوس، وزادت المتاعب الداخلية والخارجية على المؤمنين، وأحاطت الأخطار بالمدينة من كل جانب، وكاشف اليهود والمنافقون والأعراب بالعداء السافر، وهمت كل طائفة منهم أن تنال من المؤمنين، بل طمعت فى أن تقضى عليهم وتستأصل شأفتهم.

فلم يمض على هذه المعركة شهران حتى تهيأت بنو أسد للإغارة على المدينة. ثم قامت قبائل عَضَل وقَارَة فى شهر صفر – سنة ٤هـ – بمكيدة تسببت فى قتل عشرة من الصحابة، وفى نفس الشهر نفسه قام عامر بن الطُّفَيل العامرى بتحريض بعض القبائل حتى قتلوا سبعين من الصحابة، وتعرف هذه الوقعة بوقعة بئر مَعُونَة، ولم تزل بنو نضير خلال هذه المدة تجاهر بالعداوة حتى قامت فى ربيع الأول – سنة ٤ هـ – بمكيدة تهدف إلى قتل النبى ﷺ، وتجرأت بنو غَطَفَان حتى همت بالغزو على المدينة فى جمادى الأولى – سنة ٤ هـ.

فريح المسلمين التى كانت قد ذهبت فى معركة أحد تركت المسلمين – إلى حين – يهددون بالأخطار، ولكن تلك هى حكمة محمد ﷺ التى صرفت وجوه التيارات، وأعادت للمسلمين هيبتهم المفقودة، وأكسبتهم العلو والمجد من جديد. وأول ما أقدم عليه بهذا الصدد هى حركة المطاردة التى قام بها إلى حمراء الأسد، فقد حفظ بها قدرًا من سمعة جيشه، واستعاد بها من مكانته شيئًا مذكورًا، ثم قام بمناورات أعادت للمسلمين هيبتهم، بل زادت فيها، وفى الصفحات الآتية شىء مما جرى بين الطرفين.

سرية أبى سلمة:

أول من قام ضد المسلمين بعد نكسة أحد هم بنو أسد بن خزيمة، فقد نقلت استخبارات المدينة أن طلحة وسلمة ابنى خويلد قد سارا فى قومهما ومن أطاعهما يدعون بنى أسد بن خزيمة إلى حرب رسول الله ﷺ.

فسارع رسول الله ﷺ إلى بعث سرية قوامها مائة وخمسون مقاتلًا من المهاجرين والأنصار، وأمر عليهم أبا سلمة، وعقد له لواء. وباغت أبو سلمة بنى أسد بن خزيمة فى ديارهم قبل أن يقوموا بغارتهم، فتشتتوا فى الأمر، وأصاب المسلمون إبلا وشاء لهم فاستاقوها، وعادوا إلى المدينة سالمين غانمين لم يلقوا حربًا.

كان مبعث هذه السرية حين استهل هلال المحرم - سنة ٤ هـ. وعاد أبو سلمة وقد نفر عليه جرح كان قد أصابه فى أحد، فلم يلبث حتى مات[(١)].

بعث عبد الله بن أُنَيس:

وفى اليوم الخامس من نفس الشهر - المحرم سنة ٤ هـ - نقلت الاستخبارات أن خالد ابن سفيان الهذلى يحشد الجموع لحرب المسلمين، فأرسل إليه النبى ﷺ عبد الله بن أنيس ليقضى عليه.

وظل عبد الله بن أنيس غائبًا عن المدينة ثمانى عشرة ليلة، ثم قدم يوم السبت لسبع بقين من المحرم، وقد قتل خالدًا وجاء برأسه، فوضعه بين يدى النبى ﷺ فأعطاه عصا وقال: «**هذه آية بينى وبينك يوم القيامة**»، فلما حضرته الوفاة أوصى أن تجعل معه فى أكفانه[(٢)].

بعث الرَّجِيع:

وفى شهر صفر من نفس السنة - أى الرابعة من الهجرة - قدم على رسول الله ﷺ قوم من عَضَل وقَارَة، وذكروا أن فيهم إسلامًا، وسألوا أن يبعث معهم من يعلمهم الدين، ويقرئهم القرآن، فبعث معهم ستة نفر - فى قول ابن إسحاق، وفى رواية البخارى أنهم كانوا عشرة - وأمر عليهم مَرْثَد بن أبى مَرْثَد الغَنَوِى - فى قول ابن إسحاق، وعند البخارى أنه عاصم بن ثابت جد عاصم ابن عمر بن الخطاب - فذهبوا معهم، فلما كانوا بالرجيع - وهو ماء لهُذَيلٍ بناحية الحجاز بين رَابِغ وجُدَّة - استصرخوا عليهم حيًا من هذيل يقال لهم: بنو لَحْيَان، فتبعوهم بقريب من مائة رام، واقتصوا آثارهم حتى لحقوهم، فأحاطوا بهم - وكانوا قد لجأوا إلى فَدْفَد[(٣)] - وقالوا: لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا ألا نقتل منكم رجلًا. فأما عاصم فأبى من النزول وقاتلهم فى أصحابه، فقتل منهم سبعة بالنبل، وبقى خُبَيب وزيد بن الدَّثِنَّةِ ورجل آخر، فأعطوهم العهد والميثاق مرة أخرى، فنزلوا إليهم ولكنهم غدروا بهم وربطوهم بأوتار قِسِيهم، فقال الرجل الثالث: هذا أول الغدر، وأبى أن يصحبهم، فجرروه وعالجوه على أن يصحبهم فلم يفعل فقتلوه، وانطلقوا بخبيب وزيد فباعوهما بمكة، وكانا قتلا من رءوسهم يوم بدر، فأما خبيب فمكث عندهم مسجونًا، ثم أجمعوا على قتله، فخرجوا به من الحرم إلى التنعيم، فلما أجمعوا على صلبه قال:

---

(١) زاد المعاد ٢/ ١٠٨.

(٢) زاد المعاد ٢/ ١٠٩، وابن هشام ٢/ ٦١٩، ٦٢٠.

(٣) مكان مرتفع.

دعونى حتى أركع ركعتين، فتركوه فصلاهما، فلما سلم قال: والله لولا أن تقولوا: إن ما بى جزع لزدت، ثم قال: اللهم أحْصِهِمْ عَدَدًا، واقتلهم بَدَدًا[1]، ولا تُبْقِ منهم أحدا، ثم قال:

لقد أجمع الأحـزاب حولى وألَّبُوا ... قبائلهم واستجمعوا كل مَجْمَع
وقـد قـربـوا أبـنـاءهـم ونساءهم ... وقُـرِّبْـتُ من جِـذْع طويل مُمَنَّع
إلى الله أشكو غُـرْبَتِى بعد كُرْبَتِى ... وما جمع الأحزاب لى عند مضجعى
وقد خَيَّرُونى الكفر والموتُ دونه ... فقد ذرفـت عيناى من غير مَدْمَع
فذا العرش صَبَّرَنى على ما يراد بى ... فقد بَضَعُوا لحمى وقد بُؤْس مَطْمَعِى
ولَسْتُ أُبالِى حين أُقْتَلُ مُسْلِما ... على أى شق كان فى الله مَضْجَعِى
وذلـك فـى ذات الإلـه وإن يشأ ... يبارك على أوصـال شِلْو[2] مُمَزَّع

فقال له أبو سفيان: أيسرك أن محمدا عندنا نضرب عنقه، وأنك فى أهلك؟ فقال: لا والله، ما يسرنى أنى فى أهلى وأن محمدًا فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه. ثم صلبوه، ووكلوا به من يحرس جثته، فجاء عمرو بن أمية الضمرى، فاحتمله بخدعة ليلًا، فذهب به فدفنه، وكان الذى تولى قتل خبيب هو عقبة بن الحارث، وكان خبيب قد قتل أباه حارثًا يوم بدر.

وفى الصحيح أن خبيبًا أول من سن الركعتين عند القتل، وأنه رئى وهو أسير يأكل قِطْفًا من العنب، وما بمكة ثمرة.

وأما زيد بن الدَّثِنَّة فابتاعه صفوان بن أمية فقتله بأبيه.

وبعثت قريش إلى عاصم ليؤتوا بشىء من جسده يعرفونه - وكان عاصم قتل عظيما من عظمائهم يوم بدر - فبعث الله عليه مثل الظُّلَّة من الدَّبْر - الزنابير - فحمته من رسلهم، فلم يقدروا منه على شيء. وكان عاصم أعطى الله عهدًا ألا يمسه مشرك ولا يمس مشركًا. وكان عمر لما بلغه خبره يقول: يحفظ الله العبد المؤمن بعد وفاته كما يحفظه فى حياته[3].

مأساة بئر مَعُونة:

وفى الشهر نفسه الذى وقعت فيه مأساة الرَّجِيع وقعت مأساة أخرى أشد وأفظع من الأولى، وهى التى تعرف بوقعة بئر معونة.

---

(١) أى: متفرقين. (٢) عضو.
(٣) ابن هشام ٢/ ١٦٩- ١٧٩، وزاد المعاد ٢/ ١٠٩، وصحيح البخارى ٢/ ٥٦٨، ٥٦٩، ٥٨٥.

وملخصها: أن أبا براء عامر بن مالك المدعو بمُلاَعِب الأسِنَّة قدم على رسول الله ﷺ المدينة، فدعاه إلى الإسلام فلم يسلم ولم يبعد، فقال: يا رسول الله، لو بعثت أصحابك إلى أهل نَجْد يدعونهم إلى دينك لرجوت أن يجيبوهم، فقال: «**إنى أخاف عليهم أهل نجد**»، فقال أبو بَرَاء: أنا جَارٌ لهم، فبعث معه أربعين رجلًا - فى قول ابن إسحاق، وفى الصحيح أنهم كانوا سبعين، والذى فى الصحيح هو الصحيح - وأمر عليهم المنذر بن عمرو أحد بنى ساعدة الملقب بالمُعْنِقَ لِيمُوت(١)، وكانوا من خيار المسلمين وفضلائهم وساداتهم وقرائهم، فساروا يحتطبون بالنهار، يشترون به الطعام لأهل الصفة، ويتدارسون القرآن ويصلون بالليل، حتى نزلوا بئر معونة - وهى أرض بين بنى عامر وحَرَّة بنى سُلَيْم - فنزلوا هناك، ثم بعثوا حرام بن مِلْحَان أخا أم سليم بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدو الله عامر بن الطُّفَيْل، فلم ينظر فيه، وأمر رجلًا فطعنه بالحربة من خلفه، فلما أنفذها فيه ورأى الدم، قال حرام: الله أكبر، فُزْتُ ورب الكعبة.

ثم استنفر عدو الله لفوره بنى عامر إلى قتال الباقين، فلم يجيبوه لأجل جوار أبى براء، فاستنفر بنى سليم، فأجابته عُصَيَّة ورِعْل وذَكْوان، فجاءوا حتى أحاطوا بأصحاب رسول الله ﷺ، فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم إلا كعب بن زيد بن النجار، فإنه ارْتُثَّ(٢) من بين القتلى، فعاش حتى قتل يوم الخندق.

وكان عمرو بن أمية الضمرى والمنذر بن عقبة بن عامر فى سرح المسلمين، فرأيا الطير تحوم على موضع الوقعة، فنزل المنذر، فقاتل المشركين حتى قتل مع أصحابه، وأسر عمرو بن أمية الضمرى، فلما أخبر أنه من مُضَر جَزَّ عامر ناصيته، وأعتقه عن رقبة كانت على أمه.

ورجع عمرو بن أمية الضمرى إلى النبى ﷺ حاملًا معه أنباء المصاب الفادح، مصرع سبعين من أفاضل المسلمين، تذكر نكبتهم الكبيرة بنكبة أحد ؛ إلا أن هؤلاء ذهبوا فى قتال واضح ؛ وأولئك ذهبوا فى غدرة شائنة.

ولما كان عمرو بن أمية فى الطريق بالقَرْقَرَة من صدر قناة، نزل فى ظل شجرة، وجاء رجلان من بنى كلاب فنزلا معه، فلما ناما فتك بهما عمرو، وهو يرى أنه قد أصاب ثأر أصحابه، وإذا معهما عهد من رسول الله ﷺ لم يشعر به، فلما قدم أخبر رسول الله ﷺ بما

---

(١) لُقِّب بذلك لأنه أسرعَ إلى الشهادة.

(٢) رُفِع وبه جراح.

فعل، فقال: «**لقد قتلت قتيلين لأدِيَنَّهما**»، وانشغل بجمع ديتهما من المسلمين ومن حلفائهم اليهود[١]، وهذا الذى صار سببًا لغزوة بنى النضير، كما سيذكر.

وقد تألم النبى ﷺ لأجل هذه المأساة، ولأجل مأساة الرجيع اللتين وقعتا خلال أيام معدودة[٢]، تألما شديدًا، وتغلب عليه الحزن والقلق[٣]، حتى دعا على هؤلاء الأقوام والقبائل التى قامت بالغدر والفتك فى أصحابه. ففى الصحيح عن أنس قال: دعا النبى ﷺ على الذين قتلوا أصحابه ببئر معونة ثلاثين صباحًا، يدعو فى صلاة الفجر على رِعْل وذَكْوَان ولَحْيَان وعُصَية، ويقول: «**عُصَية عَصَتْ الله ورسوله**»، فأنزل الله تعالى على نبيه قرآنًا قرأناه حتى نسخ بعد: «بلغوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضى عنا ورضينا عنه» فترك رسول الله ﷺ قُنُوتَه[٤].

غزوة بنى النضير:

قد أسلفنا أن اليهود كانوا يتحرقون على الإسلام والمسلمين إلا أنهم لم يكونوا أصحاب حرب وضرب، بل كانوا أصحاب دس ومؤامرة، فكانوا يجاهرون بالحقد والعداوة، ويختارون أنواعًا من الحيل ؛ لإيقاع الإيذاء بالمسلمين دون أن يقوموا للقتال مع ما كان بينهم وبين المسلمين من عهود ومواثيق، وأنهم بعد وقعة بنى قينقاع وقتل كعب بن الأشرف خافوا على أنفسهم فاستكانوا والتزموا الهدوء والسكوت.

ولكنهم بعد وقعة أحد تجرأوا، فكاشفوا بالعداوة والغدر، وأخذوا يتصلون بالمنافقين وبالمشركين من أهل مكة سرًّا، ويعملون لصالحهم ضد المسلمين[٥].

وصبر النبى ﷺ حتى ازدادوا جرأة وجسارة بعد وقعة الرَّجِيع وبئر مَعُونة، حتى قاموا بمؤامرة تهدف القضاء على النبى ﷺ.

وبيان ذلك: أنه ﷺ خرج إليهم فى نفر من أصحابه، وكلمهم أن يعينوه فى دية

---

(١) انظر: ابن هشام ٢/ ١٨٣– ١٨٨، وزاد المعاد ٢/ ١٠٩، ١١٠، وصحيح البخارى ٢/ ٥٨٤، ٥٨٦.

(٢) ذكر ابن سعد أن خبر أصحاِب الرجيع وخبر أصحاب بئر معونة أتيا النبى ﷺ فى ليلة واحدة (٢/ ٥٣).

(٣) روى ابن سعد عن أنس: ما رأيت رسول الله ﷺ وجد على أحد ما وجد على أصحاب بئر معونة (٢/ ٥٤).

(٤) البخارى ٢/ ٥٨٦– ٥٨٨.

(٥) يؤخذ ذلك مما رواه أبو داود فى باب خبر النضير ٣/ ١١٦، ١١٧ (عون المعبود شرح سنن أبى داود).

الكلابيين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضَّمْرِى - وكان ذلك يجب عليهم حسب بنود المعاهدة - فقالوا: نفعل يا أبا القاسم، اجلس ها هنا حتى نقضى حاجتك. فجلس إلى جنب جدار من بيوتهم ينتظر وفاءهم بما وعدوا، وجلس معه أبو بكر وعمر وعلى وطائفة من أصحابه.

وخلا اليهود بعضهم إلى بعض، وسول لهم الشيطان الشقاء الذى كتب عليهم، فتآمروا بقتله ﷺ، وقالوا: أيكم يأخذ هذه الرحى، ويصعد فيلقيها على رأسه يشدخه بها؟... فقال أشقاهم عمرو بن جحاش: أنا. فقال لهم سَلاَّم بن مِشْكَم: لا تفعلوا، فوالله ليخبرن بما هممتم به، وإنه لنقض للعهد الذى بيننا وبينه. ولكنهم عزموا على تنفيذ خطتهم.

ونزل جبريل من عند رب العالمين على رسوله ﷺ يعلمه بما هموا به، فنهض مسرعًا وتوجه إلى المدينة، ولحقه أصحابه فقالوا: نهضت ولم نشعر بك، فأخبرهم بما هَمَّتْ به يهود.

وما لبث رسول الله ﷺ أن بعث محمد بن مسلمة إلى بنى النضير يقول لهم: «**اخرجوا من المدينة ولا تساكنونى بها، وقد أجلتكم عشرًا، فمن وجدت بعد ذلك بها ضربت عنقه**».
ولم يجد يهود مناصًا من الخروج، فأقاموا أيامًا يتجهزون للرحيل، بيد أن رئيس المنافقين - عبد الله بن أبى - بعث إليهم أن اثبتوا وتَمَنَّعُوا، ولا تخرجوا من دياركم، فإن معى ألفين يدخلون معكم حصنكم، فيموتون دونكم ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ [الحشر: ١١] وتنصركم قريظة وحلفاؤكم من غطفان.

وهناك عادت لليهود ثقتهم، واستقر رأيهم على المناوأة، وطمع رئيسهم حيى بن أخطب فيما قاله رأس المنافقين، فبعث إلى رسول الله ﷺ يقول: إنا لا نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك.

ولا شك أن الموقف كان حرجًا بالنسبة للمسلمين، فإن اشتباكهم بخصومهم فى هذه الفترة المحرجة من تاريخهم لم يكن مأمون العواقب، وقد رأوا كَلَب العرب عليهم وفتكهم الشنيع ببعوثهم، ثم إن يهود بنى النضير كانوا على درجة من القوة تجعل استسلامهم بعيد الاحتمال، وتجعل فرض القتال معهم محفوفًا بالمكاره، إلا أن الحال التى جدت بعد مأساة بئر معونة وما قبلها زادت حساسية المسلمين بجرائم الاغتيال والغدر التى أخذوا يتعرضون لها جماعات وأفرادًا، وضاعفت نقمتهم على مقترفيها، ومن ثم قرروا أن يقاتلوا بنى النضير - بعد همهم باغتيال الرسول ﷺ - مهما تكن النتائج.

فلما بلغ رسول الله ﷺ جواب حيى بن أخطب كبر وكبر أصحابه، ثم نهض لمناجزة القوم، فاستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، وسار إليهم، وعلى بن أبى طالب يحمل اللواء، فلما انتهى إليهم فرض عليهم الحصار.

والتجأ بنو النضير إلى حصونهم، فأقاموا عليها يرمون بالنبل والحجارة، وكانت نخيلهم وبساتينهم عونًا لهم فى ذلك، فأمر بقطعها وتحريقها، وفى ذلك يقول حسان:

وهان على سَراةِ[1] بنى لُؤى حريق بالبُوَيْرَةِ مستطير

(البويرة: اسم لنخل بنى النضير) وفى ذلك أنزل الله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٥].

واعتزلتهم قريظة، وخانهم عبد الله بن أبى وحلفاؤهم من غطفان، فلم يحاول أحد أن يسوق لهم خيرًا، أو يدفع عنهم شرًّا، ولهذا شبه سبحانه وتعالى قصتهم، وجعل مثلهم: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ﴾ [الحشر: ١٦]

ولم يطل الحصار - فقد دام ست ليال فقط، وقيل: خمس عشرة ليلة - حتى قذف الله فى قلوبهم الرعب، فاندحروا وتهيأوا للاستسلام ولإلقاء السلاح، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ: نحن نخرج عن المدينة. فأنزلهم على أن يخرجوا عنها بنفوسهم وذراريهم، وأن لهم ما حملت الإبل إلا السلاح.

فنزلوا على ذلك، وخربوا بيوتهم بأيديهم، ليحملوا الأبواب والشبابيك، بل حتى حمل بعضهم الأوتاد وجذوع السقف، ثم حملوا النساء والصبيان، وتحملوا على ستمائة بعير، فترحل أكثرهم وأكابرهم كحيى بن أخطب وسلاَّم بن أبى الحُقَيق إلى خيبر، وذهبت طائفة منهم إلى الشام، وأسلم منهم رجلان فقط: يامِينُ بن عمرو وأبو سعد بن وهب، فأحرزا أموالهما.

وقبض رسول الله ﷺ سلاح بنى النضير، واستولى على أرضهم وديارهم وأموالهم، فوجد من السلاح خمسين درعًا وخمسين بيضة، وثلاثمائة وأربعين سيفًا.

وكانت أموال بنى النضير وأرضهم وديارهم خالصة لرسول الله ﷺ ؛ يضعها حيث يشاء، ولم يخَمِّسْها لأن الله أفاءها عليه، ولم يوجِف المسلمون عليها بِخَيلٍ ولا رِكاب، فقسمها بين المهاجرين الأولين خاصة، إلا أنه أعطى أبا دُجَانة وسهل بن حُنَيف الأنصاريين

(١) أشراف.

لفقرهما. وكان ينفق منها على أهله نفقة سنة، ثم يجعل ما بقى فى السلاح والكُرَاع عدة فى سبيل الله.

كانت غزوة بنى النضير فى ربيع الأول سنة ٤ من الهجرة، أغسطس ٦٢٥م، وأنزل الله فى هذه الغزوة سورة الحشر بأكملها، فوصف طرد اليهود، وفضح مسلك المنافقين، وبين أحكام الفيء، وأثنى على المهاجرين والأنصار، وبين جواز القطع والحرق فى أرض العدو للمصالح الحربية، وأن ذلك ليس من الفساد فى الأرض، وأوصى المؤمنين بالتزام التقوى والاستعداد للآخرة، ثم ختمها بالثناء على نفسه وبيان أسمائه وصفاته.

وكان ابن عباس يقول عن سورة الحشر: قل: سورة النضير[(١)].

هذه خلاصة ما رواه ابن إسحاق وعامة أهل السير حول هذه الغزوة. وقد روى أبو داود وعبد الرزاق وغيرهما سببًا آخر حول هذه الغزوة، وهو: أنه لما كانت وقعة بدر فكتبت كفار قريش بعد وقعة بدر إلى اليهود: إنكم أهل الحلقة والحصون، وإنكم لتقاتلن صاحبنا أو لنفعلن كذا وكذا، ولا يحول بيننا وبين خَدَم نسائكم شيء - وهو الخلاخيل - فلما بلغ كتابهم اليهود أجمعت بنو النضير على الغدر، فأرسلوا إلى النبى ﷺ: اخرج إلينا فى ثلاثين رجلًا من أصحابك، ولنخرج فى ثلاثين حبرًا، حتى نلتقى فى مكان كذا، نَصَفٌ بيننا وبينكم، فيسمعوا منك، فإن صدقوك وآمنوا بك آمنا كلنا، فخرج النبى ﷺ فى ثلاثين من أصحابه، وخرج إليه ثلاثون حبرًا من يهود، حتى إذا برزوا فى براز من الأرض قال بعض اليهود لبعض: كيف تخلصون إليه ومعه ثلاثون رجلًا من أصحابه، كلهم يحب أن يموت قبله، فأرسلوا إليه: كيف تفهم ونفهم ونحن ستون رجلًا؟ اخرج فى ثلاثة من أصحابك ويخرج إليك ثلاثة من علمائنا، فليسمعوا منك، فإن آمنوا بك آمنا كلنا وصدقناك، فخرج النبى ﷺ فى ثلاثة نفر من أصحابه واشتملوا (أى اليهود) على الخناجر، وأرادوا الفتك برسول الله ﷺ، فأرسلت امرأة ناصحة من بنى النضير إلى بنى أخيها، وهو رجل مسلم من الأنصار، فأخبرته خبر ما أرادت بنو النضير من الغدر برسول الله ﷺ، فأقبل أخوها سريعًا حتى أدرك النبى ﷺ، فساره بخبرهم قبل أن يصل النبى ﷺ إليهم، فرجع النبى ﷺ، فلما كان من الغد غدا عليهم رسول الله ﷺ بالكتائب فحاصرهم، وقال لهم: «**إنكم لاتأمنون عندى إلا بعهد تعاهدونى عليه**»، فأبوا أن يعطوه عهدًا، فقاتلهم يومهم ذلك هو والمسلمون، ثم غدا الغد على بنى قريظة بالخيل والكتائب، وترك بنى النضير، ودعاهم

---

(١) ابن هشام ٢/ ١٩٠-١٩٢، زاد المعاد ٢/ ٧١، ١١٠، وصحيح البخارى ٢/ ٥٧٤، ٥٧٥.

إلى أن يعاهدوه، فعاهدوه، فانصرف عنهم، وغدا إلى بنى النضير بالكتائب، فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء، وعلى أن لهم ما أقلت الإبل إلا الحَلْقة – والحلْقة: السلاح – فجاءت بنو النضير واحتملوا ما أقلت إبل من أمتعتهم وأبواب بيوتهم وخشبها، فكانوا يخربون بيوتهم فيهدمونها، فيحملون ما وافقهم من خشبها، وكان جلاؤهم ذلك أول حشر الناس إلى الشام(١).

غزوة نجد:

وبهذا النصر الذى أحرزه المسلمون – فى غزوة بنى النضير – دون قتال وتضحية توطد سلطانهم فى المدينة، وتخاذل المنافقون عن الجهر بكيدهم، وأمكن للرسول ﷺ أن يتفرغ لقمع الأعراب الذين آذوا المسلمين بعد أحد، وتواثبوا على بعوث الدعاة يقتلون رجالها فى نذالة وكفران، وبلغت بهم الجرأة إلى أن أرادوا القيام بجر غزوة على المدينة.

فقبل أن يقوم النبى ﷺ بتأديب أولئك الغادرين، نقلت إليه استخبارات المدينة بتحشد جموع البدو والأعراب من بنى مُحَارِب وبنى ثعلبة من غَطَفَان، فسارع النبى ﷺ إلى الخروج، يجوس فيافى نجد، ويلقى بذور الخوف فى أفئدة أولئك البدو القساة؛ حتى لا يعاودوا مناكرهم التى ارتكبها إخوانهم مع المسلمين.

وأضحى الأعراب الذين مردوا على النهب والسطو لا يسمعون بمقدم المسلمين إلا حذروا وتمنعوا فى رءوس الجبال، وهكذا أرهب المسلمون هذه القبائل المغيرة، وخلطوا بمشاعرهم الرعب، ثم رجعوا إلى المدينة آمنين.

وقد ذكر أهل المغازى والسير بهذا الصدد غزوة معينة غزاها المسلمون فى أرض نجد فى شهر ربيع الثانى أو جمادى الأولى سنة ٤هـ، ويسمون هذه الغزوة بغزوة ذات الرِّقَاع. أما وقوع الغزوة خلال هذه المدة فهو أمر تقتضيه ظروف المدينة، فإن موسم غزوة بدر التى كان قد تواعد بها أبو سفيان حين انصرافه من أحد، كان قد اقترب. وإخلاء المدينة، مع ترك البدو والأعراب على تمردهم وغطرستهم، والخروج لمثل هذا اللقاء الرهيب لم يكن من مصالح سياسة الحروب قطعًا، بل كان لا بد من خضد شوكتهم وكف شرهم، قبل الخروج لمثل هذه الحرب الكبيرة، التى كانوا يتوقعون وقوعها فى رحاب بدر.

---

(١) مصنف عبد الرزاق ٥/ ٣٥٨- ٣٦٠، ح (٩٧٣٣)، وسنن أبى داود: كتاب الخراج والفىء والإمارة، باب فى خبر النضير ٢/ ١٥٤.

وأما أن تلك الغزوة التى قادها الرسول ﷺ فى ربيع الآخر أو جمادى الأولى سنة ٤ هـ هى غزوة ذات الرقاع فلا يصح، فإن غزوة ذات الرقاع شهدها أبو هريرة وأبو موسى الأشعرى رضي الله عنهما، وكان إسلام أبى هريرة قبل غزوة خيبر بأيام، وكذلك أبو موسى الأشعرى رضي الله عنه، وافى النبى ﷺ بخيبر. وإذن فغزوة ذات الرقاع بعد خيبر، ويدل على تأخرها عن السنة الرابعة أن النبى ﷺ صلى فيها صلاة الخوف، وكانت أول شرعية صلاة الخوف فى غزوة عُسْفَان، ولا خلاف أن غزوة عسفان كانت بعد الخندق، وكانت غزوة الخندق فى أواخر السنة الخامسة.

غزوة بدر الثانية:

ولما خضد المسلمون شوكة الأعراب، وكفكفوا شرهم، أخذوا يتجهزون لملاقاة عدوهم الأكبر، فقد استدار العام وحضر الموعد المضروب مع قريش - فى غزوة أحد - وحق لمحمد ﷺ وصحبه أن يخرجوا ؛ ليواجهوا أبا سفيان وقومه، وأن يديروا رحى الحرب كرة أخرى حتى يستقر الأمر لأهدى الفريقين وأجدرهما بالبقاء.

ففى شعبان سنة ٤هـ يناير سنة ٦٢٦م، خرج رسول الله ﷺ لموعده فى ألف وخمسمائة، وكانت الخيل عشرة أفراس، وحمل لواءه على بن أبى طالب، واستخلف على المدينة عبد الله بن رواحة، وانتهى إلى بدر، فأقام بها ينتظر المشركين.

وأما أبو سفيان فخرج فى ألفين من مشركى مكة، ومعهم خمسون فرسًا، حتى انتهى إلى مَرِّ الظَّهْرَان على بعد مرحلة من مكة فنزل بمَجَنَّة - ماء فى تلك الناحية.

خرج أبو سفيان من مكة متثاقلًا يفكر فى عقبى القتال مع المسلمين، وقد أخذه الرعب، واستولت على مشاعره الهيبة، فلما نزل بمر الظهران خار عزمه، فاحتال للرجوع، وقال لأصحابه: يا معشر قريش، إنه لا يصلحكم إلا عام خصب ترعون فيه الشجر، وتشربون فيه اللبن، وإن عامكم هذا عام جدب، وإنى راجع فارجعوا.

ويبدو أن الخوف والهيبة كانت مستولية على مشاعر الجيش أيضًا، فقد رجع الناس ولم يبدوا أى معارضة لهذا الرأى، ولا أى إصرار وإلحاح على مواصلة السير للقاء المسلمين.

وأما المسلمون فأقاموا ببدر ثمانية أيام ينتظرون العدو، وباعوا ما معهم من التجارة فربحوا بدرهم درهمين، ثم رجعوا إلى المدينة وقد انتقل زمام المفاجأة إلى أيديهم، وتوطدت هيبتهم فى النفوس، وسادوا على الموقف.

وتعرف هذه الغزوة ببدر الموعد، وبدر الثانية، وبدر الآخرة، وبدر الصغرى[1].

غزوة دُوَمة الجندل:

عاد رسول الله ﷺ من بدر، وقد ساد المنطقة الأمن والسلام، واطمأنت دولته، فتفرغ للتوجه إلى أقصى حدود العرب حتى تصير السيطرة للمسلمين على الموقف، ويعترف بذلك الموالون والمعادون.

مكث بعد بدر الصغرى فى المدينة ستة أشهر، ثم جاءت إليه الأخبار بأن القبائل حول دومة الجندل - قريبًا من الشام - تقطع الطريق هناك، وتنهب ما يمر بها وأنها قد حشدت جمعًا كبيرا تريد أن تهاجم المدينة، فاستعمل رسول الله ﷺ على المدينة سِبَاع بن عُرْفُطَة الغفارى، وخرج فى ألف من المسلمين لخمس ليال بقين من ربيع الأول سنة ٥هـ، وأخذ رجلًا من بنى عُذْرَة دليلًا للطريق يقال له: مذكور.

خرج يسير الليل ويكمن النهار حتى يفاجئ أعداءهم وهم غارون، فلما دنا منهم إذا هم مغربون، فهجم على ما شيتهم ورعائهم، فأصاب من أصاب، وهرب من هرب.

وأما أهل دومة الجندل ففروا فى كل وجه، فلما نزل المسلمون بساحتهم لم يجدوا أحدًا، وأقام رسول الله ﷺ أيامًا، وبث السرايا وفرق الجيوش، فلم يصب منهم أحدًا، ثم رجع إلى المدينة، ووادع فى تلك الغزوة عيينة بن حصن. ودُومة بالضم: موضع معروف بمشارف الشام بينها وبين دمشق خمس ليال، وبُعْدُها من المدينة خمس عشرة ليلة.

بهذه الإجراءات السريعة الحاسمة، وبهذه الخطط الحكيمة الحازمة نجح النبى ﷺ فى بسط الأمن، وتنفيذ السلام فى المنطقة، والسيطرة على الموقف، وتحويل مجرى الأيام لصالح المسلمين، وتخفيف المتاعب الداخلية والخارجية التى كانت قد توالت عليهم وأحاطت بهم من كل جانب، فقد سكت المنافقون واستكانوا، وتم إجلاء قبيلة من اليهود، وبقيت الأخرى تظاهر بإيفاء حق الجوار، وبإيفاء العهود والمواثيق، واستكانت البدو والأعراب، وحادت قريش عن مهاجمة المسلمين، ووجد المسلمون فرصة لنشر الإسلام وتبليغ رسالات رب العالمين.

---

(١) انظر لتفصيل هذه الغزوة: ابن هشام ٢/ ٢٠٩، ٢١٠، وزاد المعاد ٢/ ١١٢.

غزوة الأحزاب

عاد الأمن والسلام، وهدأت الجزيرة العربية بعد الحروب والبعوث التى استغرقت أكثر من سنة كاملة، إلا أن اليهود - الذين كانوا قد ذاقوا ألوانًا من الذلة والهوان نتيجة غدرهم وخيانتهم ومؤامراتهم ودسائسهم - لم يفيقوا من غيهم، ولم يستكينوا، ولم يتعظوا بما أصابهم من نتيجة الغدر والتآمر. فهم بعد نفيهم إلى خيبر ظلوا ينتظرون ما يحل بالمسلمين من خلال المناوشات التى كانت قائمة بين المسلمين والوثنيين، ولما تحول مجرى الأيام لصالح المسلمين، وتمخضت الليالى والأيام عن بسط نفوذهم، وتوطد سلطانهم - تحرق هؤلاء اليهود أى تحرق.

وشرعوا فى التآمر من جديد على المسلمين، وأخذوا يعدون العدة، لتصويب ضربة إلى المسلمين تكون قاتلة لا حياة بعدها. ولما لم يكونوا يجدون فى أنفسهم جرأة على قتال المسلمين مباشرة، خططوا لهذا الغرض خطة رهيبة.

خرج عشرون رجلًا من زعماء اليهود وسادات بنى النضير إلى قريش بمكة، يحرضونهم على غزو الرسول ﷺ، ويوالونهم عليه، ووعدوهم من أنفسهم بالنصر لهم، فأجابتهم قريش، وكانت قريش قد أخلفت موعدها فى الخروج إلى بدر، فرأت فى ذلك إنقاذا لسمعتها والبر بكلمتها.

ثم خرج هذا الوفد إلى غَطَفَان، فدعاهم إلى ما دعا إليه قريشًا فاستجابوا لذلك، ثم طاف الوفد فى قبائل العرب يدعوهم إلى ذلك، فاستجاب له من استجاب، وهكذا نجح ساسة اليهود وقادتهم فى تأليب أحزاب الكفر على النبى ﷺ والمسلمين.

وعلى إثر ذلك خرجت من الجنوب قريش وكنانة وحلفاؤهم من أهل تهامة - وقائدهم أبو سفيان - فى أربعة آلاف، ووافاهم بنو سليم بمَرِّ الظَّهْرَان، وخرجت من الشرق قبائل غطفان: بنو فَزَارة يقودهم عُيينَة بن حِصْن، وبنو مُرَّة يقودهم الحارث بن عوف، وبنو أشجع يقودهم مِسْعَر ابن رُحَيلَة، كما خرجت بنو أسد وغيرها.

واتجهت هذه الأحزاب وتحركت نحو المدينة على ميعاد كانت قد تعاقدت عليه.

وبعد أيام تجمع حول المدينة جيش عَرَمْرَم يبلغ عدده عشرة آلاف مقاتل، جيش ربما يزيد عدده على جميع من فى المدينة من النساء والصبيان والشباب والشيوخ.

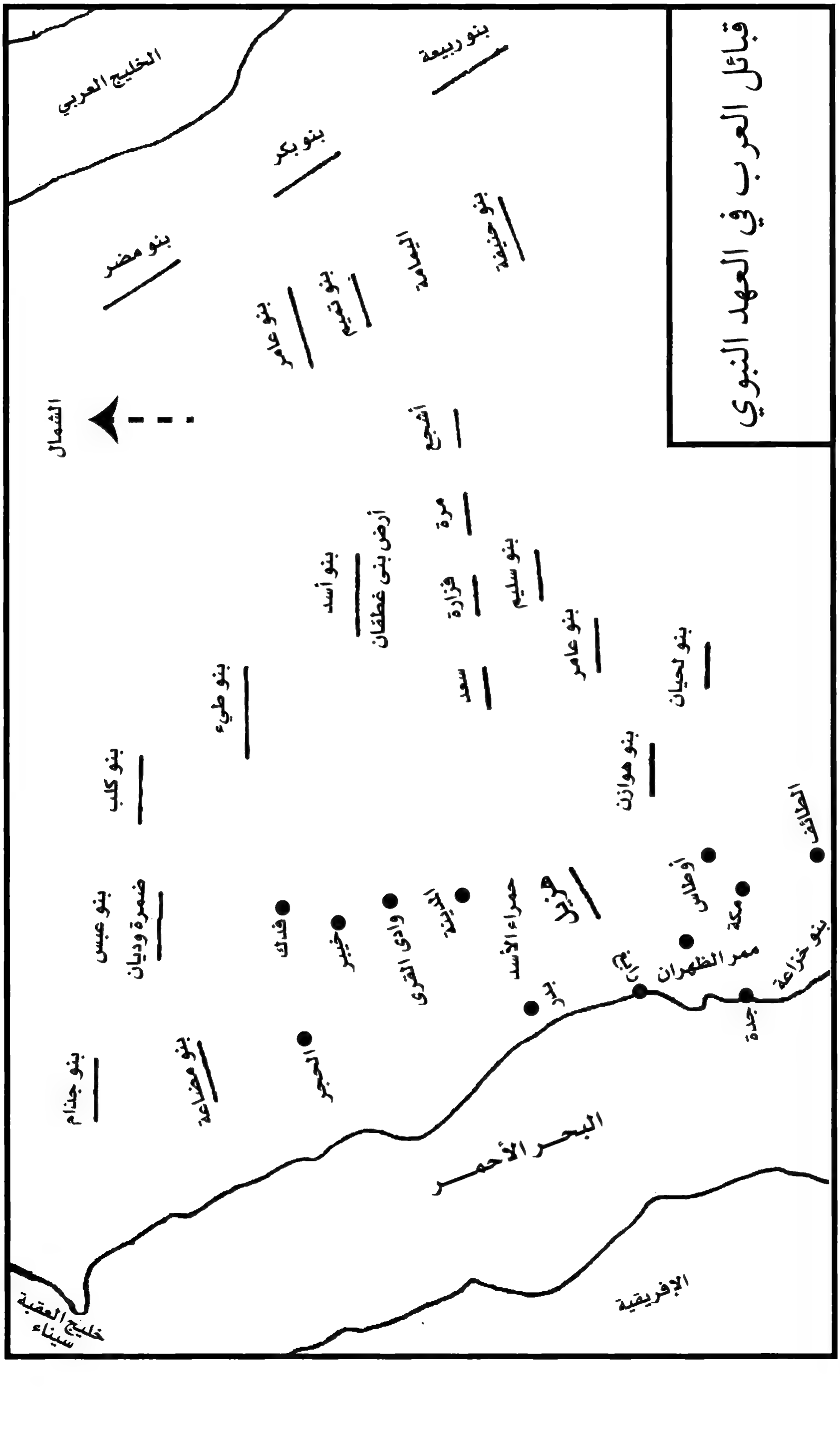
قبائل العرب في العهد النبوي
الخليج العربي
بنو ربيعة
بنو بكر
بنو مضر
بنو حنيفة
اليمامة
بنو تميم
بنو عامر
الشمال
أشجع
مرة
أرض بني غطفان
بنو أسد
بنو سليم
فزارة
بنو عامر
سعد
بنو لحيان
بنو طيء
بنو هوازن
بنو كلب
الطائف
أوطاس
مكة
هذيل
حمراء الأسد
المدينة
وادي القرى
خيبر
فدك
بنو عبس
ضمرة وذبيان
ممر الظهران
بنو خزاعة
جدة
بدر
بنو جذام
بنو قضاعة
الحجر
البحر الأحمر
الإفريقية
خليج العقبة
سيناء

ولو بلغت هذه الأحزاب والمحزبة والجنود المجندة إلى أسوار المدينة بغتة لكانت أعظم خطرًا على كيان المسلمين مما يقاس، وربما تبلغ إلى استئصال الشأفة وإبادة الخضراء، ولكن قيادة المدينة كانت قيادة متيقظة، لم تزل واضعة أناملها على العروق النابضة، تتجسس الظروف، وتقدر ما يتمخض عن مجراها، فلم تكد تتحرك هذه الجيوش عن مواضعها حتى نقلت استخبارات المدينة إلى قيادتها فيها بهذا الزحف الخطير.

وسارع رسول الله ﷺ إلى عقد مجلس استشارى أعلى، تناول فيه موضوع خطة الدفاع عن كيان المدينة، وبعد مناقشات جرت بين القادة وأهل الشورى اتفقوا على قرار قدمه الصحابى النبيل سلمان الفارسى رضي الله عنه.

قال سلمان: يا رسول الله، إنا كنا بأرض فارس إذا حوصرنا خَنْدَقْنَا علينا. وكانت خطة حكيمة لم تكن تعرفها العرب قبل ذلك.

وأسرع رسول الله ﷺ إلى تنفيذ هذه الخطة، فوكل إلى كل عشرة رجال أن يحفروا من الخندق أربعين ذراعًا، وقام المسلمون بجد ونشاط يحفرون الخندق، ورسول الله ﷺ يحثهم ويساهمهم فى عملهم هذا. ففى البخارى عن سهل بن سعد، قال: كنا مع رسول الله فى الخندق، وهم يحفرون، ونحن ننقل التراب على أكتادنا(١)، فقال رسول الله ﷺ: «**اللهم لا عَيشَ إلا عيشُ الآخرة، فاغفر للمهاجرين والأنصار**»(٢).

وعن أنس: خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق فإذا المهاجرين والأنصار يحفرون فى غداة باردة، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال:

اللهم إن العيش عيش الآخرة ... فاغفر للأنصار والمهاجرة

فقالوا مجيبين له:

نحن الذين بايعوا محمدًا ... على الجهاد ما بقينا أبدًا(٣)

وفيه عن البراء بن عازب قال: رأيته ﷺ ينقل من تراب الخندق حتى وارى عنى الغبار جلدة بطنه، وكان كثير الشعر، فسمعته يرتجز بكلمات ابن رواحة، وهو ينقل من التراب ويقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا

(١) جمع كَتَد، وهو مجتمع الكتفين. (٢) صحيح البخارى: باب غزوة الخندق ٢/ ٥٨٨.
(٣) صحيح البخارى ١/ ٣٩٧، ٢/ ٥٨٨.

فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الألى رغبوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا

قال: ثم يمد بها صوته بآخرها، وفى رواية:

إن الألى قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا[١]

كان المسلمون يعملون بهذا النشاط وهم يقاسون من شدة الجوع ما يفتت الأكباد، قال أنس: كان أهل الخندق يؤتون بملء كفى من الشعير، فيصنع لهم بإِهَالَةٍ[٢] سنخة توضع بين يدى القوم، والقوم جياع، وهى بشعة فى الحلق ولها ريح[٣].

وقال أبو طلحة: شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوع، فرفعنا عن بطوننا عن حجر حجر، فرفع رسول الله ﷺ عن حجرين[٤].

وبهذه المناسبة وقعت أثناء حفر الخندق آيات من أعلام النبوة، رأى جابر بن عبد الله فى النبى ﷺ خمصًا شديدًا فذبح بهيمة، وطحنت امرأته صاعًا من شعير، ثم التمس من رسول الله ﷺ سرًّا أن يأتى فى نفر من أصحابه، فقام النبى ﷺ بجميع أهل الخندق، وهم ألف، فأكلوا من ذلك الطعام وشبعوا، وبقيت بُرْمَة اللحم تغط به كما هى، وبقى العجين يخبز كما هو[٥].

وجاءت أخت النعمان بن بشير بحَفْنَة من تمر إلى الخندق ليتغدى به أبوه وخاله، فمرت برسول الله ﷺ، فطلب منها التمر، وبدده فوق ثوب، ثم دعا أهل الخندق، فجعلوا يأكلون منه وجعل التمر يزيد، حتى صدر أهل الخندق عنه، وإنه يسقط من أطراف الثوب[٦].

وأعظم من هذين ما رواه البخارى عن جابرقال: إنا يوم خندق نحفر، فعرضت كُدْية شديدة، فجاءوا النبى ﷺ فقالوا: هذه كدية عرضت فى الخندق. فقال: «**أنا نازل**»، ثم قام وبطنه معصوب بحجر - ولبثنا ثلاثة لا نذوق ذواقًا - فأخذ النبى ﷺ المِعْوَل، فضرب فعاد كثيبًا أهْيل أو أهْيم[٧]، أي: صار رملًا لا يتماسك.

وقال البراء: لما كان يوم الخندق عرضت لنا فى بعض الخندق صخرة لا تأخذ منها

---

(١) المصدر نفسه ٢/ ٥٨٩.

(٢) الإهالة: الدهن، وسنخة: أى تغيرت من طول بقائها.

(٣) صحيح البخارى ٢/ ٥٨٨.

(٤) رواه الترمذى، مشكاة المصابيح ٢/ ٤٤٨.

(٥) روى ذلك البخارى ٢/ ٥٨٨، ٥٨٩.

(٦) ابن هشام ٢/ ٢١٨.

(٧) صحيح البخارى ٢/ ٥٨٨.

المعاول، فاشتكينا ذلك لرسول الله ﷺ، فجاءة وأخذ المعول فقال: «**بسم الله**»، ثم ضرب ضربة، وقال: «**الله أكبر، أعطيت مفاتيح الشام، والله إنى لأنظر قصورها الحمر الساعة**»، ثم ضرب الثانية فقطع آخر، فقال: «**الله أكبر، أعطيت فارس، والله إنى لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن**»، ثم ضرب الثالثة، فقال: «**بسم الله**»، **فقطع بقية الحجر، فقال**: «**الله أكبر، أعطيت مفاتيح اليمن، والله إنى لأبصر أبواب صنعاء من مكانى**»(١).

وروى ابن إسحاق مثل ذلك عن سلمان الفارسى رضي الله عنه(٢).

ولما كانت المدينة تحيط بها الحرات والجبال وبساتين من النخيل من كل جانب سوى الشمال، وكان النبى ﷺ يعلم أن زحف مثل هذا الجيش الكبير، ومهاجمته المدينة لا يمكن إلا من جهة الشمال، اتخذ الخندق فى هذا الجانب.

وواصل المسلمون عملهم فى حفره، فكانوا يحفرونه طول النهار، ويرجعون إلى أهليهم فى المساء، حتى تكامل الخندق حسب الخطة المنشودة، قبل أن يصل الجيش الوثنى العرمرم إلى أسوار المدينة(٣).

وأقبلت قريش فى أربعة آلاف، حتى نزلت بمجتمع الأسيال من رُومَة بين الجُرْف وزَغَابَة، وأقبلت غَطَفَان ومن تبعهم من أهل نجد فى ستة آلاف حتى نزلوا بذَنَبِ نَقْمَى إلى جانب أحد.

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب].

وأما المنافقون وضعفاء النفوس فقد تزعزعت قلوبهم لرؤية هذا الجيش ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب].

وخرج رسول الله ﷺ فى ثلاثة آلاف من المسلمين، فجعلوا ظهورهم إلى جبل سَلْع فتحصنوا به، والخندق بينهم وبين الكفار. وكان شعارهم: «**حم لا ينصرون**»، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، وأمر بالنساء والذرارى فجعلوا فى آطام(٤) المدينة.

---

(١) سنن النسائى ٢/ ٥٦، وأحمد فى مسنده ٤/ ٣٠٣ واللفظ ليس للنسائى، وفيه: عن رجل من الصحابة.

(٢) ابن هشام ٢/ ٢١٩.

(٣) المصدر نفسه ٣/ ٢٣٠، ٢٣١.

(٤) حصون.

ولما أراد المشركون مهاجمة المسلمين واقتحام المدينة، وجدوا خندقًا عريضًا يحول بينهم وبينها، فالتجأوا إلى فرض الحصار على المسلمين، بينما لم يكونوا مستعدين له حين خرجوا من ديارهم، إذ كانت هذه الخطة - كما قالوا - مكيدة ما عرفتها العرب، فلم يكونوا أدخلوها فى حسابهم رأسًا.

وأخذ المشركون يدورون حول الخندق غضابًا، يتحسسون نقطة ضعيفة ؛ لينحدروا منها، وأخذ المسلمون يتطلعون إلى جولات المشركين، يرشقونهم بالنبل، حتى لا يجترئوا على الاقتراب منه، ولا يستطيعوا أن يقتحموه، أو يهيلوا عليه التراب، ليبنوا به طريقًا يمكنهم من العبور.

وكره فوارس من قريش أن يقفوا حول الخندق من غير جدوى فى ترقب نتائج الحصار، فإن ذلك لم يكن من شيمهم، فخرجت منها جماعة فيها عمرو بن عبد وُدّ وعكرمة ابن أبى جهل وضرار ابن الخطاب وغيرهم، فتيمموا مكانًا ضيقًا من الخندق فاقتحموه، وجالت بهم خيلهم فى السَّبْخة بين الخندق وسَلْع، وخرج على بن أبى طالب فى نفر من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التى أقحموا منها خيلهم، ودعا عمرو إلى المبارزة، فانتدب له على بن أبى طالب، وقال كلمة حمى لأجلها - وكان من شجعان المشركين وأبطالهم - فاقتحم عن فرسه فعقره وضرب وجهه، ثم أقبل على علىّ، فتجاولا وتصاولا حتى قتله على رضي الله عنه، وانهزم الباقون حتى اقتحموا الخندق هاربين، وقد بلغ بهم الرعب إلى أن ترك عكرمة رمحه وهو منهزم عن عمرو.

وقد حاول المشركون فى بعض الأيام محاولة بليغة لاقتحام الخندق، أو لبناء الطرق فيها، ولكن المسلمين كافحوا مكافحة مجيدة، ورشقوهم بالنبل، وناضلوهم أشد النضال حتى فشل المشركون فى محاولتهم.

ولأجل الاشتغال بمثل هذه المكافحة الشديدة فات بعض الصلوات عن رسول الله ﷺ والمسلمين، ففى الصحيحين عن جابر رضي الله عنه: أن عمر بن الخطاب جاء يوم الخندق، فجعل يسب كفار قريش. فقال: يا رسول الله ﷺ، ما كدت أن أصلى حتى كادت الشمس أن تغرب، فقال النبى ﷺ: «**وأنا والله ما صليتها**»، فنزلنا مع النبى ﷺ بُطْحَان، فتوضأ للصلاة، وتوضأنا لها، فصلى العصر بعد ما غربت الشمس، ثم صلى بعدها المغرب[١].

وقد استاء رسول الله ﷺ لفوات هذه الصلاة حتى دعا على المشركين، ففى البخارى

(١) صحيح البخارى ٢/ ٥٩٠

عن على عن النبى ﷺ أنه قال يوم الخندق: **«ملأ الله عليهم بيوتهم وقبورهم نارًا، كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس»**(١).

وفى مسند أحمد والشافعى أنهم حبسوه عن صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء فصلاهن جميعًا. قال النووى: وطريق الجمع بين هذه الروايات أن وقعة الخندق بقيت أيامًا فكان هذا فى بعض الأيام، وهذا فى بعضها. انتهى(٢).

ومن هنا يؤخذ أن محاولة العبور من المشركين، والمكافحة المتواصلة من المسلمين، دامت أيامًا، إلا أن الخندق لما كان حائلًا بين الجيشين لم يجر بينهما قتال مباشر أو حرب دامية، بل اقتصروا على المراماة والمناضلة.

وفى هذه المراماة قتل رجال من الجيشين، يعدون على الأصابع: ستة من المسلمين، وعشرة من المشركين، بينما كان قتل واحد أو اثنين منهم بالسيف.

وفى هذه المراماة رمى سعد بن معاذ رضي الله عنه بسهم فقطع منه الأَكْحَل(٣)، رماه رجل من قريش يقال له: حَبَّان بن العَرِقَة، فدعا سعد: اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إلى أن أجاهدهم فيك من قوم كذبوا رسولك وأخرجوه، اللهم فإنى أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم، فإن كان بقى من حرب قريش شىء فأبقنى لهم حتى أجاهدهم فيك، وإن كنت وضعت الحرب فافجرها واجعل موتتى فيها(٤). وقال فى آخر دعائه: ولا تمتنى حتى تقر عينى من بنى قريظة(٥).

وبينما كان المسلمون يواجهون هذه الشدائد على جبهة المعركة، كانت أفاعى الدس والتآمر تتقلب فى جحورها، تريد إيصال السم داخل أجسادهم، انطلق كبير مجرمى بنى النضير حيى ابن أخطب إلى ديار بنى قريظة فأتى كعب بن أسد القرظى - سيد بنى قريظة وصاحب عقدهم وعهدهم، وكان قد عاقد رسول الله ﷺ على أن ينصره إذا أصابته حرب، كما تقدم - فضرب عليه حيى الباب فأغلقه كعب دونه، فما زال يكلمه حتى فتح له بابه، فقال حيى: إنى قد جئتك يا كعب بعز الدهر وببحر طَام، جئتك بقريش على قادتها وسادتها، حتى أنزلتهم بمجمع الأسيال من رُومَة، وبغطفان على قادتها وسادتها، حتى أنزلتهم بذَنَب نَقْمَى إلى جانب أحد، قد عاهدونى وعاقدونى على ألا يبرحوا حتى نستأصل محمدًا ومن معه.

---

(١) صحيح البخارى ٢/ ٥٩٠

(٢) شرح مسلم للنووى ١/ ٢٢٧.

(٣) عِرْق فى الذراع يُفْصَد.

(٤) صحيح البخارى ٣/ ٥٩١.

(٥) ابن هشام ٣/ ٣٣٧.

فقال له كعب: جئتنى والله بذُلِّ الدهر وبجَهَام[١] قد هَرَاق ماؤه، فهو يُرْعِد ويُبْرِق، ليس فيه شيء. ويحك يا حيى فدعنى وما أنا عليه، فإنى لم أر من محمد إلا صدقا ووفاء.

فلم يزل حيى بكعب يَفْتِلُه فى الذِّرْوَة والغَارِب[٢]، حتى سمح له على أن أعطاه عهدًا من الله وميثاقًا: لئن رجعت قريش وغطفان، ولم يصيبوا محمدًا أن أدخل معك فى حصنك، حتى يصيبنى ما أصابك، فنقض كعب بن أسد عهده، وبرئ مما كان بينه وبين المسلمين، ودخل مع المشركين فى المحاربة ضد المسلمين[٣].

وفعلًا قامت يهود بنى قريظة بعمليات الحرب. قال ابن إسحاق: كانت صفية بنت عبد المطلب فى فارع حصن حسان بن ثابت، وكان حسان فيه مع النساء والصبيان، قالت صفية: فمر بنا رجل من يهود، فجعل يطيف بالحصن، وقد حاربت بنو قريظة وقطعت ما بينها وبين رسول الله ﷺ، وليس بيننا وبينهم أحد يدفع عنا، ورسول الله ﷺ والمسلمون فى غور عدوهم، لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إن أتانا آت، قالت: فقلت: يا حسان، إن هذا اليهودى كما ترى يطيف بالحصن، وإنى والله ما آمنه أن يدل على عورتنا مَنْ وراءنا مِنْ يهود، وقد شغل عنا رسول الله ﷺ وأصحابه، فانزل إليه فاقتله.

قال: والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا، قالت: فاحتجزت[٤] ثم أخذت عمودًا، ثم نزلت من الحصن إليه، فضربته بالعمود حتى قتلته، ثم رجعت إلى الحصن وقلت: يا حسان، انزل إليه فاسلبه، فإنه لم يمنعنى من سبله إلا أنه رجل، قال: ما لى بسلبه من حاجة[٥].

وقد كان لهذا الفعل المجيد من عمة الرسول ﷺ أثر عميق فى حفظ ذرارى المسلمين ونسائهم، ويبدو أن اليهود ظنوا أن هذه الآطام والحصون فى منعة من الجيش الإسلامى - مع أنها كانت خالية عنهم تمامًا - فلم يجترئوا مرة ثانية للقيام بمثل هذا العمل، إلا أنهم أخذوا يمدون الغزاة الوثنيين بالمؤن، كدليل عملى على انضمامهم إليهم ضد المسلمين، حتى أخذ المسلمون من مؤنهم عشرين جملًا.

وانتهى الخبر إلى رسول الله ﷺ وإلى المسلمين فبادر إلى تحقيقه، حتى يستجلى موقف

---

(١) السحاب الذى لا ماء فيه.

(٢) الذِّروة والغارب: أعلى ظهر البعير، أى: أنه لم يزل يخادعه كما يخادع البعير إذا كان نافرا.

(٣) ابن هشام ٣/ ٢٢٠، ٢٢١.

(٤) أى: شددت وسطى.

(٥) ابن هشام ٢/ ٢٢٨ وذكر الحافظ ابن حجر: أن أحمد رواه بإسناد قوى عن عبد الله بن الزبير. فتح البارى ٦/ ٢٨٥ شرح كتاب فرض الخمس، باب ١٨ من صحيح البخارى.

قريظة، فيواجهه بما يجب من الوجهة العسكرية، وبعث لتحقيق الخبر السعدين؛ سعد بن معاذ وسعد ابن عبادة، وعبد الله بن رواحة وخَوَّات بن جبير، وقال: «**انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقًّا فالحنوا لى لحنًا أعرفه، ولا تَفُتُّوا فى أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فاجهروا به للناس**». فلما دنوا منهم وجدوهم على أخبث ما يكون، فقد جاهروهم بالسب والعداوة، ونالوا من رسول الله ﷺ.

وقالوا: من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد، ولا عقد. فانصرفوا عنهم، فلما أقبلوا على رسول الله ﷺ لحنوا له، وقالوا: عَضَل وقَارَة ؛ أى: أنهم على غدر كغدر عضل وقارة بأصحاب الرَّجِيع.

وعلى رغم محاولتهم إخفاء الحقيقة تفطن الناس لجلية الأمر، فتجسد أمامهم خطر رهيب.

وقد كان أحرج موقف يقفه المسلمون، فلم يكن يحول بينهم وبين قريظة شىء يمنعهم من ضربهم من الخلف، بينما كان أمامهم جيش عرمرم لم يكونوا يستطيعون الانصراف عنه، وكانت ذراريهم ونساؤهم بمقربة من هؤلاء الغادرين فى غير منعة وحفظ، وصاروا كما قال الله تعالى: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾ [الأحزاب].

ونجم النفاق من بعض المنافقين حتى قال: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط. وحتى قال بعض آخر فى ملأ من رجال قومه: إن بيوتنا عورة من العدو، فائذن لنا أن نخرج، فنرجع إلى دارنا فإنها خارج المدينة. وحتى همت بنو سلمة بالفشل، وفى هؤلاء أنزل الله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ ﴾ [الأحزاب].

أما رسول الله ﷺ فتقنع بثوبه حين أتاه غَدْر قريظة، فاضطجع ومكث طويلًا حتى اشتد على الناس البلاء، ثم نهض مبشرًا يقول: «**الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين بفتح الله ونصره**»، ثم أخذ يخطط لمجابهة الظرف الراهن، وكجزء من هذه الخطة كان يبعث الحرس إلى المدينة؛ لئلا يؤتى الذرارى والنساء على غرة، ولكن كان لابد من إقدام حاسم، يفضى إلى تخاذل الأحزاب، وتحقيقًا لهذا الهدف أراد أن يصالح عُيينَة بن حصن والحارث بن

عوف رئيسى غطفان على ثلث ثمار المدينة، حتى ينصرفا بقومهما، ويخلو المسلمون لإلحاق الهزيمة الساحقة العاجلة بقريش التى اختبروا مدى قوتها وبأسها مرارًا، وجرت المراودة على ذلك، فاستشار السعدين فى ذلك، فقالا: يا رسول الله، إن كان الله أمرك بهذا فسمعًا وطاعة، وإن كان شيء تصنعه لنا فلا حاجة لنا فيه، لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قِرًى أو بيعًا، فحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك نعطيهم أموالنا؟ والله لا نعطيهم إلا السيف، فَصَوَّبَ رأيهما وقال: «**إنما هو شيء أصنعه لكم لما رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة**».

ثم إن الله عز وجل - وله الحمد - صنع أمرًا من عنده خذل به العدو وهزم جموعهم، وفَلَّ حدهم، فكان مما هيأ من ذلك أن رجلًا من غطفان يقال له: نعيم بن مسعود بن عامر الأشجعي رضي الله عنه جاء رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنى قد أسلمت، وإن قومى لم يعلموا بإسلامى، فمرنى ما شئت، فقال رسول الله ﷺ: «**إنما أنت رجل واحد، فَخذِّلْ عنا ما استطعت، فإن الحرب خدعة**»، فذهب من فوره إلى بنى قريظة - وكان عشيرًا لهم فى الجاهلية - فدخل عليهم وقال: قد عرفتم ودى إياكم، وخاصة ما بينى وبينكم، قالوا: صدقت. قال: فإن قريشًا ليسوا مثلكم، البلد بلدكم، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، لا تقدرون أن تتحولوا منه إلى غيره، وإن قريشًا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره، فإن أصابوا فرصة انتهزوها، وإلا لحقوا ببلادهم وتركوكم ومحمدًا فانتقم منكم، قالوا: فما العمل يا نعيم؟ قال: لا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن. قالوا: لقد أشرت بالرأى.

ثم مضى نعيم على وجهه إلى قريش وقال لهم: تعلمون ودى لكم ونصحى لكم؟ قالوا: نعم، قال: إن يهود قد ندموا على ما كان منهم من نقض عهد محمد وأصحابه، وإنهم قد راسلوه أنهم يأخذون منكم رهائن يدفعونها إليه، ثم يوالونه عليكم، فإن سألوكم رهائن فلا تعطوهم، ثم ذهب إلى غطفان، فقال لهم مثل ذلك.

فلما كانت ليلة السبت من شوال - سنة ٥هـ - بعثوا إلى يهود: أنا لسنا بأرض مقام، وقد هلك الكُرَاع والخف[١]، فانهضوا بنا حتى نناجز محمدًا، فأرسل إليهم اليهود أن اليوم يوم السبت، وقد علمتم ما أصاب من قبلنا حين أحدثوا فيه، ومع هذا فإنا لا نقاتل معكم

---

(١) يعنى بالكراع: الخيل، وبالخف: الإبل.

حتى تبعثوا إلينا رهائن، فلما جاءتهم رسلهم بذلك قالت قريش وغطفان: صدقكم والله نعيم، فبعثوا إلى يهود إنا والله لا نرسل إليكم أحدًا، فاخرجوا معنا حتى نناجز محمدًا، فقالت قريظة: صدقكم والله نعيم. فتخاذل الفريقان، ودبت الفرقة بين صفوفهم، وخارت عزائمهم.

وكان المسلمون يدعون الله تعالى: «**اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا**»، ودعا رسول الله ﷺ على الأحزاب، فقال: «**اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم**»[(١)].

وقد سمع الله دعاء رسوله والمسلمين، فبعد أن دبت الفرقة فى صفوف المشركين وسرى بينهم التخاذل أرسل الله عليهم جندًا من الريح فجعلت تقوض خيامهم، ولا تدع لهم قِدْرًا إلا كفأتها، ولا طُنُبًا[(٢)] إلا قلعته، ولا يقر لهم قرار، وأرسل جندًا من الملائكة يزلزلونهم، ويلقون فى قلوبهم الرعب والخوف.

وأرسل رسول الله ﷺ فى تلك الليلة الباردة القارسة حذيفة بن اليمان يأتيه بخبرهم، فوجدهم على هذه الحالة، وقد تهيأوا للرحيل، فرجع إلى رسول الله ﷺ، فأخبره برحيل القوم، فأصبح رسول الله ﷺ وقد رد الله عدوه بغيظهم لم ينالوا خيرًا وكفاه الله قتالهم، فصدق وعده، وأعز جنده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، فرجع إلى المدينة.

وكانت غزوة الخندق سنة خمس من الهجرة فى شوال على أصح القولين، وأقام المشركون محاصرين رسول الله ﷺ والمسلمين شهرًا أو نحو شهر. ويبدو بعد الجمع بين المصادر أن بداية فرض الحصار كانت فى شوال ونهايته فى ذى القعدة، وعند ابن سعد أن انصراف رسول الله ﷺ من الخندق كان يوم الأربعاء لسبع بقين من ذى القعدة.

إن معركة الأحزاب لم تكن معركة خسائر، بل كانت معركة أعصاب، لم يجر فيها قتال مرير، إلا أنها كانت من أحسم المعارك فى تاريخ الإسلام، تمخضت عن تخاذل المشركين، وأفادت أن أية قوة من قوات العرب لا تستطيع استئصال القوة الصغيرة التى تنمو فى المدينة؛ لأن العرب لم تكن تستطيع أن تأتى بجمع أقوى مما أتت به فى الأحزاب، ولذلك قال رسول الله ﷺ حين أجلى الله الأحزاب: «**الآن نغزوهم، ولا يغزونا، نحن نسير إليهم**»[(٣)].

---

(١) صحيح البخارى: كتاب الجهاد ١/ ٤١١، وكتاب المغازى ٢/ ٥٩٠.

(٢) هى الحبال تُشد بها الخيمة.

(٣) صحيح البخارى ٢/ ٥٩٠.

غزوة بنى قريظة

وفى اليوم الذى رجع فيه رسول الله إلى المدينة، جاءه جبريل عليه السلام عند الظهر، وهو يغتسل فى بيت أم سلمة، فقال: أو قد وضعت السلاح؟ فإن الملائكة لم تضع أسلحتهم، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم، فانهض بمن معك إلى بنى قريظة، فإنى سائر أمامك أزلزل بهم حصونهم، وأقذف فى قلوبهم الرعب، فسار جبريل فى موكبه من الملائكة.

وأمر رسول الله ﷺ مؤذنًا فأذن فى الناس: من كان سامعًا مطيعًا فلا يُصَلِّيَنَّ العصر إلا ببنى قريظة، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، وأعطى الراية على بن أبى طالب، وقدّمه إلى بنى قريظة، فسار علىّ حتى إذا دنا من حصونهم سمع منها مقالة قبيحة لرسول الله ﷺ.

وخرج رسول الله ﷺ فى موكبه من المهاجرين والأنصار، حتى نزل على بئر من آبار قريظة يقال لها: بئر أنَّا. وبادر المسلمون إلى امتثال أمره، ونهضوا من فورهم، وتحركوا نحو قريظة، وأدركتهم العصر فى الطريق فقال بعضهم: لا نصليها إلا فى بنى قريظة كما أمرنا، حتى إن رجالًا منهم صلوا العصر بعد العشاء الآخرة، وقال بعضهم: لم يرد منا ذلك، وإنما أراد سرعة الخروج، فصلوها فى الطريق، فلم يعنف واحدة من الطائفتين.

هكذا تحرك الجيش الإسلامى نحو بنى قريظة أرسالًا حتى تلاحقوا بالنبى ﷺ، وهم ثلاثة آلاف، والخيل ثلاثون فرسًا، فنازلوا حصون بنى قريظة، وفرضوا عليهم الحصار.

ولما اشتد عليهم الحصار عرض عليهم رئيسهم كعب بن أسد ثلاث خصال: إما أن يسلموا ويدخلوا مع محمد ﷺ فى دينه، فيأمنوا على دمائهم وأموالهم وأبنائهم ونسائهم - وقد قال لهم: والله، لقد تبين لكم أنه لنبى مرسل، وأنه الذى تجدونه فى كتابكم - وإما أن يقتلوا ذراريهم ونساءهم بأيديهم، ويخرجوا إلى النبى ﷺ بالسيوف مُصْلِتِين[1]، يناجزونه حتى يظفروا بهم، أو يقتلوا عن آخرهم، وإما أن يهجموا على رسول الله ﷺ وأصحابه، ويكبسوهم يوم السبت؛ لأنهم قد أمنوا أن يقاتلوهم فيه، فأبوا أن يجيبوه إلى واحدة من هذه الخصال الثلاث، وحينئذ قال سيدهم كعب بن أسد - فى انزعاج وغضب: ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازمًا.

ولم يبق لقريظة بعد رد هذه الخصال الثلاث إلا أن ينزلوا على حكم رسول الله ﷺ،

---

(١) مجردة من أغمادها.

ولكنهم أرادوا أن يتصلوا ببعض حلفائهم من المسلمين، لعلهم يتعرفون ماذا سيحل بهم إذا نزلوا على حكمه، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ أن أرسل إلينا أبا لُبَابة نستشيره، وكان حليفًا لهم، وكانت أمواله وولده فى منطقتهم، فلما رأوه قام إليه الرجال، وجَهَشَ[1] النساء والصبيان يبكون فى وجهه، فَرَقَّ لهم، وقالوا: يا أبا لبابة، أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال: نعم ؛ وأشار بيده إلى حلقه، يقول: إنه الذبح، ثم علم من فوره أنه خان الله ورسوله فمضى على وجهه، ولم يرجع إلى رسول الله ﷺ حتى أتى المسجد النبوى بالمدينة، فربط نفسه بسارية المسجد، وحلف ألا يحله إلا رسول الله ﷺ بيده، وأنه لا يدخل أرض بنى قريظة أبدًا. فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره - وكان قد استبطأه - قال: «**أما إنه لو جاءنى لاستغفرت له، أما إذ قد فعل ما فعل فما أنا بالذى أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه**».

وبرغم ما أشار إليه أبو لبابة قررت قريظة النزول على حكم رسول الله ﷺ، ولقد كان باستطاعة اليهود أن يتحملوا الحصار الطويل ؛ لتوفر المواد الغذائية والمياه والآبار ومناعة الحصون؛ ولأن المسلمين كانوا يقاسون البرد القارس والجوع الشديد وهم فى العراء، مع شدة التعب الذى اعتراهم ؛ لمواصلة الأعمال الحربية من قبل بداية معركة الأحزاب، إلا أن حرب قريظة كانت حرب أعصاب، فقد قذف الله فى قلوبهم الرعب، وأخذت معنوياتهم تنهار، وبلغ هذا الانهيار إلى نهايته أن تقدم على بن أبى طالب والزبير بن العوام، وصاح على: يا كتيبة الإيمان، والله لأذوقن ما ذاق حمزة أو لأفتحن حصنهم.

وحينئذ بادروا إلى النزول على حكم رسول الله ﷺ، وأمر رسول الله ﷺ باعتقال الرجال، فوضعت القيود فى أيديهم تحت إشراف محمد بن مسلمة الأنصارى، وجعلت النساء والذرارى بمعزل عن الرجال فى ناحية، وقامت الأوس إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، قد فعلت فى بنى قينقاع ما قد علمت، وهم حلفاء إخواننا الخزرج، وهؤلاء موالينا، فأحسن فيهم، فقال: «**ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم؟**» قالوا: بلى. قال: «**فذاك إلى سعد بن معاذ**». قالوا: قد رضينا.

فأرسل إلى سعد بن معاذ، وكان فى المدينة لم يخرج معهم للجرح الذى كان قد أصاب أَكْحُلَه فى معركة الأحزاب. فأُركب حمارًا، وجاء إلى رسول الله ﷺ، فجعلوا يقولون، وهم كَنَفَيْهِ: يا سعد، أجمل فى مواليك، فأحسن فيهم، فإن رسول الله قد حكمك لتحسن فيهم، وهو ساكت لا يرجع إليهم شيئًا، فلما أكثروا عليه قال: لقد آن لسعد ألا تأخذه فى الله لومة

---

(١) تهيأ.

لائم، فلما سمعوا ذلك منه رجع بعضهم إلى المدينة فنعى إليهم القوم.

ولما انتهى سعد إلى النبى ﷺ قال للصحابة: «**قوموا إلى سيدكم**»، فلما أنزلوه قالوا: يا سعد، إن هؤلاء قد نزلوا على حكمك. قال: وحكمى نافذ عليهم؟ قالوا: نعم. قال: وعلى المسلمين؟ قالوا: نعم، قال: وعلى من هاهنا؟ وأعرض بوجهه وأشار إلى ناحية رسول الله ﷺ إجلالًا له وتعظيمًا. قال: «**نعم، وعلىّ**». قال: فإنى أحكم فيهم أن يقتل الرجال، وتسبى الذرية، وتقسم الأموال، فقال رسول الله ﷺ: «**لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات**».

وكان حكم سعد فى غاية العدل والإنصاف، فإن بنى قريظة، بالإضافة إلى ما ارتكبوا من الغدر الشنيع، كانوا قد جمعوا لإبادة المسلمين ألفًا وخمسمائة سيف، وألفين من الرماح، وثلاثمائة درع، وخمسمائة ترس، وحَجَفَة[1]، حصل عليها المسلمون بعد فتح ديارهم.

وأمر رسول الله ﷺ فحبست بنو قريظة فى دار بنت الحارث امرأة من بنى النجار، وحفرت لهم خنادق فى سوق المدينة، ثم أمر بهم، فجعل يذهب بهم إلى الخنادق أرسالًا أرسالًا، وتضرب فى تلك الخنادق أعناقهم. فقال من كان بعد فى الحبس لرئيسهم كعب بن أسد: ما تراه يصنع بنا؟ فقال: أفى كل موطن لا تعقلون؟ أما ترون الداعى لا ينزع؟ والذاهب منكم لا يرجع؟ هو والله القتل - وكانوا ما بين الستمائة إلى السبعمائة، فضربت أعناقهم.

وهكذا تم استئصال أفاعى الغدر والخيانة، الذين كانوا قد نقضوا الميثاق المؤكد، وعاونوا الأحزاب على إبادة المسلمين فى أحرج ساعة كانوا يمرون بها فى حياتهم، وكانوا قد صاروا بعملهم هذا من أكابر مجرمى الحروب الذين يستحقون المحاكمة والإعدام.

وقتل مع هؤلاء شيطان بنى النضير، وأحد أكابر مجرمى معركة الأحزاب حيى ابن أخطب والد صفية أم المؤمنين رضي الله عنها، كان قد دخل مع بنى قريظة فى حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان ؛ وفاء لكعب بن أسد بما كان عاهده عليه حينما جاء يثيره على الغدر والخيانة أيام غزوة الأحزاب، فلما أتى به - وعليه حُلَّة قد شقها من كل ناحية بقدر أنملة لئلا يُسْلَبَها - مجموعة يداه إلى عنقه بحبل، قال لرسول الله ﷺ: أما والله ما لمت نفسى فى معاداتك، ولكن من يُغالب الله يُغْلَب. ثم قال: أيها الناس، لا بأس بأمر الله، كتاب وقَدَر ومَلْحَمَة كتبها الله على بنى إسرائيل، ثم جلس، فضربت عنقه.

---

(١) ترس من جلد.

وقتل من نسائهم امرأة واحدة كانت قد طرحت الرحى على خَلَّاد بن سُوَيْد فقتلته، فقتلت لأجل ذلك.

وكان قد أمر رسول الله بقتل من أنْبَتَ، وترك من لم ينبت، فكان ممن لم ينبت عطية القُرَظِى، فترك حيًّا فأسلم، وله صحبة.

واستوهب ثابت بن قيس الزبير بن باطا وأهله وماله - وكانت للزبير يد عند ثابت - فوهبهم له رسول الله ﷺ، فقال له ثابت بن قيس: قد وهبك رسول الله ﷺ إلى، ووهب لى مالك وأهلك فهم لك. فقال الزبير بعد أن علم بمقتل قومه: سألتك بيدى عندك يا ثابت إلا ألحقتنى بالأحبة، فضرب عنقه، وألحقه بالأحبة من اليهود، واستحيا ثابت من ولد الزبير بن باطا عبد الرحمن بن الزبير، فأسلم وله صحبة.

واستوهبت أم المنذر سلمى بنت قيس النجارية رفاعة بن سموأل القرظى، فوهبه لها فاستحيته، فأسلم وله صحبة.

وأسلم منهم تلك الليلة نفر قبل النزول، فحقنوا دماءهم وأموالهم وذراريهم.

وخرج تلك الليلة عمرو بن سعدى - وكان رجلًا لم يدخل مع بنى قريظة فى غدرهم برسول الله ﷺ - فرآه محمد بن مسلمة قائد الحرس النبوى، فخلى سبيله حين عرفه، فلم يعلم أين ذهب.

وقسم رسول الله ﷺ أموال بنى قريظة بعد أن أخرج منها الخمس، فأسهم للفارس ثلاثة أسهم؛ سهمان للفرس وسهم للفارس، وأسهم للراجل سهمًا واحدًا، وبعث من السبايا إلى نجد تحت إشراف سعد بن زيد الأنصارى فابتاع بها خيلًا وسلاحًا.

واصطفى رسول الله ﷺ لنفسه من نسائهم رَيْحَانة بنت عمرو بن خُنَافة، فكانت عنده حتى توفى عنها وهى فى ملكه، هذا ما قاله ابن إسحاق[(١)]. وقال الكلبى: إنه ﷺ أعتقها، وتزوجها سنة ٦ هـ، وماتت مرجعه من حجة الوداع، فدفنها بالبقيع[(٢)].

ولما تم أمر قريظة أجيبت دعوة العبد الصالح سعد بن معاذ رضي الله عنه - التى قدمنا ذكرها فى غزوة الأحزاب - وكان النبى ﷺ قد ضرب له خيمة فى المسجد ليعوده من قريب، فلما تم أمر قريظة انتقضت جراحته. قالت عائشة: فانفجرت من لَبَّتِهِ فلم يَرُعْهُمْ - وفى المسجد خيمة من بنى غفار - إلا والدم يسيل إليهم، فقالوا: يا أهل الخيمة، ما هذا الذى يأتينا من

(١) انظر: ابن هشام ٢/ ٢٤٥.
(٢) تلقيح فهوم أهل الأثر، ص ١٢.

قبلكم، فإذا سعد يغذو جرحه دمًا، فمات منها[(١)].

وفى الصحيحين عن جابر أن رسول الله ﷺ قال: «**اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ**». وصحح الترمذى من حديث أنس قال: لما حملت جنازة سعد بن معاذ[(٢)] قال المنافقون: ما أخف جنازته، فقال رسول الله ﷺ: «**إن الملائكة كانت تحمله**»[(٣)].

قتل فى حصار بنى قريظة رجل واحد من المسلمين، وهو خلاد بن سُوَيْد الذى طرحت عليه الرحى امرأة من قريظة. ومات فى الحصار أبو سِنان بن مِحْصَن أخو عُكَّاشَة.

وأما أبو لُبابة، فأقام مرتبطًا بالجذع ست ليال، تأتيه امرأته فى وقت كل صلاة فتحله للصلاة، ثم يعود فيرتبط بالجذع، ثم نزلت توبته على رسول الله ﷺ سَحَرًا وهو فى بيت أم سلمة، فقامت على باب حجرتها، وقالت: يا أبا لبابة، أبشر فقد تاب الله عليك، فثار الناس ليطلقوه، فأبى أن يطلقه أحد إلا رسول الله ﷺ، فلما مر النبى ﷺ خارجًا إلى صلاة الصبح أطلقه.

وقعت هذه الغزوة فى ذى القعدة سنة ٥هـ، ودام الحصار خمسًا وعشرين ليلة[(٤)].

وأنزل الله تعالى فى غزوة الأحزاب وبنى قريظة آيات من سورة الأحزاب، ذكر فيها أهم جزئيات الوقعة، وبين حال المؤمنين والمنافقين، ثم تخذيل الأحزاب، ونتائج الغدر من أهل الكتاب.

---

(١) صحيح البخارى ٢/ ٥٩١ واللَّبَّة: موضع القلادة من الصدر. ويرعهم: يفزعهم.

(٢) صحيح البخارى ١/ ٥٣٦ وصحيح مسلم ٣/ ٢٩٤، وجامع الترمذى ٢/ ٢٢٥.

(٣) جامع الترمذى ٢/ ٥٢٢.

(٤) ابن هشام ٢/ ٢٣٧، ٢٣٨، وانظر لتفصيل هذه الغزوة: المصدر المذكور ٢/ ٢٣٢- ٢٧٣، وصحيح البخارى ٢ / ٥٩٠،٥٩١، وزاد المعاد ٣/ ٧٢-٧٤.

النشاط العسكرى بعد هذه الغزوة

مقتل سَلَّام بن أبى الحُقَيْق:

كان سلام بن أبى الحقيق - وكنيته أبو رافع - من أكابر مجرمى اليهود الذين حزبوا الأحزاب ضد المسلمين، وأعانهم بالمؤن والأموال الكثيرة[١]، وكان يؤذى رسول الله ﷺ، فلما فرغ المسلمون من أمر قريظة استأذنت الخزرج رسول الله ﷺ فى قتله. وكان قتل كعب بن الأشرف على أيدى رجال من الأوس، فرغبت الخزرج فى إحراز فضيلة مثل فضيلتهم، فلذلك أسرعوا إلى هذا الاستئذان.

وأذن رسول الله فى قتله ونهى عن قتل النساء والصبيان، فخرجت مفرزة قوامها خمسة رجال، كلهم من بنى سلمة من الخزرج، قائدهم عبد الله بن عَتِيك.

خرجت هذه المفرزة، واتجهت نحو خيبر ؛ إذ كان هناك حصن أبى رافع، فلما دنوا منه، وقد غربت الشمس، وراح الناس بسرحهم، قال عبد الله بن عتيك لأصحابه: اجلسوا مكانكم، فإنى منطلق ومتلطف للبواب، لعلى أن أدخل، فأقبل حتى دنا من الباب، ثم تقنع بثوبه كأنه يقضى حاجته، وقد دخل الناس، فهتف به البواب: يا عبد الله، إن كنت تريد أن تدخل فادخل، فإنى أريد أن أغلق الباب.

قال عبد الله بن عَتِيك: فدخلت فكمنت، فلما دخل الناس أغلق الباب، ثم علق الأغاليق على وَدٍّ[٢]. قال: فقمت إلى الأقاليد فأخذتها، ففتحت الباب، وكان أبو رافع يسمر عنده، وكان فى علالى له، فلما ذهب عنه أهل سمره صعدت إليه، فجعلت كلما فتحت بابًا أغلقت علىّ من داخل. قلت: إن القوم لو نَذِروا بى لم يخلصوا إلى حتى أقتله، فانتهيت إليه، فإذا هو فى بيت مظلم وسط عياله، لا أدرى أين هو من البيت. قلت: أبا رافع، قال: من هذا؟ فأهويت نحو الصوت فأضربه ضربة بالسيف وأنا دهش، فما أغنيت شيئًا، وصاح، فخرجت من البيت، فأمكث غير بعيد، ثم دخلت إليه، فقلت: ما هذا الصوت يا أبا رافع؟ فقال: لأمك الويل، إن رجلًا فى البيت ضربنى قبل بالسيف. قال: فأضربه ضربة أثخنته ولم أقتله. ثم وضعت ضَبِيب السيف[٣] فى بطنه حتى أخذ فى ظهره، فعرفت أنى قتلته، فجعلت

---

(١) انظر: فتح البارى ٧/ ٣٤٣.

(٢) أى: علق المفاتيح على وتد.

(٣) حدّه.

أفتح الأبواب بابًا بابًا، حتى انتهيت إلى درجة له، فوضعت رجلى، وأنا أرى أنى قد انتهيت إلى الأرض، فوقعت فى ليلة مقمرة، فانكسرت ساقى، فعصبتها بعمامة، ثم انطلقت حتى جلست على الباب. فقلت: لا أخرج الليلة حتى أعلم أقتلته؟ فلما صاح الديك قام الناعى على السور، فقال: أنعى أبا رافع تاجر أهل الحجاز، فانطلقت إلى أصحابى فقلت: النجاء، فقد قتل الله أبا رافع. فانتهيت إلى النبى ﷺ، فحدثته فقال: «**ابسط رجلك**»، فبسطت رجلى فمسحها، فكأنما لم أشتكها[١].

هذه رواية البخارى، وعند ابن إسحاق أن جميع النفر دخلوا على أبى رافع واشتركوا فى قتله، وأن الذى تحامل عليه بالسيف حتى قتله هو عبد الله بن أنيس، وفيه: أنهم لما قتلوه ليلًا، وانكسرت ساق عبد الله بن عتيك حملوه، وأتوا مَنْهَرًا[٢] من عيونهم فدخلوا فيه، وأوقد اليهود النيران واشتدوا فى كل وجه، حتى إذا يئسوا رجعوا إلى صاحبهم، وأنهم حين رجعوا احتملوا عبد الله بن عتيك حتى قدموا على رسول الله ﷺ[٣].

كان مبعث هذه السرية فى ذى القعدة أو ذى الحجة سنة ٥ هـ[٤].

ولما فرغ رسول الله ﷺ من الأحزاب وقريظة أخذ يوجه حملات تأديبية إلى القبائل والأعراب، الذين لم يكونوا يستكينون للأمن والسلام إلا بالقوة القاهرة.

سرية محمد بن مسلمة:

وكانت أول سرية بعد الفراغ من الأحزاب وقريظة، وكان عدد قوات هذه السرية ثلاثين راكبًا.

تحركت هذه السرية إلى القرطاء بناحية ضَرِيَّة بالبَكَرات من أرض نجد، وبين ضرية والمدينة سبع ليال، تحركت لعشر ليال خلون من المحرم سنة ٦ هـ إلى بطن بنى بكر بن كلاب. فلما أغارت عليهم هربوا، فاستاق المسلمون نعما وشاء، وقدموا المدينة لليلة بقيت من المحرم ومعهم ثُمَامَة بن أثال الحنفى سيد بنى حنيفة، كان قد خرج متنكرًا لاغتيال النبى ﷺ بأمر مسيلمة الكذاب[٥]، فأخذه المسلمون، فلما جاءوا به ربطوه بسارية من سوارى المسجد، فخرج إليه النبى ﷺ فقال: «**ما ذا عندك يا ثمامة؟**» فقال: عندى خير يا

---

(١) صحيح البخارى ٢/ ٥٧٧.

(٢) شق فى الحصن يجرى منه الماء.

(٣) ابن هشام ٢/ ٢٧٤، ٢٧٥.

(٤) رحمة للعالمين ٢/ ٢٢٣، مع مايؤخد من المصادر الأخرى المذكورة فى غزوة الأحزاب وقريظة.

(٥) السيرة الحلبية ٢/ ٢٩٧.

محمد، إن تقتل تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فَسَلْ تعط منه ماشئت، فتركه، ثم مرّ به مرة أخرى ؛ فقال له مثل ذلك، فرد عليه كما رد عليه أولًا، ثم مر مرة ثالثة فقال - بعد ما دار بينهما الكلام السابق: «**أطلقوا ثمامة**»، فأطلقوه، فذهب إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل، ثم جاءه فأسلم، وقال: والله، ما كان على وجه الأرض وجه أبغض إلى من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلى، والله ما كان على وجه الأرض دين أبغض إلى من دينك، فقد أصبح دينك أحب الأديان إلى، وإن خيلك أخذتنى وأنا أريد العمرة، فبشره رسول الله ﷺ، وأمره أن يعتمر، فلما قدم على قريش قالوا: صبأت يا ثمامة، قال: لا والله، ولكنى أسلمت مع محمد ﷺ، ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ. وكانت يمامة ريف مكة، فانصرف إلى بلاده، ومنع الحمل إلى مكة، حتى جهدت قريش، وكتبوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه بأرحامهم أن يكتب إلى ثمامة يخلى إليه حمل الطعام، ففعل رسول الله ﷺ[1].

غزوة بنى لَحْيَان:

بنو لحيان هم الذين كانوا قد غدروا بعشرة من أصحاب رسول الله ﷺ بالرَّجِيع، وتسببوا فى إعدامهم، ولكن لما كانت ديارهم متوغلة فى الحجاز إلى حدود مكة، والتارات الشديدة قائمة بين المسلمين وقريش والأعراب، لم يكن يرى رسول الله ﷺ أن يتوغل فى البلاد بمقربة من العدو الأكبر، فلما تخاذلت الأحزاب، واستوهنت عزائمهم، واستكانوا للظروف الراهنة إلى حد ما، رأى أن الوقت قد آن لأن يأخذ من بنى لحيان ثأر أصحابه المقتولين بالرجيع، فخرج إليهم فى ربيع الأول أو جمادى الأولى سنة ٦ هـ فى مائتين من أصحابه، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، وأظهر أنه يريد الشام، ثم أسرع السير حتى انتهى إلى بطن غُرَان - واد بين أَمَجَ وعُسْفَان - حيث كان مصاب أصحابه، فترحم عليهم ودعا لهم، وسمعت به بنو لحيان فهربوا فى رءوس الجبال، فلم يقدر منهم على أحد، فأقام يومين بأرضهم، وبعث السرايا، فلم يقدروا عليهم، فسار إلى عسفان، فبعث عشرة فوارس إلى كُرَاع الغَمِيم لتسمع به قريش، ثم رجع إلى المدينة. وكانت غيبته عنها أربع عشرة ليلة.

متابعة البعوث والسرايا:

ثم تابع رسول الله ﷺ فى إرسال البعوث والسرايا، وهاك صورة مصغرة منها:

---

(١) زاد المعاد ٢/ ١١٩، وصحيح البخارى، ح (٤٣٧٢) وغيره، وفتح البارى ٧/ ٦٨٨.

١ - سرية عُكَّاشَة بن مِحْصَن إلى الغَمْر فى ربيع الأول أو الآخر سنة ٦ هـ. خرج عكاشة فى أربعين رجلًا إلى الغمْر، ماء لبنى أسد، ففر القوم، وأصاب المسلمون مائتى بعير ساقوها إلى المدينة.

٢ - سرية محمد بن مَسْلَمَة إلى ذى القَصَّة فى ربيع الأول أو الآخر سنة ٦ هـ. خرج ابن مسلمة فى عشرة رجال إلى ذى القصة فى ديار بنى ثعلبة، فكمن القوم لهم - وهم مائة - فلما ناموا قتلوهم إلا ابن مسلمة فإنه أفلت منهم جريحًا.

٣ - سرية أبى عبيدة بن الجراح إلى ذى القصة فى ربيع الآخر سنة ٦هـ، وقد بعثه النبى ﷺ على إثر مقتل أصحاب محمد بن مسلمة، فخرج ومعه أربعون رجلًا إلى مصارعهم، فساروا ليلتهم مشاة، ووافوا بنى ثعلبة مع الصبح فأغاروا عليهم، فأعجزوهم هربًا فى الجبال، وأصابوا رجلًا واحدًا فأسلم، وغنموا نَعَما وشاء.

٤ - سرية زيد بن حارثة إلى الجَمُوم فى ربيع الآخر سنة ٦ هـ - والجموم ماء لبنى سليم فى مَرِّ الظَّهْرَان - خرج إليهم زيد فأصاب امرأة من مُزَيْنَة يقال لها: حليمة، فدلتهم على محلة من بنى سليم أصابوا فيها نعما وشاء وأسرى، فلما قفل زيد بما أصاب وهب رسول الله ﷺ للمزينية نفسها وزوجها.

٥ - سرية زيد إلى العِيص فى جمادى الأولى سنة ٦ هـ فى سبعين ومائة راكب، وفيها أخذت أموال عير لقريش كان قائدها أبو العاص خَتَن رسول الله ﷺ. وأفلت أبو العاص، فأتى زينب فاستجار بها، وسألها أن تطلب من رسول الله ﷺ رد أموال العير عليه ففعلت، وأشار رسول الله ﷺ على الناس برد الأموال من غير أن يكرههم، فردوا الكثير والقليل والكبير والصغير حتى رجع أبو العاص إلى مكة، وأدى الودائع إلى أهلها، ثم أسلم وهاجر، فرد عليه رسول الله ﷺ زينب بالنكاح الأول بعد ثلاث سنين ونيف، كما ثبت فى الحديث الصحيح[1] ردها بالنكاح الأول؛ لأن آية تحريم المسلمات على الكفار لم تكن نزلت إذ ذاك، وأما ما ورد من الحديث من أنه رد عليه بنكاح جديد، أو رد عليه بعد ست سنين فلا يصح معنى، كما أنه ليس بصحيح سندًا[2]. والعجب ممن يتمسكون بهذا الحديث الضعيف فإنهم يقولون: إن أبا العاص أسلم فى أواخر سنة ثمان قبيل الفتح. ثم يناقضون أنفسهم، فيقولون: إن زينب ماتت فى أوائل سنة ثمان، وقد بسطنا الكلام شيئًا فى تعليقنا

(١) انظر: سنن أبى داود مع شرحه عون المعبود: باب إلى متى ترد عليه امرأته إذا أسلم بعدها؟.

(٢) انظر الكلام على الحديثين فى: تحفة الأحوذى ٢/ ١٩٥، ١٩٦.

على بلوغ المرام[1]. وجنح موسى بن عقبة إلى أن هذا الحادث وقع فى سنة ٧هـ من قبل أبى بصير وأصحابه، ولكن ذلك لا يطابق الحديث الصحيح ولا الضعيف.

٦ - سرية زيد أيضًا إلى الطَّرِف أو الطَّرِق فى جمادى الآخر سنة ٦ هـ. خرج زيد فى خمسة عشر رجلًا إلى بنى ثعلبة فهربت الأعراب، وخافوا أن يكون رسول الله ﷺ سار إليهم، فأصاب من نَعَمِهِم عشرين بعيرًا، وغاب أربع ليال.

٧ - سرية زيد أيضًا إلى وادى القرى فى رجب سنة ٦ هـ. خرج زيد فى اثنى عشر رجلًا إلى وادى القرى؛ لاستكشاف حركات العدو إن كانت هناك، فهجم عليهم سكان وادى القرى ؛ فقتلوا تسعة، وأفلتت ثلاثة فيهم زيد بن حارثة[2].

٨ - سرية الخَبَط - تذكر هذه السرية فى رجب سنة ٨هـ، ولكن السياق يدل على أنها كانت قبل الحديبية - قال جابر: بعثنا النبى ﷺ فى ثلاثمائة راكب، أميرنا أبو عبيدة بن الجراح، نرصد عيرًا لقريش، فأصابنا جوع شديد حتى أكلنا الخبط، فسمى جيش الخبط، فنحر رجل ثلاث جزائر، ثم نحر ثلاث جزائر، ثم نحر ثلاث جزائر، ثم إن أبا عبيدة نهاه، فألقى إلينا البحر دابة يقال لها: العَنْبَر، فأكلنا منه نصف شهر، وادَّهَنَّا منه حتى ثابت منه أجسامنا، وصلحت، وأخذ أبو عبيدة ضلعًا من أضلاعه، فنظر إلى أطول رجل فى الجيش وأطول جمل، فحمل عليه، ومر تحته، وتزودنا من لحمه وَشَائِق، فلما قدمنا المدينة، أتينا رسول الله ﷺ فذكرنا له ذلك، فقال: «**هو رزق أخرجه الله لكم، فهل معكم من لحمه شىء تطعمونا؟**» فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه[3].

وإنما قلنا: إن سياق هذه السرية يدل على أنها كانت قبل الحديبية؛ لأن المسلمين لم يكونوا يتعرضون لعير قريش بعد صلح الحديبية.

---

(١) وممن ذكر هذه السرية فى حوادث سنة ٦ هـ ابن حجر فى فتح البارى ٧/ ٤٩٨.

(٢) رحمة للعالمين ٢/ ٢٢٦، وانظر لهذه السرايا المصدر المذكور، وزاد المعاد ٢/ ١٢٠- ١٢٢، وحواشى تلقيح فهوم أهل الأثر، ص ٢٨، ٢٩.

(٣) صحيح البخارى ٢/ ٦٢٥، ٦٢٦، وصحيح مسلم ٢/ ١٤٥، ١٤٦.

غزوة بنى المُصطلق أو غزوة المريسيع
(فى شعبان سنة ٥ أو ٦ هـ)

وهذه الغزوة وإن لم تكن طويلة الذيل، عريضة الأطراف من حيث الوجهة العسكرية، إلا أنها وقعت فيها وقائع أحدثت البلبلة والاضطراب فى المجتمع الإسلامى، وتمخضت عن افتضاح المنافقين، والتشريعات التعزيرية التى أعطت المجتمع الإسلامى صورة خاصة من النبل والكرامة وطهارة النفوس. ونسرد الغزوة أولًا، ثم نذكر تلك الوقائع.

كانت هذه الغزوة فى شعبان سنة خمس عند عامة أهل المغازى، وسنة ست على قول ابن إسحاق[1].

وسببها: أنه بلغه ﷺ أن رئيس بنى المصطلق الحارث بن أبى ضِرَار سار فى قومه ومن قدر عليه من العرب يريدون حرب رسول الله ﷺ، فبعث بُرَيْدَة بن الحصيب الأسلمى لتحقيق الخبر، فأتاهم، ولقى الحارث بن أبى ضرار وكلمه، ورجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر.

وبعد أن تأكد لديه ﷺ صحة الخبر ندب الصحابة، وأسرع فى الخروج، وكان خروجه لليلتين خلتا من شعبان، وخرج معه جماعة من المنافقين لم يخرجوا فى غزاة قبلها، واستعمل على المدينة زيد ابن حارثة، وقيل: أبا ذر، وقيل: نُمَيْلَة بن عبد الله الليثى، وكان الحارث ابن أبى ضرار قد وجه عينًا؛ ليأتيه بخبر الجيش الإسلامى، فألقى المسلمون عليه القبض وقتلوه.

---

(١) واستدل على ذلك بما ثبت فى حديث الإفك من أن القضية كانت بعد ما أنزل الحجاب، وآية الحجاب نزلت فى شأن زينب، وزينب إذ ذاك كانت تحته، فإنه ﷺ سألها عن عائشة فقالت: أحمى سمعى وبصرى، قالت عائشة: وهى التى كانت تسامينى من أزواج النبى ﷺ، وقد عقد عليها النبى ﷺ فى أواخر سنة خمس بعد غزوة بنى قريظة، وأما ما وقع فى حديث الإفك من أن سعد بن معاذ وسعد بن عبادة تسارعا فى أعقاب الإفك، ومعلوم أن سعد ابن معاذ مات عقب غزوة بنى قريظة، فالظاهر أن هذا وهم من الراوى، فقد روى ابن إسحاق حديث الإفك عن الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن عائشة، فلم يذكر فيه سعد بن معاذ، بل ذكر أسيد بن حضير، قال أبو محمد ابن حزم: وهذا هو الصحيح الذى لا شك فيه، وذكر سعد بن معاذ وَهْم (وانظر: زاد المعاد ٢/ ١١٥).

أما الذين قالوا بوقوع هذه الغزوة سنة ٥ هـ فقد قدموا عقده ﷺ على زينب إلى السنة الرابعة أو أوائل السنة الخامسة، وقالوا: إن ذكر سعد بن معاذ ليس بوهم، بل هو ثابت تمامًا، والله أعلم.

ولما بلغ الحارث بن أبى ضرار ومن معه مسير رسول الله ﷺ وقتله عينه، خافوا خوفًا شديدًا وتفرق عنهم من كان معهم من العرب، وانتهى رسول الله ﷺ إلى المُرَيْسِيع - بالضم فالفتح مصغرًا، اسم لماء من مياههم فى ناحية قُدَيْد إلى الساحل - فتهيأوا للقتال. وَصَفَّ رسول الله ﷺ أصحابه، وراية المهاجرين مع أبى بكر الصديق، وراية الأنصار مع سعد بن عبادة، فتراموا بالنبل ساعة، ثم أمر رسول الله ﷺ فحملوا حملة رجل واحد، فكانت النصرة وانهزم المشركون، وقتل من قتل، وسبى رسول الله ﷺ النساء والذرارى والنعم والشاء، ولم يقتل من المسلمين إلا رجل واحد، قتله رجل من الأنصار ظنًا منه أنه من العدو.

كذا قال أهل المغازى والسير، قال ابن القيم: هو وَهْم، فإنه لم يكن بينهم قتال، وإنما أغار عليهم على الماء فسبى ذراريهم وأموالهم، كما فى الصحيح أغار رسول ﷺ على بنى المصطلق وهم غارون، وذكر الحديث[(١)]. انتهى.

وكان من جملة السبى: جُوَيْرِيَة بنت الحارث سيد القوم، وقعت فى سهم ثابت ابن قيس، فكاتبها، فأدى عنها رسول الله ﷺ وتزوجها، فأعتق المسلمون بسبب هذا التزويج مائة أهل بيت من بنى المصطلق قد أسلموا، وقالوا: أصهار رسول الله ﷺ[(٢)].

وأما الوقائع التى حدثت فى هذه الغزوة، فلأجل أن مبعثها كان هو رأس النفاق عبد الله بن أبى وأصحابه، نرى أن نورد أولًا شيئًا من أفعالهم فى المجتمع الإسلامى.

دور المنافقين قبل غزوة بنى المصطلق:

قدمنا مرارًا أن عبد الله بن أبى كان يَحْنَقُ على الإسلام والمسلمين، ولاسيما على رسول الله ﷺ حَنَقًا شديدًا ؛ لأن الأوس والخزرج كانوا قد اتفقوا على سيادته، وكانوا ينظمون له الخَرَزَ ليتوجوه، إذ دخل فيهم الإسلام، فصرفهم عن ابن أبى، فكان يرى أن رسول الله ﷺ هو الذى استلبه ملكه.

وقد ظهر حنقه هذا وتحرقه منذ بداية الهجرة قبل أن يتظاهر بالإسلام، وبعد أن تظاهر به. ركب رسول الله ﷺ مرة على حمار ليعود سعد بن عبادة، فمر بمجلس فيه عبد الله بن أبى فخَمَّرَ ابن أبى أنفه، وقال: لا تُغَبِّرُوا علينا[(٣)]. ولما تلا رسول الله ﷺ على المجلس

---

(١) انظر: صحيح البخارى: كتاب العتق ١/ ٣٤٥، وانظر أيضًا: فتح البارى ٥/ ٢٠٢ و ٧/ ٤٣١.

(٢) زاد المعاد ٢/ ١١٢، ١١٣، وابن هشام ٢/ ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩٤، ٢٩٥.

(٣) لا تثيروا علينا الغبار.

القرآن، قال: اجلس فى بيتك، ولا تؤذنا فى مجالسنا[1].

وهذا قبل أن يتظاهر بالإسلام، ولما تظاهر به بعد بدر لم يزل إلا عدوًّا لله ولرسوله وللمؤمنين، ولم يكن يفكر إلا فى تشتيت المجتمع الإسلامى وتوهين كلمة الإسلام. وكان يوالى أعداءه، وقد تدخل فى أمر بنى قينقاع كما ذكرنا، وكذلك جاء فى غزوة أحد من الشر والغدر والتفريق بين المسلمين، وإثارة الارتباك والفوضى فى صفوفهم بما مضى.

وكان من شدة مكر هذا المنافق وخداعه بالمؤمنين أنه كان بعد التظاهر بالإسلام، يقوم كل جمعة حين يجلس رسول الله ﷺ للخطبة، فيقول: هذا رسول الله ﷺ بين أظهركم، أكرمكم الله وأعزكم به، فانصروه وعزروه، واسمعوا له وأطيعوا، ثم يجلس، فيقوم رسول الله ﷺ ويخطب. وكان من وقاحة هذا المنافق أنه قام فى يوم الجمعة التى بعد أحد - مع ما ارتكبه من الشر والغدر الشنيع - قام ليقول ما كان يقوله من قبل، فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه، وقالوا له: اجلس أى عدو الله، لست لذلك بأهل وقد صنعت ما صنعت، فخرج يتخطى رقاب الناس، وهو يقول: والله لكأنما قلت بُجْرًا أن قمت أشدد أمره، فلقيه رجل من الأنصار بباب المسجد... فقال: ويلك، ارجع يستغفر لك رسول الله ﷺ، قال: والله ما أبتغى أن يستغفر لى[2].

وكانت له اتصالات ببنى النضير يؤامر معهم ضد المسلمين حتى قال لهم: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ [الحشر: ١١].

وكذلك فعل هو وأصحابه فى غزوة الأحزاب من إثارة القلق والاضطراب وإلقاء الرعب والدهشة فى قلوب المؤمنين ما قصه الله تعالى فى سورة الأحزاب: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ إلى قوله: ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾ [الأحزاب].

بيد أن جميع أعداء الإسلام من اليهود والمنافقين والمشركين كانوا يعرفون جيدًا أن سبب غلبة الإسلام ليس هو التفوق المادى وكثرة السلاح والجيوش والعدد، وإنما السبب هى القيم والأخلاق والمثل التى يتمتع بها المجتمع الإسلامى وكل من يمت بصلة إلى هذا

---

(١) ابن هشام ١/ ٥٨٤، ٥٨٧، وصحيح البخارى ٢/ ٩٢٤، وصحيح مسلم ٢/ ١٠٩.

(٢) ابن هشام ٢/ ١٠٥. والبُجر: الشرّ.

الدين، وكانوا يعرفون أن منبع هذا الفيض إنما هو رسول الله ﷺ الذى هو المثل الأعلى - إلى حد الإعجاز - لهذه القيم، كما عرفوا بعد إدارة دفة الحروب طيلة خمس سنين، أن القضاء على هذا الدين وأهله لا يمكن عن طريق استخدام السلاح، فقرروا أن يشنوا حربًا دعائية واسعة ضد الدين من ناحية الأخلاق والتقاليد، وأن يجعلوا شخصية الرسول ﷺ أول هدف لهذه الدعاية الكاذبة الخاطئة. ولما كان المنافقون هم الطابور الخامس فى صفوف المسلمين، ولكونهم سكان المدينة، كان يمكن لهم الاتصال بالمسلمين واستفزاز مشاعرهم كل حين. تحمل فريضة الدعاية هؤلاء المنافقون، وعلى رأسهم ابن أبى.

وقد ظهرت خطتهم هذه جلية حينما تزوج رسول الله ﷺ بأم المؤمنين زينب بنت جحش، بعد أن طلقها زيد بن حارثة، فقد كان من تقاليد العرب أنهم كانوا يعتبرون المتبنى مثل الابن الصلبى، فكانوا يعتقدون حرمة حليلة المتبنى على الرجل الذى تبناه، فلما تزوج النبى ﷺ بزينب وجد المنافقون ثُلْمَتَيْن - حسب زعمهم - لإثارة المشاغب ضد النبى ﷺ.

الأولى: أن زوجته هذه كانت زوجة خامسة، والقرآن لم يكن أذن فى الزواج بأكثر من أربع نسوة، فكيف صح له هذا الزواج؟

الثانية: أن زينب كانت زوجة ابنه - مُتَبَنَّاه - فالزواج بها من أكبر الكبائر، حسب تقاليد العرب. وأكثروا من الدعاية فى هذا السبيل، واختلقوا قصصًا وأساطير، قالوا: إن محمدًا رآها بغتة، فتأثر بحسنها وشغفته حبًّا، وعلقت بقلبه، وعلم بذلك ابنه زيد فخلى سبيلها لمحمد، وقد نشروا هذه الدعاية المختلقة نشرًا بقيت آثاره فى كتب التفسير والحديث إلى هذا الزمان، وقد أثرت تلك الدعاية أثرًا قويًّا فى صفوف الضعفاء حتى نزل القرآن بالآيات البينات فيها شفاء لما فى الصدور، وينبئ عن سعة نشر هذه الدعاية أن الله استفتح سورة الأحزاب بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾﴾ [الأحزاب].

وهذه إشارات عابرة، وصور مصغرة لما اقترفه المنافقون قبل غزوة بنى المصطلق، وكان النبى ﷺ يكابد كل ذلك بالصبر واللين والتلطف، وكان عامة المسلمين يحترزون عن شرهم، أو يتحملونه بالصبر ؛ إذ كانوا قد عرفوهم بافتضاحهم مرة بعد أخرى حسب قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ [التوبة].

دور المنافقين فى غزوة بنى المصطلق:

ولما كانت غزوة بنى المصطلق وخرج فيها المنافقون مثلوا قوله تعالى: ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ ﴾ [التوبة: ٤٧]،فقد وجدوا متنفسين للتنفس بالشر، فأثاروا الارتباك الشديد فى صفوف المسلمين، والدعاية الشنيعة ضد النبى ﷺ، وهاك بعض التفصيل عنها:

١ - قول المنافقين: «لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل»:

كان رسول الله ﷺ بعد الفراغ من الغزوة مقيمًا على المُرَيْسِيع، ووردت واردة الناس، ومع عمر بن الخطاب أجير يقال له: جَهْجَاه الغفارى، فازدحم هو وسِنَان بن وَبَر الجهنى على الماء فاقتتلا، فصرخ الجهنى: يا معشر الأنصار، وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين، فقال رسول الله ﷺ: «**أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟ دعوها فإنها مُنْتِنَة**»، وبلغ ذلك عبد الله ابن أبى ابن سلول فغضب - وعنده رهط من قومه، فيهم زيد بن أرقم غلام حدث - وقال: أو قد فعلوها، قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا، والله ما نحن وهم إلا كما قال الأول: سَمِّنْ كَلْبَكَ يَأْكُلْكَ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، ثم أقبل على من حضره فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم.

فأخبر زيد بن أرقم عمه بالخبر، فأخبر عمه رسول الله ﷺ وعنده عمر، فقال عمر: مُرْ عَبَّاد ابن بشر فليقتله. فقال: «**فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه؟ لا ولكن أَذِّنْ بالرحيل**»، وذلك فى ساعة لم يكن يرتحل فيها، فارتحل الناس، فلقيه أسيد بن حضير فحياه، وقال: لقد رحت فى ساعة منكرة؟ فقال له: «**أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟**» يريد ابن أبى، فقال: وما قال؟ قال: «**زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل**»، قال: فأنت يا رسول الله، تخرجه منها إن شئت، هو والله الذليل وأنت العزيز، ثم قال: يا رسول الله، ارفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك، وإن قومه لينظمون له الخَرَز ليتوجوه، فإنه يرى أنك استلبته ملكًا.

ثم مشى بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصَدْر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مَسَّ الأرض فوقعوا نيامًا. فعل ذلك ليشغل الناس عن الحديث.

أما ابن أبى فلما علم أن زيد بن أرقم بلَّغ الخبر جاء إلى رسول الله ﷺ، وحلف بالله ما

قلت ما قال، ولا تكلمت به، فقال من حضر من الأنصار: يا رسول الله، عسى أن يكون الغلام قد أوهم فى حديثه، ولم يحفظ ما قال الرجل. فصدقه، قال زيد: فأصابنى هَمٌّ لم يصبنى مثله قط، فجلست فى بيتى، فأنزل الله: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ إلى قوله: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾ إلى ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ١ – ٨]، فأرسل إلى رسول الله ﷺ فقرأها علىّ. ثم قال: «**إن الله قد صدقك**»[(١)].

وكان ابن هذا المنافق – وهو عبد الله بن عبد الله بن أبى – رجلًا صالحًا من الصحابة الأخيار، فتبرأ من أبيه، ووقف له على باب المدينة، واستل سيفه، فلما جاء ابن أبى قال له: والله لا تجوز من هاهنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ، فإنه العزيز وأنت الذليل، فلما جاء النبى ﷺ أذن له فخلى سبيله، وكان قد قال عبد الله بن عبد الله بن أبى: يا رسول الله، إن أردت قتله فمرنى بذلك، فأنا والله أحمل إليك رأسه[(٢)].

٢ – حديث الإفك:

وفى هذه الغزوة كانت قصة الإفك، وملخصها: أن عائشة رضي الله عنها كانت قد خرج بها رسول الله ﷺ معه فى هذه الغزوة بقرعة أصابتها، وكانت تلك عادته مع نسائه، فلما رجعوا من الغزوة نزلوا فى بعض المنازل، فخرجت عائشة لحاجتها، ففقدت عقدًا لأختها كانت أعارتها إياه، فرجعت تلتمسه فى الموضع الذى فقدته فيه فى وقتها، فجاء النفر الذين كانوا يرحلون هَوْدَجَها فظنوها فيه فحملوا الهودج، ولا ينكرون خِفَّتَه؛ لأنها رضي الله عنها كانت فَتِيَّةَ السن لم يَغْشَهَا اللحم الذى كان يثقلها، وأيضًا فإن النفر لما تساعدوا على حمل الهودج لم ينكروا خفته، ولو كان الذى حمله واحدًا أو اثنين لم يخف عليهما الحال، فرجعت عائشة إلى منازلهم، وقد أصابت العقد، فإذا ليس به داع ولا مجيب، فقعدت فى المنزل، وظنت أنهم سيفقدونها فيرجعون فى طلبها، والله غالب على أمره، يدبر الأمر من فوق عرشه كما يشاء، فغلبتها عيناها، فنامت، فلم تستيقظ إلا بقول صفوان ابن المُعَطَّل: إنا لله وإنا إليه راجعون، زوجة رسول الله ﷺ؟ وكان صفوان قد عَرَس فى أخريات الجيش ؛ لأنه كان كثير النوم، فلما رآها عرفها، وكان يراها قبل نزول الحجاب، فاسترجع وأناخ راحلته، فقربها إليها، فركبتها، وما كلمها كلمة واحدة، ولم تسمع منه إلا استرجاعه، ثم سار بها يقودها، حتى

(١) انظر: صحيح البخارى ١/ ٤٩٩، ٢/ ٧٢٧– ٧٢٩، وصحيح مسلم، ح (٢٥٨٤)، والترمذى، ح (٣٣١٢)، وابن هشام ٢/ ٢٩٠– ٢٩٢.

(٢) ابن هشام ٢/ ٢٩٢، ومختصر السيرة للشيخ عبد الله، ص ٢٧٧.

قدم بها، وقد نزل الجيش فى نحر الظهيرة، فلما رأى ذلك الناس تكلم كل منهم بشاكلته، وما يليق به، ووجد الخبيث عدو الله ابن أبى متنفسًا، فتنفس من كرب النفاق والحسد الذى بين ضلوعه، فجعل يستحكى الإفك، ويستوشيه، ويشيعه، ويذيعه، ويجمعه ويفرقه، وكان أصحابه يتقربون به إليه، فلما قدموا المدينة أفاض أهل الإفك فى الحديث، ورسول الله ﷺ ساكت لايتكلم، ثم استشار أصحابه - لما استلبث الوحى طويلًا - فى فراقها، فأشار عليه على ﷺ أن يفارقها، ويأخذ غيرها، تلويحًا لاتصريحًا، وأشار عليه أسامة وغيره بإمساكها، وألا يلتفت إلى كلام الأعداء. فقام على المنبر يستعذر من عبد الله بن أبى، فأظهر أسيد بن حضير سيد الأوس رغبته فى قتله فأخذت سعد بن عبادة - سيد الخزرج، وهى قبيلة ابن أبى - الحمية القبلية، فجرى بينهما كلام تثاور له الحيان، فخفضهم رسول الله ﷺ حتى سكتوا وسكت.

أما عائشة فلما رجعت مرضت شهرًا، وهى لاتعلم عن حديث الإفك شيئًا، سوى أنها كانت لا تعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذى كانت تعرفه حين تشتكى، فلما نَقِهَتْ خرجت مع أم مِسْطَح إلى البَرَاز ليلًا، فعثرت أم مسطح فى مِرْطِها، فدعت على ابنها، فاستنكرت ذلك عائشة منها، فأخبرتها الخبر، فرجعت عائشة واستأذنت رسول الله ﷺ؛ لتأتى أبويها وتستيقن الخبر، ثم أتتهما بعد الإذن حتى عرفت جلية الأمر، فجعلت تبكى، فبكت ليلتين ويومًا، لم تكن تكتحل بنوم، ولا يرقأ لها دمع، حتى ظنت أن البكاء فالق كبدها، وجاء رسول الله ﷺ فى ذلك، فتشهد وقال: «**أما بعد يا عائشة، فإنه قد بلغنى عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه، ثم تاب إلى الله تاب الله عليه**».

وحينئذ قَلَص دمعها، وقالت لكل من أبويها أن يجيبا، فلم يدريا ما يقولان. فقالت: والله لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر فى أنفسكم، وصدقتم به، فلئن قلت لكم: إنى بريئة - والله يعلم أنى بريئة - لا تصدقوننى بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر - والله يعلم أنى منه بريئة - لَتُصَدِّقُنِّى، والله ما أجد لى ولكم مثلًا إلا قول أبى يوسف، قال: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [يوسف].

ثم تحولت واضطجعت، ونزل الوحى ساعته، فَسُرِّى عن رسول الله ﷺ وهو يضحك. فكانت أول كلمة تكلم بها: «**يا عائشة، أما الله فقد برأك**»، فقالت لها أمها: قومى إليه.. فقالت عائشة - إدلالًا ببراءة ساحتها، وثقة بمحبة رسول الله ﷺ: والله لا أقوم إليه،

ولا أحمد إلا الله.

والذى أنزله الله بشأن الإفك هو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ...﴾ [النور: ١١: ٢٠]. العشر الآيات.

وجُلِد من أهل الإفك مِسْطَح بن أثاثة، وحسان بن ثابت، وحَمْنَة بنت جحش، جلدوا ثمانين ثمانين، ولم يُحَدّ الخبيث عبد الله بن أبى مع أنه رأس أهل الإفك، والذى تولى كبره ؛ إما لأن الحدود تخفيف لأهلها، وقد وعده الله بالعذاب العظيم فى الآخرة، وإما للمصلحة التى ترك لأجلها قتله[(١)].

وهكذا وبعد شهر أقشعت سحابة الشك والارتياب والقلق والاضطراب عن جو المدينة، وافتضح رأس المنافقين افتضاحًا لم يستطع أن يرفع رأسه بعد ذلك، قال ابن إسحاق: وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه. فقال رسول الله ﷺ لعمر: «**كيف ترى يا عمر؟ أما والله لوقتلته يوم قلت لى: اقتله، لأرعدت له آنف، ولو أمرتها اليوم بقتله لقتلته**». قال عمر: قد والله علمتُ، لأمْر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمرى[(٢)].

(١) صحيح البخارى ١/ ٣٦٤ و٢/ ٦٩٦- ٦٩٨، وزاد المعاد ٢/ ١١٣- ١١٥، وابن هشام ٢/ ٢٩٧- ٣٠٧.

(٢) ابن هشام ٢/ ٢٩٣.

البعوث والسرايا
بعد غزوة المُرَيْسِيع

١ - سرية عبد الرحمن بن عوف إلى ديار بنى كلب بدَوْمَة الجَنْدَل:

فى شعبان سنة ٦ هـ. أقعده رسول الله ﷺ بين يديه وعممه بيده، وأوصاه بأحسن الأمور فى الحرب، وقال له: «**إن أطاعوك فتزوج ابنة ملكهم**»، فمكث عبد الرحمن بن عوف ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام، فأسلم القوم وتزوج عبد الرحمن تُمَاضِر بنت الأصبغ، وهى أم أبى سلمة، وكان أبوها رأسهم وملكهم.

٢ - سرية على بن أبى طالب إلى بنى سعد بن بكر بفَدَك:

فى شعبان سنة ٦ هـ. وذلك أنه بلغ رسول الله ﷺ أن بها جمعًا يريدون أن يمدوا اليهود. فبعث إليهم عليًّا فى مائتى رجل، وكان يسير الليل ويكمن النهار، فأصاب عينًا لهم، فأقر أنهم بعثوه إلى خيبر يعرضون عليهم نصرتهم على أن يجعلوا لهم تمر خيبر. ودل العين على موضع تجمع بنى سعد، فأغار عليهم على، فأخذ خمسمائة بعير وألفى شاة، وهربت بنو سعد بالظُّعنُ، وكان رئيسهم وَبَر بن عُلَيْم.

٣ - سرية أبى بكر الصديق أو زيد بن حارثة إلى وادى القرى:

فى رمضان سنة ٦هـ. كان بطن من فَزَارة يريد اغتيال النبى ﷺ، فبعث رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق. قال سَلَمَة بن الأكْوَع: وخرجت معه حتى إذا صلينا الصبح أمرنا فشننا الغارة، فوردنا الماء، فقتل أبو بكر من قتل، ورأيت طائفة وفيهم الذرارى، فخشيت أن يسبقونى إلى الجبل فأدركتهم، ورميت بسهم بينهم وبين الجبل، فلما رأوا السهم وقفوا، وفيهم امرأة هى أم قِرْفَة، عليها قَشْعٌ من أدِيم، معها ابنتها من أحسن العرب، فجئت بهم أسوقهم إلى أبى بكر، فنفلنى أبو بكر ابنتها، فلم أكشف لها ثوبا، وقد سأله رسول الله ﷺ بنت أم قِرْفَة، فبعث بها إلى مكة، وفدى بها أسرى من المسلمين هناك[1].

وكانت أم قرفة شيطانة تحاول اغتيال النبى ﷺ، وجهزت ثلاثين فارسًا من أهل بيتها لذلك، فلاقت جزاءها، وقتل الثلاثون.

---

(١) انظر: صحيح مسلم ٢/ ٨٩، ويقال: إن هذه السرية كانت سنة سبع.

٤ - سرية كُرْز بن جابر الفهرى[١] إلى العُرَنِيِّين:

فى شوال سنة ٦هـ. وذلك أن رهطًا من عُكَل وعُرَينَة أظهروا الإسلام، وأقاموا بالمدينة فاستوخموها، فبعثهم رسول الله ﷺ فى ذود فى المراعى، وأمرهم أن يشربوا من ألبانها وأبوالها، فلما صحوا قتلوا راعى رسول الله ﷺ، واستاقوا الإبل، وكفروا بعد إسلامهم، فبعث فى طلبهم كرزًا الفهرى فى عشرين من الصحابة، ودعا على العرنيين: «**اللهم أعم عليهم الطريق، واجعلها عليهم أضيق من مَسَك**»، فعمى الله عليهم السبيل فأدركوا، فقطعت أيديهم وأرجلهم، وسَمُلَتْ أعينهم، جزاء وقصاصًا بما فعلوا، ثم تركوا فى ناحية الحرة حتى ماتوا[٢]، وحديثهم فى الصحيح عن أنس[٣].

ويذكر أهل السير بعد ذلك سرية عمرو بن أمية الضَّمْرِى مع سلمة بن أبى سلمة، فى شوال سنة ٦ هـ: أنه ذهب إلى مكة لاغتيال أبى سفيان ؛ لأن أبا سفيان كان أرسل أعرابيًا لاغتيال النبي ﷺ، بيد أن المبعوثين لم ينجحا فى الاغتيال، لاهذا، ولا ذاك. ويذكرون أن عمرا قتل فى الطريق ثلاثة رجال، ويقولون: إن عمرا أخذ جثة الشهيد خُبَيْب فى هذا السفر، والمعروف أن خبيبًا استشهد بعد الرَّجِيع بأيام أو أشهر، ووقعة الرجيع كانت فى صفر سنة ٤هـ، فلا أدرى هل اختلط السفران على أهل السير، أو كان الأمران فى سفر واحد فى السنة الرابعة، وقد أنكر العلامة المنصورفورى أن تكون هذه السرية سرية حرب أو مناوشة. والله أعلم.

هذه هى السرايا والغزوات بعد الأحزاب، وبنى قريظة، لم يجر فى واحدة منها قتال مرير، وإنما وقعت فيها وقعت مصادمة خفيفة، فليست هذه البعوث إلا دوريات استطلاعية، أو تحركات تأديبية ؛ لإرهاب الأعراب والأعداء الذين لم يستكينوا بعد. ويظهر بعد التأمل فى الظروف أن مجرى الأيام كان قد أخذ فى التطور بعد غزوة الأحزاب، وأن أعداء الإسلام كانت معنوياتهم فى انهيار متواصل، ولم يكن بقى لهم أمل فى نجاح كسر الدعوة الإسلامية وخَضْد شوكتها، إلا أن هذا التطور ظهر جليًا بصلح الحديبية، فلم تكن الهدنة إلا الاعتراف بقوة الإسلام، والتسجيل على بقائها فى ربوع الجزيرة العربية.

---

(١) هذا هو الذى كان قد أغار على سرح المدينة قبل بدر فى غزوة سَفَوان، ثم أسلم وقتل شهيدًا يوم فتح مكة.

(٢) زاد المعاد ٢/ ١٢٢. والمَسَك: الأسورة.

(٣) صحيح البخارى ٢/ ٦٠٢.

عمرة الحديبية
فى ذى القعدة سنة ٦ هـ

سبب عمرة الحديبية:

ولما تطورت الظروف فى الجزيرة العربية إلى حد كبير لصالح المسلمين، أخذت طلائع الفتح الأعظم ونجاح الدعوة الإسلامية تبدو شيئًا فشيئًا، وبدأت التمهيدات لإقرار حق المسلمين فى أداء عبادتهم فى المسجد الحرام، الذى كان قد صد عنه المشركون منذ ستة أعوام.

أرى رسول الله ﷺ فى المنام، وهو بالمدينة، أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام، وأخذ مفتاح الكعبة، وطافوا واعتمروا، وحلق بعضهم وقصر بعضهم، فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا، وحسبوا أنهم داخلو مكة عامهم ذلك، وأخبر أصحابه أنه معتمر فتجهزوا للسفر.

استنفار المسلمين:

واستنفر العرب ومن حوله من أهل البوادى ليخرجوا معه، فأبطأ كثير من الأعراب، أما هو فغسل ثيابه، وركب ناقته القَصْواء، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم أو نُمَيْلَة الليثى. وخرج منها يوم الإثنين غرة ذى القعدة سنة ٦ هـ، ومعه زوجته أم سلمة، فى ألف وأربعمائة، ويقال: ألف وخمسمائة، ولم يخرج معه بسلاح، إلا سلاح المسافر: السيوف فى القُرُب.

المسلمون يتحركون إلى مكة:

وتحرك فى اتجاه مكة، فلما كان بذى الحُلَيْفَة قَلَّد الهدى وأشْعَرَه، وأحرم بالعمرة؛ ليأمن الناس من حربه، وبعث بين يديه عينًا له من خزاعة يخبره عن قريش، حتى إذا كان قريبًا من عُسْفَان أتاه عينه، فقال: إنى تركت كعب بن لؤى قد جمعوا لك الأحابيش(١)، وجمعوا لك جموعًا، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت، واستشار النبى ﷺ أصحابه، وقال: «**أترون**

---

(١) هم عرب من بطون بنى كنانة وغيرهم، وليسوا من الحبشة، كما يتبادر من اللفظ، منسوبون إلى حُبْشِى - بضم فسكون فشين معجمة مكسورة فياء مشددة- جبل بأسفل مكة بنعمان الأراك، بينه وبين مكة ستة أميال، اجتمع بذنبه بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة، وبنو المصطلق والحيا ابن سعد ابن عمر، وبنو الهون بن خزيمة فحالفوا قريشًا، وتحالفوا بالله: إنا ليد واحدة على غيرنا ما سجا ليل ووضح نهار، وما رسا حبشى مكانه، فسموا أحابيش قريش باسم الجبل. (معجم البلدان ٢ / ٢١٤، والمنمق) ص ٢٧٥) .

نميل إلى ذرارى هؤلاء الذين أعانوهم فنصيبهم؟ فإن قعدوا قعدوا موتورين محزونين، وإن نجوا يكن عنق قطعها الله، أم تريدون أن نؤم هذا البيت فمن صدنا عنه قاتلناه؟» فقال أبو بكر: الله ورسوله أعلم، إنما جئنا معتمرين، ولم نجئ لقتال أحد، ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه، فقال النبى ﷺ: «**فروحوا**»، فراحوا.

محاولة قريش صد المسلمين عن البيت:

وكانت قريش لما سمعت بخروج النبى ﷺ عقدت مجلسًا استشاريًا قررت فيه صد المسلمين عن البيت كيفما يمكن، فبعد أن أعرض رسول الله ﷺ عن الأحابيش، نقل إليه رجل من بنى كعب أن قريشًا نازلة بذى طُوَى، وأن مائتى فارس فى قيادة خالد بن الوليد مرابطة بكُرَاع الغَمِيم فى الطريق الرئيسى الذى يوصل إلى مكة. وقد حاول خالد صد المسلمين، فقام بفرسانه إزاءهم يتراءى الجيشان. ورأى خالد المسلمين فى صلاة الظهر يركعون ويسجدون، فقال: لقد كانوا على غرة، لو كنا حملنا عليهم لأصبنا منهم، ثم قرر أن يميل على المسلمين - وهم فى صلاة العصر - ميلة واحدة، ولكن الله أنزل حكم صلاة الخوف، ففاتت الفرصة خالدًا.

تبديل الطريق ومحاولة اجتناب اللقاء الدامى:

وأخذ رسول الله ﷺ طريقًا وَعْرًا بين شعاب، وسلك بهم ذات اليمين بين ظهرى الحَمْض فى طريق تخرجه على ثنية المُرَار مهبط الحديبية من أسفل مكة، وترك الطريق الرئيسى الذى يفضى إلى الحرم مارًّا بالتنعيم، تركه إلى اليسار، فلما رأى خالد قَتَرَة[١] الجيش الإسلامى قد خالفوا عن طريقه انطلق يركض نذيرًا لقريش.

وسار رسول الله ﷺ حتى إذا كان بثنية المرار بركت راحلته، فقال الناس: حَلْ حَلْ، فألَحَّتْ[٢]، فقالوا: خلأت القصواء، فقال النبى ﷺ: «**ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل**»، ثم قال: «**والذى نفسى بيده، لا يسألونى خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها**»، ثم زجرها فوثبت به، فعدل حتى نزل بأقصى الحديبية، على ثَمَد[٣] قليل الماء، إنما يتبرضه[٤] الناس تبرضًا، فلم يلبث أن نزحوه. فشكوا

---

(١) غبار.

(٢) حلْ حَلْ: تقال زجرا للناقة، وألَحَّتْ الناقة وخلأت بمعنى: حَرُنت.

(٣) حوض.

(٤) يأخذون منه قليلا قليلا.

إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع سهماً من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالرى حتى صدروا.

بُدَيْل يتوسط بين رسول الله ﷺ وقريش:

ولما اطمأن رسول الله ﷺ جاء بديل بن وَرْقَاء الخزاعى فى نفر من خزاعة، وكانت خزاعة عَيْبَة نُصْح[١] لرسول الله ﷺ من أهل تُهَامَة، فقال: إنى تركت كعب بن لؤى، نزلوا أعداد مياه الحديبية، معهم العُوذ المطَافِيل[٢]، وهم مقاتلوك وصادّوك عن البيت. قال رسول الله ﷺ: «**إنا لم نجئ لقتال أحد، ولكنا جئنا معتمرين، وإن قريشًا قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم، فإن شاءوا ماددتهم، ويخلوا بينى وبين الناس، وإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جَمُّوا[٣]، وإن هم أبوا إلا القتال فوالذى نفسى بيده، لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى، أو لينفذن الله أمره**».

قال بديل: سأبلغهم ما تقول، فانطلق حتى أتى قريشًا، فقال: إنى قد جئتكم من عند هذا الرجل، وسمعته يقول قولا، فإن شئتم عرضته عليكم.

فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تحدثنا عنه بشيء. وقال ذوو الرأى منهم: هات ما سمعته. قال: سمعته يقول كذا وكذا، فبعثت قريش مِكْرَز بن حفص، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: هذا رجل غادر، فلما جاء وتكلم قال له مثل ما قال لبديل وأصحابه، فرجع إلى قريش وأخبرهم.

رسل قريش:

ثم قال رجل من كنانة - اسمه الحُلَيْس بن علقمة: دعونى آته. فقالوا: ائته، فلما أشرف على النبى ﷺ وأصحابه، قال رسول الله ﷺ: «**هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البدن، فابعثوها**»، فبعثوها له، واستقبله القوم يلبون، فلما رأى ذلك قال: سبحان الله! ما ينبغى لهؤلاء أن يصدوا عن البيت، فرجع إلى أصحابه فقال: رأيت البدن قد قلدت وأشعرت، وما أرى أن يصدوا، وجرى بينه وبين قريش كلام لم أحفظه.

فقال عروة بن مسعود الثقفى: إن هذا قد عرض عليكم خطة رُشْد فاقبلوها، ودعونى آته، فأتاه، فجعل يكلمه، فقال له النبى ﷺ نحوًا من قوله لبديل. فقال له عروة عند ذلك:

---

(١) أى: موضع سرّه.

(٢) العوذ: الإبل، والمطافيل: حديثة النتاج.

(٣) استراحوا.

أى محمد أرأيت لو استأصلت قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك، وإن تكن الأخرى فوالله إنى لا أرى وجوها، وإنى أرى أوباشا من الناس خليقًا أن يفروا ويدعوك، قال له أبو بكر: امصص بَظْر اللات، أنحن نفر عنه؟ قال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر، قال: أما والذى نفسى بيده، لولا يد كانت عندى لم أجْزِكَ بها لأجبتك. وجعل يكلم النبى ﷺ، وكلما كلمه أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة عند رأس النبى ﷺ، ومعه السيف وعليه المِغْفَرُ، فكلما أهوى عروة إلى لحية النبى ﷺ ضرب يده بنعل السيف، وقال: أخر يدك عن لحية رسول الله ﷺ، فرفع عروة رأسه، وقال: من ذا؟ قالوا: المغيرة بن شعبة، فقال: أى غُدَر، أو لستُ أسعى فى غَدْرَتِك؟ وكان المغيرة صَحِبَ قومًا فى الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبى ﷺ: «**أما الإسلام فأقبلُ، وأما المال فلست منه فى شيء**» «وكان المغيرة ابن أخى عروة».

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب رسول الله ﷺ وتعظيمهم له، فرجع إلى أصحابه، فقال: أى قوم، والله لقد وفدت على الملوك، على قيصر وكسرى والنجاشى، والله ما رأيت ملكًا يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدًا، والله إن تَنَخَّمَ نخامة إلا وقعت فى كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحِدُّون إليه النظر تعظيمًا له، وقد عرض عليكم خطة رُشْدٍ فاقبلوها.

هو الذى كف أيديهم عنكم:

ولما رأى شباب قريش الطائشون، الطامحون إلى الحرب، رغبة زعمائهم فى الصلح، فكروا فى خطة تحول بينهم وبين الصلح، فقرروا أن يخرجوا ليلًا، ويتسللوا إلى معسكر المسلمين، ويحدثوا أحداثًا تشعل نار الحرب، وفعلًا قد قاموا بتنفيذ هذا القرار، فقد خرج سبعون أو ثمانون منهم ليلًا فهبطوا من جبل التنعيم، وحاولوا التسلل إلى معسكر المسلمين، غير أن محمد بن مسلمة قائد الحرس اعتقلهم جميعًا.

ورغبة فى الصلح أطلق سراحهم النبى ﷺ وعفا عنهم، وفى ذلك أنزل الله: ﴿وَهُوَ الَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٢٤].

عثمان بن عفان سفيرًا إلى قريش:

وحينئذ أراد رسول الله ﷺ أن يبعث سفيرًا يؤكد لدى قريش موقفه وهدفه من هذا السفر، فدعا عمر بن الخطاب ليرسله إليهم، فاعتذر قائلًا: يا رسول الله، ليس لى أحد بمكة

من بنى عدى ابن كعب يغضب لى إن أوذيت، فأرسل عثمان بن عفان، فإن عشيرته بها، وإنه مبلغ ما أردت، فدعاه، وأرسله إلى قريش، وقال: أخبرهم أنا لم نأت لقتال، وإنما جئنا عمارًا، وادعهم إلى الإسلام، وأمره أن يأتى رجالًا بمكة مؤمنين، ونساء مؤمنات، فيبشرهم بالفتح، ويخبرهم أن الله عز وجل مظهر دينه بمكة، حتى لا يستخفى فيها أحد بالإيمان.

فانطلق عثمان حتى مر على قريش بِبَلْدَح، فقالوا: أين تريد؟ فقال: بعثنى رسول الله ﷺ بكذا وكذا، قالوا: قد سمعنا ما تقول، فانفذ لحاجتك، وقام إليه أبان بن سعيد بن العاص، فرحب به ثم أسرج فرسه، فحمل عثمان على الفرس، وأجاره وأردفه حتى جاء مكة، وبلغ الرسالة إلى زعماء قريش، فلما فرغ عرضوا عليه أن يطوف بالبيت، فرفض هذا العرض، وأبى أن يطوف حتى يطوف رسول الله ﷺ.

إشاعة مقتل عثمان وبيعة الرضوان:

واحتبسته قريش عندها - ولعلهم أرادوا أن يتشاوروا فيما بينهم فى الوضع الراهن، ويبرموا أمرهم، ثم يردوا عثمان بجواب ما جاء به من الرسالة - وطال الاحتباس، فشاع بين المسلمين أن عثمان قتل، فقال رسول الله ﷺ لما بلغته الإشاعة: «**لا نبرح حتى نناجز القوم**»، ثم دعا أصحابه إلى البيعة، فثاروا إليه يبايعونه على ألا يفروا، وبايعته جماعة على الموت، وأول من بايعه أبو سنان الأسدى، وبايعه سلمة بن الأكوع على الموت ثلاث مرات، فى أول الناس ووسطهم وآخرهم، وأخذ رسول الله ﷺ بيد نفسه وقال: «**هذه عن عثمان**». ولما تمت البيعة جاء عثمان فبايعه، ولم يتخلف عن هذه البيعة إلا رجل من المنافقين يقال له: جَدُّ بن قَيْس.

أخذ رسول الله ﷺ هذه البيعة تحت شجرة، وكان عمر آخذا بيده، ومَعْقِل بن يَسَار آخذا بغصن الشجرة يرفعه عن رسول الله ﷺ، وهذه هى بيعة الرضوان التى أنزل الله فيها: ﴿لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ الآية [الفتح: ١٨].

إبرام الصلح وبنوده:

وعرفت قريش ضيق الموقف، فأسرعت إلى بعث سُهَيْل بن عمرو لعقد الصلح، وأكدت له ألا يكون فى الصلح إلا أن يرجع عنا عامه هذا، لا تتحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبدًا، فأتاه سهيل بن عمرو، فلما رآه عليه السلام قال: «**قد سهل لكم أمركم**»، أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل، فجاء سهيل فتكلم طويلًا، ثم اتفقا على قواعد الصلح، وهى هذه:

١ - الرسول ﷺ يرجع من عامه، فلا يدخل مكة، وإذا كان العام القابل دخلها المسلمون فأقاموا بها ثلاثًا، معهم سلاح الراكب، السيوف فى القُرُب، ولا يتعرض لهم بأى نوع من أنواع التعرض.

٢- وضع الحرب بين الطرفين عشر سنين، يأمن فيها الناس، ويكف بعضهم عن بعض.

٣- من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه، وتعتبر القبيلة التى تنضم إلى أى الفريقين جزءًا من ذلك الفريق، فأى عدوان تتعرض له أى من هذه القبائل يعتبر عدوانًا على ذلك الفريق.

٤- من أتى محمدًا من قريش من غير إذن وليه - أى هاربًا منهم - رده عليهم، ومن جاء قريشًا ممن مع محمد - أى هاربًا منه - لم يرد عليه.

ثم دعا عليًّا ليكتب الكتاب، فأملى عليه: «**بسم الله الرحمن الرحيم**» فقال سهيل: أما الرحمن فوالله لا ندرى ما هو؟ ولكن اكتب: باسمك اللهم. فأمر النبى ﷺ بذلك. ثم أملى: «**هذا ما صالح عليه محمد رسول الله**» فقال سهيل: لو نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت، ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبد الله، فقال: «**إنى رسول الله وإن كذبتمونى**»، وأمر عليًّا أن يكتب: محمد ابن عبد الله، ويمحو لفظ «**رسول الله**»، فأبى على أن يمحو هذا اللفظ. فمحاه ﷺ بيده، ثم تمت كتابة الصحيفة، ولما تم الصلح دخلت خزاعة فى عهد رسول الله ﷺ - وكانوا حليف بنى هاشم منذ عهد عبد المطلب، كما قدمنا فى أوائل الكتاب، فكان دخولهم فى هذا العهد تأكيدًا لذلك الحلف القديم - ودخلت بنو بكر فى عهد قريش.

رد أبى جندل:

وبينما الكتاب يكتب إذ جاء أبو جَنْدَل بن سهيل يَرْسُفُ فى قيوده، قد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين ظهور المسلمين، فقال سهيل: هذا أول ما أقاضيك عليه على أن ترده، فقال النبى ﷺ: «**إنا لم نقض الكتاب بعد**».

فقال: فوالله إذا لا أقاضيك على شىء أبدًا. فقال النبى ﷺ: «**فأجزه لى**». قال: ما أنا بمجيزه لك. قال: «**بلى فافعل**»، قال: ما أنا بفاعل. وقد ضرب سهيل أبا جندل فى وجهه، وأخذ بتلابيبه وجره ؛ ليرده إلى المشركين، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أأرد إلى المشركين يفتنونى فى دينى؟ فقال رسول الله ﷺ: «**يا أبا جندل، اصبر**

واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجا، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحًا، وأعطيناهم على ذلك، وأعطونا عهد الله فلا نغدر بهم».

فوثب عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع أبى جندل يمشى إلى جنبه ويقول: اصبر يا أبا جندل، فإنما هم المشركون، وإنما دم أحدهم دم كلب، ويدنى قائم السيف منه، يقول عمر: رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه، فضن الرجل بأبيه، ونفذت القضية.

النَّحْر والحَلْق للحِلِّ عن العمرة:

ولما فرغ رسول الله ﷺ من قضية الكتاب قال: «**قوموا فانحروا**»، فوالله ما قام منهم أحد حتى قال ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد قام فدخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقى من الناس، فقالت: يا رسول الله، أتحب ذلك؟ اخرج، ثم لا تكلم أحدًا كلمة حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك، فقام فخرج فلم يكلم أحدًا منهم حتى فعل ذلك، نحر بُدْنَه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأى الناس ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضًا، حتى كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًّا، وكانوا نحروا البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة، ونحر رسول الله ﷺ جملًا كان لأبى جهل، كان فى أنفه بُرَةٌ [1] من فضة، ليغيظ به المشركين، ودعا رسول الله ﷺ للمحلقين ثلاثًا بالمغفرة وللمقصرين مرة. وفى هذا السفر أنزل الله فدية الأذى لمن حلق رأسه بالصيام أو الصدقة أو النسك، فى شأن كعب بن عُجْرَة.

الإباء عن رد المهاجرات:

ثم جاء نسوة مؤمنات، فسأل أولياؤهن أن يردهن عليهم بالعهد الذى تم فى الحديبية، فرفض طلبهم هذا ؛ بدليل أن الكلمة التى كتبت فى المعاهدة بصدد هذا البند هى: «**وعلى أنه لا يأتيك منا رجل، وإن كان على دينك إلا رددته علينا**»، فلم تدخل النساء فى العقد رأسًا. وأنزل الله فى ذلك: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾، حتى بلغ: ﴿بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: ١٠] فكان رسول الله ﷺ يمتحنهن بقوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ إلخ [الممتحنة: ١٢]، فمن أقرت بهذه الشروط قال لها: «**قد بايعتك**»، ثم لم يكن يردهن.

وطلق المسلمون زوجاتهم الكافرات بهذا الحكم. فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له فى الشرك، تزوج بإحداهما معاوية، وبالأخرى صفوان بن أمية.

---

(١) حلقة.

ماذا يتمخض عن بنود المعاهدة؟:

هذا هو صلح الحديبية، ومن سبر أغوار بنوده مع خلفياته لا يشك أنه فتح عظيم للمسلمين، فقريش لم تكن تعترف بالمسلمين أى اعتراف، بل كانت تهدف استئصال شأفتهم، وتنتظر أن تشهد يومًا ما نهايتهم، وكانت تحاول بأقصى قوتها الحيلولة بين الدعوة الإسلامية وبين الناس، بصفتها ممثلة الزعامة الدينية والصدارة الدنيوية فى جزيرة العرب، ومجرد الجنوح إلى الصلح اعتراف بقوة المسلمين، وأن قريشًا لا تقدر على مقاومتهم، ثم البند الثالث يدل بفحواه على أن قريشًا نسيت صدارتها الدنيوية وزعامتها الدينية، وأنها لاتهمها الآن إلا نفسها، أما سائر الناس وبقية جزيرة العرب فلو دخلت فى الإسلام بأجمعها، فلايهم ذلك قريشًا، ولا تتدخل فى ذلك بأى نوع من أنواع التدخل. أليس هذا فشلًا ذريعًا بالنسبة إلى قريش؟ وفتحا مبينًا بالنسبة إلى المسلمين؟ إن الحروب الدامية التى جرت بين المسلمين وبين أعدائهم لم تكن أهدافها - بالنسبة إلى المسلمين - مصادرة الأموال وإبادة الأرواح، وإفناء الناس، أو إكراه العدو على اعتناق الإسلام، وإنما كان الهدف الوحيد الذى يهدفه المسلمون من هذه الحروب هو الحرية الكاملة للناس فى العقيدة والدين ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]. لا يحول بينهم وبين ما يريدون أى قوة من القوات، وقدحصل هذا الهدف بجميع أجزائه ولوازمه، وبطريق ربما لا يحصل بمثله فى الحروب مع الفتح المبين، وقد كسب المسلمون لأجل هذه الحرية نجاحًا كبيرًا فى الدعوة، فبينما كان عدد المسلمين لا يزيد على ثلاثة آلاف قبل الهدنة صار عدد الجيش الإسلامى فى سنتين عند فتح مكة عشرة آلاف.

أما البند الثانى فهو جزء ثان لهذا الفتح المبين، فالمسلمون لم يكونوا بادئين بالحروب، وإنما بدأتها قريش، يقول الله تعالى: ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [التوبة: ١٣]، أما المسلمون فلم يكن المقصود من دورياتهم العسكرية إلا أن تفيق قريش عن غطرستها وصدها عن سبيل الله، وتعمل معهم بالمساواة، كل من الفريقين يعمل على شاكلته، فالعقد بوضع الحرب عشر سنين حد لهذه الغطرسة والصد، ودليل على فشل من بدأ بالحرب وعلى ضعفه وانهياره.

أما البند الأول فهو حد لصد قريش عن المسجد الحرام، فهو أيضًا فشل لقريش، وليس فيه ما يشفى قريشًا سوى أنها نجحت فى الصد لذلك العام الواحد فقط.

أعطت قريش هذه الخلال الثلاث للمسلمين، وحصلت بإزائها خلة واحدة فقط،

وهى ما فى البند الرابع، ولكن تلك الخلة تافهة جدًّا، ليس فيها شيء يضر بالمسلمين، فمعلوم أن المسلم ما دام مسلماً لا يفر عن الله ورسوله، وعن مدينة الإسلام، ولا يفر إلا إذا ارتد عن الإسلام ظاهرًا أو باطنًا، فإذا ارتد فلا حاجة إليه للمسلمين، وانفصاله من المجتمع الإسلامى خير من بقائه فيه، وهذا الذى أشار إليه رسول الله ﷺ بقوله: «**إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله**»[(١)]. وأما من أسلم من أهل مكة فهو وإن لم يبق للجوئه إلى المدينة سبيل لكن أرض الله واسعة، ألم تكن الحبشة واسعة للمسلمين حينما لم يكن يعرف أهل المدينة عن الإسلام شيئًا؟ وهذا الذى أشار إليه النبى بقوله: «**ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجًا ومخرجًا**»[(٢)].

والأخذ بمثل هذا الاحتفاظ، وإن كان مظهر الاعتزاز لقريش، لكنه فى الحقيقة ينبئ عن شدة انزعاج قريش وهلعهم وخَوَرِهم، وعن شدة خوفهم على كيانهم الوثنى، وكأنهم كانوا قد أحسوا أن كيانهم اليوم على شفا جُرُف هار لا بد له من الأخذ بمثل هذا الاحتفاظ. وما سمح به النبى ﷺ من أنه لا يسترد من فرّ إلى قريش من المسلمين، فليس هذا إلا دليلًا على أنه يعتمد على تثبيت كيانه وقوته كمال الاعتماد، ولا يخاف عليه من مثل هذا الشرط.

حزن المسلمين ومناقشة عمر النبى ﷺ:

هذه هى حقيقة بنود هذ الصلح، لكن هناك ظاهرتان عمت لأجلهما المسلمين كآبة وحزن شديد.

الأولى: أنه كان قد أخبرهم أنا سنأتى البيت فنطوف به، فما له يرجع ولم يطف به؟

الثانية: أنه رسول الله ﷺ وعلى الحق، والله وعد إظهار دينه، فما له قبل ضغط قريش، وأعطى الدَّنِيَّةَ فى الصلح؟

كانت هاتان الظاهرتان مثار الريب والشكوك والوساوس والظنون، وصارت مشاعر المسلمين لأجلهما جريحة، بحيث غلب الهم والحزن على التفكير فى عواقب بنود الصلح. ولعل أعظمهم حزنًا كان عمر بن الخطاب، فقد جاء إلى النبى ﷺ وقال: يا رسول الله، ألسنا على حق وهم على باطل؟ قال: «بلى». قال: أليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار؟ قال: «بلى». قال: ففيم نعطى الدنية فى ديننا، ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟ قال: «**يا ابن الخطاب، إنى رسول الله ولست أعصيه، وهو ناصرى ولن يضيعنى أبدًا**». قال: أوليس

(١،٢) صحيح مسلم: باب صلح الحديبية ٢/ ١٠٥.

كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت فنطوف به؟ قال: «**بلى، فأخبرتك أنا نأتيه العام؟**» قال: لا. قال: «**فإنك آتيه ومطوف به**».

ثم انطلق عمر متغيظا فأتى أبا بكر، فقال له كما قال لرسول الله ﷺ، ورد عليه أبو بكر، كما رد عليه رسول الله ﷺ سواء، وزاد: فاستمسك بغَرْزِه حتى تموت، فوالله إنه لعلى الحق.

ثم نزلت: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ إلخ [سورة الفتح]، فأرسل رسول الله إلى عمر فأقرأه إياه. فقال: يا رسول الله، أو فتح هو؟ قال: «**نعم**». فطابت نفسه ورجع.

ثم ندم عمر على ما فرط منه ندمًا شديدًا، قال عمر: فعملت لذلك أعمالًا، مازلت أتصدق وأصوم وأصلى وأعتق من الذى صنعت يومئذ، مخافة كلامى الذى تكلمت به، حتى رجوت أن يكون خيرًا(١).

انحلت أزمة المستضعفين:

ولما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، واطمأن بها، انفلت رجل من المسلمين، ممن كان يعذب فى مكة، وهو أبو بَصِير، رجل من ثقيف حليف لقريش، فأرسلوا فى طلبه رجلين، وقالوا للنبى ﷺ: العهد الذى جعلت لنا. فدفعه النبى ﷺ إلى الرجلين، فخرجا به حتى بلغا ذا الحُلَيْفَة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إنى لأرى سيفك هذا يا فلان جيدًا، فاستله الآخر فقال: أجل، والله إنه لجيد، لقد جَرَّبْتُ به ثم جَرَّبْتُ. فقال أبو بصير: أرنى أنظر إليه، فأمكنه منه، فضربه حتى برد.

وفر الآخر حتى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله ﷺ حين رآه: «**لقد رأى هذا ذعرًا**»، فلما انتهى إلى النبى ﷺ قال: قُتِل صاحبى، وإنى لمقتول، فجاء أبو بصير وقال: يا نبى الله، قد والله أَوْفَى الله ذمتك، قد رددتنى إليهم، ثم أنجانى الله منهم، قال رسول الله ﷺ: «**ويل أمه، مِسْعَر حَرْبٍ لو كان له أحد**»، فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سِيفَ(٢) البحر، وينفلت منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبى بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبى بصير، حتى اجتمعت

---

(١) انظر لتفصيل هذه الغزوة والصلح: فتح البارى ٧/ ٤٣٩ - ٤٥٨، وصحيح البخارى ١/ ٣٧٨-٣٨١، ٢/ ٥٩٨، ٦٠٠، ٧١٧، وصحيح مسلم ٢/ ١٠٤- ١٠٦، وابن هشام ٢/ ٣٠٨- ٣٢٢، وزاد المعاد ٢/ ١٢٢- ١٢٧، وتاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزى ص ٣٩، ٤٠.

(٢) ساحل.

منهم عصابة. فو الله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها، فقتلوهم وأخذوا أموالهم. فأرسلت قريش إلى النبى ﷺ تناشده الله والرحم لما أرسل، فمن أتاه فهو آمن، فأرسل النبى ﷺ إليهم، فقدموا عليه المدينة.

إسلام أبطال من قريش:

وفى سنة ٧ من الهجرة بعد هذا الصلح أسلم عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وعثمان ابن طلحة، ولما حضروا عند النبى ﷺ قال: «**إن مكة قد ألقت إلينا أفلاذ كبدها**»(١).

(١) اختلفوا كثيرًا فى تعيين السنة التى أسلم فيها هؤلاء الصحابة، وعامة كتب أسماء الرجال تصرح بأنها سنة ثمان، ولكن قصة إسلام عمرو بن العاص عند النجاشى معروفة، وأسلم خالد وطلحة حين رجع عمرو بن العاص من الحبشة، فإنه بعد الرجوع قصد المدينة فلقياه فى الطريق، وحضر الثلاثة عند النبى ﷺ وأسلموا، وهذا يقتضى أنهم أسلموا فى سنة سبع. والله أعلم.

المرحلة الثانية

طور جديد

إن صلح الحديبية كان بداية طور جديد فى حياة الإسلام والمسلمين، فقد كانت قريش أقوى قوة وأعندها وألدها فى عداء الإسلام، وبانسحابها عن ميدان الحرب إلى رحاب الأمن والسلام انكسر أقوى جناح من أجنحة الأحزاب الثلاثة - قريش وغَطَفَان واليهود - ولما كانت قريش ممثلة للوثنية، وزعيمتهم فى ربوع جزيرة العرب انخفضت حدة مشاعر الوثنيين، وانهارت نزعاتها العدائية إلى حد كبير، ولذلك لا نرى لغطفان استفزازًا كبيرًا بعد هذه الهدنة، وجل ما جاء منهم إنما جاء من قبل إغراء اليهود.

أما اليهود فكانوا قد جعلوا خيبر بعد جلائهم عن يثرب وكرا للدس والتآمر، وكانت شياطينهم تبيض هناك وتفرخ، وتؤجج نار الفتنة، وتغرى الأعراب الضاربة حول المدينة، وتبيت للقضاء على النبى ﷺ والمسلمين، أو لإلحاق الخسائر الفادحة بهم، ولذلك كان أول إقدام حاسم من النبى ﷺ بعد هذا الصلح هو شن الحرب الفاصلة على هذا الوكر.

ثم إن هذه المرحلة التى بدأت بعد الصلح أعطت المسلمين فرصة كبيرة لنشر الدعوة الإسلامية وإبلاغها، وقد تضاعف نشاط المسلمين فى هذا المجال، وبرز نشاطهم فى هذا الوجه على نشاطهم العسكرى ؛ ولذلك نرى أن نقسم هذه المرحلة إلى قسمين:

١ - النشاط فى مجال الدعوة، أو مكاتبة الملوك والأمراء.

٢ - النشاط العسكرى.

وقبل أن نتابع النشاط العسكرى فى هذه المرحلة، نتناول موضوع مكاتبة الملوك والأمراء ؛ إذ الدعوة الإسلامية هى المقدمة طبعًا، بل ذلك هو الهدف الذى عانى له المسلمون ما عانوه من المصائب والآلام، والحروب والفتن، والقلاقل والاضطرابات.

مكاتبة الملوك والأمراء

فى أواخر السنة السادسة حين رجع رسول الله ﷺ من الحديبية كتب إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام.

ولما أراد أن يكتب إلى هؤلاء الملوك قيل له: إنهم لا يقرءون كتابا إلا وعليه خاتم، فاتخذ النبى ﷺ خاتمًا من فضة، نقشه: محمد رسول الله ﷺ، وكان هذا النقش ثلاثة أسطر: محمد سطر، ورسول سطر، والله سطر، هكذا الله رسول محمد[1].

واختار من أصحابه رسلًا لهم معرفة وخبرة، وأرسلهم إلى الملوك، وقد جزم العلامة المنصورفورى أن النبى ﷺ أرسل هؤلاء الرسل غرة المحرم سنة سبع من الهجرة قبل الخروج إلى خيبر بأيام[2]. وفيما يلى نصوص هذه الكتب، وبعض ما تمخضت عنه.

١ - الكتاب إلى النجاشى ملك الحبشة:

وهذا النجاشى اسمه أَصْحَمَة بن الأبْجَر، كتب إليه النبى ﷺ مع عمرو بن أمية الضَّمْرِى فى آخر سنة ست أو فى المحرم سنة سبع من الهجرة. وقد ذكر الطبرى نص الكتاب، ولكن النظر الدقيق فى ذلك النص، يفيد أنه ليس بنص الكتاب الذى كتبه ﷺ بعد الحديبية، بل لعله نص كتاب بعثه مع جعفر حين خرج هو وأصحابه مهاجرين إلى الحبشة فى العهد المكى، فقد ورد فى آخر الكتاب ذكر هؤلاء المهاجرين بهذا اللفظ: «**وقد بعثت إليكم ابن عمى جعفرًا ومعه نفر من المسلمين، فإذا جاءك فأقرهم ودع التجبر**».

وروى البيهقى عن ابن إسحاق نص كتاب كتبه النبى ﷺ إلى النجاشى، وهو هذا:

«**بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد رسول الله إلى النجاشى، الأصحم عظيم الحبشة، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلاالله وحده لا شريك له، لم يتخذ صاحبه ولا ولدًا، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأدعوك بدعاية الإسلام، فإنى أنا رسوله فأسلم تسلم،** ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٦٤﴾[آل عمران] **فإن أبيت فعليك إثم النصارى من قومك**»[3].

---

(١) صحيح البخارى ٢/ ٨٧٢، ٨٧٣. (٢) رحمة للعالمين ١/ ١٧١.

(٣) دلائل النبوة للبيهقى ٢/ ٣٠٨، والمستدرك للحاكم ٢/ ٦٢٣.

وقد أورد المحقق الكبير الدكتور حميد الله – باريس – نص كتاب قد عثر عليه فى الماضى القريب – بمثل ما أورده ابن القيم مع الاختلاف فى كلمة فقط – وبذل الدكتور فى تحقيق ذلك النص جهدًا بليغًا، واستعان فى ذلك كثيرًا باكتشافات العصر الحديث، وأورد صورته فى الكتاب وهو هكذا:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى النجاشى عظيم الحبشة، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد:

فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى من روحه ونفخه، كما خلق آدم بيده، وإنى أدعو إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتبعنى، وتؤمن بالذى جاءنى، فإنى رسول الله ﷺ، وإنى أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل، وقد بلغت ونصحت، فاقبل نصيحتى، والسلام على من اتبع الهدى»[(١)].

وأكد الدكتور المحترم أن هذا هو نص الكتاب الذى كتبه النبى ﷺ إلى النجاشى بعد الحديبية، أما صحة هذا النص فلا شك فيها بعد النظر فى الدلائل، وأما أن هذا الكتاب هو الذى كتب بعد الحديبية فلا دليل عليه، والذى أورد البيهقى عن ابن إسحاق أشبه بالكتب التى كتبها النبى ﷺ إلى ملوك وأمراء النصارى بعد الحديبية، فإن فيه الآية الكريمة: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ﴾ إلخ، كما كان دأبه فى تلك الكتب، وقد ورد فيه اسم الأصحمة صريحًا، وأما النص الذى أورده الدكتور حميد الله، فالأغلب عندى أنه نص الكتاب الذى كتبه النبى ﷺ بعد موت أصحمة إلى خليفته، ولعل هذا هو السبب فى ترك الاسم.

وهذا الترتيب ليس عندى عليه دليل قطعى سوى الشهادات الداخلية التى تؤديها نصوص هذه الكتب. والعجب من الدكتور حميد الله أنه جزم بأن النص الذى أورده البيهقى عن ابن عباس هو نص الكتاب الذى كتبه النبى ﷺ بعد موت أصحمة إلى خليفته مع أن اسم أصحمة وارد فى هذا النص صريحًا، والعلم عند الله[(٢)].

ولما بلغ عمرو بن أمية الضمرى كتاب النبى ﷺ إلى النجاشى أخذه النجاشى،

---

(١) انظر: رسول أكرم كى سياسى زندكَس (بالأردو) ص ١٠٨، ١٠٩، ١٢٢– ١٢٥، وفى زاد المعاد: «أسلم أنت» بدل: «والسلام على من اتبع الهدى». انظر: زاد المعاد ٣/ ٦٠.

(٢) انظر لهذه المباحث: كتاب الدكتور حميد الله «رسول أكرم كى سياسى زندكَى» ص ١٠٨– ١١٤، ١٢١– ١٣١.

ووضعه على عينه، ونزل عن سريره على الأرض، وأسلم على يد جعفر بن أبى طالب، وكتب إلى النبى ﷺ بذلك، وهاك نصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم. إلى محمد رسول الله من النجاشى أصحمة، سلام عليك يا نبى الله من الله ورحمة الله وبركاته، الله الذى لا إله إلا هو، أما بعد:

فقد بلغنى كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى، فورب السماء والأرض إن عيسى لا يزيد على ما ذكرت تُفْرُوقا[١]، إنه كما قلت، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، وقد قرينا ابن عمك وأصحابك، فأشهد أنك رسول الله صادقًا مصدقًا، وقد بايعتك، وبايعت ابن عمك، وأسلمت على يديه لله رب العالمين»[٢].

وكان النبى ﷺ قد طلب من النجاشى أن يرسل جعفرًا ومن معه من مهاجرى الحبشة، فأرسلهم فى سفينتين مع عمرو بن أمية الضمرى، فقدم بهم على النبى ﷺ وهو بخيبر[٣].

وتوفى النجاشى هذا فى رجب سنة تسع من الهجرة بعد تبوك، ونعاه النبى ﷺ يوم وفاته، وصلى عليه صلاة الغائب، ولما مات وتخلف على عرشه ملك آخر كتب إليه النبى ﷺ كتابًا آخر، ولا يدرى هل أسلم أم لا؟[٤].

٢ - الكتاب إلى المقوقس ملك مصر:

وكتب النبى ﷺ إلى جُرَيْج بن مَتَّى[٥] الملقب بالمُقَوْقِس ملك مصر والإسكندرية:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم أهل القبط، ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ

---

(١) التُّفروق: قِمَع التمرة.

(٢) زاد المعاد ٣/ ٦١.

(٣) ابن هشام ٢/ ٣٥٩.

(٤) ربما يؤخذ هذا مما رواه مسلم عن أنس ٢/ ٩٩.

(٥) هذا على رأى العلامة المنصورفورى فى كتابه: رحمة للعالمين ١/ ١٧٨، وقال الدكتور حميد الله: «إن اسمه بنيامين». انظر: رسول أكرم كى سياسى زندكَى، ص ١٤١.

بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ [آل عمران]»[١].

واختار لحمل هذا الكتاب حاطب بن أبى بَلْتَعَة. فلما دخل حاطب على المقوقس قال له: إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى، فانتقم به ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك، ولا يعتبر غيرك بك.

فقال المقوقس: إن لنا دينا لن ندعه إلا لما هو خير منه.

فقال حاطب: ندعوك إلى دين الإسلام الكافى به الله فَقْدَ ما سِواه، إن هذا النبى دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش، وأعداهم له اليهود، وأقربهم منه النصارى، ولعمرى ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، فكل نبى أدرك قومًا فهم أمته، فالحق عليهم أن يطيعوه، وأنت ممن أدركه هذا النبى، ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكنا نأمرك به.

فقال المقوقس: إنى قد نظرت فى أمر هذا النبى، فوجدته لا يأمر بمزهود فيه. ولا ينهى عن مرغوب فيه، ولم أجده بالساحر الضال، ولا الكاهن الكاذب، ووجدت معه آية النبوة بإخراج الخبء والإخبار بالنجوى، وسأنظر.

وأخذ كتاب النبى ﷺ، فجعله فى حُقٍّ من عاج، وختم عليه، ودفعه إلى جارية له، ثم دعا كاتبًا له يكتب بالعربية، فكتب إلى رسول الله ﷺ:

«بسم الله الرحمن الرحيم. لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط، سلام عليك، أما بعد:

فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه، وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبيًّا بقى، وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك، وبعثت إليك بجاريتين، لهما مكان فى القبط عظيم، وبكسوة، وأهديت بغلة لتركبها، والسلام عليك».

ولم يزد على هذا ولم يسلم، والجاريتان مارية، وسيرين، والبغلة دُلْدُل، بقيت إلى زمن معاوية[٢]، واتخذ النبى ﷺ مارية سرية له، وهى التى ولدت له إبراهيم. وأما سيرين فأعطاها لحسان بن ثابت الأنصارى.

---

(١) هذا النص أورده ابن القيم فى زاد المعاد ٣/ ٦١، والذى أورده الدكتور حميد الله أخذا من صورة الكتاب الذى عثر عليه فى الماضى القريب يختلف بعض كلماته عن هذا النص، ففيه: «**فأسلم تسلم يؤتك الله...** » إلخ، وفيه: «**إثم القبط**» بدل قوله: «**إثم أهل القبط**». انظر: رسول أكرم كى سياسى زندكَى، ص ١٣٦، ١٣٧.

(٢) زاد المعاد ٣/ ٦١.

٣ - الكتاب إلى كسرى ملك فارس:

وكتب النبى ﷺ إلى كسرى ملك فارس:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأدعوك بدعاية الله، فإنى أنا رسول الله إلى الناس كافة، لينذر من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين، فأسلم تسلم، فإن أبيت فإن إثم المجوس عليك».

واختار لحمل هذا الكتاب عبد الله بن حذافة السهمى، فدفعه السهمى إلى عظيم البحرين، ولا ندرى هل بعث به عظيم البحرين رجلًا من رجالاته، أم بعث عبد الله السهمى؟، وأيًا ما كان فلما قرئ الكتاب على كسرى مزقه، وقال فى غطرسة: عبد حقير من رعيتى يكتب اسمه قبلى، ولما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال: «**مزق الله ملكه**»، وقد كان كما قال، فقد كتب كسرى إلى بَاذَان عامله على اليمن: ابعث إلى هذا الرجل الذى بالحجاز رجلين من عندك جلدين فليأتيانى به. فاختار باذان رجلين ممن عنده، أحدهما: قهرمانه بانويه، وكان حاسبًا كاتبًا بكتاب فارس. وثانيهما: خرخسرو من الفرس[1]، وبعثهما بكتاب إلى رسول الله ﷺ يأمر أن ينصرف معهما إلى كسرى، فلما قدما المدينة، وقابلا النبي ﷺ، قال أحدهما: إن شاهنشاه (ملك الملوك) كسرى قد كتب إلى الملك باذان يأمره بأن يبعث إليك من يأتيه بك، وبعثنى إليك لتنطلق معى، وقال قولًا توعده فيه، فأمرهما النبى ﷺ أن يلاقياه غدًا.

وفى ذلك الوقت كانت قد قامت ثورة كبيرة ضد كسرى من داخل بيته بعد أن لاقت جنوده هزيمة منكرة أمام جنود قيصر، فقد قام شيرويه بن كسرى على أبيه فقتله، وأخذ الملك لنفسه، وكان ذلك فى ليلة الثلاثاء لعشر مضين من جمادى الأولى سنة سبع[2]، وعلم رسول الله ﷺ الخبر من الوحى، فلما غدوا عليه أخبرهما بذلك. فقالا: هل تدرى ما تقول؟ إنا قد نقمنا عليك ما هو أيسر، أفنكتب هذا عنك، ونخبره الملك. قال: «**نعم أخبراه ذلك عنى، وقولا له: إن دينى وسلطانى سيبلغ ما بلغ كسرى ! وينتهى إلى منتهى الخف والحافر، وقولا له: إن أسلمت أعطيتك ما تحت يدك، وملكتك على قومك من الأبناء**»، فخرجا من عنده حتى قدما على باذان فأخبراه الخبر، وبعد قليل جاء كتاب بقتل شيرويه لأبيه، وقال له شيرويه فى كتابه: انظر الرجل الذى كان كتب فيه أبى إليك، فلا تهجه حتى يأتيك أمرى.

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٢/ ٣٧.

(٢) فتح البارى ٨/ ١٢٧، وتاريخ ابن خلدون ٢/ ٣٧.

وكان ذلك سببًا فى إسلام باذان ومن معه من أهل فارس باليمن[١].

٤ - الكتاب إلى قيصر ملك الروم:

روى البخارى - ضمن حديث طويل - نص الكتاب الذى كتبه النبى ﷺ إلى ملك الروم هرقل، وهو هذا:

«**بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أسلم تسلم، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين** ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٦٤﴾ [آل عمران]»[٢].

واختار لحمل هذا الكتاب دَحْيَة بن خليفة الكلبى، وأمره أن يدفعه إلى عظيم بصرى، ليدفعه إلى قيصر، وقد روى البخارى عن ابن عباس أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه فى ركب من قريش، كانوا تجارًا بالشام، فى المدة التى كان رسول الله ﷺ مادَّ فيها أبا سفيان وكفار قريش، فأتوه وهم بإيلياء[٣]، فدعاهم فى مجلسه وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا ترجمانه فقال: أيكم أقرب نسبًا بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى؟ قال أبو سفيان: فقلت: أنا أقربهم نسبًا، فقال: أدنوه منى، وقربوا أصحابه، فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: إنى سائل هذا عن هذا الرجل، فإن كذبنى فكذبوه، فو الله لولا الحياء من أن يأثروا على كذبًا لكذبت عليه.

ثم قال: أول ما سألنى عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ فقلت: هو فينا ذو نسب، قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا. قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا. قال: فأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ قلت: بل ضعفاؤهم. قال: أيزيدون

---

(١) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى ١/ ١٤٧، وفتح البارى ٨/ ١٢٧، ١٢٨.

(٢) صحيح البخارى ١/ ٤، ٥. والأريسيون: الفلاحون، وهم كانوا عامة شعبه.

(٣) كان قيصر جاء إذ ذاك فى إيلياء- بيت المقدس- من حمص، شكرًا لما مَنَّ الله عليه من إلحاق الهزيمة الساحقة بالفرس. (انظر: صحيح مسلم ٢/ ٩٩)، وكانت الفرس قد قتلوا كسرى أبرويز، وصالحوا الروم على تسليم جميع ما كانوا قد احتلوا من بلاد قيصر، وردوا إليه الصليب الذى تزعم النصارى أن المسيح عليه السلام كان قد صلب عليه، فكان قيصر قد جاء إلى إيلياء (بيت المقدس) سنة ٦٢٩م (أى سنة ٧ هـ) يضع الصليب فى موضعه ويشكر الله على هذا الفتح المبين.

أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون. قال: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه: قلت: لا. قال: فهل تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا. قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن منه فى مدة لا ندرى ما هو فاعل فيها - قال: ولم تمكننى كلمة أدخل فيها شيئًا غير هذه الكلمة - قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم. قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه. قال: ماذا يأمركم؟ قلت: يقول: «**اعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئًا، واتركوا ما يقول آباؤكم**»، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة.

فقال للترجمان: قل له: سألتك عن نسبه، فذكرت أنه فيكم ذو نسب، وكذلك الرسل تبعث فى نسب من قومها. وسألتك: هل قال أحد منكم هذا القول قبله؟ فذكرت أن لا. قلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت: رجل يأتسى بقول قيل قبله. وسألتك: هل كان من آبائه من ملك؟ فذكرت أن لا. فقلت: فلو كان من آبائه من ملك قلت: رجل يطلب ملك أبيه. وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس، ويكذب على الله. وسألتك: أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل. وسألتك: أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم. وسألتك: أيرتد أحد سخطه لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب. وسألتك: هل يغدر؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر. وسألتك: بماذا يأمر؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئًا وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقًّا فسيملك موضع قدمى هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظنه أنه منكم، فلو أنى أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه.

ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ فقرئ، فلما فرغ من قراءة الكتاب ارتفعت الأصوات عنده وكثر اللغط، وأمر بنا فأخرجنا، قال: فقلت لأصحابى حين أخرجنا: لقد أَمِرَ[(١)]

---

(١) أى: اشتد أمره. وأبو كبشة هو وجز بن غالب الخزاعى جد وهب بن عبد مناف من جهة الأم، ووهب هو جد النبى ﷺ من جهة الأم، كان أبو كبشة مشركًا فذهب إلى الشام فتنصر، فلما خالف النبى ﷺ دين قريش وجاء بالحنيفية شبهوه به ونسبوه إليه للتعبير. (دلائل النبوة للبيهقى ١/ ٨٢، ٨٣، والسيرة النبوية لأبى حاتم، ص ٤٤).

أمْرُ ابن أبى كَبْشَة، إنه ليخافه ملك بنى الأصفر[(١)]، فما زلت موقنا بأمر رسول الله ﷺ أنه سيظهر حتى أدخل الله على الإسلام[(٢)].

هذا ما رآه أبو سفيان من أثر هذا الكتاب على قيصر، وقد كان من أثره عليه أنه أجاز دحية بن خليفة الكلبى، حامل كتاب الرسول ﷺ بمال وكسوة، ولما كان دحية بحِسْمَى فى الطريق لقيه ناس من جُذَام، فقطعوها عليه، فلم يتركوا معه شيئًا، فجاء رسول الله ﷺ قبل أن يدخل بيته، فأخبره، فبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة إلى حسمى، وهى وراء وادى القرى، فى خمسمائة رجل، فشن زيد الغارة على جذام، فقتل فيهم قتلًا ذريعًا، واستاق نَعَمهم ونساءهم، فأخذ من النعم ألف بعير، ومن الشاء خمسة آلاف، والسبى مائة من النساء والصبيان.

وكان بين النبى ﷺ وبين قبيلة جذام موادعة، فأسرع زيد بن رِفَاعة الجذامى أحد زعماء هذه القبيلة بتقديم الاحتجاج إلى النبى ﷺ، وكان قد أسلم هو ورجال من قومه، ونصروا دحية حين قطع عليه الطريق، فقبل النبى ﷺ احتجاجه، وأمر برد الغنائم والسبى.

وعامة أهل المغازى يذكرون هذه السرية قبل الحديبية، وهو خطأ واضح، فإن بعث الكتاب إلى قيصر كان بعد الحديبية ؛ ولذا قال ابن القيم: هذا بعد الحديبية بلا شك[(٣)].

٥ - الكتاب إلى المنذر بن سَاوِى:

وكتب النبى ﷺ إلى المنذر بن ساوى حاكم البحرين كتابًا يدعوه فيه إلى الإسلام، وبعث إليه العلاء بن الحضرمى بذلك الكتاب، فكتب المنذر إلى رسول الله ﷺ:

«أما بعد، يا رسول الله، فإنى قرأت كتابك على أهل البحرين، فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه، ودخل فيه، ومنهم من كرهه، وبأرضى مجوس ويهود، فأحدث إلىّ فى ذلك أمرك».

فكتب إليه رسول الله ﷺ:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى، سلام عليك، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أما بعد، فإنى أذكرك الله عز وجل، فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه، وإنه من يطيع رسلى ويتبع أمرهم فقد أطاعنى،

(١) بنو الأصفر هم الروم.

(٢) صحيح البخارى ١/ ٤، وصحيح مسلم ٢/ ٩٧- ٩٩.

(٣) انظر: زاد المعاد ٢/ ١٢٢، وحاشية تلقيح فهوم أهل الأثر، ص ٢٩.

ومن نصح لهم فقد نصح لى، وإن رسلى قد أثنوا عليك خيرًا، وإنى قد شفعتك فى قومك، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه، وعفوت عن أهل الذنوب، فاقبل منهم، وإنك مهما تصلح فلم نعزلك عن عملك. ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية»[(١)].

٦ - الكتاب إلى هَوْذَة بن على صاحب اليمامة:

وكتب النبى ﷺ إلى هوذة بن على صاحب اليمامة:

«**بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى هوذة بن على، سلام على من اتبع الهدى، واعلم أن دينى سيظهر إلى منتهى الخف والحافر، فأسلم تسلم، وأجعل لك ما تحت يديك**».

واختار لحمل هذا الكتاب سَلِيط بن عمرو العامرى، فلما قدم سليط على هوذة بهذا الكتاب مختومًا أنزله وحياه، وقرأ عليه الكتاب، فرد عليه ردًّا دون رد، وكتب إلى النبى ﷺ: «ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله، والعرب تهاب مكانى، فاجعل لى بعض الأمر أتبعك»، وأجاز سليطًا بجائزة، وكساه أثوابًا من نسج هجر.

فقدم بذلك كله على النبى ﷺ فأخبره، وقرأ النبى ﷺ كتابه فقال: «**لو سألنى قطعة من الأرض ما فعلت، باد، وباد ما فى يديه**». فلما انصرف رسول الله من الفتح جاءه جبريل عليه السلام بأن هوذة مات، فقال النبى ﷺ: «**أما إن اليمامة سيخرج بها كذاب يتنبى، يقتل بعدى**»، فقال قائل: يا رسول الله، من يقتله؟ فقال: «**أنت وأصحابك**»، فكان كذلك؟[(٢)].

٧ - الكتاب إلى الحارث بن أبى شَمِر الغسانى صاحب دمشق:

كتب إليه النبى ﷺ:

«**بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبى شمر، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله وصدق، وإنى أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له، يبقى لك ملكك**».

واختار لحمل هذا الكتاب شجاع بن وهب من بنى أسد بن خزيمة، ولما أبلغه الكتاب

---

(١) زاد المعاد ٣/ ٦١، ٦٢، والنص الذى أورده الدكتور حميد الله- آخذًا من صورة الكتاب الذى عثر عليه فى الماضى القريب- يختلف فى كلمة واحدة، ففيه: «لا إله غيره» بدل قوله: «لا إله إلا هو».

(٢) زاد المعاد ٣/ ٦٣.

رمى به وقال: «من ينزع ملكى منى؟ أنا سائر إليه»، ولم يسلم[(١)]. واستأذن قيصر فى حرب رسول الله ﷺ فثناه عن عزمه، فأجاز الحارث شجاع بن وهب بالكسوة والنفقة، ورده بالحسنى.

٨ - الكتاب إلى ملك عُمَان:

وكتب النبى ﷺ كتابًا إلى ملك عمان جَيْفَر وأخيه عبد ابنى الجُلَنْدَى، ونصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى جيفر وعبد ابنى الجلندى، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد:

فإنى أدعوكما بدعاية الإسلام، أسلما تسلما، فإنى رسول الله ﷺ إلى الناس كافة، لأنذر من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين، فإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما، وإن أبيتما [أن تقرا بالإسلام] فإن ملككما زائل، وخيلى تحل بساحتكما، وتظهر نبوتى على ملككما».

واختار لحمل هذا الكتاب عمرو بن العاص رضي الله عنه، قال عمرو: فخرجت حتى انتهيت إلى عمان، فلما قدمتها عمدت إلى عبد - وكان أحلم الرجلين، وأسهلهما خلقًا - فقلت: إنى رسول رسول الله ﷺ إليك وإلى أخيك، فقال: أخى المقدم على بالسن والملك، وأنا أوصلك إليه حتى يقرأ كتابك، ثم قال: وما تدعو إليه؟ قلت: أدعو إلى الله وحده لا شريك له، وتخلع ما عبد من دونه، وتشهد أن محمدًا عبده ورسوله. قال: يا عمرو، إنك ابن سيد قومك فكيف صنع أبوك؟ فإن لنا فيه قدوة. قلت: مات ولم يؤمن بمحمد ﷺ، ووددت أنه كان أسلم وصدق به، وقد كنت أنا على مثل رأيه حتى هدانى الله للإسلام. قال: فمتى تبعته؟ قلت: قريبًا. فسألنى أين كان إسلامك؟ قلت: عند النجاشى، وأخبرته أن النجاشى قد أسلم. قال: وكيف صنع قومه بملكه؟ فقلت: أقروه واتبعوه. قال: والأساقفة والرهبان تبعوه؟ قلت: نعم. قال: انظر يا عمرو ما تقول، إنه ليس من خصلة فى رجل أفضح له من الكذب. قلت: ما كذبت، وما نستحله فى ديننا، ثم قال: ما أرى هرقل علم بإسلام النجاشى. قلت: بلى، قال: فبأى شىء علمت ذلك؟ قلت: كان النجاشى يخرج له خرجًا، فلما أسلم وصدق بمحمد ﷺ، قال: لا والله لو سألنى درهما واحدًا ما أعطيته، فبلغ هرقل قوله، فقال له اليَنَّاق أخوه: أتدع عبدك لا يخرج لك خرجًا، ويدين بدين غيرك دينًا محدثًا؟ قال هرقل: رجل رغب فى دين، فاختاره لنفسه، ما أصنع به؟ والله لولا الضن بملكى لصنعت كما صنع. قال: انظر ما تقول يا عمرو؟ قلت: والله صدقتك.

---

(١) زاد المعاد ٣/ ٦٣، ومحاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى ١/ ١٤٦.

قال عبد: فأخبرنى ما الذى يأمر به وينهى عنه؟ قلت: يأمر بطاعة الله عز وجل وينهى عن معصيته، ويأمر بالبر وصلة الرحم، وينهى عن الظلم والعدوان، وعن الزنا، وعن الخمر، وعن عبادة الحجر والوثن والصليب. قال: ما أحسن هذا الذى يدعو إليه، لو كان أخى يتابعنى عليه لركبنا حتى نؤمن بمحمد ﷺ ونصدق به، ولكن أخى أضن بملكه من أن يدعه ويصير ذنبًا. قلت: إنه إن أسلم مَلَّكَهُ رسول الله ﷺ على قومه، فأخذ الصدقة من غنيهم فيردها على فقيرهم. قال: إن هذا لخلق حسن. وما الصدقة؟ فأخبرته بما فرض رسول الله ﷺ فى الصدقات فى الأموال، حتى انتهيت إلى الإبل. قال: يا عمرو، وتؤخذ من سوائم مواشينا التى ترعى الشجر وترد المياه؟ فقلت: نعم، فقال: والله ما أرى قومى فى بعد دارهم وكثرة عددهم يطيعون لهذا.

قال: فمكثت ببابه أيامًا، وهو يصل إلى أخيه فيخبره كل خبرى، ثم إنه دعانى يومًا فدخلت عليه، فأخذ أعوانه بضبعى فقال: دعوه، فأرسلت فذهبت لأجلس، فأبوا أن يدعونى أجلس، فنظرت إليه فقال: تكلم بحاجتك، فدفعت إليه الكتاب مختومًا، ففض خاتمه، وقرأ حتى انتهى إلى آخره، ثم دفعه إلى أخيه فقرأه مثل قراءته، إلا أنى رأيت أخاه أرق منه، قال: ألا تخبرنى عن قريش كيف صنعت؟ فقلت: تبعوه، إما راغب فى الدين، وإما مقهور بالسيف. قال: ومن معه؟ قلت: الناس قد رغبوا فى الإسلام واختاروه على غيره، وعرفوا بعقولهم مع هدى الله إياهم أنهم كانوا فى ضلال، فما أعلم أحدًا بقى غيرك فى هذه الحَرجَة، وأنت إن لم تسلم اليوم وتبعته توطئك الخيل وتبيد خضراءك، فأسلم تسلم، ويستعملك على قومك، ولا تدخل عليك الخيل والرجال، قال: دعنى يومى هذا، وارجع إلى غدًا.

فرجعت إلى أخيه فقال: يا عمرو، إنى لأرجو أن يسلم إن لم يَضِنَّ بملكه، حتى إذا كان الغد أتيت إليه، فأبى أن يأذن لى. فانصرفت إلى أخيه، فأخبرته أنى لم أصل إليه، فأوصلنى إليه، فقال: إنى فكرت فيما دعوتنى إليه، فإذا أنا أضعف العرب إن ملكت رجلًا ما فى يدى، وهو لاتبلغ خيله هاهنا، وإن بلغت خيله لقيت قتالًا ليس كقتال من لاقى. قلت: أنا خارج غدًا، فلما أيقن بمخرجى خلا به أخوه فقال: ما نحن فيما ظهر عليه، وكل من أرسل إليه قد أجابه، فأصبح فأرسل إلى، فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعًا، وصدقا النبى ﷺ، وخليا بينى وبين الصدقة، وبين الحكم فيما بينهم، وكانا لى عونًا على من خالفنى[1].

---

(١) زاد المعاد ٣/ ٦٢، ٦٣.

وسياق هذه القصة تدل على أن إرسال الكتاب إليهما تأخر كثيرًا عن كتب بقية الملوك، والأغلب أنه كان بعد الفتح.

وبهذه الكتب كان النبى ﷺ قد أبلغ دعوته إلى أكثر ملوك الأرض، فمنهم من آمن به ومنهم من كفر، ولكن شغل فكره هؤلاء الكافرين، وعرف لديهم باسمه ودينه.

النشاط العسكرى بعد صلح الحديبية

غزوة الغابة أو غزوة ذى قَرَد:

هذه الغزوة حركة مطاردة ضد فصيلة من بنى فَزَارة قامت بعمل القرصنة فى لِقَاحِ(١) رسول الله ﷺ.

وهى أول غزوة غزاها رسول الله ﷺ بعد الحديبية، وقبل خيبر. ذكر البخارى فى ترجمة باب أنها كانت قبل خيبر بثلاث، وروى ذلك مسلم مسندًا من حديث سلمة بن الأكوع. وذكر الجمهور من أهل المغازى أنها كانت قبل الحديبية، وما فى الصحيح أصح مما ذكره أهل المغازى(٢).

وخلاصة الروايات عن سلمة بن الأكوع بطل هذه الغزوة أنه قال: بعث رسول الله ﷺ بظهره مع غلامه رَبَاح، وأنا معه بفرس أبى طلحة، فلما أصبحنا إذا عبد الرحمن الفزارى قد أغار على الظهر، فاستاقه أجمع، وقتل راعيه، فقلت: يا رباح، خذ هذا الفرس فأبلغه أبا طلحة، وأخبر رسول الله ﷺ، ثم قمت على أكَمَة، واستقبلت المدينة، فناديت ثلاثًا: يا صباحاه، ثم خرجت فى آثار القوم أرميهم بالنبل وأرتجز، أقول:

[خُذْهَا] أنا ابنُ الأكْوَع والْيَومُ يومُ الرُّضَّع

فو الله ما زلت أرميهم وأعقر بهم، فإذا رجع إلىّ فارس جلست فى أصل الشجر، ثم رميته فتعفرت به، حتى إذا دخلوا فى تضايق الجبل علوته، فجعلت أرديهم بالحجارة، فما زلت كذلك أتبعهم حتى ما خلق الله تعالى من بعير من ظهر رسول الله ﷺ إلا خلفته وراء ظهرى، وخلوا بينى وبينه، ثم اتبعتهم أرميهم، حتى ألقوا أكثر من ثلاثين بردة، وثلاثين رمحًا يستخفون، ولا يطرحون شيئًا إلا جعلت عليه آرامًا من الحجارة، يعرفها رسول الله ﷺ وأصحابه. حتى أتوا متضايقًا من ثَنِيَّةٍ، فجلسوا يتغدون، وجلست على رأس قَرْن، فصعد

---

(١) اللقاح: الإبل الحوامل ذوات اللبن.

(٢) انظر: صحيح البخارى: باب غزوة ذات قرد ٢/ ٦٠٣، وصحيح مسلم: باب غزوة ذى قرد وغيرها ٢/ ١١٣- ١١٥، وفتح البارى ٧/ ٤٦٠، ٤٦١، ٤٦٣، وزاد المعاد ٢/ ١٢٠ ويدل على تأخر هذه الغزوة عن الحديبية حديث آخر رواه مسلم عن أبى سعيد الخدرى: كتاب الحج، باب الترغيب فى سكنى المدينة والصبر على لأوائها ٢/ ١٠٠١ (١٣٧٤/ ٤٧٥).

إلى منهم أربعة فى الجبل، قلت: هل تعرفوننى؟ أنا سلمة بن الأكوع، لا أطلب رجلًا منكم إلا أدركته، ولا يطلبنى فيدركنى، فرجعوا. فما برحت مكانى حتى رأيت فوارس رسول الله ﷺ يتخللون الشجر، فإذا أولهم أخرم، وعلى أثره أبو قتادة، وعلى أثره المقداد بن الأسود، فالتقى عبد الرحمن وأخرم، فعقر بعبد الرحمن فرسه، وطعنه عبد الرحمن فقتله، وتحول على فرسه، ولحق أبو قتادة بعبد الرحمن فطعنه فقتله، وولى القوم مدبرين، فتبعتهم أعدو على رجلى، حتى يعدلوا قبل غروب الشمس إلى شعب فيه ماء يقال له: ذو قَرَد، ليشربوا منه، وهم عطاش، فأجليتهم عنه، فما ذاقوا قطرة منه، ولحقنى رسول الله ﷺ والخيل عشاء، فقلت: يا رسول الله، إن القوم عطاش، فلو بعثتنى فى مائة رجل استنقذت ما عندهم من السَّرْح، وأخذت بأعناق القوم، فقال: «**يا بن الأكوع. ملكت فأسجح**»، ثم قال: «**إنهم ليقرون الآن فى غطفان**».

وقال رسول الله ﷺ: «**خير فرساننا اليوم أبو قتادة، وخير رجالتنا سلمة**». وأعطانى سهمين، سهم الراجل وسهم الفارس، وأردفنى وراءه على العَضْبَاء راجعين إلى المدينة.

استعمل رسول الله ﷺ على المدينة فى هذه الغزوة ابن أم مكتوم، وعقد اللواء للمقداد ابن عمرو[1].

(١) انظر: صحيح البخارى ٢/ ٦٠٣، وصحيح مسلم ٢/ ١١٣ - ١١٥، وزاد المعاد ٢/ ١٢٠.

غزوة خيبر ووادى القُرى

«فى المحرم سنة ٧ هـ»

كانت خيبر مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع على بعد ثمانين ميلا من المدينة فى جهة الشمال، وهى الآن قرية فى مناخها بعض الوخامة.

سبب الغزوة:

ولما اطمأن رسول الله ﷺ من أقوى أجنحة الأحزاب الثلاثة، وهو قريش، وأمن منه تمامًا بعد صلح الحديبية أراد أن يحاسب الجناحين الباقيين - اليهود وقبائل نجد - حتى يتم الأمن والسلام، ويسود الهدوء فى المنطقة، ويفرغ المسلمون من الصراع الدامى المتواصل إلى تبليغ رسالة الله والدعوة إليه.

ولما كانت خيبر هى وكرة الدس والتآمر ومركز الاستفزازات العسكرية، ومعدن التحرشات وإثارة الحروب، كانت هى الجديرة بالتفات المسلمين أولا.

أما كون خيبر بهذه الصفة، فلا ننسى أن أهل خيبر هم الذين حزبوا الأحزاب ضد المسلمين، وأثاروا بنى قريظة على الغدر والخيانة، ثم أخذوا فى الاتصالات بالمنافقين - الطابور الخامس فى المجتمع الإسلامى - وبغطفان وأعراب البادية - الجناح الثالث من الأحزاب - وكانوا هم أنفسهم يتهيأون للقتال، فألقوا المسلمين بإجراءاتهم هذه فى محن متواصلة، حتى وضعوا خطة لاغتيال النبى ﷺ، وإزاء ذلك اضطر المسلمون إلى بعوث متواصلة، وإلى الفتك برأس هؤلاء المتآمرين، مثل سلام بن أبى الحُقَيْق، وأسِير بن زارم، ولكن الواجب على المسلمين إزاء هؤلاء اليهود كان أكبر من ذلك، وإنما أبطأوا فى القيام بهذا الواجب ؛ لأن قوة أكبر وأقوى وألد وأعند منهم - وهى قريش - كانت مجابهة للمسلمين، فلما انتهت هذه المجابهة صفا الجو لمحاسبة هؤلاء المجرمين، واقترب لهم يوم الحساب.

الخروج إلى خيبر:

قال ابن إسحاق: أقام رسول الله ﷺ بالمدينة حين رجع من الحديبية ذا الحجة وبعض المحرم، ثم خرج فى بقية المحرم إلى خيبر.

قال المفسرون: إن خيبر كانت وعدا وعدها الله تعالى بقوله: ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ ﴾ [الفتح: ٢٠] يعنى: صلح الحديبية، وبالمغانم الكثيرة: خيبر.

عدد الجيش الإسلامي:

ولما كان المنافقون وضعفاء الإيمان تخلفوا عن رسول الله ﷺ فى غزوة الحديبية أمر الله تعالى نبيه ﷺ فيهم قائلًا: ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الفتح].

فلما أراد رسول الله ﷺ الخروج إلى خيبر أعلن ألا يخرج معه إلا راغب فى الجهاد، فلم يخرج إلا أصحاب الشجرة وهم ألف وأربعمائة.

واستعمل على المدينة سِبَاع بن عُرْفُطَةَ الغفارى، وقال ابن إسحاق: نُمَيْلَة بن عبد الله الليثى، والأول أصح عند المحققين(١).

وبعد خروجه ﷺ قدم أبو هريرة المدينة مسلمًا، فوافى سباع بن عرفطة فى صلاة الصبح، فلما فرغ من صلاته أتى سباعا فزوده، حتى قدم على رسول الله ﷺ، وكلم المسلمين فأشركوه وأصحابه فى سهمانهم.

اتصال المنافقين باليهود:

وقد قام المنافقون يعملون لليهود، فقد أرسل رأس المنافقين عبد الله بن أبى إلى يهود خيبر: إن محمدًا قصد قصدكم، وتوجه إليكم، فخذوا حذركم، ولا تخافوا منه فإن عددكم وعدتكم كثيرة، وقوم محمد شرذمة قليلون، عزّل، لا سلاح معهم إلا قليل، فلما علم ذلك أهل خيبر، أرسلوا كنانة ابن أبى الحقيق وهَوْذَة بن قيس إلى غطفان يستمدونهم ؛ لأنهم كانوا حلفاء يهود خيبر، ومظاهرين لهم على المسلمين، وشرطوا لهم نصف ثمار خيبر إن هم غلبوا المسلمين.

الطريق إلى خيبر:

وسلك رسول ﷺ فى اتجاهه نحو خيبر جبل عصر - بالكسر، وقيل: بالتحريك - ثم على الصهباء، ثم نزل على واد يقال له: الرجيع، وكان بينه وبين غطفان مسيرة يوم وليلة، فتهيأت غطفان وتوجهوا إلى خيبر، لإمداد اليهود، فلما كانوا ببعض الطريق سمعوا من خلفهم حسًّا ولغطًا، فظنوا أن المسلمين أغاروا على أهاليهم وأموالهم فرجعوا، وخلوا بين رسول الله ﷺ وبين خيبر.

---

(١) انظر: فتح البارى ٧/ ٤٦٥، وزاد المعاد ٢/ ١٣٣.

ثم دعا رسول الله ﷺ الدليلين اللذين كانا يسلكان بالجيش - وكان اسم أحدهما: حُسَيْل - ليدلاه على الطريق الأحسن، حتى يدخل خيبر من جهة الشمال - أى جهة الشام - فيحول بين اليهود وبين طريق فرارهم إلى الشام، كما يحول بينهم وبين غطفان.

قال أحدهما: أنا أدلك يا رسول الله ﷺ، فأقبل حتى انتهى إلى مفرق الطرق المتعددة وقال: يا رسول الله، هذه طرق يمكن الوصول من كل منها إلى المقصد، فأمر أن يسمها له واحدًا واحدًا. قال: اسم واحد منها حزن، فأبى النبى ﷺ من سلوكه، قال: اسم الآخر شاش، فامتنع منه أيضًا، وقال: اسم الآخر حاطب، فامتنع منه أيضًا، قال حسيل: فما بقى إلا واحد. قال عمر: ما اسمه؟ قال: مَرْحَب، فاختار النبى ﷺ سلوكه.

بعض ما وقع فى الطريق:

١ - عن سلمة بن الأكوع قال: خرجنا مع النبى ﷺ إلى خيبر فسرنا ليلًا، فقال رجل من القوم لعامر: يا عامر، ألا تسمعنا من هنيهاتك؟ - وكان عامر رجلًا شاعرًا - فنزل يحدو بالقوم، يقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تَصدَّقْنا ولا صَلَّينا
فاغفر فِداءً لك ما اقْتَفَيْنا ... وَثَبِّت الأقدام إن لاقينا
وألْقِيَنْ سكينة علينا ... إنا إذا صِيحَ بنا أبينا
وبالصياح عَوَّلُوا علينا

فقال رسول الله ﷺ: «**من هذا السائق**» قالوا: عامر بن الأكوع، قال: «**يرحمه الله**»: قال رجل من القوم: وجبت يا نبى الله، لولا أمتعتنا به[(١)].

وكانوا يعرفون أن رسول الله ﷺ لا يستغفر لإنسان يخصه إلا استشهد[(٢)]، وقد وقع ذلك فى حرب خيبر.

٢ - وبالصهباء من أدنى خيبر صلى النبى ﷺ العصر، ثم دعا بالأزواد، فلم يؤت إلا بالسَّوِيق، فأمر به فثرى، فأكل وأكل الناس، ثم قام إلى المغرب، فمضمض، ومضمض الناس، ثم صلى ولم يتوضأ[(٣)]، ثم صلى العشاء[(٤)].

---

(١) صحيح البخارى: باب غزوة خيبر ٢/ ٦٠٣، وصحيح مسلم: باب غزوة ذى قرد وغيرها ٢/ ١١٥.
(٢) صحيح مسلم ٢/ ١١٥. (٣) صحيح البخارى ٢/ ٦٠٣.
(٤) مغازى الواقدى (غزوة خيبر، ص ١١٢).

٣ - ولما دنا من خيبر وأشرف عليها قال: «**قفوا**»، فوقف الجيش، فقال: «**اللهم رب السموات السبع وما أظللن، ورب الأرضين السبع وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما أذرين، فإنا نسألك خير هذه القرية، وخير أهلها، وخير ما فيها، ونعوذ بك من شر هذه القرية، وشر أهلها، وشر ما فيها، أقدموا، بسم الله**»(١).

الجيش الإسلامى إلى أسوار خيبر:

وبات المسلمون الليلة الأخيرة التى بدأ فى صباحها القتال قريبًا من خيبر، ولا تشعر بهم اليهود، وكان النبى ﷺ إذا أتى قومًا بليل لم يقربهم حتى يصبح، فلما أصبح صلى الفجر بغَلَس، وركب المسلمون، فخرج أهل خيبر بمساحيهم ومكاتلهم، ولا يشعرون، بل خرجوا لأرضهم، فلما رأوا الجيش قالوا: محمد، والله محمد والخَمِيس(٢)، ثم رجعوا هاربين إلى مدينتهم، فقال النبى ﷺ: «**الله أكبر، خربت خيبر، الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين**»(٣).

حصون خيبر:

وكانت خيبر منقسمة إلى شطرين، شطر فيها خمسة حصون:

١ - حصن ناعم. ٢ - حصن الصَّعْب بن معاذ. ٣ - حصن قلعة الزبير.

٤ - حصن أبىّ. ٥ - حصن النِّزَار.

والحصون الثلاثة الأولى منها كانت تقع فى منطقة يقال لها: «النطاة» وأما الحصنان الآخران فيقعان فى منطقة تسمى بالشَّقِّ.

أما الشطر الثانى، ويعرف بالكتيبة، ففيه ثلاثة حصون فقط:

١ - حصن القَمُوص (وكان حصن بنى أبى الحقيق من بنى النضير).

٢ - حصن الوَطِيح. ٣ - حصن السُّلالم.

وفى خيبر حصون وقلاع غير هذه الثمانية، إلا أنها كانت صغيرة، لا تبلغ إلى درجة هذه القلاع فى مناعتها وقوتها.

والقتال المرير إنما دار فى الشطر الأول منها، أما الشطر الثانى فحصونها الثلاثة مع كثرة المحاربين فيها سلمت دونما قتال.

---

(١) ابن هشام ٢/ ٣٢٩ وغيره.

(٢) الجيش. (٣) صحيح البخارى: باب غزوة خيبر ٢/ ٦٠٣، ٦٠٤.

معسكر الجيش الإسلامى:

وتقدم رسول الله ﷺ حتى اختار لمعسكره منزلًا، فأتاه حُبَاب بن المنذر، فقال: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل أنزلكه الله، أم هو الرأى فى الحرب؟ قال: «**بل هو الرأى**» فقال: يا رسول الله، إن هذا المنزل قريب جدًّا من حصن نَطَاة، وجميع مقاتلى خيبر فيها، وهم يدرون أحوالنا، ونحن لا ندرى أحوالهم، وسهامهم تصل إلينا، وسهامنا لا تصل إليهم، ولا نأمن من بياتهم، وأيضًا هذا بين النخلات، ومكان غائر، وأرض وخيمة، لو أمرت بمكان خال عن هذه المفاسد نتخذه معسكرًا، قال ﷺ: «**الرأى ما أشرت**»، ثم تحول إلى مكان آخر.

التهيؤ للقتال وبشارة الفتح:

ولما كانت ليلة الدخول - وقيل: بل بعد عدة محاولات ومحاربات - قال النبى ﷺ: «**لأعطين الراية غدًا رجلًا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، [يفتح الله على يديه]**» فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ، كلهم يرجو أن يعطاها، فقال: «**أين على بن أبى طالب؟**» فقالوا: يا رسول الله، هو يشتكى عينيه، قال: «**فأرسلوا إليه**»، فأتى به فبصق رسول الله ﷺ فى عينيه، ودعا له، فبرئ، كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، فقال: يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا، قال: «**انفذ على رسلك، حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله، لأن يهدى الله بك رجلا واحدًا خير لك من أن يكون لك حمر النعم**»[1].

بدء المعركة وفتح حصن ناعم:

أما اليهود فإنهم لما رأوا الجيش وفروا إلى مدينتهم تحصنوا فى حصونهم، وكان من الطبيعى أن يستعدوا للقتال.

وأول حصن هاجمه المسلمون من حصونهم الثمانية هو حصن ناعم.

وكان خط الدفاع الأول لليهود لمكانه الاستراتيجى، وكان هذا الحصن هو حصن مرحب البطل اليهودى الذى كان يعد بالألف.

خرج على بن أبى طالب رضي الله عنه بالمسلمين إلى هذا الحصن، ودعا اليهود إلى الإسلام، فرفضوا هذه الدعوة، وبرزوا إلى المسلمين ومعهم ملكهم مرحب، فلما خرج إلى ميدان

(١) صحيح البخارى: باب غزوة خيبر ٢/ ٦٠٥، ٦٠٦.

القتال دعا إلى المبارزة، قال سلمة بن الأكوع: فلما أتينا خيبر خرج ملكهم مرحب يخطر بسيفه يقول:

قد عَلِمتْ خيبر أنى مَرْحَب شَاكِى السلاح بطل مُجَرَّب
إذا الحروب أقبلتْ تَلَهَّب

فبرز له عمى عامر فقال:

قد علمت خيبر أنى عامر شاكى السلاح بطل مُغَامِر

فاختلفا ضربتين، فوقع سيف مرحب فى ترس عمى عامر، وذهب عامر يسفل له، وكان سيفه قصيرًا، فتناول به ساق اليهودى ليضربه، فيرجع ذُبَاب سيفه فأصاب عين ركبته فمات منه، وقال فيه النبى ﷺ: «**إن له لأجرين - وجمع بين إصبعيه - إنه لجَاهِدٌ مُجَاهِد، قَلَّ عربى مَشَى بها مِثْلَه**»[١].

ويبدو أن مرحبًا دعا بعد ذلك إلى البراز مرة أخرى وجعل يرتجز بقوله:

قد علمت خيبر أنى مرحب... إلخ، فبرز له على بن أبى طالب. قال سلمة بن الأكوع: فقال على:

أنا الذى سمتنى أمى حَيْدَرَهْ كلَيْثِ غابات كَرِيه المَنْظَرَهْ
أُوفِيهم بالصَّاع كَيْل السَّنْدَرَهْ

فضرب رأس مرحب فقتله، ثم كان الفتح على يديه[٢].

ولما دنا على رضي الله عنه من حصونهم اطلع يهودى من رأس الحصن، وقال: من أنت؟ فقال: أنا على ابن أبى طالب، فقال اليهودى: علوتم وما أنزل على موسى.

ثم خرج ياسر أخو مرحب، وهو يقول: من يبارز؟ فبرز إليه الزبير، فقالت صفية أمه: يا رسول الله، يقتل ابنى، قال: «**بل ابنك يقتله**»، فقتله الزبير.

ودار القتال المرير حول حصن ناعم، قتل فيه عدة سراة من اليهود، انهارت لأجله

---

(١) صحيح مسلم: باب غزوة خيبر ٢/ ١٢٢، وباب غزوة ذى قرد وغيرها ٢/ ١١٥، وصحيح البخارى: باب غزوة خيبر ٢/ ٦٠٣. وذباب السيف: طرفه.

(٢) بين المصادر اختلاف كبير فى الرجل الذى قتل مرحبًا، وفى اليوم الذى قتل فيه وفتح هذا الحصن، وبعض هذا الاختلاف موجود فى سياق روايات الصحيحين أيضا، وهذا الترتيب أخذناه بعد ترجيح سياق رواية البخارى.

مقاومة اليهود، وعجزوا عن صد هجوم المسلمين، ويؤخذ من المصادر أن هذا القتال دام أيامًا لاقى المسلمون فيها مقاومة شديدة، إلا أن اليهود يئسوا من مقاومة المسلمين، فتسللوا من هذا الحصن إلى حصن الصَّعْب، واقتحم المسلمون حصن ناعم.

فتح حصن الصعب بن معاذ:

وكان حصن الصعب الحصن الثانى من حيث القوة والمناعة بعد حصن ناعم، قام المسلمون بالهجوم عليه تحت قيادة الحباب بن المنذر الأنصارى، ففرضوا عليه الحصار ثلاثة أيام، وفى اليوم الثالث دعا رسول الله ﷺ لفتح هذا الحصن دعوة خاصة.

روى ابن إسحاق أن بنى سهم من أسلم أتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: لقد جهدنا، وما بأيدينا من شيء، فقال: «**اللهم إنك قد عرفت حالهم، وأن ليست بهم قوة، وأن ليس بيدى شىء أعطيهم إياه، فافتح عليهم أعظم حصونها عنهم غَنَاء، وأكثرها طعامًا ووَدَكًا**». فغدا الناس ففتح الله عز وجل حصن الصعب بن معاذ، وما بخيبر حصن كان أكثر طعامًا وودكًا منه[1].

ولما ندب النبى ﷺ المسلمين بعد دعائه لمهاجمة هذا الحصن كان بنو أسلم هم المقاديم فى المهاجمة، ودار البراز والقتال أمام الحصن، ثم فتح الحصن فى ذلك اليوم قبل أن تغرب الشمس، ووجد فيه المسلمون بعض المنجنيقات والدبابات.

ولأجل هذه المجاعة الشديدة التى ورد ذكرها فى رواية ابن إسحاق، كان رجال من الجيش قد ذبحوا الحمير، ونصبوا القدور على النيران، فلما علم رسول الله ﷺ بذلك نهى عن لحوم الحمر الإنسية.

فتح قلعة الزبير:

وبعد فتح حصن ناعم والصعب تحول اليهود من كل حصون النَّطَاة إلى قلعة الزبير، وهو حصن منيع فى رأس قُلَّةٍ[2]، لا تقدر عليه الخيل والرجال لصعوبته وامتناعه، ففرض عليه رسول الله ﷺ الحصار، وأقام محاصرًا ثلاثة أيام، فجاء رجل من اليهود، وقال: يا أبا القاسم، إنك لو أقمت شهرًا ما بالوا، إن لهم شرابًا وعيونًا تحت الأرض، يخرجون بالليل ويشربون منها، ثم يرجعون إلى قلعتهم فيمتنعون منك، فإن قطعت مشربهم عليهم

---

(١) ابن هشام ملخصًا ٢/ ٣٣٢. والوَدَك: دسم اللحم.

(٢) قمة الجبل.

أصحروا لك. فقطع ماءهم عليهم، فخرجوا فقاتلوا أشد القتال، قتل فيه نفر من المسلمين، وأصيب نحو العشرة من اليهود، وافتتحه رسول الله ﷺ.

فتح قلعة أُبيٍّ:

وبعد فتح قلعة الزبير انتقل اليهود إلى قلعة أبى وتحصنوا فيه، وفرض المسلمون عليهم الحصار، وقام بطلان من اليهود واحد بعد الآخر بطلب المبارزة، وقد قتلهما أبطال المسلمين، وكان الذى قتل المبارز الثانى هو البطل المشهور أبو دُجَانة سِمَاك بن خَرَشَة الأنصارى صاحب العصابة الحمراء. وقد أسرع أبو دجانة بعد قتله إلى اقتحام القلعة، واقتحم معه الجيش الإسلامى، وجرى قتال مرير ساعة داخل الحصن، ثم تسلل اليهود من القلعة، وتحولوا إلى حصن النزار آخر حصن فى الشطر الأول.

فتح حصن النِّزَار:

كان هذا الحصن أمنع حصون هذا الشطر، وكان اليهود على شبه اليقين بأن المسلمين لا يستطيعون اقتحام هذه القلعة، وإن بذلوا قصارى جهدهم فى هذا السبيل، ولذلك أقاموا فى هذه القلعة مع الذرارى والنساء، بينما كانوا قد أخلوا منها القلاع الأربعة السابقة.

وفرض المسلمون على هذا الحصن أشد الحصار، وصاروا يضغطون عليهم بعنف، ولكون الحصن يقع على جبل مرتفع منيع لم يكونوا يجدون سبيلا للاقتحام فيه. أما اليهود فلم يجترئوا للخروج من الحصن، وللاشتباك مع قوات المسلمين، ولكنهم قاوموا المسلمين مقاومة عنيدة برشق النبال، وبإلقاء الحجارة.

وعندما استعصى حصن النزار على قوات المسلمين، أمر النبى ﷺ بنصب آلات المنجنيق، ويبدو أن المسلمين قذفوا به القذائف، فأوقعوا الخلل فى جدران الحصن، واقتحموه، ودار قتال مرير فى داخل الحصن انهزم أمامه اليهود هزيمة منكرة، وذلك لأنهم لم يتمكنوا من التسلل من هذا الحصن كما تسللوا من الحصون الأخرى، بل فروا من هذا الحصن تاركين للمسلمين نساءهم وذراريهم.

وبعد فتح هذا الحصن المنيع تم فتح الشطر الأول من خيبر، وهى ناحية النَّطَاة والشَّقِّ، وكانت فى هذه الناحية حصون صغيرة أخرى إلا أن اليهود بمجرد فتح هذا الحصن المنيع أخلوا هذه الحصون، وهربوا إلى الشطر الثانى من بلدة خيبر.

فتح الشطر الثانى من خيبر:

ولما أتم رسول الله ﷺ فتح ناحية النطاة والشق، تحول إلى أهل الكتيبة التى بها حصن القَمُوص: حصن بنى أبى الحُقَيْق من بنى النضير، وحصن الوَطِيح والسُّلالم، وجاءهم كل فَلٍّ كان انهزم من النطاة والشق، وتحصن هؤلاء أشد التحصن.

واختلف أهل المغازى هل جرى هناك قتال فى أى حصن من حصونها الثلاثة أم لا؟ فسياق ابن إسحاق صريح فى جريان القتال لفتح حصن القموص، بل يؤخذ من سياقه أن هذا الحصن تم فتحه بالقتال فقط من غير أن يجرى هناك مفاوضة للاستسلام(١).

أما الواقدى، فيصرح تمام التصريح أن قلاع هذا الشطر الثلاث إنما أخذت بعد المفاوضة، ويمكن أن تكون المفاوضة قد جرت لاستلام حصن القموص بعد إدارة القتال، وأما الحصنان الآخران فقد سلما إلى المسلمين دونما قتال.

ومهما كان، فلما أتى رسول الله ﷺ إلى هذه الناحية - الكتيبة - فرض على أهلها أشد الحصار، ودام الحصار أربعة عشر يومًا، واليهود لا يخرجون من حصونهم، حتى همّ رسول الله ﷺ أن ينصب عليهم المنجنيق، فلما أيقنوا بالهلكة سألوا رسول الله ﷺ الصلح.

المفاوضة:

وأرسل ابن أبى الحُقَيْق إلى رسول الله ﷺ: أنزل فأكلمك؟ قال: «**نعم**»، فنزل، وصالح على حقن دماء مَنْ فى حصونهم من المقاتلة، وترك الذرية لهم، ويخرجون من خيبر وأرضها بذراريهم، ويخلون بين رسول الله ﷺ وبين ما كان لهم من مال وأرض، وعلى الصفراء والبيضاء - أى الذهب والفضة - والكُرَاع والْحَلْقَة إلا ثوبًا على ظهر إنسان(٢)، فقال رسول الله ﷺ: «**وبرئت منكم ذمة الله وذمة رسوله إن كتمتمونى شيئا**»، فصالحوه على ذلك(٣)، وبعد هذه المصالحة تم تسليم الحصون إلى المسلمين، وبذلك تم فتح خيبر.

---

(١) ابن هشام ٢/ ٣٣١، ٣٣٦، ٣٣٧.

(٢) ولكن صرح فى رواية أبى داود أنه عاهد على أن المسلمين يسمحون لليهود عند جلائهم عن خيبر أن يأخذوا من الأموال ما حملت ركابهم (انظر: سنن أبى داود: باب ما جاء فى حكم أرض خيبر ٢/ ٧٦).

(٣) زاد المعاد ٢/ ١٣٦، والكراع: الخيل، والحلقة: السلاح.

قتل ابنى أبى الحقيق لنقض العهد:

وعلى رغم هذه المعاهدة غيب ابنا أبى الحقيق مالا كثيرا، غيبا مَسْكًا[1] فيه مال وحُلى لحيى ابن أخطب، كان احتمله معه إلى خيبر حين أجليت النضير.

قال ابن إسحاق: وأتى رسول الله ﷺ بكِنَانة الربيع، وكان عنده كنز بنى النضير، فسأله عنه، فجحد أن يكون يعرف مكانه، فأتى رجل من اليهود فقال: إنى رأيت كنانة يطيف بهذه الخربة كل غداة، فقال رسول الله ﷺ لكنانة: «**أرأيت إن وجدناه عندك أأقتلك؟**» قال: نعم، فأمر بالخربة، فحفرت، فأخرج منها بعض كنزهم، ثم سأله عما بقى، فأبى أن يؤديه. فدفعه إلى الزبير، وقال: عذبه حتى نستأصل ما عنده، فكان الزبير يقدح بزند فى صدره حتى أشرف على نفسه، ثم دفعه رسول الله ﷺ إلى محمد بن مسلمة، فضرب عنقه بمحمود بن مسلمة (وكان محمود قتل تحت جدار حصن ناعم، ألقى عليه الرحى، وهو يستظل بالجدار فمات).

وذكر ابن القيم أن رسول الله ﷺ أمر بقتل ابنى أبى الحقيق، وكان الذى اعترف عليهما بإخفاء المال هو ابن عم كنانة.

وسبى رسول الله ﷺ صفية بنت حيى بن أخطب، وكانت تحت كنانة بن أبى الحقيق، وكانت عروسًا حديثة عهد بالدخول.

قسمة الغنائم:

وأراد رسول الله ﷺ أن يجلى اليهود من خيبر، فقالوا: يا محمد، دعنا نكون فى هذه الأرض، نصلحها، ونقوم عليها، فنحن أعلم بها منكم، ولم يكن لرسول الله ﷺ ولا لأصحابه غلمان يقومون عليها، وكانوا لا يفرغون حتى يقوموا عليها، فأعطاهم خيبر على أن لهم الشطر من كل زرع، ومن كل ثمر، ما بدا لرسول الله ﷺ أن يقرهم، وكان عبد الله ابن رواحة يخرصه عليهم.

وقسم أرض خيبر على ستة وثلاثين سهمًا، جمع كل سهم مائة سهم، فكانت ثلاثة آلاف وستمائة سهم، فكان لرسول الله ﷺ والمسلمين النصف من ذلك وهو ألف وثمانمائة سهم، لرسول الله ﷺ سهم كسهم أحد المسلمين، وعزل النصف الآخر، وهو ألف وثمانمائة سهم، لنوائبه وما يتنزل به من أمور المسلمين، وإنما قسمت على ألف وثمانمائة سهم لأنها

---

(١) جِلْدًا.

كانت طعمة من الله لأهل الحديبية من شهد منهم ومن غاب، وكانوا ألفا وأربعمائة، وكان معهم مائتا فرس، لكل فرس سهمان، فقسمت على ألف وثمانمائة سهم، فصار للفارس ثلاثة أسهم، وللراجل سهم واحد[١].

ويدل على كثرة مغانم خيبر ما رواه البخارى عن ابن عمر قال: ما شبعنا حتى فتحنا خيبر، وما رواه عن عائشة قالت: لما فتحت خيبر قلنا: الآن نشبع من التمر[٢]، ولما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة رد المهاجرون إلى الأنصار منائحهم التى كانوا منحوهم إياها من النخيل حين صار لهم بخيبر مال ونخيل[٣].

قدوم جعفر بن أبى طالب والأشعريين:

وفى هذه الغزوة قدم عليه ابن عمه جعفر بن أبى طالب وأصحابه، ومعهم الأشعريون أبو موسى وأصحابه.

قال أبو موسى: بلغنا مخرج رسول الله ﷺ ونحن باليمن، فخرجنا مهاجرين إليه - أنا وأخوان لى - فى بضع وخمسين رجلًا من قومى، ركبنا سفينة، فألقتنا سفينتنا إلى النجاشى بالحبشة، فوافقنا جعفرًا وأصحابه عنده، فقال: إن رسول الله ﷺ بعثنا وأمرنا بالإقامة، فأقيموا معنا، فأقمنا معه حتى قدمنا فوافقنا رسول الله ﷺ حين فتح خيبر، فأسهم لنا، وما قسم لأحد غاب عن فتح خيبر شيئا إلا لمن شهد معه، إلا لأصحاب سفينتنا مع جعفر وأصحابه، قسم لهم معهم[٤].

ولما قدم جعفر على النبى ﷺ تلقاه وقَبَّلَ ما بين عينيه وقال: **«والله ما أدرى بأيهما أفرح؟ بفتح خيبر أم بقدوم جعفر»**[٥].

وكان قدوم هؤلاء على أثر بعث الرسول ﷺ إلى النجاشى عمرو بن أمية الضمرى يطلب توجيههم إليه، فأرسلهم النجاشى على مركبين، وكانوا ستة عشر رجلًا، معهم من بقى من نسائهم وأولادهم، وبقيتهم جاءوا إلى المدينة قبل ذلك[٦].

---

(١) زاد المعاد ٢/ ١٣٧، ١٣٨.

(٢) صحيح البخارى ٢/ ٦٠٩.

(٣) زاد المعاد ٢/ ١٤٨، وصحيح مسلم ٢/ ٩٦.

(٤) صحيح البخارى ١/ ٤٤٣، وانظر أيضا: فتح البارى ٧/ ٤٨٤- ٤٨٧.

(٥) زاد المعاد ٢/ ١٣٩، والمعجم الصغير للطبرانى ١/ ١٩.

(٦) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى ١/ ١٢٨.

الزواج بصفية:

ذكرنا أن صفية جعلت فى السبايا حين قتل زوجها كِنَانة بن أبى الحقيق لغدره، ولما جمع السبى جاء دحية بن خليفة الكلبى، فقال: يا نبى الله، أعطنى جارية من السبى، فقال: اذهب فخذ جارية، فأخذ صفية بنت حيى، فجاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: يا نبى الله، أعطيت دحية صفية بنت حيى سيدة قريظة وبنى النضير، لا تصلح إلا لك، قال: «**ادعوه بها**». فجاء بها، فلما نظر إليها النبي ﷺ قال: «**خذ جارية من السبى غيرها**»، وعرض عليها النبى ﷺ الإسلام فأسلمت، فأعتقها وتزوجها، وجعل عتقها صداقها، حتى إذا كان بسد الصهباء راجعًا إلى المدينة حلت، فجهزتها له أم سليم، فأهدتها له من الليل، فأصبح عروسًا بها، وأولم عليها بحيس من التمر والسمن والسَّوِيق، وأقام عليها ثلاثة أيام فى الطريق يبنى بها[1].

ورأى بوجهها خضرة، فقال: «ما هذا؟» قالت: يا رسول الله، رأيت قبل قدومك علينا كأن القمر زال من مكانه، وسقط فى حجرى، ولا والله ما أذكر من شأنك شيئا، فقصصتها على زوجى، فلطم وجهى. فقال: تمنين هذا الملك الذى بالمدينة[2].

أمر الشاة المسمومة:

ولما اطمأن رسول الله ﷺ بخيبر بعد فتحها أهدت له زينب بنت الحارث، امرأة سَلاَّم بن مِشْكَم، شاة مَصْلِيَّةً، وقد سألت أى عضو أحب إلى رسول الله ﷺ؟ فقيل لها: الذراع، فأكثرت فيها من السم، ثم سمت سائر الشاة، ثم جاءت بها، فلما وضعتها بين يدى رسول الله ﷺ تناول الذراع، فَلاَكَ منها مضغة فلم يسغها، ولفظها، ثم قال: «**إن هذا العظم ليخبرنى أنه مسموم**»، ثم دعا بها فاعترفت، فقال: «**ما حملك على ذلك؟**» قالت: قلت: إن كان ملكًا استرحت منه، وإن كان نبيًّا فسيخبر، فتجاوز عنها.

وكان معه بِشْر بن البراء بن مَعْرُور، أخذ منها أكلة فأساغها، فمات منها.

واختلفت الروايات فى التجاوز عن المرأة وقتلها، وجمعوا بأنه تجاوز عنها أولا، فلما مات بشر قتلها قصاصا[3].

---

(١) صحيح البخارى ١/ ٥٤، ٢/ ٦٠٤، ٦٠٦، وزاد المعاد ٢/ ١٣٧. والحيس: الخلط.

(٢) المصدر نفسه الأخير، وابن هشام ٢/ ٣٣٦.

(٣) انظر: زاد المعاد ٢/ ١٣٩، ١٤٠، وفتح البارى ٧/ ٤٩٧، وأصل القصة مروية فى البخارى مطولًا ومختصرًا: ١/ ٤٤٩، ٢/ ٦١٠، ٨٦٠، وفى ابن هشام ٢/ ٣٣٧، ٣٣٨. و «مصلية»: مشوية.

قتلى الفريقين فى معارك خيبر:

وجملة من استشهد من المسلمين فى معارك خيبر ستة عشر رجلًا، أربعة من قريش وواحد من أشْجَع، وواحد من أسْلَم، وواحد من أهل خيبر والباقون من الأنصار.

ويقال: إن شهداء المسلمين فى هذه المعارك ٨١ رجلًا.

وذكر العلامة المنصورفورى ٩١ رجلًا، ثم قال: إنى وجدت بعد التفحص ٣٢ اسما، واحد منها فى الطبرى فقط، وواحد عند الواقدى فقط، وواحد مات لأجل أكل الشاة المسمومة، وواحد اختلفوا هل قتل فى بدر أو خيبر، والصحيح أنه قتل فى بدر[(١)].

أما قتلى اليهود فعددهم ثلاثة وتسعون قتيلًا.

فَدَك:

ولما بلغ رسول الله ﷺ إلى خيبر، بعث مُحَيِّصَة بن مسعود إلى يهود فَدَك ليدعوهم إلى الإسلام، فأبطأوا عليه، فلما فتح الله خيبر قذف الرعب فى قلوبهم، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ يصالحونه على النصف من فدك بمثل ما عامل عليه أهل خيبر، فقبل ذلك منهم، فكانت فدك لرسول الله ﷺ خالصة؛ لأنه لم يُوجِف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب[(٢)].

وادى القُرَى:

ولما فرغ رسول الله ﷺ من خيبر، انصرف إلى وادى القرى، وكان بها جماعة من اليهود، وانضاف إليهم جماعة من العرب.

فلما نزلوا استقبلتهم يهود بالرمى، وهم على تعبئة، فقتل مِدْعَم - عَبْدٌ لرسول الله ﷺ - فقال الناس: هنيئا له الجنة، فقال النبى ﷺ: «**كلا، والذى نفسى بيده، إن الشَّمْلَة التى أخذها يوم خيبر من المغانم، لم تصبها المقاسم، لتشتعل عليه نارًا**»، فلما سمع بذلك الناس جاء رجل إلى النبى ﷺ بشِرَاك أو شراكين، فقال النبى ﷺ: «**شراك من نار أو شراكان من نار**»[(٣)].

ثم عَبَّأ رسول الله ﷺ أصحابه للقتال، وصَفَّهم، ودفع لواءه إلى سعد بن عبادة، وراية إلى الحُبَاب بن المنذر، وراية إلى سهل بن حُنَيْف، وراية إلى عباد بن بشر، ثم دعاهم إلى الإسلام فأبوا، وبرز رجل منهم، فبرز إليه الزبير بن العوام فقتله، ثم برز آخر فقتله، ثم

---

(١) رحمة للعالمين ٢/ ٢٦٨- ٢٧٠.

(٢) ابن هشام ٢/ ٣٣٧، ٣٥٣.

(٣) صحيح البخارى ٢/ ٦٠٨.

برز آخر فبرز إليه على بن أبى طالب رضي الله عنه فقتله، حتى قتل منهم أحد عشر رجلًا، كلما قتل منهم رجل دعا من بقى إلى الإسلام.

وكانت الصلاة تحضر هذا اليوم، فيصلى بأصحابه، ثم يعود، فيدعوهم إلى الإسلام وإلى الله ورسوله، فقاتلهم حتى أمسوا، وغدا عليهم فلم ترتفع الشمس قيد رمح حتى أعطوا ما بأيديهم، وفتحها عنوة، وغَنَّمَهُ اللهُ أموالهم، وأصابوا أثاثا ومتاعًا كثيرًا.

وأقام رسول الله ﷺ بوادى القرى أربعة أيام. وقسم على أصحابه ما أصاب بها، وترك الأرض والنخل بأيدى اليهود، وعاملهم عليها (كما عامل أهل خيبر)(١).

تَيْماء:

ولما بلغ يهود تيماء خبر استسلام أهل خيبر ثم فَدَك ووادى القُرَى، لم يبدوا أى مقاومة ضد المسلمين، بل بعثوا من تلقاء أنفسهم يعرضون الصلح، فقبل ذلك منهم رسول الله ﷺ، وأقاموا بأموالهم(٢). وكتب لهم بذلك كتابا وهاك نصه: «**هذا كتاب محمد رسول الله لبنى عاديا، أن لهم الذمة، وعليهم الجزية، ولا عداء ولا جلاء، الليل مد، والنهار شد**»، وكتب خالد بن سعيد(٣).

العودة إلى المدينة:

ثم أخذ رسول الله ﷺ فى العودة إلى المدينة، وفى الطريق أشرف الناس على واد فرفعوا أصواتهم بالتكبير: «**الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله**» فقال رسول الله ﷺ: «**أربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصَمَّ ولا غائبا، إنكم تدعون سميعا قريبا**»(٤).

وفى مرجعه ذلك سار النبى ﷺ ليلة، ثم نام فى آخر الليل ببعض الطريق، وقال لبلال: «**اكلأ لنا الليل**»، فغلبت بلالًا عيناه، وهو مستند إلى راحلته، فلم يستيقظ أحد، حتى ضربتهم الشمس، وأول من استيقظ بعد ذلك رسول الله ﷺ، ثم خرج من ذلك الوادى، وتقدم، ثم صلى الفجر بالناس، وقيل: إن هذه القصة فى غير هذا السفر(٥).

وبعد النظر فى تفصيل معارك خيبر، يبدو أن رجوع النبى ﷺ كان فى أواخر صفر أو فى ربيع الأول سنة ٧ هـ.

---

(١) زاد المعاد ٢/ ١٤٦، ١٤٧.
(٢) المصدر نفسه ٢/ ١٤٧.
(٣) ابن سعد ١/ ٢٧٩.
(٤) صحيح البخارى ٢/ ٦٠٥.
(٥) ابن هشام ٢/ ٣٤٠، والقصة معروفة مروية فى عامة كتب الحديث، وانظر: زاد المعاد ٢/ ١٤٧.

سرية أبَان بن سعيد:

كان النبى ﷺ يعرف أكثر من كل قائد عسكرى أن إخلاء المدينة تماما بعد انقضاء الأشهر الحرم ليس من الحزم قطعًا، بينما الأعراب ضاربة حولها، تطلب غرة المسلمين للقيام بالنهب والسلب وأعمال القرصنة ؛ ولذلك أرسل سرية إلى نجد لإرهاب الأعراب تحت قيادة أبان ابن سعيد، بينما كان هو إلى خيبر، وقد رجع أبان بن سعيد بعد قضاء ما كان واجبًا عليه، فوافى النبى ﷺ بخيبر، وقد افتتحها.

والأغلب أن هذه السرية كانت فى صفر سنة ٧هـ، وقد ورد ذكرها فى البخارى[١]. قال ابن حجر: لم أعرف حال هذه السرية[٢].

---

(١) انظر: صحيح البخارى: باب غزوة خيبر ٢/ ٦٠٨، ٦٠٩.

(٢) فتح البارى ٧/ ٤٩١.

بقية السرايا والغزوات
فى السنة السابعة

غزوة ذات الرِّقَاع:

ولما فرغ رسول الله ﷺ من كسر جناحين قويين من أجنحة الأحزاب الثلاثة تفرغ تمامًا للالتفات إلى الجناح الثالث، أى إلى الأعراب القساة الضاربين فى فيافى نجد، والذين ما زالوا يقومون بأعمال النهب والسلب بين آونة وأخرى.

ولما كان هؤلاء البدو لا تجمعهم بلدة أو مدينة، ولم يكونوا يقطنون الحصون والقلاع، كانت الصعوبة فى فرض السيطرة عليهم وإخماد نار شرهم تمامًا تزداد بكثير عما كانت بالنسبة إلى أهل مكة وخيبر ؛ ولذلك لم تكن تجدى فيهم إلا حملات التأديب والإرهاب، وقام المسلمون بمثل هذه الحملات مرة بعد أخرى.

ولفرض الشوكة - أو لاجتماع البدو الذين كانوا يتحشدون للإغارة على أطراف المدينة - قام رسول الله ﷺ بحملة تأديبية عرفت بغزوة ذات الرقاع.

وعامة أهل المغازى يذكرون هذه الغزوة فى السنة الرابعة، ولكن حضور أبى موسى الأشعرى وأبى هريرة رضي الله عنهما فى هذه الغزوة يدل على وقوعها بعد خيبر، والأغلب أنها وقعت فى شهر ربيع الأول سنة ٧ هـ.

وملخص ما ذكره أهل السير حول هذه الغزوة: أن النبى ﷺ سمع باجتماع بنى أنمار أو بنى ثعلبة وبنى مُحَارِب من غطفان، فأسرع بالخروج إليهم فى أربعمائة أو سبعمائة من أصحابه، واستعمل على المدينة أبا ذر أو عثمان بن عفان رضي الله عنهما، وسار فتوغل فى بلادهم حتى وصل إلى موضع يقال له: نخل، على بعد يومين من المدينة، ولقى جمعًا من غطفان، فتقاربوا وأخاف بعضهم بعضًا ولم يكن بينهم قتال، إلا أنه صلى بهم يومئذ صلاة الخوف. وفى رواية البخارى: وأقيمت الصلاة فصلى بطائفة ركعتين، ثم تأخروا، وصلى بالطائفة الأخرى ركعتين، وكان للنبى ﷺ أربع، وللقوم ركعتان[(١)].

وفى البخارى عن أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ ونحن ستة نفر بيننا بعير نعتقبه، فنقبت أقدامنا، ونقبت قدماى، وسقطت أظفارى، فكنا نلف

---

(١) صحيح البخارى ١/ ٤٠٧، ٤٠٨، ٢/ ٩٣.

على أرجلنا الخرق، فسميت ذات الرقاع، لما كنا نعصب الخرق على أرجلنا[١].

وفيه عن جابر: كنا مع النبى ﷺ بذات الرقاع، فإذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها للنبى ﷺ، فنزل رسول الله ﷺ فتفرق الناس فى العضاة، يستظلون بالشجر، ونزل رسول الله ﷺ تحت شجرة فعلق بها سيفه. قال جابر: فنمنا نومة، فجاء رجل من المشركين: فاخترط سيف رسول الله ﷺ، فقال: أتخافنى؟ قال: «**لا**»، قال: فمن يمنعك منى؟ قال: «**الله**». قال جابر: فإذا رسول الله ﷺ يدعونا، فجئنا، فإذا عنده أعرابى جالس. فقال رسول الله ﷺ: «**إن هذا اخترط سيفى وأنا نائم، فاستيقظت وهو فى يده صَلْتًا. فقال لى: من يمنعك منى؟ قلت: الله، فها هو ذا جالس**»، ثم لم يعاتبه رسول الله ﷺ. وفى رواية أبى عوانة: فسقط السيف من يده، فأخذه رسول الله ﷺ، فقال: «**من يمنعك منى؟**» قال: كن خير آخذ، قال: «**تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله؟**» قال الأعرابى: أعاهدك على ألا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك، قال: فخلى سبيله، فجاء إلى قومه، فقال: جئتكم من عند خير الناس[٢].

وفى رواية البخارى: قال مسدد عن أبى عوانة عن أبى بشر: اسم الرجل غَوْرَث ابن الحارث[٣]. قال ابن حجر: ووقع عند الواقدى فى سبب هذه القصة: أن اسم الأعرابى دُعْثُور، وأنه أسلم، لكن ظاهر كلامه أنهما قصتان فى غزوتين. والله أعلم[٤].

وفى مرجعهم من هذه الغزوة سبوا امرأة من المشركين، فنذر زوجها ألا يرجع حتى يهريق دمًا فى أصحاب محمد ﷺ، فجاء ليلًا، وقد أرصد رسول الله ﷺ رجلين رَبِيئة[٥] للمسلمين من العدو، وهما عباد بن بشر وعمار بن ياسر، فضرب عبادًا، وهو قائم يصلى، بسهم فنزعه، ولم يبطل صلاته، حتى رشقه بثلاثة أسهم، فلم ينصرف منها حتى سلم، فأيقظ صاحبه، فقال: سبحان الله! هلا نبهتنى، فقال: إنى كنت فى سورة فكرهت أن أقطعها[٦].

---

(١) صحيح البخارى: باب غزوة ذات الرقاع ٢/ ٥٩٢، وصحيح مسلم: باب غزوة ذات الرقاع ٢/ ١١٨.

(٢) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ٢٦٤، وانظر: فتح البارى ٧/ ٤١٦.

(٣) صحيح البخارى ٢/ ٥٩٣. (٤) فتح البارى ٧/ ٤٢٨.

(٥) شخص مخصص للمراقبة.

(٦) زاد المعاد ٢/ ١١٢، وانظر لتفصيل مباحث هذه الغزوة: ابن هشام ٢/ ٢٠٣- ٢٠٩، وزاد المعاد ٢/ ١١٠- ١١٢، وفتح البارى ٧/ ٤١٧- ٤٢٨.

كان لهذه الغزوة أثر فى قذف الرعب فى قلوب الأعراب القساة، وإذا نظرنا إلى تفاصيل السرايا بعدالغزوة نرى أن هذه القبائل من غطفان لم تجترئ أن ترفع رأسها بعد هذه الغزوة، بل استكانت شيئًا فشيئًا حتى استسلمت، بل وأسلمت، حتى نرى عدة قبائل من هذه الأعراب تقوم مع المسلمين فى فتح مكة، وتغزو حُنَيْنًا، وتأخذ من غنائمها، ويبعث إليها المصدقون فتعطى صدقاتها بعد الرجوع من غزوة الفتح، فبهذا تم كسر الأجنحة الثلاثة التى كانت ممثلة فى الأحزاب، وساد المنطقة الأمن والسلام، واستطاع المسلمون بعد ذلك أن يسدوا بسهولة كل خلل وثلمة حدثت فى بعض المناطق من بعض القبائل، بل بعد هذه الغزوة بدأت التمهيدات لفتوح البلدان والممالك الكبيرة ؛ لأن الظروف فى داخل البلاد كانت قد تطورت لصالح الإسلام والمسلمين.

وبعد الرجوع من هذه الغزوة أقام رسول الله ﷺ إلى شوال سنة ٧ هـ. وبعث فى خلال ذلك عدة سرايا. وهاك بعض تفصيلها:

١ - **سرية غالب بن عبد الله الليثى إلى بنى المُلَوَّح بُقدَيْد**: فى صفر أو ربيع الأول سنة ٧ هـ. كان بنو الملوح قد قتلوا أصحاب بشير بن سُوَيْد، فبعثت هذه السرية لأخذ الثأر، فشنوا الغارة فى الليل فقتلوا من قتلوا، وساقوا النعم، وطاردهم جيش كبير من العدو، حتى إذا قرب من المسلمين نزل مطر، فجاء سيل عظيم حال بين الفريقين. ونجح المسلمون فى بقية الانسحاب.

٢ - **سرية حِسْمَى**: فى جمادى الثانية سنة ٧هـ، وقد مضى ذكرها فى مكاتبة الملوك.

٣ - **سرية عمر بن الخطاب إلى تُرَبَة**: فى شعبان سنة ٧هـ، ومعه ثلاثون رجلًا. كانوا يسيرون الليل ويستخفون فى النهار، وأتى الخبر إلى هوازن فهربوا، وجاء عمر إلى محالهم فلم يلق أحدًا، فانصرف راجعًا إلى المدينة.

٤ - **سرية بشير بن سعد الأنصارى إلى بنى مرة بناحية فَدَك**: فى شعبان سنة ٧هـ فى ثلاثين رجلًا. خرج إليهم واستاق الشاء والنعم، ثم رجع فأدركه الطلب عند الليل، فرموهم بالنبل حتى فنى نبل بشير وأصحابه، فقتلوا جميعًا إلا بشير، فإنه ارْتُثَّ[1] إلى فدك، فأقام عند يهود حتى برأت جراحه، فرجع إلى المدينة.

٥ - **سرية غالب بن عبد الله الليثى**: فى رمضان سنة ٧ هـ إلى بنى عُوَال وبنى عبد بن

(١) حُمِل من المعركة جريحًا.

ثعلبة بالمَيْفَعَة، وقيل: إلى الحُرَقَات من جُهَيْنَة، فى مائة وثلاثين رجلًا، فهجموا عليهم جميعًا، وقتلوا من أشرف لهم، واستاقوا نعما وشاء، وفى هذه السرية قتل أسامةُ بن زيد نَهِيكَ بن مِرْدَاس بعد أن قال: لا إله إلا الله، فلما قدموا وأخبر النبى ﷺ، كبر عليه وقال: «**أقتلته بعد ما قال: لا إله إلا الله؟**» فقال: إنما قالها متعوذًا قال: «**فهلا شققت عن قلبه فتعلم أصادق هو أم كاذب؟**».

٦ - **سرية عبد الله بن رواحة إلى خيبر**: فى شوال سنة ٧ هـ فى ثلاثين راكبًا. وذلك أن أسِير أو بشير بن زارم كان يجمع غطفان لغزو المسلمين، فأخرجوا أسيرًا فى ثلاثين من أصحابه، وأطمعوه أن الرسول ﷺ يستعمله على خيبر، فلما كانوا بقَرْقَرَة نِيَار وقع بين الفريقين سوء ظن أفضى إلى قتل أسير وأصحابه الثلاثين. ذكر الواقدى هذه السرية فى شوال سنة ست قبل خيبر بأشهر.

٧ - **سرية بشير بن سعد الأنصارى إلى يمن وجَبار** (بالفتح، أرض لغطفان، وقيل: لفَزَارَة وعُذْرَة): فى شوال سنة ٧ هـ فى ثلاثمائة من المسلمين، للقاء جمع كبير تجمعوا للإغارة على أطراف المدينة، فساروا الليل وكمنوا النهار، فلما بلغهم مسير بشير هربوا، وأصاب بشير نعما كثيرة، وأسر رجلين، فقدم بهما المدينة إلى رسول الله ﷺ فأسلما.

٨ - **سرية أبى حَدْرَد الأسلمى إلى الغابة**: ذكرها ابن القيم فى سرايا السنة السابعة قبل عمرة القضاء، وملخصها: أن رجلا من جُشَم بن معاوية أقبل فى عدد كبير إلى الغابة، يريد أن يجمع قيسًا على محاربة المسلمين. فبعث رسول الله ﷺ أبا حدرد مع رجلين ليأتوا منه بخبر وعلم، فوصلوا إلى القوم مع غروب الشمس، فكمن أبو حدرد فى ناحية، وصاحباه فى ناحية أخرى، وأبطأ على القوم راعيهم حتى ذهبت فحمة العشاء، فقام رئيس القوم وحده، فلما مر بأبى حدرد رماه بسهم فى فؤاده فسقط ولم يتكلم، فاحتز أبو حدرد رأسه، وشد فى ناحية العسكر، وكبر، وكبر صاحباه وشدا، فما كان من القوم إلا الفرار، واستاق المسلمون الثلاثة الكثير من الإبل والغنم[1].

---

(١) زاد المعاد ٢/ ١٤٩، ١٥٠، وابن هشام ٢/ ٦٢٩، ٦٣٠ وعنده: ابن أبى حدرد، وانظر لتفصيل هذه السرايا: رحمة للعالمين ٢/ ٢٢٩- ٢٣١، وزاد المعاد ٢/ ١٤٨- ١٥٠، وتلقيح فهوم أهل الأثر مع حواشيها، ص ٣١، ومختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى، ص ٣٢٢- ٣٢٤.

عمرة القضاء

قال الحاكم: تواترت الأخبار أنه ﷺ لما هَلَّ ذو القعدة أمر أصحابه أن يعتمروا قضاء عمرتهم، وألا يتخلف منهم أحد شهد الحديبية، فخرجوا إلا من استشهد، وخرج معه آخرون معتمرين، فكانت عدتهم ألفين سوى النساء والصبيان. ا هـ[١].

واستخلف على المدينة عُوَيف بن الأضْبَط الدِّيلى، أو أبا رُهْم الغفارى، وساق ستين بدنة، وجعل عليها ناجية بن جُنْدُب الأسلمى، وأحرم للعمرة من ذى الحُلَيْفَة، ولبى، ولبى المسلمون معه، وخرج مستعدًّا بالسلاح والمقاتلة، خشية أن يقع من قريش غدر، فلما بلغ يَأْجُج وضع الأداة كلها: الحَجَف والمِجَانّ والنَّبْل والرِّماح، وخلف عليها أوس بن خَوْلِى الأنصارى فى مائتى رجل، ودخل بسلاح الراكب: السيوف فى القُرُب[٢].

وكان رسول الله ﷺ عند الدخول راكبًا على ناقته القَصْواء، والمسلمون متوشحون السيوف، محدقون برسول الله ﷺ يلبون.

وخرج المشركون إلى جبل قُعَيْقِعَان - الجبل الذى فى شمال الكعبة - ليروا المسلمين، وقد قالوا فيما بينهم: إنه يقدم عليكم وفد وهنتهم حمى يثرب، فأمر النبى ﷺ أصحابه أن يرملوا الأشواط الثلاثة، وأن يمشوا ما بين الركنين. ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم، وإنما أمرهم بذلك ليرى المشركين قوته[٣] كما أمرهم بالاضطباع، أى أن يكشفوا المناكب اليمنى، ويضعوا طرفى الرداء على اليسرى.

ودخل رسول الله ﷺ مكة من الثنية التى تطلعه على الحَجُون - وقد صف المشركون ينظرون إليه - فلم يزل يلبى حتى استلم الركن بمِحْجَنِه، ثم طاف، وطاف المسلمون، وعبد الله بن رواحة بين يدى رسول الله ﷺ يرتجز متوشحًا بالسيف:

خلوا بنى الكفار عن سبيله   خلوا فكل الخير فى رسوله
يارب إنى مؤمن بِقيلِه   إنى رأيت الحق فى قبوله
بأن خير القتل فى سبيله   اليوم نضربكم على تنزيله

---

(١) فتح البارى ٧/ ٥٠٠.

(٢) المصدر السابق نفسه، وزاد المعاد ٢/ ١٥١.

(٣) صحيح البخارى ١/ ٢١٨، ٢/ ٦١٠، ٦١١، وصحيح مسلم ١/ ٤١٢.

ضربا يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله[١]

وفى حديث أنس: فقال عمر: يا ابن رواحة، بين يدى رسول الله ﷺ، وفى حرم الله تقول الشعر؟ فقال له النبى ﷺ: «**خَلِّ عنه يا عمر، فلهو أسرع فيهم من نضح النبل**»[٢].

ورَمَلَ رسول الله ﷺ والمسلمون ثلاثة أشواط، فلما رآهم المشركون قالوا: هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم، هؤلاء أجلد من كذا وكذا[٣].

ولما فرغ من الطواف سعى بين الصفا والمروة، فلما فرغ من السعى، وقد وقف الهدى عند المروة، قال: «**هذا المنحر، وكل فجاج مكة منحر**»، فنحر عند المروة، وحلق هناك، وكذلك فعل المسلمون، ثم بعث ناسًا إلى يَأْجُج، ليقيموا على السلاح، ويأتى الآخرون فيقضون نسكهم ففعلوا.

وأقام رسول الله ﷺ بمكة ثلاثًا، فلما أصبح من اليوم الرابع أتوا عليًا فقالوا: قل لصاحبك: اخرج عنا فقد مضى الأجل، فخرج النبى ﷺ، ونزل بسَرِف فأقام بها.

ولما أراد الخروج من مكة تبعتهم ابنة حمزة، تنادى، يا عم يا عم، فتناولها على، واختصم فيها على وجعفر وزيد، فقضى النبى ﷺ لجعفر ؛ لأن خالتها كانت تحته.

وفى هذه العمرة تزوج النبى ﷺ بميمونة بنت الحارث العامرية، وكان رسول الله ﷺ قبل الدخول فى مكة بعث جعفر بن أبى طالب بين يديه إلى ميمونة، فجعلت أمرها إلى العباس، وكانت أختها أم الفضل تحته، فزوجها إياه، فلما خرج من مكة خلف أبا رافع ليحمل ميمونة إليه حين يمشى، فبنى بها بسرف[٤].

وسميت هذه العمرة بعمرة القضاء ؛ إما لأنها كانت قضاء عن عمرة الحُدَيْبِيَة، أو لأنها وقعت حسب المقاضاة - أى المصالحة - التى وقعت فى الحديبية، والوجه الثانى رجحه المحققون[٥]، وهذه العمرة تسمى بأربعة أسماء: القضاء، والقَضِيَّة، والقصاص، والصُّلح[٦].

وقد أرسل رسول الله ﷺ بعد الرجوع من هذه العمرة عدة سرايا، وهى كما يلى:

---

(١) اضطربت الأشعار وترتيبها فى الروايات فجمعنا بين شتيتها.

(٢) رواه الترمذى: أبواب الاستئذان والأدب، باب ما جاء فى إنشاد الشعر ٢/ ١٠٧.

(٣) صحيح مسلم ١/ ٤١٢.

(٤) زاد المعاد ٢/ ١٥٢.

(٥) انظر: زاد المعاد ١/ ١٧٢، وفتح البارى ٧/ ٥٠٠.

(٦) انظر: فتح البارى ٧/ ٥٠٠.

١ - **سرية ابن أبى العوجاء:** فى ذى الحجة سنة ٧ هـ فى خمسين رجلًا. بعثه رسول الله ﷺ إلى بنى سُلَيْم ؛ ليدعوهم إلى الإسلام، فقالوا: لا حاجة لنا إلى ما دعوتنا، ثم قاتلوا قتالًا شديدًا. جرح فيه أبو العوجاء، وأسر رجلان من العدو.

٢ - **سرية غالب بن عبد الله إلى مصاب أصحاب بشير بن سعد بفَدَك:** فى صفر سنة ٨ هـ. بعث فى مائتى رجل، فأصابوا من العدو نعما، وقتلوا منهم قتلى.

٣ - **سرية ذات أطلح:** فى ربيع الأول سنة ٨ هـ. كانت بنو قُضَاعَة قد حشدت جموعًا كبيرة للإغارة على المسلمين، فبعث إليهم رسول الله ﷺ كعب بن عمير الأنصارى فى خمسة عشر رجلًا، فلقوا العدو، فدعوهم إلى الإسلام، فلم يستجيبوا لهم، وأرشقوهم بالنبل حتى استشهد كلهم إلا رجل واحد، فقد ارْتُثَّ من بين القتلى[١].

٤ - **سرية ذات عِرْق إلى بنى هوازن:** فى ربيع الأول سنة ٨ هـ. كانت بنو هوازن قد أمدت الأعداء مرة بعد أخرى فأرسل إليها شُجَاع بن وهب الأسدى فى خمسة وعشرين رجلًا، فاستاقوا نَعَما من العدو، ولم يلقوا كيدًا[٢].

---

(١) رحمة للعالمين ٢/ ٢٣١. وارتث: حُمِل جريحا.

(٢) المصدر السابق نفسه، وتلقيح فهوم أهل الأثر لابن الجوزى، ص ٣٣ حاشية.

معركة مؤتة

وهذه المعركة أكبر لقاء مُثْخِن، وأعظم حرب دامية خاضها المسلمون فى حياة رسول الله ﷺ، وهى مقدمة وتمهيد لفتوح بلدان النصارى، وقعت فى جمادى الأولى سنة ٨هـ، وفق أغسطس أو سبتمبر سنة ٩٢٦ م.

ومؤتة (بالضم فالسكون) هى قرية بأدنى بلقاء الشام، بينها وبين بيت المقدس مرحلتان.

سبب المعركة:

وسبب هذه المعركة أن رسول الله ﷺ بعث الحارث بن عمير الأزدى بكتابه إلى عظيم بُصْرَى. فعرض له شُرَحْبِيل بن عمرو الغسانى - وكان عاملًا على البلقاء من أرض الشام من قبل قيصر - فأوثقه رباطًا، ثم قدمه، فضرب عنقه.

وكان قتل السفراء والرسل من أشنع الجرائم، يساوى بل يزيد على إعلان حالة الحرب، فاشتد ذلك على رسول الله ﷺ حين نقلت إليه الأخبار، فجهز إليهم جيشًا قوامه ثلاثة آلاف مقاتل[(١)]، وهو أكبر جيش إسلامى لم يجتمع قبل ذلك إلا فى غزوة الأحزاب.

أمراء الجيش ووصية رسول الله ﷺ إليهم:

أمر رسول الله ﷺ على هذا البعث زيد بن حارثة، وقال: «**إن قتل زيد فجعفر، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة**»[(٢)]، وعقد لهم لواء أبيض، ودفعه إلى زيد بن حارثة.

وأوصاهم أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير، وأن يدعوا مَنْ هناك إلى الإسلام، فإن أجابوا وإلا استعانوا بالله عليهم، وقاتلوهم، وقال لهم: «**اغزوا بسم الله، فى سبيل الله، مَنْ كفر بالله، لا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تقتلوا وليدًا ولا امرأة، ولا كبيرًا فانيًا، ولا منعزلًا بصومعة، ولا تقطعوا نخلًا ولا شجرة، ولا تهدموا بناء**»[(٣)].

---

(١) زاد المعاد ٢/ ١٥٥، وفتح البارى ٧/ ٥١١.

(٢) صحيح البخارى: باب غزوة مؤتة من أرض الشام ٢/ ٦١١.

(٣) مختصر السيرة للشيخ عبد الله، ص ٣٢٧، والحديث مروى بغير القصة فى صحيح مسلم وسنن أبى داود والترمذى وابن ماجه، وغيرها بألفاظ مختلفة.

توديع الجيش الإسلامى وبكاء عبد الله بن رواحة:

ولما تهيأ الجيش الإسلامى للخروج حضر الناس، وودعوا أمراء رسول الله ﷺ، وسلموا عليهم، وحينئذ بكى أحد أمراء الجيش - عبد الله بن رواحة - فقالوا: ما يبكيك؟ فقال: أما والله ما بى حب الدنيا، ولا صبابة بكم، ولكنى سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله يذكر فيها النار: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾ [مريم]، فلست أدرى كيف لى بالصدور بعد الورود؟ فقال المسلمون: صحبكم الله بالسلامة، ودفع عنكم، وردكم إلينا صالحين غانمين، فقال عبد الله بن رواحة:

لكننى أسأل الرحمن مغفرة ... وضربة ذات فرغ[1] تقذف الزَّبَدَا

أو طعنة بيَدَىْ حَرَّان مُجْهِزَة ... بحَرْبَة تُنْفِذُ الأحشاء والكبدا

حتى يقال إذا مروا على جَدَثِى[2] ... يا أرْشَدَ الله من غاز وقد رَشَدا

ثم خرج القوم، وخرج رسول الله ﷺ مشيعًا لهم حتى بلغ ثنية الوداع، فوقف وودّعهم[3].

تحرك الجيش الإسلامى، ومباغتته حالة رهيبة:

وتحرك الجيش الإسلامى فى اتجاه الشمال حتى نزل مَعَان، من أرض الشام، مما يلى الحجاز الشمالى، وحينئذ نقلت إليهم الاستخبارات بأن هرقل نازل بمآب من أرض البلقاء فى مائة ألف من الروم، وانضم إليهم من لَخْم وجُذَام وبَلْقَيْن وبَهْرَاء وبَلِى مائة ألف.

المجلس الاستشارى بمَعَان:

لم يكن المسلمون أدخلوا فى حسابهم لقاء مثل هذا الجيش العرمرم - الذى بوغتوا به فى هذه الأرض البعيدة - وهل يهجم جيش صغير، قوامه ثلاثة آلاف مقاتل فحسب، على جيش كبير عرمرم مثل البحر الخضم، قوامه مائتا ألف مقاتل؟ حار المسلمون، وأقاموا فى مَعَان ليلتين يفكرون فى أمرهم، وينظرون ويتشاورون، ثم قالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ، فنخبره بعدد عدونا، فإما أن يمدنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضى له.

ولكن عبد الله بن رواحة عارض هذا الرأى، وشجع الناس، قائلًا: يا قوم، والله إن

---

(١) الفرغ: السعة.

(٢) قبرى.

(٣) ابن هشام ٢/ ٣٧٣، ٣٧٤، زاد المعاد ٢/ ١٥٦.

التى تكرهون لَلَّتِى خرجتم تطلبون: الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به، فانطلقوا، فإنما هى إحدى الحسنيين، إما ظهور وإما شهادة. وأخيرًا استقر الرأى على ما دعا إليه عبد الله بن رواحة.

الجيش الإسلامى يتحرك نحو العدو:

وحينئذ بعد أن قضى الجيش الإسلامى ليلتين فى معان، تحركوا إلى أرض العدو، حتى لقيتهم جموع هرقل بقرية من قرى البلقاء يقال لها: (شَارِف) ثم دنا العدو، وانحاز المسلمون إلى مؤتة، فعسكروا هناك، وتعبأوا للقتال، فجعلوا على ميمنتهم قُطْبَة بن قتادة العُذْرِى، وعلى الميسرة عبادة ابن مالك الأنصارى.

بداية القتال، وتناوب القواد:

وهناك فى مؤتة التقى الفريقان، وبدأ القتال المرير، ثلاثة آلاف رجل يواجهون هجمات مائتى ألف مقاتل. معركة عجيبة تشاهدها الدنيا بالدهشة والحيرة، ولكن إذا هبت ريح الإيمان جاءت بالعجائب.

أخذ الراية زيد بن حارثة - حِبُّ رسول الله ﷺ - وجعل يقاتل بضراوة بالغة، وبسالة لا يوجد لها نظير إلا فى أمثاله من أبطال الإسلام، فلم يزل يقاتل ويقاتل حتى شاط فى رماح القوم، وخر صريعًا.

وحينئذ أخذ الراية جعفر بن أبى طالب، وطفقَ يقاتل قتالًا منقطع النظير، حتى إذا أرهقه القتال اقتحم عن فرسه الشقراء فعقرها، ثم قاتل حتى قطعت يمينه، فأخذ الراية بشماله، ولم يزل بها حتى قطعت شماله، فاحتضنها بعضديه، فلم يزل رافعًا إياها حتى قتل. يقال: إن روميًّا ضربه ضربةً قطعته نصفين، وأثابه الله بجناحيه جناحين فى الجنة، يطير بهما حيث يشاء ؛ ولذلك سمى بجعفر الطيار، وبجعفر ذى الجناحين.

روى البخارى عن نافع؛ أن ابن عمر أخبره: أنه وقف على جعفر يؤمئذ وهو قتيل، فعددت به خمسين بين طعنة وضربة، ليس منها شىء فى دبره، يعنى ظهره[١].

وفى رواية أخرى قال ابن عمر: كنت فيهم فى تلك الغزوة، فالتمسنا جعفر بن أبى طالب فوجدناه فى القتلى، ووجدنا ما فى جسده بضعًا وتسعين من طعنة ورمية[٢]. وفى

(١،٢) صحيح البخارى: باب غزوة مؤتة من أرض الشام ٢/ ٦١١.

رواية العمرى عن نافع زيادة: «فوجدنا ذلك فيما أقبل من جسده»[١].

ولما قتل جعفر بعد أن قاتل بمثل هذه الضراوة والبسالة، أخذ الراية عبد الله بن رواحة، وتقدم بها، وهو على فرسه، فجعل يستنزل نفسه، ويتردد بعض التردد، حتى حاد حيدة ثم قال:

أقسمت يانفس لَتَنْزِلَنَّه كارهة أو لتُطَاوِعَنَّه
إن أجْلَبَ الناس وشدوا الرَّنَّة مالى أراك تكرهين الجنة

ثم نزل، فأتاه ابن عم له بعَرْق من لحم فقال: شد بهذا صلبك، فإنك قد لقيت فى أيامك هذه ما لقيت، فأخذه من يده فانتهس منه نَهْسَة، ثم ألقاه من يده، ثم أخذ سيفه فتقدم، فقاتل حتى قتل.

الراية إلى سيف من سيوف الله:

وحينئذ تقدم رجل من بنى عَجْلان - اسمه ثابت بن أقرم - فأخذ الراية وقال: يا معشر المسلمين، اصطلحوا على رجل منكم، قالوا: أنت. قال: ما أنا بفاعل، فاصطلح الناس على خالد ابن الوليد، فلما أخذ الراية قاتل قتالًا مريرًا، فقد روى البخارى عن خالد ابن الوليد قال: لقد انقطعت فى يدى يوم مؤتة تسعة أسياف، فما بقى فى يدى إلا صفيحة يمانية[٢]. وفى لفظ آخر: لقد دق فى يدى يوم مؤتة تسعة أسياف، وصبرت فى يدى صفيحة لى يمانية[٣].

وقد قال رسول الله ﷺ يوم مؤتة - مخبرًا بالوحى، قبل أن يأتى إلى الناس الخبر من ساحة القتال: «**أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذ جعفر فأصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب** - وعيناه تذرفان - **حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله، حتى فتح الله عليهم**»[٤].

نهاية المعركة:

ومع الشجاعة البالغة والبسالة والضراوة المريرتين، كان مستغربًا جدًّا أن ينجح هذا الجيش الصغير فى الصمود أما تيارات ذلك البحر الغطمطم من جيوش الروم. ففى ذلك

(١) انظر: فتح البارى ٧/ ٥١٢، وظاهر الحديثين التخالف فى العدد، وجمع بأن الزيادة باعتبار ما وجد فيه من رمى السهام، انظر المصدر المذكور.

(٢،٣) صحيح البخارى: باب غزوة مؤتة من أرض الشام ٢/ ٦١١.

(٤) صحيح البخارى ٢/ ٦١١.

الوقت أظهر خالد بن الوليد مهارته ونبوغه فى تخليص المسلمين مما ورطوا أنفسهم فيه.

واختلفت الروايات كثيرًا فيما آل إليه أمر هذه المعركة أخيرًا. ويظهر بعد النظر فى جميع الروايات أن خالد بن الوليد نجح فى الصمود أمام جيش الرومان طول النهار، فى أول يوم من القتال. وكان يشعر بمسيس الحاجة إلى مكيدة حربية تلقى الرعب فى قلوب الرومان حتى ينجح فى الانحياز بالمسلمين من غير أن يقوم الرومان بحركات المطاردة. فقد كان يعرف جيدًا أن الإفلات من براثنهم صعب جدًّا لو انكشف المسلمون، وقام الرومان بالمطاردة.

فلما أصبح اليوم الثانى غير أوضاع الجيش، وعبأه من جديد، فجعل مقدمته ساقه، وميمنته ميسرة، وعلى العكس، فلما رآهم الأعداء أنكروا حالهم، وقالوا: جاءهم مدد، فرعبوا، وصار خالد - بعد أن تراءى الجيشان، وتناوشا ساعة - يتأخر بالمسلمين قليلًا قليلًا، مع حفظ نظام جيشه، ولم يتبعهم الرومان ظنًّا منهم أن المسلمين يخدعونهم، ويحاولون القيام بمكيدة ترمى بهم فى الصحراء.

وهكذا انحاز العدو إلى بلاده، ولم يفكر فى القيام بمطاردة المسلمين ونجح المسلمون فى الانحياز سالمين، حتى عادوا إلى المدينة[1].

قتلى الفريقين:

واستشهد يومئذ من المسلمين اثنا عشر رجلًا، أما الرومان، فلم يعرف عدد قتلاهم، غير أن تفصيل المعركة يدل على كثرتهم.

أثر المعركة:

وهذه المعركة وإن لم يحصل المسلمون بها على الثأر، الذى عانوا مرارتها لأجله، لكنها كانت كبيرة الأثر لسمعة المسلمين، إنها ألقت العرب كلها فى الدهشة والحيرة، فقد كانت الرومان أكبر وأعظم قوة على وجه الأرض، وكانت العرب تظن أن معنى جلادها هو القضاء على النفس وطلب الحتف بالظِّلْف، فكان لقاء هذا الجيش الصغير - ثلاثة آلاف مقاتل - مع ذلك الجيش الضخم العرمرم الكبير - مائتا ألف مقاتل - ثم الرجوع عن الغزو من غير أن تلحق به خسارة تذكر. كان كل ذلك من عجائب الدهر، وكان يؤكد أن

(١) انظر: فتح البارى ٧/ ٥١٣، ٥١٤، وزاد المعاد ٢/ ١٥٦، وتفصيل المعركة مأخوذ من هذين المصدرين والذى قبلهما.

المسلمين من طراز آخر غير ما ألفته العرب وعرفته، وأنهم مؤيدون ومنصورون من عند الله، وأن صاحبهم رسول الله حقًّا. ولذلك نرى القبائل اللدودة التى كانت لا تزال تثور على المسلمين جنحت بعد هذه المعركة إلى الإسلام، فأسلمت بنو سُلَيْم وأشْجَع وغَطَفَان وذُبْيَان وفَزَارَة وغيرها.

وكانت هذه المعركة بداية اللقاء الدامى مع الرومان، فكانت توطئة وتمهيدًا لفتوح البلدان الرومانية، واحتلال المسلمين الأراضى البعيدة النائية.

سرية ذات السَّلاسِل:

ولما علم رسول الله ﷺ بموقف القبائل العربية - التى تقطن مشارف الشام - فى معركة مؤتة من اجتماعهم إلى الرومان ضد المسلمين، شعر بمسيس الحاجة إلى القيام بحكمة بالغة توقع الفرقة بينها وبين الرومان، وتكون سببًا للائتلاف بينها وبين المسلمين، حتى لا تتحشد مثل هذه الجموع الكبيرة مرة أخرى.

واختار لتنفيذ هذه الخطة عمرو بن العاص ؛ لأن أم أبيه كانت امرأة من بَلِى. فبعثه إليهم فى جمادى الآخرة سنة ٨ هـ على إثر معركة مؤتة ؛ ليستألفهم، ويقال: بل نقلت الاستخبارات أن جمعًا من قُضَاعَة قد تجمعوا، يريدون أن يدنوا من أطراف المدينة، فبعثه إليه، ويمكن أن يكون السببان اجتمعا معًا.

وعقد رسول الله ﷺ لعمرو بن العاص لواء أبيض، وجعل معه راية سوداء، وبعثه فى ثلاثمائة من سراة المهاجرين والأنصار، ومعهم ثلاثون فرسًا، وأمره أن يستعين بمن مر به من بَلِى وعُذْرَةَ وبَلْقَيْنِ. فسار الليل وَكَمَنَ النهار، فلما قرب من القوم بلغه أن لهم جمعًا كثيرًا، فبعث رافع بن مَكِيثٍ الجُهَنِى إلى رسول الله ﷺ يستمده، فبعث إليه أبا عبيدة ابن الجراح فى مائتين، وعقد له لواء، وبعث له سراة المهاجرين والأنصار - فيهم أبو بكر وعمر - وأمره أن يلحق بعمرو، وأن يكونا جميعًا ولا يختلفا. فلما لحق به أراد أبو عبيدة أن يؤم الناس، فقال عمرو: إنما قدمت على مددا، وأنا الأمير، فأطاعه أبو عبيدة، فكان عمرو يصلى بالناس.

وسار حتى وطئ بلاد قُضَاعَة، فدوخها حتى أتى أقصى بلادهم، ولقى فى آخر ذلك جمعًا، فحمل عليهم المسلمون فهربوا فى البلاد وتفرقوا.

وبعث عوف بن مالك الأشجعى بريدًا إلى رسول الله ﷺ، فأخبره بقفولهم وسلامتهم، وما كان فى غزاتهم.

وذات السلاسل (بضم السين الأولى وفتحها: لغتان) بقعة وراء وادى القُرَى، بينها وبين المدينة عشرة أيام. وذكر ابن إسحاق أن المسلمين نزلوا على ماء بأرض جُذَام يقال له: السلسل، فسمى ذات السلاسل[١].

سرية أبى قتادة إلى خضرة:

كانت هذه السرية فى شعبان سنة ٨ هـ ؛ وذلك لأن بنى غَطَفَان كانوا يتحشدون فى خَضِرَة - وهى أرض مُحَارِب بنَجْد - فبعث إليهم رسول الله ﷺ أبا قتادة فى خمسة عشر رجلًا، فقتل منهم، وسَبَى وغنم، وكانت غيبته خمس عشرة ليلة[٢].

(١) انظر: ابن هشام ٢/ ٦٢٣-٦٢٦، وزاد المعاد ٢/ ١٥٧.

(٢) تلقيح فهوم أهل الأثر، ص ٣٣ وغيرها.

غزوة فتح مكة

قال ابن القيم: هو الفتح الأعظم الذى أعز الله به دينه ورسوله وجنده وحزبه الأمين، واستنقذ به بلده وبيته الذى جعله هدى للعالمين، من أيدى الكفار والمشركين، وهو الفتح الذى استبشر به أهل السماء، وضربت أطناب عِزِّه على مناكب الجوزاء، ودخل الناس به فى دين الله أفواجًا، وأشرق به وجه الأرض ضياء وابتهاجًا [(١)] ا. هـ.

سبب الغزوة:

قدمنا فى وقعة الحديبية أن بندًا من بنود هذه المعاهدة يفيد أن من أحب أن يدخل فى عقد محمد ﷺ وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه، وأن القبيلة التى تنضم إلى أى الفريقين تعتبر جزءًا من ذلك الفريق، فأى عدوان تتعرض له أى من تلك القبائل يعتبر عدوانًا على ذلك الفريق.

وحسب هذا البند دخلت خُزَاعَة فى عهد رسول الله ﷺ، ودخلت بنو بكر فى عهد قريش، وصارت كل من القبيلتين فى أمن من الأخرى، وقد كانت بين القبيلتين عداوة وتواترات فى الجاهلية، فلما جاء الإسلام، ووقعت هذه الهدنة، وأمن كل فريق من الآخر - اغتنمها بنو بكر، وأرادوا أن يصيبوا من خزاعة الثأر القديم، فخرج نَوْفَل بن معاوية الدِّيلى فى جماعة من بنى بكر فى شهر شعبان سنة ٨هـ، فأغاروا على خزاعة ليلًا، وهم على ماء يقال له: (الوَتِير) فأصابوا منهم رجالًا، وتناوشوا واقتتلوا، وأعانت قريش بنى بكر بالسلاح، وقاتل معهم رجال من قريش مستغلين ظلمة الليل، حتى حازوا خزاعة إلى الحرم، فلما انتهوا إليه قالت بنو بكر: يا نوفل، إنا قد دخلنا الحرم، إلهك إلهك، فقال كلمة عظيمة: لا إله اليوم يا بنى بكر، أصيبوا ثأركم. فلعمرى إنكم لتَسرِقُون فى الحرم، أفلا تصيبون ثأركم فيه؟

ولما دخلت خزاعة مكة لجأوا إلى دار بُدَيْل بن وَرْقَاء الخزاعى، وإلى دار مولى لهم يقال له: رافع.

وأسرع عمرو بن سالم الخزاعى، فخرج حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة، فوقف عليه، وهو جالس فى المسجد بين ظهرانى الناس فقال:

---

(١) زاد المعاد ٢ / ١٦٠.

يــــارب إنــــى نــاشــد محمد   حلفنا وحلف أبيه الأتْـلَـدَا[١]
قـد كنتم وُلْــدًا وكـنـا والــدا[٢]   ثُـمَّـةَ أسلمنا ولـم نـنـزع يـدا
فانصر هــداك الـلـه نـصـرًا أبـدا   وادع عـبـاد الـلـه يـأتـوا مـددا
فيهم رســول الـلـه قـد تـجـردا   أبيضَ مثل البدر يسموا صُعُدا
إن سيم خَسْفًا وَجْـهُـهُ تَـرَبَّـدَا   فى فَيْلَقٍ كالبحر يجرى مُزْبَدا
إن قـريـشـا أخـلـفـوك الـمـوعـدا   ونـقـضـوا مـيـثـاقـك الـمـؤكـدا
وجـعـلـوا لـى فـى كَـدَاء رَصَـدا   وزعـمـوا أن لَـسْـتُ أدعـو أحـدا
وهـــم أذل وأقـــل عـــددا   هـم بَـيَّـتُـونـا بـالـوَتِـيـر هُـجَّـدا
وقتلونا رُكَّـعًـا وسُـجَّـدًا[٣]

فقال رسول الله ﷺ: «**نصرت يا عمرو بن سالم**»، ثم عرضت له سحابة من السماء، فقال: «**إن هذه السحابة لتستهل بنصر بنى كعب**».

ثم خرج بُدَيْل بن وَرْقَاء الخزاعى فى نفر من خُزَاعَة، حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة، فأخبروه بمن أصيب منهم، وبمظاهرة قريش بنى بكر عليهم، ثم رجعوا إلى مكة.

أبو سفيان يخرج إلى المدينة ليجدد الصلح:

ولا شك أن ما فعلت قريش وحلفاؤها كان غدرًا محضًا ونقضًا صريحًا للميثاق، لم يكن له أى مبرر، ولذلك سرعان ما أحست قريش بغدرها، وخافت وشعرت بعواقبه الوخيمة، فعقدت مجلسًا استشاريًّا، وقررت أن تبعث قائدها أبا سفيان ممثلًا لها ليقوم بتجديد الصلح.

وقد أخبر رسول الله ﷺ أصحابه بما ستفعله قريش إزاء غدرتهم. قال: «**كأنكم بأبى سفيان قد جاءكم ليشد العَقْدَ، ويزيد فى المدة**».

وخرج أبو سفيان – حسب ما قررته قريش – فلقى بديل بن ورقاء بعُسْفَان – وهو راجع من المدينة إلى مكة – فقال: من أين أقبلت يا بديل؟ – وظن أنه أتى النبى ﷺ – فقال: سرت فى خزاعة فى هذا الساحل وفى بطن هذا الوادى. قال: أو ما جئت محمدًا؟ قال: لا.

---

(١) الأتلد: القديم، يشير إلى الحلف الذى كان بين خزاعة وبين بنى هاشم منذ عهد عبد المطلب.

(٢) يشير إلى أن أم عبد مناف– وهى حبى زوجة قصي– كانت من خزاعة.

(٣) يقول: قتلنا وقد أسلمنا.

فلما راح بديل إلى مكة قال أبو سفيان: لئن كان جاء المدينة لقد علف بها النوى، فأتى مبرك راحلته، فأخذ من بعرها، ففته، فرأى فيها النوى، فقال: أحلف بالله لقد جاء بديل محمدًا.

وقدم أبو سفيان المدينة، فدخل على ابنته أم حبيبة، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه، فقال: يا بنية، أرغبت بى عن هذا الفراش، أم رغبت به عنى؟ قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت رجل مشرك نجس. فقال: والله لقد أصابك بعدى شر.

ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ فكلمه، فلم يرد عليه شيئًا، ثم ذهب إلى أبى بكر فكلمه أن يكلم رسول الله ﷺ، فقال: ما أنا بفاعل. ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه، فقال: أأنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ؟ فوالله لو لم أجد إلا الذَّرَّ لجاهدتكم به، ثم جاء فدخل على على بن أبى طالب، وعنده فاطمة، وحسن، غلام يدب بين يديهما، فقال: يا على، إنك أمس القوم بى رحمًا، وإنى قد جئت فى حاجة، فلا أرجعن كما جئت خائبًا، اشفع لى إلى محمد، فقال: ويحك يا أبا سفيان، لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه. فالتفت إلى فاطمة، فقال: هل لك أن تأمرى ابنك هذا فيجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟ قالت: والله ما يبلغ ابنى ذاك أن يجير بين الناس، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ.

وحيئذ أظلمت الدنيا أمام عينى أبى سفيان، فقال لعلى بن أبى طالب فى هلع وانزعاج ويأس وقنوط: يا أبا الحسن، إنى أرى الأمور قد اشتدت على، فانصحنى، قال: والله ما أعلم لك شيئًا يغنى عنك. ولكنك سيد بنى كنانة، فقم فأجر بين الناس، ثم الْحَقْ بأرضك. قال: أو ترى ذلك مغنيًا عنى شيئًا؟ قال: لا والله ما أظنه، ولكنى لم أجد لك غير ذلك. فقام أبو سفيان فى المسجد، فقال: أيها الناس، إنى قد أجرت بين الناس، ثم ركب بعيره، وانطلق.

ولما قدم على قريش، قالوا: ما وراءك؟ قال: جئت محمدًا فكلمته، فوالله ما رد على شيئًا، ثم جئت ابن أبى قحافة فلم أجد فيه خيرًا، ثم جئت عمر بن الخطاب، فوجدته أدنى العدو، ثم جئت عليًا فوجدته ألين القوم، قد أشار على بشىء صنعته، فوالله ما أدرى هل يغنى عنى شيئًا أم لا؟ قالوا: وبم أمرك؟ قال: أمرنى أن أجير بين الناس، ففعلت، قالوا: فهل أجاز ذلك محمد؟ قال: لا. قالوا: ويلك، إن زاد الرجل على أن لعب بك. قال: لا والله ما وجدت غير ذلك.

التهيؤ للغزوة ومحاولة الإخفاء:

يؤخذ من رواية الطبرانى أن رسول الله ﷺ أمر عائشة - قبل أن يأتى إليه خبر نقض الميثاق بثلاثة أيام - أن تجهزه، ولا يعلم أحد، فدخل عليها أبو بكر، فقال: يابنية، ما هذا الجهاز؟ قالت: والله ما أدرى. فقال: والله ما هذا زمان غزو بنى الأصفر، فأين يريد رسول الله؟ قالت: والله لا علم لى، وفى صباح الثالثة جاء عمرو بن سالم الخزاعى فى أربعين راكبًا، وارتجز: يا رب إنى ناشد محمدًا... الأبيات. فعلم الناس بنقض الميثاق، وبعد عمرو جاء بديل، ثم أبو سفيان، وتأكد عند الناس الخبر، فأمرهم رسول الله ﷺ بالجهاز، وأعلمهم أنه سائر إلى مكة، وقال: «**اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها**».

وزيادة فى الإخفاء والتعمية بعث رسول الله ﷺ سرية قوامها ثمانية رجال، تحت قيادة أبى قتادة بن رِبْعِى، إلى بطن إضَم، فيما بين ذى خَشَب وذى المروة، على ثلاثة بُرُد من المدينة، فى أول شهر رمضان سنة ٨ هـ؛ ليظن الظان أنه ﷺ يتوجه إلى تلك الناحية، ولتذهب بذلك الأخبار، وواصلت هذه السرية سيرها، حتى إذا وصلت حيثما أمرت بلغها أن رسول الله ﷺ خرج إلى مكة، فسارت إليه حتى لحقته(١).

وكتب حاطب بن أبى بَلْتَعَة إلى قريش كتابًا يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ إليهم، ثم أعطاه امرأة، وجعل لها جُعْلًا على أن تبلغه قريشًا، فجعلته فى قرون رأسها، ثم خرجت به، وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما صنع حاطب، فبعث عليًّا والمقداد والزبير بن العوام وأبا مَرْثَد الغَنَوِى فقال: «**انطلقوا حتى تأتوا رَوْضَةَ خَاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب إلى قريش**»، فانطلقوا تعادى بهم خيلهم حتى وجدوا المرأة بذلك المكان، فاستنزلوها، وقالوا: معك كتاب؟ فقالت: ما معى كتاب، ففتشوا رحلها فلم يجدوا شيئًا. فقال لها على: أحلف بالله، ما كذب رسول الله ﷺ ولا كذبنا، والله لتخرجن الكتاب أو لنجردنك. فلما رأت الجد منه قالت: أعرض، فأعرض، فحلت قرون رأسها، فاستخرجت الكتاب منها، فدفعته إليهم، فأتوا به رسول الله ﷺ، فإذا فيه: «**من حاطب بن أبى بلتعة إلى قريش**» يخبرهم بمسير

---

(١) وهذه السرية لقيت عامر بن الأضبط، فسلم عليهم بتحية الإسلام، فقتله مُحَلِّم بن جثامة لشىء كان بينهما، وأخذ بعيره ومُتَيعه، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ الآية، وجاءوا بمحلم ليستغفر له رسول الله ﷺ، فلما قام بين يديه قال: «اللهم لا تغفر لمحلم»، وقالها ثلاثا، فقام وإنه ليتلقى دموعه بطرف ثوبه، قال ابن إسحاق: وزعم قومه أنه استغفر له بعد ذلك. انظر: زاد المعاد ٢/ ١٥٠، وابن هشام ٢/ ٦٢٦ - ٦٢٨.

رسول الله ﷺ، فدعا رسول الله ﷺ حاطبًا، فقال: **«ما هذا يا حاطب؟»** فقال: لا تَعْجَلْ على يا رسول الله. والله إنى لمؤمن بالله ورسوله، وما ارتددت ولا بدلت، ولكنى كنت امرأ مُلْصَقًا فى قريش ؛ لست من أنْفَسِهم، ولى فيهم أهل وعشيرة وولد، وليس لى فيهم قرابة يحمونهم، وكان من معك له قرابات يحمونهم، فأحببت إذ فاتنى ذلك أن أتخذ عندهم يدًا يحمون بها قرابتى. فقال عمر بن الخطاب: دعنى يا رسول الله أضرب عنقه، فإنه قد خان الله ورسوله، وقد نافق، فقال رسول الله ﷺ: **«إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»**، فذَرَفَتْ عينا عمر، وقال: الله ورسوله أعلم(١).

وهكذا أخذ الله العيون، فلم يبلغ إلى قريش أى خبر من أخبار تجهز المسلمين وتهيئهم للزحف والقتال.

الجيش الإسلامى يتحرك نحو مكة:

ولعشر خلون من شهر رمضان المبارك ٨هـ، غادر رسول الله ﷺ المدينة متجهًا إلى مكة، فى عشرة آلاف من الصحابة رضي الله عنهم، واستخلف على المدينة أبا رُهْم الغفارى.

ولما كان بالجُحْفَة - أو فوق ذلك - لقيه عمه العباس بن عبد المطلب، وكان قد خرج بأهله وعياله مسلمًا مهاجرًا، ثم لما كان رسول الله ﷺ بالأبواء لقيه ابن عمه أبو سفيان بن الحارث وابن عمته عبد الله بن أبى أمية، فأعرض عنهما، لما كان يلقاه منهما من شدة الأذى والهجو، فقالت له أم سلمة: لا يكن ابن عمك وابن عمتك أشقى الناس بك. وقال على لأبى سفيان بن الحارث: ائت رسول الله ﷺ من قبل وجهه، فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف: ﴿قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾﴾ [يوسف]، فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه قولًا. ففعل ذلك أبو سفيان، فقال له رسول الله ﷺ: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [يوسف]، فأنشده أبو سفيان أبياتًا منها:

لـعَـمْـرُكَ إنـى حين أحمل رايـة لِتَغْلِبَ خَيْلُ اللات خَيْلَ محمد
لكالمُدْلِج الحيران أظلمَ ليلُه فهذا أوانـي حين أهـدَى فأهتدي
هـدانـى هـادٍ غير نفسى ودَلَّـنـى على الله من طَـرَّدْتُـه كل مُطَرَّد

(١) انظر: صحيح البخارى ١/ ٤٢٢، ٢/ ٦١٢.

فضرب رسول الله ﷺ صدره وقال: «**أنتَ طَرَّدْتَنِى كل مُطَرَّد؟**»(١).

الجيش الإسلامى ينزل بمَرِّ الظَّهْرَان:

وواصل رسول الله ﷺ سيره وهو صائم، والناس صيام، حتى بلغ الكُدَيْد – وهو ماء بين عُسْفَان وقُدَيْد – فأفطر، وأفطر الناس معه(٢). ثم واصل سيره حتى نزل بمر الظهران – وادى فاطمة – نزله عشاء، فأمر الجيش، فأوقدوا النيران، فأوقدت عشرة آلاف نار، وجعل رسول الله ﷺ على الحرس عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

أبو سفيان بين يدى رسول الله ﷺ:

وركب العباس – بعد نزول المسلمين بمر الظهران – بغلة رسول الله ﷺ البيضاء، وخرج يلتمس، لعله يجد بعض الحَطَّابة أو أحدًا يخبر قريشًا ليخرجوا يستأمنون رسول الله ﷺ قبل أن يدخلها.

وكان الله قد عمى الأخبار عن قريش، فهم على وَجَلٍ وترقب، وكان أبو سفيان يخرج يتجسس الأخبار، فكان قد خرج هو وحكيم بن حزام، وبديل بن ورقاء يتجسسون الأخبار.

قال العباس: والله إنى لأسير عليها – أى على بغلة رسول الله ﷺ – إذ سمعت كلام أبى سفيان وبديل بن ورقاء، وهما يتراجعان، وأبو سفيان يقول: ما رأيت كالليلة نيرانًا قط ولا عسكرًا. قال: يقول بديل: هذه والله خزاعة، حَمَشَتْها(٣) الحرب، فيقول أبو سفيان: خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها.

قال العباس: فعرفت صوته، فقلت: أبا حَنْظَلَة؟ فعرف صوتى، فقال: أبا الفضل؟ قلت: نعم. قال: مالك؟ فداك أبى وأمى. قلت: هذا رسول الله ﷺ فى الناس، واصباح قريش والله.

---

(١) ابن هشام ٤/ ٤١، ٤٢، ودلائل النبوة للبيهقى ٥/ ٢٨.

حسن إسلام أبى سفيان هذا بعد ذلك، ويقال: إنه ما رفع رأسه إلى رسول الله ﷺ منذ أسلم حياء منه. وكان رسول الله ﷺ يحبه، وشهد له بالجنة، وقال: «**أرجو أن يكون خلفا من حمزة**». ولما حضرته الوفاة قال: لا تبكوا عليّ، فوالله ما نطقت بخطيئة منذ أسلمت. زاد المعاد ٢/ ١٦٢، ١٦٣.

(٢) رواه أحمد في مسنده ١/ ٢٦٦، وقال الهيثمى فى المجمع (٦/ ١٦٧):«رجاله رجال الصحيح، غير ابن إسحاق، وقد صرح بالسماع»، وابن هشام ٤/ ٤٠.

(٣) أحرقتها.

قال: فما الحيلة فداك أبى وأمى؟، قلت: والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب فى عجز هذه البغلة، حتى آتى بك رسول الله ﷺ فأستأمنه لك، فركب خلفى، ورجع صاحباه.

قال: فجئت به، فكلما مررت به على نار من نيران المسلمين، قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ وأنا عليها قالوا: عم رسول الله ﷺ على بغلته. حتى مررت بنار عمر ابن الخطاب فقال: من هذا؟ وقام إلى، فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال: أبو سفيان، عدو الله؟ الحمد لله الذى أمكن منك بغير عقد ولا عهد، ثم خرج يشتد نحو رسول الله ﷺ، وركضتُ البغلة فسبقت، فاقتحمت عن البغلة، فدخلت على رسول الله ﷺ، ودخل عليه عمر، فقال: يا رسول الله، هذا أبو سفيان فدعنى أضرب عنقه، قال: قلت: يا رسول الله، إنى قد أجرته، ثم جلست إلى رسول الله ﷺ فأخذت برأسه، فقلت: والله لا يناجيه الليلة أحد دونى، فلما أكثر عمر فى شأنه قلت: مهلًا يا عمر، فوالله لو كان من رجال بنى عدى بن كعب ما قلت مثل هذا، قال: مهلًا يا عباس، فوالله لإسلامك كان أحب إلى من إسلام الخطاب، لو أسلم، وما بى إلا أنى قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب.

فقال رسول الله ﷺ: «**اذهب به يا عباس إلى رحلك، فإذا أصبحت فأتنى به**»، فذهبت، فلما أصبحت غدوت به إلى رسول الله ﷺ، فلما رآه قال: «**ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟**» قال: بأبى أنت وأمى، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك؟ لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عنى شيئًا بعد.

قال: «**ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله؟**»، قال: بأبى أنت وأمى، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك: أما هذه فإن فى النفس حتى الآن منها شيء. فقال له العباس: ويحك أسلم، واشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، قبل أن تضرب عنقك، فأسلم وشهد شهادة الحق.

قال العباس: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئًا. قال: «**نعم، من دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن**».

الجيش الإسلامى يغادر مر الظهران إلى مكة:

وفى هذا الصباح - صباح يوم الثلاثاء للسابع عشر من شهر رمضان سنة ٨ هـ -

غادر رسول الله ﷺ مر الظهران إلى مكة، وأمر العباس أن يحبس أبا سفيان بمضيق الوادى عند خَطْم الجبل، حتى تمر به جنود الله فيراها، ففعل، فمرت القبائل على راياتها، كلما مرت به قبيلة قال: يا عباس، من هذه؟ فيقول - مثلا - سليم، فيقول: مالى ولِسُلَيْم؟ ثم تمر به القبيلة فيقول: يا عباس، من هؤلاء؟ فيقول: مُزَيْنَة، فيقول: ما لى ولمزينة؟ حتى نفذت القبائل، ما تمر به قبيلة إلا سأل العباس عنها، فإذا أخبره قال: مالى ولبنى فلان؟ حتى مر به رسول الله ﷺ فى كتيبته الخضراء، فيها المهاجرون والأنصار، لا يرى منهم إلا الحَدَق من الحديد، قال: سبحان الله ! يا عباس، من هؤلاء؟ قال: هذا رسول الله ﷺ فى المهاجرين والأنصار، قال: ما لأحد بهؤلاء قِبَلٌ ولا طاقة. ثم قال: والله يا أبا الفضل، لقد أصبح مُلْكُ ابن أخيك اليوم عظيمًا. قال العباس: يا أبا سفيان، إنها النبوة، قال: فنعم إذن.

وكانت راية الأنصار مع سعد بن عبادة، فلما مر بأبى سفيان قال له: اليوم يوم الملحمة، اليوم تُسْتَحَلُّ الحُرْمَة، اليوم أذل الله قريشًا. فلما حاذى رسول الله ﷺ أبا سفيان قال: يا رسول الله، ألم تسمع ما قال سعد؟ قال: «**وما قال؟**» فقال: قال كذا وكذا. فقال عثمان وعبد الرحمن ابن عوف: يا رسول الله، ما نأمن أن يكون له فى قريش صولة، فقال رسول الله ﷺ: «**بل اليوم يوم تُعَظَّم فيه الكعبة، اليوم يوم أعز الله فيه قريشًا**» ثم أرسل إلى سعد فنزع منه اللواء، ودفعه إلى ابنه قيس، ورأى أن اللواء لم يخرج عن سعد. وقيل: بل دفعه إلى الزبير.

قريش تباغت زحف الجيش الإسلامى:

ولما مر رسول الله ﷺ بأبى سفيان ومضى قال له العباس: النجاء إلى قومك. فأسرع أبو سفيان حتى دخل مكة، وصرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمد، قد جاءكم فيما لا قبل لكم به. فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن. فقامت إليه زوجته هند بنت عتبة فأخذت بشاربه فقالت: اقتلوا الحَمِيت[1] الدسم الأحمش الساقين، قُبِّحَ من طَلِيعَة قوم.

قال أبو سفيان: ويلكم، لاتغرنكم هذه من أنفسكم، فإنه قد جاءكم بما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن. قالوا: قاتلك الله، وما تغنى عنا دارك؟ قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن. فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد، ووبشوا أوباشًا لهم، وقالوا: نقدم هؤلاء، فإن كان لقريش شىء كنا معهم، وإن أصيبوا أعطينا الذى سئلنا. فتجمع سفهاء قريش وأخِفَّاؤها مع عكرمة بن أبى جهل، وصفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو بالخَنْدَمَة ليقاتلوا المسلمين. وكان فيهم رجل من بنى بكر - حِمَاس

(١) وعاء السمن.

ابن قيس - كان يعد قبل ذلك سلاحًا، فقالت له امرأته: لماذا تعد ما أرى؟ قال: لمحمد وأصحابه. قالت: والله ما يقوم لمحمد وأصحابه شيء. قال: إنى والله لأرجو أن أخدمك بعضهم، ثم قال:

إن يقبلوا اليوم فمالى عِلَّه هـذا سلاح كامل وألَّه[1]
وذو غِرَارَيْن[2] سريع السَّلَّة

فكان هذا الرجل فيمن اجتمعوا فى الخندمة.

الجيش الإسلامى بذى طُوَى:

أما رسول الله ﷺ فمضى حتى انتهى إلى ذى طوى - وكان يضع رأسه تواضعًا لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، حتى أن شعر لحيته ليكاد يمس واسطة الرحل - وهناك وزع جيشه، وكان خالد بن الوليد على المُجَنِّبَةِ اليمنى - وفيها أَسْلَمُ وسُلَيْم وغِفَار ومُزَيْنَة وجُهَيْنَة وقبائل من قبائل العرب - فأمره أن يدخل مكة من أسفلها، وقال: «**إن عرض لكم أحد من قريش فاحصدوهم حصدًا، حتى توافونى على الصفا**».

وكان الزبير بن العوام على المُجَنِّبَةِ اليسرى، وكان معه راية رسول الله ﷺ، فأمره أن يدخل مكة من أعلاها - من كَدَاء - وأن يغرز رايته بالحَجُون، ولا يبرح حتى يأتيه.

وكان أبو عبيدة على الرجالة والحُسَّر - وهم الذيم لاسلاح معهم - فأمره أن يأخذ بطن الوادى حتى ينصب لمكة بين يدى رسول الله ﷺ.

الجيش الإسلامى يدخل مكة:

وتحركت كل كتيبة من الجيش الإسلامى على الطريق التى كلفت الدخول منها.

فأما خالد وأصحابه فلم يلقهم أحد من المشركين إلا أناموه. وقتل من أصحابه من المسلمين كُرْز بن جابر الفِهْرِى وخُنَيْس بن خالد بن ربيعة. كانا قد شذا عن الجيش، فسلكا طريقًا غير طريقه فقتلا جميعًا، وأما سفهاء قريش فلقيهم خالد وأصحابه بالخَنْدَمَة فناوشوهم شيئًا من قتال، فأصابوا من المشركين اثنى عشر رجلًا، فانهزم المشركون، وانهزم حِمَاس بن قيس - الذى كان يعد السلاح لقتال المسلمين - حتى دخل بيته، فقال لامرأته: أغلقى على بابى.

---

(١) الألة: الحربة. (٢) سيف ذو حدين.

فقالت: وأين ما كنت تقول؟ فقال:

إنك لو شَهدتِ يوم الخَنْدَمَه إذ فَرَّ صفوان وفر عِكْرِمه
واستقبلتنا بالسيوف المُسْلِمَه يقطعن كل ساع وجُمْجُمَه
ضربًا فلا يُسْمَعْ إلا غَمْغَمَه(١) لهم نَهِيتٌ خلفنا هَمْهَمَه
لم تَنْطِقى فى اللَّومِ أدنى كَلِمَه

وأقبل خالد يجوس مكة حتى وافى رسول الله ﷺ على الصفا.

وأما الزبير فتقدم حتى نصب راية رسول الله ﷺ بالحَجُون عند مسجد الفتح، وضرب له هناك قبة، فلم يبرح حتى جاءه رسول الله ﷺ.

الرسول ﷺ يدخل المسجد الحرام ويطهره من الأصنام:

ثم نهض رسول الله ﷺ، والمهاجرون والأنصار بين يديه وخلفه وحوله، حتى دخل المسجد، فأقبل إلى الحجر الأسود، فاستلمه، ثم طاف بالبيت، وفى يده قوس، وحول البيت ثلاثمائة وستون صنما، فجعل يطعنها بالقوس، ويقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء]، ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾ [سبأ] والأصنام تتساقط على وجوهها.

وكان طوافه على راحلته، ولم يكن محرمًا يومئذ، فاقتصر على الطواف، فلما أكمله دعا عثمان ابن طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة، فأمر بها ففتحت فدخلها، فرأى فيها الصور، ورأى فيها صورة إبراهيم، وإسماعيل - عليهما السلام - يستقسمان بالأزلام، فقال: «**قاتلهم الله، والله ما استقسما بها قط**». ورأى فى الكعبة حمامة من عيدان، فكسرها بيده، وأمر بالصور فمحيت.

الرسول ﷺ يصلى فى الكعبة ثم يخطب أمام قريش:

ثم أغلق عليه الباب، وعلى أسامة وبلال، فاستقبل الجدار الذى يقابل الباب حتى إذا كان بينه وبينه ثلاثة أذرع وقف، وجعل عمودين عن يساره، وعمودًا عن يمينه، وثلاثة أعمدة وراءه - وكان البيت يومئذ على ستة أعمدة - ثم صلى هناك. ثم دار فى البيت، وكبر فى نواحيه، ووحد الله، ثم فتح الباب، وقريش قد ملأت المسجد صفوفًا ينتظرون ماذا

---

(١) الغمغمة: أصوات الأبطال. والنهيت: صياح الأسد. والهمهمة: صوت فى الصدر.

يصنع؟ فأخذ بعضادتى الباب وهم تحته، فقال:

«**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثُرَة أو مال أو دم فهو تحت قدمى هاتين، إلا سِدَانَة البيت وسِقاية الحاج، ألاوقتيل الخطأ شبه العمد - السوط والعصا - ففيه الدية مغلظة، مائة من الإبل أربعون منها فى بطونها أولادها**».

«**يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب**» ثم تلا هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات].

لا تثريب عليكم اليوم:

ثم قال: «**يا معشر قريش، ما ترون أنى فاعل بكم؟**» قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم، قال: «**فإنى أقول لكم كما قال يوسف لإخوته:** ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ **اذهبوا فأنتم الطلقاء**».

مفتاح البيت إلى أهله:

ثم جلس رسول الله ﷺ فى المسجد فقام إليه على رضي الله عنه ومفتاح الكعبة فى يده فقال: اجمع لنا الحجابة مع السقاية، صلى الله عليك - وفى رواية: أن الذى قال ذلك هو العباس - فقال رسول الله ﷺ: «**أين عثمان بن طلحة؟**». فدعى له، فقال له: «**هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم بر ووفاء**»، وفى رواية ابن سعد فى الطبقات: أنه قال له حين دفع المفتاح إليه: «**خذوها خالدة تالدة، لا ينزعها منكم إلا ظالم، يا عثمان إن الله استأمنكم على بيته، فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف**».

بلال يؤذن على الكعبة:

وحانت الصلاة، فأمر رسول الله ﷺ بلالا أن يصعد فيؤذن على الكعبة، وأبو سفيان بن حرب، وعتاب بن أسيد، والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة، فقال عتاب: لقد أكرم الله أسيدا ألا يكون سمع هذا، فيسمع منه ما يغيظه. فقال الحارث: أما والله لو أعلم أنه حق لاتبعته. فقال أبو سفيان: أما والله لا أقول شيئًا، لو تكلمت لأخبرت عنى هذه الحصباء. فخرج عليهم النبى ﷺ فقال لهم: «**لقد علمت الذى قلتم**» ثم ذكر ذلك لهم.

فقال الحارث وعتاب: نشهد أنك رسول الله، والله ما اطلع على هذا أحد كان معنا فنقول أخبرك.

صلاة الفتح أو صلاة الشكر:

ودخل رسول الله ﷺ يومئذ دار أم هانئ بنت أبى طالب، فاغتسل وصلى ثمانى ركعات فى بيتها - وكان ضحى - فظنها من ظنها صلاة الضحى، وإنما هذه صلاة الفتح، وأجارت أم هانئ حموين لها، فقال رسول الله ﷺ: «**قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ**»، وقد كان أخوها على بن أبى طالب أراد أن يقتلهما، فأغلقت عليهما باب بيتها، وسألت النبى ﷺ، فقال لها ذلك.

إهدار دم رجال من أكابر المجرمين:

وأهدر رسول الله ﷺ يومئذ دماء تسعة نفر من أكابر المجرمين، وأمر بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة، وهم عبد العزى بن خطل، وعبدالله بن سعد بن أبى سرح، وعكرمة بن أبى جهل، والحارث بن نفيل بن وهب، ومقيس بن صبابة، وهبار بن الأسود، وقينتان كانتا لابن الأخطل، كانتا تغنيان بهجو النبى ﷺ، وسارة مولاة لبعض بنى عبد المطلب، وهى التى وجد معها كتاب حاطب.

فأما ابن أبى سرح فجاء به عثمان إلى النبى ﷺ، وشفع فيه، فحقن دمه، وقبل إسلامه بعد أن أمسك عنه رجاء أن يقوم إليه بعض الصحابة فيقتله، وكان قد أسلم قبل ذلك وهاجر، ثم ارتد ورجع إلى مكة.

وأما عكرمة بن أبى جهل، ففر إلى اليمن، فاستأمنت له امرأته، فأمنه النبى ﷺ فتبعته، فرجع معها وأسلم وحسن إسلامه.

وأما ابن خطل فكان متعلقًا بأستار الكعبة، فجاء رجل إلى النبى ﷺ وأخبره، فقال: «**اقتله**» فقتله.

وأما مقيس بن صبابة فقتله نميلة بن عبدالله، وكان مقيس قد أسلم قبل ذلك، ثم عدا على رجل من الأنصار فقتله، ثم ارتد ولحق بالمشركين.

وأما الحارث فكان شديد الأذى لرسول الله بمكة، فقتله عَلِىّ.

وأما هبار بن الأسود فهو الذى كان قد عرض لزينب بنت رسول الله ﷺ حين هاجرت، فنخس بها حتى سقطت على صخرة وأسقطت جنينها، ففر هبار يوم مكة ثم أسلم وحسن إسلامه.

وأما القينتان فقتلت إحداهما، واستؤمن للأخرى فأسلمت، كما استؤمن لسارة وأسلمت.

قال ابن حجر: وذكر أبو معشر فيمن أهدر دمه: الحارث بن طُلَاطِل الخزاعى، قتله على. وذكر الحاكم أيضًا ممن أهدر دمه: كعب بن زهير، وقصته مشهورة، وقد جاء بعد ذلك وأسلم ومدح، ووَحْشِىّ بن حرب، وهند بنت عتبة امرأه أبى سفيان، وقد أسلمت، وأرنب مولاه ابن خطل أيضًا قتلت، وأم سعد قتلت، فيما ذكر ابن إسحاق، فكملت العدة ثمانية رجال وست نسوة، ويحتمل أن تكون أرنب وأم سعد القينتان، اختلف فى اسمهما أو باعتبار الكنية واللقب(١).

إسلام صفوان بن أمية، وفضالة بن عمير:

لم يكن صفوان ممن أهدر دمه، لكنه بصفته زعيمًا كبيرًا من زعماء قريش خاف على نفسه وفر، فاستأمن له عمير بن وهب الجمحى رسول الله ﷺ فأمنه، وأعطاه عمامته التى دخل بها مكة، فلحقة عمير وهو يريد أن يركب البحر من جدة إلى اليمن فرده، فقال لرسول الله ﷺ: اجعلنى بالخيار شهرين. قال «**أنت بالخيار أربعة أشهر**» ثم أسلم صفوان، وقد كانت امرأته أسلمت قبله، فأقرهما على النكاح الأول.

وكان فضالة رجلًا جريئا جاء إلى رسول الله ﷺ، وهو فى الطواف؛ ليقتله، فأخبر الرسول ﷺ بما فى نفسه فأسلم.

خطبة الرسول ﷺ في اليوم الثانى من الفتح:

ولما كان الغد من يوم الفتح قام رسول الله ﷺ فى الناس خطيبًا، فحمد الله، وأثنى عليه، ومجده بما هو أهله، ثم قال: «**أيها الناس، إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهى حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دمًا، أو يعضد بها شجرة، فإن أحد ترخص لقتال رسول الله ﷺ فقولوا: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما حلت لى ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد الغائب**».

وفى رواية: «**لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده، ولا تلتقط ساقطته إلا من عرفها، ولا يختلى خلاه**»، فقال العباس: يا رسول الله، إلا الإذخر، فإنه لقينهم وبيوتهم، فقال: «**إلا الإذخر**».

وكانت خزاعة قتلت يومئذ رجلا من بنى ليث بقتيل لهم فى الجاهلية، فقال

---

(١) فتح البارى ٨/ ١١، ١٢.

رسول الله ﷺ بهذا الصدد: «**يا معشر خزاعة، ارفعو أيديكم عن القتل، فلقد كثر القتل إن نَفَع، ولقد قتلتم قتيلًا لأدِيَنَّهُ، فمن قتل بعد مقامى هذا فأهله بخير النَّظَرَيْن، إن شاءوا فدم قاتله، وإن شاءوا فَعَقْلُه**».

وفى رواية: فقام رجل من أهل اليمن يقال له: شاه فقال: اكتب لى يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «**اكتبو لأبى شاه**»(١).

تخوف الأنصار من بقاء الرسول ﷺ فى مكة:

ولما تم فتح مكة على الرسول ﷺ - وهى بلده ووطنه ومولده - قال الأنصار فيما بينهم: أترون رسول الله ﷺ إذ فتح الله عليه أرضه وبلده أن يقيم بها - وهو يدعو على الصفا رافعًا يديه - فلما فرغ من دعائه قال: «**ماذا قلتم؟**» قالوا: لا شىء يا رسول الله، فلم يزل بهم حتى أخبروه، فقال رسول الله ﷺ: «**معاذ الله، المحيا محياكم، والممات مماتكم**».

أخذ البيعة:

وحين فتح الله مكة على رسول الله ﷺ والمسلمين، تبين لأهل مكة الحق، وعلموا أن لا سبيل إلى النجاح إلا الإسلام، فأذعنوا له، واجتمعوا للبيعة، فجلس رسول الله ﷺ على الصفا يبايع الناس، وعمر بن الخطاب أسفل منه، يأخذ على الناس فبايعوه على السمع والطاعة فيما استطاعوا.

وفى المدارك: روى أن النبى ﷺ لما فرغ من بيعة الرجال أخذ فى بيعة النساء، وهو على الصفا، وعمر قاعد أسفل منه، يبايعهن بأمره، ويبلغهن عنه، فجاءت هند بنت عتبة امرأة أبى سفيان متنكرة، خوفًا من رسول الله ﷺ أن يعرفها؛ لما صنعت بحمزة، فقال رسول الله ﷺ «**أبايعكن على ألا تشركن بالله شيئا**»، فبايع عمر النساء على ألا يشركن بالله شيئا، فقال رسول الله ﷺ: «**ولا تسرقن**» فقالت هند: إن أبا سفيان رجل شحيح، فإن أنا أصبت من ماله هنات؟ فقال أبو سفيان: وما أصبت فهو لك حلال، فضحك رسول الله ﷺ وعرفها، فقال: «**وإنك لهند؟**» قالت: نعم، فاعف عما سلف يا نبى الله، عفا الله عنك.

فقال: «**ولا يزنين**». فقالت: أو تزنى الحرة؟

فقال: «**ولا يقتلن أولادهن**». فقالت: ربيناهم صغارا، وقتلناهم كبارا، فأنتم وهم

---

(١) انظر لهذه الروايات: صحيح البخارى ١/ ٢٢، ٢١٦، ٢٤٧، ٣٢٨، ٣٢٩، ٢/ ٦١٥، ٦١٧، وصحيح مسلم ١/ ٤٣٧- ٤٣٩، وابن هشام ٢/ ٤١٥، ٤١٦، وأبو داود ١/ ٢٧٦.

أعلم - وكان ابنها حنظلة بن أبى سفيان قد قتل يوم بدر - فضحك عمر حتى استلقى فتبسم رسول الله ﷺ.

قال: «**ولا يأتين ببهتان**» فقالت: والله إن البهتان لأمر قبيح وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق.

فقال: «**ولا يعصينك فى معروف**» فقالت: والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفى أنفسنا أن نعصيك.

ولما رجعت جعلت تكسر صنمها وتقول: كنا منك فى غرور(١).

وفى الصحيح: جاءت هند بنت عتبة فقالت: يا رسول الله، ما كان على ظهر الأرض من أهل خباء أحب إلى أن يذلوا من أهل خبائك، ثم ما أصبح اليوم على ظهر الأرض أهل خباء أحب إلى أن يعزوا من أهل خبائك. قال: «**وأيضا، والذى نفسى بيده**» قالت: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل مسيك فهل على حرج أن أطعم من الذى له عيالنا؟ قال: «**لا أراه إلا بالمعروف**»(٢).

إقامته ﷺ بمكة وعمله فيها:

وأقام رسول الله ﷺ بمكة تسعة عشر يومًا يجدد معالم الإسلام، ويرشد الناس إلى الهدى والتقى، وخلال هذه الأيام أمر أبا أسيد الخزاعى، فجدد أنصاب الحرم، وبث سراياه للدعوة إلى الإسلام، ولكسر الأوثان التى كانت حول مكة، فكسرت كلها، ونادى مناديه بمكة: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع فى بيته صنما إلا كسره.

السرايا والبعوث:

١- ولما اطمأن رسول الله ﷺ بعد الفتح بعث خالد بن الوليد إلى العُزَّى لخمس ليال بقين من شهر رمضان (سنة ٨ هـ) ليهدمها وكانت بنَخْلَة، وكانت لقريش وجميع بنى كنانة وهى أعظم أصنامهم. وكان سدنتها بنى شَيْبَان، فخرج إليها خالد فى ثلاثين فارسًا حتى انتهى إليها، فهدمها. ولما رجع إليها سأله رسول الله ﷺ «**هل رأيت شيئا؟**» قال: لا، قال: «**فإنك لم تهدمها فارجع إليها فاهدمها**» فرجع خالد متغيظًا قد جرد سيفه فخرجت إليه امرأة عريانة سوداء ناشرة الرأس، فجعل السادن يصيح بها، فضربها خالد فجزلها

(١) مدارك التنزيل للنسفى: تفسير آية البيعة.

(٢) صحيح البخارى، ح (٣٨٢٥، ٧١٦١)، وفتح البارى ٧/ ١٧٥، ١٣/ ١٤٨.

باثنتين، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: «**نعم، تلك العزى، وقد أيست أن تعبد فى بلادكم أبدا**».

٢- ثم بعث عمرو بن العاص فى نفس الشهر إلى سُوَاع ليهدمه وهو صنم لهُذَيْل برهاط، على قرابة ١٥٠ كيلوا مترا شمال شرقى مكة، فلما انتهى إليه عمرو قال له السادن: ما تريد؟ قال: أمرنى رسول الله ﷺ أن أهدمه، قال: لا تقدر على ذلك قال: لم؟ قال: تُمْنَعُ قال: حتى الآن أنت على الباطل؟ ويحك فهل يسمع أو يبصر؟ ثم دنا فكسره، وأمر أصحابه فهدموا بيت خزانته فلم يجدوا فيه شيئا، ثم قال للسادن: كيف رأيت؟ قال: أسلمت لله.

٣- وفى الشهر نفسه بعث سعد بن زيد بن الأشهلى فى عشرين فارسًا إلى مَنَاة وكانت بالمُشَلَّل عند قُدَيْد للأوس والخزرج وغَسَّان وغيرهم، فلما انتهى سعد إليها قال له سادنها: ما تريد؟ قال: هدم مناة، قال: أنت وذاك، فأقبل إليها سعد، وخرجت امرأة عريانة سوداء ثائرة الرأس، تدعو بالويل، وتضرب صدرها، فقال لها السادن: مناة دونك بعض عصاتك. فضربها سعد فقتلها، وأقبل إلى الصنم فهدمه وكسره، ولم يجدوا فى خزانته شيئًا.

٤- ولما رجع خالد بن الوليد من هدم العزى بعثه رسول الله ﷺ فى شوال من نفس السنة (٨هـ) إلى بنى جَذِيَمة داعيا إلى الإسلام لا مقاتلا، فخرج فى ثلاثمائة وخمسين رجلا من المهاجرين والأنصار وبنى سليم، فانتهى إليهم فدعاهم إلى الإسلام فلم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا، فجعلوا يقولون: صبأنا، صبأنا. فجعل خالد يقتلهم ويأسرهم ودفع إلى كل رجل ممن كان معه أسيرًا، فأمر يومًا أن يقتل كل رجل أسيره، فأبى ابن عمر وأصحابه حتى قدموا على النبى ﷺ، فذكروا له، فرفع ﷺ يديه وقال: «**اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالدًا**» مرتين[(١)].

وكانت بنو سليم هم الذين قتلوا أسراهم دون المهاجرين والأنصار، وبعث رسول الله ﷺ عليًّا فودى لهم قتلاهم وما ذهب منهم، وكان بين خالد وعبد الرحمن بن عوف كلام وشر فى ذلك، فبلغ النبى ﷺ فقال: «**مهلا يا خالد، دع عنك أصحابى، فوالله لو كان أُحُدٌ ذهبا، ثم أنفقته فى سبيل الله ما أدركت غَدْوَةَ رجل من أصحابى ولا رَوْحَتَه**»[(٢)].

---

(١) صحيح البخارى ١/ ٤٥٠، ٢٠/ ٦٢٢.

(٢) أخذنا تفاصيل هذه الغزوة عن ابن هشام ٢/ ٣٨٩- ٤٣٧، وصحيح البخارى: كتاب فضائل أصحاب النبى، ح (٣٦٧٣)، وفتح البارى ٨/ ٣- ٢٧، وصحيح مسلم ١/ ٤٣٧- ٤٣٩، ٢/ ١٠٢، ١٠٣، ١٣٠، وزاد المعاد ٢/ ١٦٠- ١٦٨.

تلك هى غزوة فتح مكة، وهى المعركة الفاصلة والفتح الأعظم الذى قضى على كيان الوثنية قضاء باتًا، ولم يترك لبقائها مجالا ولا مبررا فى ربوع الجزيرة العربية، فقد كانت عامة القبائل تنتظر ماذا يتمخض عنه العراك والاصطدام الذى كان دائرًا بين المسلمين والوثنيين، وكانت تلك القبائل تعرف جيدا أن الحرم لا يسيطر عليه إلا من كان على الحق وكان قد تأكد لديهم هذا الاعتقاد الجازم، أى تأكد قبل نصف القرن حين قصد أصحاب الفيل هذا البيت فأهلكوا وجعلوا كعصف مأكول.

وكان صلح الحديبية مقدمة وتوطئة بين يدى هذا الفتح العظيم، أمن الناس به وكلم بعضهم بعضًا، وناظره فى الإسلام، وتمكن من اختفى من المسلمين بمكة من إظهار دينه والدعوة إليه والمناظرة عليه، ودخل بسببه كثير فى الإسلام، حتى إن عدد الجيش الإسلامى الذى لم يزد فى الغزوات السالفة على ثلاث آلاف، إذا هو يزخر فى هذه الغزوة فى عشرة آلاف.

وهذه الغزوة الفاصلة فتحت أعين الناس وأزالت عنها آخر الستور التى كانت تحول بينها وبين الإسلام وبهذا الفتح سيطر المسلمون على الموقف السياسى والدينى كليهما معا فى طول جزيرة العرب وعرضها، فقد انتقلت إليهم الصدارة الدينية والزعامة الدنيوية.

فالطور الذى كان قد بدأ بعد صلح الحديبية لصالح المسلمين قد تم وكمل بهذا الفتح المبين، وبدأ بعد ذلك طور آخر كان لصالح المسلمين تمامًا، وكان لهم فيه السيطرة على الموقف تمامًا. ولم يبق لأقوام العرب إلا أن يفدوا إلى رسول الله ﷺ فيعتنقوا الإسلام ويحملوا دعوته إلى العالم، وقد تم استعدادهم لذلك فى سنتين آتيتين.

المرحلة الثالثة

وهى آخر مرحلة من مراحل حياة الرسول ﷺ. تمثل النتائج التى أثمرتها دعوته الإسلامية بعد جهاد طويل وعناء ومتاعب وقلاقل، وفتن واضطرابات، ومعارك وحروب دامية، واجهتها طيلة بضعة وعشرين عامًا.

وكان فتح مكة هو أعظم فتح حصل عليه المسلمون فى هذه الأعوام، تغير لأجله مجرى الأيام، وتحول به جو العرب، فقد كان الفتح حدًّا فاصلا بين السابقة عليه وبين ما بعده، فإن قريشًا كانت فى نظر العرب حماة الدين وأنصاره، والعرب فى ذلك تبع لهم، فخضوع قريش يعتبر القضاء الأخير على الدين الوثنى فى جزيرة العرب.

ويمكن أن نقسم هذه المرحلة إلى صفحتين:

١- صفحة المجاهدة والقتال.

٢- صفحة تسابق الشعوب والقبائل إلى اعتناق الإسلام.

وهاتان الصفحتان متلاصقتان تناوبتا فى هذه المرحلة، ووقعت كل واحدة منهما خلال الأخرى، إلا أنا اخترنا فى الترتيب الوضعى أن نأتى على ذكر كل من الصفحتين متميزة عن الأخرى، ونظرًا إلى صفحة القتال ألصق بما مضى، وأكثر مناسبة من الأخرى قدمناها فى الترتيب.

غزوة حنين

إن فتح مكة جاء عقب ضربة خاطفة شَدَهَ لها العرب، وبوغتت القبائل المجاورة بالأمر الواقع، الذى لم يكن يمكن لها أن تدفعه، ولذلك لم تمتنع عن الاستسلام إلا بعض القبائل الشرسة القوية المتغطرسة، وفى مقدمتها بطون هوازن وثقيف، واجتمعت إليها نَصْرٌ وجُشَمٌ وسعد بن بكر وناس من بنى هلال - وكلها من قيس عَيْلان - رأت هذه البطون من نفسها عزا وأَنَفَةً أن تقابل هذا الانتصار بالخضوع، فاجتمعت إلى مالك بن عوف النَّصْرى، وقررت المسير إلى حرب المسلمين.

مسير العدو ونزوله بأوطاس:

ولما أجمع القائد العام - مالك بن عوف - المسير إلى حرب المسلمين، ساق مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم، فسار حتى نزل بأَوْطَاس - وهو واد فى دار هَوَازِن بالقرب من حُنَيْن، لكن وادى أوطاس غير وادى حنين، وحنين واد إلى جنب ذى المَجَاز، بينه وبين مكة بضعة عشر ميلًا من جهة عرفات[١].

مُجَرِّب الحروب يُغَلِّط رأى القائد:

ولما نزل بأوطاس اجتمع إليه الناس، وفيهم دُرَيْدُ بن الصِّمَّةِ - وهو شيخ كبير، ليس فيه إلا رأيه ومعرفته بالحرب وكان شجاعًا مجربًا - قال دريد: بأى واد أنتم؟ قالوا: بأوطاس، قال: نعم مَجَالُ الخيل، لا حَزْنٌ[٢] ضَرِسٌ[٣]، ولا سَهْلٌ دَهِس[٤]، مالى أسمع رُغَاء البعير، ونُهَاق الحمير، وبُكَاء الصبى، وثُغَاء الشاء؟ قالوا: ساق مالك بن عوف مع الناس نساءهم وأموالهم وأبناءهم، فدعا مالكًا وسأله عما حمله على ذلك، فقال: أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم، فقال: راعى ضأن والله، وهل يرد المنهزم شيء؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فُضِحْتَ فى أهلك ومالك، ثم سأل عن بعض البطون والرؤساء، ثم قال: يا مالك، إنك لم تصنع بتقديم بَيْضَة هوازن إلى نحور الخيل شيئًا، ارفعهم إلى ممتنع بلادهم وعلياء قومهم، ثم الْقَ الصُّبَاة على متون الخيل، فإن كانت لك لحق بك من وراءك، وإن كانت عليك ألفاك ذلك وقد أحرزتَ

(١) انظر: فتح البارى ٨/ ٢٧، ٤٢.
(٢) الحزن: ما ارتفع من الأرض.
(٣) الضرس: أرض بها حجارة محددة.
(٤) الدهس: ما لان من الأرض.

أهلك ومالك.

ولكن مالكًا – القائد العام – رفض هذا الطلب قائلًا: والله لا أفعل، إنك قد كبرت وكبر عقلك، والله لتطيعنى هوازن أو لأتَّكِئَنَّ على هذا السيف حتى يخرج من ظهرى، وكره أن يكون لدريد فيها ذكر أو رأى، فقالوا: أطعناك. فقال دريد: هذا يوم لم أشهده ولم يَفُتْنِى:

يا ليتنى فيها جَذَعْ أخُبُّ فيها وأضَعْ(١)
أقود وطْفَاءَ الزَّمَعْ(٢) كأنها شاة صَدَعْ(٣)

سلاح استكشاف العدو:

وجاءت إلى مالك عيون كان قد بعثهم للاستكشاف عن المسلمين، جاءت هذه العيون وقد تفرقت أوصالهم، قال: ويلكم، ما شأنكم؟ قالوا: رأينا رجالًا بيضا على خيل بُلْق، والله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى.

سلاح استكشاف رسول الله ﷺ:

ونقلت الأخبار إلى رسول الله ﷺ بمسير العدو، فبعث أبا حَدْرَد الأسلمى، وأمره أن يدخل فى الناس، فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم، ثم يأتيه بخبرهم، ففعل.

الرسول ﷺ يغادر مكة إلى حنين:

وفى يوم السبت – السادس من شهر شوال سنة ٨ هـ – غادر رسول الله ﷺ مكة– وكان ذلك اليوم التاسع عشر من يوم دخوله فى مكة – خرج فى اثنى عشر ألفًا من المسلمين ؛ عشرة آلاف ممن كانوا خرجوا معه لفتح مكة، وألفان من أهل مكة. وأكثرهم حديثو عهد بالإسلام، واستعار من صفوان بن أمية مائة درع بأداتها، واستعمل على مكة عَتَّاب ابن أسيد.

ولما كان عشية جاء فارس، فقال: إنى طلعت جبل كذا وكذا، فإذا أنا بهوازن على بكرة آبائهم بِظُعُنِهم ونَعَمِهم وشائهم اجتمعوا إلى حنين، فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «**تلك غنيمة المسلمين غدًا إن شاء الله**»، وتطوع للحراسة تلك الليلة أنس بن أبى مَرْثَد

(١) أخب وأضع: ضربان من السَّيْر.

(٢) وطفاء الزمع: خيل طويلة الشعر.

(٣) صدع: شىء بين شيئين من أى نوع كان.

الغَنَوى[١].

وفى طريقهم إلى حنين رأوا سِدْرَة عظيمة خضراء يقال لها: ذات أَنْوَاط، كانت العرب تعلق عليها أسلحتهم، ويذبحون عندها ويعكفون، فقال بعض أهل الجيش لرسول الله ﷺ: اجعل لنا ذات أنواط، كما لهم ذات أنواط. فقال: «**الله أكبر، قلتم والذى نفس محمد بيده كما قال قوم موسى: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة، قال: إنكم قوم تجهلون، إنها السَّنَنُ، لتركبن سَنَنَ من كان قبلكم**»[٢].

وقد كان بعضهم قال نظرًا إلى كثرة الجيش: لن نُغْلَبَ اليوم، وكان قد شق ذلك على رسول الله ﷺ.

الجيش الإسلامى يُباغَت بالرماة والمهاجمين:

انتهى الجيش الإسلامى إلى حنين، الليلة التى بين الثلاثاء والأربعاء لعشر خلون من شوال، وكان مالك بن عوف قد سبقهم، فأدخل جيشه بالليل فى ذلك الوادى، وفرق كُمَنَاءه فى الطرق والمداخل والشعاب والأخباء والمضايق، وأصدر إليهم أمره بأن يرشقوا المسلمين أول ما طلعوا، ثم يشدوا شدة رجل واحد.

وبالسَّحَر عبأ رسول الله ﷺ جيشه، وعقد الألوية والرايات، وفرقها على الناس، وفى عَمَاية الصبح استقبل المسلمون وادى حنين، وشرعوا ينحدرون فيه، وهم لا يدرون بوجود كمناء العدو فى مضايق هذا الوادى، فبينا هم ينحطون إذا تمطر عليهم النبال، وإذا كتائب العدو قد شدت عليهم شدة رجل واحد، فانشمر المسلمون راجعين، لا يلوى أحد على أحد، وكانت هزيمة منكرة، حتى قال أبو سفيان بن حرب، وهو حديث عهد بالإسلام: لا تنتهى هزيمتهم دون البحر - الأحمر - وصرخ جَبَلَةُ أو كَلَدَةُ بن الحَنْبَل: ألا بطل السِّحْر اليوم.

وانحاز رسول الله ﷺ جهة اليمين وهو يقول: «**هَلُمُّوا إلى أيها الناس، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله**»، ولم يبق معه فى موقفه إلا عدد قليل من المهاجرين والأنصار. تسعة على قول ابن إسحاق، واثنا عشر على قول النووى، والصحيح ما رواه أحمد والحاكم فى المستدرك من حديث ابن مسعود، قال: كنت مع النبى ﷺ يوم حنين، فولى عنه الناس

---

(١) انظر: سنن أبى داود: الجهاد، فضل الحرس فى سبيل الله ٢/ ١٠.

(٢) روى ذلك الترمذى: الفتن، باب لتركبن من كان قبلكم ٤/ ٤١٢، وأحمد فى مسنده ٥/ ٢١٨.

وثبت معه ثمانون رجلًا من المهاجرين والأنصار، فكنا على أقدامنا ولم نُوَلِّهم الدُّبُر، وروى الترمذى من حديث ابن عمر بإسناد حسن قال: لقد رأيتنا يوم حنين وإن الناس لمولين، وما مع رسول الله ﷺ مائة رجل(١).

وحينئذ ظهرت شجاعة النبى ﷺ التى لا نظير لها، فقد طفق يركض بغلته قبل الكفار وهو يقول:

«أنــــا الــنبــى لا كَــذِبْ أنــــا ابـــن عــبــد الـمـطــلــب»

بيد أن أبا سفيان بن الحارث كان آخذا بلجام بغلته، والعباس بركابه، يكفانها ألا تسرع، ثم نزل رسول الله ﷺ فاستنصر ربه قائلًا: «**اللهم أنزل نصرك**».

رجوع المسلمين واحتدام المعركة:

وأمر رسول الله ﷺ عمه العباس - وكان جَهِيرَ الصوت - أن ينادى الصحابة، قال العباس: فقلت بأعلى صوتى: أين أصحاب السَّمُرَة؟ قال: فوالله لكأن عَطْفَتَهُم حين سمعوا صوتى عَطْفَةَ البقر على أولادها، فقالوا: يا لبيك، يا لبيك(٢). ويذهب الرجل ليثنى بعيره فلا يقدر عليه، فيأخذ درعه، فيقذفها فى عنقه، ويأخذ سيفه وترسه، ويقتحم عن بعيره، ويخلى سبيله، فيؤم الصوت، حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة استقبلوا الناس واقتتلوا.

وصرفت الدعوة إلى الأنصار: يا معشر الأنصار، يا معشر الأنصار، ثم قصرت الدعوة فى بنى الحارث بن الخزرج، وتلاحقت كتائب المسلمين واحدة تلو الأخرى كما كانوا تركوا الموقعة، وتجالد الفريقان مجالدة شديدة، ونظر رسول الله ﷺ إلى ساحة القتال، وقد استحر واحتدم، فقال: «**الآن حَمِى الوَطِيسُ**». ثم أخذ رسول الله ﷺ قبضة من تراب الأرض، فرمى بها فى وجوه القوم وقال: «**شاهت الوجوه**»، فما خلق الله إنسانًا إلا ملأ عينيه ترابًا من تلك القبضة، فلم يزل حَدُّهُم كَلِيلًا وأمرهم مُدْبِرًا.

انكسار حدة العدو وهزيمته الساحقة:

وما هى إلا ساعات قلائل - بعد رمى القبضة - حتى انهزم العدو هزيمة منكرة، وقتل من ثَقِيف وحدهم نحو السبعين، وحاز المسلمون ما كان مع العدو من مال وسلاح وظُعُن.

---

(١) أحمد فى مسنده ١/ ٤٥٣، ٤٥٤، والحاكم ٢/ ١١٧، والترمذى: الجهاد، باب ما جاء فى الثبات عند القتال ٤/ ١٧، ح (١٦٨٩)، وانظر أيضا: فتح البارى ٨/ ٢٩، ٣٠، ومسند أبى يعلى ٣/ ٣٨٨، ٣٨٩.

(٢) صحيح مسلم ٢/ ١٠٠.

وهذا هو التطور الذى أشار إليه سبحانه وتعالى فى قوله: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [التوبة].

حركة المطاردة:

ولما انهزم العدو صارت طائفة منهم إلى الطائف، وطائفة إلى نَخْلَة، وطائفة إلى أوْطاس، فأرسل النبى ﷺ إلى أوطاس طائفة من المطاردين يقودهم أبو عامرالأشعرى، فَتَنَاوَشَ الفريقان القتال قليلًا، ثم انهزم جيش المشركين، وفى هذه المناوشة قتل القائد أبو عامر الأشعرى.

وطاردت طائفة أخرى من فرسان المسلمين فلول المشركين الذين سلكوا نخلة، فأدركت دُرَيْدَ بن الصِّمَّة فقتله ربيعة بن رُفَيْع.

وأما معظم فلول المشركين الذين لجأوا إلى الطائف، فتوجه إليهم رسول الله ﷺ بنفسه بعد أن جمع الغنائم.

الغنائم:

وكانت الغنائم: السبى ستة آلاف رأس، والإبل أربعة وعشرون ألفًا، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية فضة، أمر رسول الله ﷺ بجمعها، ثم حبسها بالجِعْرَانَة، وجعل عليها مسعود بن عمرو الغفارى، ولم يقسمها حتى فرغ من غزوة الطائف.

وكانت فى السبى الشيماء بنت الحارث السعدية ؛ أخت رسول الله ﷺ من الرضاعة، فلما جىء بها إلى رسول الله ﷺ عرفت له نفسها، فعرفها بعلامة فأكرمها، وبسط لها رداءه، وأجلسها عليه، ثم منّ عليها، وردّها إلى قومها.

غزوة الطائف:

وهذه الغزوة فى الحقيقة امتداد لغزوة حنين، وذلك أن معظم فلول هَوَازن وثَقِيف دخلوا الطائف مع القائد العام - مالك بن عوف النَّصْرِى - وتحصنوا بها، فسار إليهم رسول الله ﷺ بعد فراغه من حنين وجمع الغنائم بالجعرانة، فى الشهر نفسه - شوال سنة ٨ هـ.

وقدم خالد بن الوليد على مقدمته طليعة فى ألف رجل، ثم سلك رسول الله ﷺ إلى الطائف، فمر فى طريقه على نخلة اليمانية، ثم على قَرْنِ المنازل، ثم على لِيَّةَ، وكان هناك حصن لمالك بن عوف فأمر بهدمه، ثم واصل سيره حتى انتهى إلى الطائف فنزل قريبًا من حصنه، وعسكر هناك، وفرض الحصار على أهل الحصن.

ودام الحصار مدة غير قليلة، ففى رواية أنس عند مسلم: أن مدة حصارهم كانت أربعين يومًا، وعند أهل السير خلاف فى ذلك، فقيل: عشرين يومًا، وقيل: بضعة عشر، وقيل: ثمانية عشر، وقيل: خمسة عشر(١).

ووقعت فى هذه المدة مراماة، ومقاذفات، فالمسلمون أول ما فرضوا الحصار رماهم أهل الحصن رميًا شديدًا، كأنه رِجْل جراد، حتى أصيب ناس من المسلمين بجراحة، وقتل منهم اثنا عشر رجلًا، واضطروا إلى الارتفاع عن معسكرهم إلى مسجد الطائف اليوم، فعسكروا هناك.

ونصب النبى ﷺ المنجنيق على أهل الطائف، وقذف به القذائف، حتى وقعت شدخة فى جدار الحصن، فدخل نفر من المسلمين تحت دبابة(٢).

ودخلوا بها إلى الجدار ليحرقوه، فأرسل عليهم العدو سكك الحديد محماة بالنار. فخرجوا من تحتها، فرموهم بالنبل وقتلوا منهم رجالًا.

وأمر رسول الله ﷺ - كجزء من سياسة الحرب لإلجاء العدو إلى الاستسلام - أمر بقطع الأعناب وتحريقها، فقطعها المسلمون قطعًا ذريعًا، فسألته ثقيف أن يدعها لله والرحم، فتركها لله والرحم.

ونادى مناديه ﷺ: أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر، فخرج إليهم ثلاثة وعشرون رجلًا(٣)، فيهم أبو بكرة - تسور حصن الطائف، وتدلى منه ببكرة مستديرة يستقى عليها، فكناه رسول الله ﷺ **«أبا بكرة»** - فأعتقهم رسول الله ﷺ، ودفع كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين يمونه، فشق ذلك على أهل الحصن مشقة شديدة.

ولما طال الحصار واستعصى الحصن، وأصيب المسلمون بما أصيب من رشق النبال

---

(١) فتح البارى ٨/ ٤٥.

(٢) لم تكن الدبابة كدبابتنا اليوم، وإنما كانت تصنع من الخشب، كان الناس يدخلون فى جوفها ثم يدفعونها فى أصل الحصن لينقبوه وهم فى جوفها، أو ليدخلوا من النقبات.

(٣) صحيح البخارى ٢/ ٦٢٠.

وبسكك الحديد المحماة – وكان أهل الحصن قد أعدوا فيه ما يكفيهم لحصار سنة – استشار رسول الله ﷺ نَوْفَل بن معاوية الدِّيلى فقال: هم ثعلب فى جحر، إن أقمت عليه أخذته وإن تركته لم يضرك، وحينئذ عزم رسول الله ﷺ على رفع الحصار والرحيل، فأمر عمر بن الخطاب فأذن فى الناس، إنا قافلون غدًا إن شاء الله، فثقل عليهم وقالوا: نذهب ولا نفتحه؟ فقال رسول الله ﷺ: «**اغدوا على القتال**»، فغدوا فأصابهم جراح، فقال: «**إنا قافلون غدًا إن شاء الله**»، فسروا بذلك وأذعنوا، وجعلوا يرحلون، ورسول الله ﷺ يضحك.

ولما ارتحلوا واستقلوا قال: قولوا: «**آيبون تائبون عابدون، لربنا حامدون**».

وقيل: يا رسول الله، ادع على ثقيف، فقال: «**اللهم اهد ثقيفا، وائت بهم**».

قسمة الغنائم بالجِعْرَانَة:

ولما عاد رسول الله ﷺ بعد رفع الحصار عن الطائف، مكث بالجعرانة بضع عشرة ليلة لا يقسم الغنائم، ويتأنى بها، يبتغى أن يقدم عليه وفد هوازن تائبين فيحرزوا ما فقدوا، ولكنه لم يجئه أحد، فبدأ بقسمة المال، ليسكت المتطلعين من رؤساء القبائل وأشراف مكة، فكان المؤلفة قلوبهم أول من أعطى وحظى بالأنصبة الجزلة.

أعطى أبا سفيان بن حرب أربعين أوقية ومائة من الإبل، فقال: ابنى يزيد؟ فأعطاه مثلها، فقال: ابنى معاوية؟ فأعطاه مثلها، وأعطى حكيم بن حزام مائة من الإبل، ثم سأله مائة أخرى، فأعطاه إياها. وأعطى صفوان بن أمية مائة من الإبل، ثم مائة ثم مائة – كذا فى الشفاء[1] – وأعطى الحارث بن الحارث بن كَلَدَة مائة من الإبل، وكذلك أعطى رجالا من رؤساء قريش وغيرها مائة مائة من الإبل وأعطى آخرين خمسين خمسين وأربعين أربعين، حتى شاع فى الناس أن محمدًا يعطى عطاءً، ما يخاف الفقر، فازدحمت عليه الأعراب يطلبون المال حتى اضطروه إلى شجرة، فانتزعت رداءه فقال: «**أيها الناس، ردوا على ردائى، فو الذى نفسى بيده، لو كان عندى عدد شجر تهامة نعمًا لقسمته عليكم، ثم ما ألفيتمونى بخيلًا ولا جبانًا ولا كذابًا**».

ثم قام إلى جنب بعيره فأخذ من سنامه وبرة، فجعلها بين إصبعه، ثم رفعها، فقال: «**أيها الناس، والله مالى من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس، والخمس مردود عليكم**».

وبعد إعطاء المؤلفة قلوبهم أمر رسول الله ﷺ زيد بن ثابت بإحضار الغنائم والناس،

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضى عياض ١/ ٨٦.

ثم فرضها على الناس، فكانت سهامهم لكل رجل إما أربعًا من الإبل، وإما أربعين شاة، فإن كان فارسًا أخذ اثنى عشر بعيرًا أو عشرين ومائة شاة.

الأنصار تَجِدُ على رسول الله ﷺ:

كانت هذه القسمة مبنية على سياسة حكيمة، لكنها لم تُفْهَم أول الأمر، فأُطْلِقتْ ألسنة شتى بالاعتراض.

روى ابن إسحاق عن أبى سعيد الخدرى قال: لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا فى قريش وفى قبائل العرب، ولم يكن فى الأنصار منها شيء، وَجَدَ هذا الحى من الأنصار فى أنفسهم حتى كثرت فيهم القَالَةُ، حتى قال قائلهم: لقى والله رسول الله ﷺ قومه، فدخل عليه سعد بن عبادة فقال: يا رسول الله، إن هذا الحى من الأنصار قد وَجَدُوا عليك فى أنفسهم لما صنعت فى هذا الفىء الذى أصبت، قسمت فى قومك، وأعطيت عطايا عظامًا فى قبائل العرب، ولم يك فى هذا الحى من الأنصار منها شيء. قال: «**فأين أنت من ذلك يا سعد؟**» قال: يا رسول الله، ما أنا إلا من قومى. قال: «**فاجمع لى قومك فى هذه الحظيرة**». فخرج سعد فجمع الأنصار فى تلك الحظيرة، فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا. وجاء آخرون فردهم، فلما اجتمعوا له أتاه سعد فقال: لقد اجتمع لك هذا الحى من الأنصار، فأتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: «**يا معشر الأنصار، ما قَالَةٌ بلغتنى عنكم، وَجِدَةٌ وجدتموها على فى أنفسكم؟ ألم آتكم ضلالًا فهداكم الله؟ وعالة فأغناكم الله؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟**» قالوا: بلى، الله ورسوله أَمَنُّ وأَفْضَلُ.

ثم قال: «**ألا تجيبونى يا معشر الأنصار؟**» قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ورسوله المن والفضل. قال: «**أما والله لو شئتم لقلتم، فصَدَقْتُمْ ولصُدِّقْتُمْ: أتيتنا مُكَذَّبًا فصدقناك، ومخذولًا فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلًا فآسَيْنَاك**».

«**أوَجَدْتُمْ يا معشر الأنصار فى أنفسكم فى لَعَاعَةٍ[1] من الدنيا تَألَّفْتُ بها قومًا ليُسْلِمُوا، ووَكَلْتُكم إلى إسلامكم؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله ﷺ إلى رحالكم؟ فوالذى نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، ولو سلك الناس شِعْبًا، وسلكت الأنصار شعبًا لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار**».

---

(١) بقلة.

فبكى القوم حتى أَخْضَلُوا لِحَاهُم وقالوا: رضينا برسول الله ﷺ قَسْمًا وحظًّا، ثم انصرف رسول الله ﷺ، وتفرقوا[١].

قدوم وفد هوازن:

وبعد توزيع الغنائم أقبل وفد هوازن مسلمًا، وهم أربعة عشر رجلًا ورأسهم زهير ابن صُرَد، وفيهم أبو بُرْقَان عم رسول الله ﷺ من الرضاعة، فأسلموا وبايعوا ثم قالوا: يا رسول الله، إن فيمن أصبتم الأمهات والأخوات، والعمات والخالات، وهن مخازى الأقوام:

فامنن علينا رسول الله فى كرم فإنك المرء نرجوه وننتظر
امنن على نسوة قد كنت ترضعها إذ فوك تملؤه من محضها الدرر

وذلك فى أبيات. فقال: «**إن معى من ترون، وإن أحب الحديث إلى أصدقه، فأبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟**» قالوا: ما كنا نعدل بالأحساب شيئًا. فقال: «**إذا صليت الغداة - أى صلاة الظهر - فقوموا فقولوا: إنا نستشفع برسول الله ﷺ إلى المؤمنين، ونستشفع بالمؤمنين إلى رسول الله ﷺ أن يرد إلينا سبينا**»، فلما صلى الغداة قاموا فقالوا ذلك. فقال رسول الله ﷺ: «**أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم، وسأسأل لكم الناس**»، فقال المهاجرون والأنصار: ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ. فقال الأقْرَع بن حابس: أما أنا وبنو تميم فلا. وقال عُيَيْنَة بن حِصْن: أما أنا وبنو فَزَارَة فلا. وقال العباس بن مِرْدَاس: أما أنا وبنو سُلَيْم فلا. فقالت بنو سليم: ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ. فقال العباس بن مرداس: وهنتمونى.

فقال رسول الله ﷺ: «**إن هؤلاء القوم قد جاءوا مسلمين، وقد كنت استأنيت سَبْيَهُمْ، وقد خيرتهم فلم يعدلوا بالأبناء والنساء شيئًا، فمن كان عنده منهن شىء فطابت نفسه بأن يرده فسبيل ذلك، ومن أحب أن يستمسك بحقه فليرد عليهم، وله بكل فريضة ست فرائض من أول ما يفىء الله علينا**»، فقال الناس: قد طيبنا لرسول الله ﷺ. فقال: «**إنا لا نعرف من رضى منكم ممن لم يرض، فارجعوا حتى يرفع إلينا عُرَفَاؤكم أمركم**»، فردوا عليهم نساءهم وأبناءهم، لم يتخلف منهم أحد غير عيينة بن حصن، فإنه أبى أن يرد عجوزًا صارت فى

(١) ابن هشام ٢/ ٤٩٩، ٥٠٠، وروى مثل ذلك البخارى ٢/ ٦٢٠، ٦٢١.

يديه منهم، ثم ردها بعد ذلك، وكسا رسول الله ﷺ السبى قبطية قبطية[١].

العمرة والانصراف إلى المدينة:

ولما فرغ رسول الله ﷺ من قسمة الغنائم فى الجِعْرَانة أهلَّ معتمرًا منها، فأدى العمرة، وانصرف بعد ذلك راجعًا إلى المدينة بعد أن ولى على مكة عَتَّاب بن أسيد، وكان رجوعه إلى المدينة ودخوله فيها لست ليال بقيت من ذى القعدة سنة ٨ هـ[٢].

---

(١) لينظر فى قصة سبى هوازن: البخارى مع الفتح ٥/ ٢٠١.

(٢) تاريخ ابن خلدون ٢/ ٤٨، وانظر لتفصيل هذه الغزوات - فتح مكة وحنين والطائف، وما وقع خلالها: زاد المعاد ٢/ ١٦٠ -٢٠١، وابن هشام ٢/ ٣٨٩-٥٠١. وصحيح البخارى: أبواب غزوة الفتح وحنين وأوطاس والطائف وغيرها ٢/ ٦١٢-٦٢٢، وفتح البارى ٨/ ٣-٥٨.

البعوث والسرايا بعد الرجوع من غزوة الفتح

وبعد الرجوع من هذا السفر الطويل الناجح أقام رسول الله ﷺ بالمدينة يستقبل الوفود، ويبعث العمال، ويبث الدعاة، ويَكْبِتُ من بقى فيه الاستكبار عن الدخول فى دين الله، والاستسلام للأمر الواقع الذى شاهدته العرب. وهاك صورة مصغرة من ذلك:

المصدقون:

قد عرفنا مما تقدم أن رجوع رسول الله ﷺ إلى المدينة كان فى أواخر أيام السنة الثامنة، فما هو إلا أن استهل هلال المحرم من سنة ٩هـ، وبعث رسول الله ﷺ المُصَدِّقين إلى القبائل، وهذه هى قائمتهم:

١ - عُيَيْنَةُ بن حصن	إلى بنى تميم.
٢ - يزيد بن الحُصَيْن	إلى أسْلَم وغِفَار.
٣ - عَبَّاد بن بشير الأشهلى	إلى سُلَيْم ومُزَيْنَةَ.
٤ - رافع بن مَكِيث	إلى جُهَيْنَة.
٥ - عمرو بن العاص	إلى بنى فَزَارَة.
٦ - الضحاك بن سفيان	إلى بنى كلاب.
٧ - بشير بن سفيان	إلى بنى كعب.
٨ - ابن اللُّتْبِيَّة الأزدى	إلى بنى ذُبْيَان.
٩ - المهاجر بن أبى أمية	إلى صنعاء (وخرج عليه الأسود العنسى وهو بها).
١٠ - زياد بن لبيد	إلى حضرموت.
١١ - عدى بن حاتم	إلى طيئ وبنى أسد.
١٢ - مالك بن نُوَيْرَة	إلى بنى حَنْظَلَة.
١٣ - الزِّبْرِقَان بن بدر	إلى بنى سعد (إلى قسم منهم).

١٤ - قيس بن عاصم	إلى بنى سعد (إلى قسم آخر منهم).
١٥ - العلاء بن الحضرمى	إلى البحرين.
١٦ - على بن أبى طالب	إلى نجران
	(لجمع الصدقة والجزية كليهما).

وليس هؤلاء العمال كلهم بعثوا فى المحرم سنة ٩هـ، بل تأخر بعث عدة منهم إلى اعتناق الإسلام من تلك القبائل التى بعثوا إليها. نعم كانت بداية بعث العمال بهذا الاهتمام البالغ فى المحرم سنة ٩هـ، وهذا يدل على مدى نجاح الدعوة الإسلامية بعد صلح الحديبية، وأما بعد فتح مكة فقد دخل الناس فى دين الله أفواجًا.

السرايا:

وكما بعث المصدقون إلى القبائل، مَسَّتِ الحاجة إلى بعث عدة من السرايا مع سيادة الأمن على عامة مناطق الجزيرة، وهاك لوحة تلك السرايا:

١- سرية عيينة بن حصن الفزارى: فى المحرم سنة ٩ هـ إلى بنى تميم، فى خمسين فارسًا، لم يكن فيهم مهاجرى ولا أنصارى، وسببها: أن بنى تميم كانوا قد أغروا القبائل، ومنعوهم عن أداء الجزية.

وخرج عيينة بن حصن يسير الليل، ويكمن النهار، حتى هجم عليهم فى الصحراء فولى القوم مدبرين، وأخذ منهم أحد عشر رجلًا وإحدى وعشرين امرأة وثلاثين صبيًّا، وساقهم إلى المدينة، فأنزلوا فى دار رَمْلَة بنت الحارث.

وقدم فيهم عشرة من رؤسائهم، فجاءوا إلى باب النبى ﷺ فنادوا: يا محمد، اخرج إلينا، فخرج، فتعلقوا به، وجعلوا يكلمونه، فوقف معهم، ثم مضى حتى صلى الظهر، ثم جلس فى صحن المسجد، فأظهروا رغبتهم فى المفاخرة والمباهاة، وقدموا خطيبهم عُطَارِد ابن حاجب فتكلم، فأمر رسول الله ﷺ ثابت بن قيس بن شَمَّاس - خطيب الإسلام - فأجابهم، ثم قدموا شاعرهم الزبرقان بن بدر، فأنشد مفاخرًا، فأجابه شاعر الإسلام حسان بن ثابت على البديهة.

ولما فرغ الخطيبان والشاعران قال الأقرع بن حابس: خطيبه أخطب من خطيبنا، وشاعره أشعر من شاعرنا، وأصواتهم أعلى من أصواتنا، وأقوالهم أعلى من

أقوالنا، ثم أسلموا، فأجازهم رسول الله ﷺ، فأحسن جوائزهم، ورد عليهم نساءهم وأبناءهم[(١)].

٢- سرية قُطْبَة بن عامر إلى حى من خَثْعَم بناحية تَبَالَة: بالقرب من تُرَبَة فى صفر سنة ٩ هـ. خرج قطبة فى عشرين رجلًا على عشرة أبعرة يعتقبونها، فشن الغارة، فاقتتلوا قتالًا شديدًا حتى كثر الجرحى فى الفريقين جميعًا، وقتل قطبة مع من قتل، وساق المسلمون النَّعَم والنساء والشاء إلى المدينة.

٣- سرية الضحاك بن سفيان الكلابى إلى بنى كِلَاب: فى ربيع الأول سنة٩هـ. بعثت هذه السرية إلى بنى كلاب ؛ لدعوتهم إلى الإسلام، فأبوا وقاتلوا، فهزمهم المسلمون، وقتلوا منهم رجلًا.

٤- سرية علقمة بن مُجَزِّز المُدْلِجى إلى سواحل جُدَّة: فى شهر ربيع الآخر سنة ٩هـ فى ثلاثمائة. بعثهم إلى رجال من الحبشة، كانوا قد اجتمعوا بالقرب من سواحل جدة للقيام بأعمال القَرْصَنَة ضد أهل مكة، فخاض علقمة البحر حتى انتهى إلى جزيرة، فلما سمعوا بمسير المسلمين إليهم هربوا[(٢)].

٥- سرية على بن أبى طالب إلى صنم لطيئ يقال له: الفُلْس؛ ليهدمه: فى شهر ربيع الأول سنة ٩ هـ. بعثه رسول الله ﷺ فى خمسين ومائة، على مائة بعير وخمسين فرسًا، ومعه راية سوداء ولواء أبيض، فشنوا الغارة على محلة آل حاتم مع الفجر، فهدموه وملأوا أيديهم من السبى والنعم والشاء، وفى السبى أخت عدى بن حاتم، وهرب عدى إلى الشام، ووجد المسلمون فى خزانة الفلس ثلاثة أسياف وثلاثة أدرع، وفى الطريق قسموا الغنائم، وعزلوا الصفى لرسول الله ﷺ. ولم يقسموا آل حاتم.

ولما جاءوا إلى المدينة استعطفت أخت عدى بن حاتم رسول الله ﷺ، قائلة: يا رسول الله، غاب الوافد، وانقطع الوالد، وأنا عجوز كبيرة، ما بى من خدمة، فمُنَّ علىّ، منّ الله عليك. قال: «**من وافدك؟**» قالت: عدى بن حاتم. قال: «**الذى فر من الله ورسوله؟**» ثم مضى، فلما كان الغد قالت مثل ذلك، وقال لها مثل ما قال أمس. فلما كان بعد الغد قالت

---

(١) هكذا ذكره أهل المغازى أن هذه السرية كانت فى المحرم سنة ٩هـ، وفيه نظر ظاهر؛ فإن السياق يشعر بأن الأقرع بن حابس لم يكن أسلم قبلها، وقد ذكروا أن الأقرع بن حابس هو الذى قاد حين استرد رسول الله ﷺ سبايا بنى هوازن: أما أنا وبنو تميم فلا، وهذا يقتضى إسلامه قبل هذه السرية.

(٢) فتح البارى ٨ / ٥٩.

مثل ذلك، فمن عليها، وكان إلى جنبه رجل - ترى أنه على - فقال لها: سليه الحِمْلان فسألته فأمر لها به.

ورجعت أخت عدى بن حاتم إلى أخيها عدى بالشام، فلما لقيته قالت عن رسول الله ﷺ: لقد فعل فعلة ما كان أبوك يفعلها، ائته راغبًا أو راهبًا، فجاءه عدى بغير أمان ولا كتاب. فأتى به إلى داره، فلما جلس بين يديه حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: ما يُفِرُّكَ؟ أَيُفِرُّك أن تقول: «**لا إله إلا الله؟ فهل تعلم من إله سوى الله؟**» قال: لا. ثم تكلم ساعة ثم قال: «**إنما تفر أن يقال: الله أكبر، فهل تعلم شيئًا أكبر من الله؟**» قال: لا. قال: «**فإن اليهود مغضوب عليهم، وإن النصارى ضالون**». قال: فإنى حَنِيف مسلم، فانبسط وجهه فرحًا، وأمر به فنزل عند رجل من الأنصار، وجعل يأتى النبى ﷺ طرفى النهار[(١)].

وفى رواية ابن إسحاق عن عدى: أن النبى ﷺ لما أجلسه بين يديه فى داره قال له: «**إيه يا عدى بن حاتم، ألم تكن رَكُوسِيّا؟**[(٢)]» قال: قلت: بلى، قال: «**أو لم تكن تسير فى قومك بالمِرْبَاع؟**[(٣)]». قال: قلت: بلى. قال: «**فإن ذلك لم يحل لك فى دينك**». قال: قلت أجل والله. قال: وعرفت أنه نبى مرسل، يعرف ما يُجْهَل[(٤)].

وفى رواية لأحمد: أن النبى ﷺ قال: «**يا عدى، أسلم تسلم**». فقلت: إنى من أهل دين. قال: «**أنا أعلم بدينك منك**». فقلت: أنت أعلم بدينى منى؟ قال: «**نعم، ألست من الركوسية، وأنت تأكل مرباع قومك؟**» فقلت: بلى، قال: «**فإن هذا لا يحل لك فى دينك**». قال: فلم يعد أن قالها فتواضعت لها[(٥)].

وروى البخارى عن عدى قال: بينا أنا عند النبى ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل، فقال: «**يا عدى، هل رأيت الحيرة؟ فإن طالت بك حياة فلترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة، لا تخاف أحدًا إلا الله، ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة، ويطلب من يقبله فلا يجد أحدًا يقبله منه...**» الحديث وفى آخره: قال عدى:

---

(١) زاد المعاد ٢/ ٢٠٥.

(٢) دين بين دين النصارى والصابئين.

(٣) ربع الغنيمة.

(٤) ابن هشام ٢/ ٥٨١.

(٥) مسند الإمام أحمد ٤/ ٢٥٧، ٢٧٨.

فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله. وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال النبى أبو القاسم ﷺ: «**يخرج ملء كفه**»[1].

(١) صحيح البخارى، ح (١٤١٣، ١٤١٧، ٣٥٩٥، ٦٠٢٣، ٦٥٣٩، ٦٥٤٠، ٦٥٦٣، ٧٤٤٣، ٧٥١٢).

غزوة تبوك
فى رجب سنة ٩هـ

إن غزوة فتح مكة كانت غزوة فاصلة بين الحق والباطل، لم يبق بعدها مجال للريبة والظن فى رسالة محمد ﷺ عند العرب، ولذلك انقلب المجرى تمامًا، ودخل الناس فى دين الله أفواجًا - كما سيظهر ذلك مما نقدمه فى فصل الوفود، ومن العدد الذى حضر فى حجة الوداع - وانتهت المتاعب الداخلية، واستراح المسلمون لتعليم شرائع الله، وبث دعوة الإسلام.

سبب الغزوة:

إلا أنه كانت هناك قوة تعرضت للمسلمين من غير مبرر، وهى قوة الرومان - أكبر قوة عسكرية ظهرت على وجه الأرض فى ذلك الزمان - وقد عرفنا فيما تقدم أن بداية هذا التعرض كانت بقتل سفير رسول الله ﷺ - الحارث بن عمير الأزدى - على يدى شُرَحْبِيل بن عمرو الغسانى، حينما كان السفير يحمل رسالة النبى ﷺ إلى عظيم بُصْرَى، وأن النبى ﷺ أرسل بعد ذلك سرية زيد بن حارثة التى اصطدمت بالرومان اصطدامًا عنيفًا فى مؤتة، ولم تنجح فى أخذ الثأر من أولئك الظالمين المتغطرسين، إلا أنها تركت أروع أثر فى نفوس العرب، قريبهم وبعيدهم.

ولم يكن قيصر ليصرف نظره عما كان لمعركة مؤتة من الأثر الكبير لصالح المسلمين، وعما كان يطمح إليه بعد ذلك كثير من قبائل العرب من استقلالهم عن قيصر، ومواطأتهم للمسلمين، إن هذا كان خطرًا يتقدم ويخطو إلى حدوده خطوة بعد خطوة، ويهدد الثغور الشامية التى تجاور العرب، فكان يرى أن القضاء يجب على قوة المسلمين قبل أن تتجسد فى صورة خطر عظيم لا يمكن القضاء عليها، وقبل أن تثير القلاقل والثورات فى المناطق العربية المجاورة للرومان.

ونظرًا إلى هذه المصالح، لم يقض قيصر بعد معركة مؤتة سنة كاملة حتى أخذ يهيئ الجيش من الرومان والعرب التابعة لهم من آل غسان وغيرهم، وبدأ يجهز لمعركة دامية فاصلة.

الأخبار العامة عن استعداد الرومان وغَسَّان:

وكانت الأنباء تترامى إلى المدينة بإعداد الرومان ؛ للقيام بغزوة حاسمة ضد المسلمين، حتى كان الخوف يتسورهم كل حين، لا يسمعون صوتًا غير معتاد إلا ويظنونه زحف الرومان. ويظهر ذلك جليًّا مما وقع لعمر بن الخطاب، فقد كان النبى ﷺ آلى من نسائه شهرًا فى هذه السنة - ٩هـ - وكان هجرهن واعتزل عنهن فى مشربة له، ولم يفطن الصحابة إلى حقيقة الأمر فى بدايته، فظنوا أن النبى ﷺ طلقهن، فسرى فيهم الهم والحزن والقلق. يقول عمر بن الخطاب - وهو يروى هذه القصة: وكان لى صاحب من الأنصار إذا غبت أتانى بالخبر، وإذا غاب كنت آتية أنا بالخبر - وكانا يسكنان فى عوالى المدينة، يتناوبان إلى النبى ﷺ - ونحن نتخوف ملكًا من ملوك غسان ذكر لنا أنه يريد أن يسير إلينا، فقد امتلأت صدورنا منه، فإذا صاحبى الأنصارى يدق الباب، فقال: افتح، افتح، فقلت: جاء الغسانى؟ فقال: بل أشد من ذلك، اعتزل رسول الله ﷺ أزواجه... الحديث[1].

وفى لفظ آخر (أنه قال): وكنا تحدثنا أن آل غسان تنعل النعال لغزونا، فنزل صاحبى يوم نَوْبَتِهِ، فرجع عشاء، فضرب بابى ضربًا شديدًا وقال: أنائم هو؟ ففزعت، فخرجت إليه، وقال: حدث أمر عظيم. فقلت: ما هو؟ أجاءت غسان؟ قال: لا، بل أعظم منه وأطول، طلق رسول الله ﷺ نساءه... الحديث[2].

وهذا يدل على خطورة الموقف، الذى كان يواجهه المسلمون بالنسبة إلى الرومان، ويزيد ذلك تأكدًا ما فعله المنافقون حينما نقلت إلى المدينة أخبار إعداد الرومان، فبرغم ما رآه هؤلاء المنافقون من نجاح رسول الله ﷺ فى كل الميادين، وأنه لا يوجل من سلطان على ظهر الأرض، بل يذيب كل ما يعترض فى طريقه من عوائق - برغم هذا كله - طفق هؤلاء المنافقون يأملون فى تحقق ما كانوا يخفونه فى صدورهم، وما كانوا يتربصونه من الشر بالإسلام وأهله. ونظرًا إلى قرب تحقق آمالهم أنشأوا وكرة للدس والتآمر، فى صورة مسجد، وهو مسجد الضِّرَار، أسسوه كفرًا وتفريقًا بين المؤمنين وإرصادًا لمن حارب الله ورسوله، وعرضوا على رسول الله ﷺ أن يصلى فيه، وإنما مرامهم بذلك أن يخدعوا المؤمنين فلا يفطنوا ما يؤتى به فى هذا المسجد من الدس والمؤامرة ضدهم، ولا يلتفتوا إلى من يرده ويصدر عنه، فيصير وكرة مأمونة لهؤلاء المنافقين ولرفقائهم فى الخارج، ولكن رسول الله ﷺ أخر الصلاة فيه - إلى قفوله من الغزوة - لشغله بالجهاز، ففشلوا فى مرامهم وفضحهم الله، حتى قام

---

(١) صحيح البخارى ٢/ ٧٣٠.
(٢) صحيح البخارى ١/ ٣٣٤.

الرسول ﷺ بهدم المسجد بعد القفول من الغزو، بدل أن يصلى فيه.

الأخبار الخاصة عن استعداد الرومان وغسان:

كانت هذه هى الأحوال والأخبار التى يواجهها ويتلقاها المسلمون، إذ بلغهم من الأنباط الذين قدموا بالزيت من الشام إلى المدينة أن هرقل قد هيأ جيشًا عرمرما قوامه أربعون ألف مقاتل، وأعطى قيادته لعظيم من عظماء الروم، وأنه أجلب معهم قبائل لَخْمٍ وجُذَامٍ وغيرهما من متنصرة العرب، وأن مقدمتهم بلغت إلى البلقاء، وبذلك تمثل أمام المسلمين خطر كبير.

زيادة خطورة الموقف:

والذى كان يزيد خطورة الموقف أن الزمان كان فصل القيظ الشديد، وكان الناس فى عسرة وجدب من البلاء وقلة من الظهر، وكانت الثمار قد طابت، فكانوا يحبون المقام فى ثمارهم وظلالهم، ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذى هم فيه، ومع هذا كله كانت المسافة بعيدة، والطريق وعرة صعبة.

الرسول ﷺ يقرر القيام بإقدام حاسم:

ولكن الرسول ﷺ كان ينظر إلى الظروف والتطورات بنظر أدق وأحكم من هذا كله، إنه كان يرى أنه لو توانى وتكاسل عن غزو الرومان فى هذه الظروف الحاسمة، وترك الرومان لتجوس خلال المناطق التى كانت تحت سيطرة الإسلام ونفوذه، وتزحف إلى المدينة كان له أسوأ أثر على الدعوة الإسلامية وعلى سمعة المسلمين العسكرية، فالجاهلية التى تلفظ نفسها الأخير بعد ما لقيت من الضربة القاصمة فى حنين ستحيا مرة أخرى، والمنافقون الذين يتربصون الدوائر بالمسلمين، ويتصلون بملك الرومان بواسطة أبى عامر الفاسق سيبعجون بطون المسلمين بخناجرهم من الخلف، فى حين تهجم الرومان بحملة ضارية ضد المسلمين من الأمام، وهكذا يخفق كثير من الجهود التى بذلها هو وأصحابه فى نشر الإسلام، وتذهب المكاسب التى حصلوا عليها بعد حروب دامية ودوريات عسكرية متتابعة متواصلة... تذهب هذه المكاسب بغير جدوى.

كان رسول الله ﷺ يعرف كل ذلك جيدًا، ولذلك قرر القيام - مع ما كان فيه من العسرة والشدة - بغزوة فاصلة يخوضها المسلمون ضد الرومان فى حدودهم، ولا يمهلونهم حتى يزحفوا إلى دار الإسلام.

الإعلان بالتهيؤ لقتال الرومان:

ولما قرر الرسول ﷺ الموقف أعلن فى الصحابة أن يتجهزوا للقتال، وبعث إلى القبائل من العرب وإلى أهل مكة يستنفرهم. وكان قل ما يريد غزوة يغزوها إلا وَرَّى بغيرها، ولكنه نظرًا إلى خطورة الموقف وإلى شدة العسرة أعلن أنه يريد لقاء الرومان، وجلى للناس أمرهم ؛ ليتأهبوا أهبة كاملة، وحضهم على الجهاد، ونزلت قطعة من سورة براءة تثيرهم على الجلاد، وتحثهم على القتال، ورغبهم رسول الله ﷺ فى بذل الصدقات، وإنفاق كرائم الأموال فى سبيل الله.

المسلمون يتسابقون إلى التجهز للغزو:

ولم يكن من المسلمين أن سمعوا صوت رسول الله ﷺ يدعو إلى قتال الروم إلا وتسابقوا إلى امتثاله، فقاموا يتجهزون للقتال بسرعة بالغة، وأخذت القبائل والبطون تهبط إلى المدينة من كل صوب وناحية، ولم يرض أحد من المسلمين أن يتخلف عن هذه الغزوة – إلا الذين فى قلوبهم مرض وإلا ثلاثة نفر – حتى كان يجيء أهل الحاجة والفاقة يستحملون رسول الله ﷺ ؛ ليخرجوا إلى قتال الروم، فإذا قال لهم: ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [التوبة].

كما تسابق المسلمون فى إنفاق الأموال وبذل الصدقات، كان عثمان بن عفان قد جهز عيرًا للشام، مائتا بعير بأقتابها وأحلاسها، ومائتا أوقية، فتصدق بها، ثم تصدق بمائة بعير بأحلاسها وأقتابها، ثم جاء بألف دينار فنثرها فى حجره ﷺ، فكان رسول الله ﷺ يقلبها ويقول: «**ما ضَرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم**»[1]، ثم تصدق وتصدق حتى بلغ مقدار صدقته تسعمائة بعير ومائة فرس سوى النقود.

وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائتى أوقية فضة، وجاء أبو بكر بماله كلّه ولم يترك لأهله إلا الله ورسوله – وكانت أربعة آلاف درهم – وهو أول من جاء بصدقته. وجاء عمر بنصف ماله، وجاء العباس بمال كثير، وجاء طلحة وسعد بن عبادة ومحمد بن مسلمة، كلهم جاءوا بمال. وجاء عاصم بن عدى بتسعين وَسْقًا من التمر، وتتابع الناس بصدقاتهم قليلها وكثيرها، حتى كان منهم من أنفق مُدّا أو مدين لم يكن يستطيع غيرها. وبعثت النساء ما قدرن عليه من مَسَك[2] ومعاضد وخلاخل وقُرْط وخواتم.

---

(١) جامع الترمذى: مناقب عثمان بن عفان ٢/ ٢١١. (٢) أساور.

ولم يمسك أحد يده، ولم يبخل بماله إلا المنافقون ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ ﴾ [التوبة: ٧٩].

الجيش الإسلامى إلى تبوك:

وهكذا تجهز الجيش، فاستعمل رسول الله ﷺ على المدينة محمد بن مسلمة الأنصارى، وقيل: سِبَاع بن عُرْفُطَةَ، وخلف على أهله على بن أبى طالب، وأمره بالإقامة فيهم، وغَمَصَ عليه المنافقون، فخرج فلحق برسول الله ﷺ، فرده إلى المدينة وقال: «**ألا ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبى بعدى**».

وتحرك رسول الله ﷺ يوم الخميس نحو الشمال يريد تبوك، ولكن الجيش كان كبيرًا - ثلاثون ألف مقاتل، لم يخرج المسلمون فى مثل هذا الجمع الكبير قبله قط - فلم يستطع المسلمون مع ما بذلوه من الأموال أن يجهزوه تجهيزًا كاملًا، بل كانت فى الجيش قلة شديدة بالنسبة إلى الزاد والمراكب، فكان ثمانية عشر رجلًا يعتقبون بعيرًا واحدًا، وربما أكلوا أوراق الأشجار حتى تورمت شفاههم، واضطروا إلى ذبح البعير - مع قلتها - ليشربوا ما فى كرشه من الماء، ولذلك سمى هذا الجيش جيش العُسْرَةِ.

ومر الجيش الإسلامى فى طريقه إلى تبوك بالحِجْر - ديار ثمود الذين جابوا الصخر بالواد، أى وادى القُرَى - فاستقى الناس من بئرها.

فلما راحوا قال رسول الله ﷺ: «**لا تشربوا من مائها ولا تتوضأوا منه للصلاة، وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبل، ولا تأكلوا منه شيئًا**»، وأمرهم أن يستقوا من البئر التى كانت تردها ناقة صالح عليه السلام.

وفى الصحيحين عن ابن عمر قال: لما مر النبى ﷺ بالحجر قال: «**لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم إلا أن تكونوا باكين**»، ثم قَنعَ رأسه وأسرع بالسير حتى جاز الوادى[(١)].

واشتدت فى الطريق حاجة الجيش إلى الماء حتى شكوا إلى رسول الله، فدعا الله، فأرسل الله سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس، واحتملوا حاجاتهم من الماء.

ولما قرب من تبوك قال: «**إنكم ستأتون غدًا إن شاء الله تعالى عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يَضْحَى النهار، فمن جاءها فلا يمس من مائها شيئًا حتى آتى**»، قال معاذ:

---

(١) صحيح البخارى: باب نزول النبى ﷺ الحجر ٢/ ٦٣٧.

فجئنا وقد سبق إليها رجلان، والعين تَبِضُّ بشىء من مائها، فسألهما رسول الله ﷺ: «**هل مسستما من مائها شيئًا؟**» قالا: نعم. وقال لهما ما شاء الله أن يقول. ثم غرف من العين قليلًا قليلًا حتى اجتمع الْوَشَلُ[١]، ثم غسل رسول الله ﷺ فيه وجهه ويده، ثم أعاده فيها فجرت العين بماء كثير، فاستقى الناس، ثم قال رسول الله ﷺ: «**يوشك يا معاذ، إن طالت بك حياة أن ترى ماهاهنا قد ملئ جنانًا**»[٢].

وفى الطريق، أو لما بلغ تبوك - على اختلاف الروايات - قال رسول الله ﷺ: «**تهب عليكم الليلة ريح شديدة، فلا يقم أحد منكم، فمن كان له بعير فليشد عِقَالَه**»، فهبت ريح شديدة، فقام رجل فحملته الريح حتى ألقته بجبلى طيئ[٣].

وكان دأب رسول الله ﷺ فى الطريق أنه كان يجمع بين الظهر والعصر، وبين المغرب والعشاء جمع التقديم وجمع التأخيركليهما.

الجيش الإسلامى بتبوك:

نزل الجيش الإسلامى بتبوك، فعسكر هناك، وهو مستعد للقاء العدو، وقام رسول الله ﷺ فيهم خطيبًا، فخطب خطبة بليغة، أتى بجوامع الكلم، وحض على خير الدنيا والآخرة، وحذر وأنذر، وبشر وأبشر، حتى رفع معنوياتهم، وجبر بها ما كان فيهم من النقص والخلل من حيث قلة الزاد والمادة والمؤنة. وأما الرومان وحلفاؤهم فلما سمعوا بزحف رسول الله ﷺ أخذهم الرعب، فلم يجترئوا على التقدم واللقاء، بل تفرقوا فى البلاد فى داخل حدودهم، فكان لذلك أحسن أثر بالنسبة إلى سمعة المسلمين العسكرية، فى داخل الجزيرة وأرجائها النائية، وحصل بذلك المسلمون على مكاسب سياسية كبيرة خطيرة، لعلهم لم يكونوا يحصلون عليها لو وقع هناك اصطدام بين الجيشين.

جاء يُحَنَّةُ بن رُؤْبَةَ صاحب أَيْلَةَ، فصالح الرسول ﷺ وأعطاه الجزية، وأتاه أهل جَرْبَاء وأهل أَذْرُح، فأعطوه الجزية، وكتب لهم رسول الله ﷺ كتابًا فهو عندهم، وصالحه أهل مِينَاء على ربع ثمارها، وكتب لصاحب أيلة: «**بسم الله الرحمن الرحيم، هذه أمنة من الله ومحمد النبى رسول الله ليحنة بن رؤبة وأهل أيلة، سفنهم وسياراتهم فى البر والبحر لهم ذمة الله وذمة محمد النبى، ومن كان معه من أهل الشام وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثًا، فإنه لا يحول ماله دون نفسه، وإنه طيب لمن أخذه من الناس، وأنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه، ولا طريقًا يريدونه من بر أو بحر**».

---

(١) الماء القليل يُتَحلَّب من الجبل. (٢، ٣) رواه مسلم عن معاذ بن جبل ٢/ ٢٤٦.

وبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى أُكَيْدِرِ دُومَة الجَنْدَل فى أربعمائة وعشرين فارسًا، وقال له: «**إنك ستجده يصيد البقر**»، فأتاه خالد، فلما كان من حصنه بمنظر العين، خرجت بقرة، تحك بقرونها باب القصر، فخرج أكيدر لصيدها - وكانت ليلة مقمرة - فتلقاه خالد فى خيله، فأخذه وجاء به إلى رسول الله ﷺ، فحقن دمه، وصالحه على ألفى بعير، وثمانمائة رأس وأربعمائة درع، وأربعمائة رمح، وأقر بإعطاء الجزية، فقاضاه مع يُحَنَّة على قضية دُومَة وتبوك وأيْلَةَ وَتَيْماء.

وأيقنت القبائل التى كانت تعمل لحساب الرومان أن اعتمادها على سادتها الأقدمين قد فات أوانه، فانقلبت لصالح المسلمين، وهكذا توسعت حدود الدولة الإسلامية، حتى لاقت حدود الرومان مباشرة، وشهد عملاء الرومان نهايتهم إلى حد كبير.

الرجوع إلى المدينة:

ورجع الجيش الإسلامى من تبوك مظفرين منصورين، لم ينالوا كيدًا، وكفى الله المؤمنين القتال، وفى الطريق عند عقبة حاول اثنا عشر رجلًا من المنافقين الفتك بالنبى ﷺ، وذلك أنه حينما كان يمر بتلك العقبة كان معه عمار يقود بزمام ناقته، وحذيفة بن اليمان يسوقها، وأخذ الناس ببطن الوادى، فانتهز أولئك المنافقون هذه الفرصة. فبينما رسول الله ﷺ وصاحباه يسيران إذ سمعوا وكزة القوم من ورائهم، قد غشوه وهم ملتثمون، فبعث حذيفة فضرب وجوه رواحلهم بمِحْجَن كان معه، فأرعبهم الله، فأسرعوا فى الفرار حتى لحقوا بالقوم، وأخبر رسول الله ﷺ بأسمائهم، وبما هموا به، فلذلك كان حذيفة يسمى بصاحب سر رسول الله ﷺ، وفى ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ﴾[التوبة: ٧٤].

ولما لاحت للنبى ﷺ معالم المدينة من بعيد قال: «**هذه طَابَةُ، وهذا أُحُدٌ، جبل يحبنا ونحبه**»، وتسامع الناس بمقدمه، فخرج النساء والصبيان والولائد يقابلن الجيش بحفاوة بالغة ويقلن[(١)]:

طلع البدر علينا ... من ثَنِيَّات الوداع
وَجَبَ الشكر علينا ... ما دعا لله داع

وكانت عودته ﷺ من تبوك ودخوله فى المدينة فى رجب سنة ٩هـ[(٢)]، واستغرقت

---

(١) هذا رأى ابن القيم وقد مضى البحث عليه.

(٢) وهذا هو الحق دون ما قاله ابن إسحاق من أن عودته ﷺ كانت فى رمضان؛ لأنه يقتضى خروجه ﷺ إلى تبوك فى الخميس الثانى من شهر رجب، وذلك الخميس يوافق الخامس والعشرين من شهر -

هذه الغزوة خمسين يومًا، أقام منها عشرين يومًا فى تبوك، والبواقى قضاها فى الطريق جيئة وذهوبًا. وكانت هذه الغزوة آخر غزواته ﷺ.

المُخَلَّفون:

وكانت هذه الغزوة – لظروفها الخاصة بها – اختبارًا شديدًا من الله، امتاز به المؤمنون من غيرهم، كما هى سنته تعالى فى مثل هذه المواطن، حيث يقول: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]. فقد خرج لهذه الغزوة كل من كان مؤمنًا صادقًا، حتى صار التخلف أمارة على نفاق الرجل، فكان الرجل إذا تخلف وذكروه لرسول الله ﷺ قال لهم: «**دعوه، فإن يكن فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يكن غير ذلك فقد أراحكم منه**»، فلم يتخلف إلا من حبسهم العذر، أو الذين كذبوا الله ورسوله من المنافقين، الذين قعدوا بعد أن استأذنوا للقعود كذبًا، أو قعدوا ولم يستأذنوا رأسا. نعم كان هناك ثلاثة نفر من المؤمنين الصادقين تخلفوا من غير مبرر، وهم الذين أبلاهم الله، ثم تاب عليهم.

ولما دخل رسول الله ﷺ المدينة بدأ بالمسجد، فصلى فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فأما المنافقون – وهم بضعة وثمانون رجلًا – فجاءوا يعتذرون بأنواع شتى من الأعذار، وطفقوا يحلفون له، فقبل منهم علانيتهم، وبايعهم، واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله.

وأما النفر الثلاثة من المؤمنين الصادقين – وهم كعب بن مالك، ومُرَارَة بن الربيع، وهلال ابن أمية – فاختاروا الصدق، فأمر رسول الله ﷺ الصحابة ألا يكلموا هؤلاء الثلاثة، وجرت ضد هؤلاء الثلاثة مقاطعة شديدة، وتغير لهم الناس، حتى تنكرت لهم الأرض، وضاقت عليهم بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم، وبلغت بهم الشدة إلى أنهم بعد أن قضوا أربعين ليلة من بداية المقاطعة أمروا أن يعتزلوا نساءهم، حتى تمت على مقاطعتهم خمسون ليلة، ثم أنزل الله توبتهم: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝١١٨﴾ [التوبة].

= أكتوبر، وهو من الأيام المعتدلة القريبة من البرد، ولاسيما فى الصباح والمساء، وتأتى بعد جداد التمر بزمان، بينما الخروج إلى تبوك كان فى شدة الحر وفى أيام جداد التمر، ثم إن النبى ﷺ كان موجودًا فى المدينة فى شهر شعبان من هذه السنة حين توفيت ابنته أم كلثوم، فالصحيح أنه ﷺ رجع إلى المدينة فى شهر رجب، وكان خروجه قبل ذلك بخمسين يومًا، أى فى شهر جمادى الأولى.

وفرح المسلمون، وفرح الثلاثة فرحًا لا يقاس مداه وغايته، فبشروا وأبشروا واستبشروا وأجازوا وتصدقوا، وكان أسعد يوم من أيام حياتهم.

وأما الذين حبسهم العذر فقد قال تعالى فيهم: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [التوبة: ٩١]. وقال فيهم رسول الله حين دنا من المدينة: «**إن بالمدينة رجالًا ما سرتم مَسِيرًا، ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم، حبسهم العُذْرُ**»، قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟ قال: «**وهم بالمدينة**».

أثر الغزوة:

وكان لهذه الغزوة أعظم أثر فى بسط نفوذ المسلمين وتقويته على جزيرة العرب، فقد تبين للناس أنه ليس لأى قوة من القوات أن تعيش فى العرب سوى قوة الإسلام، وبطلت بقايا أمل وأمنية كانت تتحرك فى قلوب بقايا الجاهليين والمنافقين الذين كانوا يتربصون الدوائر بالمسلمين، وكانوا قد عقدوا آمالهم بالرومان، فقد استكانوا بعد هذه الغزوة، واستسلموا للأمر الواقع، الذى لم يجدوا عنه محيدًا ولا مناصًا.

ولذلك لم يبق للمنافقين أن يعاملهم المسلمون بالرفق واللين، وقد أمر الله بالتشديد عليهم، حتى نهى عن قبول صدقاتهم، وعن الصلاة عليهم، والاستغفار لهم والقيام على قبرهم، وأمر بهدم وكرة دسهم وتآمرهم التى بنوها باسم المسجد، وأنزل فيهم آيات افتضحوا بها افتضاحًا تامًّا، لم يبق فى معرفتهم بعدها أى خفاء، كأن الآيات قد نصت على أسمائهم لمن يسكن بالمدينة.

ويعرف مدى أثر هذه الغزوة من أن العرب وإن كانت قد أخذت فى التوافد إلى رسول الله ﷺ بعد غزوة فتح مكة، بل وما قبلها، إلا أن تتابع الوفود وتكاثرها بلغ إلى القمة بعد هذه الغزوة[١].

نزول القرآن حول موضوع الغزوة:

نزلت آيات كثيرة من سورة براءة حول موضوع الغزوة، نزل بعضها قبل الخروج، وبعضها بعد الخروج - وهو فى السفر - وبعض آخر منها بعد الرجوع إلى المدينة، وقد

---

(١) أخذنا تفاصيل هذه الغزوة من ابن هشام ٢/ ٥١٥- ٥٣٧، وزاد المعاد ٣/ ٢- ١٣، وصحيح البخارى ١/ ٢٥٢، ٤١٤ و ٢/ ٦٣٣- ٦٣٧ وغيرها. وصحيح مسلم مع شرحه للنووى ٢/ ٢٤٦، وفتح البارى ٨/ ١١٠- ١٢٦.

اشتملت على ذكر ظروف الغزوة، وفضح المنافقين، وفضل المجاهدين والمخلصين، وقبول التوبة من المؤمنين الصادقين، الخارجين منهم فى الغزوة والمتخلفين، إلى غير ذلك من الأمور.

بعض الوقائع المهمة فى هذه السنة

وفى هذه السنة وقعت عدة وقائع لها أهمية فى التاريخ:

١ - بعد قدوم رسول الله ﷺ من تبوك وقع اللعان بين عُوَيْمِر العَجْلانى وامرأته.

٢ - رجمت المرأة الغامدية، التى جاءت فاعترفت على نفسها بالفاحشة، رجمت بعدما فطمت ابنها.

٣ - توفى النجاشى أَصْحَمَة، ملك الحبشة، فى رجب، وصلى عليه رسول الله صلاة الغائب فى المدينة.

٤ - توفيت أم كلثوم بنت النبى ﷺ فى شعبان، فحزن عليها حزنًا شديدًا، وقال لعثمان: «**لو كانت عندى ثالثة لزوجتكها**».

٥ - مات رأس المنافقين عبد الله بن أبى ابن سَلُول بعد مرجع رسول الله ﷺ من تبوك، فاستغفر له رسول الله ﷺ، وصلى عليه بعد أن حاول عمر منعه عن الصلاة عليه، وقد نزل القرآن بعد ذلك بموافقة عمر.

حج أبى بكر رضي الله عنه

وفى ذى القعدة أو ذى الحجة من نفس السنة (٩ هـ) بعث رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله عنه أميرًا على الحج، ليقيم بالمسلمين المناسك.

ثم نزلت أوائل سورة براءة بنقض المواثيق ونبذها على سواء، فبعث رسول الله ﷺ على بن أبى طالب ليؤدى عنه ذلك، وذلك تمشيًا منه على عادة العرب فى عهود الدماء والأموال، فالتقى على بأبى بكر بالعَرْج أو بضَجْنَان، فقال أبو بكر: أمير أو مأمور؟ قال على: لا، بل مأمور. ثم مضيا، وأقام أبو بكر للناس حجهم، حتى إذا كان يوم النحر، قام على بن أبى طالب عند الجمرة، فأذن فى الناس بالذى أمره رسول الله ﷺ، ونبذ إلى كل ذى عهد عهده، وأجل لهم أربعة شهور، وكذلك أجل أربعة أشهر لمن لم يكن له عهد، وأما الذين لم ينقصوا المسلمين شيئًا، ولم يظاهروا عليهم أحدًا فأبقى عهدهم إلى مدتهم.

وبعث أبو بكر رضي الله عنه رجالًا ينادون فى الناس: ألا لا يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عُرْيَان.

وكان هذا النداء بمثابة إعلان نهاية الوثنية فى جزيرة العرب، وأنها لا تُبْدِئُ ولا تُعِيدُ بعد هذا العام[١].

(١) صحيح البخارى ١/ ٢٢٠، ٤٥١، ٢/ ٦٢٦، ٦٧١، وزاد المعاد ٣/ ٢٥، ٢٦، وابن هشام ٢/ ٥٤٣- ٥٤٦.

نظرة على الغزوات

إذا نظرنا إلى غزوات النبى ﷺ وبعوثه وسراياه، لا يمكن لنا ولا لأحد ممن ينظر فى أوضاع الحروب وآثارها وخلفياتها - لا يمكن لنا إلا أن نقول:

إن النبى ﷺ كان أكبر قائد عسكرى فى الدنيا، وأشدهم وأعمقهم فراسة وتيقظًا، إنه صاحب عبقرية فذة فى هذا الوصف، كما كان سيد الرسل وأعظمهم فى صفة النبوة والرسالة، فلم يخض معركة من المعارك إلا فى الظرف ومن الجهة اللذين يقتضيهما الحزم والشجاعة والتدبير، ولذلك لم يفشل فى أى معركة من المعارك التى خاضها لغلطة فى الحكمة وما إليها من تعبئة الجيش وتعيينه على المراكز الاستراتيجية، واحتلال أفضل المواضع وأوثقها للمجابهة، واختيار أفضل خطة لإدارة دفة القتال، بل أثبت فى كل ذلك أن له نوعًا آخر من القيادة غير ما عرفتها الدنيا فى القواد. ولم يقع ما وقع فى أُحد وحنين إلا من بعض الضعف فى أفراد الجيش - فى حنين - أو من جهة معصيتهم أوامره وتركهم التقيد والالتزام بالحكمة والخطة اللتين كان أوجبهما عليهم من حيث الوجهه العسكرية.

وقد تجلت عبقريته ﷺ فى هاتين الغزوتين عند هزيمة المسلمين، فقد ثبت مجابهًا للعدو، واستطاع بحكمته الفذة أن يخيبهم فى أهدافهم - كما فعل فى أحد - أو يغير مجرى الحرب حتى يبدل الهزيمة انتصارًا - كما فى حنين - مع أن مثل هذا التطور الخطير، ومثل هذه الهزيمة الساحقة تأخذان بمشاعر القواد، وتتركان على أعصابهم أسوأ أثر، لا يبقى لهم بعد ذلك إلا هم النجاة بأنفسهم.

هذه من ناحية القيادة العسكرية الخالصة، أما من نواح أخرى، فإنه استطاع بهذه الغزوات فرض الأمن وبسط السلام، وإطفاء نار الفتنة، وكسر شوكة الأعداء فى صراع الإسلام والوثنية، وإلجائهم إلى المصالحة، وتخلية السبيل لنشر الدعوة، كما استطاع أن يتعرف على المخلصين من أصحابه ممن هو يبطن النفاق، ويضمر نوازع الغدر والخيانة.

وقد أنشأ طائفة كبيرة من القواد، الذين لاقوا بعده الفرس والرومان فى ميادين العراق والشام، ففاقوهم فى تخطيط الحروب وإدارة دفة القتال، حتى استطاعوا إجلاءهم من أرضهم وديارهم وأموالهم من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكيهن.

كما استطاع رسول الله ﷺ بفضل هذه الغزوات أن يوفر السكنى والأرض والحرف

والمشاغل للمسلمين، حتى تَفَصَّى[(١)] من كثير من مشاكل اللاجئين الذين لم يكن لهم مال ولا دار، وهيأ السلاح والكُرَاع[(٢)] والعدة والنفقات، حصل على كل ذلك من غير أن يقوم بمثقال ذرة من الظلم والطغيان والبغى والعدوان على عباد الله.

وقد غير أغراض الحروب وأهدافها التى كانت تضطرم نار الحرب لأجلها فى الجاهلية، فبينما كانت الحرب عبارة عن النهب والسلب والقتل والإغارة والظلم والبغى والعدوان، وأخذ الثأر، والفوز بالوَتَر، وكبت الضعيف، وتخريب العمران، وتدمير البنيان، وهتك حرمات النساء، والقسوة بالضعاف والولائد والصبيان، وإهلاك الحرث والنسل، والعبث والفساد فى الأرض – فى الجاهلية – إذ صارت هذه الحرب – فى الإسلام – جهادًا فى تحقيق أهداف نبيلة، وأغراض سامية، وغايات محمودة، يعتز بها المجتمع الإنسانى فى كل زمان ومكان، فقد صارت الحرب جهادًا فى تخليص الإنسان من نظام القهر والعدوان، إلى نظام العدالة والنَّصَف، من نظام يأكل فيه القوى الضعيف، إلى نظام يصير فيه القوى ضعيفًا حتى يؤخذ منه، وصارت جهادًا فى تخليص ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ۝٧٥﴾ [النساء]. وصارت جهادًا فى تطهير أرض الله من الغدر والخيانة والإثم والعدوان، إلى بسط الأمن والسلامة والرأفة والرحمة ومراعاة الحقوق والمروءة.

كما شرع للحروب قواعد شريفة ألزم التقيد بها على جنوده وقوادها، ولم يسمح لهم الخروج عنها بحال. روى سليمان بن بريدة عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميرًا على جيش أو سرية أوصاه فى خاصته بتقوى الله عز وجل، ومن معه من المسلمين خيرًا، ثم قال: «**اغزوا بسم الله، فى سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا، فلا تغلوا، ولاتغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا...**» الحديث. وكان يأمر بالتيسير ويقول: «**يسروا ولا تعسروا، وسكنوا ولا تنفروا**»[(٣)].

وكان إذا جاء قومًا بِلَيْل لم يُغِرْ عليهم حتى يُصبِح، ونهى أشد النهى عن التحريق فى النار، ونهى عن قتل الصبر، وقتل النساء وضربهن، ونهى عن النهب حتى قال: «**إن النُّهْبَى ليست بأحل من الميتة**»، ونهى عن إهلاك الحرث والنسل وقطع الأشجار إلا إذا

(١) تخلص.

(٢) الخيل.

(٣) صحيح مسلم ٢/ ٨٢، ٨٣، والمعجم الصغير للطبرانى ١/ ١٢٣، ١٨٧.

اشتدت إليها الحاجة، ولا يبقى سواه سبيل. وقال عند فتح مكة: «**لا تجهزن على جريح، ولا تتبعن مدبرًا، ولا تقتلن أسيرًا**»، وأمضى السنة بأن السفير لا يقتل، وشدد فى النهى عن قتل المعاهدين حتى قال: «**من قتل معاهدًا لم يُرِحْ رائحة الجنة، وإن ريحها لتوجد من مسيرة أربعين عامًا**»، إلى غير ذلك من القواعد النبيلة التى طهرت الحروب من أدران الجاهلية حتى جعلتها جهادًا مقدسًا (١).

(١) انظر ذلك مفصلًا فى: زاد المعاد ٢/ ٦٤- ٦٨.

الناس يدخلون فى دين الله أفواجًا

كانت غزوة فتح مكة - كما قلنا - معركة فاصلة، قضت على الوثنية قضاء باتًّا، عرفت العرب لأجلها الحق من الباطل، وزالت عنهم الشبهات، فتسارعوا إلى اعتناق الإسلام. قال عمرو ابن سلمة: كنا بماء ممر الناس، وكان يمر بنا الركبان فنسألهم: ماللناس؟ ما للناس؟ ما هذا الرجل؟ - أى النبى ﷺ - فيقولون: يزعم أن الله أرسله، أوحى إليه، أوحى الله كذا، فكنت أحفظ ذاك الكلام، فكأنما يقر فى صدرى، وكانت العرب تلوم بإسلامهم الفتح، فيقولون: اتركوه وقومه، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبى صادق. فلما كانت وقعة أهل الفتح بادر كل قوم بإسلامهم، وبدر أبى قومى بإسلامهم، فلما قدم قال: جئتكم والله من عند النبى ﷺ حقًّا. فقال: صلوا صلاة كذا فى حين كذا، وصلاة كذا فى حين كذا، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن أحدكم، وليؤمكم أكثركم قرآنًا... الحديث.

وهذا الحديث يدل مدى أثر فتح مكة فى تطوير الظروف، وتعزيز الإسلام، وتعيين الموقف للعرب، واستسلامهم للإسلام، وتأكد ذلك أى تأكد بعد غزوة تبوك، ولذلك نرى الوفود تقصد المدينة تترى فى هذين العامين - التاسع والعاشر - ونرى الناس يدخلون فى دين الله أفواجًا، حتى إن الجيش الإسلامى الذى كان قوامه عشرة آلاف مقاتل فى غزوة الفتح، إذا هو يزخر فى ثلاثين ألف مقاتل فى غزوة تبوك قبل أن يمضى على فتح مكة عام كامل، ثم نرى فى حجة الوداع بحرًا من رجال الإسلام - مائة ألف من الناس أو مائة ألف وأربعة وأربعون ألفا منهم - يموج حول رسول الله ﷺ بالتلبية والتكبير والتسبيح والتحميد، تدوى له الآفاق، وترتج له الأرجاء.

الوفود

والوفود التى سردها أهل المغازى يزيد عددها على سبعين وفدًا، ولا يمكن لنا استقصاءها، وليس كبير فائدة فى بسط تفاصيلها، وإنما نذكر منها إجمالًا ما له روعة أو أهمية فى التاريخ، وليكن على ذكر من القارئ أن وفادة عامة القبائل وإن كانت بعد الفتح، ولكن هناك قبائل توافدت قبله أيضًا:

١ - وفد عبد القيس:

كانت لهذه القبيلة وفادتان: الأولى سنة خمس من الهجرة أو قبل ذلك. كان رجل منهم يقال له مُنْقِذُ بن حيان، يَرِدُ المدينة بالتجارة، فلما جاء المدينة بتجارته بعد مقدم النبى ﷺ،

وعلم الإسلام أسلم، وذهب بكتاب من النبى ﷺ إلى قومه فأسلموا، فتوافدوا إليه فى شهر حرام فى ثلاثة أو أربعة عشر رجلًا، وفيها سألوا عن الإيمان وعن الأشربة، وكان كبيرهم الأشج العصرى الذى قال فيه رسول الله ﷺ: «**إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة**».

والوفادة الثانية كانت فى سنة الوفود، وكان عددهم فيها أربعين رجلًا، وكان فيهم الجارود ابن العلاء العبدى، وكان نصرانيًّا فأسلم وحسن إسلامه(١).

٢ - وفد دَوْس:

كانت وفادة هذه القبيلة فى أوائل سنة سبع، ورسول الله ﷺ بخيبر، وقد قدمنا حديث إسلام الطُّفَيْل بن عمرو الدوسى، وأنه أسلم ورسول الله ﷺ بمكة، ثم رجع إلى قومه، فلم يزل يدعوهم إلى الإسلام، ويبطئون عليه حتى يئس منهم، ورجع إلى رسول الله ﷺ، فطلب منه أن يدعو على دوس، فقال: «**اللهم اهد دوسًا**». ثم أسلم هؤلاء، فوفد الطفيل بسبعين أو ثمانين بيتا من قومه إلى المدينة فى أوائل سنة سبع، ورسول الله ﷺ بخيبر، فلحق به.

٣ - رسول فَرْوَة بن عمرو الجُذَامى:

كان فروة قائدًا عربيًّا من قواد الرومان، عاملًا لهم على من يليهم من العرب، وكان منزله مَعَان وما حوله من أرض الشام، أسلم بعد ما رأى من جلاد المسلمين وشجاعتهم، وصدقهم اللقاء فى معركة مؤتة سنة ٨هـ، ولما أسلم بعث إلى رسول الله ﷺ رسولًا بإسلامه، وأهدى له بغلة بيضاء، ولما علم الروم بإسلامه أخذوه فحبسوه، ثم خيروه بين الردة والموت، فاختار الموت على الردة، فصلبوه بفلسطين على ماء يقال له: عفراء، وضربوا عنقه(٢).

٤ - وفد صُدَاء:

جاء هذا الوفد عقب انصراف رسول الله ﷺ من الجِعْرَانة سنة ٨هـ، وذلك أن رسول الله ﷺ هيأ بعثًا من أربعمائة من المسلمين، وأمرهم أن يطأوا ناحية من اليمن فيها صُدَاء، وبينما ذلك البعث معسكر بصَدْرِ قَنَاة علم به زياد بن الحارث الصدائى، فجاء إلى رسول الله ﷺ فقال: جئتك وافدًا على مَنْ ورائى، فاردد الجيش وأنا لك بقومى، فرد الجيش من صدر قناة، وجاء الصدائى إلى قومه فرغبهم فى القدوم على رسول الله ﷺ، فقدم

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووى ١/ ٣٣، وفتح البارى ٨/ ٨٥، ٨٦.

(٢) زاد المعاد ٣/ ٤٥.

عليه خمسة عشر رجلًا منهم، وبايعوه على الإسلام، ثم رجعوا إلى قومهم، فدعوهم ففشا فيهم الإسلام، فوافى رسول الله ﷺ منهم مائة رجل فى حجة الوداع.

٥ - قدوم كعب بن زهير بن أبى سلمى:

كان من بيت الشعراء، ومن أشعر العرب، وكان يهجو النبى ﷺ، فلما انصرف رسول الله ﷺ من غزوة الطائف سنة ٨هـ، كتب إلى كعب بن زهير أخوه بُجَيْر بن زهير أن رسول الله ﷺ قتل رجالًا بمكة ممن كانوا يهجونه ويؤذونه، ومن بقى من شعراء قريش هربوا فى كل وجه، فإن كانت لك فى نفسك حاجة فَطِرْ إلى رسول الله ﷺ، فإنه لا يقتل أحدًا جاء تائبًا، وإلا فانج إلى نجاتك، ثم جرى بين الأخوين مراسلات ضاقت لأجلها الأرض على كعب، وأشفق على نفسه، فجاء المدينة، ونزل على رجل من جُهَيْنَةَ، وصلى معه الصبح، فلما انصرف أشار عليه الجهنى، فقام إلى رسول الله ﷺ حتى جلس إليه، فوضع يده فى يده، وكان رسول الله ﷺ لا يعرفه فقال: يا رسول الله، إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائبًا مسلمًا، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به؟ قال: **«نعم»**. قال: أنا كعب ابن زهير، فوثب عليه رجل من الأنصار يستأذن ضرب عنقه، فقال: **«دعه عنك، فإنه قد جاء تائبًا نازعًا عما كان عليه»**.

وحينئذ أنشد كعب قصيدته المشهورة التى أولها:

بانت سعاد فقلبى اليوم مَتْبُول ... مُـتَـيَّـمٌ إثْـرَهَـا، لـم يُـفْـدَ مَكْبُول

قال فيها - وهو يعتذر إلى رسول الله ﷺ، ويمدحه:

نُـبِّـئْـتُ أن رســول الله أوعدنى ... والعفو عند رسـول الله مأمول
مهلا هداك الذى أعطاك نافلة الـ ... قرآن فيهـا مواعيـظ وتفصيـل
لا تـأخـذنّ بـأقـوال الـوُشَـاة ولم ... أذنـب، ولـو كثرت فِـيَّ الأقاويل
لقد أقـوم مقاما مـا لـو يقوم به ... أرى وأسمع ما لو يسمع الفيل
لَـظَـلَّ يُـرْعَـد إلا أن يـكـون له ... مـن الـرسـول بـإذن الله تَنْوِيل
حتى وضـعـتُ يمينى مـا أنازعه ... فى كَـفِّ ذى نقمات قِيلُهُ القيل
فلهو أخْـوَفُ عندى إذ أكلِّمه ... وقـيـل: إنـك منسوب ومسئول
من ضَيْغَم بِضَرَاء الأرض مَخْدَرُهُ ... فِى بَطْنِ عَثَّرَ غِيلٌ دونـه غِيل(١)

(١) ضراء الأرض: ما واراك من الشجر، وعثر: موضع تنسب إليه الأسود، والغيل: الغابة.

إن الـرسـول لـنـور يُستَضاء به مُـهَـنَّـدٌ مـن سيوف الله مسلول

ثم مدح المهاجرين من قريش؛ لأنهم لم يكن تكلم منهم رجل فى كعب حين جاء إلا بخير، وعرض فى أثناء مدحهم على الأنصار لاسئذان رجل منهم فى ضرب عنقه، قال:

يمشون مَشْى الجمال الزُّهْرِ يعصمهم ضَـرْبٌ إذا عَرَّد السُّودُ التَّنَابِيل(١)

فلما أسلم وحسن إسلامه مدح الأنصار فى قصيدة له، وتدارك ما كان قد فرط منه فى شأنهم، قال فى تلك القصيدة:

مـن سـره كَـرَمُ الحياة فـلا يَـزَلْ فى مِقْنَبٍ(٢) من صالحى الأنصار

ورثـوا المكارم كـابـرًا عن كابر إن الـخـيـار هـم بـنـو الأخـيـار

٦ - وفد عُذْرَة:

قدم هذا الوفد فى صفر سنة ٩هـ، وهم اثنا عشر رجلًا فيهم حمزة بن النعمان، قال متكلمهم حين سئلوا «**من القوم؟**»: نحن بنو عُذْرَة، إخوة قُصَىٍّ لأمه، نحن الذين عضدوا قصيًّا، وأزاحوا من بطن مكة خزاعة وبنى بكر، لنا قرابات وأرحام، فرحب بهم النبى ﷺ، وبشرهم بفتح الشام، ونهاهم عن سؤال الكاهنة، وعن الذبائح التى كانوا يذبحونها. أسلموا وأقاموا أيامًا ثم رجعوا.

٧ - وفد بَلِىّ:

قدم فى ربيع الأول سنة ٩هـ، وأسلم وأقام بالمدينة ثلاثًا، وقد سأل رئيسهم أبو الضُّبَيْب عن الضيافة هل فيها أجر؟ فقال رسول الله ﷺ: «**نعم، وكل معروف صنعته إلى غنى أو فقير فهو صدقة**»، وسأل عن وقت الضيافة، فقال: «**ثلاثة أيام**»، وسأل عن ضالة الغنم، فقال: «**هى لك أو لأخيك أو للذنب**»، وسأل عن ضالة البعير. فقال: «**مالك وله؟ دعه حتى يجده صاحبه**».

٨ - وفد ثقيف:

كانت وفادتهم فى رمضان سنة ٩هـ، وقصة إسلامهم أن رئيسهم عروة بن مسعود الثقفى جاء إلى رسول الله ﷺ بعد مرجعه من غزوة الطائف فى ذى القعدة سنة ٨ هـ قبل أن يصل إلى المدينة، فأسلم عروة، ورجع إلى قومه، ودعاهم إلى الإسلام - وهو يظن أنهم يطيعونه ؛ لأنه كان سيدا مطاعًا فى قومه، وكان أحب إليهم من أبكارهم - فلما دعاهم إلى

(١) عرّد: نكب عن قرنه، والتنابيل: القصار. (٢) جماعة.

الإسلام رموه بالنبل من كل وجه حتى قتلوه، ثم أقاموا بعد قتله أشهرًا، ثم ائتمروا بينهم، ورأوا أنه لا طاقة لهم بحرب مَنْ حولهم من العرب - الذين كانوا قد بايعوا وأسلموا - فأجمعوا أن يرسلوا رجلًا إلى رسول الله ﷺ، فكلموا عَبْد يالِيل بن عمرو، وعرضوا عليه ذلك فأبى، وخاف أن يصنعوا به إذا رجع مثل ما صنعوا بعروة. وقال: لست فاعلًا حتى ترسلوا معى رجالًا، فبعثوا معه رجلين من الأحلاف وثلاثة من بنى مالك، فصاروا ستة فيهم عثمان بن أبى العاص الثقفى، وكان أحدثهم سنًّا.

فلما قدموا على رسول الله ﷺ ضرب عليهم قبة فى ناحية المسجد، لكى يسمعوا القرآن، ويروا الناس إذا صلوا، ومكثوا يختلفون إلى رسول الله ﷺ، وهو يدعوهم إلى الإسلام، حتى سأل رئيسهم أن يكتب لهم رسول الله ﷺ قضية صلح بينه وبين ثقيف، يأذن لهم فيه بالزنا وشرب الخمور وأكل الربا، ويترك لهم طاغيتهم اللات، وأن يعفيهم من الصلاة، وألا يكسروا أصنامهم بأيديهم، فأبى رسول الله ﷺ أن يقبل شيئًا من ذلك، فخلوا وتشاوروا فلم يجدوا محيصًا عن الاستسلام لرسول الله ﷺ، فاستسلموا وأسلموا، واشترطوا أن يتولى رسول الله ﷺ هدم اللات، وأن ثقيفًا لا يهدمونها بأيديهم أبدًا. فقبل ذلك، وكتب لهم كتابًا، وأمر عليهم عثمان بن أبى العاص الثقفى ؛ لأنه كان أحرصهم على التفقه فى الإسلام وتعلم الدين والقرآن. وذلك أن الوفد كانوا كل يوم يغدون إلى رسول الله ﷺ، ويخلفون عثمان بن أبى العاص فى رحالهم، فإذا رجعوا وقالوا بالهاجرة عمد عثمان بن أبى العاص إلى رسول الله ﷺ فاستقرأه القرآن، وسأله عن الدين، وإذا وجده نائمًا عمد إلى أبى بكر لنفس الغرض (وكان من أعظم الناس بركة لقومه فى زمن الردة، فإن ثقيفًا لما عزمت على الردة قال لهم: يا معشر ثقيف، كنتم آخر الناس إسلامًا، فلا تكونوا أول الناس ردة، فامتنعوا عن الردة، وثبتوا على الإسلام).

ورجع الوفد إلى قومه فكتمهم الحقيقة، وخوفهم بالحرب والقتال، وأظهر الحزن والكآبة، وأن رسول الله ﷺ سألهم الإسلام وترك الزنا والخمر والربا وغيرها وإلا يقاتلهم. فأخذت ثقيفًا نخوة الجاهلية، فمكثوا يومين أو ثلاثة يريدون القتال، ثم ألقى الله فى قلوبهم الرعب، وقالوا للوفد: ارجعوا إليه فأعطوه ما سأل. وحينئذ أبدى الوفد حقيقة الأمر، وأظهروا ما صالحوا عليه، فأسلمت ثقيف.

وبعث رسول الله ﷺ رجالًا لهدم اللات، أمر عليهم خالد بن الوليد، فقام المغيرة بن شعبة، فأخذ الكُرْزِين وقال لأصحابه: والله لأضحكنكم من ثقيف، فضرب بالكرزين، ثم

سقط يركض، فارتج أهل الطائف، وقالوا: أبعد الله المغيرة، قتلته الرَّبَّةُ، فوثب المغيرة فقال: قبحكم الله، إنما هى لُكَاع حجارة ومَدَر، ثم ضرب الباب فكسره، ثم علا أعلى سورها، وعلا الرجال فهدموها وسووها بالأرض حتى حفروا أساسها، وأخرجوا حليها ولباسها، فبهتت ثقيف، ورجع خالد مع مفرزته إلى رسول الله ﷺ بحليها وكسوتها، فقسمها رسول الله ﷺ من يومه، وحمد الله على نصرة نبيه وإعزاز دينه[(١)].

٩ - رسالة ملوك اليمن:

وبعد مرجع النبى ﷺ من تبوك قدم كتاب ملوك حِمْيَر، وهم الحارث بن عبد كُلال، ونعيم بن عبد كلال، والنعمان، وقَيْلُ ذى رُعَيْن وهَمْدَان ومُعَافِر، ورسولهم إليه ﷺ مالك ابن مرة الرَّهَاوى، بعثوه بإسلامهم ومفارقتهم الشرك وأهله، وكتب إليهم رسول الله ﷺ كتابًا بَيَّنَ فيه ما للمؤمنين وما عليهم، وأعطى فيه المعاهدين ذمة الله وذمة رسوله إذا أعطوا ما عليهم من الجزية وبعث إليهم رجالًا من أصحابه أميرهم معاذ بن جبل، وجعله على الكورة العلياء من جهة عَدَن بين السَّكُون والسَّكَاسِك، وكان قاضيًا وحاكمًا فى الحروب، وعاملًا على أخذ الصدقة والجزية، ويصلى بهم الصلوات الخمس، وبعث أبا موسى الأشعرى رضي الله عنه على الكورة السفلى: زُبَيْد ومأرب وَزَمَع والساحل، وقال: «**يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا ولا تختلفا**». وقد مكث معاذ باليمن حتى توفى رسول الله ﷺ. أما أبو موسى الأشعرى رضي الله عنه فقدم عليه ﷺ فى حجة الوداع.

١٠ - وفد همدان:

قدموا سنة ٩هـ بعد مرجعه ﷺ من تبوك، فكتب لهم رسول الله ﷺ كتابًا أقطعهم فيه ما سألوه، وأمر عليهم مالك بن النَّمَطَ، واستعمله على من أسلم من قومه، وبعث إلى سائرهم خالد ابن الوليد يدعوهم إلى الإسلام، فأقام ستة أشهر يدعوهم فلم يجيبوه، ثم بعث على بن أبى طالب، وأمره أن يَقْفُلَ[(٢)] خالدًا، فجاء على إلى همدان، وقرأ عليهم كتابًا من رسول الله ﷺ، ودعاهم إلى الإسلام فأسلموا جميعًا، وكتب على ببشارة إسلامهم إلى رسول ﷺ، فلما قرأ الكتاب خر ساجدًا، ثم رفع رأسه فقال: «**السلام على همدان، السلام على همدان**».

---

(١) زاد المعاد ٣/ ٢٦-٢٨، وابن هشام ٢/ ٥٣٧-٥٤٢، والكرزين: القلعة.

(٢) يتبع.

١١ - وفد بنى فَزَارَة:

قدم هذا الوفد سنة ٩هـ بعد مرجعه ﷺ من تبوك، قدم فى بضعة عشر رجلًا جاءوا مقرين بالإسلام، وشكوا جدب بلادهم، فصعد رسول الله ﷺ المنبر، فرفع يديه واستسقى، وقال: «**اللهم اسق بلادك وبهائمك، وانشر رحمتك، وأحى بلدك الميت، اللهم اسقنا غَيْثًا مُغيثًا، مريئًا مَرِيعًا، طَبَقًا واسعًا، عاجلًا غير آجل، نافعًا غير ضار، اللهم سقيا رحمة، لا سقيا عذاب، ولاهَدْم ولا غَرَق ولا مَحْق، اللهم اسقنا الغيث، وانصرنا على الأعداء**»[(١)].

١٢ـ وفد نجران:

(نجران، بفتح النون وسكون الجيم: بلد كبير على سبع مراحل من مكة إلى جهة اليمن، كان يشتمل على ثلاث وسبعين قرية، مسيرة يوم للراكب السريع[(٢)]، وكان يؤلف مائة ألف مقاتل كانوا يدينون بالنصرانية).

وكانت وفادة أهل نجران سنة ٩هـ، وقوام الوفد ستون رجلًا منهم أربعة وعشرون من الأشراف، فيهم ثلاثة كانت إليهم زعامة أهل نجران. أحدهمْ: العَاقِب، كانت إليه الإمارة والحكومة، واسمه عبد المسيح. والثانى: السيد، كانت تحت إشرافه الأمور الثقافية والسياسية، واسمه الأيْهَم أو شُرَحْبِيل. والثالث: الأسْقف، وكانت إليه الزعامة الدينية، والقيادة الروحانية، واسمه أبو حارثة بن علقمة.

ولما نزل الوفد بالمدينة، ولقى النبى ﷺ سألهم وسألوه، ثم دعاهم إلى الإسلام، وتلا عليهم القرآن فامتنعوا، وسألوه عما يقول فى عيسى عليه السلام، فمكث رسول الله ﷺ يومه ذلك حتى نزل عليه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾ [آل عمران].

ولما أصبح رسول الله ﷺ أخبرهم بقوله فى عيسى ابن مريم فى ضوء هذه الآية الكريمة، وتركهم ذلك اليوم؛ ليفكروا فى أمرهم، فأبوا أن يقروا بما قال فى عيسى. فلما أصبحوا وقد أبوا عن قبول ما عرض عليهم من قوله فى عيسى، وأبوا عن الإسلام دعاهم رسول الله ﷺ

---

(١) زاد المعاد ٣/ ٤٨.

(٢) فتح البارى ٨/ ٩٤.

إلى المباهلة، وأقبل مشتملًا على الحسن والحسين فى خَمِيل له، وفاطمة تمشى عند ظهره، فلما رأوا منه الجد والتهيؤ خلوا وتشاوروا، فقال كل من العاقب والسيد للآخر: لا تفعل، فو الله لئن كان نبيًّا فَلَاعَنَنَا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا، فلا يبقى على وجه الأرض منا شعرة ولا ظُفْر إلا هلك، ثم اجتمع رأيهم على تحكيم رسول الله ﷺ فى أمرهم، فجاءوا وقالوا: إنا نعطيك ما سألتنا. فقبل رسول الله ﷺ منهم الجزية، وصالحهم على ألفى حُلَّة: ألف فى رجب، وألف فى صفر، ومع كل حلة أوقية، وأعطاهم ذمة الله وذمة رسوله. وترك لهم الحرية الكاملة فى دينهم، وكتب لهم بذلك كتابًا، وطلبوا منه أن يبعث عليهم رجلًا أمينًا، فبعث عليهم أمين هذه الأمة أبا عبيدة بن الجراح؛ ليقبض مال الصلح.

ثم طفق الإسلام يفشو فيهم، فقد ذكروا أن السيد والعاقب أسلما بعد ما رجعا إلى نجران، وأن النبى ﷺ بعث إليهم عليًّا ؛ ليأتيه بصدقاتهم وجزيتهم، ومعلوم أن الصدقة إنما تؤخذ من المسلمين[(١)].

١٣ - وفد بنى حنيفة:

كانت وفادتهم سنة ٩هـ، وكانوا سبعة عشر رجلًا فيهم مُسَيْلِمة الكذاب[(٢)] - وهو مُسَيلِمة ابن ثُمَامَة بن كبير بن حبيب بن الحارث من بنى حنيفة - نزل هذا الوفد فى بيت رجل من الأنصار، ثم جاءوا إلى النبى ﷺ فأسلموا، واختلفت الروايات فى مسيلمة الكذاب، ويظهر بعد النظر فى جميعها أن مسيلمة صدر منه الاستنكاف والأنفة والاستكبار والطموح إلى الإمارة، وأنه لم يحضر مع سائر الوفد إلى رسول الله ﷺ، وأن النبى ﷺ أراد استئلافه بالإحسان بالقول والفعل أولا، فلما رأى أن ذلك لا يجدى فيه نفعًا تفرس فيه الشر.

وكان النبى ﷺ قد أرى قبل ذلك فى المنام أنه أتى بخزائن الأرض، فوقع فى يديه سواران من ذهب، فكبرا عليه وأهماه، فأوحى إليه أن انفخهما فنفخهما فذهبا، فأَوَّلَهُمَا كذابين يخرجان من بعده، فلما صدر من مسيلمة ما صدر من الاستنكاف - وقد كان يقول: إن جعل لى محمد الأمر من بعده تبعته - جاءه رسول الله ﷺ وفى يده قطعة من جريد،

(١) فتح البارى ٨/ ٩٤- ٩٥، وزاد المعاد ٣/ ٣٨- ٤١ وقد اضطربت الروايات فى بيان كيفية وفد نجران، حتى جنح بعض المحققين إلى أن وفادة أهل نجران كانت مرتين،. وقد ذكرنا- ملخصا- ما ترجح عندنا فى هذا الوفد.

(٢) فتح البارى ٨/ ٨٧.

ومعه خطيبه ثابت بن قيس بن شَمَّاس، حتى وقف على مسيلمة فى أصحابه، فكلمه، فقال له مسيلمة: إن شئت خلينا بينك وبين الأمر، ثم جعلته لنا بعدك، فقال: «**لو سألتنى هذه القطعة ما أعطيتكها، ولن تعدو أمر الله فيك، ولئن أدبرتَ ليعقرنك الله، والله إنى لأراك الذى أرِيتُ فيه ما رأيتُ، وهذا ثابت يجيبك عنى**»، ثم انصرف[(١)].

وأخيرًا وقع ما تَفَرَّسَ فيه النبى ﷺ، فإن مسيلمة لما رجع إلى اليَمامة بقى يفكر فى أمره، حتى ادعى أنه أشرك فى الأمر مع النبى ﷺ، فادعى النبوة، وجعل يسجع السجعات، وأحل لقومه الخمر والزنا، وهو مع ذلك يشهد لرسول الله ﷺ أنه نبى، وافتتن به قومه فتبعوه وأصفقوا معه، حتى تفاقم أمره، فكان يقال له: رحمان اليمامة لعظم قدره فيهم، وكتب إلى رسول الله ﷺ كتابًا قال فيه: إنى أشركت فى الأمر معك، وإن لنا نصف الأمر، ولقريش نصف الأمر، فرد عليه رسول الله ﷺ بكتاب قال فيه: «**إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين**»[(٢)].

وعن ابن مسعود: جاء ابن النَّوَّاحَة، وابن أُثَال رسولا مسيلمة إلى النبى ﷺ، فقال لهما: «**أتشهدان أنى رسول الله؟**» فقالا: نشهد أن مسيلمة رسول الله. فقال النبى ﷺ: «**آمنت بالله ورسوله، لو كنت قاتلًا رسولًا لقتلتكما**»[(٣)].

كان ادعاء مسيلمة النبوة سنة عشر، وقتل فى حرب اليمامة فى عهد أبى بكر الصديق رضي الله عنه فى ربيع الأول سنة ١٢هـ، قتله وَحْشِى قاتل حمزة. وأما المتنبئ الثانى، وهو الأسود العَنْسِى الذى كان باليمن، فقتله فَيْرُوز، واحتز رأسه قبل وفاة النبى ﷺ بيوم وليلة، فأتاه الوحى فأخبر به أصحابه، ثم جاء الخبر من اليمن إلى أبى بكر رضي الله عنه[(٤)].

١٤ـ وفد بنى عامر بن صَعْصَعَة:

كان فيهم عامر بن الطُّفَيْل -عدو الله- وأرْبَد بن قيس - أخو لَبِيد لأمه - وخالد بن جعفر، وجَبَّار بن أسلم، وكانوا رؤساء القوم وشياطينهم، وكان عامر هو الذى غدر بأصحاب بئر مَعُونة، فلما أراد هذا الوفد أن يقدم المدينة تآمر عامر وأربد، واتفقا على الفتك بالنبى ﷺ، فلما جاء الوفد جعل عامر يكلم النبى ﷺ، ودار أربد خلفه، واخترط

---

(١) انظر: صحيح البخارى: باب وفد بنى حنيفة، وباب قصة الأسود العنسى ٢/ ٦٢٧، ٦٢٨، وفتح البارى ٨/ ٨٧- ٩٣.

(٢) زاد المعاد ٣/ ٣١، ٣٢.

(٣) رواه الإمام أحمد، مشكاة المصابيح ٢/ ٣٤٧.

(٤) فتح البارى ٨/ ٩٣.

سيفه شبرًا، ثم حبس الله يده فلم يقدر على سله، وعصم الله نبيه، ودعا عليهما النبى ﷺ، فلما رجعا أرسل الله على أربد وجمله صاعقة فأحرقته، وأما عامر فنزل على امرأة سَلُولِيَّةٍ، فأصيب بغُدَّةٍ فى عنقه فمات وهو يقول: أغدة كغدة البعير، وموتا فى بيت السلولية.

وفى صحيح البخارى: أن عامرًا أتى النبى ﷺ فقال: أُخَيِّرُكَ بين خصال ثلاث: يكون لك أهل السَّهْلِ ولى أهل الْمَدَرَ، أو أكون خليفتك من بعدك، أو أغزوك بغَطَفَان بألف أشقر وألف شقراء، فطعن فى بيت امرأة، فقال: أغدة كغدة البعير، فى بيت امرأة من بنى فلان ! ايتونى بفرسى، فركب، فمات على فرسه.

١٥ـ وفد تُجِيب:

قدم هذا الوفد بصدقات قومه مما فضل عن فقرائهم، وكان الوفد ثلاثة عشر رجلًا، وكانوا يسألون عن القرآن والسنن يتعلمونها، وسألوا رسول الله ﷺ أشياء فكتب لهم بها، ولم يطيلوا اللبث، ولما أجازهم رسول الله ﷺ بعثوا إليه غلامًا كانوا خلفوه فى رحالهم، فجاء الغلام، وقال: والله ما أَعْمَلَنِى[1] من بلادى إلا أن تسأل الله عز وجل أن يغفر لى ويرحمنى، وأن يجعل غناى فى قلبى، فدعا له بذلك. فكان أقنع الناس، وثبت فى الردة على الإسلام، وذكر قومه ووعظهم فثبتوا عليه، والتقى أهل الوفد بالنبى ﷺ مرة أخرى فى حجة الوداع سنة ١٠ هـ.

١٦ـ وفد طيِّئ:

قدم هذا الوفد وفيهم زَيْدُ الخَيْلِ، فلما كلموا النبى ﷺ، وعرض عليهم الإسلام أسلموا وحسن إسلامهم، وقال رسول الله ﷺ عن زيد: «**ما ذكر لى رجل من العرب بفضل، ثم جاءنى إلا رأيته دون ما يقال فيه، إلا زيد الخيل، فإنه لم يبلغ كل ما فيه**»، وسماه زيد الخير.

وهكذا تتابعت الوفود إلى المدينة فى سنتى تسع وعشر، وقد ذكر أهل المغازى والسير منها وفود أهل اليمن، والأزْد وبنى سعد هُذَيْم من قُضَاعَة، وبنى عامر بن قَيْس، وبنى أسد، وبَهْرَاء وخَوْلان ومُحَارِب وبنى الحارث بن كعب وغَامِد وبنى المُنْتَفِق، وسَلامان، وبنى عَبْس، ومُزَيْنَة، ومُرَاد، وزُبَيْد، وكِنْدَة، وذى مُرَّة، وغَسَّان، وبنى عِيش، ونَخْع – وهو آخر الوفود، توافد فى منتصف محرم سنة ١١ هـ فى مائتى رجل – وكانت وفادة الأغلبية من

---

(١) ما أحضرنى.

هذه الوفود سنة ٩ و ١٠هـ، وقد تأخرت وفادة بعضها إلى سنة ١١ هـ.

وتَتَابُع هذه الوفود يدل على مدى ما نالت الدعوة الإسلامية من القبول التام، وبسط السيطرة والنفوذ على أنحاء جزيرة العرب وأرجائها، وأن العرب كانت تنظر إلى المدينة بنظر التقدير والإجلال، حتى لم تكن ترى محيصًا عن الاستسلام أمامها، فقد صارت المدينة عاصمة لجزيرة العرب، لا يمكن صرف النظر عنها، إلا أننا لا يمكن لنا القول بأن الدين قد تمكن من أنفس هؤلاء بأسرهم ؛ لأنه كان وسطهم كثير من الأعراب الجفاة الذين أسلموا تبعًا لسادتهم، ولم تكن أنفسهم قد خلصت بعد عما تأصل فيها من الميل إلى الغارات، ولم تكن تعاليم الإسلام قد هذبت أنفسهم تمام التهذيب.

وقد وصف القرآن بعضهم بقوله في سورة التوبة: ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ ﴾ [التوبة]

وأثنى على آخرين منهم فقال: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَـٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ ﴾ [التوبة].

أما الحاضرون منهم في مكة والمدينة وثقيف، وكثير من اليمن والبحرين، فقد كان الإسلام فيهم قويًا، ومنهم كبار الصحابة وسادات المسلمين[1].

---

(١) كلمة للخضري في محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ١/ ١٤٤. وانظر في تفاصيل الوفود التي ذكرناها أو أشرنا إليها: صحيح البخاري ١/ ١٣، ٢/ ٦٢٦- ٦٣٠، وابن هشام ٣/ ٥٠١- ٥٠٣، ٥١٠- ٥١٤، ٥٣٧- ٥٤٢، ٥٦٠- ٦٠١، وزاد المعاد ٣/ ٢٦- ٦٠، وفتح الباري ٨/ ٨٣- ١٠٣.

نجاح الدعوة وأثرها

وقبل أن نتقدم خطوة أخرى إلى مطالعة أواخر أيام حياة الرسول ﷺ، ينبغى لنا أن نلقى نظرة إجمالية على العمل الجلل الذى هو فذلكة حياته، والذى امتاز به عن سائر الأنبياء والمرسلين، حتى توج الله هامته بسيادة الأولين والآخرين.

إنه ﷺ قيل له: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾ الآيات [المزمل]. و ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ الآيات [المدثر]، فقام وظل قائمًا أكثر من عشرين عامًا يحمل على عاتقه عبء الأمانة الكبرى فى هذه الأرض، عبء البشرية كلها، وعبء العقيدة كلها، وعبء الكفاح والجهاد فى ميادين شتى.

حمل عبء الكفاح والجهاد فى ميادين الضمير البشرى الغارق فى أوهام الجاهلية وتصوراتها، المثقل بأثقال الأرض وجواذبها، المكبل بأوهاق الشهوات وأغلالها. حتى إذا خلص هذا الضمير فى بعض صحابته مما يثقله من ركام الجاهلية والحياة الأرضية، بدأ معركة أخرى فى ميدان آخر، بل معارك متلاحقة... مع أعداء دعوة الله المتألبين عليها، وعلى المؤمنين بها، الحريصين على قتل هذه الغرسة الزكية فى منبتها، قبل أن تنمو وتمد جذورها فى التربة، وفروعها فى الفضاء، وتظلل مساحات أخرى... ولم يكد يفرغ من معارك الجزيرة العربية حتى كانت الروم تعد لهذه الأمة الجديدة، وتتهيأ للبطش بها على تُخُومِها الشمالية.

وفى أثناء هذا كله لم تكن المعركة الأولى - معركة الضمير - قد انتهت، فهى معركة خالدة، الشيطان صاحبها، وهو لا يَنِى لحظة عن مزاولة نشاطه فى أعماق الضمير الإنسانى، ومحمد ﷺ قائم على دعوة الله هناك، وعلى المعركة الدائبة فى ميادينها المتفرقة، فى شظف من العيش، والدنيا مقبلة عليه وفى جهد وكَدٍّ، والمؤمنون يستروحون من حوله ظلال الأمن والراحة، وفى نُصُب دائم لا ينقطع، وفى صبر جميل على هذا كله، وفى قيام الليل، وفى عبادة لربه وترتيل لقرآنه، وتَبَتُّل إليه كما أمره أن يفعل[1].

وهكذا عاش فى المعركة الدائبة المستمرة أكثر من عشرين عامًا، لا يلهيه شأن عن شأن فى خلال هذا الأمد، حتى نجحت الدعوة الإسلامية على نطاق واسع تتحير له

(١) كلمة لسيد قطب فى ظلال القرآن ٢٩/ ١٦٨، ١٦٩.

العقول، فقد دانت لها الجزيرة العربية، وزالت غبرة الجاهلية عن آفاقها، وصحت العقول العليلة حتى تركت الأصنام بل كسرت، أخذ الجو يرتج بأصوات التوحيد، وسمع الأذان للصلوات يشق أجواء الفضاء خلال الصحراء التى أحياها الإيمان الجديد، وانطلق القراء شمالًا وجنوبًا، يتلون آيات الكتاب، ويقيمون أحكام الله.

وتوحدت الشعوب والقبائل المتناثرة، وخرج الإنسان من عبادة العباد إلى عبادة الله، فليس هناك قاهر ومقهور، وسادات وعبيد، وحكام ومحكومون، وظالم ومظلوم، وإنما الناس كلهم عباد الله، إخوان متحابون، متمثلون لأحكامه، أذهب الله عنهم عُبِّيَّةَ(١) الجاهلية ونخوتها وتعاظمها بالآباء، ولم يبق هناك فضل لعربى على عجمى، ولا لعجمى على عربى، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى، الناس كلهم بنو آدم، وآدم من تراب.

وهكذا تحققت - بفضل هذه الدعوة - الوحدة العربية، والوحدة الإنسانية، والعدالة الاجتماعية، والسعادة البشرية فى قضاياها ومشاكلها الدنيوية، وفى مسائلها الأخروية، فتقلب مجرى الأيام، وتغير وجه الأرض، وانعدل خط التاريخ، تبدلت العقلية.

إن العالم كانت تسيطر عليه روح الجاهلية - قبل هذه الدعوة - ويتعفن ضميره، وتأسن روحه، وتختل فيه القيم والمقاييس، ويسوده الظلم والعبودية، وتجتاحه موجة من الترف الفاجر والحرمان التاعس، وتغشاه غاشية الكفر والضلال والظلام، على الرغم من الديانات السماوية، التى كانت قد أدركها التحريف، وسرى فيها الضعف، وفقدت سيطرتها على النفوس، واستحالت طقوسًا جامدة، لا حياة فيها ولا روح.

فلما قامت هذه الدعوة بدورها فى حياة البشرية، خلصت روح البشر من الوهم والخرافة، ومن العبودية والرق، ومن الفساد والتعفن، ومن القذارة والانحلال، وخلصت المجتمع الإنسانى من الظلم والطغيان، ومن التفكك والانهيار، ومن فوارق الطبقات، واستبداد الحكام، واستذلال الكهان، وقامت ببناء العالم على أسس من العفة والنظافة، والإيجابية والبناء، والحرية والتجدد، ومن المعرفة واليقين، والثقة والإيمان، والعدالة والكرامة، ومن العمل الدائب لتنمية الحياة، وترقية الحياة، وإعطاء كل ذى حق حقه فى الحياة(٢).

وبفضل هذه التطورات شاهدت الجزيرة العربية نهضة مباركة لم تشاهد مثلها منذ نشأ فوقها العمران، ولم يتألق تاريخها تألقه فى هذه الأيام الفريدة من عمرها.

---

(١) أى: الكبر.

(٢) من كلمة سيد قطب فى مقدمة: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص ١٤.

حجة الوداع

تمت أعمال الدعوة، وإبلاغ الرسالة، وبناء مجتمع جديد على أساس إثبات الألوهية لله، ونفيها عن غيره، وعلى أساس رسالة محمد ﷺ، وكأن هاتفًا خفيًا انبعث فى قلب رسول الله ﷺ، يشعره أن مقامه فى الدنيا قد أوشك على النهاية، حتى إنه حين بعث معاذا على اليمن سنة ١٠هـ قال له - فيما قال: «**يا معاذ، إنك عسى ألا تلقانى بعد عامى هذا، ولعلك أن تمر بمسجدى هذا وقبرى**»، فبكى معاذ خشعًا لفراق رسول الله ﷺ.

وشاء الله أن يرى رسوله ﷺ ثمار دعوته، التى عانى فى سبيلها ألوانًا من المتاعب بضعًا وعشرين عامًا، فيجتمع فى أطراف مكة بأفراد قبائل العرب وممثليها، فيأخذوا منه شرائع الدين وأحكامه، ويأخذ منهم الشهادة على أنه أدى الأمانة، وبلغ الرسالة، ونصح الأمة.

أعلن النبى ﷺ بقصده لهذه الحجة المبرورة المشهودة، فقدم المدينة بشر كثير كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله ﷺ[١]. وفى يوم السبت لخمس بقين من ذى القعدة تهيأ النبى ﷺ للرحيل[٢]، فتَرَجَّل وادَّهَنَ ولبس إزاره ورداءه وقَلَّد بُدْنَه، وانطلق بعد الظهر، حتى بلغ ذا الحُلَيْفَة قبل أن يصلى العصر، فصلاها ركعتين، وبات هناك حتى أصبح. فلما أصبح قال لأصحابه: «**أتانى الليلة آت من ربى فقال: صَلِّ فى هذا الوادى المبارك وقل: عمرة فى حجة**»[٣].

وقبل أن يصلى الظهر اغتسل لإحرامه، ثم طيبته عائشة بيدها بذَرِيرَة[٤] وطيب فيه مِسْك، فى بدنه ورأسه، حتى كان وَبِيصُ[٥] الطيب يرى فى مفارقه ولحيته، ثم استدامه ولم يغسله، ثم لبس إزاره ورداءه، ثم صلى الظهر ركعتين، ثم أهل بالحج والعمرة فى مُصَلَّاه، وقَرَن بينهما، ثم خرج، فركب القَصْوَاءَ، فأَهَلَّ أيضًا، ثم أَهَلَّ لما استقلت به على البَيْدَاء.

ثم واصل سيره حتى قرب من مكة، فبات بذى طُوَى، ثم دخل مكة بعد أن صلى الفجر واغتسل من صباح يوم الأحد لأربع ليال خلون من ذى الحجة سنة ١٠هـ - وقد قضى فى الطريق ثمانى ليال، وهى المسافة الوسطى - فلما دخل المسجد الحرام طاف بالبيت،

---

(١) روى ذلك مسلم عن جابر: باب حجة النبى ﷺ ١/ ٣٩٤.

(٢) انظر لتحقيق ذلك: فتح البارى ٨/ ١٠٤.

(٣) رواه البخارى عن عمر ١/ ٢٠٧.

(٤) نوع من الطيب.

(٥) بَرِيق.

وسعى بين الصفا والمروة، ولم يَحِلَّ ؛لأنه كان قارنًا قد ساق معه الهدى، فنزل بأعلى مكة عند الحَجُون، وأقام هناك، ولم يعد إلى الطواف غير طواف الحج.

وأمر من لم يكن معه هَدْى من أصحابه أن يجعلوا إحرامهم عمرة، فيطوفوا بالبيت وبين الصفا المروة، ثم يحلوا حلالًا تامًّا، فترددوا، فقال: «**لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما أهديت، ولولا أن معى الهدى لأحللت**»، فحل من لم يكن معه هدى، وسمعوا وأطاعوا.

وفى اليوم الثامن من ذى الحجة - وهو يوم التَّرْوِيَة - توجه إلى منى، فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر - خمس صلوات - ثم مكث قليلًا حتى طلعت الشمس، فأجاز حتى أتى عرفة، فوجد القبة قد ضربت له بِنَمِرَة، فنزل بها، حتى إذا زالت الشمس أمر بالقَصْوَاء فرحلت له، فأتى بطن الوادى، وقد اجتمع حوله مائة ألف وأربعة وعشرون أو أربعة وأربعون ألفًا من الناس، فقام فيهم خطيبًا، وألقى هذه الخطبة الجامعة:

«أيها الناس، اسمعوا قولى، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدًا»(١).

«إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، فى شهركم هذا، فى بلدكم هذا. ألا كل شىء من أمر الجاهلية تحت قدمى موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث - وكان مسترضعًا فى بنى سعد فقتلته هُذَيْل - وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع من ربانا ربا عباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله».

«فاتقوا الله فى النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربًا غير مُبَرِّح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف».

«وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به، كتاب الله»(٢).

«أيها الناس، إنه لا نبى بعدى، ولا أمة بعدكم، ألا فاعبدوا ربكم، وصلوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدوا زكاة أموالكم، طيبة بها أنفسكم، وتحجون بيت ربكم، وأطيعوا أولات أمركم، تدخلوا جنة ربكم»(٣).

---

(١) ابن هشام ٢/ ٣٠٣.

(٢) صحيح مسلم: باب حجة النبى ﷺ ٩/ ٣٩٧.

(٣) رواه ابن جرير وابن عساكر، انظر: معدن الأعمال، ح (١١٠٨، ١١٠٩).

«وأنتم تسألون عنى، فما أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت.

فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء، وينكتها إلى الناس: «اللهم اشهد» ثلاث مرات[(١)].

وكان الذى يصرخ فى الناس بقول رسول الله ﷺ - وهو بعرفة - ربيعة بن أمية بن خَلَف[(٢)].

وبعد أن فرغ النبى ﷺ من إلقاء الخطبة نزل عليه قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، ولما نزلت بكى عمر، فقال له النبى ﷺ: «ما يبكيك؟» قال: أبكانى أنا كنا فى زيادة من ديننا، فأما إذا كمل فإنه لم يكمل شىء قط إلا نقص، فقال: «صدقت»[(٣)].

وبعد الخطبة أذن بلال ثم أقام، فصلى رسول الله ﷺ بالناس الظهر، ثم أقام فصلى العصر، ولم يصل بينهما شيئًا، ثم ركب حتى أتى الموقف، فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصَّخَرَات[(٤)]، وجعل حَبْل[(٥)] المشاة بين يديه، واستقبل القبلة، فلم يزل واقفا حتى غربت الشمس، وذهبت الصفرة قليلًا حتى غاب القُرْص.

وأردف أسامة، ودفع حتى أتى المُزْدَلِفَة، فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ولم يسبح بينهما شيئًا، ثم اضطجع حتى طلع الفجر، فصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة، ثم ركب القصواء حتى أتى المَشْعَرَ الحرام، فاستقبل القبلة، فدعاه، وكبره، وهلّله، ووحده، فلم يزل واقفًا حتى أسْفَر جِدًّا.

فَدَفَع - من المزدلفة إلى منى - قبل أن تطلع الشمس، وأردف الفضل بن عباس حتى أتى بَطْنَ مُحَسِّرٍ، فَحَرَّكَ قليلًا، ثم سلك الطريق الوسطى التى تخرج على الجمرة الكبرى، حتى أتى الجمرة التى عند الشجرة - وهى الجمرة الكبرى نفسها، كانت عندها شجرة فى ذلك الزمان، وتسمى بجمرة العَقَبَة وبالجمرة الأولى - فرماها بسبع حصيات، يكبر مع كل حصاة منها مثل حصى الخَذْف، رمى من بطن الوادى، ثم انصرف إلى المنحر، فنحر

---

(١) مسلم ١/ ٣٩٧. (٢) ابن هشام ٢/ ٦٠٥.

(٣) رواه ابن أبى شيبة وابن جرير، انظر: تفسير ابن كثير ٢/ ١٥، والدر المنثور ٢/ ٤٥٦.

(٤) هى أسفل جبل الرحمة.

(٥) مُجتَمَعهم.

ثلاثًا وستين بدنة بيده، ثم أعطى عليًّا فنحر ما غَبَرَ[1] - وهى سبع وثلاثون بدنة، تمام المائة - وأشركه فى هديه، ثم أمر من كل بدنة ببضعة، فجعلت فى قِدْر، فطبخت، فأكلا من لحمها، وشربا من مَرَقِها.

ثم ركب رسول الله ﷺ، فأفاض إلى البيت، فصلى بمكة الظهر، فأتى على بنى المطلب يَسْقُون على زمزم، فقال: «**انزعوا بنى عبد المطلب، فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم**»، فناولوه دلوًا فشرب منه[2].

وخطب النبى ﷺ يوم النحر - عاشر ذى الحجة - أيضًا حين ارتفع الضحى، وهو على بغلة شَهْبَاء، وعلى يعبر عنه، والناس بين قائم وقاعد[3]، وأعاد فى خطبته هذه بعض ما كان ألقاه أمس، فقد روى الشيخان عن أبى بكرة قال: خطبنا النبى ﷺ يوم النحر، قال: «**إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهرًا، منها أربعة حرم، ثلاث متواليات، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مُضَر الذى بين جمادى وشعبان**».

وقال: «**أى شهر هذا؟**» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «**أليس ذا الحجة؟**» قلنا: بلى؟ قال: «**أى بلد هذا؟**» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «**أليست البلدة؟**» قلنا: بلى. قال: «**فأى يوم هذا؟**» قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسمية بغير اسمه، قال: «**أليس يوم النحر؟**» قلنا: بلى. قال: «**فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، فى بلدكم هذا، فى شهركم هذا**».

«**وستلقون ربكم، فيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدى ضلالًا يضرب بعضكم رقاب بعض**».

«**ألا هل بلغت؟**» قالوا: نعم، قال: «**اللهم اشهد، فليبلغ الشاهد الغائب، فَرُبَّ مُبَلَّغ أوعى من سامع**»[4].

وفى رواية أنه قال فى تلك الخطبة: «**ألا لا يجنى جَانٍ إلا على نفسه، ألا لا يجنى جان**

---

(١) ما بقى.

(٢) رواه مسلم عن جابر: باب حجة النبى ﷺ ١/ ٣٩٧- ٤٠٠

(٣) روى ذلك أبو داود: باب أى وقت يخطب يوم النحر ١/ ٢٧٠.

(٤) صحيح البخارى: باب الخطبة أيام منى ١/ ٢٣٤ وغيرها.

على ولده، ولا مولود على والده، ألا إن الشيطان قد يئس أن يُعْبَد فى بلدكم هذا أبدًا، ولكن ستكون له طاعة فيما تحتقرون من أعمالكم، فسيرضى به»[(١)] .

وأقام أيام التشريق بمنى يؤدى المناسك ويعلم الشرائع، ويذكر الله، ويقيم سنن الهدى من ملة إبراهيم، ويمحو آثار الشرك ومعالمها.

وقد خطب فى بعض أيام التشريق أيضًا، فقد روى أبو داود بإسناد حسن عن سَرَّاءِ بنت نَبْهَانَ قالت: خطبنا رسول الله ﷺ يوم الرءوس، فقال: «**أليس هذا أوسط أيام التشريق**»[(٢)] . وكانت خطبته فى هذا اليوم مثل خطبته يوم النحر، ووقعت هذه الخطبة عقب نزول سورة النصر.

وفى يوم النَّفْر الثانى - الثالث عشر من ذى الحجة - نفر النبى ﷺ من منى، فنزل بخَيف بنى كِنَانة من الأبْطَح، وأقام هناك بقية يومه ذلك، وليلته، وصلى هناك الظهر والعصر والمغرب والعشاء، ثم رقد رقدة، ثم ركب إلى البيت، فطاف به طواف الوداع، وأمر به الناس.

ولما قضى مناسكه حث الركاب إلى المدينة المطهرة، لا ليأخذ حظًّا من الراحة، بل ليستأنف الكفاح والكدح لله وفى سبيل الله[(٣)] .

آخر البعوث:

كانت كبرياء دولة الرم قد جعلتها تأبى حق الحياة على من آمن بالله ورسوله، وحملها على أن تقتل من أتباعها من يدخل فى الإسلام، كما فعلت بفَرْوَة بن عمرو الجُذَامِى، الذى كان واليًا على مَعَان من قبل الروم.

ونظرًا إلى هذه الجراءة والغطرسة، أخذ رسول الله ﷺ يجهز جيشًا كبيرًا فى صفر سنة ١١هـ، وأمر عليه أسامة بن زيد بن حارثة، وأمره أن يوطئ الخيل تُخُوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين، يبغى بذلك إرهاب الروم وإعادة الثقة إلى قلوب العرب الضاربين على الحدود، حتى لا يحسبن أحد أن بطش الكنيسة لا معقب له، وأن الدخول فى الإسلام يجر

(١) رواه الترمذى ٢/ ٣٨، ١٣٥، وابن ماجه فى الحج، انظر: مشكاة المصابيح ١/ ٢٣٤.

(٢) أبو داود: باب أى يوم يخطب بمنى ١/ ٢٦٩.

(٣) انظر لتفصيل حجة النبى ﷺ: صحيح البخارى: كتاب المناسك، ح ١، و ٢/ ٦٣١، وصحيح مسلم: باب حجة النبى ﷺ، وفتح البارى ج ٣ من شرح كتاب المناسك، و ٨/ ١٠٣- ١١٠، وابن هشام ٢/ ٦٠١- ٦٠٥، وزاد المعاد ١/ ١٩٦، ٢١٨- ٢٤٠.

على أصحابه الحتوف فحسب.

وتكلم الناس فى قائد الجيش لحداثة سنه، واستبطأوا فى بعثه، فقال رسول الله ﷺ: **«إن تطعنوا فى إمارته، فقد كنتم تطعنون فى إمارة أبيه من قبل، وايم الله، إن كان لخليقًا للإمارة، وإن كان من أحب الناس إلىّ، و إن هذا من أحب الناس إلىّ بعده»**[١].

وانتدب الناس يلتفون حول أسامة، وينتظمون فى جيشة، حتى خرجوا ونزلوا الجُرْف، على فَرْسَخ من المدينة، إلا أن الأخبار المقلقة عن مرض رسول الله ﷺ ألزمتهم التريث، حتى يعرفوا ما يقضى الله به، وقد قضى الله أن يكون هذا أول بعث ينفذ فى خلافة أبى بكر الصديق[٢].

(١) صحيح البخارى: باب بعث النبى ﷺ أسامة ٢/ ٦١٢.

(٢) المصدر السابق نفسه، وابن هشام ٢/ ٦٠٦، ٦٥٠.

آخـــر بـــاب

مـــن

الحياة الطيبة

إلى الرفيق الأعلى

طلائع التوديع:

ولما تكاملت الدعوة وسيطر الإسلام على الموقف، أخذت طلائع التوديع للحياة والأحياء تطلع من مشاعره ﷺ، وتتضح بعباراته وأفعاله.

إنه اعتكف فى رمضان من السنة العاشرة عشرين يومًا، بينما كان لا يعتكف إلا عشرة أيام فحسب، وتدارسه جبريل القرآن مرتين، وقال فى حجة الوداع: «**إنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدًا**»، وقال وهو عند جمرة العقبة: «**خذوا عنى مناسككم، فلعلى لا أحج بعد عامى هذا**»، وأنزلت عليه سورة النصر فى أوسط أيام التشريق، فعرف أنه الوداع وأنه نعيت إليه نفسه.

وفى أوائل صفر سنة ١١ هـ خرج النبى ﷺ إلى أحد، فصلى على الشهداء كالمودع للأحياء والأموات، ثم انصرف إلى المنبر فقال: «**إنى فرط لكم، وأنا شهيد عليكم، وإنى والله لأنظر إلى حوضى الآن، وإنى أعطيت مفاتيح خزائن الأرض، أو مفاتيح الأرض، وإنى والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدى، ولكنى أخاف عليكم أن تنافسوا فيها**»[(١)].

وخرج ليلة - فى منتصفها - إلى البَقِيع، فاستغفر لهم، وقال: «**السلام عليكم يا أهل المقابر، لِيَهْنَ لكم ما أصبحتم فيه بما أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، يتبع آخرها أولها، والآخرة شر من الأولى**»، وبشرهم قائلًا: «**إنا بكم للاحقون**».

بداية المرض:

وفى اليوم الثامن أو التاسع والعشرين من شهر صفر سنة١١هـ - وكان يوم الاثنين - شهد رسول الله ﷺ جنازة فى البقيع، فلما رجع، وهو فى الطريق أخذه صداع فى رأسه، واتقدت الحرارة، حتى إنهم كانوا يجدون سَوْرَتَها فوق العِصَابة التى تعصب بها رأسه.

وقد صلى النبى ﷺ بالناس وهو مريض ١١ يومًا، وجميع أيام المرض كانت ١٣، أو ١٤ يومًا.

---

(١) متفق عليه، صحيح البخارى ٢/ ٥٨٥، وفتح البارى ٣/ ٢٤٨، ح (١٣٤٤، ٣٥٩٦، ٤٠٤٢، ٤٠٨٥، ٦٤٢٦، ٦٥٩٠)، ومسلم: الفضائل، باب إثبات حوض نبينا وصفاته ٤/ ١٧٩٥، ح (٢٢٩٦).

الأسبوع الأخير:

وثقل برسول الله ﷺ المرض، فجعل يسأل أزواجه: «أين أنا غدًا؟ أين أنا غدًا؟» ففهمن مراده، فأذن له يكون حيث شاء، فانتقل إلى بيت عائشة يمشى بين الفضل بن عباس وعلى بن أبي طالب، عاصبًا رأسه، تخط قدماه حتى دخل بيتها، فقضى عندها آخر أسبوع من حياته.

وكانت عائشة تقرأ بالمعوذات والأدعية التى حفظتها من رسول الله ﷺ، فكانت تنفث على نفسه، وتمسحه بيده رجاء البركة.

قبل الوفاة بخمسة أيام:

ويوم الأربعاء قبل خمسة أيام من الوفاة، اتقدت حرارة العلة فى بدنه، فاشتد به الوجع وغمى، فقال: «**هريقوا على سبع قِرَب من آبار شتى، حتى أخرج إلى الناس، فأعهد إليهم**»، فأقعدوه فى مِخْضَبٍ[1]، وصبوا عليه الماء حتى طفق يقول: «**حسبكم، حسبكم**».

وعند ذلك أحس بخفة، فدخل المسجد متعطفًا ملحفة على منكبيه، قد عصب رأسه بعصابة دسمة حتى جلس على المنبر، وكان آخر مجلس جلسه، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «**أيها الناس، إلى**»، فثابوا إليه، فقال - فيما قال: «**لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**» - وفى رواية: «**قاتل الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»[2] - وقال: «**لا تتخذوا قبرى وثنًا يعبد**»[3].

وعرض نفسه للقصاص قائلًا: «**من كنت جلدت له ظَهْرًا فهذا ظهرى فليستقد منه، ومن كنت شتمت له عِرْضًا فهذا عرضى فليستقد منه**».

ثم نزل فصلى الظهر، ثم رجع فجلس على المنبر، وعاد لمقالته الأولى فى الشحناء وغيرها. فقال رجل: إن لى عندك ثلاثة دراهم، فقال: «**أعطه يا فضل**»، ثم أوصى بالأنصار قائلًا:

«**أوصيكم بالأنصار، فإنهم كِرْشِى وعَيْبَتِى، وقد قضوا الذى عليهم وبقى الذى لهم، فاقبلوا من مُحْسِنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم**»، وفى رواية أنه قال: «**إن الناس يكثرون، وتَقِلُّ**

---

(١) أى: آنية.

(٢) صحيح البخارى ١/ ٦٢، وموطأ الإمام مالك، ص ٣٦٠.

(٣) موطأ الإمام مالك، ص ٦٥.

الأنصار حتى يكونوا كالملح فى الطعام، فمن ولى منكم أمرًا يضر فيه أحدًا أو ينفعه فليقبل من محسنهم، ويتجاوز عن مسيئهم»[١].

ثم قال: «**إن عبدًا خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء، وبين ما عنده، فاختار ما عنده**». قال أبو سعيد الخدرى: فبكى أبو بكر. قال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا، فعجبنا له، فقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ، يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا، وبين ما عنده، وهو يقول: فديناك بآبائنا وأمهاتنا. فكان رسول الله ﷺ هو المخير، وكان أبو بكر أعلمنا[٢].

ثم قال رسول الله ﷺ: «**إن من أمنّ الناس علىّ فى صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذًا خليلًا غير ربى لا تخذت أبا بكر خليلًا، ولكن أخوة الإسلام ومودته، لا يبقين فى المسجد باب إلا سد، إلا باب أبى بكر**»[٣].

قبل أربعة أيام:

ويوم الخميس قبل الوفاة بأربعة أيام قال - وقد اشتد به الوجع: «**هلموا أكتب لكم كتابًا لن تضلوا بعده**» - وفى البيت رجال فيهم عمر - فقال عمر: قد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن، حسبكم كتاب الله، فاختلف أهل البيت واختصموا، فمنهم من يقول: قربوا يكتب لكم رسول الله ﷺ، ومنهم من يقول ما قال عمر، فلما أكثروا اللغط والاختلاف قال رسول الله ﷺ: «**قوموا عنى**»[٤].

وأوصى ذلك اليوم بثلاث: أوصى بإخراج اليهود والنصارى والمشركين من جزيرة العرب، وأوصى بإجازة الوفود بنحو ما كان يجيزهم، أما الثالث فنسيه الراوى. ولعله الوصية بالاعتصام بالكتاب والسنة، أو تنفيذ جيش أسامة، أو هى: «**الصلاة وما ملكت أيمانكم**».

والنبى ﷺ مع ما كان به من شدة المرض كان يصلى بالناس جميع صلواته حتى ذلك اليوم - يوم الخميس قبل الوفاة بأربعة أيام - وقد صلى بالناس ذلك اليوم صلاة المغرب، فقرأ فيها بالمرسلات عرفًا[٥].

---

(١) صحيح البخارى ١/ ٥٣٦. (٢) متفق عليه، مشكاة المصابيح ٢/ ٥٤٦.

(٣) صحيح البخارى ١/ ٥١٦. (٤) صحيح البخارى ١/ ٢٢، ٤٢٩، ٤٤٩، ٢/ ٦٣٨.

(٥) رواه البخارى عن أم الفضل: باب مرض النبى ﷺ ٢/ ٦٣٧.

وعند العشاء زاد ثقل المرض، بحيث لم يستطع الخروج إلى المسجد. قالت عائشة: فقال النبي ﷺ: «**أصَلَّى الناس؟**» قلنا: لا يا رسول الله، وهم ينتظرونك. قال: «**ضعوا لى ماء فى المِخْضَب**»، ففعلنا، فاغتسل، فذهب لينوء فأغمى عليه. ثم أفاق، فقال: «**أصلى الناس؟**» - ووقع ثانيًا وثالثًا ما وقع فى المرة الأولى من الاغتسال ثم الإغماء حينما أراد أن ينوء - فأرسل إلى أبى بكر أن يصلى بالناس، فصلى أبو بكر تلك الأيام[١] ١٧ صلاة فى حياته ﷺ، وهى صلاة العشاء من يوم الخميس، وصلاة الفجر من يوم الإثنين، وخمس عشرة صلاة فيما بينها[٢].

وراجعت عائشة النبى ﷺ ثلاث أو أربع مرات ؛ ليصرف الإمامة عن أبى بكر حتى لا يتشاءم به الناس[٣]، فأبى وقال: «**إنكن لأنتن صواحب يوسف، مروا أبا بكر فليصل بالناس**»[٤].**قبل ثلاثة أيام:**

قال جابر: سمعت النبى ﷺ قبل موته بثلاث وهو يقول: «**ألا لا يموت أحد منكم إلا وهو يحسن الظن بالله**»[٥].

قبل يوم أو يومين:

ويوم السبت أو الأحد وجد النبى ﷺ فى نفسه خفة، فخرج بين رجلين لصلاة الظهر، وأبو بكر يصلى بالناس، فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخر، فأومأ إليه بألا يتأخر، قال: «**أجلسانى إلى جنبه**»، فأجلساه إلى يسار أبى بكر، فكان أبو بكر يقتدى بصلاة رسول الله ﷺ ويسمع الناس التكبير[٦].

قبل يوم:

وقبل يوم من الوفاة - يوم الأحد - أعتق النبى ﷺ غلمانه، وتصدق بستة أو سبعة

---

(١) متفق عليه، مشكاة المصابيح ١/ ١٠٢.

(٢) البخارى مع الفتح ٢/ ١٩٣، ح (٦٨١)، ومسلم: كتاب الصلاة ١/ ٣١٥، ح (١٠٠)، ومسند أحمد ٦/ ٢٢٩.

(٣) ينظر له: البخارى مع الفتح ٧/ ٧٤٧، ح (٤٤٤٥)، ومسلم: كتاب الصلاة ١/ ٣١٣، ح (٩٣، ٩٤).

(٤) صحيح البخارى ١/ ٩٩.

(٥) طبقات ابن سعد ٢/ ٢٥٥، ومسند أبى داود الطيالسى، ص ٢٤٦، ح (١٧٧٩)، ومسند أبى يعلى ٤/ ١٩٣، ح (٢٢٩٠).

(٦) صحيح البخارى مع فتح البارى ٢/ ١٩٥، ٢٣٨، ٢٣٩، ح (٦٨٣، ٧١٢، ٧١٣).

دنانير كانت عنده[١]، ووهب للمسلمين أسلحته، وفى الليل أرسلت عائشة بمصباحها امرأة من النساء وقالت: أقطرى لنا فى مصباحنا من عُكَّتِك السمن[٢]، وكانت درعه ﷺ مرهونة عند يهودى بثلاثين صاعًا من الشعير[٣].

آخر يوم من الحياة:

روى أنس بن مالك: أن المسلمين بينا هم فى صلاة الفجر من يوم الاثنين - وأبو بكر يصلى بهم - لم يفجأهم إلا رسول الله ﷺ كشف ستر حجرة عائشة فنظر إليهم، وهم فى صفوف الصلاة، ثم تبسم يضحك، فنكص أبو بكر على عقبيه ؛ ليصل الصف، وظن أن رسول الله ﷺ يريد أن يخرج إلى الصلاة. فقال أنس: وهَمَّ المسلمون أن يفتتنوا فى صلاتهم، فَرَحًا برسول الله ﷺ، فأشار إليهم بيده رسول الله ﷺ أن أتموا صلاتكم، ثم دخل الحجرة وأرخى الستر[٤].

ثم لم يأت على رسول الله ﷺ وقت صلاة أخرى.

ولما ارتفع الضحى، دعا النبى ﷺ فاطمة فسَارَّها بشىء فبكت، ثم دعاها، فسارها بشىء فضحكت، قالت عائشة: فسألنا عن ذلك - أى فيما بعد - فقالت: سارنى النبى ﷺ أنه يقبض فى وجعه الذى توفى فيه، فبكيت، ثم سارنى فأخبرنى أنى أول أهله يتبعه فضحكت[٥].

وبشر النبى ﷺ فاطمة بأنها سيدة نساء العالمين[٦].

ورأت فاطمة ما برسول الله ﷺ من الكرب الشديد الذى يتغشاه.

---

(١) طبقات ابن سعد ٢/ ٢٣٧، تفيد بعض الروايات أنه تصدق بها ليلة الاثنين أو يوم الاثنين، أى فى آخر يوم من حياته.

(٢) طبقات ابن سعد ٢/ ٢٣٩.

(٣) انظر: صحيح البخارى، ح (٢٠٦٨، ٢٠٩٦، ٢٢٠٠، ٢٢٥١، ٢٢٥٢، ٢٣٨٦، ٢٥٠٩، ٢٥١٣، ٢٩١٦، ٤١٦٧)، وفى أواخر المغازى: توفى رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة، وعند أحمد: فما وجد ما يفتكها به (فتح البارى ٥/ ١٦٩).

(٤) انظر: صحيح البخارى مع فتح البارى ٢/ ١٩٣، ح (٦٨٠، ٦٨١، ٧٥٤، ١٢٠٥، ٤٤٤٨).

(٥) صحيح البخارى ٢/ ٦٣٨.

(٦) ويدل بعض الروايات على أن هذا الحوار والبشارة لم يكن فى آخر يوم من حياته، بل فى آخر أسبوع (رحمة للعالمين ١/ ٢٨٢).

فقالت: وا كرب أباه. فقال لها: «**ليس على أبيك كرب بعد اليوم**»[١].

ودعا الحسن والحسين فقبلهما، وأوصى بهما خيرًا، ودعا أزواجه فوعظهن وذكرهن.

وطفق الوجع يشتد ويزيد، وقد ظهر أثر السم الذى أكله بخيبر حتى كان يقول: «**يا عائشة، ما أزال أجد ألم الطعام الذى أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أَبْهَرِى من ذلك السم**»[٢].

وقد طرح خَمِيصَة له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه، فقال وهو كذلك - وكان هذا آخر ما تكلم وأوصى به الناس: «**لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد - يحذر ما صنعوا - لا يبقين دينان بأرض العرب**»[٣].

وأوصى الناس فقال: «**الصلاة، الصلاة، وما ملكت أيمانكم**»، كرر ذلك مرارًا[٤].

الاحتضار:

وبدأ الاحتضار، فأسندته عائشة إليها، وكانت تقول: إن من نعم الله علىّ أن رسول الله ﷺ توفى فى بيتى وفى يومى وبين سَحْرِى ونَحْرِى، وأن الله جمع بين ريقى وريقه عند موته. دخل عبد الرحمن - ابن أبى بكر - وبيده السواك، وأنا مسندة رسول الله ﷺ، فرأيته ينظر إليه، وعرفت أنه يحب السواك، فقلت: آخذه لك؟ فأشار برأسه أن نعم. فتناولته فاشتد عليه، وقلت: أليِّنه لك؟ فأشار برأسه أن نعم. فلينته، فأمره - وفى رواية أنه استن به كأحسن ما كان مستنا - وبين يديه رَكْوَة فيها ماء، فجعل يدخل يديه فى الماء فيمسح به وجهه، يقول: «**لا إله إلا الله، إن للموت سكرات...**» الحديث[٥].

وما عدا أن فرغ من السواك حتى رفع يده أو أصبعه، وشخص بصره نحو السقف، وتحركت شفتاه، فأصغت إليه عائشة وهو يقول: «**مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، اللهم اغفر لى وارحمنى، وألحقنى بالرفيق الأعلى. اللهم، الرفيق الأعلى**»[٦].

---

(١) صحيح البخارى ٢/ ٦٤١. (٢) المصدر السابق نفسه ٢/ ٦٣٧.

(٣) صحيح البخارى مع فتح البارى ١/ ٦٣٤، ح (٤٣٥، ١٣٣٠، ١٣٩٠، ٣٤٥٣، ٣٤٥٤، ٤٤٤١، ٤٤٤٣، ٤٤٤٤، ٥٨١٥، ٥٨١٦)، وطبقات ابن سعد ٢/ ٢٥٤.

(٤) صحيح البخارى ٢/ ٦٣٧.

(٥) صحيح البخارى: باب مرض النبى ﷺ ٢/ ٦٤٠. والسَّحْر: الرئة.

(٦) صحيح البخارى: باب مرض النبى ﷺ، وباب آخر ما تكلم النبى ﷺ ٢/ ٦٣٨- ٦٤١.

كرر الكلمة الأخيرة ثلاثًا، ومالت يده ولحق بالرفيق الأعلى. إنا لله وإنا إليه راجعون.

وقع هذا الحادث حين اشتدت الضحى من يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول سنة ١١هـ، وقد تم له ﷺ ثلاث وستون سنة وزادت أربعة أيام.

تفاقم الأحزان على الصحابة:

وتسرب النبأ الفادح، وأظلمت على أهل المدينة أرجاؤها وآفاقها. قال أنس: ما رأيت يومًا قط كان أحسن ولا أضوأ من يوم دخل علينا فيه رسول الله ﷺ، وما رأيت يوما كان أقبح ولا أظلم من يوم مات فيه رسول الله ﷺ[(١)].

ولما مات قالت فاطمة: يا أبتاه، أجاب ربا دعاه. يا أبتاه، مَنْ جنة الفردوس مأواه. يا أبتاه، إلى جبريل ننعاه[(٢)].

موقف عمر:

ووقف عمر بن الخطاب يقول: إن رجالًا من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ توفى، وإن رسول الله ﷺ ما مات، لكن ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، فغاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع إليهم بعد أن قيل: قد مات.

ووالله، ليرجعن رسول الله ﷺ، فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم يزعمون أنه مات[(٣)].

موقف أبى بكر:

وأقبل أبو بكر على فرس من مسكنه بالسُّنْح حتى نزل، فدخل المسجد، فلم يكلم الناس، حتى دخل على عائشة فتيمم رسول الله ﷺ، وهو مغشى بثوب حِبَرَة، فكشف عن وجهه ثم أكب عليه، فقبله وبكى، ثم قال: بأبى أنت وأمى، لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التى كتبت عليك فقد مِتَّهَا.

ثم خرج أبو بكر، وعمر يكلم الناس، فقال: اجلس يا عمر، فأبى عمر أن يجلس، فتشهد أبو بكر، فأقبل الناس إليه، وتركوا عمر، فقال أبو بكر:

---

(١) رواه الدارمى، مشكاة المصابيح ٢/ ٥٤٧، وعن أنس قال: لما كان اليوم الذى دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء، فلما كان اليوم الذى مات فيه أظلم منها كل شيء، ولما نفضنا عن رسول الله ﷺ الأيدى، وإنا لفى دفنه حتى أنكرنا قلوبنا (جامع الترمذى ٥/ ٥٨٨، ٥٨٩).

(٢) صحيح البخارى: باب مرض النبى ﷺ ٢/ ٦٤١.

(٣) ابن هشام ٢/ ٦٥٥.

أما بعد، من كان منكم يعبد محمدًا ﷺ فإن محمدًا قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حى لا يموت، قال الله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران].

قال ابن عباس: والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلقاها منه الناس كلهم، فما أسمع بشرًا من الناس إلا يتلوها.

قال ابن المسيب: قال عمر: والله، ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها، فعرفت أنه الحق، فعقرت حتى ما تُقَلِّنى رجلاى، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها، علمت أن النبى ﷺ قد مات(١).

التجهيز وتوديع الجسد الشريف إلى الأرض:

ووقع الخلاف فى أمر الخلافة قبل أن يقوموا بتجهيزه ﷺ، فجرت مناقشات ومجادلات وحوار وردود بين المهاجرين والأنصار فى سَقِيفة بنى ساعدة، وأخيرًا اتفقوا على خلافة أبى بكر رضي الله عنه، ومضى فى ذلك بقية يوم الاثنين حتى دخل الليل، وشغل الناس عن جهاز رسول الله ﷺ حتى كان آخر الليل - ليلة الثلاثاء - مع الصبح، وبقى جسده المبارك على فراشه مغشى بثوب حِبَرَة، قد أغلق دونه الباب أهله.

ويوم الثلاثاء غسلوا رسول الله ﷺ من غير أن يجردوه من ثيابه، وكان القائمون بالغسل: العباس وعليًا، والفضل وقُثَم ابنى العباس، وشُقْرَان مولى رسول الله ﷺ، وأسامة بن زيد، وأوس ابن خَوْلى، فكان العباس والفضل وقثم يقلبونه، وأسامة وشقران يصبان الماء، وعلى يغسله، وأوس أسنده إلى صدره(٢).

وقد غسل ثلاث غسلات بماء وسِدْر، وغسل من بئر يقال لها: الغَرْس لسعد بن خَيْثَمَة بقُبَاء وكان يشرب منها(٣).

ثم كفنوه فى ثلاثة أثواب يمانية بيض سَحُولِيَّة من كُرْسُف، ليس فيها قميص ولا عمامة(٤). أدرجوه فيها إدراجًا.

---

(١) صحيح البخارى ٢/ ٦٤٠، ٦٤١.

(٢) لينظر: ابن ماجه ١/ ٥٢١. (٣) لينظر التفصيل فى: طبقات ابن سعد ٢/ ٢٧٧- ٢٨١.

(٤) صحيح البخارى: جنائز، باب الثياب البيض للكفن، وفتح البارى ٣/ ١٦٢، ١٦٧، ١٦٨، ح (١٢٦٤، ١٢٧١، ١٢٧٣، ١٣٨٧)، وصحيح مسلم: جنائز ٤٦٣، باب كفن الميت، ح (٤٥).

واختلفوا فى موضع دفنه، فقال أبو بكر: إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما قبض نبى إلا دفن حيث يقبض**»، فرفع أبو طلحة فراشه الذى توفى عليه، فحفر تحته، وجعل القبر لحدًا.

ودخل الناس الحجرة أرسالًا، عشرة فعشرة، يصلون على رسول الله ﷺ أفذاذًا، لا يؤمهم أحد، وصلى عليه أولًا أهل عشيرته، ثم المهاجرون، ثم الأنصار، ثم الصبيان، ثم النساء، أو النساء ثم الصبيان(١).

ومضى فى ذلك يوم الثلاثاء كاملًا، ومعظم ليلة الأربعاء، قالت عائشة: ما علمنا بدفن رسول الله ﷺ حتى سمعنا صوت المسَاحِى(٢) من جوف الليل - وفى رواية: من آخر الليل - ليلة الأربعاء(٣).

---

(١) لينظر: موطأ الإمام مالك: كتاب الجنائز، باب ما جاء فى دفن الميت ١/ ٢٣١، وطبقات ابن سعد ٢/ ٢٨٨- ٢٩٢.

(٢) جمع مسحاة: ما يجرف به الطين.

(٣) مسند أحمد ٦/ ٦٢، ٢٧٤، وانظر لتفصيل لحوقه بالرفيق الأعلى: صحيح البخارى: باب مرض النبى ﷺ وعدة أبواب بعده مع فتح البارى، وصحيح مسلم، ومشكاة المصابيح: باب وفاة النبى ﷺ، وابن هشام ٢/ ٦٤٩- ٦٦٥، وتلقيح فهوم أهل الأثر، ص ٣٨، ٣٩، ورحمة للعالمين ١/ ٢٧٧- ٢٨٦ وتعيين عامة الأوقات من المرجع الأخير.

البيت النبوي

١- كان البيت النبوى فى مكة قبل الهجرة يتألف منه عليه الصلاة والسلام، ومن زوجته خديجة بنت خويلد، تزوجها وهو فى خمس وعشرين من سنه، وهى فى الأربعين، وهى أول من تزوجه من النساء، ولم يتزوج عليها غيرها، وكان له منها أبناء وبنات، أما الأبناء، فلم يعش منهم أحد، وأما البنات فهن: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، فأما زينب فتزوجها قبل الهجرة ابن خالتها أبوالعاص بن الربيع، وأما رقية وأم كلثوم فقد تزوجهما عثمان بن عفان رضي الله عنه الواحدة بعد الأخرى، وأما فاطمة فتزوجها على بن أبى طالب بين بدر وأحد، ومنها كان الحسن والحسين وزينب وأم كلثوم.

ومعلوم أن النبى ﷺ كان يمتاز عن أمته بحل التزوج بأكثر من أربع زوجات لأغراض كثيرة، فكان عدد من عقد عليهن ثلاثة عشرة امرأة، منهن تسع مات عنهن، واثنتان توفيتا فى حياته، إحداهما خديجة، والأخرى أم المساكين زينب بنت خُزَيْمَة، واثنتان لم يدخل بهما، وها هى أسماؤهن وشىء عنهن:

٢- **سودة بنت زمعة**: تزوجها رسول الله ﷺ فى شوال سنة عشر من النبوة، بعد وفاة خديجة بنحو شهر، وكانت قبله عند ابن عم لها يقال له: السكران بن عمرو، فمات عنها. توفيت بالمدينة فى شوال سنة ٥٤هـ.

٣- **عائشة بنت أبى بكر الصديق**: تزوجها فى شوال سنة إحدى عشرة من النبوة، بعد زواجه بسودة بسنة، وقبل الهجرة بسنتين وخمسة أشهر، تزوجها وهى بنت ست سنين، وبنى بها فى شوال بعد الهجرة بسبعة أشهر فى المدينة، وهى بنت تسع سنين، وكانت بكرًا ولم يتزوج بكرًا غيرها، وكانت أحب الخلق إليه، وأفقه نساء الأمة، وأعلمهن على الإطلاق، فضلها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام. توفيت فى ١٧ رمضان سنة ٥٧هـ أو ٥٨ هـ ودفنت بالبقيع.

٤- **حفصة بنت عمر بن الخطاب**: تأيمت من زوجها خنيس بن خذافة السهمى بين بدر وأحد،فلما حلت تزوجها رسول الله ﷺ فى شعبان سنة ٣هـ. توفيت فى شعبان سنة ٤٥هـ بالمدينة،ولها ستون سنة،ودفنت بالبقيع.

٥- **زينب بنت خزيمة**: من بنى هلال بن عامر بن صعصعة، وكانت تسمى أم المساكين، لرحمتها إياهم ورقتها عليهم، كانت تحت عبد الله بن جحش، فاستشهد فى أحد،

فتزوجها رسول الله ﷺ سنة ٤ هـ. ماتت بعد الزواج بنحو ثلاثة أشهر فى ربيع الآخر سنة ٤هـ، فصلى عليها النبى ﷺ، ودفنت بالبقيع.

٦- **أم سلمة هند بنت أبى أمية**: كانت تحت أبى سلمة،وله منها أولاد، فمات عنها فى جمادى الآخر سنة ٤هـ، فتزوجها رسول الله ﷺ فى ليال بقين من شوال السنة نفسها، وكانت من أفقه النساء وأعقلهن. توفيت سنة ٥٩هـ، وقيل: ٦٢هـ ودفنت بالبقيع، ولها ٨٤ سنة.

٧- **زينب بنت جحش بن رباب**: من بنى أسد بن خزيمة، وهى بنت عمة رسول الله ﷺ، كانت تحت زيد بن حارثة - الذى كان يعتبر ابنا للنبى ﷺ - فطلقها زيد، فلما انقضت العدة أنزل الله تعالى يقول لرسوله ﷺ: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وفيها نزلت من سورة الأحزاب آيات فصلت قضية التبنى - وسنأتى على ذكرها - تزوجها رسول الله ﷺ فى ذى القعدة سنة خمس من الهجرة. وقيل: سنة ٤هـ، وكانت أعبد النساء وأعظمهن صدقة، توفيت سنة ٢٠هـ ولها ٥٣ سنة. وكانت أول أمهات المؤمنين وفاة بعد رسول الله ﷺ، صلى عليها عمر بن الخطاب، ودفنت بالبقيع.

٨- **جويرية بنت الحارث (سيد بنى المصطلق)**: من خزاعة، كانت فى سبى بنى المصطلق فى سهم ثابت بن قيس بن شماس، فكاتبها، فقضى رسول الله ﷺ كتابتها، وتزوجها فى شعبان سنة ٦ هـ. وقيل: سنة ٥هـ، فأعتق المسلمون مائة أهل بيت من بنى المصطلق، وقالوا: أصهار رسول الله ﷺ، فكانت أعظم النساء بركة على قومها. توفيت فى ربيع الأول سنة ٥٦هـ، وقيل: ٥٥ هـ. ولها ٦٥ سنة.

٩- **أم حبيبة رملة بنت أبى سفيان**: كانت تحت عبيد الله بن جحش، فولدت له حبيبة فكنيت بها، وهاجرت معه إلى الحبشة، فارتد عبيد الله وتنصر، وتوفى هناك، وثبتت أم حبيبة على دينها وهجرتها، فلما بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمرى بكتابه إلى النجاشى فى المحرم سنة ٧هـ، خطب عليه أم حبيبة فزوجها إياه وأصدقها من عنده أربعمائة دينار، وبعث بها مع شرحبيل ابن حسنة. فابتنى بها النبى ﷺ بعد رجوعه من خيبر. توفيت سنة ٤٢هـ، أو ٤٤هـ، أو ٥٠هـ.

١٠- **صفية بنت حيى بن أخطب (أسيد بن النضير)**: من بنى إسرائيل، كانت من سبى خيبر، فاصطفاها رسول الله ﷺ لنفسه، وعرض عليها الإسلام فأسلمت، فأعتقها وتزوجها بعد فتح خيبر سنة ٧هـ، وابتنى بها بسد الصهباء على بعد ١٢ ميلا من خيبر فى طريقه إلى

المدينة. توفيت سنة ٥٠ هـ وقيل: ٥٢هـ، وقيل ٣٦ هـ، ودفنت بالبقيع.

١١- **ميمونة بنت الحارث:** أخت أم الفضل لبابة بنت الحارث، تزوجها فى ذى القعدة سنة ٧هـ، فى عمرة القضاء، بعد أن حل منها على الصحيح.

وابتنى بها بسرف على بعد ٩ أميال من مكة، وقد توفيت بسرف سنة ٦١هـ، وقيل: ٦٣هـ، وقيل: ٣٨ هـ ودفنت هناك، ولا يزال موضع قبرها معروفا.

فهؤلاء إحدى عشرة سيدة تزوج بهن الرسول ﷺ، وبنى بهن، وتوفيت منهن اثنتان - خديجة وزينب أم المساكين - فى حياته، وتوفى هو عن التسع البواقى.

وأما الاثنتان اللتان لم يبن بهما، فواحدة من بنى كلاب، وأخرى من كندة، وهى المعروفة بالجُونِيَّة، وهناك خلافات لاحاجة إلى بسطها.

وأما السرارى: فالمعروف أنه تسرى باثنتين إحداهما مارية القبطية، أهداها له المقوقس، فأولدها ابنه إبراهيم، الذى توفى صغيرا بالمدينة فى حياته ﷺ، فى ٢٨ / أو ٢٩ من شهر شوال سنة ١٠ هـ وفق ٢٧ يناير سنة ٦٣٢م.

والسرية الثانية هى ريحانة بنت زيد النضرية أو القرظية، كانت من سبايا قريظة، فاصطفاها لنفسه، وقيل: بل هى من أزواجه ﷺ، أعتقها فتزوجها. والقول الأول رجحه ابن القيم. وزاد أبو عبيدة اثنتين أخريين، جميلة أصابها فى بعض السبى، وجارية وهبتها له زينب بنت جحش.

ومن نظر إلى حياة الرسول ﷺ عرف جيدًا أن زواجه بهذا العدد الكثير من النساء فى أواخر عمره بعد أن قضى ما يقارب ثلاثين عامًا من ريعان شبابه وأجود أيامه مقتصرا على زوجة واحدة شبه عجوز - خديجة ثم سودة - عرف أن هذا الزواج لم يكن لأجل أنه وجد بغتة فى نفسه قوة عارمة من الشبق، لا يصبر معها إلا بمثل هذا العدد الكثير من النساء؛ بل كانت هناك أغراض أخرى أجل وأعظم من الغرض الذى يحققه عامة الزواج.

فاتجاه الرسول ﷺ إلى مصاهرة أبى بكر وعمر بزواجه بعائشة وحفصة - وكذلك تزوجيه ابنته فاطمة بعلى بن أبى طالب، وتزويجه ابنتيه رقية ثم أم كلثوم بعثمان بن عفان - يشير إلى أنه يبغى من وراء ذلك توثيق الصلاة بالرجال الأربعة، الذى عرف بلاءهم وفداءهم للإسلام فى الأزمات التى مرت به، وشاء الله أن يجتازها بسلام.

وكان من تقاليد العرب الاحترام للمصاهرة، فقد كان الصهر عندهم بابا من أبواب التقرب بين البطون المختلفة، وكانوا يرون مناوأة ومحاربة الأصهار سبة وعارًا على أنفسهم،

فأراد رسول الله ﷺ بزواج عدة من أمهات المؤمنين أن يكسر سورة عداء القبائل للإسلام، ويطفئ حدة بغضائها، كانت أم سلمة من بنى مخزوم - حى أبى جهل وخالد ابن الوليد - فلما تزوجها رسول الله ﷺ لم يقف خالد من المسلمين موقفه الشديد بأحد، بل أسلم بعد مدة غير طويلة طائعا راغبًا، وكذلك أبو سفيان لم يواجه رسول الله ﷺ بأى محاربة بعد زواجه بابنته أم حبيبة، وكذلك لا نرى من قبيلتى بنى المصطلق وبنى النضير أى استفزاز وعداء بعد زواجه بجويرية وصفية؛ بل كانت جويرية أعظم النساء بركة على قومها، فقد أطلق الصحابة أسر مائة بيت من قومها حين تزوجها رسول الله ﷺ، وقالوا: أصهار رسول الله ﷺ. ولا يخفى ما لهذا المن من الأثر البالغ فى النفوس.

وأكبر من كل ذلك وأعظم أن النبى ﷺ كان مأمورا بتزكية وتثقيف قوم لم يكونوا يعرفون شيئا من آداب الثقافة والحضارة والتقيد بلوازم المدينة، والمساهمة فى بناء المجتمع وتعزيزه.

والمبادئ التى كانت أسسا لبناء المجتمع الإسلامى، لم تكن تسمح للرجال أن يختلطوا بالنساء، فلم يكن يمكن تثقيفهن مباشرة مع المراعاة لهذه المبادئ، مع أن مسيس الحاجة إلى تثقيفهن مباشرة لم يكن أهون وأقل من الرجال، بل كان أشد وأقوى.

وإذن فلم يكن للنبى ﷺ سبيل إلا أن يختار من النساء المختلفة الأعمار والمواهب ما يكفى لهذا الغرض، فيزكيهن ويربيهن، ويعلمهن الشرائع والأحكام، ويثقفهن بثقافة الإسلام حتى يعدهن لتربية البدويات والحضريات، العجائز منهن والشابات، فيكفين مؤنة التبليغ فى النساء.

وقد كان لأمهات المؤمنين فضل كبير فى نقل أحواله ﷺ المنزلية للناس، خصوصًا من طالت حياتها منهن كعائشة، فإنها روت كثيرًا من أفعاله وأقواله.

وهناك نكاح واحد كان لنقض تقليد جاهلى متأصل، وهى قاعدة التبنى. وكان للمتبنى عند العرب فى الجاهلية جميع الحرمات والحقوق التى كانت للابن الحقيقى سواء بسواء. وكانت قد تأصلت تلك القاعدة فى القلوب، بحيث لم يكن محوها سهلًا، لكن كانت تلك القاعدة تعارض معارضة شديدة للأسس والمبادئ التى قررها الإسلام فى النكاح والطلاق والميراث وغير ذلك من المعاملات، وكانت تلك القاعدة تجلب كثيرا من المفاسد والفواحش التى جاء الإسلام ليمحوها عن المجتمع.

وقدر الله أن يكون هدم تلك القاعدة على يد رسول الله ﷺ وبذاته الشريفة،

وكانت ابنة عمته زينب بنت جحش، وكانت تحت زيد بن حارثة الذى كان يدعى زيد بن محمد، ولم يكن بينهما توافق، حتى هم زيد بطلاقها، وفاتح بذلك رسول الله ﷺ، وقد عرف الرسول ﷺ - إما بإشارات الظروف، وإما بإخبار الله عز وجل إياه - أن زيدا إن طلقها فسيؤمر هو ﷺ أن يتزوجها بعد انقضاء عدتها، وكان ذلك فى ظروف حرجة من تألب المشركين على رسول الله ﷺ والمسلمين، وكان يخاف - إذا وقع هذا الزواج - دعاية المنافقين والمشركين واليهود، وما يثيرونه من الوساوس والخرافات ضده، وما يكون له من الأثر السيئ فى نفوس ضعفاء المسلمين، فلما فاتح زيد رسول الله ﷺ بإرادته طلاق زينب أمره بأن يمسكها ولا يطلقها، وذلك لئلا تجيء له مرحلة هذا الزواج فى تلك الظروف الصعبة.

ولم يرض الله من رسوله ﷺ هذا التردد والخوف حتى عاتبه الله عليه بقوله: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وأخيرا طلقها زيد، وتزوجها رسول الله ﷺ فى أيام فرض الحصار على بنى قريظة بعد أن انقضت عدتها. وكان الله قد أوجب عليه هذا النكاح، ولم يترك له خيارا ولا مجالا، حتى تولى الله ذلك النكاح بنفسه، يقول: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وذلك ليهدم قاعدة التبنى فعلًا كما هدمها قولا: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [الأحزاب: ٥]، ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وكم من التقاليد المتأصلة الجافة لا يمكن هدمها أو تعديلها لمجرد القول، بل لابد من مقارنة فعل صاحب الدعوة، ويتضح ذلك بما صدر من المسلمين فى عمرة الحديبية، كان هناك أولئك المسلمون الذين رآهم عروة بن مسعود الثقفى، لا يقع من النبى ﷺ نخامة إلا فى يد أحدهم، ورآهم يتبادرون إلى وضوئه حتى كادوا يقتتلون عليه، نعم كان أولئك الذين تسابقوا إلى البيعة على الموت أو على عدم الفرار تحت الشجرة، والذين كان فيهم مثل أبو بكر وعمر، لما أمر النبى ﷺ أولئك الصحابة المتفانين فى ذاته - بعد عقد الصلح - أن يقوموا فينحروا هديهم لم يقم لامتثال أمره أحد، حتى أخذه القلق والاضطراب، ولكن لما أشارت عليه أم سلمة أن يقوم إلى هديه فينحر، ولا يكلم أحدا ففعل، تبادر الصحابة إلى اتباعه فى فعله، فتسابقوا إلى نحر جزورهم. وبهذا الحادث يتضح جليا ما هو الفرق بين

أثرى القول والفعل لهدم قاعدة راسخة.

وقد أثار المنافقون وساوس كثيرة، وقاموا بدعايات كاذبة واسعة حول هذا النكاح، أثر بعضها فى ضعفاء المسلمين، لا سيما أن زينب كانت خامسة أزواجه ﷺ، ولم يكن يعرف المسلمون حل الزواج بأكثر من أربع نسوة وأن زيدا كان يعتبر ابنا للنبى ﷺ، والزواج بزوجة الابن كان من أغلظ الفواحش، وقد أنزل الله فى سورة الأحزاب حول الموضوعين ما شفى وكفى، وعلم الصحابة أن التبنى ليس له أثر عند الإسلام، وأن الله تعالى وسع لرسوله ﷺ فى الزواج مالم يوسع لغيره، لأغراضه النبيلة الممتازة.

هذا، وكانت عشرته ﷺ مع أمهات المؤمنين فى غاية الشرف والنبل والسمو والحسن، كما كن فى أعلى درجة من الشرف والقناعة والصبر والتواضع والخدمة والقيام بحقوق الزواج، مع أنه كان فى شظف من العيش لا يطيقه أحد. قال أنس: ما أعلم النبى ﷺ رأى رغيفا مرققا حتى لحق بالله، ولا رأى شاة سميطا بعينه قط[١]. وقالت عائشة: إن كنا لننظر إلى الهلال ثلاثة أهلة فى شهرين، وما أوقدت فى أبيات رسول الله ﷺ نار. فقال لها عروة: ما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان؛ التمر والماء[٢]. والأخبار بهذا الصدد كثيرة.

ومع هذا الشظف والضيق لم يصدر منهن ما يوجب العتاب إلا مرة واحدة – حسب مقتضى البشرية، وليكون سببا لتشريع الأحكام – فأنزل الله آية التخيير: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأحزاب] وكان من شرفهن ونبلهن أنهن آثرن الله ورسوله، ولم تمل واحدة منهن إلى اختيار الدنيا.

وكذلك لم يقع منهن ما يقع بين الضرائر – مع كثرتهن – إلا شىء يسير من بعضهن حسب اقتضاء البشرية، ثم عاتب الله عليه فلم يعدن له مرة أخرى، وهو الذى ذكره الله فى سورة التحريم بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾ إلى تمام الآية الخامسة.

وأخيرا: أرى أنه لا حاجة إلى البحث فى موضوع مبدأ تعدد الزوجات، فمن نظر فى حياة سكان أوروبا الذين يصدر منهم النكير الشديد على هذا المبدأ، ونظر إلى مايقاسون من الشقاوة والمرارة، وما يأتون من الفضائح والجرائم الشنيعة، وما يواجهون من البلايا

(١،٢) صحيح البخارى ٢/ ٩٥٦. والسميط: المشوية.

والقلاقل لانحرافهم عن هذا المبدأ -كفى له ذلك عن البحث والاستدلال، فحياتهم أصدق شاهد على عدالة هذا المبدأ، وإن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار.

الصفات والأخلاق

كان النبى ﷺ يمتاز من جمال خَلْقه وكمال خُلُقه بما لا يحيط بوصفه البيان، وكان من أثره أن القلوب فاضت بإجلاله، والرجال تفانوا فى حياطته وإكباره، بما لا تعرف الدنيا لرجل غيره، فالذين عاشروه أحبوه إلى حد الهيام، ولم يبالوا أن تندق أعناقهم ولا يخدش له ظُفْر، وما أحبوه كذلك إلا لأن أنصبته من الكمال الذى يحبب عادة لم يرزق بمثلها بشر. وفيما يلى نورد ملخص الروايات فى بيان جماله وكماله مع اعتراف العجز عن الإحاطة.

جمال الخَلْق:

قالت أم مَعْبَدٍ الخزاعية عن رسول الله ﷺ - وهى تصفه لزوجها، حين مر بخيمتها مهاجرًا: ظاهر الوَضَاءة، أَبْلَجُ الوجه، حسن الخُلُق، لم تعبه ثُجْلَة، ولم تُزْرِ به صَعْلَة، وسِيم قَسِيم، فى عينيه دَعَج، وفى أشفاره وَطَف، وفى صوته صَهَل، وفى عنقه سَطَع، أَحْوَر، أَكْحَل، أَزَجّ، أَقْرَن، شديد سواد الشعر، إذا صمت علاه الوقار، وإن تكلم علاه البَهَاء، أجمل الناس وأبهاهم من بعيد، وأحسنه وأحلاه من قريب، حلو المنطق، فَصْل، لا نَزْر ولا هَذَر، كأن منطقه خَرَزَات نظمن يَتَحدَّرن، رَبْعَة، لا تقحمه عين من قِصَر، ولا تشنؤه من طول، غُصْن بين غُصْنَيْن، فهو أَنْظَر الثلاثة منظرًا، وأحسنهم قدْرًا، له رفقاء يحفون به، إذا قال استمعوا لقوله، وإذا أمر تبادروا إلى أمره، مَحْفُود، مَحْشُود، لا عَابِس ولا مُفَنَّد[1].

وقال على بن أبى طالب - وهو ينعت رسول الله ﷺ: لم يكن بالطويل المُمَغَّطِ، ولا القصير المتردد، وكان رَبْعَة من القوم، ولم يكن بالجَعْد القَطِطِ، ولا بالسَّبْط، رَجِلًا، ولم يكن بالمُطَهَّم، ولا بالمُكَلْثَم، وكان فى الوجه تدوير، وكان أبيض مُشْرَبًا، أَدْعَج العينين، أَهْدَب الأشْفَار، جَلِيل المُشَاش والكَتَدِ، دقيق المَسْرُبَة، أجْرَد، شَثْنُ الكفين والقدمين، إذا

---

(١) زاد المعاد ٢/ ٥٤. والوضاءة: الجمال، أبلج الوجه: مشرقه ومضيئة. الثجلة: كبر البطن أو كبر الرأس. لم تزر به: لم تعبه، والصعلة: صغر الرأس، والوسيم القسيم: الحسن الجميل، والدعج: شدة سواد الحدقة، وفى أشفاره وطف: فى شعر أجفانه طول، والصهل: بحة يسيرة، سطع: طول، أحور: شديد بياض العينين فى شدة سوادهما، أزج: متقوس الحاجبين، أقرن: ملتقى الحاجبين بين العينين، لانزر ولاهذر: لا قليل ولا كثير بل هو وسط الكلام، وربعة: أى بين الطويل والقصير. محفود: الذى يخدمه أصحابه ويسرعون إلى امتثال أمره، محشود: الذى يجتمع إليه الناس، ولا مفند: أى لا يفند أحدًا، أى لا يهجنه ولا يستقل عقله.

مشى تَقَلّع كأنما يمشى فى صَبَب، وإذا التفت التفت معًا، بين كتفيه خاتم النبوة، وهو خاتم النبيين، أجود الناس كفًا، وأجرأ الناس صدرًا، وأصدق الناس لَهْجَة، وأوفى الناس ذمة، وألينهم عَرِيكَة، وأكرمهم عشرة، من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه، يقول ناعته: لم أر قبله ولا بعده مثله ﷺ[١].

وفى رواية عنه: أنه كان ضَخْم الرأس، ضخم الكَرَادِيس، طويل المَسْرُبَة، إذا مشى تكفَّأ تكفُّيًا كأنما يَنْحَطُّ من صَبَب[٢].

وقال جابر بن سَمُرة: كان ضَلِيع الفم، أشْكَل العينين، مَنْهُوس العقبين[٣].

وقال أبو الطفيل: كان أبيض، مَلِيح الوجه، مُقَصَّدًا[٤].

وقال أنس بن مالك: كان بِسْطَ الكفين. وقال: كان أزْهَر اللون، ليس بأبيض أمْهَقَ، ولا آدَم، قُبض وليس فى رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء[٥].

وقال: إنما كان شىء - أى من الشيب - فى صُدْغَيْه، وفى رواية: وفى الرأس نَبْذٌ[٦].

وقال أبو جُحَيْفة: رأيت بياضًا تحت شفته السفلى، العَنْفَقَة[٧].

وقال عبد الله بن بُسْر: كان فى عنفقته شعرات بيض[٨].

وقال البراء: كان مَرْبُوعًا، بَعِيدَ ما بين المَنْكِبَيْن، له شَعْر يبلغ شَحْمَة أذنيه، رأيته فى

---

(١) ابن هشام ١/ ٤٠١، ٤٠٢، وجامع الترمذى مع شرحه تحفة الأحوذى ٤/ ٣٠٣ والممغط: المفرط فى الطول. الجعد القطط: شديد الجعودة، وهى التواء وانقباض فى الشعر، والسبط: مسترسل بالشعر، ورجلا: بين الجعودة والسُّبوطة، والمطهم: الممتلئ الجسم، والمكلثم: شديد تدوير الوجه، أهدب الأشفار: طويل شعر الأجفان، جليل المشاش: عظيم رءوس العظام مثل الركبتين والمرفقين والمنكبين، والكتد: الكاهل وما يليه من الجسد، والمسربة: خط الشعر من اللبة إلى السرة، أجرد: خال من الشعر، الششن: الغليظ، تقلع فى مشيته: أى شديد المشى، الصبب: ما انحدر من الأرض.

(٢) جامع الترمذى مع شرحه تحفة الأحوذى ٤/ ٣٠٣، والكراديس جمع كردوس: رؤوس العظام، وقيل: ملتقى كل عظمين ضخمين كالركبتين والمرفقين.

(٣) صحيح مسلم ٢/ ٢٥٨. ضليع الفم: واسعه، أشكل العين: طويل شق العين، منهوس العقب: قليل لحم العقب.

(٤) المصدر السابق نفسه. والمقصد: الذى ليس بطويل ولا قصير ولا جسيم.

(٥) صحيح البخارى ١/ ٥٠٢، والأبيض الأمهق: كريه البياض كلون الجص.

(٦) المصدر السابق نفسه، وصحيح مسلم ٢/ ٢٥٩. والنبذ: يسير الشيب.

(٧) صحيح البخارى ١/ ٥٠١، ٥٠٢.

(٨) المصدر السابق ١/ ٥٠٢.

حُلَّة حمراء، لم أر شيئًا قط أحسن منه[١].

وكان يُسْدِل شعره أولًا لحبه موافقة أهل الكتاب، ثم فَرَق رأسه بعد[٢].

قال البراء: كان أحسن الناس وجهًا، وأحسنهم خُلُقًا[٣].

وسئل: أكان وجه النبى ﷺ مثل السيف؟ قال: لا بل مثل القمر. وفى رواية: كان وجهه مستديرًا[٤].

وقالت الرُّبَيِّع بنت مُعَوِّذ: لو رأيته رأيت الشمس طالعة[٥].

وقال جابر بن سَمُرَة: رأيته فى ليلة إضْحِيَانٍ، فجعلت أنظر إلى رسول الله ﷺ وإلى القمر - وعليه حلة حمراء - فإذا هو أحسن عندى من القمر[٦].

وقال أبو هريرة: ما رأيت شيئًا أحسن من رسول الله ﷺ، كأن الشمس تجرى فى وجهه، وما رأيت أحدًا أسرع فى مشيه من رسول الله ﷺ، كأنما الأرض تُطْوَى له، وإنا لنجهد أنفسنا، وإنه لغير مكترث[٧].

وقال كعب بن مالك: كان إذا سُرَّ استنار وجهه، حتى كأنه قطعة قمر[٨].

وعرق مرة وهو عند عائشة رضي الله عنها يَخْصِفُ نعلًا، وهى تغزل غزلًا، فجعلت تبرق أسارير وجهه، فلما رأته بُهِتَتْ وقالت: والله لو رآك أبو كَبِير الهُذَلى لعلم أنك أحق بشعره من غيرك:

وإذا نظرت إلى أسرة وجهه   برقت كبرق العارض المتهلل[٩]

وكان أبو بكر إذا رآه يقول:

أمين مصطفى بالخير يدعو   كضوء البدر زايله الظلام[١٠]

وكان عمر ينشد قول زهير فى هَرِم بن سِنَان:

---

(١) المصدرالسابق نفسه. (٢) صحيح البخارى ١/ ٥٠٣.

(٣، ٤) صحيح البخارى ١/ ٥٠٢، وصحيح مسلم ٢/ ٢٥٨.

(٥) رواه الدارمى، مشكاة المصابيح ٢/ ٥١٧.

(٦) رواه الترمذى فى الشمائل، ص ٢، والدارمى، مشكاة المصابيح ٢/ ٥١٨. وإضحيان: مضيئة مقمرة.

(٧) جامع الترمذى مع شرحه تحفة الأحوذى ٤/ ٣٠٦، ومشكاة المصابيح ٢/ ٥١٨.

(٨) صحيح البخارى ١/ ٥٠٢.

(٩) تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ١/ ٣٢٥.

(١٠) خلاصة السير، ص ٢٠.

لـو كنت مـن شـىء سـوى البشر كـنـت الـمـضـىء لليلة الـبـدر

ثم يقول: كذلك كان رسول الله ﷺ[١].

وكان إذا غضب احمر وجهه، حتى كأنما فقئ فى وجنتيه حَبُّ الرمان[٢].

وقال جابر بن سَمُرَة: كان فى ساقيه حُمُوشة، وكان لا يضحك إلا تَبَسُّماً. وكنت إذا نظرت إليه قلت: أَكْحَل العينين، وليس بأكحل[٣].

وقال عمر بن الخطاب: وكان من أحسن الناس ثَغْرًا[٤].

قال ابن عباس: كان أَفْلَجَ الثنيتين، إذا تكلم رؤى كالنور يخرج من بين ثناياه[٥].

وأما عُنُقه فكأنه جِيدُ دُمْيَةٍ فى صفاء الفضة، وكان فى أَشْفَاره عَطَف، وفى لحيته كثافة، وكان واسع الجبين، أَزَجّ الحواجب فى غير قرن بينهما، أَقْنَى العِرْنِين، سَهْل الخَدَّيْن، من لُبَّتِه إلى سُرَّتِه شعر يجرى كالقضيب، ليس فى بطنه ولا صدره شعر غيره، أَشْعَر الذراعين والمنكبين، سَوَاءُ البطن والصدر، مَسِيح الصدر عريضه، طويل الزَّنْد، رَحْب الراحة، سَبْط القَصَب، خُمْصَان الأَخْمَصَيْن، سَائِل الأطراف، إذا زَالَ زَالَ قَلْعًا، يخطو تَكَفِّيًا ويمشى هَوْنًا[٦].

وقال أنس: ما مسست حريرًا ولا ديباجًا ألين من كف النبى ﷺ، ولا شممت ريحًا قط أو عَرْفًا قط، وفى رواية: ما شممت عنبرًا قط ولا مِسْكًا ولا شيئًا أطيب من ريح أو عرف رسول الله ﷺ[٧].

---

(١) خلاصة السير، ص ٢٠.

(٢) مشكاة المصابيح ١/ ٢٢، ورواه الترمذى فى أبواب القدر: باب ما جاء فى التشديد فى الخوض فى القدر ٢/ ٣٥.

(٣) جامع الترمذى مع شرحه تحفة الأحوذى ٤/ ٣٠٦.

(٤) صحيح مسلم: كتاب الطلاق، باب فى الإيلاء ٣/ ١١٠٧، ح (١٤٧٩).

(٥) رواه الدارمى، مشكاة المصابيح ٢/ ٥١٨.

(٦) خلاصة السير، ص ١٩، ٢٠ الدمية: الصورة المصورة، والعطف: الطول، وأقنى: طول ورقة، والعرنين: الأنف، وسهل الخدين: أى غير مرتفع الوجنتين، والزند: طرف الذراع فى الكف، والرحب: الواسع، وسبط القصب: ممتد الساعدين والساقين، وخمصان الأخمصين: الأخمص من القدم الذى لا يلصق بالأرض منها عند الوطء، وخمصان: مبالغة، وسائل الأطراف: ممتدها، والقلع: رفع الرجل من الأرض عند المشى بقوة، والتكفى: التمايل إلى قُدّام.

(٧) صحيح البخارى ١/ ٥٠٣، وصحيح مسلم ٢/ ٢٥٧، والعَرف: الريح.

وقال أبو جُحَيْفة: أخذت بيده، فوضعتها على وجهى، فإذا هى أبرد من الثلج، وأطيب رائحة من المسك(١).

وقال جابر بن سمرة - وكان صبيا: مسح خَدِّى فوجدت ليده بردًا أو ريحًا كأنما أخرجها من جُونَةِ عَطَّار(٢).

وقال أنس: كأن عرقه اللؤلؤ. وقالت أم سليم: هو من أطيب الطيب(٣).

وقال جابر: لم يسلك طريقًا فيتبعه أحد إلا عرف أنه قد سلكه من طيب عَرْفِه. أو قال: من ريح عرقه(٤).

وكان بين كتفيه خاتم النبوة مثل بيضة الحمامة، يشبه جسده، وكان عند نَاغِض كتفه اليسرى جُمْعًا، عليه خِيَلان كأمثال الثَّآلِيل(٥).

كمال النفس ومكارم الأخلاق:

كان النبى ﷺ يمتاز بفصاحة اللسان، وبلاغة القول، وكان من ذلك بالمحل الأفضل، والموضع الذى لا يجهل، سلامة طبع، ونصاعة لفظ، وجزالة قول، وصحة معان، وقلة تكلف، أوتى جوامع الكلم، وخص ببدائع الحكم، وعلم ألسنة العرب، يخاطب كل قبيلة بلسانها، ويحاورها بلغتها، اجتمعت له قوة عارضة البادية وجزالتها، ونصاعة ألفاظ الحاضرة ورونق كلامها، إلى التأييد الإلهى الذى مدده الوحى.

وكان الحلم والاحتمال، والعفو عند المقدرة، والصبر على المكاره، صفاتٌ أدبه الله بها، وكل حليم قد عرفت منه زلة، وحفظت عنه هَفْوَة، ولكنه ﷺ لم يزد مع كثرة الأذى إلا صبرا، وعلى إسراف الجاهل إلا حلما، وقالت عائشة: ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثما كان أبعد الناس عنه، وما انتقم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها(٦). وكان أبعد الناس غضبًا، وأسرعهم رضًا.

---

(١) صحيح البخارى ١/ ٥٠٢.

(٢، ٣) صحيح مسلم ٢/ ٢٥٦. وجُونة العطار: هى التى يعد فيها الطيب ويُحرز.

(٤) رواه الدارمى، مشكاة المصابيح ٢/ ٥١٧.

(٥) صحيح مسلم ٢ / ٢٥٩، ٢٦٠. الناغض: أعلى الكتف. وجمعا: أى مثل جُمْع الكف. وخيلان جمع خال: وهو الشامة فى الجسد. والثآليل جمع ثؤلول: خُرَّاج يكون بجسم الإنسان ناتئ صلب مستدير.

(٦) صحيح البخارى ١/ ٥٠٣.

وكان من صفة الجود والكرم على مالا يقادر قدره، كان يعطى عطاء من لا يخاف الفقر، قال ابن عباس: كان النبى ﷺ أجود الناس، وأجود ما يكون فى رمضان حين يلقاه جبريل، وكان جبريل يلقاه فى كل ليلة من رمضان، فيدارسه القرآن، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة[١]. وقال جابر: ما سئل شيئًا قط فقال: لا[٢].

وكان من الشجاعة والنجدة والبأس بالمكان الذى لا يجهل، كان أشجع الناس، حضر المواقف الصعبة، وفر عنه الكماة والأبطال غير مرة، وهو ثابت لا يبرح، ومقبل لا يدبر، ولا يتزحزح، وما شجاع إلا وقد أحصيت له فَرَّة، وحفظت عنه جولة سواه، قال على: كنا إذا حمى البأس واحمرت الحَدَقُ، اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه[٣]. قال أنس: فزع أهل المدينة ذات ليلة، فانطلق ناس قِبَلَ الصوت، فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعًا، وقد سبقهم إلى الصوت، وهو على فرس لأبى طلحة عُرْيٍ، فى عنقه السيف، وهو يقول: «**لم تُرَاعوا، لم تُرَاعوا**»[٤].

وكان أشد الناس حياء وإغضاء، قال أبو سعيد الخدرى: كان أشد حياء من العذراء فى خِدْرها، وإذا كره شيئًا عرف فى وجهه[٥]. وكان لا يثبت نظره فى وجه أحد، خافض الطرف. نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء، جُلُّ نظره الملاحظة، لا يشافه أحدًا بما يكره حياء وكرم نفس، وكان لا يسمى رجلًا بلغ عنه شىء يكرهه، بل يقول. «**ما بال أقوام يصنعون كذا**».

وكان أحق الناس بقول الفرزدق:

يغضى حياء ويغضى من مهابته ... فلا يكلم إلا حين يبتسم

وكان أعدل الناس، وأعفهم، وأصدقهم لهجة، وأعظمهم أمانة، اعترف له بذلك مجاوروه وأعداؤه، وكان يسمى قبل نبوته الأمين، ويُتَحاكم إليه فى الجاهلية قبل الإسلام، روى الترمذى عن على أن أبا جهل قال له: إنا لا نكذبك، ولكن نكذب بما جئت به، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام][٦]. وسأل هرقل أبا سفيان، هل تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا.

(١،٢) المصدر السابق ١/ ٥٠٢.

(٣) انظر: الشفاء للقاضى عياض ١/ ٨٩، ومثل ذلك روى أصحاب الصحاح والسنن.

(٤) صحيح مسلم ٢/ ٢٥٢، وصحيح البخارى ١/ ٤٠٧، و «لم تراعوا»: لم تفزعوا ولم تخافوا.

(٥) صحيح البخارى ١/ ٥٠٤. (٦) مشكاة المصابيح ٢ / ٥٢١.

وكان أشد الناس تواضعًا، وأبعدهم عن الكبر، يمنع عن القيام له كما يقومون للملوك، وكان يعود المساكين، ويجالس الفقراء، ويجيب دعوة العبد، ويجلس فى أصحابه كأحدهم، قالت عائشة: كان يخصف نعله، ويخيط ثوبه، ويعمل بيده كما يعمل أحدكم فى بيته، وكان بشرًا من البشر يَفْلِي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه(١).

وكان أوفى الناس بالعهود، وأوصلهم للرحم، وأعظمهم شفقة ورأفة ورحمة بالناس، أحسن الناس عشرة وأدبًا، وأبسط الناس خلقًا، أبعد الناس من سوء الأخلاق، لم يكن فاحشًا، ولا متفحشًا، ولا لعانًا، ولا صخابا فى الأسواق، ولا يجزى بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، وكان لا يدع أحدا يمشى خلفه، وكان لا يترفع على عبيده وإمائه فى مأكل ولا ملبس، ويخدم من خَدَمَه، ولم يقل لخادمه أف قط، ولم يعاتبه على فعل شىء أو تركه، وكان يحب المساكين ويجالسهم، ويشهد جنائزهم، ولا يحقر فقيرًا لفقره. كان فى بعض أسفارة فأمر بإصلاح شاة، فقال رجل: علىّ ذبحها، وقال آخر: على سلخها، وقال آخر على طبخها، فقال ﷺ: «**وعلىّ جمع الحطب**»، فقالوا: نحن نكفيك. فقال: «**قد علمت أنكم تكفونى ولكنى أكره أن أتميز عليكم، فإن الله يكره من عبده أن يراه متميزًا بين أصحابه**»، وقام وجمع الحطب(٢).

ولنترك هند بن أبى هالة يصف لنا رسول الله ﷺ؛ قال هند فيما قال: كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة، ولا يتكلم فى غير حاجة، طويل السكوت، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه - لا بأطراف فمه - ويتكلم بجوامع الكلم، فصلًا، لا فضول فيه ولا تقصير، دمثًا ليس بالجافى ولا بالمهين، يعظم النعمة وإن دقت، لايذم شيئًا، ولم يكن يذم ذواقًا - ما يطعم - ولا يمدحه، ولا يقام لغضبه إذا تعرض للحق بشىء حتى ينتصر له، لا يغضب لنفسه، ولا ينتصر لها - سماحة - وإذا أشار أشار بكفه كلها، وإذا تعجب قلبها، وإذا غضب أعرض وأشاح، وإذا فرح غض طرفه، جل ضحكه التبسم، ويفتر عن مثل حب الغمام.

وكان يخزن لسانه إلا عما يعنيه، يؤلف أصحابه ولا يفرقهم، يكرم كريم كل قوم، ويوليه عليهم، ويحذر الناس، ويحترس منهم من غير أن يطوى عن أحد منهم بشره.

يتفقد أصحابه، ويسأل الناس عما فى الناس، ويحسن الحسن ويصوبه، ويقبح القبيح

---

(١) مشكاة المصابيح ٢ / ٥٢٠.

(٢) خلاصة السير، ص٢٢.

ويوهنه، معتدل الأمر، غير مختلف، لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يملوا، لكل حال عنده عتاد، لا يقصر عن الحق، ولا يجاوزه إلى غيره.

الذين يلونه من الناس خيارهم، وأفضلهم عنده أعمهم نصيحة، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة.

كان لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر، ولا يوطن الأماكن - لا يميز لنفسه مكانًا - إذا انتهى إلى القوم جلس حيث ينتهى به المجلس، ويأمر بذلك، ويعطى كل جلسائه نصيبه حتى لا يحسب جليسه أن أحدًا أكرم عليه منه، من جالسه أو قاومه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه، ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول، وقد وسع الناس بسطه وخلقه، فصار لهم أبا، وصاروا عنده فى الحق متقاربين، يتفاضلون عنده بالتقوى، مجلسه مجلس حلم وحياء وصبر وأمانة، لا ترفع فيه الأصوات، ولا تؤبن فيه الحرم - لا تخشى فلتاته - يتعاطفون بالتقوى، يوقرون الكبير، ويرحمون الصغير، ويرفدون ذا الحاجة، ويؤنسون الغريب.

كان دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ، ولا غليظ، ولا صَخَّاب، ولا فحاش، ولا عتاب، ولا مداح، يتغافل عما لا يشتهى، ولا يقنط منه. قد ترك نفسه من ثلاث: الرياء، والإكثار، وما لا يعنيه، وترك الناس من ثلاث: لا يذم أحدًا، ولا يعيره، ولا يطلب عورته، ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه، إذا تكلم أطرق جلساؤه، كأنما على رءوسهم الطير، وإذا سكت تكلموا. لا يتنازعون عنده الحديث، من تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ، حديثهم حديث أولهم، يضحك مما يضحكون منه، ويعجب مما يعجبون منه، ويصبر للغريب على الجفوة فى المنطق، يقول: إذا رأيتم صاحب الحاجة يطلبها فأرفدوه، ولا يطلب الثناء إلا من مكافئ[(١)].

وقال خارجة بن زيد: كان النبى ﷺ أوقر الناس فى مجلسه، لا يكاد يخرج شيئًا من أطرافه، وكان كثير السكوت، لا يتكلم فى غير حاجة، يعرض عمن تكلم بغير جميل، كان ضحكه تبسمًا، وكلامه فصلا لا فضول ولا تقصير، وكان ضحك أصحابه عنده التبسم توقيرًا له واقتداء به[(٢)].

وعلى الجملة، فقد كان النبى ﷺ محلى بصفات الكمال المنقطعة النظير، أدبه ربه

---

(١) انظر: الشفا للقاضى عياض ١/ ١٢١-١٢٦، وانظر أيضا: شمائل الترمذى.

(٢) الشفا ١/ ١٠٧.

فأحسن تأديبه، حتى خاطبه مثنيًا عليه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم]، وكانت هذه الخلال مما قرب إليه النفوس، وحببه إلى القلوب، وصيره قائدًا تهوى إليه الأفئدة، وألان من شكيمة قومه بعد الإباء، حتى دخلوا فى دين الله أفواجًا.

وهذه الخلال التى أتينا على ذكرها خطوط قصار من مظاهر كماله وعظيم صفاته، أما حقيقة ما كان عليه من الأمجاد والشمائل فأمر لا يدرك كنهه، ولا يسبر غوره، ومن يستطيع معرفة كنه أعظم بشر فى الوجود بلغ أعلى قمة من الكمال، استضاء بنور ربه، حتى صار خلقه القرآن؟

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صلَّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنَّك حميد مجيد.

اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنَّك حميد مجيد.

صفى الرحمن المباركفورى

الجامعة السلفية، بنارس، الهن

ثبت المصادر والمراجع

ثبت المصادر والمراجع

١- **إتحاف الورى بأخبار أم القرى** لنجم الدين، أبى القاسم عمر بن محمد بن محمد الهاشمي المعروف بابن فهد المكى (ت ٨٨٥ هـ).

لأبى حاتم بن حبان البستي (٢٧٠- ٣٥٤ هـ).

٢- **الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان** ترتيب: الأمير علاء الدين، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣- **إخبار الكرام بأخبار المسجد الحرام** لشهاب الدين، أحمد بن محمد الأسدي المكى (ت ١٠٦٦ هـ)، المطبعة السلفية، بنارس، الهند.

٤- **الأدب المفرد** للإمام محمد بن إسماعيل البخاري (١٩٤-٢٥٦ هـ)، المطبوع مع فضل الله الصمد، السلفية، مصر.

٥- **الاستيعاب** لأبى عمر، يوسف بن عبدالبر (٣٦٨-٤٦٣ هـ)، نهضة مصر.

٦- **أسد الغابة في معرفة الصحابة** لعز الدين بن الأثير، أبى الحسن على بن محمد الجزري (٥٥٥ - ٦٣٠ هـ)، دار الفكر.

٧- **الإصابة في تمييز الصحابة** للحافظ ابن حجر، أحمد بن على بن محمد (٧٧٣- ٨٥٢ هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت.

٨- **الأصنام** لأبي المنذر، هشام بن محمد الكلبى (ت ٢٠٤ هـ)، تحقيق: أحمد زكى باشا، الطبعة الثانية، دار الكتب المصرية، القاهرة.

٩- **أنساب الأشراف** لأحمد بن يحيى بن جابر البلاذرى (ت ٢٧٩ هـ)، دار المعارف.

١٠- **البداية والنهاية** للحافظ ابن كثير، أبى الفداء إسماعيل بن عمر كثير الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ)، مكتبة المعارف، بيروت.

١١- تاريخ أرض القرآن (أردو)	للسيد سليمان الندوي (ت ١٣٧٣ هـ)، معارف بريس، أعظم كَرهـ، الهند، الطبعة الرابعة ١٩٥٥م.
١٢- تاريخ الأمم والملوك	لأبى جعفر، محمد بن جرير الطبرى (٢٢٤- ٣١٠ هـ)، الطبعة الخامسة، دار المعارف، القاهرة.
١٣- تاريخ ابن خلدون (العبر وديوان المبتدأ والخبر)	للعلامة عبد الرحمن بن محمد بن خلدون(ت ٨٠٨ هـ)، دار الطباعة الخديوية، بولاق، مصر.
١٤- التاريخ الصغير	للإمام أبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (١٩٤- ٢٥٦هـ)، الطبعة الأولى ١٣٩٧هـ)، دار التراث، القاهرة.
١٥ - تاريخ عمر بن الخطاب	لأبى الفرج، عبد الرحمن بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ(، مطبعة التوفيق الأدبية، مصر.
١٦ - تاريخ اليعقوبي	لليعقوبى، أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر (ت ٢٩٢ هـ)، دار صادر، بيروت، ١٣٧٩ هـ.
١٧- تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذى	لأبى العلى، عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري (ت ١٣٥٣هـ)، جيد برقى بريس، دلهى، الهند ١٣٤٦- ١٣٥٣ هـ.
١٨- تفسير الطبري (جامع البيان)	لأبى جعفر، محمد بن جرير الطبرى (٢٢٤- ٣١٠ هـ)، دار الفكر، بيروت.
١٩- تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)	لأبى عبد الله، محمد بن أحمد الأنصارى القرطبي (ت ٦٧١ هـ)، دار الكتب المصرية.
٢٠- تفسير ابن كثير	لأبى الفداء، إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ)، مكتبة دار السلام، الرياض.
٢١- تلقيح فهوم أهل الأثر	لأبى الفرج، عبد الرحمن بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ)، جيد برقى بريس، دلهى، الهند.
٢٢- تهذيب تاريخ دمشق	لابن عساكر، على بن حسن بن هبة الله (ت ٥٧١ هـ)، تهذيب: الشيخ عبد القادر بدران (ت ١٣٤٦ هـ)، دار المسيرة، بيروت.

٢٣- جامع الترمذى: لأبى عيسى، محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (٢٠٩-٢٧٩ هـ)، المكتبة الرشيدية، دلهي، الهند. وبتحقيق أحمد محمد شاكر وغيره.

٢٤- جمهرة أنساب العرب: لابن حزم، أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي (٣٨٤- ٤٥٦ هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى.

٢٥- جمهرة النسب: لأبى المنذر، هشام بن محمد بن السائب الكلبي (ت ٢٠٤ هـ)، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى.

٢٦- خلاصة السير: لمحب الدين، أبى جعفر أحمد بن عبد الله الطبرى (ت ٦٧٤ هـ)، دلى برنتَنَكَ بريس، دلهى، الهند.

٢٧- دراسات في تاريخ العرب: (الجزء الأول: تاريخ العرب قبل الإسلام): للدكتور السيد عبد العزيز سالم، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية.

٢٨- الدر المنثور: لجلال الدين، عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطي (ت ٩١١ هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ.

٢٩- دلائل النبوة: لإسماعيل بن محمد بن الفضل التيمى الأصبهانى (٤٥٧-٥٣٥ هـ)، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى.

٣٠- دلائل النبوة: لأبي نعيم، أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني (٣٣٦- ٤٣٠ هـ)، دار النفائس، بيروت، الطبعة الثانية.

٣١- دلائل النبوة: لأبى بكر، أحمد بن حسين البيهقي (٣٨٤- ٤٥٨ هـ) دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى.

٣٢- رحمة للعالمين: للقاضي محمد سليمان سلمان المنصورفورى (ت ١٩٣٠م)، الطبعة الأردية: حنيف بكديو دلهي، الهند، الطبعة العربية: الدار السلفية، بومبائى، الهند.

٣٣- رسول أكرم كَى سياسي زندكي (أردو): للدكتور محمد حميد الله، (باريس) سالم كمينى ديوبند، الهند ١٩٦٣م.

٣٤- الروض الأنف لأبى القاسم، عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي (٥٠٨- ٥٨١ هـ)، دار الفكر.

٣٥- زاد المعاد لابن القيم، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن بكر بن أيوب (٦٩١، ٧٥١ هـ)، المطبعة المصرية، الطبعة الأولى ١٣٤٧ هـ.

٣٦- سبائك الذهب لمحمد أمين بن على بن محمد سعيد السويدي البغدادي (ت ١٣٤٦ هـ)، الطبعة الأولى.

٣٧- سفر التكوين (أحد أسفار العهد العتيق عند أهل الكتاب).

٣٨- سنن أبى داود لأبى داود، سليمان بن الأشعث السجستاني (٢٠٢- ٢٧٥ هـ)، المطبع المجيدى، كانفور، الهند، والمكتبة الرحيمية ديوبند، الهند.

٣٩- السنن الكبرى لأبى بكر، أحمد بن حسين بن على البيهقي (٣٨٤- ٤٥٨هـ).

٤٠- سنن ابن ماجه لأبى عبد الله، محمد بن يزيد بن ماجه القزويني(٢٠٩- ٢٧٣ هـ).

٤١- السنن المجتبى للنسائى لأبى عبد الرحمن، أحمد بن شعيب النسائى (٢١٥- ٣٠٣ هـ)، المكتبة السلفية، لاهور، باكستان.

٤٢- السيرة الحلبية لعلى بن برهان الدين الحلبي الشافعي (٩٧٥- ١٠٤٤ هـ)، طبعة بيروت.

٤٣- السيرة النبوية لأبى حاتم، محمد بن حبان بن أحمد التيمى البستي (ت ٣٥٤هـ)، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى.

٤٤- السيرة النبوية لأبى محمد، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري (المتوفى ٢١٣ أو ٢١٨ هـ)، مصطفى البابي الحلبى، الطبعة الثانية ١٣٧٥ هـ.

٤٥- شرح السنة للإمام الحسين بن مسمعود الفراء البغوى (٤٣٦- ٥١٦ هـ)، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى.

٤٦- شرح صحيح مسلم لأبى زكريا، محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦ هـ) المكتبة الرشيدية، دلهى، الهند ١٣٧٦ هـ.

٤٧- شرح المواهب اللدنية لمحمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني المصري (ت ١١٢٢ هـ)، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية.

٤٨- الشفا للقاضى أبى الفضل، عياض بن موسى بن عياض اليحصبى السبتي (٤٤٦- ٥٤٤ هـ)، المطبعة العثمانية، إستانبول ١٣١٢ هـ.

٤٩- شمائل الترمذى لأبي عيسى، محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (٢٠٩- ٢٧٩ هـ)، المكتبة الرشيدية، دلهي، الهند.

٥٠- صحيح البخارى للإمام أبى عبد الله، محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦ هـ)، المكتبة الرحيمية، ديوبند، الهند، وبترقيم محمد فؤاد عبد الباقي ضمن فتح الباري.

٥١- صحيح مسلم للإمام مسلم بن الحجاج القشيري، (ت ٢٠٦- ٢٦١ هـ)، المكتبة الرشيدية، دلهى، الهند، وبترقيم محمد فؤاد عبد الباقي.

٥٢- صحيفة حبقوق (أحد أسفار العهد العتيق عند أهل الكتاب).

٥٣- الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد (١٦٨- ٢٣٠)، دار صادر، بيروت.

٥٤- العقد الفريد لأبى عمر، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (٢٤٦- ٣٢٨ هـ)، لجنة التأليف ١٣٦٣ هـ.

٥٥- عون المعبود شرح سنن أبى داود لأبي الطيب، شمس الحق العظيم آبادي (١٢٧٤- ١٣٢٩ هـ)، الطبعة الأولى الهندية.

٥٦- فتح البارى للحافظ ابن حجر، أحمد بن على بن محمد العسقلانى (٧٧٣- ٨٥٢ هـ) المطبعة السلفية، الروضة، مصر، الطبعة الأولى والثانية.

٥٧- **فتح القدير** لمحمد بن على بن محمد الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ)، مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الثانية.

٥٨- **قلائد الجمان** لأبى العباس، أحمد بن على القلقشندي (ت ٨٢١ هـ)، مطبعة السعادة، مصر، الطبعة الأولى.

٥٩- **قلب جزيرة العرب** لفؤاد حمزة، المطبعة السلفية، الروضة، مصر، ١٣٥٢ هـ.

٦٠- **الكامل في التاريخ** لعز الدين بن الأثير، أبو الحسن على بن محمد الجزري الشيباني (٥٥٥- ٦٣٠ هـ).

٦١- **كنز العمال** لعلاء الدين، على المتقى بن حسام الدين البرهان فورى، الهندي (ت ٩٧٥ هـ) مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الخامسة.

٦٢- **اللسان** لابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن على الأنصاري (٦٣٠- ٧١١ هـ)، دار المعارف، القاهرة.

٦٣- **مجمع الزوائد** للحافظ نور الدين علي بن أبى بكر الهيثمي (٨٠٧ هـ)، مكتبة المعارف، بيروت، ١٤٠٦ هـ.

٦٤- **محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية** لمحمد بن عفيفي الباجوري المعروف بالخضرى بك (١٢٨٩- ١٣٤٥ هـ)، المكتبة التجارية الكبرى بمصر، الطبعة الثامنة ١٣٨٢ هـ.

٦٥- **مختصر سيرة الرسول ﷺ** للشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب النجدي (ت ١٢٤٢ هـ)، المكتبة السلفية، الروضة، مصر، ١٣٧٩ هـ.

٦٦- **مدارك التنزيل** لحافظ الدين، عبد الله بن أحمد النسفى (ت ٧٠١ هـ).

٦٧- **مروج الذهب ومعادن الجوهر** لأبى الحسن، على بن حسين بن على المسعودي (ت ٣٤٦ هـ)، دار المعرفة، بيروت.

٦٨- **المستدرك على الصحيحين** لأبى عبد الله، محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه المعروف بالحاكم النيسابوري (٣٢١- ٤٠٥ هـ)، دار المعرفة، بيروت.

٦٩- مسند الإمام أحمد للإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (١٦٤- ٢٤١ هـ)، دار الفكر العربي، وبتحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعارف مصر، الطبعة الثالثة.

٧٠- مسند البزار لأبى بكر، أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار (ت ٢٩٢ هـ).

٧١- مسند خليفة بن خياط خليفة بن خياط، المعروف بشباب العصفري (ت ٢٤٠ هـ)،

تحقيق: د/ أكرم ضياء العمري، الشركة المتحدة للتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ).

٧٢- مسند الدارمى للإمام أبى محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام الدارمي (١٨١- ٢٥٥ هـ)، دار إحياء السنة النبوية.

٧٣- مسند أبى داود الطيالسى لأبى داود، سليمان بن داود بن الجارود الفارسي البصرى المعروف بالطيالسى (٢٠٤ هـ)، دار المعرفة، بيروت.

٧٤- مسند أبى يعلى لأبى يعلى، أحمد بن على بن المثنى التميمي (ت ٢١٠- ٣٠٧ هـ)، دار المأمون للتراث، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى.

٧٥- مشكاة المصابيح لولى الدين، محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي (المتوفى في القرن الثامن الهجرى)، المكتبة الرحيمية، ديوبند، الهند.

٧٦- المصنف لابن أبى شيبة لأبى بكر، عبد الله بن محمد بن أبى شيبة العبسى (ت ٢٣٥ هـ)، الدار السلفية، بومبائى، الهند، الطبعة الأولى.

٧٧- المصنف لعبد الرزاق لأبى بكر، عبد الرزاق بن همام الصنعاني (١٢٦- ٢١١ هـ)، المجلس العلمي، جوهانسبرغ، كراتشى، دابهيل، الطبعة الثانية.

٧٨- المعارف لابن قتيبة الدينوري، أبى محمد عبد الله بن مسلم (٢١٣- ٢٧٦ هـ)، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الرابعة.

٧٩- المعجم الأوسط للحافظ أبى القاسم، سليمان بن أحمد الطبراني (٢٦٠-٣٦٠ هـ)، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى.

٨٠- المعجم الصغير أيضا للطبراني، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة ١٤٠٣ هـ.

٨١- معجم البلدان لياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى الرومي البغدادي (ت ٦٢٦ هـ)، دار صادر، بيروت.

٨٢- مغازي الواقدي لمحمد بن عمر بن واقد (ت ٢٠٧ هـ)، تحقيق: مارسدن جونس، عالم الكتب، بيروت.

٨٣- المنمق في أخبار قريش محمد حبيب البغدادي (ت ٢٤٥ هـ)، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى.

٨٤- المواهب اللدنية لشهاب الدين، أبى العباس أحمد بن محمد القسطلانى المصرى (ت ٩٢٣ هـ).

٨٥- موطأ الإمام مالك للإمام مالك بن أنس الأصبحى (ت ٩٣- ١٦٩ هـ)، المكتبة الرحيمية، ديوبند، الهند.

٨٦- نتائج الأفهام في تقويم العرب قبل الإسلام لمحمود باشا الفلكي، تعريب: أحمد زكى أفندى، دار البشائر الإسلامية، بيروت.

٨٧- نسب قريش لأبي عبد الله، المصعب بن عبد الله بن المصعب الزبيرى (١٥٦- ٢٣٦ هـ)، دار المعارف، مصر، الطبعة الثالثة.

٨٨- نسب معد واليمن الكبير لأبى المنذر، هشام بن محمد الكلبى (٢٠٤ هـ)، مكتبة النهضة العربية.

٨٩- نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب لأبى العباس، أحمد بن على القلقشندى (ت ٨٢١ هـ)، تحقيق إبراهيم الأبيارى، مصر، الطبعة الأولى ١٩٥٩ هـ.

٩٠- وفاء الوفاء لنور الدين، على بن أحمد المصرى السمهودي (٨٤٤-٩١١ هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٩١- اليمن عبر التاريخ لأحمد حسين شرف الدين، مطابع البادية، الرياض، الطبعة الثالثة ١٤٠٠ هـ.

تفويض

صفي الرحمن المباركفوري
ص ب : ١٠٠٣٣ ، المدينة المنورة
المملكة العربية السعودية

الرقم
الموضوع ....
التاريخ ١٤٢٠/٢/٣هـ...........

الموافق ١٩/٥/١٩٩٩م

فوضنا نحن الشيخ/ صفي الرحمن المباركفوري (مؤلف كتاب الرحيق المختوم) وصاحب الحق المادي والأدبي الوحيد في مادته العلمية .

السادة/ دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع – بالمنصورة بجمهورية مصر العربية في الحفاظ على حقوق المؤلف والقيام بمتابعة الطبعات غير الشرعية للكتاب قضائياً بموجب هذا التفويض ، واتخاذ الإجراءات القانونية حيال ذلك ، ولهم الحق في تحصيل كافة الحقوق المادية المتعلقة بهذا الأمر .

وهذا تفويض منا بذلك ،،،

المفوض/ الشيخ صفي الرحمن المباركفوري

التوقيع/

الفهرس

الفهرس

الموضوع — الصفحة

مقدمة الناشر ٥
بين يدى الكتاب ٩
كلمة معالى الدكتور عبد الله عمر نصيف ١١
كلمة معالى الشيخ محمد بن علي الحركان - رحمه الله - ١٣
كلمة المؤلف ١٧

العـــــرب

الأرض والشعب، الحكم والاقتصاد، الديانة والاجتماع

موقع العرب وأقوامها ٢١
موقع العرب ٢١
أقوام العرب ٢٢
الحكم والإمارة فى العرب ٣٠
الملك باليمن ٣٠
الملك بالحيرة ٣٢
الملك بالشام ٣٤
الإمارة بالحجاز ٣٥
الحكم فى سائر العرب ٤٠
الحالة السياسية ٤١
ديانات العرب ٤٣
الحالة الدينية ٥٢
صور من المجتمع العربى الجاهلي ٥٤
الحالة الاجتماعية ٥٤
الحالة الاقتصادية ٥٧
الأخلاق ٥٧

النسب والمولد والنشأة

نسب النبى ﷺ وأسرته ٦٣
نسب النبى ﷺ ٦٣
الأسرة النبوية ٦٤

المولد وأربعون عامًا قبل النبوة ٧٠
المولد ٧٠
فى بنى سعد ٧١
شق الصدر ٧٣
إلى أمه الحنون ٧٣
إلى جده العطوف ٧٣
إلى عمه الشفيق ٧٤
يستسقى الغمام بوجهه ٧٤
بَحِيرَى الراهب ٧٤
حرب الفِجَار ٧٥
حلف الفضول ٧٦
حياة الكدح ٧٦
زواجه بخديجة ٧٧
بناء الكعبة وقضية التحكيم ٧٨
السيرة الإجمالية قبل النبوة ٧٩

حياة النبوة و الرسالة والدعوة

النبوة والدعوة والعهد المكي ٨٣
فى ظلال النبوة والرسالة ٨٤
فى غار حراء ٨٤
جبريل ينزل بالوحي ٨٤
فَتْرَة الوحى ٨٦
جبريل ينزل بالوحى مرة ثانية ٨٧
أقسام الوحى ٨٩
المرحلة الأولى من جهاد الدعوة إلى الله ٩١
ثلاث سنوات من الدعوة السرية ٩١
الرعيل الأول ٩١
الصلاة ٩٢
المرحلة الثانية الدعوة جهارًا ٩٤
أول أمر بإظهار الدعوة ٩٤
الدعوة فى الأقربين ٩٤
على جبل الصفا ٩٥
المجلس الاستشارى لكف الحجاج عن استماع الدعوة ٩٧

أساليب شتى لمجابهة الدعوة ٩٨
الاضطهادات ١٠٢
موقف المشركين من رسول الله ﷺ ١٠٦
وفد قريش إلى أبى طالب ١٠٦
قريش يهددون أبا طالب ١٠٦
قريش بين يدى أبى طالب مرة أخرى ١٠٧
اعتداءات على رسول الله ﷺ ١٠٨
دار الأرقم ١١١
الهجرة الأولى إلى الحبشة ١١٢
سجود المشركين مع المسلمين وعودة المهاجرين ١١٣
الهجرة الثانية إلى الحبشة ١١٤
مكيدة قريش بمهاجرى الحبشة ١١٤
الشدة فى التعذيب ومحاولة القضاء على رسول الله ﷺ ١١٦
إسلام حمزة رضي الله عنه ١١٨
إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه ١١٩
ممثل قريش بين يدى الرسول ﷺ ١٢٣
رؤساء قريش يفاوضون رسول الله ﷺ ١٢٤
عزم أبى جهل على قتل رسول الله ﷺ ١٢٥
مساومات وتنازلات ١٢٦
حيرة قريش وتفكيرهم الجاد واتصالهم باليهود ١٢٧
موقف أبى طالب وعشيرته ١٢٨
المقاطعة العامة ١٢٩
ميثاق الظلم والعدوان ١٢٩
ثلاثة أعوام فى شعب أبى طالب ١٢٩
نقض صحيفة الميثاق ١٣٠
آخر وفد قريش إلى أبى طالب ١٣٢
عام الحزن ١٣٤
وفاة أبى طالب ١٣٤
خديجة إلى رحمة الله ١٣٤
تراكم الأحزان ١٣٥
الزواج بسودة رضي الله عنها ١٣٦
عوامل الصبر والثبات ١٣٧

المرحلة الثالثة: دعوة الإسلام خارج مكة ١٤٤
الرسول ﷺ فى الطائف ١٤٤
عرض الإسلام على القبائل والأفراد ١٤٨
القبائل التى عرض عليها الإسلام ١٤٨
المؤمنون من غير أهل مكة ١٤٩
ست نسمات طيبة من أهل يثرب ١٥٢
استطراد - زواج رسول الله ﷺ بعائشة ١٥٤
الإسراء والمعراج بيعة العقبة الأولى ١٦٠
سفير الإسلام فى المدينة ١٦١
النجاح المغتبط ١٦١
بيعة العقبة الثانية ١٦٤
بداية المحادثة وتشريح العباس لخطورة المسئولية ١٦٥
بنود البيعة ١٦٥
التأكيد من خطورة البيعة ١٦٦
عقد البيعة ١٦٧
اثنا عشر نقيبًا ١٦٧
نقباء الخزرج ١٦٧
نقباء الأوس ١٦٨
شيطان يكتشف المعاهدة ١٦٨
استعداد الأنصار لضرب قريش ١٦٩
قريش تقدم الاحتجاج إلى رؤساء يثرب ١٦٩
تأكد الخبر لدى قريش ومطاردة المبايعين ١٦٩
طلائع الهجرة ١٧١
فى دار الندوة «برلمان قريش» ١٧٤
النقاش البرلمانى والإجماع على قرار غاشم بقتل النبى ﷺ ١٧٥
هجرة النبى ﷺ ١٧٧
بين تدبير قريش وتدبير الله سبحانه وتعالى ١٧٧
تطويق منزل الرسول ﷺ ١٧٧
الرسول ﷺ يغادر بيته ١٧٩
من الدار إلى الغار ١٧٩
إذ هما فى الغار ١٨٠
فى الطريق إلى المدينة ١٨٢

النزول بقباء ١٨٦
الدخول فى المدينة ١٨٨

العهد المدني

عهد الدعوة والجهاد والنجـاح

مراحل الدعوة والجهاد فى العهد المدني ١٩٣
سكان المدينة وأحوالهم عند الهجرة ١٩٥
المرحلة الأولى بناء مجتمع جديد ٢٠١
بناء المسجد النبوي ٢٠١
المؤاخاة بين المسلمين ٢٠٢
ميثاق التحالف الإسلامى ٢٠٣
أثر المعنويات فى المجتمع ٢٠٥
معاهدة مع اليهود ٢٠٨
بنود المعاهدة ٢٠٨
الكفاح الدامي ٢١٠
استفزازات قريش واتصالهم بعبد الله بن أبيّ ٢١٠
إعلان عزيمة الصد عن المسجد الحرام ٢١٠
قريش تهدد المهاجرين ٢١١
الإذن بالقتال ٢١٢
الغزوات والسرايا قبل بدر ٢١٣
غزوة بدر الكبرى ٢٢٠
سبب الغزوة ٢٢٠
مبلغ قوة الجيش الإسلامى وتوزيع القيادات ٢٢٠
الجيش الإسلامى يتحرك نحو بدر ٢٢١
النذير فى مكة ٢٢١
أهل مكة يتجهزون للغزو ٢٢٢
قوام الجيش المكي ٢٢٢
مشكلة قبائل بنى بكر ٢٢٢
جيش مكة يتحرك ٢٢٢
العير تفلت ٢٢٣
هَمّ الجيش المكى بالرجوع، ووقوع الانشقاق فيه ٢٢٣
موقف الجيش الإسلامى فى ضيق وحرج ٢٢٣
المجلس الاستشاري ٢٢٤

الجيش الإسلامى يواصل سيره ٢٢٥
الرسول ﷺ يقوم بعملية الاستكشاف ٢٢٥
الحصول على أهم المعلومات عن الجيش المكي ٢٢٦
نزول المطر ٢٢٦
الجيش الإسلامى يسبق إلى أهم المراكز العسكرية ٢٢٧
مقر القيادة ٢٢٧
تعبئة الجيش وقضاء الليل ٢٢٧
الجيش المكى فى عرصة القتال، ووقوع الانشقاق فيه ٢٢٨
الجيشان يتراآن ٢٢٩
ساعة الصفر وأول وقود المعركة ٢٣١
المبارزة ٢٣٢
الهجوم العام ٢٣٢
الرسول ﷺ يناشد ربه ٢٣٢
نزول الملائكة ٢٣٣
الهجوم المضاد ٢٣٣
إبليس ينسحب عن ميدان القتال ٢٣٥
الهزيمة الساحقة ٢٣٥
صمود أبى جهل ٢٣٥
مصرع أبى جهل ٢٣٥
من روائع الإيمان فى هذه المعركة ٢٣٧
قتلى الفريقين ٢٤٠
مكة تتلقى نبأ الهزيمة ٢٤٠
المدينة تتلقى أنباء النصر ٢٤٢
الجيش النبوى يتحرك نحو المدينة ٢٤٣
وفود التهنئة ٢٤٤
قضية الأسارى ٢٤٤
القرآن يتحدث حول موضوع المعركة ٢٤٦
النشاط العسكرى بين بدر وأحد ٢٤٨
غزوة بنى سُلَيم بالكُدْر ٢٤٩
مؤامرة لاغتيال النبى ﷺ ٢٤٩
غزوة بنى قينقاع ٢٥١
نموذج من مكيدة اليهود ٢٥١

بنو قَيْنُقَاع ينقضون العهد ٢٥٢
الحصار ثم التسليم ثم الجلاء ٢٥٣
غزوة السَّوِيق ٢٥٤
غزوة ذى أمر ٢٥٥
قتل كعب بن الأشرف ٢٥٦
غزوة بُحْران ٢٥٩
سرية زيد بن حارثة ٢٥٩
غزوة أحد ٢٦٢
استعداد قريش لمعركة ناقمة ٢٦٢
قوام جيش قريش وقيادته ٢٦٣
جيش مكة يتحرك ٢٦٣
الاستخبارات النبوية تكشف حركة العدو ٢٦٣
استعداد المسلمين للطوارئ ٢٦٤
الجيش المكى إلى أسوار المدينة ٢٦٤
المجلس الاستشارى لأخذ خطة الدفاع ٢٦٤
تكتيب الجيش الإسلامى وخروجه إلى ساحة القتال ٢٦٥
استعراض الجيش ٢٦٦
المبيت بين أحد والمدينة ٢٦٧
تمرد عبد الله بن أبى وأصحابه ٢٦٧
بقية الجيش الإسلامى إلى أحد ٢٦٨
خطة الدفاع ٢٦٨
الرسول ﷺ ينفث روح البسالة فى الجيش ٢٦٩
تعبئة الجيش المكي ٢٧٠
مناورات سياسية من قبل قريش ٢٧٠
جهود نسوة قريش فى التحميس ٢٧١
أول وقود المعركة ٢٧٢
ثقل المعركة حول اللواء وإبادة حملته ٢٧٢
القتال فى بقية النقاط ٢٧٣
مصرع أسد الله حمزة بن عبد المطلب ٢٧٤
السيطرة على الموقف ٢٧٥
من أحضان المرأة إلى مقارعة السيوف والدرقة ٢٧٥
نصيب فصيلة الرماة فى المعركة ٢٧٥

الهزيمة تنزل بالمشركين ٢٧٦
غلطة الرماة الفظيعة........................ ٢٧٦
خالد بن الوليد يقوم بخطة تطويق الجيش الإسلامى ٢٧٧
موقف الرسول الباسل إزاء عمل التطويق ٢٧٧
تبدد المسلمين فى الموقف........................ ٢٧٨
احتدام القتال حول رسول الله........................ ٢٧٩
أحرج ساعة فى حياة الرسول ﷺ........................ ٢٨٠
بداية تجمع الصحابة حول الرسول ﷺ ٢٨٢
تضاعف ضغط المشركين ٢٨٣
البطولات النادرة ٢٨٤
إشاعة مقتل النبى ﷺ وأثره على المعركة ٢٨٥
الرسول ﷺ يواصل المعركة وينقذ الموقف ٢٨٥
مقتل أبى بن خلف........................ ٢٨٦
طلحة ينهض بالنبى ﷺ........................ ٢٨٨
آخر هجوم قام به المشركون ٢٨٨
تشويه الشهداء........................ ٢٨٨
مدى استعداد أبطال المسلمين للقتال حتى نهاية المعركة........................ ٢٨٩
بعد انتهاء الرسول ﷺ إلى الشعب........................ ٢٨٩
شماتة أبى سفيان بعد نهاية المعركة وحديثه مع عمر ٢٩٠
مواعدة التلاقى فى بدر ٢٩١
التثبت من موقف المشركين........................ ٢٩١
تفقد القتلى والجرحى........................ ٢٩١
جمع الشهداء ودفنهم ٢٩٢
الرسول ﷺ يثنى على ربه عز وجل ويدعوه........................ ٢٩٤
الرجوع إلى المدينة، ونوادر الحب والتفاني ٢٩٤
الرسول ﷺ فى المدينة ٢٩٥
قتلى الفريقين........................ ٢٩٥
حالة الطوارئ فى المدينة ٢٩٥
غزوة حمراء الأسد........................ ٢٩٦
القرآن يتحدث حول موضوع المعركة ٢٩٩
الحكم والغايات المحمودة فى هذه الغزوة ٣٠٠
السرايا والبعوث بين أحد والأحزاب ٣٠١

سرية أبى سلمة ٣٠١
بعث عبد الله بن أُنَيس........ ٣٠٢
بعث الرَّجِيع ٣٠٢
مأساة بئر مَعُونة........ ٣٠٣
غزوة بنى النضير........ ٣٠٥
غزوة نجد ٣٠٩
غزوة بدر الثانية........ ٣١٠
غزوة دُوَمة الجندل ٣١١
غزوة الأحزاب ٣١٢
غزوة بنى قريظة ٣٢٣
النشاط العسكرى بعد هذه الغزوة ٣٢٨
مقتل سَلَّام بن أبى الحُقَيْق........ ٣٢٨
سرية محمد بن مسلمة ٣٢٩
غزوة بنى لَحْيَان........ ٣٣٠
متابعة البعوث والسرايا ٣٣٠
غزوة بنى المُصطلق أو غزوة المريسيع ٣٣٣
دور المنافقين قبل غزوة بنى المصطلق........ ٣٣٤
دور المنافقين فى غزوة بنى المصطلق ٣٣٧
١ - قول المنافقين «لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل»........ ٣٣٧
٢ - حديث الإفك ٣٣٨
البعوث والسرايا بعد غزوة المُرَيْسِيع........ ٣٤١
عمرة الحديبية ٣٤٣
سبب عمرة الحديبية........ ٣٤٣
استنفار المسلمين........ ٣٤٣
المسلمون يتحركون إلى مكة ٣٤٣
محاولة قريش صد المسلمين عن البيت........ ٣٤٤
تبديل الطريق ومحاولة اجتناب اللقاء الدامى ٣٤٤
بُدَيْل يتوسط بين رسول الله ﷺ وقريش........ ٣٤٥
رسل قريش........ ٣٤٥
هو الذى كف أيديهم عنكم........ ٣٤٦
عثمان بن عفان سفيرًا إلى قريش........ ٣٤٦
إشاعة مقتل عثمان وبيعة الرضوان ٣٤٧

إبرام الصلح وبنوده ٣٤٧
رد أبى جندل ٣٤٨
النَّحْر والحَلْق للحِلِّ عن العمرة ٣٤٩
الإباء عن رد المهاجرات ٣٤٩
ماذا يتمخض عن بنود المعاهدة؟ ٣٥٠
حزن المسلمين ومناقشة عمر النبى ﷺ ٣٥١
انحلت أزمة المستضعفين ٣٥٢
إسلام أبطال من قريش ٣٥٣
المرحلة الثانية طور جديد ٣٥٤
مكاتبة الملوك والأمراء ٣٥٥
١ - الكتاب إلى النجاشى ملك الحبشة ٥٥٣
٢ - الكتاب إلى المقوقس ملك مصر ٣٥٧
٣ - الكتاب إلى كسرى ملك فارس ٣٥٩
٤ - الكتاب إلى قيصر ملك الروم ٣٦٠
٥ - الكتاب إلى المنذر بن سَاوِى ٣٦٢
٦ - الكتاب إلى هَوْذَة بن على صاحب اليمامة ٣٦٣
٧ - الكتاب إلى الحارث بن أبى شَمِر الغسانى صاحب دمشق ٣٦٣
٨ - الكتاب إلى ملك عُمَان ٣٦٤
النشاط العسكرى بعد صلح الحديبية ٣٦٧
غزوة الغابة أو غزوة ذى قَرَد ٣٦٧
غزوة خيبر ووادى القُرى ٣٦٩
سبب الغزوة ٣٦٩
الخروج إلى خيبر ٣٦٩
عدد الجيش الإسلامى ٣٧٠
اتصال المنافقين باليهود ٣٧٠
الطريق إلى خيبر ٣٧٠
بعض ما وقع فى الطريق ٣٧١
الجيش الإسلامى إلى أسوار خيبر ٣٧٢
حصون خيبر ٣٧٢
معسكر الجيش الإسلامى ٣٧٣
التهيؤ للقتال وبشارة الفتح ٣٧٣
بدء المعركة وفتح حصن ناعم ٣٧٣

فتح حصن الصعب بن معاذ ٣٧٥
فتح قلعة الزبير ٣٧٥
فتح قلعة أبيٍّ ٣٧٦
فتح حصن النِّزَار ٣٧٦
فتح الشطر الثانى من خيبر ٣٧٧
المفاوضة ٣٧٧
قتل ابنى أبى الحقيق لنقض العهد ٣٧٨
قسمة الغنائم ٣٧٨
قدوم جعفر بن أبى طالب والأشعريين ٣٧٩
الزواج بصفية ٣٨٠
أمر الشاة المسمومة ٣٨٠
قتلى الفريقين فى معارك خيبر ٣٨١
فَدَك ٣٨١
وادى القُرَى ٣٨١
تَيْمَاء ٣٨٢
العودة إلى المدينة ٣٨٢
سرية أبَان بن سعيد ٣٨٣
بقية السرايا والغزوات فى السنة السابعة ٣٨٤
غزوة ذات الرِّقَاع ٣٨٤
عمرة القضاء ٣٨٨
معركة مؤتة ٣٩١
سبب المعركة ٣٩١
أمراء الجيش ووصية رسول الله ﷺ إليهم ٣٩١
توديع الجيش الإسلامى وبكاء عبد الله بن رواحة ٣٩٢
تحرك الجيش الإسلامى، ومباغتته حالة رهيبة ٣٩٢
المجلس الاستشارى بمَعَان ٣٩٢
الجيش الإسلامى يتحرك نحو العدو ٣٩٣
بداية القتال، وتناوب القواد ٣٩٣
الراية إلى سيف من سيوف الله ٣٩٤
نهاية المعركة ٣٩٤
قتلى الفريقين ٣٩٥
أثر المعركة ٣٩٥

سرية ذات السَّلاسِل ٣٩٦
سرية أبى قتادة إلى خضرة........................ ٣٩٧
غزوة فتح مكة........................ ٣٩٨
سبب الغزوة........................ ٣٩٨
أبو سفيان يخرج إلى المدينة ليجدد الصلح........................ ٣٩٩
التهيؤ للغزوة ومحاولة الإخفاء........................ ٤٠١
الجيش الإسلامى يتحرك نحو مكة ٤٠٢
الجيش الإسلامى ينزل بمَرِّ الظَّهْرَان ٤٠٣
أبو سفيان بين يدى رسول الله ﷺ........................ ٤٠٣
الجيش الإسلامى يغادر مر الظهران إلى مكة........................ ٤٠٤
قريش تباغت زحف الجيش الإسلامى........................ ٤٠٥
الجيش الإسلامى بذى طُوَى ٤٠٦
الجيش الإسلامى يدخل مكة........................ ٤٠٦
الرسول ﷺ يدخل المسجد الحرام ويطهره من الأصنام........................ ٤٠٧
الرسول ﷺ يصلى فى الكعبة ثم يخطب أمام قريش ٤٠٧
لا تثريب عليكم اليوم........................ ٤٠٨
مفتاح البيت إلى أهله ٤٠٨
بلال يؤذن على الكعبة........................ ٤٠٨
صلاة الفتح أو صلاة الشكر........................ ٤٠٩
إهدار دم رجال من أكابر المجرمين........................ ٤٠٩
إسلام صفوان بن أمية، وفضالة بن عمير........................ ٤١٠
خطبة الرسول ﷺ في اليوم الثانى من الفتح........................ ٤١٠
تخوف الأنصار من بقاء الرسول ﷺ فى مكة........................ ٤١١
أخذ البيعة ٤١١
إقامته ﷺ بمكة وعمله فيها........................ ٤١٢
السرايا والبعوث........................ ٤١٢
المرحلة الثالثة........................ ٤١٥
غزوة حنين........................ ٤١٦
مسير العدو ونزوله بأوطاس ٤١٦
مُجَرِّب الحروب يُغَلِّط رأى القائد........................ ٤١٦
سلاح استكشاف العدو ٤١٧
سلاح استكشاف رسول الله ﷺ........................ ٤١٧

الرسول ﷺ يغادر مكة إلى حنين ٤١٧
الجيش الإسلامى يُباغَت بالرماة والمهاجمين ٤١٨
رجوع المسلمين واحتدام المعركة ٤١٩
انكسار حدة العدو وهزيمته الساحقة ٤١٩
حركة المطاردة ٤٢٠
الغنائم ٤٢٠
غزوة الطائف ٤٢٠
قسمة الغنائم بالجِعْرَانَة ٤٢٢
الأنصار تَجِدُ على رسول الله ﷺ ٤٢٣
قدوم وفد هوازن ٤٢٤
العمرة والانصراف إلى المدينة ٤٢٥
البعوث والسرايا بعد الرجوع من غزوة الفتح ٤٢٦
المصدقون ٤٢٦
السرايا ٤٢٧
غزوة تبوك ٤٣١
سبب الغزوة ٤٣١
الأخبار العامة عن استعداد الرومان وغَسَّان ٤٣٢
الأخبار الخاصة عن استعداد الرومان وغسان ٤٣٣
زيادة خطورة الموقف ٤٣٣
الرسول ﷺ يقرر القيام بإقدام حاسم ٤٣٣
الإعلان بالتهيؤ لقتال الرومان ٤٣٤
المسلمون يتسابقون إلى التجهز للغزو ٤٣٤
الجيش الإسلامى إلى تبوك ٤٣٥
الجيش الإسلامى بتبوك ٤٣٦
الرجوع إلى المدينة ٤٣٧
المُخَلَّفون ٤٣٨
أثر الغزوة ٤٣٩
نزول القرآن حول موضوع الغزوة ٤٣٩
بعض الوقائع المهمة فى هذه السنة ٤٤١
حج أبى بكر رضي الله عنه ٤٤٢
نظرة على الغزوات ٤٤٣

الناس يدخلون فى دين الله أفواجًا ٤٤٦
الوفود ٤٤٦
نجاح الدعوة وأثرها ٤٥٧
حجة الوداع ٤٥٩
آخر البعوث ٤٦٣

آخر باب من الحياة الطيبة

إلى الرفيق الأعلى ٤٦٧
طلائع التوديع ٤٦٧
بداية المرض ٤٦٧
الأسبوع الأخير ٤٦٨
قبل الوفاة بخمسة أيام ٤٦٨
قبل أربعة أيام ٤٦٩
قبل يوم أو يومين ٤٧٠
قبل يوم ٤٧٠
آخر يوم من الحياة ٤٧١
تفاقم الأحزان على الصحابة ٤٧٣
موقف عمر ٤٧٣
التجهيز وتوديع الجسد الشريف إلى الأرض ٤٧٤
البيت النبوي ٤٧٦
الصفات والأخلاق ٤٨٣
جمال الخَلْق ٤٨٣
كمال النفس ومكارم الأخلاق ٤٨٧
ثبت المصادر والمراجع ٤٩٥
الفهرس ٥٠٥